علي مولا

تصدرها الإدارة العامة للثقافة
كتاب
وزارة التعليم العالي

الثورة

تأليف: ليڤيو ديبرينو
ترجمة: محمد إبراهيم زكي
راجعه: مصطفى حبيب

الألف كتاب ٥٨٧

الثورة

باشراف
الادارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب ٥٨٧

الثورة

تاليف

ليفيو ريبريانو

ترجمة

محمد ابراهيم زكي

مراجعة

مصطفى حبيب

الناشر

دار نهضة مصر للطبع والنشر

هذه ترجمة كتاب : The Uprising

تأليف : Liviu Rebreanu

كلمة المترجم

ليفيو ريبرينو هو أحد كتاب رومانيا المعاصرين ، ولد عام ١٨٨٥ فى قرية من قرى ترانسلفانيا، وهى قرية لم يستطع على حد قوله أن يجد لها أثرا على الخريطة .. وهو ينحدر من أسرة من الفلاحين الأحرار ، من ملاك الأرض المتواضعين ، أما أبوه فكان معلما .

وكانت ترانسلفانيا فى ذلك الحين تشكل جزءا من الإمبراطورية النمساوية المجرية ، ومن ثم تلقى الصبى ريبرينو دروسه على ثلاث مراحل : الأولى فى المدرسة الرومانية ، والثانية فى المدرسة الألمانية ، والثالثة فى المدرسة الهنغارية .. ولما حصل على الشهادة الثانوية رحل إلى بودابست بقصد دراسة الطب ... على أنه اضطر ، لضيق موارده ، إلى الالتحاق بمدرسة عسكرية . . فلما تخرج فيها عمل ضابطا بالجيش بضع سنين ، وفى غضون هذه الفترة واصل دراسة الأدب والفلسفة .. وعندما بلغ العشرين من عمره عقد نيته على أن يعكف على الكتابة ، فاعتزل خدمة الجيش ، وعبر جبال الكربات ، واستقر فى بوخارست ، وكان ذلك عام ١٩٠٨ .

وعمل ريبرينو بالصحافة زمنا ، وألف قصصا كثيرة ، كان لها وقع بين الجماهير.. فلما كان عام ١٩١٦ انضمت رومانيا إلى الحلفاء ضد دول وسط أوربا ، فاضطر الرومانيون من أهل ترانسلفانيا أن يخوضوا غمار حرب طاحنة ضد أخوة لهم على الجانب الآخر من جبال الكربات . وكان موقفا عصيبا ، أوحى للكاتب رواية أسماها (غابة العدم) وصور فيها الصراع الذى اعتمل فى نفس أحد ضباط رومانيا فأفضى به إلى الفرار من الجيش .

وتأثر ريبرينو بالتغييرات الاجتماعية التى حدثت فى المدة ما بين سنة ١٩٢٠ —١٩٢٣ ، وشرع فى تأليف رواية « الثورة » عام ١٩٢٠ وأخذ يتجول فى جميع أنحاء رومانيا ، يتبادل الحديث مع الفلاحين ، ويستمع إلى حكاياتهم عن الانتفاضة العنيفة التى شملت رومانيا عام ١٩٠٧ ، والقلاقل التى سببها الفلاحون إذ ذاك ، وبعد ذلك أتيح له أن يفرغ من الرواية عام ١٩٢٣ .

وهذه الرواية التى بين يدى القارئ تدور فى فلكين . أولاهما فى الريف حيث يصف الكاتب السخط الذى أخذ يتزايد شيئا فشيئا فى القرى حتى أذن

بالانفجار ، وثانيهما فى العاصمة بوخارست حيث نرى شاعرا شابا يتنقل لاهيا أحيانا ، جادا أحيانا أخرى ، تعيسا موزع النفس فى معظم الأحوال ، بين دوائر السياسة ومكاتب الصحف وصالونات المجتمع الراق . . وهذا الشاعر تيتو هيرديليا هو الخيط الذى يربط بين مظاهر العاصمة وأحداث الريف . . لقد حضر تيتو هيرديليا ، ابن المعلم بريباس إلى بوخارست يحلم بالمجد والشهرة ، ولكنه لا يلقى أى تقدير . . شأنه شأن ليبرينو نفسه حيث وفد إلى بوخارست . . ويتعرف تيتو على جريجور أيوجا ، ابن النبيل ميرون أيوجا ، وتربطه به صداقة وطيدة . . وتمتلىء نفس الشاب سعادة حين يلبى دعوة النبيل الثرى لزيارة مزرعته فى الريف ، وهناك يصطدم بالحقيقة المروعة لمشكلة الفلاح الحقيقية . . إن النبيل الشاب يمضى مع صديقه عبر القرى والدساكر ، يحدثه على طوال الطريق الممتد من محطة سكة الحديد إلى عزبته فى آمارا عن هذه وتلك من ضياع النبلاء والأشراف ، فلم يملك الشاعر نفسه آخر المطاف من أن يطرح على صاحبه سؤالا ظل يحترق على شفتيه زمنا ، قال « لقد حدثتنى طويلا عن ضياع النبلاء ، ولكن أين هى الأرض التى يملكها الشعب؟ » وأخذت زميله الثرى الدهشة فبغت ، وقال : « الأرض التى يملكها الشعب ؟ . . لقد قلتها . . . هذه هى مشكلة الفلاح . . الأرض !! . . إن الشعب لا يملك منها إلا القليل ، وما كان يملكه منها قد زال وتلاشى . . ولكن تلك لعمرى قصة أخرى » .

وهكذا نصل إلى لب الموضوع . . ونتابع أمام أعيننا صورا متلاحقة تمثل الفقر والبؤس والضرائب التى تثقل كاهل الفلاحين ، والتعذيب الذى يهرى أبدانهم . . ويدب الاستياء ، وينفد الصبر ، وتنطلق مشاعر الغضب من عقالها ، ثم تندلع الثورة . . نسمع بها أخبارا تتردد فى أبهاء الصحف ، ونسمع تعليق أهل المدينة الآمنة اللاهية عليها ، ونراها رأى العين فى صورتها الرهيبة المروعة نيرانا تلتهب فى جميع أنحاء الريف ، لقد هب الفلاحون بعد طول الرقاد يغزون أراضى الأشراف ويسوون حسابهم مع من أذلوهم وعذبوهم سنين طويلة .

ولكن انتصار الفلاحين لا يدوم طويلا . . فقد انطلقت الثورة بطريقة عفوية ، وقامت دون خطة مرسومة . . أو مبادىء موضوعة . . فنرى فى الصفحات الأخيرة من الكتاب كيف دفعت الحكومة — حكومة ملاك الأرض

والأشراف — قوات الجيش لتصطدم مع الفلاحين الثوريين بدعوى العمل على استتباب النظام .. فتقتل منهم أحد عشر ألف فلاح ..

الحق يقال إن رواية ريبرينو التي بين يدي القارئ تعرض صفحة دامية من تاريخ الشعب الروماني في نضاله ضد المستغلين ، سواء أكانوا من أهل البلاد أم ممن وفدوا إليها من حثالات الأجانب . لقد كانت معظم الزراعة في رومانيا قبل أن تنشب الحرب العالمية الأولى ، في يد حفنة صغيرة من الأشراف أو كبار ملاك الأرض . وكان هؤلاء في الأغلب الأعم يتلقون تعليمهم في المدارس الغربية ، ويحيون حياة كلها ترف ورفاهية خارج رومانيا ، تاركين أراضيهم تحت إمرة نظار أغنياء ، يستأجرون منهم آلاف الفدادين ، ويستغلونها لأنفسهم ، ثم ينتهي بهم الأمر آخر المطاف إلى شراء الأرض كلها من أصحابها الأصليين ، أسيادهم السابقين ، ومن ثم نشأت طبقة جديدة من الإقطاعيين الأثرياء ، أو ما سوف نطلق عليهم تجاوزا اسم الملتزمين .. وكان من أثر ذلك كله أن وقع العبء ثقيلا على الكادحين المعذبين في الأرض من الفلاحين .. كان الفلاح محروما شقيا ؛ حرمه طمع الملاك وخسة رجال السياسة الحزبيين من حقوقه كلها تقريبا .. أرأيت إلى ميليفت وهو يبكي ويستجير إذ يرى زوجه طريحة الفراش وليس في مقدوره إسعافها ؟ وإلى محصل الضرائب وهو يقوم بتوقيع الحجز على الخنزير الوحيد الذي لا تملك أسرة إيجنات سيرسل غيره شيئا ؟ وإلى بونجيو رجل الشرطة وهو يضرب الفلاحين بالأيدي والبنادق والأرجل دون ذنب أو جريرة ؟ وإلى ارسيتيد بلاتامونو ، اليوناني وهو يأخذ القروية الحسناء ابنة شيريلابون ، غصبا .

مهما يكن من أمر فلم يكن للفلاحين هم إلا الحلم بتملك الأرض .. لقد تمثلت الأرض في خيالهم الجائع المحروم لقمة ساخنة شهية .. وقاموا ، على ما بهم من خصاصة يقطعون الطرق الطويلة ليصلوا إلى بوخارست ، ويطرقون أبواب الوزارات وأولى الأمر سعيا للمطالبة بضيعة باباروجا ، ولكن الحكام لا يرون في هذا المطلب عدلا ، بل ينظرون إلى الفلاحين على أنهم مجرمين آثمين يريدون أخذ العزبة قسرا .. ويعود الفلاحون أدراجهم ، والخيبة تحف بهم ، واليأس ملء قلوبهم . ويبدأ القوم السذج يتحدثون عن رجال في ثياب بيضاء قد أوفدهم الملك ليبشروا الشعب بتوزيع الأرض عليهم .

وكأنما اتحدت مشاعر الفلاحين جميعا ، وتخمرت ، وشحنت ، ثم انفجرت انفجارا طبيعيا كبركان يقذف بحممه المحرقة على الأرض الطيبة . . ألم أقل لك إنها كانت انتفاضة عفوية دون خطة مرسومة الأمر الذى لم يهيء لها أن تتحول إلى ثورة بالمعنى الحقيقى للكلمة ؟ . نعم ، لم يكن يراود خيال الفلاحين إلا فكرة واحدة هى نزع ملكية كبار الملاك ، وتوزيع الأرض فيما بينهم ، فقاموا يحرقون الدوائر وينهبون المزارع ، ويطردون الاشراف والملتزمين ويقطعون الاسلاك الكهربائية ، ويفصلون بين القرية والمدينة ، ويحسبون بذلك أنهم سيحولون بين عودة أسياد الاضطهاد والاستغلال ، ولكنهم سرعان ما اختلفوا فيما بينهم على توزيع الأرض وغيرها من غنائم .

وبعد ، فالرواية التى بين يدى القارىء هى أكثر من حكاية موضوعية لحوادث تاريخية . . والكاتب يحلل نفسية الشخصيات تحليلا دقيقا ، فيصف لنا نفسية الفلاح الأجير ، ونفسية مالك الأرض الكبير ، والمترفين من رجال السياسة والبيوتات المالية ، كما يصور من خلال ذلك كله الصراع المحتدم بين الطبقتين الاجتماعيتين اللتين ينتمى إليهما أولئك وهؤلاء . . ولعل من أهم خصائص ريبرينو أنه لا يحاول أن يفرض نفسه على القارىء فهو يترك القارىء وشأنه يحكم على هذه الشخصية أو تلك من خلال سلوكها وتصرفها ، وأن القارىء ليحس هذه النظرة المجددة من جانب الكاتب تجاه شتى الشخصيات — يحسها حيال تيتو هيرديليا ، بطل الرواية ويحسها حيال ميرون أيوجا ، الشريف الشيخ الذى آثر الموت على عتبة داره عن أن يستسلم للفلاحين الذين تهجموا على ما ارتآه هو حقا له لا ينازعه فيه أحد ، ويحسها حيال نادينا الزوجة الثرية اللعوب التى تمضى فى الأرض مرحا فتلقى نهاية عادلة لكل مستهترة عابثة ، ويحسها حيال بيتر بيتر والمعلم دراجوس وتودرستريمبو ، وتريفون غوغو ، وغير أولئك وهؤلاء . . هذه الشخصيات كلها ، برغم ما اتسمت به من عنف أو ضعف أو جبن ، تظل تحتفظ بطابعها الإنسانى الصرف ، فى نطاق الأحداث التى تصطبغ بصبغة عالمية ، ومن ثم يجد القارىء نفسه حراً طليقا فى الحكم على هذا كله وفق القيم التى يعتنقها ويدين بها ، وهذا هو ما يجعل من رواية ليفيو ريبرينو درة من عيون الأدب الرومانى .

محمد ابراهيم زكى

« القلق »

الفصل الأول

شروق الشمس

— ١ —

قال إيلي روجوجينارو وهو يتنفس لاهثا : « أنت إذن لا تعرف فلاح رومانيا حق المعرفة ، هذا إذا كنت تتكلم على هذا النحو ... ولعلك علمت ما علمته عنه من الكتب والأحاديث ، وهذا أمر يؤسف له ، لأنك تراه قديسا شهيداً ، وهو فى حقيقته شرير غبي كسول ... »

ومسح الرجل صلعته الوقورَ بمنديل كبير متعدد الألوان ، وفتل شاربه الكث المتهدل حيث أبت عدة شعيرات منه إلا أن تتعانق معا فى ركن من فمه .. وكان روجوجينارو ملتزما[1] يعمل فى ولاية أولينا دولجى ، وكان رجلا بدينا ، له كرش كبير ، ورقبة كرقبة الثور ، ورأس مستدير ، وعينان عسليتان براقتان ، ووجه باسم الثغر ، أو قل هو رجل يكاد كل ما فيه ينضح خفة وجذلا .

وجعل يتفحص رفاق السفر ، وأدرك أنه لم يؤثر فى أحد منهم ، فزفر زفرات أعلى صوتا عن ذى قبل ... وعندئذ تنحنح سيمون مودرينو ، وهو موظف حفيل بلباسه من موظفى وزارة الداخلية ، فقال فى رزانة : « ياسيد روجو جينارو ... ياسيدى العزيز ... هناك شيء واحد لا شك فيه وهو أننا

---

(١) الأصل فى الكلمة هو من يتعهد بأداء قدر من المال لقاء استغلاله أرضا من أراضي الدولة ، وقد آثرنا ان نستخدم هذا اللفظ للدلالة على من يوجب على نفسه اداء قدر من المال لمالك الأرض الأصلى ، فردا كان أم دولة . (المترجم)

جميعا ، ودون استثناء ، نعيش على كد هذا الفلاح ، رغم قولتك فيه إنه شرير وكسول » .

وبغت الملتزم بغتة جعلته لا يقوى على الكلام . . وعاد مرة أخرى يمسح صفحتي وجهه بمنديله ... وفى هذه اللحظة ظهر كمسارى القطار ، وهو يسلك مسلك الأدب الذى لا مناص منه فى معاملة ركاب الدرجة الأولى . . . أما روجوجينارو فطاب نفسا لهذه المقاطعة ، وقال :

« أترانا قد وصلنا فعلا ؟ ... حسن جداً ... لقد قطعنا شوطا لا بأس به » .

قال الكمسارى ، وهو يبتسم للملتزم الفكه ، بينما يتناول التذاكر من الركاب الآخرين . « لقد اجتزنا شيتيلا توا » . وأخرج روجوجينارو قصاصة ورق صفراء من كيس كبير الحجم أشبه ما يكون بالحقيبة ، وناولها للكمسارى بكبرياء ملحوظ : « هاك التذكرة أيها الرجل الطيب ... حقا ، إن على المرء أن يلزم الاقتصاد هذه الأيام ، ولن تنفطر السماء إذا سافر المرء بالمجان دون ثمن » .

ولم يبتسم أحد غير الكمسارى هذه المرة ، وانسحب من الديوان محييا باحترام ... أما الملتزم فقد استبد به القلق ، فأخذ يجمع حقائبه وسلاله ولفائفه التى بعثرها هنا وهناك فى أنحاء الديوان ، ذلك أن رفاق الطريق ما كانوا يملكون من الأمتعة إلا أقلها ... بسط مودرينو حافظته الجلدية الأنيقة على ركبتيه ، مبديا عن عمد البطاقة التى شدت إليها ، أما مفتش الشرطة ، وهو رجل طويل القامة عصبي المظهر ، فما كان يحمل غير سيفه وحافظة أوراق ، وأما الشاب الأسمر صاحب الشارب الإنجليزى الطراز ، فقد وضع حقيبته الصغيرة على الطاولة الصغيرة بجوار الشباك .

وصفر القطار ، وتجشأ دخانا ، كأنه حيوان عجيب التكوين . وأسف موظف الداخلية على أنه تدنى فخاطب هذا الرجل السوقى . . أما مفتش الشرطة فكان يرقب روجوجينارو ، وقد أخذ نفسه فيما أخذ ، بفضول لا يخلو من إعجاب . أما الشاب فقد أخذ يتطلع من النافذة منذ رحيل الكمسارى . . وظهرت مشارف مدينة بوخارست على الأفق . . ومرقت أمام البصر اللافتات التى ألصقت على

أعمدة أو على منازل متباعدة . . وتضاعف عدد الخطوط المتوازية التى تكونت منها القضبان ، واقتربت من بعضها بعضا ، وتشابكت . . واصطكت العجلات فوق المواضع التى تتلاقى عندها القضبان ، وما أكثرها الساعة ، ومرت على نقاط بالدقة التى تتسم بها الآلات . . وظهرت الضواحى القذرة ، بما حوت من منازل متصدعة، وشوارع موحلة ، هذا على نقيض المبانى الفخمة الرائعة التى تتابعت بعد ذلك .

ووضع الملتزم متاعه الثمين على المقاعد الخاوية . . وحمل سلتين خارج الديوان إلى الممشى ، إذ لم يعد هناك متسع لهما بالداخل ، ثم حشر نفسه بعدئذ على حافة مقعد قرب إحدى الحقائب . وما لبث أن استطرد ، يتابع الحديث من حيث وقف ، فقال موجها الخطاب إلى الشاب المتطلع من النافذة :

« كنت أتحدث عن الفلاحين ، وفى وسعكم أن تصدقونى لأن خبرتى بالزراعة وبالفلاحين خبرة عظيمة ، فانا الآن فى التاسعة والخمسين ، وقد ضيعت من عمرى أربعين عاما قضيتها فى الريف بين الفلاحين . . ولقد بدأت من الحضيض ، شأنى شأن الرجال . . ولما بلغت الثلاثين تمكنت من استئجار حيز صغير يزيد على خمسمائة بوجون فى ولاية تيلورمان . . ومنذ ذلك التاريخ مرت بين يدى عدة ضياع أكبر من هذه الضيعة . . ولا أظن أنه يوجد فى والاشيا كثير من الناس ممن يعرفون الفلاحين معرفتى بهم . . ولست أقول إنهم جميعا أشرار — غيرى يقول ذلك كما تعرفون ، ولكنى رجل مسيحى ، والله حرم علينا الكذب ، ومع هذا فأنا أستطيع أن أقسم غير حانث : كان الله فى عونكم لو قضى عليكم يوما ما أن تكونوا فى موقف يتطلب نجدة من فلاح ، فهو لن يرفس الإنسان إلا فى مقتل حيث يبعث على أشد الإيلام ! »

وأدرك أن أحداً لم يعد يصيخ السمع إليه الآن ، حتى ولا المفتش نفسه . . فلما خلف القطار الطريق الرئيسى ، وشرع يتمهل فى المسير ، عاد فتذكر متاعه ،

وقام على قدميه ، ومضى إلى الممشى كى يكون قريبا من باب الخروج ، ومن ثم يضمن الحصول على حمال وعربة . . فلما بلغ الباب التفت ليتبادل مع القوم تحيات الوداع ، ومد يده نحو مودرينو الذى ركب معه القطار من محطة كرايوفا . . لقد خيل إليه أنهما على رأى واحد ، ثم ربما كان فى وسع مودرينو أن يسدى إليه خدمة بالوزارة يوما من الأيام .

ومع أن الملتزم لم يخاطب الشاب الذى ركب القطار من محطة كوستستى إلا قليلا ، وهو الشاب الذى لم يعبأ حتى بأن يعرفهم بنفسه ، فقد رأى روجوجينارو أن من صواب الرأى أن يتعرف على رفاق السفر . . ولهذا قال فى شيء من البساطة : « اسمح لى يا سيدى أن أعرفك بنفسى . . أنا إيلى روجوجينارو . . وإنه ليسعدنى أن ألتقى بك ، وإن كان من الحق أن أقول إننا لم نتبادل إلا أقل كلام . . »

ولم يغمر السرور قلب الشاب ، ولكنه نهض على الرغم منه قليلا ، وهز اليد الممدودة، وقال : « جريجور أيوجا » .

وبهت الملتزم ، ووقف مشدود القامة ، وصاح : « أيوجا ! .. هل قلت أيوجا ؟ .. بربك لا تقل إنك ابن السيد ميرون أيوجا من بلدة آمارا !! »

« بل أنا هو » . قالها الشاب وقد ندت عنه ابتسامة طفيفة لحماس الرجل المتدفق .

« قل شيئاً غير هذا ! . . حسنا ياسيدى ، لقد عرفت السيد ميرون منذ كنت صبياً ؛ وليس من شك عندى فى أننا من سن واحد ، إذا لم يخطئنى التقدير .. نعم ، منذ نحو عشرين عاما كنت أتولى ضيعة لاتبعد إلا بضعة ميال عن بيتكم فى آمارا .. ولكن كيف حال السيد ميرون ؟ أهو فى صحة جيدة ؟ إنه من ملاك الأرض الأشراف والحق يقال » . والتفت فجأة إلى مفتش الشرطة ، وإلى مودرينو ، واستطرد مزهوا : « إنه أحسن الأشراف حقا ، لا من هذا النوع الذى يلتقى المرء به اليوم فى كل لحظة . » ثم عاد وخاطب الشاب وقد استخفه الطرب ، وقال :

أطيب تمنياتى لك أيها الشاب ... ولـكن ها نحن أولاء قـد وصلنا ... أرجو أن تبلغ تحياتى إلى والدك ، إنه رجل بمعنى الـكلمة » .

وصافحه مرة أخرى ، وأمسك بإحدى السلال ، والظاهر أنه كان يؤثرها على غيرها من السلال ، ثم اندفع إلى المشى وهو يتمتم للمفتش عابراً . « الوداع !! . الوداع !! .. » وكان مودرينو ، وقد أمسك بحافظته الصغيرة ، قد بقى ينتظر متلهفا أن يفرغ الملتزم من حديثه حتى يتسنى له أن يمر ... ونظراً لأنه لم يتعرف على أيوجا . فقد أومأ إليه بغير احتفال ، وهرع وراء روجوجينارو الذى تمكن الآن أن يمرق من باب الديوان .

« من هذا الرجل روجوجينارو ؟ ... يبدو أنك سعدت بصحبته ! » قالها مودرينو على مسمع من الملتزم ، لأن ضوضاء القـاطرة تحت سقف المحطة أخمدت الأصوات كلها .

وأجاب روجوجينارو بلهجة ملؤها الاحترام ، كالشأن به حين تحدث مع الشاب أيوجا : « أتسأل من هو ياسيدى ؟ . . إنه سبعة آلاف بوجون ... كلها من الأرض الممتازة ، فى ولاية أرجس ناحية تيلورمان !.. سبعة آلاف ، بوجون ياسيد مودرينو ، سبعة آلاف ، وفلاحون فى غاية البراعة أيضاً ! . . ولو كان أبوك يملك أرضاً مثلها ، لأبى أن يؤجر لك جزءاً منهـــا ، أيا كان الثمن ... سلام عليـكم ، وإلى اللقاء مرة أخرى !.. »

وفتح باب العربة وصاح : « ياحمال !!.. ياحمال !!.. ياحمال .. إلى هنا أيها الغبى !!.. ألا تسمعنى ؟.. أفى أذنيك صمم ؟.. إلام تنظر أيها الأحمق ؟.. ألا ترانى ؟.. هل أنت أعمى ؟.. تعالى هنا ، وخذ هذه !!..

وأخذت الهبـات التى تنفث من القـاطرة تهب على فترات أطول مدى ، كما ازدادت ضعفا . . وفيما بين الهبة والهبة تنـاهت إلى الأسماع أصوات الركاب الوافدين ، وأصوات أولئك الذين ينتظرون . . كانت المحطة كلها تفيض ضوضاء ؛

وبين الفينة والفينة يبرز صوت من الأصوات ، أو ضحكة من الضحكات ، أو بضع كلمات سعيدة ، أو قبلات متبادلة .. وفوق هذا كله تعالت النداءات على الحمالين .. ثم أخذ الركاب يتجهون صوب باب الخروج ، وقد حمل غالبيتهم أمتعتهم بأنفسهم ؛ أما القلة منهم فكانوا يمشون والحمالون وراءهم .. وكان كل واحد فى عجلة من أمره ؛ بل كان منهم من يجرى كأن هناك من يطارده .

وبقى جريجور أيوجا فى مكانه هادئا ، ينتظر حتى يرحل أولئك الذين وقفوا فى الممشى ... ورأى من خلال النافذة مودرينو وهو يدرأ عن حافظته الصغيرة لجاجة الحمالين وإلحاحهم ، ورأى مفتش الشرطة طويل القامة يتلفت حواليه كمن يترقب شخصاً ، ورأى روجوجينارو بمنكبيه العريضين وهما يتأرجحان وراء رجل قمىء حمل نفسه فوق مايطيق من حقائب ولفائف .. على أن الملتزم ما انفك يصدر وابلا من الأوامر والتعليمات بصوت علا على كل ما عداه من أصوات .

وأخيراً عندما خفتت الجلبة ، تدلى الشاب أيوجا ، ووجد لنفسه عربة بمشقة ، وطلب إلى السائق أن يذهب به إلى ستراداا أرجنتارى ... واخترقت العربة أولا كاليا جريفتى ، وهو شارع قذر كثير الضوضاء ، تحف على جانبيه مجموعة من الدكاكين ، وقف أصحابها على أبوابها يحثون المارة على شراء بضائعهم ، حتى ولو لم تكن بهم رغبة .. وكانت عشرات الفنادق والحانات والمقاهى لا تكف عن السعى لتحظى بالمسافرين الذين يتدفقون دون انقطاع من محطة الشمال وذلك لقاء مال كثير لاتقابله إلا خدمة هزيلة . وتجمع على الأرصفة جمهور متعدد الألوان ، ولفيف من المشارقة ، من عمال وكتبة وفلاحين ، يتمشون فى جماعات وكأنهم أغنام وجلة ؛ ومن خادمات فى لباسهن الوطنى المجرى ، وجنود فقراء ، ونسوة تحوطهن الريب قد غالين فى المساحيق ، وتصدين لكل رجل تقع عليه أبصارهن بما فى ذلك الصناع وتلاميذ المدارس فالواحدة منهن تدفع الأخرى ، وتصطدم بهذا أو ذاك من العابرين ، وكنت ترى بائعى البراجا[1] ،

---

(١) انظر الصفحة الأخيرة .

والباعة الجريين الذين ينادون على بضاعتهم بأجراس معـــدنية ، والأتراك باعة الحلوى .

وسارت العربة تصلصل فوق أحجار الزلط ، وجعل جريجور أيوجا ، وقد جزعت نفسه بعض الشيء ، يتفحص هذا النمل البشرى الذى تكونت منه مدينة بوخارست ... لقد كان ينتابه هذا الإحساس كلما عاد من الريف؛ فقد كان الضجيج ، بعد حياة الريف الوادعة ، يهد منه القوى ويبعث فى نفسه الحزن بادئ ذى بدء ، ثم لا يلبث أن يوطن نفسه عليه .

وفى ميدان كولتيا ، قرب شارع سترادا أرجنتارى ، زلق أحد الحصانين .. وبدأ الحوذى فى السباب أول الأمر ، ثم شرع يضربه بالسوط ، ولكن جهوده ضاعت هباء . فاضطر أن يقفز من مقعده ، ويفك اللجام .. ورأى جريجور أن بيته غير بعيد ، فنقد الحوذى أجره ، ومضى فى سبيله .

وكان جريجور يملك هذا البيت الثانى فى ستراداا أرجنتارى ، أو الأصح القول بأنه كان ملكها — أعنى زوجه . وكان الدرابزين المعدنى ، وقد صمم على هيئة شباك يعلوه صف من الحراب المصقولة اللامعة ، بوابة جميلة من الحديد ... وكان أمام البيت حديقة صغيرة كانت محل العناية .. وكانت أحواض الزهر فيها منفصلة بعضها عن بعض ، وقد حفت بحوافيها الأحجار .. وكان المبنى نفسه ، وهو بيت خلوى ، قد بولغ فى زينته ، فكان يجذب انتباه عابر السبيل ، وبخاصة درجات سلمه الرخامية الحمراء التى كانت تحميها سقيفة من الزجاج كانت أشبه ما تكون بمحارة ضخمة براقة .

— ٢ —

لما دخل جريجور أيوجا البوابة لمح رجلا غريبا على رأس الدرج يحدث الخادم .

أما الخادم ، وكان يلبس بزة على شيء من الغرابة (فكرة نادينا !) فقد

خطا نحو سيده محييا . وكان الزائر شابا طويل القـامة ، أشقر الشعر ، والظاهر أنه كان من أهل ترانسلفانيا ، وأنه سبق له أن زار البيت يطلب مقابلة السيد أيوجا . ونزل الغريب الدرج ، واتجه صوب جريجور ... فلما اختفى الخادم حاملا حقيبة سيده ، خلع الغريب قبعته ، وقال فى اضطراب : أنا تيتو هيرديليا.. إنى شاعر ! »

ولم يملك جريجور نفسه فابتسم ابتسامة غامضة جعلت الشاب هيرديليا أشد اضطرابا مما كان .. وكان يلبس ربطة عنق خضراء داكنة مما يلبسه الفنانون ، وكانت موشاة بنقط بيضاء طغت على ياقته العالية المنشاة . ونقل الشاب قبعته إلى يده اليسرى ، وحاول أن يقابل الابتسامة بابتسامة ، ولـكن دون جدوى . وطالت فترة الصمت ، وبدت كأنها قرن من الزمان ، فاستجمع الشاب شجاعته ، ووضع قبعته على رأسه بعناية ، كأنما كان غير واثق من حسن تصرفه ، واستطرد قائلا باضطراب : « معذرة إذ وجدتنى هنا ، ولـكننى جئت بناء على دعوة من السيد جوجو أيونيسكو ، نائب سنجورز ، من أعمال ترانسلفانيا ، فقد طلب إلى الحضور إلى هنا فى مطلع هذا الصيف ، أعنى منذ شهرين » .

وتمتم جريجور ، وقد بدا عليه بعض الاهتمام : «أتقول إنك من ترانسلفانيا ؟»

وبعث هذا السؤال الشجاعة فى نفس الشاب ، فعاد يقول : « نعم ، أنا من ترانسلفانيا ... وفى وسعى أن أقول إننى أمت بصلة قرابة بعيدة إلى السيد أيونيسكو لأن أختى لورا — ولست أدرى إن كنت تعرف ذلك أو لا تعرفه — هى زوجة القس جورج بنتيا من أهالى ساتمار ؛ أما أخت جورج فهى زوج السيد أيونيسكو » .

قال أيوجا وقد زاد اهتمامه ، متناولا يد الشاب يصافحها بحرارة : « أهى زوجه الآن ؟ يسرنى أن أسمع ذلك . . والحق أن أواصر القربى تربطنى بك أيضا ، لأن زوجى هى أخت جوجو أيونيسكو » .

وأومأ تيتو هيرديليا مبتسما . كان يعرف العلاقة التى تربطه بهذا البيت فهو كثيراً ما جاء إلى هذا البيت فى زيارة إلى جوجو أيونيسكو ، وقد علم فى هذه المناسبات بجميع التفاصيل من الخدم ، بل أكثر بكثير مما كان يريد .

وراق جريجور ما اتسم به مظهر الشاب من لطف وبساطة .. وأعجب خاصة بحيائه الذى حاول جاهدا أن يخفيه .. وشعر أنه هو نفسه يحس إحساس الشاب فى المناسبات التى يقع فيها شىء غير منتظر . . فتأبط ذراع هيرديليا كأنه صديق قديم وقال : « أما وقد عرف أحدنا الآخر ، فلنصعد إلى فوق ونتبادل الحديث » .

وتألق تيتو فرحا — وصعدا إلى أعلى الدرج تحت سقيفة الزجاج ، فتوقف جريجور ليوضح له تقسيم البيت حتى لا يظن الشاب أنه مولع بالبدع الهندسية غير المألوفة — كان المبنى يتكون من مسكنين ، أحدهما منفصل عن الآخر كل الانفصال ، ولكن بدلا من أن يكون لكل منهما مدخل خاص على كل جانب ، والواجهة وحدها هى المشتركة بينهما ، كان للمسكنين كليهما مدخل مشترك فى الوسط. وأصر حموه ، عندما أنشأ البيت منذ عشرة أعوام ، على إقامة درج من الرخام النفيس ، تعلوه مظلة كالمظلة التى كان يملكها آل نابابا ، رغم أنه أراد بالقصر ، فيما كان يطلق عليه ، أن يكون مقراً لولديه عندما يتم زواجهما ، فيستقران فيه ، كل منهما فى مسكن منفصل . وغضبت نادينا ، زوج جريجور ، وقالت إن أباها أنشأ هذا البيت كى يستطيع سكانه دائما أن يتجسس كل منهم على الآخر . . . وكان الباب الضخم المصنوع من البلوط ، بحليته المعدنية ، وهو الباب الذى جعل البيت يبدو كلا واحداً ، هو الذى قسمه فى واقع الأمر قسمين ، فنصفه الأيمن يفتح على بيت جوجو أيونيسكو ، أما النصف الذى تركه الخادم مفتوحا ، فقد كان يؤدى إلى شقة نادينا .

وقاد الضيف عبر الردهة صوب الطابق الأول حيث خصص لنفسه غرفة يأوى إليها فى بوخارست حين تكون زوجه بعيدة عن البيت، قال : « لقد رحلت زوجى إلى الخارج منذ ثلاثة شهور ، والبيت كله تفوح منه رائحة كرات العتة ! !. والواقع أننى لا ألجأ إلى بوخارست إلا فى الشتاء ، بل أنا لا أمكث حينذاك الشتاء

كله ، أما بقية العام فأقضيه فى الريف لأنى مضطر إلى ذلك أولا : وثانيا لأنى أشعر براحة أكثر هناك . . أما زوجتى فتكره الريف بقدر ما أكره أنا المدينة ولكن هلا تفضلت بالجلوس . وأرجو أن تأذن لى ونحن نتبادل الحديث فى أن أغير ملابسى ، وأنفض التراب عنى قليلا... عجبا ، لقد بلغت الساعة النصف بعد الواحدة !.. ولدى موعد مع تاجر الغلال فى الثالثة.. وترانى أخشى ألا أجد فسحة من الوقت لأصيب شيئا من الطعام فى أى مكان . . لابد أن أسرع . . »

وأخذ تيتو يسترسل فى كيفية مجيئه إلى بوخارست منذ قرابة أسابيع أربعة ؛ وقد عقد آمالا كباراً على مساعدة جوجو أيونيسكو الذى وعد أن يجد له عملا فى صحيفة من الصحف ، وبهذا يحقق له رغبته فى التأليف .. ولكن لشد ماخاب أمله عندما وجد أن أيونيسكو قد رحل إلى الخارج . بل إن الأمر الأخطر من ذلك هو أنه منذ وصوله قد أنفق أكثر من ثلث ما جاء به من مال قليل ، وهو يخشى أن يجد نفسه مضطراً لأن يصرف بقية المبلغ قبل أن يعثر على عمل ، وبهذا يصبح خالى الوفاض بين قوم أغراب .

قال جريجور ، وكان قد أبدل ملابسه الساعة : « لست أود أن أبدد أحلامك، ولكن نسيبى الطيب ليس بالرجل الذى يعول عليه المرء . . إنه رجل طيب جدا، حسن النية ، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه . . ولكن زوجه إذا ألحت عليه فإنه سوف يصنع شيئا، فهى الشخص الوحيد الذى يملك من الفتنة والمقدرة مايحرك قواه النائمة » .

وانتاب اليأس هيرديليا لحظة . ثم قال وقد تجددت ثقته : « إذن مازالت هناك بارقة أمل أمامى، فقد بدالى أن قريبتى هذه تميل إلى حين التقينا هذا الصيف » .

وابتسم أيوجا وقال : « ما كان ينبغى لها أن تسرف فى ذلك . . فإن جوجو غيور غيرة الرجل التركى ، وهو لابد طاردك من البلد كلها لو طاف به مس من الشك فى. . . »

والواقع أن تيتو قد خال ، فى أحلامه ، أن يأتى اليوم فيرى يوجينيا ، وقد كانت ذات جمال نادر فى نظر بلدة سنجورز ، وقد أغرمت به ، يحدوها إلى ذلك

شعره الذى أصاب شهرة فى هذا الوقت . ولكن أتراه يستغل إعجابها ليظفر بتقدم فى حياته ؟ لقد بدا الأمر له مدعاة للخزى ، بحيث انتابه شحوب بلغ أطراف أذنيه عندما ألم به هذا الخاطر . . ولحظ جريجور اضطرابه ، فأسرع إلى نجدته .

« أنت رجل ساذج ياصديقى .. وإنى لأخشى أن تمتد جذورك هنا ... فأنت ، إذا كنت تريد أن تنجح هذه الأيام ، فلا بد لك من الإقدام والصفاقة . . والرجل الذى يمضى فى حياته تساوره وساوس الفتاة العذراء لامناص من أن تسحقه من البداية أقدام الناس الذين لا تهمهم هذه المشاعر الخيالية فى قليل أو كثير ! » .

ولما استكمل أهبته حمل حافظة أوراقه ، وقال فى لهجة أخرى : « هل تناولت غداءك ؟ »

فتلعثم تيتو ، وقال : « ليس بعد . . . »

« تستطيع أن تأتى معى لو شئت . . . »

وشعر الفتى بالزهو إلى حد بعيد ، ولكنه رغم ذلك قال إنه تعود أن يتناول طعامه مع عائلة من ترانسلفانيا ، وإن القوم سيظلون فى انتظاره ، على جوع ، مدة لايعلم مداها إلا الله ، لأنه لم يخبرهم بأنه لن يحضر ، وهو لهذا يرى لزاما عليه أن يعتذر . . والواقع أن هذا الأمر لم يكن يقلق باله كثيرا ، ولكنه كان شديد الخجل من الذهاب فى صحبة أيوجا إلى أحد المطاعم الكبرى ، وهو فى ملابسه التى كان عليها . . ذلك أنه كان يلبس بذلة كل يوم إبقاء على أحسن بذلة لديه ، إلى أن يقيض الله له أن يشترى بعض الملابس الجديدة . والظاهر أن دعوة جريجور لم تكن إلا مجرد دعوة شكلية ، لأنه لم يتمسك بها ، وإنما استطرد من فوره : « طبعا ، أنا فاهم . . ومع ذلك فأنا أود أن ألتقى بك مرة أخرى . . ما رأيك لو تناولنا العشاء معا هذه الليلة ؟ . . اتفقنا ! . . ستجد أمامك متسعا من الوقت لتخبر أهل بيتك بذلك ، ثم إنى لن أكون مشغولا جدا . . . إذن اتفقنا . . سوف نذهب إلى إيناخ . . أتعرف مكانه ؟ . . إنه فى شارع الأكاديمية .. الساعة الثامنة ! . حسن . »

— ٣ —

أسرع تيتو هيرديليا الخطى على الطوار — وقبعته تميل على إحدى أذنيه ، ووجهه يتألق مرحا .. وتلفت الناس يتطلعون إليه كما يتطلعون إلى ثمل يتطوح . وكان قلبه يدق بعنف ، وظل يردد لنفسه قائلا : « أخيرا . . . الحمد لله . . . إنه رجل رقيق الحاشية . . . وإنك لتستطيع أن تدرك لأول وهلة أنه أحد الأشراف . . وفى اعتقادى أن العناية الإلهية قد لحظتنى عيونها آخر المطاف » .

وقطع على عجل شارع رومانا ، وكاليا فيكتورى ، وفيردى كى يبلغ الحجرة التى استأجرها فى بوزيستى حيث كان يسكن بجوار آل جارفيلاس الذين يتناول معهم وجبات طعامه .

وكان جارفيلاس قد قدم من أمارديا من أعمال ترانسلفانيا ، وظل يعيش فى رومانيا عشرة أعوام . . . وكان أحد أفراد البوليس السرى فى بوخارست ، ويتولى على وجه الخصوص مراجعة قوائم الفنادق . . . وكان زميل دراسة لوالد تيتو الذى يعمل الآن معلما . . . وقرأ ذات صباح فيما قرأ من أسماء الوافدين الجدد ، اسم هيرديليا فى قائمة « الفندق الإنجليزى » ، ولما رأى أن الضيف قد أتى من ترانسلفانيا ، أدرك على وجه اليقين أنه ابن زهاريا . . . وذهب إلى غرفة تيتو على استحياء ، وأيقظه من نومه . ورحب بمقدمه ؛ وعرض عليه صداقته وخدماته حتى ينقذ الصبي ممن يسلخون جلده سلخهم لجلد غيره من الأجانب الذين يحطون الرحال فى هذه المدينة الجديدة المحفوفة بالمخاطر . . . وفى نفس اليوم ، عثر للوافد الجديد على غرفة رخيصة السعر ، ولكنها مناسبة ، وكانت تقع بجوار بيته مباشرة . . ومـا إن حل المساء حتى انتقل الشاب إليها ، واستقر فيها. ثم دعا جارفيلاس الشاب ليتناول طعام العشاء ، وليعرفه بزوجه.. وكانت توجد ساكنة أخرى تقيم بالبيت ، هى الآنسة ماريورا رادوليسكو ، وهى فتاة تناهز الثمانية عشر ربيعا ، وكانت حلوة ، تنبض حياة كأنها طائر غرد . . . وكانت الفتاة تطلب العلم فى مدرسة مهنية . . . ولم يشأ جارفيلاس ، بسببها ، أن يدعو تيتو للسكنى معهم ، أما زوجه ، وهى سيدة قصيرة بدينة ، حمراء الوجه متألقته دوما ، فكان من رأيها أن تأوى فى كنفها الشاب أيضا . . . والسبب أن غرفة ماريورا

تضم سريرين، ولا بأس أن يقيم بها الشابان، فقد كان كلاهما على خلق قويم جدا...
بيد أن السيد جارفيلاس كان على خلاف هذا الرأى ، فقال إن هذا أمر لا يليق ، وإنه قد يطلق الألسنة بالقال والقيل ... ومر يومان ، واشتكى تيتو من الطعام الذى لم يألفه ، فقبلت السيدة جارفيلاس أن يتناول معهم وجبات الطعام لقاء مبلغ معلوم ... وهكذا غدا تيتو يأتى إليهم كل يوم .

ثم جاءت ماريورا فقالت إن معرفتها بالأدب والنحو الرومانى معرفة ضعيفة ، وإنها فى حاجة إلى تدريب.. فتقدم تيتو، وهو الشاب المهذب ، يعرض خدماته ، فسرت صاحبة الدار سروراً شديداً ، لأنها كانت تحب الفتاة حبها لابنتها ، وكانت ترجو مخلصة أن تجتاز امتحاناتها . . . وهكذا بدأت الدروس ، فى المساء نفسه ، فى غرفة تيتو حيث يستتب الهدوء ، فلا يقلقهما أحد . . واستمر الدرس الأول إلى ما بعد منتصف الليل . . وجاء الشاب فى الغد يوضح الأمر للسيدة جارفيلاس ، التى انتابها بعض القلق ، فقال إنه أبقى ماريورا عنده طويلا، لأن الموضوع ، كما ذكرت السيدة الطيبة نفسها ، كان محل إهمال . . أما ماريورا فقد صرحت بأنها لم تحظ بدروس ممتعة مثل هذه الدروس، وإنه يسعدها أن تتدرب على يد تيتو كلما أمكنه ذلك ، وأعربت عن ثقتها بأنها بعد هذا التدريب لابد أن تظفر بالنجاح .

ووجد الشاب الأسرة تحتسى القهوة .

« لقد جئت متأخراً أيها الفتى ، وسنعلق الملاعق حول رقبتك كعادتنا مع المتأخرين . . . » قالها جارفيلاس محييا الشاب ، وهو يجذب ببطء نفسا من سيجارة لفها لتوه بمزيد من العناية .

قالت زوجه وهى تشير إلى ماريورا التى ندت عنها ابتسامة سليطة : « إن اللوم يقع على هذه الشابة التى جعلتنا نأخذ فى الطعام دون أن ننتظرك يا سيد تيتو . . لقد قالت إن الجوع بلغ بها مبلغا جعلها لا تقوى على الانتظار ؛ بل هى تأبى الانتظار ، حتى ولو كان ذلك من أجل أمير ! . . »

واندفع تيتو إلى ماريورا ، وقد غمرته السعادة ، فأخذها بين ذراعيه وقبلها

على فمها وعينيها وخديها حتى اضطرب شعرها كله ، ولفرط فرحته قلب فنجانا من القهوة على مفرش نظيف تملكه السيدة جارفيلاس .

قال جارفيلاس بضيق ، وهو يحاول الحفاظ على فنجانه الذى يتهدده الكسر : « كفاكما ! ... » أما زوجه فتململت، واهتزت أصابعها مضطربة ، كأنما هى تشهد كارثة على وشك الوقوع . . . على أن الفتاة سرت سرورا بالغا .

وهتف تيتو ، وهو يرمى بقبعته على الأريكة كقائد منتصر : « إنه الفوز يا سيد جارفيلاس » .

وقص عليهم لاهثا كيف التقى بجريجور أيوجا ، والموضوعات التى خاضا فيها ، وكيف كاد يتخلف عن غدائه ، ثم الدعوة التى وجهت إليه للعشاء فى مطعم إيناخ ونسى القوم على الفور القهوة التى أريقت ، والمفرش الذى اتسخ ، وتغاضوا عنهما . . وكان جارفيلاس قد عمل لسنين خلت مشرفا على مزرعة فى ولاية فلاسكا حيث جمع بعض المال ، ولهذا كان يكن احتراما عظيما لأصحاب الضياع وملاك الأرض الكبار ، ويرى أنهم هم وحدهم عماد النظام فى رومانيا .. أما غير ذلك فكلها أشياء مشوبة بالنقص والقصور ، وآية ذلك أنه منذ التحق بخدمة البوليس السرى ، أى منذ ثلاثة أعوام ، لم يتأت له أن ينال ترقية ، رغم أهليته لها ، لأنه يعمل بذمة ، ولأنه أكثر تعليما من أقرانه ، ولكنه عديم الحيلة يفتقد الوساطة .

قال بعد لحظة تفكير ، وقد بانت فى عينيه نظرة إعجاب لاتخلو من حسد : « ليتك فقط تستطيع أن تعمل مشرفا فى مزرعته ، ولو لبضع سنين ، إنك إذن تنال رضى الله وتصبح رجلا حقا » ! أما تيتو فقد انكب شرها على طعامه الترانسلفانى ، وكانت السيدة قد أبقته دافئا من أجله .

وكان جارفيلاس قصيرا قصر زوجه ، وكان له شارب كث ، لا يتسق لشدة ضخامته مع وجهه ، وجبهة عميقة الغضون ، وبشرة مشربة بالحمرة ، كأنها بشرة بهلوان فى سيرك .

وخاض القوم فى نقاش طويل عن تطلعات الشاب ، أسهمت فيه السيدة جارفيلاس ، فقصت ذكرياتها عن زوجها وهو يعمل مشرفا فى فلاسكا . وبقيت ماريورا وحدها ساكنة لاتريم ، تمط شفتيها بين الحين والحين لتيتو ، وترسيه بكرات من الخبز ، ولكنه لم يلحظها ، فقد شغلته عنها أمور أكثر أهمية .

وما لبثت الفورة أن خمدت شيئا فشيئا ، فبدأ جارفيلاس يتثاءب ، وكان قد تعود أن يغفو فى الظهيرة ، وأخذ يتمطى ويتنهد ، وأخيرا غلبه النعاس . . . وحملت ماريورا نفسها كارهة إلى المدرسة ــ وشرعت السيدة جارفيلاس فى الغسيل ، أما تيتو فذهب إلى مسكنه يتأهب لعشاء الليلة فى إيناخ .

وكانت غرفته فى البيت المجاور . . وكانت توجد بوابة خشبية متداعية ، تفضى إلى فناء طويل قذر ، قامت على جوانبه غرف صغيرة متعددة ، قد شغلت كلها بالساكنين . أما المسكن القريب من الشارع ، وكان يتكون من غرفتين وردهة فى وسطهما ، فكانت تشغله السيدة إيلينا الكسندريسكو ، وهى سيدة قد تخطت الأربعين ، ولكنها لا تخلو من جمال . وكانت أرملة ضابط ، كانت تقول عنه أحيانا إنه رائد ، وأحيانا إنه مقدم ، ولكنه توفى فى حقيقة الأمر ملازما . وكانت السيدة الكسندريسكو تقطن فى الغرفة الأمامية ، هى والسيدجان أونيسكو وكان شابا خليعا يعمل كاتبا فى وزارة الداخلية . . وكان هناك خوانان للكتب فى الصالة ، يضمان كل كتب الدكتور فاسيل بوبيسكو ، وهو زوج ميمى ابنة السيدة الكسندريسكو . . أما الغرفة الخلفية ، وكان بها شباكان يطلان على الفناء ، فكانت غرفة تيتو ، وكان بها سرير من الحديد ، وحوض للماء ، وطاولة مستديرة وثلاثة كراسى ، ودولاب متداع ، وبعض التحف الصغيرة التى كانت تعتبرها الأسرة مبعث فخر لها . . وعلى مسافة قصيرة فى الفناء كان يسكن إسكافى يهودى ، اسمه مندلسون ، مع أولاده الخمسة ، وكان أكبرهم قد أكمل لتوه الخدمة العسكرية فى المدفعية . . . وكان يوجد كذلك رجل بلغارى صانع فطير ، وكان له دكان فى الحى ، وهناك أيضا حائك له من الأولاد أربعة ، قد ماتت عنه زوجه منذ زمان طويل ، وموظف متقاعد وزوجه الشابة ، وكان يسكن معهما طالب علم .

فلما دخل الشاب الفناء ، خاطبته السيدة الكسندريسكو بمرح ودلال ، فأدرك

من فوره أن جان لابد وأن يكون بالوزارة . . وكان الباب المؤدى إلى الصالة مفتوحا ، وكانت السيدة على مرأى البصر بداخله تتزين ، وقد حملت فى إحدى يديها مسحوق (البدرة) تذروه على وجهها ، وأصبع أحمر الشفاه فى اليد الأخرى .. وكانت تتأود كبيغاء عجوز . .

وقال متأدبا كالعهد به : « مساء الخير ياسيدتى ! » وأخذ المفتاح ، ومضى به إلى غرفته ، وأولجه قفل الباب .

وأجابت السيدة وقد سرها أن تحظى بهذا الساكن المهذب : « طاب صباحك أيها الشاب » ، وقالتها بالفرنسية . ثم أردفت فى صوت أجش : « علام العجلة يافتى ؟ . . اقترب منى ، فأنا لا أعض » وواصلت تزينها ، على حين فتح تيتو باب غرفته ، وألق بقبعته بداخلها على الطاولة .

قالت السيدة : « أنا وحدى الآن . . وقد ذهب عزيزى جينيتسا إلى الوزارة تعال هنا ، ولا تقلق بالك ! . . فليس جينيتسا بالرجل الغيور ، وإن كان بى ولهانا » ولحظت فجأة أن السرير على وضع مضطرب ، فأسرعت ترتب أمره ، ثم تمتمت وهى هاشة باشة : « أرأيت إلى شقاوتكم أيها الرجال ؟ . . » ليس لأحد حيلة إزاءكم . . . »

وارتبك تيتو ، وطرق بابا آخر للحديث فقال إنه قد يتأخر هذا المساء ، لأنه على موعد مع أحد السادة فى إينانخ .

فهتفت السيدة الكسندريسكو وهى تتنهد : « أتقول فى إينانخ .. ياللروعة ! لم يتح لى الذهاب هناك منذ مات زوجى ، رحمة الله عليه » .

وانطلقت تكيل المديح لماك المسكين ، الذى توفى وهو فى ريعان الشباب ، ثم ذهبت أبعد من ذلك فأطلعت تيتو على صورته كى تبرهن له على مدى وسامته . . واستطردت قائلة إنها ما كانت لتتمكن من الحصول على زوج لابنتها ميمى لولا أنها حرصت على عدم المساس ببائنتها ، وإنها لو غفلت لحظة عن تخطى الصعاب التى واجهتها لما كان فى وسعها أن تفعل ذلك . . وأخذت ، بعد أن

استكملت زينتها ، تقص تفاصيل جميع المشاحنات التى شجرت بين جينيتسا ووالديه بسببها . قالت إن والديه كانا على ثراء ، ولكن ثمة أفكار رجعية تساورهما عن بعض الأمور ، فقد رفضا أول الأمر رفضاً باتاً أن يسمحا لابنهما بالعيش معها . . والواقع أنهما حاولا جهدهما أن يفرضا عليه الزواج من امرأة قبيحة الشكل رأيا فيها زوجة صالحة له .. ولكن جينيتسا ، على طيبة قلبه ، كان حازما صارما ، فصرح بلا مواربة بأنه يؤثر أن يخاصم عائلته على أن يفترق عن حبيبته ، فهى فضلا عن جمالها ترعاه كل الرعاية ، وتخلص له الإخلاص كله . . ولهذا ، فيما قالت ، اضطر الوالدان أن يرضخا ، وأصبح أربعتهم الآن على مودة ووفاق . . والواقع أنه قد حدث ، وما زال يوجد ، شقاق بينها وبين زوج ابنتها بسبب جينيتسا . . أما ميمى ، فلا رأى لها . لأنها تعلم ما قاسته أمها ، وتعلم مدى التضحيات التى بذلتها ، وتشعر أن من حقها أن تحيا حياتها الخاصة ، الآن على الأقل ، أما زوج ابنتها فهو قروى جلف ، ينظر إلى الأمور نظرة ترجع إلى عام ١٨٤٨ ، وقال صراحة إنه لن يطأ عتبة بيتها ما لم تنصرف عن العيش مع جينيتسا ، لأنه يأبى أن يضع نفسه موضعاً يضطر فيه إلى لقاء «ديوث» تعوله امرأة ... أيقول «ديوث» ؟ ... *ياللسخف !! ألا يعمل جينيتسا كاتبا ويتكسب عيشه ؟... بل إن* زوج ميمى حاول أن يحول دون ميمى وزيارة أمها ، والابنة لهذا تلتقى بأمها خفية — عندما تفد إلى بوخارست — أمها التى حملت بها وربتها ! !

وتأوهت السيدة الكسندريسكو وقد غلبتها العاطفة : « رباه ! ! إن على المرء أن يدفع ثمنا غاليا نظير هذا القدر القليل من السعادة التى يتخطفها » .

ولم يعرف الشاب كيف يستجيب لهذه الاعترافات الخصوصية ، لاسيما عندما اتجهت هذه الوجهة الحزينة . . فنهض فى تؤدة ، وجعل يكد ذهنه عن عبارة يواسيها بها ، ولكن السيدة الكسندريسكو استعادت بشاشتها دون عون منه ، وأخذت تقرظ جمال ابنتها وذكاءها وفتنتها ، وتعد تيتو بأن تعرفه بها حتى يرى بنفسه على أى قدر من الحلاوة هى ... ولو ترك الشاب السيدة وشأنها لواصلت الثرثرة طوال المساء كله ، وهى سعيدة كل السعادة . . والحق أنها كذلك فعلت فى مناسبات أخرى . . ولكن تيتو كان حريصا على موعده ، وهو موعد قد يكون نقطة

تحول فى حياته . . وعندما أخذ يقلب فكره فى طريقة ينسحب بها دون أن يخدش مشاعر السيدة ، سمع صوتا يصيح فى الفناء . « السيد تيتو هيرديليا ! » وتناهت إليه على الفور عدة أصوات تجاوب على النداء . « قدام !! قدام !! » .

*

« إنه ساعى البريد . » قالتها السيدة الكسندريسكو تطوعا . . وظهر الساعى وبعد أن قطع خطوات ثلاث فى الصالة ، سلمه خطابا من مسقط رأسه . . . واستأذن تيتو السيدة ، ودخل غرفته ، وقد جاشت عواطفه فجأة . كان هذا أول خطاب يصل إليه منذ أن قدم إلى بوخارست . . وفض المظروف مرتعدا ، والتهم صفحاته الست التى خطتها أمه بحروف دقيقة ، وبأسلوبها المتدين ، والتى نثرت فيها النصائح والإرشادات « لولدها العزيز النائى . » وحدثته والدته عن كل ما حدث فى آمارديا من يوم رحيله — من وفاة أيون جلانتياسو إلى خطبة أخته غيغينا إلى زجارينو ، المعلم بالمدرسة . . قالت : « وإن يعقد الزواج قبل عيد الميلاد ، حتى يتهيأ لنا أن نعد لكل شىء عدته . . وسوف نعطى لهما البيت الكائن فى بريباس . حتى تدب فيه الحياة مرة أخرى ، وربما عاد عليهما هذا البيت بالحظ السعيد ، كما كان شأنه معنا . . وسوف يسعدنا أن تحضر حفل القران ، فإن أختك تواصل البكاء لأنها تحسب أنك لن تحضر . . ولكن واجبك أن تهتم بمستقبلك ، وعليك ألا تدخر أى جهد ، وأن تتمسك بالإيمان بالله ، فالله لن يتخلى عن المؤمنين الصالحين . . . . وعليك بالصبر يابنى ، فنحن نعلم أن الحياة ليست كلها شهدا فى رومانيا أيضا ، ولكن من واجب الرجل ألا يستسلم لليأس ، بل عليه أن يواصل الكفاح ، ويتغلب على كل العقبات حتى يقيض له النجاح بإذن الله . . هذا وسوف يبدأ الطقس البارد بعد قليل ، ثم يقبل الشتاء ، وأنا لست واثقة أنك أخذت كفايتك من الملابس الشتوية . . فاحرص على أن تشترى بعضها عندما تقبض أول مبلغ ، أما لو كانت الملابس غالية جداً ، فارسل بعض المال إلينا ، وسوف نطلب نحن إلى سترولوفيتش أن يصنع لك شيئا ، وهو كما علمت ، حائك ماهر لا يتقاضى الكثير » .

وكتبت إليه أخته غيغى ، على بطاقة ، تقول إنها لن تعقد قرانها . مهما قال أبواها ، إذا لم يحضر إليهم ، ثم استطردت فقالت إنها سوف تذهب إلى حفل

الرقص الذى يقيمه الطلاب ، ولكنها فى حيرة من أمر الثوب الذى ينبغى أن تلبسه ، فهى تتمنى أن يكون لها ثوب جديد ، وخاصة لأنها مخطوبة ، وسوف تتطلع إليها العيون ».

وفى بطاقة أخرى كتب هيرديليا الأب لابنه يحثه على الكتابة إلى صحيفة « تريبونا بستريتى » كما وعد قبيل رحيله ، فإن المحرر مازال يترقب تقريره عن احتفالات استرا . ثم هو يرجوه أن يرسل بعض الجرائد حتى يتسنى للقوم فى موطنه أن يطلعوا على الجرائد الرومانية الأصيلة ؛ أما لو أتيح له أن ينشر بعض المقالات فليرسلها كذلك ، كى يطلع كل إنسان على مايعمله هيرديليا الابن فى رومانيا .

وقرأ تيتو الخطاب مرات ومرات .. كأنما كان يريد أن يحفظه عن ظهر قلب ... وشعر أنه بمسقط رأسه مرة أخرى فى ترانسلفانيا — فى هذا العالم الذى تتردد فيه كل صغيرة ، مهما تفهت ، فيرن صداها فى كيانه كله .. حقا ما أعذب الذكريات ! . وغلبه الحنين إلى الوطن ، وأراد أن يرد على الخطاب من فوره ، كأنما كان هذا هو الطريق الوحيد الذى ينفس به عن ذات نفسه .. وكانت مكتبته على المائدة — أعنى الكتب القليلة التى أتى بها من بلدته — علاوة على عدة دفاتر خط فيها شذرات من الشعر ، وحبر وأقلام ... ولكن لم يكن ثمة ورق للكتابة .. وهو إذ يحاول أن يلتمس شيئًا من الورق ، خطر له أيوجا ، فعاد إلى دنيا الواقع ، وقرر أن يؤجل الرد على الخطاب حتى يكون فى مقدوره أن يكتب شيئًا ذا بال .

وفجأة دقت الساعة السادسة .. لقد حلت لحظة الاستعداد ، وما أخطرها .. لقد كان عليه أن يعنى ببعض الأمور الصغيرة ، فيصلح من هذا الشىء أو ذاك ، ويجلو حذاءه ، وينفض التراب عن بذلته السوداء — وهى بذلة لم يلبسها إلا قليلا ، فهى لذلك خليقة بأن يرتديها فى محضر الملوك والأمراء .. ورأى أن يحافظ على موعده بكل دقة ، فالرجل يعرف بحرصه على موعده وبأنه ليؤثر أن ينتظر هو بضع دقائق عن أن يجعل الغير ينتظرونه .

— ٤ —

قال جريجور أيوجا مبتسما وهو يصافحه : « لقد تأخرت ياصديق . . والتأخير شيمة أهل بوخارست . . ولكن تفضل هنا إلى جانبي . . نحن لم ننتظرك لأننا كنا جوعى . . . »

وأخذ الساقى قبعة تيتو ومعطفه . . أما هو فقد تردد ، وهو على هذا الحال من الاضطراب ! هل يقول الصدق ؟ ، أو يترك أيوجا يعتقد أنه قد جاء متأخرا فى الحقيقة . . على أنه وجد نفسه يقول فى صوت مرتج خفيض : « لكنى كنت هنا قبل وقت طويل ، بل إننى دخلت المطعم مرة ، ثم عدت أتمشى جيئة وذهابا أمام الباب لأكون فى انتظارك . . . ولست أدرى كيف فاتنى أن أراك وأنت تدخل ! »

قال جريجور فى لطف : « دعك من الاعتذار . . نحن أيضا جئنا متأخرين ربع الساعة . . هكذا شأننا ، نحن أهل رومانيا . . ولكن دعنى أقدمك » .

وعرفه بزميليه . . كان أحدهما بالولينو المحامى ، وكان لا يكبر أيوجا سنا فى واقع الأمر ، إلا أنه شحيم لحيم . . وكانت له لحية صغيرة ، بنية اللون ، مدببة ، وكان شعر رأسه مشطا بحيث يخفى ببراعة بشائر الصلع الأولى . . وكانت عيناه الزرقاوان الداكنتان تبرقان ذكاء وخبثا . . وكان أكولا أكثر منهما ، ومع ذلك فقد كان يشكو من الانتفاخ إذا شرب ، ولكنه ما كان يستطيع أن يمسك عنه ، رغم تحذير الأطباء له بأنه ينزع إلى البدانة . وكانت السياسة هوايته المحببة إلى نفسه ، فكان عندما يتولى حزبه مقاليد الأمور يعين نائبا ، ويتولى منصبا رئيسيا فى يالوميتا ، حيث كان يملك ضيعة صغيرة قوامها نحو ستمائة بوجون . . وكان عملاؤه المتقاضون ، على قلتهم ، ممن لهم وزن ، فوفروا له دخلا مريحا ، ومن ثم اشتهر بأنه محام ضليع ، ولكنه فى الحقيقة ما كان يؤم المحاكم إلا نادرا . بل تراه ينظر بعين الاحتقار إلى زملائه المحامين ، ويرميهم بأنهم « ندابون نواحون » والحق أنه قد شق طريقه إلى وزارة العدل ، لأنه من رجال السياسة الذين يتقلبون على الحكم بين آن وآن ، ولأنه تمكن من أداء بعض الخدمات لما له من نفوذ لدى أهل السلطان .

أما الضيف الثانى فكان كونستنتين دوميسكو ، مدير بنك رومانيا ، وهو رجل حليق ، يضع على عينيه نظارات ذهبية الحوافى ، وذو شعر فى لون الرمل لابريق له ، ومنكبين مائلين قليلا ، كأنما كان بالرجل الفارع الطول . . وكان عزبا لايميل إلى الكلام ، وصديقا مخلصا لوالد جريجور .

واستقبل الرجلان تيتو بغير احتفال ، كأنما قد تطفل عليهما . . فلما تم التعارف ، انهمك الشاب فى دراسة قائمة الطعام مهتاج الأعصاب ، فهو لم يتعرف بعد على صنوف الطعام فى رومانيا ، وما كانت أسماء الأطباق تعنى بالنسبة إليه شيئا . . وكان هو ، بالإضافة إلى ذلك ، يصب جام السخط على نفسه ، لأنه لم يشهد أيوجا ساعة وصوله . . وربما ظن جريجور أنه رجل لا يفى بوعده ، بينما هوفى الحقيقة قد حضر قبل الموعد بنصف الساعة ، لا لشىء إلا ليتجنب هذا الموقف ، غير أنه لم يجرؤ على دخول المطعم ويحتل مائدة لنفسه .

وبعد فترة صمت ، واصل بالولينو الحديث الذى انقطع عند دخول الشاب فقال فى تعال : « كنت أقول ياعزيزى جريجوريتسا إن مشكلة الفلاح لايمكن حلها دون تضحيات من جانب ملاك الأرض . . هذا شىء لاجدال فيه . . أما ماعدا ذلك فهى حلول ثانوية ، لاتعدو كونها مجرد مسكنات وقتية . . إن الفلاح يريد الأرض ... هذا مؤكد . . وهذا هو كل مايعرفه ، وكل مايرغب فيه » .

ورد أيوجا بهدوء ، وإن ومضت عيناه ومضة دلت على شدة اهتمامه بالموضوع قال : « يؤسفنى أن أختلف معك فى الرأى ياألكسندرو ، ولكن الموضوع ، بالطريقة التى عرضته بها ، لا يزيد على كونه دعاية انتخابية ، أو مجرد شعار رخيص هو من الخطورة بمكان . . إذ من السهل جدا أن تحرك شهوة الناس إلى الطعام ، ولكن الأصعب من ذلك هو أن تشبع هذه الشهوة . . ثم كيف لك أن تقنعنى ، أنا صاحب الأرض ، بأن أعطى الفلاحين الأرض التى عملت فيها أنا وأجدادى على مدى الأجيال ، هذا على حين أنك أنت تشترى الضياع فى نفس الوقت و . . . »

وقاطعه المحامى وقد أحس ببعض الضيق . « رويدك لحظة ، ولنعالج هذه النقاط أولا . . من الواجب قبل كل شىء أن تدرك أننا لا ننظر إلى الموضوع

من وجهة نظر شخصية . . إنما أنا عندما تكلمت ، تكلمت من وجهة عامة ، متجاهلا أنك من كبار ملاك الأرض، وإننى أنا أعمل بالسياسة . فنحن قبل كل شيء قوم نحيط بمشكلة الفلاح، سواء من الكتب أو عن طريق الخبرة الشخصية. ونحن نهتم بها ، كما يهتم بها كل إنسان ؛ لأن على حل هذه المشكلة يتوقف مصيرنا نحن ، بل ومصير بلدنا . أليس كذلك ؟ هذا إذن نقاش موضوعي ، وأنا واثق أن الأمر لو استدعى تضحيات لوجب عليك ، وعلى أبيك السيد ميرون ، أن تكونا أول من يضحى بها » .

فصاح جريجور : « لقد جانبك الصواب هنا ياسيدى العزيز . . . فأبى لن يقبل قط أن يتخلى عن ضيعته . . إنه مرتبط بها بحكم الكفاح الماضى ، وبحكم كبريائه سواء بسواء . . فالأرض بالنسبة إليه تعنى الحياة نفسها ، شأنها بالنسبة للفلاحين . . وإنك لتعلم هذا كل العلم لأنك عشت فى ضيعتنا ، وتفهم الوضع حق الفهم . . وأنا أيضا ، وإن لم أكن على مثل عناده ، أرفض أن أتخلى عن أرضى . ذلك لأن هذه الأرض لن تذهب إلى الفلاحين ، والفلاحون لايسألون الناس إحسانا على أية حال ، وإنما سوف تذهب الأرض إلى متزعمى الشعب فى المدن ، أولئك الذين لا هم لهم إلا الانتخابات . وهذا هو السبب الذى يجعلهم يدسون خلسة بعض النظريات التى ينكرها المسئولون ، والتى حتى مثيرو الفتن أنفسهم يأبون وضعها موضع التنفيذ » .

« إن معنا أحد المحافظين » . قالها بالولينو مبتسما وهو يوجه الخطاب لدوميسكو ، ثم تحول مرة أخرى إلى أيوجا ، وقال : « ولكن مهلا يابنى العزيز . . . دعنا نسوى هذا الأمر ، لأنك زججت باسمى فى الموضوع . . هل تحسب أن قطعة الأرض الصغيرة التى كسبتها بعرق الجبين على مدى عشر سنوات ، والتى أنا مدين الآن بسببها ، هل تحسب أن بضعة المئات من البوجونات التى أملكها هى التى ستحل الإشكال ؟ . . ومع ذلك فأنا أقسم بكل مؤثمة من الأيمان أننى مستعد ، رغم أنى رجل فقير ، أن أتنازل عن هذه القطعة من الأرض . دون أى اعتراض من جانبي ! . ألا يكفيك هذا ؟ . . هل أنا واضح فى كلامى » ؟

فرد أيوجا وهو يبرز كل كلمة باحتقار : « فى وسعك بطبيعة الحال أن تعطى الأرض للملتزم ، لأنك بمجرد أن اشتريت الأرض أجرتها للملتزم . »

فأجاب بالولينو ساخرا ، وقد آذاه وأدهشه أن يأتى شخص ، وبخاصة صديق حميم ، فيرتّى له ، وهو المحامى الجليل ، والشخصية السياسية المرموقة ، أن يدفن نفسه فى الريف ، قال : « لاشك ياصديقى العزيز ، إنك لا تقصد القول بأن من واجبى أن أتخلى عن عملى ، وهو عمل أتقنه على أية حال ، وأن أحترف الزراعة بدلا عنه . »

« بل أنا أقصد ذلك ، هذا إذا كنت تريد أن تمتلك أرضا ! . . فالرجل الذى يمتلك الأرض ، عليه أن يعمل فيها ، وأن يحبها ، وإلا تعين عليه أن يتخلى عنها . أما أنت ياسيدى العزيز ، فقد أخذت الضيعة غصبا من الفلاحين الذين كانوا يريدون شراءها وتقسيمها فيما بينهم ؛ فذهبت إلى الضيعة ، ونحيتهم جانبا ، ثم جئت بعد ثلاثة أيام فأرسلت إليهم ملتزما يمتصر المال منها لأجلك ولنفسه . . فأنت من جهة ، تمنع الفلاح من شراء الأرض حين تتاح له الفرصة ، وأنت ، من جهة أخرى ، تطلب إلى ، أنا الذى يتفصد عرقا بجانب الفلاحين ، أن أتخلى عن ضيعتى ، وأن أرمى بها كما أرمى بقفاز قديم ! »

قال المحامى استرضاء له : « ولكن ياعزيزى جريجوريتسا ، لا تنسى أن هناك قلة قليلة من ملاك الأرض أمثالك . أما الغالبية العظمى منهم فقد انقطعت صلتها بالأرض منذ عهد طويل . . وكل إجراء عام يجب أن يأخذ فى الحسبان الحالات الغالبة ، لا الحالات النادرة القليلة » .

« إذن لم لا تتخذون أولا إجراءات ضد أولئك الذين يستنكفون من الأرض ويتباعدون عنها ؟ . لماذا يقتصر تفكيركم على تحطيم الطبقة الاجتماعية التى تمثل الثروة الرئيسية فى البلد ، ولعلها أشد الطبقات إخلاصا ؛ صحيح أن كثيرا من ملاك الأرض لم يعودوا يستوطنون الريف . بل ومن الصعب على بعضهم أن يعيش فى القرية ، لأنهم يعتبرون الفلاحة أمراً مشيناً لكرامتهم؛ وليست الفلاحة وحدها ، بل العمل على وجه العموم . وهم يؤثرون أن يكدسوا الأموال ، ويبذرونها على حفلات اللهو . . هؤلاء حل محلهم الملتزمون الذين يعتصرون قسطا لصاحب الأرض ، وقسطا آخر ، أثقل وزنا ، لأنفسهم . . ولهذا كان من الطبيعى أن يشكو الفلاحون ، وأن يثوروا ، وأن يهددوا بالويل والثبور ، خفية أو جهرا . . .

أما أنا ، أنا صاحب الأرض ، أنا الذى أكد وأكدح ، فلا أتمكن من كسب رزق إلا بمشقة ، على حين أن جارى الملتزم يؤدى عشرات الآلاف من القطع الذهبية للمالك ، ثم هو لاينسى أن يملأ جيوبه منها كذلك .. من أين تأتى هذه الأموال كلها ؟ . أهى من الملتزم، أم هى من عرق الفلاح ؟ . ما رأيك يا كوستيكا؟» قالها جريجور موجها الخطاب لدوميسكو : « قل لى بربك ، أليس الأمر كذلك ؟»

وأخذ مدير المصرف يطالع طبق الطعام أمامه فى عصبية ، فكلاهما كان يتكلم بصوت جهير جعل الجالسين على الموائد المجاورة يرمقونهم بأبصارهم . وأخذه السؤال على غرة فهو لم يكن يتابع النقاش إلا من بعيد .. وبالنسبة إليه ، وهو رجل الأرقام ، كان الجدل الذى يجرى على المائدة نوعا من العبث ، بل ومن السخف . . . والمشكلات الخطيرة لا تحل والقوم يحتسون هذا النوع أو ذاك من الخمور ، بل هى على العكس تزداد تعقيدا . . . على أنه قبل أن يشرع فى الإجابة ، ارتفع صوت مألوف من المائدة المجاورة ، قال :

« معذرة لتدخلى فى الحديث . . . . »

وتطلعوا حواليهم ، وقد أدهشهم أن يأتى غريب ، فيقطع عليهم حبل الحديث .

« أنا إيلى روجوجينارو . . . لقد كان من حظى أن ألتقى بك فى القطار اليوم يا سيد أيوجا ...»

كان الملتزم جالسا وحده .. وكان قد حضر إلى المطعم بعدهم ، واستمع بطريق الصدفة إلى مادار بينهم من حديث واقترب الرجل بكرسيه قليلا ، وواصل الكلام ، لايهزه ما اعتراهم من دهشة ، كأنما هو قد عرفهم جميعا منذ أبد الآبدين ... قال: «أما وقد تناول السيد أيوجا الملتزمين بالقال والقيل .. ولست أقول ذلك لأننى واحد منهم ، ولكنى أعتقد أن السيد على خطأ إذ تكلم بسوء عن أناس لا يستحقون ما قال فيهم . . . أنا أرجو المعذرة ياسيدى إن كنت أختلف معك فى الرأى . والحق أقول إن الملتزمين ليسوا بنكبة حلت بهذا البلد كما قلت ، أو كما تكتب الجرائد .. لا ، لا .. إن على الملتزم أن يشتغل ثلاثة أضعاف ما يشتغل صاحب الأرض، وذلك حتى يتهيأ له أن يحصل على الإيجار الواجب الأداء ، بالإضافة إلى بعض

الدخل له . والفلاح لا يؤدى من أجل الملتزم عملا أكثر مما يؤديه للشريف مالك الأرض، ولا هو يؤدى ذلك نظير مال أقل ، بل الفلاح على العكس قد يطمع فى الملتزم أكثر ... وليصدقنا السيد أيوجا القول : هل العقود التى تتم مع الملتزم المجاور لآمارا أثقل وطأة على الفلاحين من العقود التي يتفق عليها فى ضياعه الخاصة ؟ أم تراهـا أخف ؟ إن الملتزم تدفعه الضرورة ، وإنه ليعمل على الادخار ، وهو يزرع أرضاً أكثر اتساعا مما يزرع مالك الأرض ، وهو يعمل فى مناطق كانت فيما سبق بورا مهملة ، وهو يستجلب الآلات ، ويرفع من مستوى الغلة الزراعية . . أليس لهذا كله وزن ؟ . نعم يوجد بطبيعة الحال ملتزمون يضطهدون الفلاح ، ويحتلبونه ، تماما كما يوجد ملاك غلاظ الأكباد ، ولكن إن ندن هؤلاء جميعا ، جملة ، ودون أن نأخذ فى الاعتبـار الظروف والأحوال فأمر لا يتسم بالعدل ، بل ولا هو بالمستصوب » .

وضاق جريجور من مقاطعة الملتزم غير المهذبة فقـال بازدراء ظاهر : « قد يكون قولك صحيحا ياسيدى، ولكن لو لم يتدخل الملتزمون بين الملاك والفلاحين لما كانت هناك مشكلة للفلاحين فى رومانيـا اليوم ... فإن وجود الملتزم قد حال دون انتقال ملكية الأرض إلى الفلاحين ، الأمر الذى لو تم لما نجمت علل أو مشاكل ؛ فالمالك الذى يضيق ذرعا بأرضه لا مناص له من أن يبيعها للفلاحين ، ولكن الملتزمين يقحمون أنفسهم ، فيعرضون على المالك دخلا كبيراً مضمونا ، دون أن يبذل هو جهداً أو مشقة من جانبه » .

فوافق روجوجينارو ببسمة صريحة : « هذا صحيح وأنا لا أنكره — أعنى لو كان الفلاحون يكدون ويثابرون ويشعرون بالمسئولية ... أما أنا فلى خبرة طويلة فى هذا المضمار، ولهذا أرجو أن تسمحوا لى أن أقول إن الملتزم لم يتدخل إلا لأن الفلاح الرومانى متلاف وكسول ويتوقع أن يتساقط عليه كل شىء عفوا إما من الملاك وإما من الدولة ، كالحال اليوم .. هذا هو جوهر الموضوع أيها السادة ، وأنا يؤسفنى أن تكونوا على غير هذا الرأى ، إنما فيما يختص بى ... »

وهنا ندت عن بالولينو إيماءة دلت على دهشة بالغة ، فقد وجد نفسه عاجزا عن أن يختلف معه .. أما جريجور فلم يتمالك نفسه من الغضب ، فقاطع الملتزم

محتداً : « لقد سمعتك تتحدث هذا الحديث فى القطار أيضا ياسيدى ... ولم أشأ أن أرد عليك لأنى رأيت أن من البشاعة أن يأتى رجل عاش واغتنى على استغلال الفلاحين فيقرر المرة بعد المرة أن هؤلاء الفلاحين كسالى .. ونحن لو سلمنا جدلا بأنهم كسالى ، كما تزعم ، لوجب عليك ألا توجه إهاناتك وشتائمك إليهم ، بل إلى أولئك الذين عملوا على تحريرهم من الوجهة الشكلية فقط، ولكنهم خلفوهم أسوأ حالا مما كانوا فى ظل العبودية . . . وهؤلاء ، بدلا من يأتوا لهم بالنور والعرفان تركوهم يعمهون فى الظلام .. والذى يبدو فى نظرى هو أننا لا نريد مواطننا فلاحا، بل نفضل أن يكون الفلاح حيوانا ... ونحن ، بعد هذا كله، نصب الإهانات عليهم ، ونصمهم بأنهم أشرار كسالى . . . »

وتابع الحديث وهو يشير بغتة إلى تيتو الذى انعقد لسانه عن الكلام ، قائلا. « سل هذا الرجل ، فهو من ترانسلفانيا ، ولم يحضر إلى هنا إلا منذ قليل ، سله هل الفلاحون هناك كسالى ، هل ينقصهم الإقدام ! ثم لا تنس أن أهل رومانيا هناك هم تحت ربقة الحكم الأجنبي ، ولكن لهم زعماء أحسوا فعلا بواجبهم حيال الفلاحين ، فعلموهم ، وبينوا لهم معالم الطريق ، وكانوا لهم قدوة طيبة ، ومثلا صالحا . . أما نحن فنمضى فى الكلام عن الفلاحين ، ونقنع أنفسنا بالعبارات الجوفاء ، ولكننا لا نقوم بأى عمل من أجلهم يتسم بالإيثار والإخلاص ».

وأثارت كلمات أيوجا العنيفة الضحك هنا وهناك ، فأدرك أنه جعل من نفسه موضعا للسخرية ، لأن لهجته لم تكن لتتسق والوسط الذى يجلسون فيه . فأخلد إلى الصمت ، وهو أشد ارتباكا وضيقا حتى من دوميسكو الذى أخذ يبدى علامات تدل على صبر نافد . . أما روجوجينارو ، فرغم أن الرد كان على طرف لسانه ، إلا أنه قنع بكلمات مبهمة وهو يلوك طعامه ، وذلك حتى لا تزداد الأمور سوءا .. أما بالولينو فقال فى صوت خفيض، لم يكن يقصد به غير رفاقه الجالسين إلى المائدة . « إنك على حق ياعزيزى جريجوريتسا ، على حق بين . . فالفلاح المسكين لا يعرف غير الشقاء ، لأنه لم يتعلم شيئا غير ذلك .. وهو عندما يعجز عن تحمل الشقاء ، أعنى عندما تمس السكين منه العظام ، فمن الطبيعى والحالة هذه أن يهب فى جنون ، لا يتورع عن النار والدم . والواقع أن هذا البلد ، فى هذا القرن الذى سادت فيه المدنية الغربية ، هو البلد الوحيد الذى يطلب فيه الفلاح

العدل فلا يجده . . وسوف تمضى الأمور هكذا إلى أن نستيقظ ذات يوم على كارثة تهز البلد إلى أعمق أعماقه » .

ـــ على أنه وقد رأى أن الحديث قد بلغ منتهاه ، غير الموضوع ، فأبدى ملاحظات على المحصول الذى كان ، فيما قيل ، محصولا طيبا ، ولكنه لن يدر ربحا بسبب الأزمة المالية .. وانطلق يتحدث عن موقف الحكومة . وهو موقف كان فى رأيه مهتزا ، فأعرب عن أمله فى أن يعود حزبه فى القريب ، فيتولى زمام الحكم . وتطرق الحديث بعد ذلك إلى السياسة الخارجية، فتناولوا موضوع أهالى ترانسلفانيا الأشقاء ، وخاضوا فى مسألة تيتو . . وعندئذ أخذ دوميسكو نفسه يبدى الاهتمام فقد كان هو أيضا وطنيا متحمسا ، يحلم دائما بغزو ترانسلفانيا . . وحدثهم جريجور بأن هيرديليا الشاب يزمع الاستقرار فى هذا البلد ، فتقدم دوميسكو من فوره ، بما أن الأمر يخص واحدا من أهل ترانسلفانيا ، فعرض عليه أن يعمل كاتبا فى مصرفه ، وهى وظيفة متواضعة بطبيعة الحال ، ولكن الغرض منها هو أن تدل على معدن الشاب ، وعلى أن باستطاعته أن يرقى فى نهاية المطاف . . وأعرب أيوجا عن تقديره لهذا العرض، ولكنه مع ذلك رفض نيابة عن صاحبه ، قال : « ماذا فى مقدور شاعر أن يفعل فى مصرف ، اللهم إلا أن يذهب إلى هناك ليقترض مالا دون ضمان، ودون ربا ، ودون تحديد ليوم السداد ».

ولم يقل تيتو شيئا ، ولكن سره أن أيوجا قد رفض . . حقا ، إنه لم يخترق جبال الكربات ليغدو كاتبا فى مصرف . . واستطرد أيوجا قائلا : « إن العمل فى جريدة هو إليه أنسب » . فردد الشاب متحمسا : « نعم ، نعم ، الجريدة أنسب » وكان بالولينو صديقا حميما لمحرر جريدة « يونيفرسول » ، فقد سبق أن كسب له قضية كانت موضع شك كبير . . ووعد الرجل أن يفعل من أجله شيئا ، ومن ثم طلب إلى تيتو أن يعمل على تذكيره بالموضوع، إذا ما غاب عن ذاكرته لأمر ما.

وما لبث المحامى أن قال وهو يستعد للانصراف : « أرجو أن تأذنوا لى . . لقد تركت زوجى تتناول الطعام وحدها ، لأجل خاطرك يا جريجوريتسا ! ! فقد انقضت على أجيال منذ رأيتك لآخر مرة . . وإنى لأرجو أن تسعدنى بزيارتك فى بيتى ، وأن تلتقى بزوجى ، ميلانى ، لأننا دائما نتحدث عنك . . .

وتعال وقتما تشاء ، ولا داعى لأن تخطرنا بموعد حضورك ، فالبيت بيتك » .

ودبت مشادة بين أيوجا ودوميسكو عن أيهما يدفع الحساب ، خرج منها جريجور منتصرا بعد أن أصر على الدفع . . وافترقوا خارج المطعم ، وبقى تيتو مع أيوجا.. وفى هذه اللحظة ظهر روجوجينارو على الباب، والسيجار فى فمه، ومظلة عتيقة تحت إبطه .

قال يحدث جريجور ، حديث الوالد لولده : « سيدى ! أنت شاب . . سريع الانفعال . . أما أنا فأكبر منك سناً ، ولست بالذى يغضب من كل صغيرة . . ولست أدرى متى نلتقى مرة أخرى، ولكنى أسأل الله ألا تضعك المقادير فى موضع تضطر فيه إلى القول « هذا الرجل روجوجينارو كان على حق على كل حال » . طاب مساؤك » .

وتطلع جريجور إليه لحظة ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة . . لقد ضايقه اعتداد الملتزم وعدم تكلفه ، ثم إنه كان متعبا ، بل وكان فوق ذلك متبرما سئما . . لقد أنهك الجدل أعصابه ؛ وكان قد وطن نفسه المرة بعد المرة ألا يزج بنفسه فى هذه الأمور ، ولكنه ما كان يفى بما أخذ نفسه به أبداً .

وبلغا شارع فيكتورى ، دون أن ينطقا بكلمة . . وكانت تلفحهما ريح صرصر ، هى نذير مطر بارد . . وكانت السحب تكاد تلمس أعالى البيوت . . وهبت زوابع الهواء فى الشارع ، فحملت التراب ، وألقت به على الطوار تحت أقدام العابرين . . وتذكر جريجور كلام روجوجينارو ، فقال : « أرأيت ، لقد فطن إلى أن الجو قد يتلبد ، فأتى معه بمظلة » .

وجاءت عربة مسرعة من ميدان شوسيه ، وقد حملت رجلا وسيدتين ، وكانوا جميعا يضحكون فى جذل ، كأنما كانت الدنيا تحت أقدامهم .

أما تيتو فقد مضى يقطع الطريق ، وهو يفكر فى صمت . . لقد أدرك أن أيوجا لا يشعر برغبة فى الكلام ، ولهذا لم يشأ أن يضجره . . وجعل يزن الأمسية فى ذهنه ، فانتهى به الرأى إلى أنها أمسية تدعو للرضى . . فهو لو استطاع أن يحصل على عمل فى جريدة « يونيفرسول » ، فسوف يعتبر نفسه فى وظيفة طيبة دائمة . والحق أنها لم تكن بالجريدة الأصيلة ، ولكنها كانت فيما يبدو راسخة قوية ، وعلى شهرة واسعة . . ولقد كان يؤثر أن يعمل فى « أديفارول » ، فهى

صحيفة أكثر جاذبية ، وأشد نزوعا إلى الجدل ، وأميل إلى المسائل العقلية . . . ولكن لابأس بالجريدة الأولى كبداية ؛ هذا إذا لم ينس المحامى أن يحدث صديقه رئيس التحرير فى الأمر . . وحدث تيتو نفسه قال إن من واجبه أن يتصل بالولينو فى غده ، ولكن لا ، يتعين عليه أولا أن يستطلع رأى أيوجا ؛ ولا بد له أن يتجنب الوقوع فى خطأ ، حتى لايثير حفيظته فيفقده . . لقد أرسل الله إليه هذا الرجل الطيب ، ولن يضيره أبداً أن ينتظر يوما أو يومين .

فلما وصلا إلى بياتا بالاتولوى ريجال بدا له أن الصمت قد طال أكثر مما ينبغى . . . وحار كيف يقطع حبل الصمت ، فتذكر اهتمام جريجور بالفلاحين ، فقال مترددا ، كأنما كان يعالج مسألة قدسية . . . لم يتح لى أن أسمع الناس يتحدثون عن الفلاحين هذا الحديث الطويل . . الأحاديث كلها تدور دائما حول الفلاحين . . كل إنسان ، حيثما كان ، يتحدث عن مشكلة الفلاح ، وكل إنسان يقترح لها شتى الحلول . . ماعلة هذا كله ؟ حتى فى البيت الذى أسكنه لا يكاد السكان يجتمعون حتى يأخذوا فى الحديث عن الفلاحين ، ويستمرون فيه إلى غير مانهاية . . . ناهيك بالإسكافى ، وبخاصة ابنه ، فهو اشتراكى كبير . . . وما من مرة يرانى فيها أحدهما حتى ينهال على بشتى الحلول والتكهنات ، ثم يقرر أنه إذا لم تحل مشكلة الفلاح فسوف تنشب ثورة تحيل بوخارست خرابا يبابا ! »

وارتعد جريجور كأنما يستيقظ من حلم . . إنه لم يكف عن أن يطرح على نفسه هذا السؤال بعينه ، وأن يلتمس له الجواب . . قال وهو يتطلع إلى السحب الغاضبة ، وهى تتراقص فوق رأسيهما . « ربما كانت هذه نزوة لاتلبث أن تزول ولكنها قد تكون كذلك ظلما طال عليه العهد ، فأخذ يثقل على نفوس الناس . . من يدرى ؟ »

— ٥ —

أخذ جريجور يتقلب فى فراشه قلقا . . . كان قد قرأ جرائد المساء دون أن يستوعب منها شيئا . . وهامت به الأفكار هنا وهناك ، تنقب فى الماضى ولا تستقر على حال . . وتذكر لحظات مريرة ، وتذكر آماله وأحلامه ! وتجمعت هذه كلها لتطرد عنه راحة البال . . كان ينير المصباح القائم بجوار سريره المرة

بعد المرة ، إما ليقوم بحسبة تطمئن لها نفسه ، وإما ليراجع أسعار اليوم أو ليعاود النظر إلى صورة نادينا التى قامت فوق سريره ، وهى ترمقه بنظرات واهنة لينة.. كانت ترقد على جلد دب ، وقد تجردت عن ملابسها كلها تقريبا ، وذراعها مستقر على رأس الحيوان ، وثدياها الناهدان راسخان كأنما قد قدّا من رخام فى استثارة حسية ، وثنيات أعطافها الرقيقة ، تستهوى النفس وتبعث فيها الدفء ، وعلى وجهها تلاعبت ابتسامة توحى بصراحة عذرية مصطنعة .. لقد أهدت إليه هذه الصورة التى تكاد تكون فى حجمها الطبيعى ، ووضعتها فى إطار مزخرف ، وكان ذلك يوم عيد ميلاده ، منذ ثلاث سنوات ، أى بعد أن تزوجا بعام ... لقد عبر لها عن سروره لهذه الهدية، ولكنه لم يكن صادقا ، فقد شعر وهو يحتضنها بين ذراعيه ، بالأسى وخيبة الأمل .. كان يردد ، فيما بينه وبين نفسه ، دون أن يجهر بذلك ، أن جسدها العارى على الأقل هو ملكه وحده . وامتلأت نفسه غما حين رأى زوجه ، أغلى غواليه ، قد حسرت عن جسدها هكذا أمام غريب ، ولو كان مصورا .

ولقد وصل إلى بوخارست يهدهد صدره الأمل فى أن كل شىء سيجرى دون أن تجابهه عراقيل ... وكان يتعين عليه ، فى يومه هذا ، أن يجمع القسط الأخير من ثمن الغلال التى باعها وقام بتسليمها ، حتى يسوى حسابه مع دوميسكو ببنك رومانيا . وذلك بخصوص الكمبيالة التى وجب عليه أداؤها يوم الاثنين ـ وهذه كلها أمور ما كانت تستغرق أكثر من ساعتين وكان من رأيه ، بعد أن يفرغ من عمله ، أن يبقى يوما أو يومين يلتقى فيهما بأصدقائه ، ويذكرهم بأنه حى يرزق... ثم كان فى نيته أن يرجع إلى أمارا ، وفى جيبه بقية المال ، وهو قدر كان يكفى لتغطية نفقاته العاجلة حتى يحل موسم الذرة فيبيعها ... وكان يحب أن تمضى الأمور فى نظامها المرسوم ، كذلك كان يحرص على التدقيق فى شئونه ، وهما خلتان اكتسبهما فى أثناء إقامته فى ألمانيا سنتين ... نعم ، لقد أعد برنامجه بكل تفصيلاته مقدما ... وفى جيبه الآن ترقد كمبيالة تاجر الغلال ، وهى كمبيالة واجبة الأداء يوم الغد ... إنها والحق يقال كالذهب الخالص ، لأن توقيع أصحاب هذه المؤسسة ، وهم أشهر مصدرى الغلال فى رومانيا ، معترف به فى كل أنحاء أوربا .

ولكن شاء القدر ، فيما يختص بالبند الأول من برنامجه ، أن يكيل له ضربة

قاصمة أطاحت بتوقعاته كلها . . لقد دعاه مدير المؤسسة ، وهو رجل فارع القامة ، جليل المظهر ، من أهل أرمينيا الجفاة ، فذهب به إلى غرفته الخصوصية ، وأتحفه بفنجان من القهوة وبسيجار مهرب ، ثم أسر إليه ، ولكن فى عزم وإصرار ، برجاء لخواه أن يقبل إرجاء السداد شهراً — شهراً لا أكثر . وعبثـا حاول جريجور أن يعترض بأن هـذه كمبيالة ، وأنها واجبة السداد ، إلى آخر هذا الـكلام ... وتبع ذلك شروح وتأويلات ، قيل إن الأوقات عصيبة وإن الأسعار فى الأسواق الأجنبية قد هبطت ، وإنهم مقبلون على كارثة ؛ والواقع أن المنافسة الروسية قد قلبت ميزان التجارة على غير انتظار ؛ وأن المحصول الروسى ، وكان كل إنسان يتوقع أن يكون محصولا سيئا ، قـد انقلب فصار محصولا ممتازاً . . نعم . روسيا دائما هـكذا ، تأتى بما لا يكون فى الحسبان !!.. ولـكن حتى هذا الأمر كان من الممكن علاجه ، فهو نظراً لمـا اكتسب من خبرة فى شئون العمل ، ولدرايته ؛ ، قـد اتخذ جميع التدابير اللازمة فى الوقت الملائم ... ولـكن من الأسف لم تتوافر له وسائل النقل التى كان فى حاجة إليها ، فبقيت السفن راسية فى ميناء برايلا ، وبعضها فارغ ، وتجاوزت الخسائر نحو ثلاثين فى المـائة من جملة قيمة البضاعة .. ثم جاءت، بعد هـذا كله ، هذه الأزمة المالية السخيفة التى نزلت عليهم كأنها صاعقة من السماء فخربت كل شىء ، وشلت كل حركة .

وأصاخ أيوجا السمع ، ولـكنه لم يع شيئـا ... كان كل همه أنه لن يتلقى مالا ، وكل ماعدا ذلك فهو هراء فارغ ... لقـد ظل يؤكد لنفسه ، والرجل يمضى فى الـكلام ، أنه لو أصر على موقفه فلا مناص للرجل من الرضوخ ، إذ ليس فى مقدوره أن يتقبل توقيع الحجز على مؤسسته ، وأن يلطخ سمعتها الطيبة . ولـكنه إن يرفض هـذا الرجاء فمعناه أن ينتهى مع مؤسسة اتجر هو وأبوه معها مدة عشرين عاما ، وهى مؤسسة كثيرا ماقدمت لهما العون أيام الشدة ... هل فى مقدوره حقا أن يرفض رجاء الرجل ؟.. ولـكن كيف له ، إذا قبل التأجيل ، أن يسوى حسابه مع « بنك رومانيا » ؛ بل والأهم من ذلك ، كيف له أن يعود إلى بلده وهو صفر اليدين ؟... ولم ينته به الرأى إلى رفض أو قبول ، وقال إنه سوف يأتى بالجواب فى الغد ، بعد أن يقلب الفـكر فى الموضوع .

وترك تاجر الغلال ، وذهب يطلب دوميسكو بالمصرف ، ويلتمس منه النصح

والعون .. ولكن الرجل كان فى اجتماع هام ، فلن يتسنى لجريجور أن يقابله ، فترك له رسالة يدعوه فيها إلى العشاء ... وكان يعلم أن دوميسكو يأبى أن ينظر فى شئون العمل خارج جدران المصرف ؛ ولكنه رأى من الفطنة أن يمهد للأمر ساعة فراغ .. كذلك رأى أن يدعو بالولينو أيضا .. وهاهو الآن ، بعد أن انتهى العشاء ، يدرك أن هذا التدبير كله الذى بدا فى وقته تدبير بارع ، كان فى حقيقته خطة حمقاء .. وهو ، لو كان عاقلا ، لصبر حتى الغد ، ولاكتفى بتناول العشاء مع الشاب الترانسلفانى وحده ؛ فربما تهيأ له ساعتئذ أن يغفو قليلا ، بدلا من أن يتقلب فى فراشه دون جدوى .

ووقعت عيناه . بعد أن خلف تيتو ، وبمجرد أن دخل غرفة نومه ، على صورة زوجه نادينا ، والتقتا بالتعبير الذى ارتسم على وجهها ... وتذكر وهو غاضب أنه بسببها — لا من أجلها كما تعود أن يقول من قبل — قد أصبح هو مدينا لبنك رومانيا ، وكان ذلك قبل أن تهديه هديتها يوم عيد ميلاده مباشرة — لقد كان يظن حينذاك أن السبب الوحيد الذى يجعلها ترفض البقاء فى الريف أكثر من أربع وعشرين ساعة كل مرة تأتى فيها إنما يرجع إلى كراهيتها « لهذه الزريبة العتيقة التى تخلو من كل ذوق ، ومن كل وسائل الراحة ». وكانت تقصد بها بيت الأسرة القديم فى آمارا .. وكان يحلم بأن يكسبها إلى صفه لو أنشأ لها مسكنا رشيقا ، حريا بأن يأوى فى جنباته هذه المخلوقة الرائعة .. ولقد حزن أبوه عندما رأى أن بيت الأسرة ، وهو البيت الذى ترعرعت فيه أجيال أربعة من أسلافه ، لم يعد خليقا بابنه .. وبدت مخططات جريجور فى نظر والده نذيراً ببدء أفول نجم الأسرة ، لأن المبنى قد أنشىء من مبدئه إلى منتهاه بمال استدانوه من المصرف .. أما نادينا فقد أغبطتها هذه اللفتة من جانب زوجها ، فأقامت حفلات استقبال بمناسبة الانتقال إلى البيت الجديد دامت أسبوعين ، ولكن سرعان ما عاودها السأم ، فرجعت أدراجها إلى بوخارست . وما كان فى وسع أحد ، على أية حال ، أن يطلب إليها أن تدفن نفسها وهى على قيد الحياة ، مهما كان المأوى لحيا ... وبقيت صورتها ، وهى نسخة من الصورة المعلقة فوق سريره بالمدينة ، ولكن فى إطار ريفى أليق من إطار الأولى ، لكى تؤنس حبيبها « جريج » فى وحدته ... كذلك بقى الدين الذى استدانه من المصرف ، بعد أن عجز عن سداد ولو نصفه فى غضون السنوات الثلاث التى انصرمت .

وكان أبوه ميرون هو الذى اكتشف نادينا بينما كان فى برلين . . ذلك أن أباها ، تيودور أيونيسكو ، كان قد اشترى قبل نحو عشرين عاما ، ضيعتين على حدود آمارا ، فى ليسبيزى وفى باباروجا . وهما ضيعتان كان يمالكهما من قبل تيوفيل أيوجا ، شقيق ميرون . فلما وقع المالك الجديد وثائق الشراء ، جاء فى ود وصداقة ، وقام بزيارة لميرون ، يسأله المشورة فى أحسن السبل لإدارة الأرض. وكانت هذه فى الواقع حجة تعلل بها ليتعرف على الشيخ أيوجا ، لأنه ما كان يعنى بإدارة الضياع فى حقيقة الأمر ، فهو قد عثر على ملتزم ، وحدد منه مقدار ما يتعين عليه أن يؤديه له حتى قبل أن ينتهى من عقد الصفقة . . . وسمع ميرون فيما بعد أن أيونيسكو كان رجلا غنيا ، وأنه استقر منذ قريب فى بوخارست ، حيث ابتاع عدة بيوت ، ولكن ما كان أحد يدرى مصدر ثروته . . وعاد أيونيسكو ، بعد ذلك بسنوات عديدة ، فزار جاره مرة أخرى وكان فى صحبته هذه المرة ابنه جوجو ، وابنته نادينا . وكان ثمة فارق كبير بين سن الشاب وسن الفتاة ، فالشاب يبدو فوق الأربعين ، أما الفتاة فما كانت تناهز العشرين ربيعا . وأوضح تيودور أيونيسكو الأمر فقال إنه تزوج مرات ثلاث ، وأن جوجو هو ابنه من زوجه الأولى ، أما نادينا فقد أنجبها من الزوجة الثالثة . واستطرد قائلا إنه استبدل الملتزم الذى كان يعمل فى خدمته . فانتهز هذه الفرصة ليأتى بولديه إلى هنا ، وبخاصة لأنهما سيرثان الضيعتين بعد قليل ، فأما بابا روجا فمن نصيب نادينا ، أما ليسبيزى فمن نصيب أخيها . . . . ذلكم هو نصيبهما فى الوقت الحاضر . . كذلك انتوى أن يعطى كلا منهما بيتا فى بوخارست عندما يتزوجان . . أما بقية الممتلكات فسوف تقسم بينهما بعد وفاته . . قال وهو يبتسم ، ودون أن تظهر عليه سمة من سمات الحزن : « لست أحسبهما ينتظران طويلا — فأنا قد تخطيت السبعين » . نعم ، كانت أمنيته الوحيدة أن يراهما مستقرين قبل أن يطويه الردى . . على أنه كان قلقا بعض الشىء من أجل جوجو ، لأنه تأخر فى الزواج طويلا ، وربما فاته القطار الآن — أما نادينا فما كان ثمة موجب للقلق بشأنها ، ففتاة على جمالها لن تظل عزبة ، إذ سوف تتطلع إليها أنظار الشبان . . ورمقها الشيخ ميرون عن كثب ، ووافقه على ما قال . . وأخذ الأب يطيل التفكير فى نادينا ، وارثة ضيعة باباروجا ، فى الشهور الثلاثة التى مضت قبل أن يعود جريجور من ألمانيا . . حقا ، لشد ما حزن الشيخ أيوجا عندما تفتت أرض أبيه ، وكان

بوده أن يشتريها هو لنفسه ، لولا أخوه الذى أصر على أن يكون الثمن نقداً . . .
وهكذا راوده الأمل فى أن يمتلك جريجور الضيعة كاملة مرة أخرى ، حتى وإن
كان هو قد حرم من ذلك .

وكان جريجور قد بلغ فى ذلك الوقت الرابعة والعشرين وكان قد ذهب إلى ألمانيا يدرس الهندسة الزراعية ، بعدأن حصل على درجة فى القانون من بوخارست — لا ليمارس المحاماة ، وإنما بقصد الحصول على مؤهل . . . وكان يزمع أن يقضى فى ألمانيا ثلاث سنوات ، فلما كانت السنة الأولى توفيت أمه ، فطلب إليه أبوه أن يعود فيستقر فى مسقط رأسه ، وأن يدع هذا العلم يذهب إلى الشيطان ، فهو على أية حال مضيعة للوقت . . . واستطاع جريجور بمشقة بالغة . إقناع والده بأن يأذن له فى البقاء سنة أخرى . .

فلما عاد إلى وطنه آخر المطاف ، كانت رأسه مليئة بالمشروعات الجريئة ، وبالحلول الكاملة لكل مشكلة من المشكلات . . وكان يتوقع أن يقف أبوه منه موقف المعارضة لهذا كله ؛ ولكن الرجل لدهشته ، استمع إليه مرة ومرة ، واقتصر على ملحوظة فحواها أن الانطلاق سمة من سمات الشباب ، وأن جريجور سيعود سيرته الطبيعية ، بعد أن يخبط رأسه فى الصخر عدة مرات . . ولم يناهض الأب النظريات التى جاء بها ابنه ، ولكنه ذكر له ذات يوم أنه يسره لو تعلق بابنة تيودور أيونيسكو . . . وأدرك جريجور على الفور قصد أبيه ، فقال إنه لن يهتم بأية أفكار مثالية فى مسألة اختياره لشريكة حياته ، وإنه ليس من الخير العودة إلى الوراء ، مهما رغب المرء فى ذلك .

فرد الأب ميرون ساخراً : « قابل الفتاة أولا ، أما العالم المثالى فاتركه لى ! » .

فلما التقى بها جريجور ، نسى كل شيء ، لأنها كانت تمثل كل ما كان يتمنى . . ولقد تكشفت له السعادة خالصة أثناء الشهر الأول قبل الزواج ، وأثناء الشهور الثلاثة التى قضياها بعد ذلك فى اليونان وإيطاليا وأسبانيا . . . عندئذ كانت ناديا زوجه حقا . زوجه هو لا ينازعه فيها أحد . . وكان يريدها أن تكون له كذلك دوما . لا يشغل قلبها شيء أو أحد عداه . . ولكنه ما لبث أن عانى عذاب الغيرة ، بل تزايد عذابه لأنه خجل من أن يعترف بغيرته . . ولقد حاول جهده أن يجعلها

تكلف بالحياة فى الريف ، وما كان يطمع فى أن تحب الأرض ، ولكنه كان يود أن يدرأ عنها غوايات المدينة ... ولقد كابد حبه ، طوال سنوات أربع، كل صنوف العذاب ، إلى أن تحطمت آماله كلها آخر الأمر ... بل إنه وافق على أن تسافر زوجه ناديا إلى الخارج وحدها ، وللمرة الثانية .. ولكنه فى غضون الشهور الثلاثة منذ أن سافرت ، لم يتلق منها إلا خطابات ثلاثة ، كانت فى كل منها تطلب مالا .

وجعل جريجور ، فى ضوء المصباح القائم فوق السرير ، يحملق فى الظلال والأطياف ، التى ملأت الغرفة ذكريات ... وكان يرى بين الحين والحين بنظرة على ناديا ، وهى تبتسم له من إطارها ، راضية كل الرضى عن نفسها .

ورأى أن الساعة قد أشرفت على الثانية ، فقال بمرارة : « هأنذا تراودنى أحلام اليقظة عن ناديا ، بينما علىّ أن أقابل دوميسكو التاسعة صباحا .... تبا لى من غر أحمق ! »

— ٦ —

فى ظهر اليوم التالى ، فرغ جريجور من مهامه على وجه يدعو للرضى ... لقد كان دوميسكو ، لطيفا ، كالعهد به ، فنقده قيمة الكمبيالة التى استحقت على الأرمينى ؛ وقبل المبلغ الذى قدمه جريجور للمصرف ... ثم قام بعدئذ بزيارة لفيكتور بريديلينو ، صديقه الحميم ، ولبث حتى ساعة الغداء ، فقد كان يحس دائما أنه فى بيته هناك .

لقد اطمأنت نفسه عندما توصل إلى حل كل المشكلات التى اتخذت صورة مفزعة أثناء الليل ... والحق أن الأرق لا تكمن أهواله فقط فى انتقاصه من الراحة ، بل أيضاً فى الأفكار السوداء التى يثيرها ، ومن ثم يطوى من يعانى منه فى شبكة من الكآبة .. وقص جريجور ، وهو ينعم بالجو السعيد الذى يحياه آل بريديلينو ، المخاوف التى ساورته الليلة الماضية ، وابتسم لنفسه ، ولكن فى شىء من الأسى .. لقد رأى فى نفسه ضعفا ملازما يبدو فى تردده الدائم الذى

يمزق أعصابه ، ويحول بينه وبين مواجهة الحياة فى ثقة ، كما يفعل أبوه مثلا ، أو حتى بريديلينو .

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة عندما وصل إلى بيته ؛ وكان قد وعد الشاب الترانسلفانى بأن يلقاه فى الثالثة ! . ترى أين يجده الآن ؟. لقد أخجله أن يؤذى مشاعر شخص ربما كان فى حاجة إليه ، ولهذا طلب إلى خادمه أن يجعل الفتى ينتظره ، لو جاء لزيارته مرة أخرى ، أما إذا لم يأت ، فليتثبت من عنوانه .

وذهب بعدئذ ليزور عمته ماريوكا — أرملة الفريق كونستانتينسكو ، وهى سيدة ما كانت لتغفر له ، ولو فى الدار الآخرة ، شخوصه إلى بوخارست دون أن يحضر لزيارتها . . وكانت سيدة تتمثل فيها طيبة القلب ، وسخاء اليد ، وكانت دائمة مرحة مضيافة ، تعرف كل الشائعات التى تسرى فى رومانيا عن شئون الغرام والحياة العسكرية — وكان جريجور قد سكن فى بيتها وهو طالب ، وكان أبوه ميرون ما انفك يمكث لديها حين يفد إلى بوخارست حتى الساعة . . فلما رفض جريجور أن يبقى للعشاء ، أخذت منه وعدا بأن يأتى للغداء فى الغد ، ثم أردفت قائلة إنها ستكون وحدها ، وستدلى إليه بقسط كبير من الأنباء الهامة .

وكان الغد يوم أحد ، فنهض جريجور من فراشه متأخراً . وبينما هو يسرع خارجا ، التقى عند الباب بتيتو هيرديليا ، وكان قد التمس مقابلته مرة أخرى ، بعد ليلة حافلة بالشقاء وخيبة الأمل .. وتواعدا على لقاء جديد ضحى اليوم ، الأمر الذى كدر العمة ماريوكا كدرا شديدا ، لأنها لم تجد فسحة من الوقت لتقص عليه ما كانت تنوى وتريد من الأمور الهامة . . . ومكث جريجور مع تيتو حتى الهزيع الأخير من الليل ، تكفيرا عن تقصيره بالأمس ، ثم دعاه إلى الحضور ، وتناول الغداء فى اليوم التالى عند آل بريديلينو ، وكان قد أخطر بالزيارة وهو فى طريق عودته من منزل عمته . . . كذلك وعد تيتو بأن يذهب هو إلى بالولينو لينقصى منه ما فعله بخصوص الجريدة، بل إنه فضلا عن ذلك ، دعا الشاب ليقضى معه فى ضيعته أسبوعا أو أسبوعين ، أو ما شاء له الهوى ، إلى أن يقضى الله أمراً فى بوخارست ، فهو بهذا يستطيع أن يوفر ماله .

ولم يؤمن تيتو بأنه ليس فى حلم ، وأن جريجور كان يعنى حقا ما قال ، إلا

بعد أن وصل إلى بيت بريديلينو . . . وكان بريديلينو ، قبل الغداء وبعده خاصة، حريصا على أن يطلع ضيفه ، صديق جريجور ، على ذخائر مكتبته . وكان يرى أن لزاما على الشاعر أن يهتم بالمخطوطات النادرة ، وبالكتب الرومانية القديمة ، وما فيها من حواشي فريدة فى بابها ، والوثائق والأوراق العتيقة .. ولحظ اغتباط تيتو ، وتمنى لجريجور ، الذى لم يكن لهذا كله وقع عليه ، أن يتخذ من الفتى قدوة له .

وكان فيكتور بريديلينو ، على كونه من كبار ملاك الأرض ، وعلى كونه واحداً ممن يعتزون بأرضهم ، ويعملون فيها ، يملك أيضا هذا البيت فى العاصمة . ولقد حقق فعلا فى ضيعته بدولجار ، من أعمال دوجي ، وهى ضيعة تضم ثلاث قرى ، ما كان جريجور يحلم به ، ولكنه عجز عن تحقيقه بسبب أبيه . . . كذلك كان والد بريديلينو يعارض آراء ابنه أيضا . . . وكانت خسته مضرب الأمثال فى كرايوفا ، حيث نشأ بريديلينو الجد ، وعاش ومات ، وكان يعتبر من أغنى الأغنياء . . ولم يستطع بريديلينو أن يستخدم مديرا مدربا ، وأن يستجلب الآلات، وأن يقلل من العمل اليدوى ، أو باختصار لم يتح له أن يجدد فى زراعة الأرض التى ورثها ، اللهم إلا بعد وفاة أبيه . . وكان لايزال يقضى شطراً كبيرا من السنة فى الريف ، فيتلبث هناك أسابيع كل مرة أثناء موسم العمل . . وكان مسلكه حيال الفلاحين مسلكا سليما غير مشوب ، دون أن يغالى فى التردد إليهم . . وكان يعقد معهم العقود على النحو المتبع فى تلك الأنحاء ، فلا يثقل عليهم أكثر مما يفعل جيرانه ، ولا يلين معهم أكثر مما يلينون . . . وكان قد باع فلاحيه بضع مئات من البوجونات ، لا لأنه كان فى حاجة إلى مال ، فهو أحد ملاك الأرض القلائل الذين لم يستدينوا البتة ، وإنما دفعته إلى ذلك رغبة فى تحريرهم ، بل وتحرير نفسه كذلك . . وكان من عادته أن يقول إن سعادته لن تتحقق إلا حين يتخلص من الفلاحين — ويتخلصون هم منه .

وكانت أمه لاتزال تعيش فى كرايوفا ، مع ابنتها إيلينا ، التى تزوجت من أستاذ شاب ، حسن السمات ، ذكى أريب — ولكنه على فقر شديد . . وكان زواجها عن حب . ولكن الزواج لم يتم إلا بعد وفاة أبيها ، فالرجل ما كان ليقبل

قط أن يخلف ثروته لرجل لا يملك شروى فقير . . . كذلك كان حال فيكتور حين تزوج . . . فهو لم يجد مفراً من أن يفرض إرادته ، ويغلبها على إرادة أبيه . . وكان الرجل يتمنى أن يختار لولده زوجة وفق هواه ، أعنى فتاة لها بائنة تعدل على الأقل ثروة ابنه . . أما تيكلا ، فما كانت تملك إلا طلعة وجهها واسم عائلتها . . وكانت ابنة رئيس محكمة الاستئناف المحلية، نيقولاى بوستيلينكو، سليل عائلة من النبلاء طحطحها الزمان . .

ورغم أن فيكتور ورث عن أبيه حصافته الاقتصادية ، بل وخسته أيضا ، فقد كان ولعا بأن يعرض على الناس مكتبته، أكثر مما ولع بإظهار معلوماته الزراعية . . كذلك كان فخورا برسوماته التى جمع منها مجموعة منذ سنتين ، ولم يتردد فى أن ينفق عليها مالا — بل ويغالى فى الإنفاق .

قال جريجور ، وكان يوجه اهتمامه للسيدة بريديلينو وإلى أختها : « كفاك هذا يا فكتور ، ودعه يلتقط أنفاسه .. إنك سوف تقضى عليه » .

فرد بريديلينو متهكما : « يسعدنى أن أرى السيد هيرديليا لا يضيق بالكتب الثمينة ، كما يضيق بها كثيرون غيره ! »

فقال جريجور وقد أدرك مرماه : « أنت تقصدنى بهذا الكلام ! ! أما عن نفسى ، فأنا أفضل أنواعا أخرى من الجمال ، وبخاصة هذا الجمال الذى يعيش تحت سقف بيتك ! »

وحاول تيتو أن يعترض ، ولكن على استحياء ، فقد خاف أن يأتى بهفوة ، وهو خوف استبد به طوال الغداء ، الأمر الذى جعل السيدة بريديلينو تشجعه من آن إلى آن بابتسامة حلوة .. أما تيكلا ، وكانت نحيفة القوام فى ميل إلى الطول ، فكانت تتمتع بأنوثة ناعمة ، تنشر من اللطف والإيناس على كل مكان تسعده بحضورها ما يجعله أجمل وأمتع .. وكان لايزال يتلألأ فى عينيها الزرقاوين شيء من خفر العذارى . . فهى ، رغم أنها قد تزوجت منذ تسع سنوات ، لاتزال تبدو فتاة حيية . . وكان يبدو على طفليها اليافعين : ميركا وأيونا ، أنهما شقيقان لها ، لولا زهو الأمومة الذى ظهر فى عينيها صارخا .

وتدخلت أختها فقالت بغير حياء : « شكراً لك هـذا الإطراء . . أما إن كنت تقصدنا به ، فنحن لانقبله ، والسبب هو . . . . »

فقاطعها جريجور قائلا: « أنا إذن أسحب كلامى بالنسبة إليك ، وأقصره فقط على تيكلا . . وأنا واثق أنها لن ترفضه . » فقالت السيدة بريديلينو : « صدقت، فأنا أتقبل كل شيء ، من مجاملات وإطراء . . »

وكانت أختها ، أولجا بوستيلينكو ، فى العشرين من عمرها ، وكانت خفيفة الروح ، حلوة حلاوة الثمامة البرية ، لاتغيب الابتسامة عن وجهها أبداً ، الأمر الذى كان يتسق معها تماما . . . وكانت عيناها السوداوان تشعان فضولا ، تظللهما أهداب وطف ، وكان لها أنف صغير سليط ، ووجنتان مستديرتان ناعمتان كأنهما وجنات طفل — وكانت أقصر طولا من أختها قليلا ، كذلك كانت مثلها نحافة ، الأمر الذى يحسر عن مفاتنها أحسن ما يكون عندما ترقص ؛ وكانت تحب الرقص أكثر من حبها لأى شيء آخر فى الدنيا ، فقد كان قصارى أمانيها أن تصبح راقصة باليه .

وأصرت على موقفها ، فقالت فى عناد الأطفال : « ولكن ألم تلحظى ياتيكلا أن كلامه هـــذا ليس إلا مجرد عذر انتحله ليحدث فيكتور مرة أخرى عن مشكلة الفلاحين ؟ »

وضحك الجمع ، والحق أن جريجور لم يتحدث طوال فترة الغداء إلا عن الأرض والملتزمين والفلاحين وعقود الإيجار؛ بل أخذ يحتد ويشتد على الرغم من أن أحداً لم يقف منه موقف المعارضة ولكن السيدة بريديلينو تدخلت الآن لتحول بينه وبين الخوض فى هذا الحديث مرة أخرى . . بل إن تيتو أجاز لنفسه أن يطلب إلى جريجور أن يكف عن هذا الموضوع الأبدى الذى أخذ يردده فى كل مكان .

فرد عليه جريجور صاغراً : « لست أحسبهم يهتمون بهذا الموضوع ، فقد طرقته من قبل كثيراً حتى ضاقوا به ؛ أما أنت ، أنت الذى لازلت غريبا على هذه الديار ، فقد كنت أظنك تتأثر به على نحو آخر » .

فقال هيرديليا مستغلا الموقف ليذكر جريجور بالدعوة التى سبق أن وجهها

إليه . « أنا أفضل أن نتبادل الحديث فى هذا الموضوع ونحن فى الريف . . »

« فى وسعك أن تصدقنى لو قلت إنك لن تتمكن من الفرار منه هناك حتى لو شئت . . . » قالها جريجور بصوت جهير ، ثم تحول يخاطب الآخرين : « سوف آخذه معى إلى آمارا ليؤنسنى ؛ وأنا لن أتركه يرحل عنها إلا إذا أصبح خبيراً فى مشكلة الفلاحين ! »

وقال بريديلينو ، بعد أن أعاد ذخائره إلى أماكنها ، إنهم كذلك راحلون إلى دولجا ، فيقضون هناك أسبوعين ، ثم يعرجون على بيت أولجا ، فيدلون بها هناك، وبهذا يتسنى لها أن تألف كرايوفا الحبيبة .

فقالت السيدة الشابة غاضبة . « أتظن أننى أرجع إلى كرايوفا الآن والموسم قد بدأ لتوه فى بوخارست ؟ »

والواقع أن أولجا ، لسنتين خلتا ، قضت من الوقت فى بوخارست أكثر مما قضت فى كرايوفا . . وكان فيكتور يريد أن يلتمس لها عريسا يكون فى نفس الوقت مقبولا لديه ، وكان يتمنى لها ، لغروره ، واحدا على شاكلته هو . وكان من عادته أن يقول لها . « لو أردت واحداً يوفر لك السعادة حقا ، فما عليك إلا أن تنتظرى حتى أقول لك — « اذهبى » .

وكان فيكتور أسمر البشرة ، ذا شارب أنيق ، وعينين جاحظتين قليلا ، تشع منهما الرقة أكثر مما يشع الذكاء .

وانطلقوا يتحدثون عن ناديناً ، وكان سؤالهم عنها هو إلى الرسميات أقرب، فهى فى الواقع ما كانت تميل أبداً لآل بريديلينو ، وما كانت تزورهم إلا فى المناسبات الخاصة ، فإذا فعلت فمن أجل جريجور فقط . . وكان الشعور بينهما متبادلا . فنادينا ترى فى تيكلا دعية منافقة لاتفهم الحياة حق الفهم . . أما تيكلا فكانت تعتبر نادينا أفاقة مغامرة ، وكانت قد سمعت كثيرا من القال والقيل عن زوج جريجور أيوجا ، ولكنها كانت على ثقة من أن هناك أشياء أخرى كثيرة لم تسمع بها ، أو لم تشأ هى أن تعرفها . . وكانت أولجا هى الفرد الوحيد فى

الأسرة الذى أعجب بنادينا ، ولكن إعجابها بقى طى الكتمان ، لأن نادينا كانت راقصة بارعة ، وكانت دائما لاتنى عن إيجاد فرصة لإظهار موهبتها .

وتحدث جريجور متفكها عن زوجه ، ولكن فى شىء من الشوق أيضاً .. قال إنه لا يراها إلا فى القليل النادر ، وإنهما لا يلتقيان إلا ليتحدثا فى شئون العمل وإن إدارتها للضيعة بلغت من الامتياز حدا يجعلها تحقق عجزاً باستمرار ، وإن من واجبه بطبيعة الحال أن يقوم بسداد هذ العجز ، لا لشىء إلا ليدل على أنه زوجها ، وعلى أنه يحبها.. وتابع حديثه قائلا . « ليتها ترجع من الخارج على وجه السرعة ؛ فالموسم قد أقبل ، ولا أحسبها تريد أن يفوتها » . ثم إذا بصوته يتغير ويتهدج ، قال : « إنى أحسدكم أيها الأصدقاء !.. بيتكم ترفرف عليه السعادة ، وأنا رجل عاطفى ، كنت أتمنى دائما أن يكون لى بيت مثله عندما أتزوج ، وكنت أتمنى فى صميم نفسى أن أتزوج امرأة مثالية على شاكلتك ياتيكلا ... أرجو ألا يضايقك قولى هذا يافيكتور » !

فأجاب بريديلينو : « بل أنت على العكس ترضى غرورى !.. أعنى غرور تيكلا ، وبما أن تيكلا ملك يمينى ، وكلانا شخص واحد ... »

وابتسمت زوجه ولم ترد ، فقال أيوجا : « نعم أريدها على شاكلتك ، بابتسامتك ، ورقتك ، وأطفالك .. بربك يافيكتور كيف أصد نفسى عن حسدك وبخاصة حين أفكر فى نفسى .. »

وهنا أدرك فيكتور أن اليأس قد استبد بجريجور ، فقاطعه قائلا بمرح : « ليتك ياجريجور يتسا ما كنت متسرعا عجولا !.. ذنب من هذا ؟.. ثم أنا أستطيع أن أريك زوجة ، أجمل من تيكلا وأروع ، تطلع إليها ! »

واتقدت وجنات أولجا خفرا ، ، ولكنها ضحكت إخفاء لارتباكها .. ورمقها جريجور بنظرة طويلة ، وقال: « نعم ، هذا صحيح ، ولكن من كان يظن أن الصبية الماكرة تغدو بعد خمس سنوات فتصبح هذه الغادة الهيفاء !. أنا نادم حقا ياعزيزى فيكتور !! »

فاعترضت أولجا ، وقد عاد إليها لونها الذى غاض : « لا تتعجل بإبداء الندم

ياسيدى ... بل عليك أولا أن تسأل : هل أنا أقبل الزواج بك ؟.. أما وأنا موضع الحديث ففى مقدورى أن أخبركم بأن زوجى لابد أن يكون رجلا مرحا رشيقا ، بل وأهم من ذلك كله ، راقصا بارعا لا نقيصة فيه .. أرأيت ؟.. أنا لا أريد رجلا جادا ثقيل الظل مثلكم ! »

فصفق فيكتور : « أحسنت ... ومع ذلك فقد كشفت عن خبيئة نفسك . تقولين إنك تريدين راقصا ؟ ربما أتيح لنا أن نعثر على واحد من فرقة الباليه ، ما قولك فى هذا ؟ »

وتطلع إليها جريجور، وأطال النظر ، كأنما قد حركت الفكاهة فى نفسه بقايا حلم تفتت وتلاشى حتى قبل أن يتخذ له شكلا ! .. لقد بدت أولجا فى ناظريه صورة رائعة من تيكلا ، بكل مالها من سمات ، بل وأكثر منها بهاء وسنى . . وكان هناك تحت لألاء عينيها مسحة من الرقة . . وإذا به يهز رأسه ، كأنما ينفض عنه ماساوره من أفكار ، ثم تمتم ببطء . . « لقد فات الأوان » ! .

— ٧ —

صاحت السيدة الكسندريسكو ، كأنما هى تفضى إليه بسر خفى ، وقد أوقفته فى الصالة : « عندى لك مفاجأة يا سيد تيتو !! .. هل تستطيع أن تحذر ماهى ؟. ادخل هنا وأنت ترى . . »

وكان هيرديليا الابن قد خلف لتوه جريجور أيوجا بعد الغداء عند آل بريديلينو ولهذا كان يبدو رشيقا أنيقا ، كالعريس فى أحسن بذلة عنده .. وقادته السيدة إلى غرفتها ، فرأى هناك سيدة شابة ، ضئيلة الجرم ، وكانت شقراء للغاية ، واسعة العينين ، حلوة التقاطيع جدا . .

قالت السيدة الكسندريسكو وهى تشير إليه مزهوة : « انظر !! »

ووضع الشاب على يد الزائرة قبلة ، قال : « يسعدنى أن ألتقى بك يا سيدتى ميمى ! »

فعجبت السيدة الكسندريسكو : « كيف استطعت أن تحذر ذلك بهذه السرعة؟»

فأجاب تيتو : « من جمالها ، ومن شيء آخر أيضا !! »

وتبسمت ميمى ، وقد اغبطها مسلك الشاب : « لقد أخبرتنى أمى بأنك شاعر وأنا الآن أومن بما قالت . . »

وأخذتا كلتاهما تحثانه على إيضاح مقصده ، فاعترف بأنه اطلع مرة على خزانة الكتب القائمة فى الردهة ، ووقعت يده صدفة على قصة كان يتوق إلى قراءتها من زمن طويل . . وكانت السيدة الكسندريسكو قد أذنت له أن يطلع على كتب زوج ابنتها ، بشرط أن يعيد كل كتاب إلى موضعه . . ولقد وجد فى عدة صفحات من هذه القصة سؤالا خط بالقلم الرصاص : « هل تحبنى يا فتاى العزيز ؟ » وانتهى به الرأى إلى أن ميمى هى التى كتبت هذا السؤال لزوج المستقبل ، وأنها حاولت أن ترسم صورة له . . ولقد رآها هو بعين الخيال ، هكذا قال ، كما هى على حقيقتها فلما لم يجد جوابا على هذا التساؤل اللطيف ، فقد أجاز لنفسه أن يجيب عنه : « الحق يا حبيبة القلب الصغيرة ، أنا أحبك كل الحب ! »

صاحت ميمى فى دهشة وبهجة : « أحقا ما تقول ؟ . . أنا لا أذكر أننى كتبت هذا السؤال . . »

فقالت السيدة الكسندريسكو : « اسمع منى ياسيد تيتو ، إياك وإلقاء شباكك حول ميمى ، فإن زوجها رجل غيور غيور ، والله وحده يعلم ما سوف يقدم عليه . . »

« كيف هذا يا أمى ، لا تصورى زوجى هذه الصورة البشعة ، وإلا ظن السيد تيتو أننى اتخذت جلفا فظ الطبع زوجا لى ! ! »

واعترض تيتو فقال إن هذا الظن لم يخالجه قط ، لن يدهشه أن يأتى زوج هذه الحسناء الفاتنة ، فيقترف جريمة من أجلها . . . وعلم عندئذ أن زوجها المحامى قد نقل إلى وظيفة مرموقة جدا فى مجلس مدينة بوخارست ؛ وأن الزوجين قد حضرا يلتمسان بيتا يقيمان فيه ، وأن على الزوج أن يبدأ عمله بعد أسبوعين أو نحوهما ، ولهذا السبب جاءت إلى بوخارست لتمكث فيها بضعة أيام حتى تعثر على بيت مناسب .

وصاحت السيدة الكسندريسكو : « ألم أقل لك إنه رجل ممتاز جدا . . . ولكن كم أتمنى لو لم يكن بهذا العناد . . . لقد حضر منذ برهة ، وجاء بميمى إلى البيت ، واكتفى بأن دخل وقال : « صباح الخير » ، ثم مضى لايلوى على شيء . وأنت تعرف السبب . . . » ثم استدارت ناحية ابنتها وقالت : « لقد حدثته بالأمر كله ، وعما تحملته مضطرة بسبب عزيزى حينيتسا . »

وغيرت ميمى الموضوع ، وهب تيتو لنجدتها حين عرض عليها أن يبحث لها عن بيت جديد ، ثم أضاف أنه سيضطر إلى الرحيل عما قريب ليزور ضيعة أحد أصدقائه .

لقد كان فيما مضى لايدرى كيف يلتمس الوسيلة ليخرج من المسكان على عجل ، أما الآن فهو يحجم عن الرحيل ، فقد بدت ميمى فى نظره مثيرة ماكرة.

قال يحدث نفسه حين بلغ حجرته : « هأنذا أشغل نفسى بالتفاهات ، بدلا من العناية بشئونى ، وهى على جانب من الخطورة — وليس من شك فى أنها جميلة للغاية ، ولكن ليس لدى وقت الآن لهذه المغامرات . »

وما كان يدرى متى يحين وقت رحيله مع أيوجا ، الذى اقتصر فقال إنه ينوى الرحيل بعد يومين أو ثلاثة أيام ، ولهذا كان من واجبه أن يعد للأمر عدته فى أى وقت . . . وكانت غرفته باردة مظلمة . . وكانت الساعة إذ ذاك قد بلغت السادسة . . . وكان عليه أولا أن يبدل ملابسه حفاظا على هذه البذلة الجيدة . . والحق أن من حسن حظه أن يملك هذه البذلة الجيدة ، فإن المرء ليشعر حينئذ أنه شخص آخر ، أكثر ثقة بنفسه وبغيره من الناس . . ومن حسن طالعه أنه التقى بابنة صاحبة الدار ، وهو يلبس هذه البذلة . . . ولكن حسبه هذا . . لقد امتلأ رأسه بميمى ، وينبغى له أن يفكر فى شيء آخر . . . وتذكر فجأة أن نعل حذائه فى حاجة إلى إصلاح . وما كان لديه ما يشغله ، ثم إن الجو بارد ، فلم لا يأخذ هذا النعل إلى الإسكافى قبل أن يزداد الجو سوءا .

وهكذا انطلق عارى الرأس إلى مندلسون ، وكان يسكن أقصى الفناء . وتناهى إلى سمعه من الردهة صوت ميمى مغردا ، هى إذن لم ترحل بعد . . وكان

يعرف الإسكافى ، كما كان يعرف غيره من السكان ، فقد كان هؤلاء جميعا ، وقد طحطحهم الفقر ، يشكلون أسرة كبيرة ، رغم ما تسبب من جلبة ، وما يحدث بينها من شقاق ... وكان مندلسون يشغل غرفتين ، كلتاهما تواجهان الفناء .. وكان بإحداهما شباك ، وباب المدخل بالأخرى . . واتخذ مندلسون من ركن وراء الباب ورشة له ، فهناك يقرع بالمطرقة ، ويشد الأحذية ، وينطلق بالسباب طوال اليوم ، وقد جلس محدودب الظهر على كرسيه ذى القوائم الثلاث ، يتبادل الرأى مع زوجه ، أو يدرب صبيه ، هذا إذا لم يجد أحداً آخر يحدثه .. وعلى الرغم من أنه قد بلغ الخمسين ، إلا أنه ما كانت هناك شعرة واحدة بيضاء توخط هذا الكثبان الكثيف من شعره الأسود — وكان دائماً أشعث شأنه شأن لحيته .. وكان يتيه فخرا بأنه قد تعلم حرفته على يد رابابورت ، وكان قصارى أمانيه أن يتلقى طلبات تدعوه إلى صناعة أحذية جديدة ، ولكنه أيضاً لا يأنف من إصلاح الأحذية القديمة ، هذا إذا كفلت له ما يكفى من مال ... ووجده تيتو بعمل بالمطرقة بهمة فى حذاء سيدة .

قال دون أن يتوقف عن عمله : « انتظر لحظة ياسيد هيرديليا ، دعنى فقط أنتهى من هذا الكعب من أجل السيدة تاناسيسكو ، فهى ذاهبة إلى المسرح هذا المساء ، وأنت ترى السيد تاناسيسكو جالسا ينتظر !.. تفضل لحظة .. أين أنت ياميزو ؟.. هات كرسيا للسيد هيرديليا !..

وصافح هيرديليا تاناسيسكو وميزو ، ابن الإسكافى ... ولحظ ، وهو يتخذ مجلسه ، أن جنديا لم تقع عليه عينه من قبل قد جلس فى أظلم ركن من الغرفة ...

وبعد فترة وجيزة ، خفتت حدة الجو ، فواصل تاناسيسكو الحديث حيث انقطع ، وقال : « لو كان هناك عدالة ياسيد ميزو لوجب أن نبدأ من البداية !.. هذا ما يجب أن يكون ... أنا لا أعترض على أن تفى الفلاح حقه ما استطعت ، لك هذا ، ولكن لا تسمح بإهانة أولئك الذين هم ، أولا وقبل كل شىء ، قد خدموا الدولة طوال حياتهم كلها ، هؤلاء لم يسرقوا أو ينهبوا ، ولكنهم الآن قد بلغوا من العمر عتيا »

وكان تاناسيسكو ، الذى بنى بزوجة تصغره بخمسة وعشرين عاما ، قد أحيل

إلى التقاعد قبل ذلك بعام ، فلما لم يحر ميزو جوابا بلا أو نعم ، استطرد وقال بغضب تزايد شيئا فشيئا : « نعم ، ليس من العدل ، ولا من اللياقة أن يضطر أناس مثلى ، نحن الذين أفنينا العمر من أجلكم ، واعتصرنا كما تعتصر الليمونة ، فيذلون أنفسهم فى أخريات أيامهم » !.

وكان مندلسون اشتراكيا متحمسا . . لقد قبض عليه البوليس وضربه المرة بعد المرة ، أما الآن فأجاب دون أن يرفع عينيه عن عمله : « ليس للعدالة سعر ، وهذا هو السبب الذى يجعل الناس لايطلبونها فى التجارة ».

ولكن ميزو تميز غضبا ، فقال بصوت جهير : « لو كنت تشكو من الظلم والقسوة ، ياسيد تاناسيسكو ، فأحرى بك أن تفكر فى الحياة التى يحياها الفلاحون فى الريف ، فهؤلاء لا تتخلل حياتهم بارقة أمل » .

فقال صاحب المعاش ، وقد خرج عن صوابه غضبا : « لقد سئمت الكلام عن فلاحيكم الأغبياء . . . إنهم على الأقل يجدون كفايتهم من الطعام والملبس والراحة ... وأنت لاتستطيع أن تخدعنى فى هؤلاء الفلاحين ، فأنا أعرف كنه الحياة فى الريف ... ومن واجبكم فيما أرى أن تعنوا قليلا بنا نحن أهل المدينة.. فنحن الذين نتحمل العبء كاملا ، والله وحده يعلم وطأة هذا العبء ؟ » .

وهكذا مضى فى حديثه ، ينعى على نفسه التزامه الأمانة فى العمل ، فلم يجمع مالا كما فعل غيره — على أنه الآن لايهتم بشىء ، ولا يعنيه أحد ... واستمر فى هذا الكلام إلى أن تسلم فردة الحذاء ، بعد أن أصلح مندلسون من أمرها وطلاها فغدت كمرآة مجلوة .

قال ميزو ساخرا بعد أن رحل عنهم صاحب المعاش : « محال أن يتحدث المرء حديثا موضوعيا مع هذا الشيخ . . . إنه عاجز عن رؤية أى شىء أبعد من موضوع معاشه . . . ولكن هؤلاء الكتبة أصحاب المعاشات هم فى الحقيقة عماد الطبقة الوسطى عندنا؛وهذا هو السبب الذى يجعله ينادى بأن تقوم الدولة برعايتهم ومنحهم كل مايريدون . . . أما أنت ياسيد هيرديليا ، فهل أنت موافق على الأوضاع كما هى ؟» .

قال تيتو : « ليست لدى فكرة واضحة عن الأوضاع هنا ، ولكنى أعلم أن الظلم يرتفع فى كل مكان ، بصورة أو بأخرى . . فهنا نوع من المظالم ، وفى بلد ثان نوع آخر منها » .

« ولكن الناس فى البلاد الأخرى يشنون الحرب عليها ، وهم لايقفون مكتوفى الأيدى إزاءها ، بل يرفعون أصواتهم مناهضة لها . . أما هنا فنحن نكتفى بتقبل الظلم كأمر من طبيعة الأشياء ، تلك هى المشكلة ! »

فتمتم تيتو بإيمان : « كثيرا ما يكون الكفاح غير ذى جدوى » .

فصاح ميزو : « هذا أسوأ ما فى الأمر ياسيدى ! . . فهذا معناه الاستسلام ! كنت أحسبكم فى ترانسلفانيا أشد استمساكا بانتصار العدل ! »

وكان هناك مصباح غاز يتدلى من السقف ، فينير الطاولة الصغيرة التى غطيت بمسامير خشبية ، وقوالب أحذية ، وأدوات ؛ الأمر الذى جعل بقية الغرفة فى شبه ظلام ، ظهر القوم فيه كالأشباح . . وبدا ميزو بقوامه النحيف ، وهو يلوح بيديه فى عنف كأنما يصطرع والظلام . . أما تيتو فبقى برهة يحدثه ويحدث أباه . . كان يدرك أن ثورتهما إنما سببها مايعانيان من فقر ، وهو فى هذا يرى رأيهما ، إلا أنه ، وهو الشخص المحافظ ، لا يستطيع أن يعبر عن همومه فى ألفاظ مريرة ، بل أسر بها فى نفسه ، عذابا لها ... ثم هو ، فضلا عن ذلك ، قد علم من جارفيلاس أن البوليس السرى يرقب مندلسون؛ وهو ، بعد ، لايريد أن يضم صوته إلى أصواتهم ، فيزج بنفسه فى أمور لا يدرى غير الله عاقبتها ..

قال الأب وقد انزعج لثورة ابنه : « مهلا ياميزو ... أنت جندى ، وقد تجلب على نفسك المتاعب . »

« أو ليس للجندى الحق فى أن يدلى برأى يؤمن به ؟ . . ثم أنا سأسرح من الجيش بعد عشرة أيام . وحتى قبل هذا ، لماذا تريدنى أن أقف موقف الحذر من السيد هيرديليا ؟ أليس هو أيضا من الطبقة الكادحة ، شأنه شأننا ؟ »

فوافقه تيتو فى غير حماس : « أنا حقيقة كذلك ؛ بل أنا على الأصح عاطل ، أتعلل بالأمل فى أن أجد عملا ! »

وبعد صمت تخلله شيء من الارتباك ، واصل ميزو الحديث وهو أهدأ من ذى قبل : « ينبغى لنا على الأقل أن نحتفظ بحقنا فى أن نجأر بالشكوى حين نخلو إلى أنفسنا ، وإلا .... ما قولك يا صديقى بيتر ؟ »

وكان السؤال الأخير موجها إلى الجندى الذى جلس ساكناً فى الركن المظلم ، على حافة الألواح التى يتكون منها السرير الخشبى ... وكان قد وضع لباس رأسه على ركبتيه ، لا تند عنه حركة ، كأنما قد قد من صخر ... ولقد هبط عليه السؤال بغتة .فنهض من مجلسه ، ولكنه ما لبث أن أدرك أين كان ، فعاد إلى مكانه ، أكثر ثباتا مما كان .. وكان صوته ، عندما هم بالجواب ، عميقاً غريبا ، كأنما وفد من عالم آخر ...

« حسن ... »

والتفت تيتو إليه ، وقد غلبته الدهشة ... كان كل ما يستطيع أن يتبينه فى الشبح وجها بارز العظام ، يميل إلى السمرة ، قد رشقت فيه عينان يتقدان نارا .. وكان الجندى يحمل قبعته الرسمية فى إحدى يديه الكبيرتين ، اللتين نتأت عظامهما كأنما خشى أن يفدغها .

قال ميزو موضحا : « هذا زميل لى فى الجندية ... لقد بدأنا الخدمة فى نفس الفرقة ، وامتدت أواصر الصداقة بيننا ... هو شاب طيب . وقد رقى إلى رتبة عريف — انظر إلى شرائطه ! . العريف بيتر بيتر — الفرقة كلها تعرفه ... »

وردد تيتو فيما بينه وبين نفسه : « بيتر بيتر ! ... يا له من اسم ! ! » .

وشعر أن من واجبه أن يقول شيئاً للغريب ، حتى لا يبدو أمامه متعجرفا ، قال :

« لست أحسبك من أهل بوخارست ! » .

فقال الجندى بسرعة وحزم ، كأنما ينفى عن نفسه تهمة : « لا ، لا .... بل أنا من الريف ، من ولاية أرجس » .

« هكذا ظننت »

ولم يكن تيتو على دراية بأماكن البلاد ، فكد ذهنه ليتذكر أين تكون آرجس هذه . قال متردداً : « أليست هي قرب بيتستى ؟ » .

فقال الجندى ، وقد أشرقت أساريره : « أصبت ، إنها قرب بيتستى . . وفى وسعك أن تصل إلى هناك لو أخذت قطاراً من هنا إلى كوستسى ، ثم تستبدل القطار هناك وتتجه إلى روزيورى ، ثم تنزل فى بيرديا ، فإذا بك فى آمارا فى لحظة حين » .

وتذكر هيرديليا أن آمارا هى البلدة التى جاءت على لسان أيوجا . . . بل لعل هذا الجندى قد وفد من ضيعة أيوجا نفسها . . وكان على طرف لسانه أن يسأله هل سمع بشاب اسمه أيوجا ، ولكنه خجل من أن يطرح السؤال أمام مندلسون ، فربما ظن الرجل أنه يتباهى بمعرفته بعلية القوم

وسأله فجأة : « أأنت سعيد لأنك ستترك الجيش ؟ » .

فأجاب بيتر بيتر فى جد وسكينة : « أنا لا أجد مبرراً للشكوى ، فقد تغيبت هناك فترة لا بأس بها إطلاقا . . ومع ذلك فأنا أفضل بلدى لأنه — كما ترى — بالنسبة لرجل ريفى . . . » .

واعتراه ارتباك فأمسك عن الكلام .

قال تيتو يشد من أزره : « كل إنسان بطبيعة الحال يحس بالسكينة فى موطنه ريفه . . . أتملك أرضا هناك ؟ » .

فأجاب الجندى متحمسا : « ليس عندنا أرض واسعة ، وكنا فى حاجة إلى المزيد منها . . والإشاعات تتردد هنا بأن الأشراف سينظرون إلينا بعين العطف و . . . » .

فصاح ميزو ساخراً . « أسمعت ما قال ياسيد هيرديليا ؟ أسمعت ؟ . إن أملهم معقود على الأشراف سادة الأرض ، وعلى أن الأشراف سينظرون إليهم بعين العطف ! ! » .

وتطلع بيتر إليهما مبهوتا . . ما كان بوسعه أن يفهم علة سخرية ميزو . . فقال بهدوء وبساطة . « إلى من نتطلع إذن إن لم يكن إلى الأشراف ؟ أنتطلع إلى الناس الذين لا يملكون شيئا ؟.. إن من لا يملك شيئا فى مقدوره أن يعطى بسهولة، لأنه لن يخسر أو يفقد شيئا .

فقال ميزو باحتقار . « عليك إذن أن تنتظر طويلا ! »

فغمغم بيتر ، وقد غض بطرفه إلى قبعته التى طواها وثناها بحيث لم يعد لها شكل .

وقبل أن ينصرف ، مد تيتو يده يصافحهم جميعا . . . كانت يد بيتر خشنة متشققة كأنها الأرض ذاتها .

الفصل الثاني

الأرض

— ١ —

كانت العربة الصفراء المألوفة من آمارا واقفة فى محطة بيرديا ، وهى محطة موحشة قفراء تقع فى وسط حقل على طريق كوستستى — روزيورى... فلما توقف القطار أسرع صبي إلى باب العربة التى ظهر فيها خيال جريجور أيوجا ، فجمع متاعه ، وحمله إلى العربة . . وكان يقف على رأسها إخيم العجوز ، حوذى الأسرة الثرثار ، وهو يشد بقوة لجام فرسين لا يستقران على حال من القلق، فهما يقضمان اللجام ، ويضربان فى الأرض ، وقد نفد صبرهما لهفة على الرحيل .

« مرحبا بك ياسيدى ! »

فرد جريجور وهو يتخذ مكانه إلى جانب السيد هيرديليا . « يسعدنى أن أراك يا إخيم ، هل كل شىء على مايرام ؟ »

« نعم ياسيدى ، متعك الله بالصحة » .

« حسنا ، فلنمض إذن إلى البيت ! » .

وأطلق العجوز العنان للخيل ، فإذا بها تندفع فجأة بحيث جعلت الصبي الذى جلس إلى جواره يكاد يقع على قفاه . . ومالت العربة ، على بعد قليل من المحطة إلى طريق وعر ، كان يخترق حقلا يؤدى إلى قرية كيو تينكا . . وبدت القرية ، على الأفق البعيد المشوب بلون الرصاص ، كأنها تل عظيم . . وانتشرت حول القرية ، على مساحات لا نهاية لها ، جذامات القمح الذهبية ، وقد رقدت وادعة ناعمة . . وهنا وهناك ترى العين أسراب الغربان الراقدة على الأرض .. أما السماء التى تخللتها بانتظام سحب الخريف ، فقد جثمت على الأرض ، كأنما التصقت حافتها بالأفق . . وانتصبت هناك شجرة قامت شاهدا يميز الطريق الرئيسى بين كوستستى وروزيورى .

ولما بلغا كيرتينكا ، قال جريجور لجأة يحدث تيتو : « هذا هو بيت بوبيسكو كيوكول .. لقد كنا طوال الطريق من الهبطة نخوض فى أرضه .. والرجل منذ بضع سنوات فقط كان ملتزما لهذه الضيعة ، ولكنه كد واجتهد لحسابه الخاص فنحى صاحب الأرض جانبا ، ونصب نفسه مكانه . . . ولعل صاحب الأرض كان أهلا لما حاق به ، فأنا لم أشهده فى الضيعة أبداً » .

وكانت القرية عبارة عن عدة أكواخ قام فى وسطها بيت الدائرة ، وهو بناء لا شكل له ، به برج مربع طلى كله بلون داكن الحمرة ، وأحاطت به الأبنية الصغيرة التابعة له . . . وكان الطريق المؤدى إلى آمارا يقطع الطريق الرئيسى عند قرية كيرتينكا ، فيخترق الدائرة ، ويمضى متجها ناحية وادى تيلورمان الذى كان ينحدر زهاء مائة وثمانين قدما ، كأنه الجبل . . . أما الوادى نفسه فقد بلغ الميل اتساعا ، وكان أملس ناعما كراحة اليد ، به أرض خصبة غنية كأنها شريط لانهاية له من الحدائق الخضراء ، ولكن لم يكن ثمة أثر يدل على نهر . .

« قف ياإخيم » قالها أيوجا عند بداية الانحدار ، ثم التفت إلى تيتو قائلا فى شىء من الانفعال : « أريد أن أريك أرضنا ، أعنى ماكان لنا من أرض وما بقى لنا منها . . . فى مقدورك أن تشهدها كلها من هنا كأنما هى قد رسمت على خريطة » .

وكانت الأرض ، فيما وراء وادى تيلورمان ، الذى رقد الآن أسفلهما ، تنثنى على امتداد وانبساط . .

قال جريجور وقد قام من مقعده وأخذ يتتبع بأصبعه مجرى الوادى المتعرج : « هذا نهر تيلورمان يقوم شاهدا على الحدود من هذا الجانب ، أما حدود الجانب الآخر فهى هناك تبدأ من قرية أيونيستى تراها على مرمى البصر ، إلى اليسار ، فتمتد حتى هناك إلى اليمين ، حيث يخترقها نهر سيلى .. وهذا اللسان الممتد من الأرض بين هذين النهرين كان كله يوما ضيعة أيوجا .. أما اليوم فليس فى حوزتنا حتى نصفه ... والحق أنها كانت مساحة شاسعة جداً ، تزيد على عشرين ألف بوجون .. أترى تلك القرية عبرالنهر ، الواقعة أمامنا مباشرة ،

على امتداد هذا الطريق نفسه ؟.. تلك هي باباروجا .. ووراء باباروجا، توجد قرية أخرى هي جليجانو ناو ؛ وإنك لتستطيع أن ترى بريق المعدن الموضوع على برج الكنيسة الجديد، انظر هناك، بعدذلك بقليل ، بين دغل الأشجار . هذا الجزء من الأرض على شمال الطريق كان أول جزء ذهب من أيدينا . لقد أعطاه جدى لابنته بائنة لها . . والناس يطلقون عليه ضيعة فلادوتا .. ذلك لأن بيت الدائرة يقع فى فلادوتا . . والذى يملك هذه الضيعة اليوم رجل يدعى ستانيو ، وهو لايعيش حتى فى هذه البلاد ، بل تراه دائما فى إيطاليا . . ولست أدرى ما يفعل هناك ، ولكن الناس يقولون إنه ملحق سياسى .. أما الذى يعنى بضيعته فهو مقدم متعاقد اسمه ستيفانسكو ، وهو رجل لطيف جداً ، عنده ثلاث بنات . ولأمر ما لا يستطيع تزويجهن ، رغم مالهن من حسن ، ورغم ما يتمتعن به من بائنة فوق ذلك . . . ما عدا هذا كانت الأرض كلها قطعة واحدة ؛ إلى أن توفى جدى . . . عندئذ قسمت الضيعة مناصفة بين أبى وأخيه تيوفيل . ثم أخذ عمى تيوفيل يبيع نصيبه شيئا فشيئا . . . وكانت هذه الأرض كلها تسمى ذات يوم ، يوم ليس ببعيد ، ضيعة آمارا ، أوقل ضيعة أيوجا . أما الآن فضيعة آمارا ليست إلا طرف اللسان ، أعنى الجزء الأدنى . . . سأريكها حين نقترب منها ... أما عن يمين قرية باباروجا فتوجد ضيعة زوجتى ، ومقدارها ألفان وخمسمائة بوجون ، وهى تمتد على طول هذا الطريق البعيد بين جوجانى وبيرلوجو . . . وهناك ، وراء ضيعة نادينا ، تجاه وادى سينى ، توجد ضيعة ليسبيزى ، وهى ضيعة يملكها صاحبك جوجو ، شقيق زوجى . . . ولقد أخذ أبوهما أيونيسكو يهمل فى العناية بهاتين الضيعتين، فعهد بهما إلى رجل يونانى، يدعى بلاتامونو . . . وهو رجل نشيط كفء يؤدى ما عليه بانتظام، ولكنه يغنم الكثير تحت سمعك وبصرك .. والرجل لهذا كله ، أو ربما بسبب هذا كله ، لا يحظى بحب الناس له ، ولكنه لا يأبه لهذا ، فحسبه أن يزداد هو ثراء .. وبعد ذلك تأتى ضيعة فايدى ، على مسافة من ليسبيزى ، بين آمارا ووادى سينى ، وهى تبلغ نحو ألفين من البوجونات .. وهذه الضيعة ملك مصرف فى بوخارست ، ولكن جاء ملتزم من مولدافيا، فأخذ يستغلها منذ بضع سنوات . ذلك هو كوزما بيريونا.. وهو رجل لاغبار عليه ، والله وحده يعلم كيف أتى إلى هذه الأنحاء — إنه ليسعى

ويكدح — وإنه دائما لفي شغل ؛ ولكن هذا كله بغير ما نتيجة ، فهو ما من مرة يضطر فيها إلى أداء قسط الإيجار إلا ويجد نفسه في ورطة . . . على أن أبي يحبه ، وهو يبالغ في الثناء عليه ، ولكنه لا يفعل ذلك بطبيعة الحال إلا لأنه يخسر دائما . . أما ما بقي من أرض بين النهرين ، فهي ملكنا ، أعني باستثناء رقعة تبلغ نحو أربعمائة بوجون ، توجد حول قرية ايزفورو حيث يلتقي النهران . . فهذه الرقعة تنتمي إلى ضيعة غيكا . . نعم ، لقد اختلطت الأمور بحيث بدأنا نطلق على كل جزء اسم أقرب قرية إليه ، مثل ضيعة آمارا ، أو روجينوزا ، أو ضيعة بيرلوجو وهكذا... أنا على أية حال سأفصل الأمر لك حين نبلغ ليسبيزي ؛ وهي تقع وراء الربوة ، حيث يمتد البصر من هناك إلى ايزفورو ، بل أحيانا إلى ولاية تيلورمان ، وهي تبعد بضعة أميال عن ايزفورو . . . هيا يا إخيم ، ولنمض إلى جليجانو ، ثم نتوقف برهة في ليسبيزي .

ولكن ، قبل أن يشرعوا في المسير ، صاح جريجور : قف ، قف لحظة . . . لنغتنم هذه الفرصة فنتعرف على جيراننا على الجانب الآخر . . فأنت ربما التقيت بهم أثناء الفترة التي تقضيها معنا ؛ وينبغي ، على الأقل ، أن تعرف من أين وفدوا . . . أتراني قد حدثتك عن المقدم ستيفانسكو ؟ حسنا ، لنمض في الطريق إلى اليمين . . في قرية جوجاني هذه لا يوجد أحد ذو شأن ، أما القرية الثانية هوميلي ففيها الجنرال داردالات ، وهو يملك ضيعة صغيرة ، يعنى بها كل العناية ، وله فيها بيت جميل المنظر . . وإلى جانب هذه القرية ، على الطريق ، ترى على هذه الربوة كفرا صغيرا به ضيعة جوريا ، وهي كذلك لا تزيد على بضع مئات من البوجونات ؛ وهذه الضيعة يملكها أيونيتا رونتومبان ، وهو صديق حميم لوالدي ، وشريف بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، وهو يعمل بجد ، ولا يفارق أرضه أبداً . . وللرجل ابنة تزوجت من قاض في روزيوري . . . وأما في أوروديلو ، وهي في بطن الوادي تجاه ايزفورو ، على هذا الجانب من النهر ، فتوجد ضيعة بيرتيكاري ، وبها قصر وأراض جديرة بالزيارة ، وربما ذهبنا هناك لترى هذا بنفسك ؛ إن تهيأ لنا الوقت . . والضيعة بطبيعة الحال يستأجرها ملتزم ، وأما البيت وما حوله من أرض فقد احتفظ به المالك ، وهو كثيراً ما يأتي إلى هناك ترويحا عن نفسه .

وأما ضيعة أسرة ماتى غيكا فتمتد من ايزفورو حتى ولاية تيلورمان ؛ والضيعة تحت نظارة رجل استطاع فى مدى أربعة أعوام أن يحرز لنفسه ضيعة قرب بوخارست ، وأما هنا فالظاهر أنه لا يقدر على شيء غير أن يسبب خسارة لمالك الأرض ... وتوجد فى ايزفورو كذلك ضيعة مريحة لطيفة يأتى أصحابها هنا كلما أشرف الربيع ، ويبقون حتى أخريات الخريف . وأما نحن فلا تربطنا بهؤلاء علاقة ، ولست أعرف سبباً لذلك ، إنما كان هذا حالنا دائما .. هذا كل ما فى الأمر — هيا إخيم ..

وشعر جريجور براحة وهو ينطلق فى الحديث ، وأحس ببهجة رققت من صوته .. أما تيتوهيرديليا فقد جعل ينظر ، ويستمع ، ولا يقول شيئا .

وانطلقت العربة مرة أخرى ، وأخذت الخيل تتهادى أكثر تؤدة عن ذى قبل .. وكان الطريق فى هذا المكان ينحدر ملتويا كالثعبان ، فالأرض هنا تميل ميلا شديداً ، شأنها شأن صخرة حطها السيل من عل .

قال أيوجا وقد لحظ دهشة صاحبه إذ لم ير علامة تدل على وجود ماء فى أى مكان : « هذا هو شأن أنهارنا ... فى مقدورك أن تعبرها ماشيا طوال العام ، بل إنها قد تجف تماما ، أما حين تفيض ، وهو ما يحدث أحيانا فى الربيع ، فالمياه تعلو حتى شاطىء النهر ، فيصبح كنهر الدانوب نفسه .. ولكن هذا لا يحدث فى كثير من الأحوال .. وهذا هو السبب الذى يجعلنا فى غير حاجة ولو إلى قنطرة يعبر عليها الناس . أما على الطريق الرئيسى ، عند أيونيستى ، فقد أنشأ القوم قنطرة لاستخدامها عند الحاجة ؛ ولكن القنطرة انهارت منذ سنتين ، ولم يشأ أحد أن يصلحها ، وأخذ كل إنسان يعبر النهر كما نعبره هنا على الأقدام .. ولكن التيار فى وادى سينى أشد خطورة ، وهو يسبب أضراراً كل عام تقريباً ، ولا يجف أبداً ! »

واخترقا الوادى .. واستقام الطريق أمامهما ... ولم تمض دقائق حتى ولجا باباروجا ، وهى قرية بائسة يخترقها شارعان يلتقيان عند أحد طرفيها ، وكان بها عدة أكواخ قذرة ، وأطفال لا حصر لعددهم ، وحيوانات فى ساحات البيوت

الخلفية ، وبين الحين والحين ترى العين فلاحا مسكينا قيئا ؛ وهناك على مرتفع صغير على مشارف القرية ، قامت كنيسة من الخشب كأنها دمية مكسورة . . وفغر تيتو هيرديليا فمه ليطرح سؤالا ؛ ولكن أيوجا توقع السؤال فقال : « لقد نشأت الأكواخ أول ما نشأت على يد الفلاحين الذين كانوا يعملون فى الضيعة ، وبعدئذ نمت القرية وكبرت ، دون أن يكون لأحد يد فى ذلك ؛ وهذا هو السبب الذى يجعل القرية تبدو كما تبدو الآن . »

فلما خلفا باباروجا وراءهما ، واصل أيوجا الحديث : « أتراك لحظت مفترق الطرق فى وسط القرية ؟ إن الطريق على اليسار يفضى إلى أيونيستى ، ومنها إلى كوستستى ؛ أما الذى على اليمين فيخترق ضيعة ناديئا ، ويتجه إلى قرية بيرلوجو ؛ وبيرلوجو تنتمى إلينا ، اللهم إلا المبانى الدائرة ، كما يسميها الفلاحون ، وهى مبان توجد عند مشارف القرية ، وتستخدم الآن صوامع للتخزين . . . أما الملتزم فيقطن جليجانو ؛ وكانت زوجتى ، فى المناسبات القليلة التى حضرت فيها إلى هنا قبل زواجنا ، تمكث فى بيت ليسبيزى ، مقر أخيها ، وهى قرية أكثر احتراما من هذه على أية حال . »

وأخذت الخيل ، مدى ربع ساعة بعد ذلك ، تخب المسير بين ضيعة فلادوتا على اليسار ، وضيعة باباروجا على اليمين . . . وكان الطريق مملا . . . عبارة عن أرض موحشة منبسطة لا تشقها إلا خطوط سنابل القمح القصيرة الخضراء ، كأنها دثار من الشعر على جسد قد تجمد من البرد .

« انظر ، هنا يسكن بلاتامونو ، إنه يستأجر ضيعة ناديئا ، وضيعة جو جو » قالها جريجور عندما بلغا قرية جليجانو ، وهو يشير إلى فناء عظيم على اليسار ، قد أحيط به سياج ... وكان فى قلب الفناء مبان بيضاء ، عروشها حمراء تلحظها العين من خلال أوراق الأشجار التى التفت بها .

وخرج عليهم من فرجة البوابة فى تلك اللحظة رجل نحيل ، بوجه لفحته الشمس ، وكان خفيفا نشطا ... وكان يلبس قبعة عتيقة ، وسترة قصيرة من الجلد ، أما حذاؤه الطويل فكان من جلد ناعم حول الكاحلين . . وتوقف الرجل ...

النطرة أمام داره ، عندما تناهت إليه أجراس الخيل فى عربة آمارا ، ثم ألقى لقيهم تحية حسنة مفعمة بالاحترام، قال : « أهلا وسهلا يا سيد جريجور ، حمدالله على السلامة ! »

ورفع أيوجا قبعته ، ورد على التحية فى برود شديد .
«أهو الملتزم ؟ .. » همس بها تيتو وهو يرنو إلى الرجل الذى وقف عند القنطرة .

وأومأ جريجور بالإيجاب ، فلما ابتعدا عن المكان قليلا ، غمغم قائلا : « أنا لا أميل إلى هذا الرجل ، رغم أنه لم يؤذنى فى شىء » . ثم استعاد صوته الطبيعى وقال : « هنا مفترق طريق آخر . . ونحن الآن قد اخترقنا القرية . . ولو مضينا قدما لبلغنا ضيعة شقيق زوجى ، جوجو أيونيسكو . . أما بعد هذا ، فأنت تعبر وادى سينى ، ثم تصل إلى جليجانو العليا ، وبعدئذ إلى قرية روشيو ، وهى على طريق بيتستى فيبربينتى ، حيث يملك الوالى الحالى ، بوريسكو ، ضيعة جميلة . . أما الطريق على اليسار فيبدأ من سيربانيستى ، وضيعة جوجو تمتد خلاله ؛ ولكننا سوف نتجه إلى اليمين ، ناحية ليسبيزى وآمارا . . . وأرض نادينا تلامس هذا الطريق الذى نسير عليه الآن ، وأما على اليسار فتمتد أرض جوجو » .

وتوقف الحوذى ، صادعا للأمر الذى وجه إليه ، فى منتصف الطريق بين جليجانو وليسبيزى . . وكانت الأرض هنا تنحدر انحداراً طفيفا حتى ملتقى الوديان . . وكان الجو صحوا فى هذه اللحظة فأتيح لهما أن يشهدا المنظر على نحو أفضل .

وواصل جريجور الحديث قال : « والآن دعنى أرك ماتبقى . . . على شمالك تستطيع أن ترى وادى سينى . . أما على اليمين ، فى اتجاه ليسبيزى ، فهناك تنتهى ضيعة جوجو وتبدأ أراضى فايدى . . . وفى وسعك أن ترى فيما وراء ليسبيزى الطريق المؤدى إلى آمارا وسوف نصل إلى هناك بعد قليل — وهى قرية أكبر من السابقة وأجمل منها منظراً . . . وهذا الطريق ، الذى يمتد حتى وادى سينى ، يشكل حدود ضيعة فايدى . . وكل شىء على جانبه الأيمن ينتمى إلينا ، حتى يبلغ

الوادى المجاور ، ووادى تيلورمان الذى شهدناه من قبل . . أما عن يميننا ، قرب هذا الحشد الصغير من الأكواخ ، فتوجد بيرلوجو . . وإلى هذه النقطة — أقصد الطريق بين ليسبيزى وبيرلوجو — تجرى أرض نادينا متخذة وادى تيلورمان حداً لها على الجانب الآخر . . والطريق ، كما رأيت أثناء مسيرنا إلى هنا ، يكاد يلف حول ضيعة زوجتى ... وفيما بين بيرلوجو وآمارا ، على امتداد الوادى هناك قرية أخرى ، اسمها روجينوزا ، تقع فى وسط أرضنا تماما .

هذه القرية هى موطن المبانى الخارجية حيث نخزن آلاتنا وأدواتنا الغالية ... وتستطيع أن ترى على امتداد الأفق قرية ايزفورو . . وهذه الرقعة الحمراء هناك هى سقف قصر غيكوليستى . . أما الغابة التى تقع على شمال ايزفورو فهى ملكنا — ويوجد بها نحو ثلاثمائة بوجون ، هى كل ما استطعنا أن ننقذه . . . وكانت آمارا منذ مائة عام تقع على حافة الغابة التى كانت تغطى هذه المنطقة كلها . . . ثم انظر هناك إلى اليســـار ، فى وادى سينى ، فإنك ترى هنالك قرية ڤايدى . . والطريق هناك — أعنى هذا الطريق الذى يبدو كالشريط الأبيض — يمتد حتى موزاسينى . وأنت ترى بوضوح على مدى غير بعيد ، عبر النهر أيضاً ، قرية كانتا كوزا ... وهى ضيعة تضم أكثر من ثلاثة آلاف من البوجونات . . ويقال إنها كانت فى حوزة آل كانتاكوزينو ، ولكنها اليوم فى يد ضابط من بيتستى اسمه لكى جرادينارو . . والحق أنك أينما سرت لا ترى إلا ضياع الأشراف فى هذه الأنحاء . هناك بوتا ، وبعدها نجراسى ، وزيدوريلى ، ودامبرافينى .

ولما بلغا ليسبيزى أطلع جريجور هيرديليا على بيت جوجو ، وهو بيت كان يبدو حسن النظام ، لأن جوجو كان يؤمه من وقت إلى آخر — بدافع من زوجه التى كانت مولعة بحياة الريف ، أو على الأقل بوصفها تغييرا من حياة الحفلات التى يقيمانها فى بوخارست .

ووصلا أخيرا إلى آمارا ... كانت قرية أكبر من القرى الأخرى ، ولكن غلب عليها نفس الفقر ، وكانت بها نفس الأكواخ التى غطيت سقوفها بالقش ، ونفس الساحات التى تتغلغل فيها الأعشاب . . واسترعى جريجور ، والزهو يملؤه ، انتباه تيتو إلى الكنيسة المشيدة من الحجر ، ببرجها اللامع الذى أقامه جده

فى سالف الزمان .. ثم أشار بعد ذلك إلى المدرسة الجديدة التى بناها أبوه .. وعند حارة صغيرة أشار إلى دوار ينتمى إلى ضيعة فايدى ، وكان قبل أن تتفتت الضيعة مقرا للخدم ، أما الآن فإن الملتزم كوزما بيريونا يتخذه مسكنا له .

قف يا إخيم ... سنتدلى هنا حتى يتسنى لهذا السيد أن يرى كل شىء عندنا هنا ! قالها جريجور بغتة وهو يقفز من العربة وتبعه تيتو .. وقال جريجور مخاطبا الحوذى : « امض أنت »

كان على اليمين سياج من الخشب ، اتخذ له دعائم من الطوب المربع الشكل هنا وهناك ، وهو سياج منزل أيوجا نفسه .. وقام وراءه صف من أشجار الحور انتصبت على استعداد كأنها فرقة من الجنود .. وكان فى وسع العين أن ترى ، من خلل البوابة المفتوحة مساكن الخفر وعمال المزرعة والخدم ، هذا علاوة على الإسطبلات والزرائب والصوامع ... وكان المدخل الرئيسى على مدى مائة خطوة ، عاليا عريضا ، به ثلاث قباب من الطوب تلاقت فى أعلاها لتشكل بنية حمام .

قال جريجور فى أسى ، وهو يدخل وتيتو : « سوف ترى الآن أفاعيل الهوى »!

فى نهاية ممشى أشجار الشربين الوليدة ظهرت الفيلا الجديدة كأنها ابتسامة امرأة حسناء ... وكان تيتو يعلم أن جريجور قد بناها حبا فى ناديا .. وكانت فيلا بيضاء ، ذات شرفة بهيجة كبيرة ، وشبابيك واسعة ، وأربعة أبراج صغيرة ، على شكل السهام كأنما قد نصبت دفاعا عنها .. وكان اللبلاب ينساب متسلقا فوقها ، بل تراه فى بعض الأماكن قد بلغ الشبابيك القائمة فى الطابق العلوى .. وكان الممشى يزداد اتساعا حتى التقى بحوض أزهار على شكل القلب ، قد توهج بورود حمراء أمام الدار .

« لابد أن تتناسى هذا الوهم الذى طاف بالفؤاد مرة ! » قالها صاحب البيت عندما لحظ تيتو يتطلع إلى حوض الزهر ، كان خاطرا هم بنفس محب مسكين ، وأنت تعرف أذواق المحبين ! .. أنا لم أبق على هذا الحوض ، وأهتم به إلا لأقنع بأننى مازلت قادرا على الحب !

وضحك ضحكة جافة، ثم واصل الحديث بلهجة أخرى، قال : « لو أردت حقيقة أن تتلمس طريقك فى هذا المكان ، فأنا أرى أن تطوف حوله حتى ترى كل شىء . . أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بهذه البيانات الكثيرة . . هذه هى المرة الأولى والأخيرة.

وقام البيت الجديد فى ساحة رحيبة كانت محل عناية جريجور نفسه ، فكان هو الذى استحضر أشجار الشربين ، وهى أشجار فى الواقع لم تألف التربة فى هذه الأرض المنبسطة . . . وكانت الممرات التى فرشت حصى ورملا ناعما تتثنى وتميل بين الخمائل وأحواض الزهور والأدغال ذات الشجيرات الخاصة والمروج التى تشذب كل أسبوع . . . وكان السياج الذى أحاط بهذه الساحة تدعمه شبكة من الأسلاك تقف حائلا بين الدجاج الوافد من الفناء المجاور . وكان اليمام وحده هو الذى تمكن من الطيران بحرية فوق الممرات وأمام الفيلا ؛ ولكن هذه الطيور نفسها كانت أشد فزعا هنا عنها بين الحيوانات فى المزرعة .

واتجه أيوجا وهيرديليا صوب اليمين . . كان بيت الأسرة القديم قائما خلف الفيلا بنحو مائة ياردة . . وكان عبارة عن دوار ضخم عتيق منخفض ، كأنما امتد أساسه فتشعبت جذوره فى الأرض . . وكانت له شرفة ذات أعمدة تزين واجهته كأنها رواق أثرى . . . واستمر أيوجا الأب يسكن هذا البيت ، فقد ولد هو فيه ، ثم إنه يعيش معظم أيامه فى القرية ، ولهذا بدأ البيت القديم فى نظره أكثر حياة من البيت الجديد .

« هذه هى مملكتنا ! » قالها أيوجا عندما بلغا واجهة الفيلا مرة أخرى ، وهنا كان صبى الحوذى ينتظر ليدل على أنه قد أفرغ كل شىء من العربة .

وكان ثمة سؤال ظل يحترق على شفتى تيتو هيرديليا ولكنه تردد طويلا فى أن يطرحه على صاحبه . . أما الآن ، عندما بدا أن جريجور قد أوشك على إفراغ ما فى جعبته من كلام ، فقد بلغت به الرغبة قصارى قصاراها ، فقال فجأة ، وهو يرمقه بنظرة ثاقبة : « لقد حدثتنى طويلا عن ضياع الأشراف ، وكلها ضياع عظيمة رائعة. ولكن أين الأرض التى يملكها الشعب ؟ »

وبغت أيوجا . . . فهو ما كان يتوقع أن ينزل عليه هذا السؤال فى هذه

اللحظة ، رغم أنه وهو يتحدث أثناء الرحلة ، قد خطر له عدة مرات أن تيتو ربما يطرحه عليه ، بل إنه دهش عندما رأى ضيفه لايفعل . . على أنه استعاد رباطة جأشه ، وأجاب : « لقد قلتها : « الأرض التى يملكها الشعب » — هذه هى مشكلة الفلاح . . الأرض ! ! . إن الشعب لايملك منها إلا القليل ، وما كان يملكه منها قد زال وتلاشى . . . . ولكن تلك لعمرى قصة أخرى ! »

ولم يفهم هيرذيليا شيئا . ولكنه لم يشأ أن يلح فى الأمر ، ذلك أنه أحس أنه نكأ جرحا قد طال عليه العهد .

— ٢ —

« مرحبا أيها الشاب ، أهلا بك وسهلا ! » قالهاميرونأيوجا مقاطعا جريجور وهو يقدم إليه صديقه ؛ ومن ثموأدالتحية التقليديةالتىأعدها تيتو وهوفىالقطار .

كان الشيخ فى جلباب طويل كالقفطان التركى،وصافح الزائر الشاب بحرارة ، كأنما يسبر غوره فى لحظته تيك ، بل ولأبد الآبدين . . وكانت عيناه سوداوين نافذتين ، تغوصان فى أعماق نفس الإنسان ، وتقرآنمايجرىفى ضميره من أفكار.. وكان أيوجا الشيخ أطول قامة من ابنه ، وأكثر منه وسامة ، له نظرة رجل تعود أن يلقى الأمر فيطاع . . وكان يزين وجهه شارب كثيف على طراز أهل رومانيا ، قد وخطه المشيب الساعة . . وكان يتمتع بصوت رنان قاطع ، ولكن به دفء يجذب إليه السامعين . . وكانت يداه قويتين ، بارزتى العظم ، توحيان بأنهما قادرتان على إدارة محراث ، رغم ما اتسمتابه من حساسية ، وما فيهما من أصابع رقيقة رقة خاصة .

وأومأ لضيفه أن يتخذ له كرسيا على مقربة منه،ثم نظر إلى ولده مستفسرا . كان جريجور يعلم أن والده يتلهف على سماع ما اتخذه من تدابير فى بوخارست ؛ فقص عليه ما صادفه من متاعب ، وكيف أتيح له أن يعود وجيبه أكثر امتلاء عما كان يرجو ويتوقع ، بفضل دوميسكو الذى قدم له عونا خارقا للمألوف .

وغمغم الشيخ مغتبطا : « دوميسكو مرة أخرى ! ! . دائما نرى الأصدقاء القدامى هم الذين يهبون لنجدة المرء وقت الحاجة . . ولكنك أحسنت صنعا إذ لم تقض على الأرمينى ، لقد أصبت حقا ! »

واستمر يتفحص جريجور برهة ، ثم التفت إلى تيتو الذى تأثر تأثرا بالغا بمظهر الشيخ — وبترحيبه به . . وسأله ميرون أيوجا عن والديه وأسرته ومتى ولماذا ترك ترانسلفانيا . . ولما سمع الأب أن الشاب يعمل شاعرا ، وأنه يود أن يشتغل بالصحافة ، ندت عنه إيماءة نمت عن احتقار .. ولحظها تيتو وجريجور معا ، فأخذا بها .. وأراد تيتو أن يستميل الشيخ إليه ، فأخذ يتحدث عن أهل هنغاريا ، وعن الاضطهادات التى يعانيها الرومانيون ، وعن غير هذا وذاك من موضوعات كان على يقين من أنها تمس من الشيخ وترا حساسا .. وأصاخ الرجل سمعه بانتباه ، ثم قال أخيرا : « نعم ، الشعب يجتاز وقتا عصيبا مع من بيدهم مقاليد الأمور ، ولهذا السبب عينه يجب على الزعماء ألا يتخلوا عن الشعب ويهجروه.. أنا أحب أهل ترانسلفانيا الذين يفدون إلينا ، هذا حق لا شبهة فيه ، ولكنى أفضل عليهم أولئك الذين يبقون هناك .. هؤلاء يواجهون المتاعب ، ويجلبون على أنفسهم سهام الطغاة الباغين : الأمر الذى يفضى إلى حماية الشعب .. إن جمهرة الشعب لا تستطيع العيش دون زعماء ، وإلا نشأوا بلداء خاملين كالطفيليات فى دنيا النبات . والراعى الذى يتخلى عن قطيعه هو أشد بلاء من الراعى الذى يقود القطيع إلى ضلال ، لأن القطيع الذى يترك وشأنه يتبدد هباء ، أما إن كان له راع ، صالحا كان أم طالحا ، فلن يتبدد أبدا !! »

وارتبك جريجور ، وبخاصة عندما رأى أن وجه تيتو قد امتقع ، فقاطع أباه محتجا : « لا بأس فى هذا الكلام كله يا أبى ، ولكن الظاهر أنك تلومه لأنه رغب فى الحرية رغبة قوية دافقة دفعته إلى المجىء إلى هنا ، حيث تتاح له فرصة أكبر لتنمية مواهبه على كل حال .. ولا تنس أن القدر قد قضى على رومانيا أن تنقسم شيعا وأحزاباً ، يتحكم فيها الأجنبي ، ولهذا وجب عليها أن تسعى على الأقل للحفاظ على وحدتها الروحية ، وهو أمر لا يستطيع أن ينهض به إلا الشعراء والزجالون . »

قال الأب موافقا : « صدقت !.. ولكن لو انتقل هؤلاء الشعراء والزجالون إلى بوخارست — إلى عالم الحرية — ماذا إذن يكون مصير الشعب الذى يخلفونه ظهريا ؟.. إن الوحدة بطبيعة الحال أمر لازم ، ولكنا لا نريدها فقط وحدة

بين الشعراء ، وإنما يجب أن تكون وحدة بين أكثرية الناس .. بل إن الشعراء في الواقع ليكتبون عن إيمان أشد وهم بين أهل بلدهم ، لأنهم هناك سيتحملون العبء ، أما هنا فالوطنية لا تخرج عن كونها مجرد مظهرية وكلام !!

وأصر جريجور وقد ازدادت لهجته حدة : « أنت على خطأ بين يا أبي .. فإن وحدة الروح تنشأ أول ما تنشأ عن طريق لغة واحدة مشتركة ، ولو بقي كتابنا يدفنون أنفسهم في ولاياتهم ، فلا مناص من أن تزداد الخلافات وتزداد المتناقضات في لغتنا ، فينتهي الأمر حتما بألا يفهم الأخ أخاه !! »

ولم يتأثر الشيخ ، بل تابع الحديث بصوت هادئ النبرات : « لقد عشنا نحو ألف عام ، ومررنا بعهود ربما كانت أسوأ مما نمر به الآن ، ومع ذلك فقد احتفظنا بلغتنا نفسها — سواء هنا أم في ترانسلفانيا .. ثم إن آدابنا ، سواء أكانت حسنة أم سيئة ، فهي لا تزال تتخطى الحدود التي تفرق بيننا ، وليس من شك عندي في أنها ستستمر كذلك .. وأنا أعتقد أن الكتاب قد أدوا واجبهم ، كل حسب تخصصه ، وكل وفق قدراته .. وأنا لا أقبل الهروب من الميدان ، في أي صورة من صوره ، أو لأي سبب كائنا ما كان .. فإننا في الغد ، أو عندما تدق الساعة ونسترجع ترانسلفانيا ، في حاجة إلى القادة والزعماء الأكفاء هناك .. الزعماء الذين انبثقوا من صفوف الشعب ، والذين يستطيعون أن يعكفوا على إدارة شئون البلد ... »

واستمر الجدل دون أن يتنازل أي منهما عن رأيه .. وكان هيرديليا يستمع إليهما وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة بلهاء ، ولكنه كان في صميم نفسه يستحسن ما يقولان ، بل هو يتفق في الرأي معهما معا ، سواء بسواء .. وأحس تيتو براحة بالغة حين أعلن الخادم عن مجيء الملتزم الذي يشرف على ضيعة ڤايدى وكان ميرون قد أرسل يستدعيه .

كان كوزما بيريونا رجلا في الخامسة والثلاثين .. وكان له سبعة أطفال ، وزوجة حسناء كانت على استعداد لأن تنجب له المزيد من الأطفال .. ولقد عمل الرجل مشرفا في عدة ضياع في ولاية تيلورمان ، إلى أن رضي الله عنه ،

منذ أربعة أعوام . فأتاح له أن يستأجر ضيعة فايدى من البنك الزراعى بسعر معقول بالنسبة لهذه المنطقة . . ولقد حدث قبل سنوات عديدة مضت . بينما هو يعمل فى مزرعة ستانيسكو . أن ضربه الناس ضربا مبرحا . بدعوى أنه قد غشهم فى جباية العشور . . وهو منذ ذلك الحين يخاف الفلاحين . ويرتعد فرقا منهم .

قال الرجل بمجرد أن اتخذ مجلسه ، وقد ارتسم على وجهه تعبير نم عن مرارة : « ألم أقل لك هـــذا دائما ياسيد ميرون ؟.. أم أنت لم تسمع بما حدث لى ؟.. لا أظن أنك سمعت به ، لأنى أنا نفسى لم أكتشفه إلا منذ قليل ... لقد نهبونى ياسيد ميرون ... لقد سرقوا على الأقل نصف حمولة عربة من الذرة بالأمس ، من المخزن الجديد !!.. إن الخفر لايعرفون شيئا ، ولم يروا شيئا ، وكذلك شأن العمال ؛ مامن أحد يعلم كيف حدثت السرقة ، أو من اقترفها ... وليس من شك فى أن عصابة منهم هى التى أخذت تدخل وتخرج طوال الليل .. وأنا فى الأسبوع الماضى فقط أخذت هذه الذرة جباية للعشور ، أخذتها بالعدل والقسطاس — وأنت تعرفنى ياسيدى ، أليس كذلك !.. وها أنت ترى ماقسم لى من حظ!! »

وامتلأت نفس ميرون أيوجا هما وغما عندما سمع شكوى الملتزم — على نقيض جريجور الذى ظهرت على وجهه مسحة من السخرية . . كان الأب يشاطر بيريونا شعوره ، بسبب ما حاق به من خسارة فادحة ، بيد أن الحدث فى حد ذاته جعله يفكر تفكيرا عميقا . .

إنه لنذير سوء أن يأتى الفلاحون فيسرقون جماعة هـذا المقدار الكبير من الغلة — حتى ولو لم يبلغ القدر الذى ذكره بيريونا ... أما أن يأتى واحد منهم فقط فيسرق وحده — وسواء هرب بالغنيمة أم لم يهرب — فهذا ليس بالأمر الهام ؛ لأنه حالة فردية ... أما أن يتجمع الناس فيسرقون زرافات فهذا دليل على تغير خطير ...

قال ميرون يخاطب ابنه : « أرأيت إلى النتائج التى ترتبت على هذه الاجتماعات الليلية فى الشتاء ، تلك الاجتماعات التى أخذت تشجع الفلاحين عليها ، وتدفعهم

إليها ؟ .. طالما أن الفلاح يدرك ألا حيلة له غير الاتفاق مع مالك الأرض حتى يتمكن كلاهما من العيش ، فإن الأمور كلها كانت تجرى على مايرام ... ولكنك منذ أخذت تحدثهم هذا الحديث الفارغ ، بدأت هذه السرقات تقع .. ثم لاتنس أن هذه ليست إلا البداية ... لاشك ستتلوها حوادث أخرى ، ربما كانت أسوأ من هذه وأخطر ! »

فرد جريجور بلهجة تشوبها سخرية : « لا تغال ياوالدى ! فالفلاحون قد ألفوا السرقة من قبل ، كما أنهم سرقوا قوما آخرين غير صديقنا الملتزم .. إن السرقة متفشية منذ بدأت الخليقة ؛ ولست أدرى لماذا تستخلصون نتائج مروعة من هذا الحدث العادى ؟ »

ولم يعن الأب بالرد عليه .. لقد كان يعلم طبع جريجور جيدا ، فالفتى لايصعب عليه أن يلتمس عذرا أو تأويلا لكل أمر ... واستغرق فى تفكير عميق بضع لحظات ، وإذا به يصل إلى قرار لا رجعة فيه ، قال : « أرسل فى طلب العمدة والرقيب ... إن من واجبهما أن يعثرا على اللصوص فوراً ، أينما كانوا !! أما المسروقات فسننظر فى أمرها بعد ذلك ... وأنا أرى أن توقع غرامة على الخفراء عندك — لابد أن يضربوا بالسياط أولا حتى يعترفوا على المجرمين .. نعم ، نعم ، أنا على يقين من أنهم يعرفون المجرمين — هذا إذا لم يكونوا هم أنفسهم شركاء فى الجريمة !! »

واستعاذ الملتزم من الشيطان ، وقد استبد به الهلع : « لاحول ولا قوة إلا بالله ... أتريدهم ياسيد ميرون أن يشعلوا النيران فى كل شىء ، وأن يخربوا بيتى تماما ؟ .. لقد رأيت ما حل بى ، أنا الذى أعاملهم معاملة رفيقة رقيقة كما أعالج جرحا مؤلما حساسا ... تصور ما يمكن أن يصيبنى لو عاملتهم معاملة فظة — حاشا لله !! . أنا ماجئت إلا لأقص عليك ماحل بى ، كأنما أنا ذاهب إلى والد رحيم يعيننى على أمرى ويرعانى ، ولكن ... »

ودمدم الشيخ وهو يقاطعه : « سأتولى الأمر بنفسى !! فأنا أعتبره من الأهمية بمكان . »

ولزم الاثنان الآخران الصمت ؛ ولم يشأ جريجور أن يتدخل ، وأبوه على ما هو عليه من عزم وتصميم ؛ أما تيتو فلم يلق بالا إلى النقاش ، فقد كان لايزال مرتبكا إثر المحنة التى مر بها منذ قليل .

وكان ميرون أيوجا فى واقع الأمر قد استدعى بيريونا من أجل مسألة أخرى ، ولكنه الآن لم يعد يهتم إلا بموضوع السرقة .. وسادت فترة من الصمت ، استأنف بعدها الكلام ، كأنما يحدث نفسه غير ناظر إلى أحد : « على أية حال ليست هذه هى المرة الأولى التى يسرق فيها الناس كما يسرق الغجر ... ففى الخريف الماضى فقط حدثت خمس حوادث ، منها سرقتان عندنا .. أشياء بسيطة . ولكن لها دلالتها ... »

ولزم الصمت مرة أخرى ، يقلب الأمر فى ذهنه ، وأخيرا صرح بعزم ، كأنما قد عثر على الجواب الصحيح ، قال : « يجب أن نقتلع الشر من جذوره !!.. ونحن لو جعلنا منهم أمثولة الآن ، وفى الوقت المناسب ، لكان هذا أجدى من القمع العنيف فيما بعد . أعنى حين ينتشر الوباء ويزداد خطورته ... »

وحاول كوزما بيريونا أن يهون من الأمر ، فقد أفزعه الاتجاه الذى سار فيه الموضوع ، إذ ما كان فى نيته غير أن يفصح للشريف عن الضرر الذى نزل به ، قال : « لقد تغيرت نفسية الفلاحين كثيرا ياسيد ميرون !.. لقد هبوا من رقادهم ، وإنهم خبثاء جدا . والواقع أن كل إنسان قد تفتحت عيناه هذه الأيام ، وهذا هو السبب الذى يجعل الأمور تسير من سىء إلى أسوأ ... والفلاح إذا ماهب من غفوته يطالب بالأرض ، ويمضى يردد هذا الطلب طوال الوقت ؛ ولا يعنيه إن كان من الميسور أن يحصل عليها أو لا يحصل ، إنما هو يلح ويلح ... »

وظن تيتو ، بعد أن استكانت الزوبعة قليلا ، أن الوقت قد حان ليبدى ملحوظة هادئة . قال : « هذا هو طبع الفلاح حيثما كان ... وهكذا الحال أيضا فى ترانسلفانيا ، فإنك لاترى الفلاح قانعا أبداً ... ولست أرى بأسا فى ذلك ، إذ طالما كان الفلاح محبا للأرض ، كلفا بها ، فلن يتمكن أحد من انتزاعها من بين يديه ... »

فلما قال هذا رشقه الشيخ بنظرة طويلة هازئة جعلت تيتو يمسك عن الكلام ويغض بطرفه مرتبكا ، عاجزا عن أن يدرك علة هذا الغضب الشديد .. أما الملتزم فقد حاول أن يهدئ من روع الشريف ، فقال مستعطفا : « ولكن الأمور تختلف فى بلدكم ياسيد ... » وكان على غير بينة من اسم تيتو ، فهمهم بصوت ما بدله ، ثم قال : « هناك لابد أن تؤخذ الأرض غلابا من الأجنبى الدخيل الذى اغتصبها منكم مدى قرون من الزمان ... أما هنا فالأرض قد تملكها الأشراف أجيالا وأجيالا ، فحافظوا عليها ، ودافعوا عنها ضد كل باغ يتهددها ».

قال جريجور جازما : « كن على ثقة من أن ما حدث هناك لابد واقع هنا قبل مضى زمن طويل ... انظر إلى الوضع الراهن للأمور .. إن أكثر من نصف أراضى الأشراف فى حوزة الأجانب ، وهؤلاء يتصفون بكل شىء إلا بحبهم للأرض .. والله وحده يعلم ماذا سوف يحدث مستقبلا ... ولكنى ما زلت أعتقد أن من الخير لهذا البلد أن تكون المزارع والضياع ملك يمين الفلاحين ، عندئذ سيكون أشق على الأجانب الدخلاء أن يسلبوا الأرض منهم من ان ينتزعوها منا — والكثرة على أية حال تغلب الشجاعة ، إن لم يكن ثمة سبب آخر ! » :

وكانت نظرة من الأب لجريجور مثل نظرته إلى تيتو ، ولكنه لم يشأ أن يرد عليه هو أيضا ... لقد وضح له أن ولده يقول كلاما فارغا ، وساءه أن ابنه وهو الذكى الأريب ، عاجز عن أن يتبين هذا الهراء بنفسه .

أما بيريونا فقد أحس أن كلمات جريجور كانت موجهة إليه أيضا — ولكنه أخفى حنقه فى نبرة عذبة ، قال : « يا سيد جريجوريتسا ، الحق أنها لكبيرة أن تتحدث هكذا ! فإن أدمغة الناس قد غدت محشوة بتصورات تهيء لهم أنهم سادة على أرض الأشراف ، وسوف ترى أن هذا الأمر واقع لا محالة ... ألم تلحظ أنهم لا يكادون يسمعون أن ضيعة كبيرة تباع إلا ويبرعون لشرائها ، وتقسيمها فيما بينهم ؟ . . . وهنا بالذات — على سبيل المثال — وهذا أمر كنت على وشك أن أخبركم به . . تقول الإشاعات إن الفلاحين يزمعون شراء عزبة السيدة ناديننا ! »

ورفع أيوجا رأسه فجأة ، وقد غلبت عليه الدهشة ، صاح : « ماذا قلت ؟.. يشترونها ؟ . . أليس من اللازم أن تعرض العزبة للبيع أولا . ثم بعدئذ يتقدم الناس للشراء ؟ » .

« يقول الناس إنها معروضة للبيع ! » . .

قال الأب مستهجنا : « أسمعت بهذا يا جريجوريتسا ؟ ! » .

فقال الابن ، وهو يهز كتفيه غير مبال : « نعم ، سمعت به » .

وواصل الملتزم الحديث متطيرا : « أحسب أن الذى أشاع الخبر هو بلاتامونو . . . فهو نفسه ، على قدر ما بلغنى ، يرغب فى شراء الأرض . . . والفلاحون يرددون : « لماذا يشترى الأرض يونانى ، ولا نشتريها نحن ؟ » .

وتساءل ميرون الأب ، فى سخط وانفعال هذه المرة : « قل لى يا جريجوريتسا كيف بدأت هذه الشائعات ؟ . . إن الراغبين فى الشراء سوف يتكأكأون حول عزبة زوجك ، والظاهر أنك لاتعرف شيئا عن الموضوع . . لابد أن فى الأمر سرآ ، لأن الناس يفقدون صوابهم هكذا ! » .

قال بيريونا : « صدقت يا سيدى ! . . فإن الناس يقولون إن السيدة نادينا نفسها قد صرحت لليونانى أنها لا تنوى تأجير العزبة له بعد ذلك ، مهما عرض من ثمن ، حتى ولو ضاعف الإيجار . . فهى ، فيما قالت ، قد عقدت العزم على بيعها لتتخلص من المضايقات كلها ، من التزامات وإيجارات وفلاحين . . . إلخ هذا هو الموقف يا سيد ميرون ! » .

وتأثر ميرون أيوجا لهذا الخبر أشد مما تأثر بحادث السرقة . فألح على الملتزم يستزيده من المعلومات ، ولكن لم يكن فى جعبة الرجل شيء آخر . . وعندئذ أخلد الأب مرة أخرى إلى الصمت ، ولم يعد ينبس ببنت شفة . . . وأعلن الخادم أن المائدة قد أعدت ، فنهض بيريونا وقال مرتبكا : « أنت استدعيتنى يا سيد ميرون لتأمرنى بشيء ولكنى جئت أحدثك عن متاعبى أنا ... معذرة يا سيدى . »

وحاول الأب أن يتذكر لم استدعى الرجل ، ولكنه عجز عن التذكر ، فأثار فيه هذا سخطا أقوى وأشد . . والتمس عبارة تناسب المقام ليتخلص من الملتزم بلباقة ، ولكنه لم يستطع أن يتوصل إلى شيء . . . وأخيراً غمغم ، وقد بان عليه التعب ، دون أن ينظر إلى بيريونا : « رافقتك السلامة ، حسبك ما جئتني به من أخبار سوء » .

— ٣ —

لم يتمالك تيتو هيرديليا نفسه إلا بعد أن بلغ حجرته بعد العشاء . . . كان كل شيء معدا له . . . وقاده جريجور إلى الغرفة، وطلب إليه ألا يحمل كل أقوال أبيه محمل الجد ، لأن أباه كان شأنه هكذا دائما — غريب الأطوار فى آرائه وسلوكه ، ولكنه طيب القلب ، خالص النية . . . وكان أيوجا حريصا على ألا يعلق بنفس تيتو تأثر من مسلك والده ، وإن كان هو نفسه قد تلظى نارا طوال العشاء ، وغص بالطعام ، لأن الأب ازداد غلظة ، وتجاهل تيتو تماما ، وقضى الوقت كله يجادل ولده فى صغائر وتفاهات .

وكانت غرفة هيرديليا فى الطابق الأول من المبنى الجديد ، وكان لها شباك يشرف على ساحة الدار القديمة ، وشباك آخر يطل على الحديقة . . وترك جريجور ضيفه ، وعاد إلى أبيه فى الدار القديمة حيث سبق أن تناولوا الطعام . . كان أيوجا قد قضى حياته فى هذه الدار ، وهو لا يأوى إلى الفيلا الجديدة إلا حين يستقبل ضيوفا له ، ثم لكيلا تبدو الفيلا مهجورة . . . ولقد أطلع جريجور صاحبه على خدر نادينا الأنيق ، فى الجناح الآخر ، حيث كانت صورتها تطل من عليائها .

وشغل هيرديليا نفسه بالتمشى هنا وهناك ، يراوده الأمل فى أن يرجع جريجور على وجه السرعة فيتبادل معه بعض الحديث ، ولكنه عاد وتذكر أنه ألقى إليه بتحية المساء ، ومن ثم أصبح هو طليقا فى أن يفعل مايشاء حتى صبيحة اليوم التالى وكان قد مضى من الليل الكثير ، وكانت النيران اللطيفة تشتعل فى المدفأة ، كأنما كانت تدعوه إلى النوم ، فبدا له أن خير مايفعل هو أن يلبي هذا النداء .

ونهض صباح غده مبكرا على غير عادته فى بوخارست . . وكان القوم جميعا

قد نهضوا قبله بزمن طويل .. وصرف صباحه يطوف فى أرجاء البيت القديم ، لأن جريجور قد شغل عنه بتسوية بعض الحسابات مع ازباسيسكو ، وكان يمسك دفاتر الفلاحين ، كما كان يقوم بمهام أخرى كثيرة من هذا القبيل . . وحار تيتو فى أمره ، فما كان يدرى ماذا يفعل بنفسه ، أو أين يولى وجهه .

وجاءه المشرف ، ليوتى بومبو ، وهو فلاح على شيء من دماثة الخلق ، فارع الطول ، نحيف القوام ، له ملامح عسكرية صارمة ؛ فطاف به برهة حول المزرعة الكبيرة ، وأطلعه على الإسطبلات ، وعلى مخزن مغلق تتخذه السيدة نادينا جراجا لسيارتها ، حين تفد فى زيارة .. وأدرك تيتو أن أمام الرجل عملا يؤديه ، شأنه شأن غيره ممن يعملون فى البيت القديم ، فرأى أن من الخير له أن يمضى إلى القرية ، بدلا من وقوفه بالدار ، عقبة فى الطريق .. ولكنه عاد وغير رأيه بعد لحظة فقد أحسن أن هذا المسلك غير حميد إزاء مضيفه .

فلما جاءت ساعة الغداء ، استحث جريجور تيتو أن يطلق لنفسه الحرية فى أن يعمل مايشاء ، أيا كان ، وأعرب له عن أسفه لأنه غرق فى العمل إلى أذنيه ، ولكنه وعد أن يكون تحت تصرفه كلية فى الغد .

وبعد لأى ، وبينما تيتو يتمشى ، التقى بفتاة سوداء العينين ، كانت لها بسمة أزالت فورا مااعتراه من ملال .. كانت فتاة هيفاء حافية القدمين ؛ تعلو رأسها غلالة جميلة زرقاء .

قال وهو يوقفها عن المسير : « أهلا . أهلا .. أتعملين هنا ؟ »

فأجابت الفتاة : « لقد حضرت هنا منذ يومين فقط .. وجاءت بى هنا خالتى بروفيرا . وهى طباخة فى منزل الشريف الكبير . . . وهى قد طلبت إلى مرارا أن أحضر هنا . وأعاونها فى عملها . لأنها لا تستطيع أن تتحمل البنات الأخريات إطلاقاً » .

« وما اسمك يافتاتى ؟ »

« ماريورا » . . ثم أضافت بعد قليل : « أبى هو فلاد جونجو أيرينا . أما أبى فقد توفى قبل أربعة أعوام . أما خالتى بروفيرا فهى إحدى شقيقات أمى » .

فقال تيتو متلطفا : « حسنا ياماريورا . أنت فتاة ظريفة . أخبريني بربك : هل عندكم معلم فى القرية ؟ ».

« طبعا ياسيدى .. إنه رجل محترم جدا . وشاب صغير السن أيضا .. وهو من أهل القرية . ومتزوج .. ووالداه لايزالان على قيد الحياة . . . وهم جميعا يعيشون تحت سقف واحد » .

« هل بيته بعيد ؟ »

« لا . لا . . عندما تصل إلى الطريق مل إلى اليسار . ثم سر إلى الأمام حتى ترى بيتا بنافذته زهور . هذا هو بيته » .

قال متبسطا . وهو يخمشها فى خدها : « شكرا لك ياماريورا . . أرجو أن أرقص فى حفل عرسك قريبا » .

« سمع الله منك ياسيدى ! » قالتها برقة . وقد تضرجت وجنتاها ..

ورق مزاج تيتو قليلا إثر هذا الحديث ، ومضى لطيته فى الطريق ، ثم مال إلى اليسار . . كان المطر قد هطل مدرارا الليلة الفائتة ، وجاء النهار بشمس مشرقة جففت سطح الأرض . . وعزم تيتو على أن يذهب لزيارة المعلم أولا ، فهذا أمر خليق به لأنه هو نفسه ابن معلم . . وكان البيت الثالث بعد دار أيوجا إلى اليسار مغطى بصفائح حمراء من الحديد المطلى بالزنك ؛ وكان يحمل لافتة بين نوافذه دلت على أنه مركز الشرطة ... ووصل إلى مفترق طرق من شارع صغير يؤدى إلى فايدى حيث ، فيما أخبره جرجور من قبل ، قامت الدار التى يقطنها كوزما بيريونا . . وكانت هناك حانة على الناصية إلى اليمين ، وكانت عبارة عن مبنى له طنف عريضة ، وساحة فى مواجهتها يجتمع فيها الناس .. وكان بابها مفتوحا ، وقد وقف فى فتحته صاحب الحان ، وهو فلاح ربعة ، قد أمال قبعته إلى قفاه ، وأخذ فى نقاش مع رجلين آخرين . وما كاد يرى تيتو حتى حياه باحترام . وعلى مدى إلى اليمين ، بعد الحان بعدة أكواخ ، قام ديوان القرية وكان به فناء كبير ، أما على اليسار فقد قامت المدرسة ، ثم الكنيسة على مدى قريب وتوقف تيتو أمام الكنيسة ، وتساءل أتراه ضل الطريق

إلى بيت المعلم . . وأشار له طفل بأصبعه إلى البيت وقال : « قدام ، بعد قليل » .

ولم يكن بالبيت ما يميزه عن غيره من الدور ، اللهم إلا أن ساحته أنظف ، وأن فى الشباك ، كما قيل له من قبل ، زهرات الجرانيوم القرمزية البهيجة .. وفتح البوابة الصغيرة ، فهب عليه كلب أعرج ، واندفع نحوه يعوى فى غضب ، كأنما عقد نيته على أن يقطعه إرباً . . . وخرجت من الشرفة التى طوقها نبات اللبلاب امرأة فلاحة نشطة ، فهبطت الدرج ، وطردت الكلب بعيداً . .

وتساءل تيتو على استحياء : « أهذا بيت المعلم ؟ »

« نعم ياسيدى ، تفضل بالدخول . . . لا تخش بأساً من هذا الكلب . . . فهو لا يعض . . وهو لا يفعل شيئاً غير هذا النباح ، نظير قيامنا بإطعامه . . » ومضت هكذا فى الحديث ، وقد لحظت الغريب يرمق الكلب بطرف من عينه . . أما الكلب فقد استمر يزمجر ويعوى متطلعا إلى الرجل فى ريبة . .

وظهر فى الشرفة رجل يبلغ الثلاثين عاما ، خداه غائران ، وعيناه داكنتان تشعان نارا . . . وكان له شارب صغير أجعد ، وقد لبس سترة سوداء قصيرة ، ظهر من تحتها قميص موشى بالأزهار .

قال : أنا المعلم ياسيدى ! »

وقدم تيتو نفسه إليه بطريقة رسمية ، وأوضح له كيف جاء إلى آمارا . . ودخلا البيت سويا ، ثم قدم إليه المعلم زوجه . وكانت هى المرأة الفلاحة التى التقى بها تيتو ساعته . . . وبدت المرأة ، فى اضطرابها وخفتها ، أكثر جاذبية مما كانت . . على أن الأمر الذى حار فيه الشاب ، ابن ترانسلفانيا ، هو هذه الملابس الريفية ، فقد توقع أن يجد المعلم ، وهو الذى يمثل الفكر والثقافة فى القرية — مرتديا لباس أهل المدن ، حتى تتهيأ له من مظهره الخارجى منزلة محترمة بين الناس.

« ربما صح هذا فى موطنك ؛ فالطبقة الحاكمة هناك ترى أن يكون للمعلم بعض المكانة ، أما هنا . . . . » وختم المعلم عبارته بإيماءة دلت على الازدراء .

وقدمت الزوجة إلى تيتو الطبق التقليدى من الدولكيتسا ، فتمنع وقال : « ما كان لى أن أسبب لك هذه المشقة » ولكنه مع ذلك تقبله بقدر كبير من المسرة.

وتضرج وجه المرأة ، واستأذنت فى الانصراف مرة أخرى .

وبعد أن تردد المعلم برهة . شعر أن من واجبه أن يخبر الضيف أن السادة الأشراف فى هذه الدائرة لن ينظروا بعين الرضا إلى زيارته هذه ، سيما أيوجا الكبير ، فهو قد نهى المعلم عن الحضور إلى بيته ، منذ أن تجرأ فطلب تحسينا طفيفا فى اتفاقيات العشور .

وانزعج هيرديليا الشاب ، وسأل نفسه ، والمعلم يأخذ فى الكلام ، ألم يكن من الخطأ أن يأتى هاهنا . لأن الرجل مغضوب عليه فى الدائرة ، عن حق أو غير حق لا يدرى . . . على أن مخاوفه استكانت بعض الشىء عندما سمع أن أيوجا الكبير هو الذى ضاق بالمعلم ، والواقع أن مسلك ميرون حياله لم يكن بالمسلك الحسن بحال .

واستطرد المعلم يحدثه . فى شىء من الانفعال ، قال : إن الفلاحين يريدون الأرض ، لأنهم لا يستطيعون العيش على مايتلقونه من الأشراف . . . وحتى لو صح اتفاقيات العشور التى عقدت بينهما كانت اتفاقيات عادلة ، فإن معناها أن يضطر الفلاح إلى إعطاء نصف مايكسب إلى مالك الأرض ، أما لو عمل بنفس القدر على أرضه هو ، لكانت حياته أحسن ضعفين ، والحق أن ثلاثة أرباع جهد الفلاحين إنما يذهب ثمنا للترف الذى ينعم به ملاك الأرض . . . نعم لقد كان الرقيق فى الزمان الماضى أحسن حالا ، لأن الأشراف فى ذلك الحين كانوا يوفرون لهم الطعام والمسكن والرعاية لقاء عملهم ، أما الفلاحون هنا ، فإنهم يكدحون أشق مما كان يكدح الرقيق ، ومع هذا فإنهم لا يكادون يحصلون على ما يسد رمقهم ، ولهذا تراهم يستجـــدون ويستدينون من سادتهم ، ملافاة لشر المجاعة .

وكان حديث المعلم ، أيون دراجوس ، حديث خبير ، فهو نفسه يحيا حياة الفلاحين . . والصدفة وحدها هى التى جعلت منه معلما . . وتفصيل ذلك أنه كان

تلميذا مجدا . كلفا بالعلم . فالتمس معلم القريةالعجوز من ميرون أن يسدى لهمعروفا فيمد يد العون إلى الصبي حتى يحصل على منحة . وفعل الشريف ما طلب إليه وكان الشاب مفخرة له ، لأنه برهن على أنه طالب نابه ، فحصل على إجازة علمية مع مرتبة الشرف .. وشاء القدر أن يطوى الردى المعلم الشيخ فى نفس العام . فعاد ميرون أيوجا بدراجوس إلى القرية . وأقامه مرشدا للناس وهاديا .. أو هو هكذا قال إذ ذاك . وهذا ما كان يتوقع دراجوس نفسه أن يقوم به .

ولكن جاء حين من الدهر بعدئذ رأى الشريف فيه أنه أخطأ الحسبان إذ أسند هذا العمل إلى دراجوس ؛ وأحس المعلم من جانبه أن سيده كان يطلب منه أن يكون مجرد خادم يدين له بالولاء .. وأخيرا طلب أيوجا إلى مفتش المدرسة أن يلتمس له رجلا يستطيع أن يتفاهم معه — رجلا لايملأ أدمغة الفلاحين بالكلام الفارغ . كما فعل دراجوس .. ومع ذلك فإن المفتش ، فيما قال ، كان يجل المعلم ويقدره قدره ، ولم يكن يميل إلى التضحية به ،ولهذا تردد فى اتخاذإجراء فى هذا الأمر ، وجعل يسوف فى الموضوع أملا فى استمالة الشريف الشيخ .. ولكن ميرون أيوجا لم يكن بالرجل الذى يغير من رأيه ، فهو عندما لحظ تسويف المفتش ، لا مناص من أن يحدث الوزير نفسه من غير شك ، فهو صديق شخصى له ، وهو كذلك صديق النائب جوجو أيونيسكو ، شقيق نادينا ، وسوف يسأله أن يطرد الاثنين معا .

ولم تكن زوج المعلم ، ولا غيرها من أهل بيته ، يرتابون أدنى ريبة فيما يحيق بهم من مخاطر .. أما هو فقد حمل وحده العبء كاملا ، وأخذ يترقب متوجسا قلقا ... وكان يسكن فى بيت أسرته ، مع والديه وأخيه ؛ بعد أن أتم خدمته فى الجيش العام الماضى .. .أما الأرض التى كانت تملكها الأسرة يوما ، فقد أخذت نصفها أخته الكبرى ، وكانت قد تزوجت فلاحا ... أما هو فقد تزوج عن حب ، من فتاة لا تملك شيئاً .. ولولا المرتب الذى يتقاضاه على قلته ، لتضورت الأسرة كلها جوعا .. ثم ربما من الله عليهما بطفل ، فهو وزوجه لسنتين خلتا يحاولان أن ينجبا غلاماً ..

وقاطعه تيتو ساخطا : « ولكن ألا يوجد قانون من شأنه ... »

فأجاب المعلم وهو حزين : « القوانين وجدت لتطبق علينا ، نحن الفقراء المساكين .. إنها سنت قيدا لنا وأغلالاً .. »

وكان حديث الرجل ولهجته دليلا واضحا على صدقه وإخلاصه .. وكان تيتو يستمع إليه وهو يسائل نفسه كيف يتاتى للناس أن يتحملوا مثل هذا الوضع الشائن... وحتى لو كان دراجوس مغاليا ، شأنه شأن كل إنسان تعذب كثيراً . فإن مشكلته ما فتئت مشكلة خطيرة ... وعقد هيرديليا عزمه على أن يحدث جريجور فى هذا الشأن ، فهو لا شك سيعمل على وضع الأمور فى نصابها .

قال تيتو متحمسا : « عليك بالصبر ، ياسيد دراجوس ، لابد أن ينتصر العدل فى النهاية » .

فرد دراجوس بمرارة : « ربما ، ولكننا عندئذ سنكون فى عداد الأموات !.. لقد انتظرنا العدل مئات السنين ياسيدى ، ولكن العدل أبى أن يظهر إلى الوجود... بل ربما هو غير موجود ؛ أو لعله مجرد خرافة المقصود بها تعزية الناس الذين استبد بهم البؤس والشقاء .

— ٤ —

شق العمدة ، أيون برافيلا ، طريقه مسرعا إلى نقطة الشرطة .. كانت الغرفة الصغيرة فى الوسط تتخذ مكتبا ، أما الغرفة المواجهة للشارع فكان يقطنها الرقيب وزوجه ، أما فى الظهر فكانت توجد غرفة أكبر من الاثنتين قليلا يقطنها العساكر .

قال العمدة وقد تفجر وجهه قلقا : « حسنا يابونجيو ، ليتنا نعرف كيف نخرج من هذه الورطة ! ... »

وكان سيلفسترو بونجيو قد نهض لتوه ، بعد إغفاءة قصيرة بعد الغداء ، فذهب إلى المكتب .. وكان رجلا عبوسا جهما ؛ جاءه برافيلا ولما لم يفته بعد من تثاؤبه .. كان بوده أن يكتم أنفاس العمدة ويسأله لماذا تهجم هكذا على رجل يخشى الله ، وبخاصة لأن العمدة ناداه « يابونجيو » ، وهو أمر قد حط من مقامه ؛ أليس هو رقيبا ؟ .. ولكنه ، وقد رأى العمدة على هذا الحال من الهلع ، التقط العدوى ، فنفض رداء الخمول عن نفسه ، وتساءل : « ما الخبر ؟ »

وهتف برافيلا ، وقد بدا أشد ضيقا للأثر الذى أحدثه على بونجيو ، قال :
« حدث شىء قذر ، شىء رهيب ! ! »

وكان العمدة رجلا متوسط البنيان ، له عينان صغيرتن ماكرتان ، وخدان فيهما أخاديدوغضون . . وكان قد حضر مباشرة من بيت الدائرة ، وصوت الشريف الشيخ يرن فى أذنيه . « أنت مسئول عن اصطياد هؤلاء أيها العجوز الأحمق ، وإلا نلت أنا منك ! » هو لا يتذكر أبداً أنه شهد الشريف ميرون فى مثل هذه الحالة النفسية الرهيبة ، وقد لهج لسانه بالشكر حين انتهت المقابلة ، ووجد نفسه فى الخارج .

قال الرقيب حين انتهت إليه وقائع الحال . « إن الشريف على حق ، لو كان الأمر كذلك . . وبما أنه على حق ، فقد قضى الأمر . . أنا طالما قلت لك إنهم جميعا لصوص ! . . وها أنت الآن ترى ذلك بنفسك ! »

وما كان سيلفسترو بونجيو ، وهو المدعى المغرور ، يتحدث إلا ليهدئ من روع نفسه ، إن الأمور إذا بلغت مداها من السوء ، فسينجو العمـــدة بنفسه ، وينفض يده من الموضوع كله . . على أية حال ، ما هى مهمة الشرطة فى القرية إذن ، إن لم تكن للحفاظ على الأمن ؟ . حقا ، منذ شهرين فقط اشتكاه ميرون أيوجا إلى رئيسه الضابط ، وهما على مائدة الغداء فى بيت الشريف ، فقال إن البوليس المحلى ضعيف ، وإن رئيسهم لبطىء . وإن هذا هو السبب الذى جعل مخالفات الفلاحين تزداد عددا باستمرار . . وانقلب المفتش عليه بطبيعة الحال ، وكال له السباب مقذعا . وتوعده بأن يعلقه من رقبته لو وجد السيد أيوجا سببا يدعوه إلى الشكوى مرة أخرى . . وأنه ليعلم حق العلم طبع الشيخ وجبلته . . أما الآن فهاهى الطامة الكبرى تقع على أم رأسه من السماء .

صاح بونجيو وهو يكز بأسنانه . « سأجرى تحريات من شأنها أن تجعل هؤلاء الفلاحين يتذكرونها فى الدار الآخرة ! »

وتبع ذلك نقاش طويل . . كان جليا أنه ينبغى البحث عن اللصوص فى آمارا أو فايدى أو ليسبيزى . . ووضع الرقيب على رأس قائمة المشبوهين أسماء الخفراء الذين يعملون فى ضيعة كوزما بيريونا . . وأرسل بونجيو رجلا يأتى بهم إلى مركز

الشرطة فورا .. ثم أخذ الرجلان يستعرضان أسماء المشبوهين فى القرى الثلاثة ، فيخطون أسماء ، ويشطبون أسماء ، ويعيدون ويزيدون .. وفى النهاية جمع بونجيو قائمة تضم ثلاثين شخصا رأى أن يستجوبهم بعد أن يستمع إلى أقوال الخفراء .

ودخل شرطى ومعه ثلاثة من الفلاحين .. وافتتح الرقيب المحضر بأن ذهب إلى كل واحد من الرجال الثلاثة فصفعه على وجهه مرة ومرة — ثم هتف فى غضب بالغ . « اعترفوا .. من ذا الذى سرق أذرة الملتزم ؟ »

وقال العمدة فى لهجة أبوية ، وإن نمت عن مداهنة ، قال : « هيا ، هاتوا ما عندكم .. . لماذا تتحملون أنتم عقابا لا ذنب لكم فيه .. أتونا باللصوص ، ولو كانوا فى باطن الأرض ، وإلا فستصلونها نارا حامية .. أنتم تعرفون من هم اللصوص ، اللهم إلا إذا كنتم أنتم ..

وأقسم يعقوب ميتروتو ، وهو رجل أحنى الزمن ظهره قليلا ، وهو أكبر الثلاثة سنا ، ولا تزال صفعات بونجيو ظاهرة جلية على وجهه الشاحب ، قال إنه لم يكن فى نوبته ذاك المساء ، بل كان راقدا فى بيته مع أهله وولده ، وأن جيرانه والقرية كلها شهود على ما يقول .. ودافع الآخران عن نفسيهما فقالا إن الشريف أمرهما أن يرقبا المخازن الكائنة فى الساحة — وهى مخازن بها قمح ، وإنه مامن إنسان اهتم فوجه نظرهما إلى هذا المخزن الجديد .. ومع ذلك فهما لم يغفلا عنه ، ولكنهما لم يسمعا شيئاً .. والحق أن المخزن الجديد كان على مسافة قريبة من بيت الشريف ، والحق كذلك أن أهل الرأى نبهوا الشريف إلى أن المخزن الجديد ما كان ينبغى أن يقام حيث أقيم ..

وقوبلت هذه الأقوال كلها بالهزء والسخرية ، ولم يترتب عليها إلا مزيد من الصفعات ... كان معلوما أن اللصوص يدافعون عن أنفسهم ، فيدفعون بأنهم لا يعرفون شيئا ، وبأنهم لم يسمعوا أو يروا شيئا .. ولكن هل من المعقول أن يأتى خفير ، يتلقى أجره نقداً من أجل الحفاظ على ممتلكات سيده ، فلا يلحظ شيئا حين تختفى هذه الكمية من الذرة التى مقدارها ملء عربة ، وهى على مرمى الذراع منه ؟ .. وعند هذه النقطة هب إيرى بوما ، وهو أكثر وسامة من زميليه

الآخرين وأشجع جنانا ، فقطع مجرى الحديث وقال . « أية عربة ياسيدى ؟ . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! . . نحن لو سلمنا بالسرقة ، فهى لا يمكن أن تزيد على ثلاثة أكياس على أكثر تقدير . . بل إن السيد كوزما نفسه لا يزعم أكثر من ذلك . . ربما كان الأمركيسين أو ثلاثة ، ولكن محال أن يبلغ حمل عربة » .

وصفعه بونجيو على فمه بظهر يده ، وصاح فيه ! « أنت أولا لص ؛ ثم بعدئذ تأتى بهذه الصفاقة — هنا أمامنا . كيف تجرؤ على هذا ؟ » .

نعم ، لقد لسعته وقاحة الفلاح فى الصميم .

ونادى على شرطى كان قد عاد لتوه من نوبة راحته . فأمره بأن ينزل على الفلاحين ضربا مبرحا يعلق بذاكرتهم أبد الآبدين . . . ولكنه ما لبث أن لان واسترخى ، فأذن لهم أن ينصرفوا على شريطة أن يعودوا فى الغد ، وأن يأتوا باللصوص إلى ديوان القرية ، وإلا دفعوا الثمن غاليا .

قال بونجيو يسائل العمدة عندما انفردا سويا . « حسنا ياعمدة ، هل فى مقدورك أن توضح لى هذا الأمر ؟ إن الشريف ميرون يقول إنه حمل عربة من الذرة ، أما الملتزم فيقول إنه ثلاثة أكياس ليس إلا ! » .

فقال برافيلا وهو يهز كتفيه . « لست أدرى » .

وكانت هذه نقطة لا مناص من استجلائها على الفور ، فهى ذات أثر على التحقيق كله . فشىء أن تتحرى عن سرقة مقدارها حمل عربة من الذرة ، وشىء آخر أن تبحث عن كيسين لا أكثر . . واستقر بهما الرأى على أن يذهب العمدة إلى حيث وقعت السرقة ، وأن يستكشف الكمية التى سرقت ، وكيف سرقت .

قال الرقيب . « لاتدع الأمور تجرى فى أعنتها ياعماه ، وإلا وجدتنى فى أثرك » .

— ٥ —

كان تيتو هيرديليا ، وهو يستمع إلى متاعب المعلم ، يحس بالخجل ويشعر بالجرم لكونه نزل ضيفا على طغاة الشعب . ولكنه استعاد طمأنينته حين أضاف دراجوس بضع كلمات طيبة عن جريجور أيوجا ، فهو على أية حال الذى وجه

الدعوة إليه .. ولكنه مع ذلك أراد أن يدل صراحة على أنه يساند المعلم ويؤازر المعذبين فى الأرض ، وأنه هو نفسه واحد منهم ، فصافح دراجوس قبل أن ينصرف مصافحة الأخ لأخيه ، وطلب إليه أن يصحبه إلى قسيس القرية ، إذ هكذا يقضى لتيتو أن يلتقى بالأب الروحى لهذا القطيع ..

وخرجا إلى الساحة مرة أخرى، فإذا بعربة يجرها ثوران أعجفان. .وأسرعت عجوز واهنة تقفل البوابة ، ثم أخذ صبى يفرغ العربة ، بينما قام عجوز يسحب بعض الماء من البئر ليروى به ظمأ الحيوانين ..

قال دراجوس وهو يشير إلى الثلاثة، بعد أن حيا زوجه مودعا . « هذه هى عائلتى كلها » .

وتقدم هيرديليا ، وصافح العجوزين ثم الصبى ، وكان أطول من دراجوس وأعرض. . .وقبل أن ينطلق الرجلان إلى الطريق قال الفتى يحدث أحماه. «ربما كان من الخير أن تمر على ديوان القرية وأنت فى طريقك ؟ فالظاهر أن رجال الشرطة قد عادوا يضربون الناس لغير سبب — بل إنهم نزلوا ضربا على خفراء الملتزم كوزما ، والواقع ... »

وعندئذ تدخلت زوجه فزعة : « لا شأن لك بهذا يا أونيل ، حسبنا ما لدينا من متاعب. . . سوف يقول الأشراف إنك عدت إلى مساندة الشعب ، فيوقعون بك العقاب و ..... »

« حسنا ، حسنا ، كفى ثرثرة . » قالها دراجوس فى أنفة السيد المطاع ، واشتد فى ذلك عندما أخذ أبواه أيضا يؤيدان زوجه فيما قالت .

وكان المعلم، فى أثناء الطريق، يتبادل كلاما رقيقا مع كل واحد يلتقى به تقريبا .. وكان تيتو بطبعه يتودد إلى الفلاحين فى موطنه ، ولكن دراجوس بدا له مغاليا فى هذا التودد بعض الشىء ، كأنما أراد أن يدل على اهتمامه برفاهية الناس قاطبة ..

واعترضت طريقهما امرأة زرية المظهر ، وهى تتوسل إلى دراجوس أن يدلها

على ما ينبغى أن تفعل ، ومن أين تبدأ ؛ فإن حياتها غدت شقية بائسة بحيث لم تدر لماذا لم تلق بنفسها فى بئر فتتخلص من حياتها ... وسألها المعلم عن حالها ، فأخذت تقص عليهما كيف لقى زوجها حتفه فى الشتاء الماضى فى الغابة ، وكيف أنها منذ ذلك الحين أخذت تكافح وحدها لتطعم بيتاً امتلأ كله أطفالا ... نعم ، هذا ما حدث ، لقد خر أحد الثورين صريعاً مع زوجها . فاضطرت أن تبيع الثور الثانى بثمن بخس ، لأنها ما كانت تملك من المال ما يهىء لها ثورين دفعة واحدة .. والحق أن الشريف الشيخ استدعاها إليه فى ذلك الحين ، وواساها فى مصابها ، ووعدها بأن يدفع لها ثمن الثور الثانى ، وبأن يرعى أولادها اليتامى ، ولكنها لم تلق غير هذا الوعد ؛ فهى فى كل مرة تذهب فيها إلى بيت الشريف ، لا يسمح لها بمقابلته ؛ وأخيراً أخبرها المشرف ، بعد أن عجز عن التخلص منها ومن دموعها ، أن الشريف وفى بوعده ، وأنه أمر السيد ازباسيكو أن يدفع لها تعويضا عن خسارتها ... ولكن زوجها رحمه الله عليه ، كان غارقا فى الدين ، فرأى ازباسيكو أن يستخدم مالها وفاء لجزء من هذا الدين ، إذ تبقت بعد ذلك ديون كثيرة بغير سداد . واستطاعت بمشقة بالغة أن تحصل على قطعة من الأرض ، ذلك أنها ما كانت تملك ثيراناً ، ولكن كان لابد لها من دفع نقود ثمنا لحراثة الأرض ، ولكن أين لها النقود وهى لا تملك شيئاً ؛ واضطرت لذلك أن تستدين حيثما اتفق ؟ وهكذا بدأت الشتاء وليس عندها إلا القليل من الذرة ، وهو مقدار من المحال أن يكفيها ولو حتى عيد الغطاس ، لأن أسرتها كبيرة العدد ، ولأن عليها ديونًا كثيرة ، و ...

قال دراجوس يحاول أن يهدئ من ثائرتها ، « صبرا جميلا ... سوف يعود ولدك الأكبر من الجيش عما قريب ؛ وسوف يتولى عنك شئون البيت ».

فصاحت المرأة ، وقد اشتد بها البؤس . « عجل الله عودته .. ولكنى رأيت غيره يعودون ، ولم أر باتريشا بعد ؛ إن الله وحده يعلم كم أتعذب وحدى ، وكم ذرفت من الدموع — لست أدرى ما الذنب الذى جنيتـــه حتى يعاقبنى الله هكذا ! »

قال المعلم يطمئنها « سوف يعود ! .. وسوف تسعدين بلقياه عما قريب » ..

ولكن المرأة انخرطت فى البكاء، وأعربت عن أسفها الدموعها المتواصلة، وهى دموع لم تتوقف عن الانهمار، لأنها منذ أن حل بها هذا الفقر، فيما قالت، لم تلق راحة، ولم يغمض لها جفن.

قال دراجوس يحدث تيتو بعد أن خلفنا المرأة وراءهما: «لقد كان زوجها رجلا طيبا. ومن لأسف أنه مات .. ولكن من حسن الحظ أن ولده الأكبر يسير على نهجه، بل خيراً منه».

وبلغنا ديوان القرية، وكانت هناك عربة قد توقفت قبالته قبل بضع دقائق .. وكان بلاتامونو الملتزم قد ظهر لتوه من الساحة يصحبه ابنه أرستيد، وهو طالب فى بوخارست، حسن الهندام، وسيم الطلعة، له تقاطيع متسقة، وشفتان منتشنتان.

واتجه الملتزم صوب دراجوس، وهو يبتسم ابتسامة ودية للغاية: «مادا يده مرحبا، وقال إنه جاء يسأل العمدة شيئا، ولكن الساعة لم تكن مواتية، لأن العمدة فيما يبدو كان مشغولا بإجراء تحقيق خطير، وإنه ذهب إلى مكان ما، يعلم الله وحده أين كان .. »

إن كنت تطلب امرأة فخير لك أن تأخذه معك، فهو يعرف النساء هنا حق المعرفة!» قالها الملتزم بين الهزل والجد، وهو يشير إلى الشاب أرستيد

وضحك الملتزم ضحكة عالية فى رضى.

«حسن، حسن، لشباب دماؤه حارة .. وخير له أن يجرى وراء نساء هذه القرى عن نساء المدن، اللاتى قد يصيبه منهن هذا المرض أو ذاك، وإن كان المرء لم يعد يطمئن حتى هنا فى الريف».

وضحكوا جميعاً. وأعرب بلاتامونو عن بهجته لقاء تيتو هيرديليا، وقال إنه شهده عند وصوله إلى القرية مع جريجور .. ودعا الشاب إلى زيارته، ولقاء أسرته، واتخاذ أرستيد صديقا له، فهو والحق يقال ولد طيب .. واستطرد قائلا: «إنه سيقوم بزيارة إلى بيت أيوجا فى القريب، لأنه تلقى خطابا من السيدة نادينا، أعلنت فيه عن عزمها العودة إلى رومانيا، وأنها ستأتى لتشرف على شئون الضيعة».

وما كادا يغادران الرجل وابنه وراءهما حتى قال دراجوس فى صوت خفيض : « لا توجد فتاة ولا امرأة شابة لم يطاردها هذا اليونانى الداعر . . . الأب ينهب الرجال أموالهم ، أما الابن فيسرق النساء عفتهن » .

وكانت هناك جماعة من الناس أمام الخان يتحدثون ويصخبون فى حرارة . . فلما رأوا دراجوس وتيتو يقتربان ، خفضوا من أصواتهم هونا . . . ووقف الخفراء الذين يعملون فى خدمة كوزما بيريونا فى وسط الجماعة ، يقولون إنهم غير مذنبين ؛ كما وقف العمدة . أيون برافيلا ، يردد مناديا بضرورة العثور على اللصوص .

وصاح العمدة من وسط الجمع يخاطب دراجوس الذى أبى أن يقف : « أسمعت بما حدث ؟ » .

واضطر الرجلان إلى التوقف ، فقد أحاط بهما الفلاحون ، فاستمعا مرة أخرى إلى قصة العمدة ، وهى قصة أخذ الخفراء يقاطعونها باستمرار ، إذ امتلأت نفوسهم شجاعة بعد أن رأوا كل إنسان يقف فى صفهم . . ولما لم يبد على دراجوس أنه يتفق معه فى الرأى ، استطلع أيون برافيلا رأى تيتو ، يحدوه الأمل فى أن يقف الشاب إلى جانبه .

وغمغم هيرد ليا ، وقد ألم به بعض الارتباك من جراء نظرات الفضول التى طالعته من كل جانب ، وقال . « أنا غريب على هذه الديار . . وما حضرت إلا الأمس فقط . . وأنا لا أدرى شيئاً عن ظروف القضية ، أو مدى الخسارة ، إن كانت هناك خسارة . . . »

« لا توجد خسارة على الإطلاق يا سيد ! » صاح فجأة أكبر الخفراء سنا : « تعال وتحقق بنفسك ، وإذا كان . . . »

فقاطعه العمدة بعظمة : « كفى هذا يا يعقوب ، دع السيد يتكلم ! »

« قلت لكم إنى لا أعلم شيئاً ، عما حدث أو مالم يحدث ، ولكنى أعلم على وجه اليقين أن الشيطان ليس بالصورة السوداء التى يراه بها الخائفون . »

وضحك بعض الفلاحين ، وقال واحد منهم : « صدقت ! ولست أدرى

لماذا يتعذب هؤلاء المساكين ، وهم لم يقترفوا جرما ... هذا عار والله ! »

ومضى دراجوس وهيرديليا فى طريقهما ، مستئنفين استئناف الجدل ، بل وفى نبرات أعلى عن ذى قبل ، ومالا إلى حارة صغيرة تؤدى إلى فايدى ... وهنا ، قبالة بيت الملتزم بيريونا على التقريب ، كان يسكن القس نيكوديم جرانكيا ، فى بيت متين ، تحيط به ملحقات عديدة ، وحديقة كبيرة كأنها بستان عام .

ووجداه يعمل بهمة ونشاط ؛ يفرغ عربة امتلأت بالفرع العسلى .. وكان يلبس القلنسوة ، وثوبا بنيا وسخاً ؛ قد طواه من أمام فوق ركبتيه ... وكانت لحيته الطويلة البيضاء قد وخطها الطين .. وكان الرجل لايزال نشيطا ، خفيف الحركة ، رغم أنه قد تخطى السبعين ، وعاش أرملا عشرين عاما .. وكان بصره هو الشىء الوحيد الذى وهن فيه ، ولهذا لم يتمكن أن يتبين المعلم دراجوس من فوره .. ولكنه عندما تبين صوته انفجر لجة جذلان نشطاً : « أهذا أنت يا ابوتزسا ؟ .. أنا لم أتبينك ... فقد كف بصرى تماماً ، ولا أستطيع وأنا فى الكنيسة الرؤية لقراءة الإنجيل إطلاقا الآن ، ولكننى أحفظ الصلاة عن ظهر قلب .. لا بأس .. هذا لعمرى أثر السن ! »

وكان وهو يتكلم يتطلع إلى تيتو مستفسرا .. فلما قدمه دراجوس إليه ، قال بلطف : « حفظك الله يابنى ! . اغفر لنا مانحن عليه ، ولكن هكذا شأن القسس فى هذه الأنحاء ؛ نحن قوم بسطاء ، لم نقطع شوطا كبيراً من التعلم — ولكن هذا حالنا منذ عهد أسلافنا الأولين .. أما ابنى فقد أتيح له أن يتعلم الكثير ، وقد تلقى علومه فى مدرسة اللاهوت العليا ببوخارست ، وأصبح قسا عظيما امتدت شهرته حتى بلغت القصر فى العاصمة .. إن صوته جميل ، وهو ربما أخذ هذا الصوت عنى ، لأن صوتى كان جميلا ذات يوم — بل مازال فيه رمق حتى الآن ، هكذا أشعر يابنى .. أما الشريف ميرون ، فهو لايريد له أن يحضر... »

وتفصيل الأمر أن ولد القس نقل إلى أبراشية بعيدة ، وهى أبراشية غنية فى حقيقة الأمر وتقع فى مقاطعة جورى ، وذلك لأن ميرون الكبير حرم عليه

القرية لسبب لايدريه أحد . . وكان ذلك هو علة الحزن الشديد الذى حط على نيكوديم العجوز ، وكان ذلك هو محور حديثه مع ضيوفه ، وهو يقدم إليهم طبق الدولكيتسا التقليدى .. وقدم القس إليهما ابنته نيكولينا ، وهى امرأة تناهز الأربعين ، أكبر سنا من ابنه ، متزوجة من فلاح فى القرية اسمه فيليب ايليوزا ... وكانت نيكولينا وهى تقدم إليهما المربى تبدى أسفها باستمرار لأن الغرفة مضطربة كل الاضطراب ، ولأنها حانية القدمين . . وكان لها من الأطفال ستة ، أكبرهم فى الصف الخامس بالمدرسة الثانوية الكائنة فى بيتستى . . وكان حتما عليهم أن يسكنوا فى بيت القس إلى أن يشاء الله فيرق قلب الشريف عليهم ، فيأذن بعودة القس الشاب ليحل محل أبيه . . وكان فيليب يملك داراً خاصة به ، كان أبوه قد تركها له وهو ما كان ليقبل أن يسكن مع حماه إلا ليؤنسه فى أخريات أيامه

قال دراجوس لحنلة أن خرجا إلى الشارع، بعد أن قامت الأسرة كلها بتوديعهما حتى الباب . وأسمعت ؟ إن ذراع أيوجا ممتدة إلى كل مكان كما ترى . . إنه يمسك بأسباب حياتنا فى راحة يده ، بل ربما يقبض على أرواحنا أيضاً !

قال الشاب هيرديليا : « ولكن أليست هذه حالة فريدة فى بابها ؟ . على كل حال هذه المسألة وقتية ، فإن الشيخ أيوجا لن يعمر طويلا ، أما ابنه ... »

فأجاب المعلم متحمسا لقضيته : « لا ، لا . . لقد أخطأت الحسبان . . فليست هذه حالة خاصة . . بل هى حالة عامة تسود البلد كله . . نعم ، ليس للقرية ، أى قرية ، سيد إلا الشريف المالك أو الملتزم ، هو القانون ، وهو كل شىء . . وكى أقيم لك البرهان على أنى لست متحيزا أو مغاليا أقول ، إن ميرون أيوجا أحسن من كثيرين غيره . . هو لا يؤذى أحداً ، وهو لا يحتقر الفلاحين ، بل هو على العكس يفعل الخير ما وسعه الجهد إن رأى فى ذلك حكمة . . هذا فضلا عن أياديه البيضاء على الكنيسة والمدرسة وكل شىء يخص الناس عامة . . ومن الطبيعى أن تراه لا يسمح لأحد بحرية الكلام ، لأنه واثق كل الثقة بأن رأيه وحده هو الشىء الصواب . . وإملاء تتغلغل معى فى أن هذا المثال ليس بالمثال السىء ، بل الأمر على العكس — ولكن فى وسعك أن تدرك بنفسك أننا مغلولون

إلى أعناقنا .. ليس بسبب ميرون أيوجا ، ولكن بسبب الوضع العام كله .. ومن المحال أن يتغير هذا الوضع باختفاء رجل واحد ، لأن خلفه ، مهما كان حسن النية ، لابد له أن يمضي على نفس النهج ، بل هو مضطر أن يمضي على نفس النهج .. نعم ، لن يحدث التغيير الحقيقي إلا إذا زال هؤلاء جميعا ، وإلا حين تعود الأرض لأولئك الذين يفلحونها ... »

قال تيتو هيرديليا برقة ، وقد أحس فى كلمات المعلم بوعيد خفى : « ولكن هذا التغيير لن يتم بين يوم وليلة » .

فأجاب دراجوس مغتما : « صدقت ، ولو حدث ذلك لاهتزت الدنيا من الأعماق ، وأنا لا أريد ذلك ، ولا يريد ذلك غيرى .. ولكن ليت المعجزة تحدث !! »

فهمهم تيتو : « أتقول معجزة ؟ .. إن الإنسان هو وحده القادر على صنع المعجزات اليوم ! »

« نعم ، الإنسان الحر ، لا العبد الرقيق ، » قالها المعلم ، وقد ومضت عيناه غلظة وقسوة .

— ٦ —

فى بكورة اليوم التالى توجه العمدة أيون برافيلا إلى ضيعة الملتزم .. وهناك رأى الخفير زامفير شيلارو ، وهو رجل شاحب أعجف ، قد لزم المخزن الجديد كذئب يتلصص حول حظيرة محكمة الرتاج .. ودار العمدة حول المخزن ، واستغرق فى التحرى والاستقصاء ، ولكنه عجز عن أن يجد علامة تدل على انتهاك حرمة المكان ، وإذا به يصرخ فجأة : « ولكن أين اقتحم اللصوص المخزن؟ »

فرد الخفير بجفاء : « أتسألنا نحن ؟ سل الملتزم ، ها هو ذا آت ... »
وكان كوزما بوبونا يرتجف ، فقد هطل الصقيع بغزارة هذا الصباح ... كان قد جاء يشهد التحقيق ، فقد حدثه الخفراء بالأمس عن الزيارة التى أزمع عليها برافيلا ... وتقدم العمدة إليه محييا ، وكانت تحيته لا تخلو من تقريع ، وقال :

« ماهذه الورطة التي وضعتني فيها يا سيدي ؟ .. لم لم تكتف بالكلام معنا في هذا الموضوع ، بدلا من أن تقحم فيه الشريف ميرون ؟ . . أنت تعرف حدة طبعه ، وكيف نعاني منه جميعا ! »

وحاول الملتزم أن يهون من الأمر ، ولكنه لما سمع بالإجراءات العنيفة التي أمر بها الشريف ، ازداد قلقا . . . ما هذه الطامة التي أحدقت به لمجرد كلمة قالها؟! ليته قطع لسانه الذي فاه بهذا الكلام ! ! . لسوف يصب الفلاحون جام غضبهم عليه الآن . . نعم . لن يستتب له سلام في الضيعة بعد الآن . . . ولكن من كان يظن أن أيوجا سيجعل من الحبة قبة حول هذا الموضوع التافه ؟ وطلب إلى العمدة ألا يتعجل ، وأن يصبر قليلا ، فهو سيذهب معه إلى مركز الشرطة ، وسوف يصرح هناك أنه متنازل عن حقه أيا كان ، وأنه يريد أن يترك كل إنسان يعيش في أمان .

وعاد برافيلا إلى القرية ، وهو راض مغتبط . . ولكنه أدرك وهو في الطريق أن ليس ثمة فائدة ترجى لو سحب الملتزم شكواه . . فطالما أن الشريف ميرون أصدر أمرا في هذا الموضوع فلا مناص من وضعه موضع التنفيذ . . بل لعل أيوجا الكبير حينئذ يزداد غضبا ، ويصب ثورته على العمدة نفسه . . أما كوزما بيربونا فقد رأى ، عندما انصرف برافيلا ، أنه لن يجلب على نفسه غير الضرر لو سحب شكواه ، ولهذا عزم على أن يلزم الصمت إلى حين .

وبعد ليلة رأى فيها فيما يرى النائم حلما أولته له زوجه على أنه نذير سوء . ظل الرقيب بونجيو صارما لا يلين كما كان بالأمس . . كان ينتظر في ديوان القرية يترقب أن يحضر برافيلا بالنتيجة التي خرج بها من تحرياته . . وكان في الساحة خمسة عشر نفرا تم القبض عليهم من فايدي ، وعشرة من المشبوهين من آمارا ينتظرون التحقيق معهم . . وقد رأى بونجيو أن يقوم بهذا كله في مكاتب مجلس القرية ، فهنا تتوافر فسحة من المكان تكفل اعتقال عدد من المقبوض عليهم ؛ أما نقطة الشرطة فلا توجد فيها إلا غرفة صغيرة تستوعب ثلاثة أنفار لا أكثر .

وجاء العمدة محتقن الوجه ، لاهثا ، منهوك القوى . فقد مال على الحان ، وتناول كأسين من شراب البراندي ليبعث في بدنه الدفء . . وصرخ بونجيو ،

رغم ما سمعه عن تنازل الملتزم عن الشكوى ، بأنه لن يشوه ماضيه بسبب حفنة من الفلاحين الكسالى الأقذار ، وبأنه ماض فيما أخذ نفسه به . . نعم ، إنه لن يشغل نفسه بنزوات السيدكوزما فهو جندى ، ويتعين عليه أن يقوم بواجبه . . ولقد نمت أسارير وجهه على قسوة بالغة ملأت نفس براويلا رعبا ، كأنما كان هو أيضا موضع ريبة .

وكان شاريتا دوميتريسكو يعمل كاتبا بالمجلس ، وكان شابا ولعا بملابس المدن يتشح بها مزهوا وهو رجل ريفى ، وكانت عبارة عن قميص قذر بغير أساور اليد ولكن كانت له ياقة منشاة بالغ فى العناية بها . . وكان قد قضى سنه بالمدرسة الثانوية ، ثم عين كاتبا بفضل وساطة طباخة السيد أبوجا ، وكانت عمته . . وكان قصارى همه فى هذه اللاحظة هو أن يصلح من وضع ربطة عنقه الخضراء ، فقد جالت بخاطره ابنة الملتزم اليونانى ، وهى التى كان من حسن طالعه أن بادلها الحديث بالأمس ، فعطفت عليه بابتسامة .

قال الرقيب ، وقد أدار ظهره لجأة إلى المدفأة . « هلا تكرمت وعاونتنى فى هذه السجلات يا سيد شاريتا . . أنا أملى وأنت تكتب ، فهــذا يدعو إلى تيسير الامر » .

واعترض الكاتب : « ألا يكفى ماعندى من عمل فعلا ؟ . . انظر ماذا ينتظرنى هنا . . » وأومأ إلى كوم من الأوراق ، أما يداه فقد شغلنا بربطة العنق الثائرة .

وأصر بونجيو ، وهو يصانعه : « افعل هذا لخاطرى . . فأنا لن أنسى لك الفضل ياسيد شاريتا » .

« لا بأس ، إن كنت فى حاجة ماسة إلى — سأطرح كل شىء وأضع نفسى فى خدمتك ياعم سيلفسترو » قالها الشاب وقد سره أن ينجح أخيرا فى أن يجعل ربطة عنقه على النحو الذى أرادها أن تكون عليه ، وكان يتيه خيلاء بنفسه فى المرآة الصغيرة التى ثبتت على قاعدة المحبرة .

واستطرد الشاب ، وهو يصفف شعره بحيث تساقطت منه خصلة على جبينه .

بغير اكتراث ، قائلا : « هأنذا ، على استعداد الآن : » .

وجاءوا بفلاحي آمارا العشرة من الساحة ، فدخلوا بهم إلى المكتب الصغير في حراسة شرطي ، وهو الذي وقف منتصبا عند الباب الخارجي . . ومضت برهة ثم ظهر الرقيب بونجيو في فتحة الباب الداخلي ، وأخذ يتطلع إليهم من فوق إلى تحت عدة ثوان وهو صامت ، ثم تساءل : « ترى ، من هو اللص الذي سرق حبوب الملتزم ؟ » .

فأجابت عدة أصوات وجلة : « لسنا نحن ياسيدي ! » .

فاستطرد الرقيب بابتسامة مرة : « أنتم إذن لا تريدون أن تتكلموا ، وأنا ألتزم الأدب معكم . . حسن جدا . . أنت ياهذا ، ما اسمك ، تعال هنا ! »

« أنا يا سيدي ! . . اسمي ليوتي أوربيسور . » قالها الرجل وهو يدخل إلى المكتب الآخر مع بونجيو .

ومضت دقيقتان ، ولم يبلغ الأسماع فيها غير صوت الصفعات التي تلقى على وجهه ، والكلمات المكتومة ، والأنفاس اللاهثة التي تتردد في صدر بونجيو . . ثم علا صوت الرقيب : « من اللص ؟ . . أنت لا تريد أن تفضي إلى به ؟ هيه ؟ » وسمع القوم أنين الرجل يتصاعد على فترات متباعدة : « سامحني ياسيدي . . كفى هذا الضرب . . أنا لا دخل لي بشيء ، ولم أقترف شيئا ! ! » .

وتبادل الفلاحون في الغرفة الأخرى نظرات الدهشة ، والتفتوا إلى الشرطي الذي وقف منتصبا في فتحة الباب ، كأنما قد قد من صخر . . وبعد فترة من الصمت لم يتمالك سيرافيم موجوس نفسه فرفع عقيرته ، وكان رجلا فظا ، وخط الشيب فوديه ، وكان أبا لأطفال خمسة ، وقال : « استمعوا إلى أيها الرجال ، ينبغي على من أتى السرقة أن يعترف بها ، وإلا قتلونا عن آخرنا ! ! » .

وأقسم كل رجل أنه من الجرم براء . . . وما لبث باب المكتب أن انفتح ، وخرج منه ليوتي أوربيسور ، وهو يترنح ترنح السكران ، وقد اختفت معالم وجهه ، وانساب الدم على شاربه وذقنه . . وطرحه الرقيب أرضا ، وصاح : « اذهب به

أيها الشرطى إلى الزنزانة حتى يأتى دوره فأتحدث إليه مرة أخرى ! ! ».

ولما انطلق الشرطى إلى الساحة ، خاطب بونجيو الرجال فى صوت أهدأ قليلا عن ذى قبل ، قائلا : « هيا خبرونى — من هو السارق فيكم ؟ . اعترفوا الآن قبل أن ينفد صبرى .. وإلا نزعت عنكم جلودكم ، وأزهقت أرواحكم فى حلوقكم ! ».

وأنكر الملاحون بأيمان مغلظة أنهم لا يعرفون شيئا عن السرقة . وعندئذ هب بونجيو فى موجوس ، وقد استشاط غضبا من جديد . « أنت ياهذا .. تعال هنا .. تفضل إلى داخل الحجرة ».

« أستطيع أن تقتلنى ياسيدى ، لحياتى بين يديك .. ولكن كيف لى أن اعترف بسرقة لم أرتكبها ؟ »

وأخرسه الرقيب بلطمة حادة على فكه ، ثم أمسكه من منكبيه ، ودفع به إلى المكتب الداخلى ، وأغلق الباب .. وبلغت الأسماع مرة أخرى ضجة الضرب واللكمات ، والمهاث ، والأصوات العالية .

واستمر التحقيق زهاء ساعتين .. وفى غضون ذلك حضر الملاحون الخمسة عشر من فايدى ، وكانوا فى حراسة اثنين من رجال الشرطة .. والواقع أنهم جاءوا فى وقتهم ، لأن التحقيق إذ ذاك كاد ينتهى مع رجال آمارا .. ووقف هؤلاء فى الزنزانة يمسحون ماعلق على وجوههم من دماء ، ويتحسسون أصداغهم فى حذر .. وأنهك التعب قوى بونجيو لشدة مابذل من جهد ، ولهذا أتاح لنفسه فسحة من الوقت يتنفس فيها بعد أن عالج آخر المتهمين من آمارا .. أما العمدة فكان أسعد حظا .. لقد أتيحت له فرصة مال فيها على حان بوزوك ، فتناول كأسا يستمد منه الشجاعة .. ولم ينس ، فى رواحه وغدوه ، أن يتعطف على الملاحين الذين ما فتئوا ينتظرون فى الساحة بنظرة تحذير وحنان . قال : « أى أبنائى .. لم لا تعترفون وتدلوننا على السارق » ؟

أما بونجيو فلم يحظ بقسط من الراحة حتى فى أثناء الفترة التى أتاحها لنفسه ، بل أخذ

يوقع السجلات ، ويراجع قائمة أخرى من المشبوهين الذين رأى أن يستجوبهم فى المساء .

واجتمع فى الفناء هذه الساعة لفيف آخر من الناس ، بعضهم من آمارا ، والبعض الآخر من فايدى ، جاءوا يقسمون بكل مؤنة من الأيمان أن المجرمين ليسوا هم الذين نزل بهم الضرب ، ولا هم الذين ينتظرون فى الفناء ، فهم جميعا لم يتركوا بيوتهم ليلة السرقة .. وكانت هناك نسوة كذلك ، وقفن خاشعات باكيات ، وقد حملت كل منهن ربطة صغيرة بها طعام لأزواجهن المساكين ، حتى لا يعانون الجوع فوق ما يقاسون من آلام ، هذا إذا رأى الشرطة أن يحتجزوهم أكثر مما احتجزوهم .

ولما استؤنف التحقيق ، واقتيدت الجماعة التالية من المتهمين ، تملكت الدهشة الرقيب إذ رأى بعض الفلاحين يتسكعون فى الفناء .. ومن ثم صاح وهو واقف فى فتحة الباب : « ماذا تريدون يا قوم ؟ »

ووجد بانتيليمون فادوفا نفسه أمام الجمع ، وهو شاب قد استدعى إلى الجيش وكان عليه أن يقدم نفسه إلى الكتيبة الكائنة فى بيتستى فى مدى أسبوع ، وقال : « جئنا نشهد ياسيدى ، نحن نشهد بأنه ليس لأحد منهم شأن بذرة الملتزم » .

فأجاب بوجيو وهو يقترب منه . « أتقول ليس لأحد منهم شأن ؟ — تعال هنا يابانتيليمون ! .. أنت جندى ، وتريد أن تشعلها ثورة ؟ — عليك اللعنة يا ابن الزانية ! »

وهجم عليه بغتة ، وأمسك بخناقه ، وأخذ يكيل له لطمة بعد لطمة ، على رأسه ، وعلى وجهه ، وعلى كل مكان وقع تحت يده .. ورأى الفلاحون ذلك فهربوا إلى الشارع خائفين تند عنهم ضحكات بلهاء .. لقد بدت فكهة تلك الطريقة التى خاطب بها الرقيب الفتى ، ثم اندفاعه نحوه ، بل إن بانتيليمون نفسه دهش لها وضحك منها ، عندما تملص من قبضة بوجيو ، وجرى وراء الفارين ، رغم مانزل على وجهه من صفعات .. ولكن الابتسامة ذوت عن شفتيه عندما مسح وجهه بكم قميصه ، واستشعر الألم فى فكه ، وبصق دما .. لقد عض لسانه عندما انهالت عليه اللكمات .

وهتف بونجيو باسما ، رغم غضبه ، عندما رأى الفلاحين يضحكون . « قف يابانتيليمون ! . . لماذا تجرى يافتى ؟ » .

على أنه أمسك عن الضحك فورا ، وعاوده الهياج والغضب ، ثم راح يؤدى واجبه . . كان المتهمون قد تجمعوا كقطيع من الغنم ، فلما تناهى إليهم الضحك من الخارج ، ظهرت على وجوههم بسمات كذلك ، على أمل أن يكسبوا عطف الرقيب عليهم ، أما الرقيب فقد حملها محمل الهزء به ، فأراد أن يكبت فرحتهم ، فوزع عليهم لكمات ، ألقاها عليهم خبط عشواء ، وهو يغمغم غاضبا . « أتريدونها ثورة ، أيها الخنازير الكسالى ؟ . ألا يكفى أنكم لصوص ، فتزيدون على ذلك الوقاحة ؟ » .

وهدأت نفسه بعد دقيقتين ، فشد قامته إلى أقصاها فى فتحة باب المكتب ، ثم صاح إلى رجل بين الجمع . « وأنت يا هذا ! . تعال هنا أيها الجلف الغليظ ! لا تتخبط هكذا ! » .

— ٧ —

فى الصباح الباكر من اليوم نفسه ، أخذ جريجور أيوجا يطوف بتيتوهيرديليا فى أرجاء الضيعة ، وعلى وجه الخصوص فى مبانى المزرعة الجديدة فى روجينوزا وهى قرية حديثة ، تضم ثلاثين دارا لا أكثر ، وهى دور أنشأها كلها ميرون الكبير من أجل الفلاحين ، ليكونوا على مقربة منه .

وقطعا المسافة بين آمارا وروجينوزا فيما لا يزيد على نصف الساعة . . ولقد أعجب تيتو أيما إعجاب بوفرة البهائم والخيل والدواجن والخدم ، وكذلك الصوامع الضخمة ، وأكداس التبن الهائلة ، وأكوام عيدان الذرة . . وما كان ذلك لأنه شعر باهتمام خاص إزاء هذه الأشياء ، ولكنه أراد أن يبعث البهجة فى نفس جريجور ، الذى كان يستمتع بهذا كله أشد المتعة .

وبدليا من روجينوزا حتى بلغا إيزفورو تقريبا . . وكانت على يسارهما ضيعة آمارا ، وعلى اليمين ضيعة روجينوزا ، أعنى نفس السهل المستوى الذى لا ينتهى ، وقد بدا قفرا مملا كئيبا تحت سماء الخريف الشاحبة . . وكان فى وسع

المارة أن يرى ، على الأفق ، غابات آمارا الذهبية ، وعلى مدى منها إلى اليسار السقف الأحمر الذي كان يعلو هامة قصر غيكا في إيرفورو .

وتوقفنا في طريق العودة ، عند روجينوزا ، حتى يتسنى لجريجور أن يتخذ بعض التدابير .. وبعدئذ انطلقنا في طريق آخر صوب بيرلوجو ، ورجعنا من هناك إلى آمارا في ممر مستقيم بين الحقول .

ولم يكن هيرديليا الشاب مهتما بالقرى والضيعة قدر اهتمامه بأن تسنح له فرصة يحدث فيها جريجور حديثا خاصا .. ولم يكن يجرؤ ، أو على الأقل لم يجد المناسبة ليسأله عما تم بينه وبين باولينو بشأن قيامه بالعمل في جريدة «يونيفرسول» وطرق جريجور الموضوع دون أن يسأله هو شيئا ، فقال ، فيم قال إن باولينو قد توسط في أمره ، وإنه تلقى وعدا ، ولكن جريجور لم يقنع بهذا ، ومن ثم تعهد باولينو أن يتم كل شيء عندما يعود تيتو من الريف .. ومضى جريجور فقال «إن على تيتو ألا يشغل باله في الوقت الراهن بالعاصمة ، أو بهذه الجريدة أو تلك ، وإنما عليه أن يعتبر نفسه في بيته» .

وأزجى إليه تيتو الشكر حارا ؛ وأخطره أنه قام في الأمس بزيارة إلى بيت المعلم وبيت القس في القرية .. وأطرى جريجور المعلم لمثابرته واجتهاده وأضاف أن والده يكن له احتراما كذلك ، رغم أنه يعتبره دعيا يطلب الزعامة . وكان والحق يقال على شيء من ذلك .

قال هيرديليا : « أنا أعتقد أنه مخلص جدا . ولكنه متطرف بعض الشيء »

فعقب أيوجا : « الإخلاص والتطرف يجملان ذوى الحظ المتوسط من الثقافة مبعث خطر كبير .. وهذا هو السبب الذي جعل دراجوس لا يعيش في دنيا الواقع، بل يرى نفسه هدفا لكل اضطهاد وظلم . ومثل هؤلاء الناس يسببون كوارث كثيرة ، على غير إرادة منهم » .

وبلغا آمارا عند الظهيرة ، فلما كانا على مقربة من بيت الشريف ، التقيا بالمعلم.. كان شاحب الوجه ، مضطربا غاية الاضطراب . فأسرع نحوهما ... وألقى عليهما التحية ثم قال في صوت خنقه الانفعال : « كنت على وشك أن أذهب إلى السيد

ميرون ؛ وإن كنت أعلم أنه ربما يلقى بى إلى الشارع . ولكن كان على أن أحاول المستحيل لأرى إن كان فى مقدورى أن أوقف مايجرى .. أنا منذ سعدت بمعرفتك ياسيد جريجوريتسا ، أرجوك أن تستمع إلى . .

وقص عليهم كيف ضرب الشرطة عشرات الفلاحين ؛ وكيف جاء النساء والشيوخ إليه وإلى نيكوديم يرجونهما أن يعملا على إقاذ الفلاحين .. ومع ذلك فهو لم يفعل شيئا ، رغم أن قلبه يقطر دما من أجلهم ؛ لأنه كان يرجو أن يخفف بونجيو من غلوائه ؛ ولكن الظاهر أن التحقيق لم ينته بعد ، وإن مزيدا من الرجال سيكابدون المحنة نفسها فى الأصيل .

وختم المعلم حديثه وهو يرتعد : « وهذا كله من أجل كيسين من الذرة . . . لقد عرض الناس أن يسهم كل منهم بقليل تعويضا للملتزم عن خسارته. وأنا سوف أسهم أيضا ، وكذلك كل واحد ، ولكن... »

وسأل جريجور تيتو : « هل تذهب إلى ديوان القرية ؟ فوافق تيتو وانطلقوا ورأوا خارج الديوان ، وفى الفناء ، جماعات من الناس ، أغلبهم من النساء .

وتلقى جريجور تحية مضطربة جافة من كل من كان بالمكتب ، وخاصة من العمدة الذى كان يتدارس تحقيقات المساء مع الرقيب والكاتب . . وظن برابيلا أن السيد جريجوريتسا قد جاء بناء على أمر من أبيه ليذيع ما أحرزه التحقيق من تقدم، فتباكى وقال إنه منذ الليلة الماضية لم يدخر وسعا ، هو والرقيب ، بغية التوصل إلى الحقيقة ، ولكن جهودهما كلها ضاعت هباء . فما من أحد يريد أن يعترف .. وصرح الرقيب ، وهو واقف مشدود القامة فى حالة انتباه ، إنه عاقد العزم على اكتشاف المجرمين ، ولكنه مازال فى حاجة إلى بعض الوقت لأن عدد الفلاحين كثير ، ولأنه يقوم باستجوابهم وحده .

وأشار عليه جريجور بأن يؤجل التحقيق حاليا ، وأن يحول دون حدوث اضطراب فى القرية لا موجب له . . واستطرد قائلا إن التحقيق ينبغى أن يتخذ وجهة أخرى . إذ ينبغى عليهم أولا أن يتحققوا من الكمية التى سرقت ، وأن يتبينوا على وجه الخصوص الكيفية التى تمت بها السرقة ، وبهذا يتمكنون من

الكشف عن اللصوص .. فقرر العمدة عندئذ أنه لم يستدل على أثر ، أى أثر ، يقوم دليلا على حدوث سرقة عنوة ، وأن الملتزم رأى التنازل عن شكواه .

وتساءل جريجور فى بساطة : « إذا لم تكن هناك دلائل تدل على السرقة ، أليس من الجائز ألا يكون هناك لصوص »؟

فقال العمدة وقد إحمر وجهه انفعالا : « لو لم يحدثنى فى هذا السيد كورما بنفسه ، فأنا أؤكد جازما أنه مامن لصوص انتهكوا المكان » .

وأردف بونجيو بحزم : « مامن لص يعترف من تلقاء ذاته أنه قد سرق أى شىء المهم إلا إذا ضبط متلبسا » .

وبقى العمدة ، بعد أن انصرف جريجور ، يتبادل المشورة مع بونجيو . . . كان كلاهما يحترمان جريجور ، ولكنهما كانا يخافان والده أكثر .. واستقر رأيهما على أن من المستصوب أن يذهب براويلا إلى الشريف ضحى اليوم، فيدلى إليه بما بذلا من جهد ، ويخطره بما أمره به السيد جريجور ؛ حتى ينفيا عن نفسيهما أية تبعة .. ولما علم ميرون أيوجا بالخبر . أدهشه أن يسمع بتدخل ولده ، ومع ذلك فقد أظهر موافقته على ما أمر به جريجور . ولكنه استطرد قائلا إن هذا لا يعنى توقف التحقيق، لأنه يصر على وجوب اكتشاف اللصوص أيا كان الأمر .

وفى المساء ، عقب العشاء ، حدث أيوجا الوالد ابنه ، قائلا : « هناك أمر أود أن أتحدث إليك بشأنه ؛ وهو . . . »

وأدرك تيتو فجأة أن وجوده غير مرغوب فيه ، فوقف على الفور وهو يتمتم « أرجو أن تأذنوا لى .. أنا متعب جدا بعد كل هذا المشى اليوم » .

« طابت ليلتك إذن » قالها ميرون ، وفى صوته مسحة من الامتنان .

فلما ترك ميرديليا الحجرة أعرب جريجور عن استيائه لأن أباه لم يجامل ضيفه الشاب ، ولم يبد له أى اعتبار . . وأتى الوالد بإشارة قفل بها الموضوع ، قال : لا ضير فى هذا . وليس هذا بالأمر الهام ، بل الأهم من ذلك هو أنك بدأت

تقوض أركان سلطتى بين الناس ، وتحول بينهم وبين تنفيذ أوامرى. . وهذا أمر خطير يابنى ويتعين عليك ألا تعود إليه . . وطالما أنا أسعى على الارض ، فأنا السيد هنا ياجريجور . . وأنك لتعلم أننى أصر على هذا الرأى . . ولكن عندما أذهب ، فلك أن تفعل ماتشاء ، وإلى أن يحين ذلك الحين أرجو . . »

وكان صوت الأب يتردد قويا نافذا بحيث بدأ جريجور بنفسه يعود القهقرى إلى أيام طفولته حيث كان عاجزا عيياً خاضعا خائفا يترقب . . فأجاب الساعة كما كان يجيب حينذاك : « أمرك ياوالدى » .

ولم تواته الشجاعة إلا بعد لأى ، فأضاف فى أسلوب ما انفك صبيانيا : لقد حسبت أننى كنت أتصرف وفق مبادئك حين حاولت أن أوقف إيقاع الأذى بالابرياء .

« لقد أخطأك الحسبان » . قالها العجوز محتدا ؛ كأنما قد اعتمد قراراً لارجعة فيه .

الفصل الثالث

الجوعى

— ١ —

راحت أيام فجاء العمدة برافيلا يلتمس جريجور خفية ، وأسر له أنه لم يستطع العثور على اللصوص لأنه ما من شيء قد سرق . لقد أجرى تحريات دقيقة فى المخزن ، هو والرقيب سويا ، وحققا مع كثير من المشبوهين ، ولكن ذلك كله لم يسفر عن شيء .. وذهب الرجل فى النهاية إلى كوزما بيريونا ، فصرح هذا له بأنه لم يترو إطلاقا فى تقديم شكواه ، وأنه على ثقة الآن من أن السرقة لم تقع ، وأنه فى حيرة من أمره فهو لا يدرى هل يخطر الشريف أو لا يخطره ، ولكنه يخشى ألا يغفر له أيوجا أبداً .

قال العمدة : « وهأنذا جئت إليك .. لأنك أكثر صبرا واحتمالا من أبيك . وربما تفضلت فأوصيت بنا الشريف ميرون خيرا ، وأبلغته أننا لم نتمكن من تنفيذ أمره ، وهو ما يحتمه علينا الواجب ، وهو ما نحب أن نقوم به .

ونقل جريجور النبأ إلى أبيه ، فى اليوم نفسه . واستمع الشيخ إليه هادئا ، ولم تنم عنه بادرة دهشة أو غضب .. ولكنه ، فى صميم نفسه . سخط على بيريونا وبخاصة لأنه مضطر الآن إلى الاعتراف أمام ولده بأنه أخطأ ، وإن كان هو لن يعترف بهذا من فوره .

« جميل منك أن أخبرتنى بهذا » قالها فى النهاية ببساطة ، ثم أضاف بعد قليل كأنما يحدث نفسه : « ها أنتذا ترى بنفسك أى رجل من الرجال هذا الملتزم .. ولكن دع الأمر لى ، فأنا . . . »

وتوقف فجأة ، لأنه لم يشأ أن يأخذفى نقاش ، وطرق موضوعا آخر .. والحق أن ما أدمى قلبه كالسكين هو تلك الشائعة التى تقول بأن ضيعة نادينا معروضة للبيع

وهو لم يشأ أن يستجلى الأمر ساعتها ، فهذا أمر لا يليق ، ولكن الشائعة تأكدت لديه من عدة مصادر ، وبصور شتى . . ولقد صرح جريجور نفسه أن نادينا قد ذكرت له شيئا من هذا القبيل منذ مدة . . ولكنه لم يلق بالا إلى الموضوع ، لأن زوجه عندما كانت تحدثه فى هذه الموضوعات ، لم تكن تريد عادة إلا أن تعرب له عن احتقارها لكل شىء يمت للضيعة بصلة . . واستغل أيوجا الشيخ هذه الفرصة فقال بغير احتفال : « لست أدرى هل الإشاعة الخاصة ببيع عزبة باباروجا تحمل فى طياتها ظلا من الحقيقة ؟ » .

ودهش جريجور للسؤال الذى ما كان يتوقعه ، ولكنه رد بإيماءة دلت على عدم الاكتراث ، قائلا : « أنا لا أدرى ، ربما كان فيها شىء من الحقيقة . . أما من ناحيتى ، فهى تستطيع أن تفعل ما تشاء . . إن هذه العزبة تخصها ، وهى تستطيع أن تفعل بها ما تريد » .

قال ميرون وهو يحاول أن يستشف الحقيقة من تطرقه : « ولكنك تعلم حق العلم أنها لا تستطيع أن تبيع شيئا دون رضاك » .

« أنا موافق على ما تريد ، هذا أمر مسلم به . . وهى إذا كانت تفضل أن تؤجر الأرض ، بدلا من . . . »

« تقول إنك موافق ! » قالها الشيخ دون أن يحيد ببصره عنه .

فرد جريجور بثبات ، وعيناه فى عينى أبيه : « أنا بطبيعة الحال موافق على ما تريده ، متى شاءت ، هذا أمر بدهى . . . »

وأصر والده قائلا : « هل أنت موافق على أن تبيعها لأى شخص كائنا ما كان حتى ولو كان للفلاحين ؟ » .

فقال الشاب بابتسامة جافة مقتضبة : « وما بالفلاحين ؟ أنا أفضل الفلاحين جيرانا لى ، حتى يرووا ظمأهم الذى يجعلهم يتعطشون للأرض ، فيتركوننا نعيش فى سلام ، وأنا أفضلهم على بلاتامونو ، ومن هم على شاكلته من الملتزمين » .

وهنا قال الشيخ ، كأنما كان يتوقع هذه الإجابة من وقت طويل ، فتحدث فى صوت رقيق لا يخلو من عتاب ؛ فقد كان يعلم أن هذا يؤثر فى ولده أبلغ تأثير « أنا آسف يابنى ، آسف جدا أن أرى الدعايات الباطلة قد أفسدت عليك حسن تقديرك للأمور . . وإنى ليروعنى ذلك عندما أفكر فى مصير هذه الضيعة التى تملكها من بعدى . . ولست أدرى لم تعاودنى ذكرى أخى تيوفيل ، طيب الله ثراه ، فأنا أخشى أن تحذو أنت حذوه ، وتبدد كل شىء ، فلا تخلف وراءك غير التراب » .

فقال جريجور ، وهو يشعر بالطمأنينة من هذه الناحية : « فى وسعك أن تثق بى يا والدى ! . . فأنا أحب الأرض حبك لها ، ليس فى هذا شك . . ولكن هذا الحب لا يعمى عينى عن حقيقة هى أن للفلاحين الحق فى أن يعيشوا أيضا .

وتملك الغضب ميرون عند هذه النقطة .

« معنى هذا أننى لا أحب الفلاحين ، وأننى لا أريدلهم أن يعيشوا . . أليس هذا قصدك ؟ . . أنا الذى قسمت كل شىء قسمة عادلة بينى وبينهم ، وشملتهم برعايتى ، ثم تزعم أننى لا أحبهم — أما أنت يا من تحبهم فتملأ أدمغتهم بالوعود الكاذبة والكلمات الجوفاء ! . . هذا هزل لاشك ياجريجور ! »

ثم واصل الحديث ، بعد برهة ، فى صوت أهدأ ، قائلا : « إن الزراعة تحتاج إلى الخبرة ، والخبرة عامل حاسم فى الموضوع . . والضيعة التى تقسم بين الفلاحين مقضى عليها — هذا أمر محتوم لا فكاك منه ! . وأنا لا أدرى كيف يمكنك أن تصل إلى اتفاق مع الفلاحين عندما تذهب إليهم هذه الخمسمائة والألفين من البوجونات ؟ . . لاشك أنهم سيهزأون بك ، ويسخرون منك يا بنى . . إنهم اليوم ، (وأراد أن يقول « لصوص » ولكنه تذكر حادث بيريونا ؛ فأمسك) إنهم اليوم كما عهدناهم ، ولكنهم عندئذ سيستخفون بك ، بل وربما قبضوا عليك فى النهاية . . الجماهير يا بنى فى حاجة إلى سيد يسوسها ، وإلى يد قوية تكبح جماحها وإلا عمت الفوضى ! » .

واستمع جريجور إليه ، ولم يحاول أن يبدى اعتراضا .. فهو قد سمع آراء أبيه مرات ومرات ، وكان يعلم ألا سبيل إلى تغيير طبعه .

وانطلق ميرون يعرب عن آرائه ، قائلا : « لذلك أنا أرى فى حالتنا هذه ، أن موافقتك على البيع يجب أن تتحول إلى سلاح للدفاع عنا . . أنت موافق على البيع لأنك تظن أن ضياع العزبة لن يؤثر على ممتلكاتك أدنى تأثير ، هذا أمر مفهوم على كل حال . . ولكن الواقع أن الخطر لن يتلاشى تماما ما لم تسع بنفسك وتشترى باباروجا » .

وظهر الاهتمام على الشاب ، فقد بدت الفكرة له طريفة كل الطرافة . وقال : « لو أن نادينا علمت أننى سأكون المشترى فربما غيرت رأيها . . . ذلك أنها تريد أن تنتزعنى من الريف ، لا أن تثبت جذورى فيه . . . لماذا إذن لا تشتريها أنت ياوالدى ، إن كنت ترغب فيها كل هذه الرغبة ؟ » .

ولم يحر ميرون جوابا هنيهات ، كأنما هو قد استمع إلى نبأ مذهل . . ثم قال فى تفكير : « نعم ، الرأى ما رأيت ياجريجور ، لقد أصبت والحق يقال . . . »

— ٢ —

كان الطقس رائعا ، فخطر لصاحب الخان ، كريستى بوزوك أن يدعو فرقة من العازفين ليهيىء للشباب أن يرقصوا رقصة « الهورا » طوال الأصيل كله ، وللشيوخ أن يستمتعوا بكأس أو كأسين من الشراب . . وكان اليوم هو آخر أحد من شهر أكتوبر ، وكان الطقس إذ ذاك باردا رطبا فى العادة .. أما اليوم ، فقد كانت السماء صافية ، والشمس تلقى فيها أشعتها الذهبية ، فتبعث الدفء فى النفوس ، وتنشر نورا حنونا على الأرض الكليلة . .

وبدأت الرقصة فى الفضاء القائم أمام الخان ، وسرعان ما امتدت وانتشرت إلى الطريق ، وقد وقف هناك النساء والفتيات يرقبن مايجرى . . وكلما مرت عربة ، أو عربتان ، وهو الأمر النادر ، كان الناس جميعا ، الراقصون والمشاهدون ، يتجمعون

فى الفراغ المحدود أمام الخان ، وإذ ذاك تتعالى صرخات النساء خوفا ، فتغرق العبارات الشاعرية التى يتغنى بها المغنون .

وكانت الرقصة الآن تدور فى منتصف الطريق ، وتنساب فى نعومة ويسر ، والنساء يحملقن فيها مبتهجات ... ولم يكن هناك سوى عازفين اثنين ، لأن صاحب الخان أبى أن يدفع لأكثر من اثنين ، قائلا إن النتيجة هى هى ، سواء أكان العازفون اثنين أم ثلاثة ، طالما أنهما يجيدان العزف ولا يتوقفان عنه أبداً .. وأخذ العازفان يتحركان أكثر مما يتحرك الراقصون والراقصات ؛ مرة هنا ومرة هناك ، تشجيعا للجمع كله .. وكانت أحذية الرجال تصطك ثقيلة على الطريق ، أما الفتيات فكن يتأودن بخفة تأود الغزلان ، لاتكاد الواحدة منهن تمس الأرض مسا .

وكان الشيوخ مستلقين فى استرخاء على المقاعد التى قامت ملاصقة لجدران الخان ، ووقف لفيف من الرجال فى رقعة من الأرض الخلاء يتشاورون شأنهم أيام الآحاد . . وكان الناس دائما يؤمون خان آمارا ، ويقصدونها من كل القرى التى كانت من قبل جزءا من ضيعة أبوجا الكبرى ؛ تلك كانت عادة توارثها القوم جيلا بعد جيل . . كان الجميع يأتون هنا بمتاعبهم ، من ليسبيزى وفايدى وبيرلوجو ، ومن جليجانو وباباروجا ، هـذا فضلا عن روجينوزا القريبة ، وهى قرية كان سكانها يحسون أنهم بين أهليهم فى آمارا . .

وكان سيرافيم موجوس ، وهو رجل أشيب الفودين ، رقيق العينين ، يحكى ما عاناه على أيدى الشرطة . . وكان ، وهو يتكلم لايتطلع إلى الذين وقفوا قبالته ، بل كان يحملق إلى الأمام ، كأنما كان ينافح عن قضيته أمام قضاة عدول . وفى أثناء ذلك تعلق طفل بذراعه ، وأخذ يلف ويدور حوله فى مرح ، كأنه فراشة بيضاء تتراقص حول شجرة معمرة عتيقة . . وكان كل واحد يعلم تفاصيل ما حدث ، ذلك أن أنباء التحقيق ذاعت وانتشرت فى القرى كلها . . . وكان هناك بين الجمع ثلاثة غيره من الذين لقوا الهوان على أيدى الشرطة ، ولكنهم مع ذلك لم يقولوا شيئا ، بل أخذوا يستمعون إلى رواية سيرافيم كأنما كانوا يستمعون إلى حكاية طريفة تقص عليهم لأول مرة ، أو كأنما كانوا يتلمسون فيها شيئا من العزاء للآلام التى اعتصرت قلوبهم ، وهم يحيونها مرة أخرى . وكان إيجنات

سيرسل ، وهو أصغر من موجوس سنا ، ولكنه لنظراته الشاردة الغامضة يبدو أكبر منه سنا ، يركز عينيه على شفتى المتحدث ، ويومىء إليه من آن إلى آن ، وهو يتنهد ويكرر باستمرار كلمات بعينها : « ولكن ما حيلتنا إزاء هذا كله ؟ » .

وكانت لهجته تحمل ، على الرغم منه ، مسحة غريبة من البؤس والذلة والاستسلام بحيث إن أولئك الذين وقفوا حوله أخذوا يرمونه بنظرات مفعمة بالاحتقار . . وأخيراً تملك الغضب تيودور ستريمبو ، وهو أرمل ذو ثلاثة أطفال ، وما كان يملك من الأرض شيئا ، وصاح : « أتقول ما حيلتنا ؟ . . ما حيلتنا ؟ » .

ولكنه خشى مغبة ثورته فأضاف على عجل مهمها : « علم ذلك عند ربى ! » .

وكان إيجنات سيرسل قد نال حظه كذلك من الضرب والإهانة على يد سلف بوبجيو فى نقطة الشرطة منذ أربعة أعوام ، وكان ذلك بسبب سرقة مماثلة تم اكتشافها فى بيت الشريف . ولقد ضرب إذ ذاك ضربا مبرحا ، ألزمه الفراش زهاء أسبوعين ، ولم يبرأ من آثاره أبداً . وحاول ليوتى أوربيسور أن يلطف من غضب تيودور ، فقال : « لقد كنت أحد الذين اجتازوا هذه المحنة مع سيرافيم وغيره . . ولكن ماذا يملك أولو الأمر غير ذلك ؟ . . إن السرقة وقعت على كل حال ؛ ولا يحق لأحد أن يسرق ما ليس له » .

« السرقة حرام ، هذا حق . . . » قالها الجمع موافقون . . وتنفسوا الصعداء كأنما قد أزيح عن أفئدتهم حجر ثقيل . . وعندئذ غمغم تريفون غوغو يحدث نفسه ، رغم أن القوم جميعا قد سمعوه ، فقد كان ذا صوت خشن غليظ يتمشى مع سحنته الغضبى ، قائلا : « ولكننا نحن أيضا لنا حق معلوم فى هذه الذرة ! »

وشخصت إليه الأبصار كلها فى نفس اللحظة ، كأنما هو قد كشف عن سر خفى خطير الشأن ، أو كأنما كان هو على الأقل قد أعرب عن عقيدة تغلغلت فى نفوسهم جميعا . . ولكن ما من أحد فيهم نبس بكلمة ، حتى تريفون نفسه ، وهو الذى تعود أن يكرر كلامه إن رأى أنه ذو وزن ، لزم الصمت ، وغض بطرفه .

ومضت فترة قصيرة لم يقطعها غير صريف العازفين ، وصيحات الراقصين ؛ وأخذ كل واحد فى نفس الوقت يتحدث فى موضوع غير الموضوع ، وبلهجة غير

اللهجة . . ما عاد أحد فيهم ينظر إلى الآخر ؛ كأنما كان كل منهم يخاف أخاه . بل مضى بدلا من ذلك يرقب رقصة الهورا التى تدور فى الطريق . . واختلطت أصواتهم وامتزجت فى آهة طويلة لا نهاية لها .

ودارت الرقصة سريعة ؛ وشكل الراقصون دائرة واسعة أخذت تتلوى فى وهن التواء الثعبان بين الناظرين ؛ وكانت أحيانا تمس ، مس السوط الرفيق ، جماعة النسوة اللائى وقفن على جانب ، وكانت أحيانا أخرى تلامس الرجال الذين تجمعوا فى براح الأرض أمام الخان . . وتجلت نشوة الراقصين فى صيحاتهم ، وفى خطواتهم الإيقاعية المتشابكة الدقيقة . . . وتجمع الناظرون ، وقد تمشت فيهم حميا السرور ، فهفت نفوسهم جميعا إلى الذوبان فى كيان فرد واحد ، دون أن تساورهم هموم أو مشاغل .

وكان أشدهم خفة بانتليمون فادوفا ، وقد سر الجمع أن يروه سعيدا ، ذلك أنه مضطر إلى الالتحاق بالجيش بعد أيام قلائل ، ولا يعلم أحد إلا الله متى تتاح له الفرصة ليحظى بشيء من الطرب مرة أخرى . . . واقد جال هذا الخاطر بذهنه هو أيضا ؛ رغم أنه أعلن عن طموحه إلى بلوغ رتبة العريف قبل أن يسرح من الجيش ، شأنه شأن بيتريتسا ، بن بيتر ، الذى سوف يعود فى نفس الوقت الذى يذهب هو فيه . على أن بانتيليمون فى صميم نفسه كان يشعر بالرعب من الحياة المجهولة التى تنتظره كجندى بسيط برتبة « نفر » . . . وهو قد تقصى الموضوع مع كثير من الناس ، ولكنهم كانوا جميعا فخورين بالسنوات التى قضوها فى خدمة الجيش ، وقالوا إن حياة الجيش حياة رائعة ، وإن كانت صعبة للغاية .

بيد أنه كان يشعر بالغم بسبب دومنيكا ، وهى شابة ريانة ، ذات وجنات متوردة ، وفى السابعة عشرة من عمرها ، وكانت الآن تحرص على ملازمته فى رقصة الهورا ، وتتعلق بذراعه ، ولا تريد أن تتركه أبداً . . . وفاض قلب بانتيليمون مرارة عندما خطر له أنه سيغيب عنها مدة لا يدرى إلا الله مداها . . لقد أراد أن يتزوجها قبل التحاقه بالجيش ، كما فعل كثيرون غيره من قبل ، ولكن أهله وأهلها أبوا عليهما ذلك . فوالداه يريدان منه أن ينسى الفتاة ، ويفضلان له فتاة

أليق به منها عندما يحين الحين فيترك الجيش ، أما والداها ، وبخاصة أمها . فكانا يخشيان أن يصاب بانتيليمون فى الحرب كما حدث للمسكين فلورى بوتوك ، الذى تزوج إنجلينا ، ابنة نستور موكينكو، وكان إذ ذاك لايتجاوز الثمانية عشر ربيعاً، فأنجب منها ثلاثة أطفال ، ثم خلفها ومات وهو فى خدمة الجيش . . والحق إن القلب لينفطر الآن عند مرآها . . هذا ولا ينبغى أن يغرب عن البال أن إنجلينا كانت سعيدة الحظ إذ أتيح لها أن تحتفظ بالأطفال فى حضانتها ، ثم إن والدى فلورى قد أعطياها إرث ابنهما ، وهكذا تأتى لها الآن أن تملك دارا صغيرة تعصمها من عاديات الزمن . أما دومنيكا فقد لا يتاح لها شىء من ذلك كله ، ولئن أصابها سوء فسوف تغدو امرأة نَصَفاً ، لا هى بالعذراء ، ولا هى بالزوجة — بل مجرد مخلوقة يطمع فيها الرجال الذين يجرون وراء النساء .

ولم يكن بانتيليمون ، وهو الذى تتحكم فيه العاطفة أكثر مما يتحكم العقل ، يكترث لهذه الأمور . . كان كل همه أنه راحل ، وأنه لن يعود إلى رؤية هاتين العينين الدعجاوين ، اللتين تتلهفان شوقاً ، واللتين هما فى نظره تخفيان أسرار الوجود كلها وأنه سيحرم من التطلع إلى فمها الدافئ الدقيق الذى يبشر بالبهجة والوعود . . . هكذا كان ، يشعر بالغبطة والأسى فى آن واحد ، ينط ويرقص بكل جوانحه ، لأنه يريد أن يملأ سمع دومنيكا وبصرها ، وتريد منها أن تتذكر كذلك أنه لا يوجد بالقرية فتى آخر أروع منه ، وهو يريد منها ألا تنساه أبداً ، أو تمضى فتحب أحداً غيره . . . وأدركت دومنيكا أنه يأتى بهذا كله من أجل خاطرها ، فتاهت نفسها زهواً . . كانت تضغط على يده من وقت إلى آخر ، وتلصق جسدها بجسده ثم تلقى نظرة على الآخرين كأنما تشهدهم على أنها تزمع أن تنتظر حبيبها مهما طال المدى .

على أن أكثر شبان القرية إقداماً كان نيكولاى دراجوس ، شقيق المعلم ، وهو شاب متين ، ذو شارب حالك السواد ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، ذكى ، مجد فى عمله . . وما كان ينقصه شىء ليكون أروع فلاح فى القرية إلا أن تتوافر له زوجة خليقة به . . والواقع أن وجود غيرغينا ، ابنة شيريلا بون ،

إلى جانبه دل على أنه حاذق أيضا فى هذه الأمور . . فقد كانت الفتاة وحيدة والديها ، وتتميز بالسحر والفتنة . . وكان شيريلا يمتلك عدة قطع من الأرض وبيتا هنا فى آمارا ، ولكنه قبل عام مضى انتقل إلى جليجانو حيث كان يعمل الآن مشرفا فى خدمة الملتزم بمقتضى عقد كفل له أجراً سخياً . . وكان قد ترك أملاكه فى آمارا فى رعاية والده . وهو رجل قد تخطى السبعين منذ زمن طويل ، ولكنه مازال قويا معافى ، أبرع من الشباب فى الحرث والعزق .

وإذ ذاك انطلق صبي يغنى مع الراقصين ، دون أن يكترث لأحد ، وقد أغمض عينيه ، ونفش صدره كفرخ صغير .

ياورقة اللفاح[1] الخضراء
ما أشد فرحتى بالرقص واللعب

ولم يتمالك الضارب على الكمان نفسه ، وكان من الغجر ، فرد عليه متغنيا :

يا ورقة العشب البرى الخضراء
الحياة لهو ولعب
للناس قاطبة ما عدا من اسمه إيلياء

وضج جميع الذين كانوا يرقصون ضحكا ، كذلك أولئك الذين وقفوا يرقبون المنظر ، بما فيهم الصبي نفسه ، فقد كان اسمه إيلياء سيرلان . . ودبت الشجاعة فى نفس الغجرى ، إثر استحسان الجمع ، فصاح فى الصبي : « لئن لم تنته غنيتك مقطعا آخر عن سيرلان » .

وتعالى الضحك مرة أخرى إلى عنان السماء . . واستمرت الهورا كتلة من الأجساد الدافئة ؛ كأنما لم تتوقف لحظة ، وأخذت تلف وتدور ، فى صخب وجنون ، كأنما الرقصة لن تنتهى أبدا .

---

(١) اللفاح نبت سام يسبب النوم وينبت بريا فى بعض الأنحاء .
(المترجم)

أما فى الخان ، فقد جلس حول مائدة طويلة ، فى ظهر القاعة ، اثنا عشر رجلا من زعماء الفلاحين ؛ وأخذوا يتبادلون المشورة زمناً طويلا ، ولكنهم لم يصلوا إلى اتفاق فيما بينهم ، فعمدوا إلى كئوس الشراب يستمدون منها الشجاعة والإقدام.. وكان بوزوك يقوم بنفسه على خدمتهم ، فقد كان هؤلاء من القوم المحترمين ، الذين يدفعون الحساب على وجه اليقين . . واشترك صاحب الخان كذلك فى النقاش ، على قدر ما سمح له العمل ، فقد كان موضوع الحديث يدور حول الأرض ، وهو ، شأنه شأن أى رجل شريف ، لا علم بشيء غير الأرض ، والواقع أن ما دفعه إلى العمل لم يكن غير الأمل فى ادخار قدر من المال يهيء له أن يشترى عدة بوجونات من الأرض الطيبة ، ومن ثم يصبح رجلا مرموقاً .. وكان لوكا تالابا ؛ وهو جبل فى هيئة رجل ؛ هو الذى دعا إلى عقد هذا الاجتماع ، وكان الرجل قد تولى منصب العمودية من قبل . . ولكن الفلاحين كانوا فى ريبة وعلى جبن .. وكان كل رجل فيهم يخشى أن يغضب عليه ملاك الأرض . لأنهم — أعنى الفلاحين — يرغبون فى شراء مزرعة السيدة نادينا ؛ ومن ثم قد يرفض الأشراف إعطاءهم أى أرض يزرعونها ؛ فيموتون جوعا .. وتساءل لوبو شيريتو ، وكان أكبرهم سناً ؛ وله خصلات من الشعر الأشيب تتدلى على كتفيه كما يتدلى الخيط من المغزل ؛ وعينان زرقاوان دامعتان ؛ قائلا فى جذع : « هذا كله جميل أيها الأصدقاء ، ولكن لنفرض أن الشريف قال من البداية ، إنى لن أبيعكم العزبة ؛ لأنكم لا تملكون الكفاية من المال ؛ ولابد من دفع الثمن كله دفعة واحدة » . .

وقاطعه لوكا تالابا ، وكان دعيا ، قائلا وقد تألق وجه الفتى حماسا : « الثبات ، الثبات يا عم لوبو ... نحن لو أخذنا فى هذا الكلام فلن نتمكن من شراء الأرض أبداً طوال حياتنا ؛ ولن يتأتى لنا المال الذى تنقده الملاك حين يطلبون إلينا ذلك.. أنت رجل كبارة ، وأنت تدرك جلية الأمور . . ومن المعلوم أن البائع هو الذى يتساهل ويتنازل ، وليس هو بالذى يضيق عليك الخناق كما تزعم يا عماه ! » .

وجاء إلى المائدة فى هذه اللحظة صاحب الخان ، وقد حمل كأسا كان قد طلبها ماتى دولمانو ، وهو رجل هادىء متزن من أهالى ليسبيزى ، وقال : « فى مقدورنا أن نستدين أيضا من البنك ، لو اقتضى الأمر ... وسوف يعاوننا

أصحاب المصرف ، لو سألناهم ذلك فى أدب ، وأخبرناهم بأننا نريد شراء عزبة ، لأن المال مضمون ، ولأنهم يستطيعون استرجاعه فى أى وقت يشاءون .

واستطرد لوكا ، وقد ازداد ثقة : « إنه على حق — سوف نحصل على المال من البنك . كذلك يجب أن نعمل من جانبنا ، ونحن بهذا إنما نعمل لأنفسنا... وليضع كل منا الآن ما معه من مال ، ونضم بعضه إلى بعض ، ونرى ماذا يتجمع لدينا ، أقصد نحن والكثيرون غيرنا ممن يريدون أن يشتركوا معا .. وبعدئذ نتقدم بهذا المبلغ دليلا على حسن نيتنا ، ثم بعد ذلك نعمل على الحصول على بقية المبلغ » .

وارتفع صوت ماران ستان فجأة ، وهو رجل ضعيف ، جلد على عظم ، له أسارير حادة كأسارير الطائر ، وقد غلبته كمية الشراب التى احتساها ، فصاح غاضبا من ركن الطاولة : « لو وضعنا أيدينا على الأرض ، فلن يتمكن أحد ، كائنا من كان ، من انتزاعها منا ! » .

وتعالت صيحات أخرى مؤيدة له : « نعم ، نعم .. نحن لن نسلم الأرض أبداً ، لو تمكنا من الاستيلاء عليها » .

وتدخل صاحب الخان ، كريستى بوزوك ، مرة أخرى ، وكان يرمى ماران بنظرة ازدراء : « أو تحسبون الشريف جاهلا كل الجهل بحيث يسلمكم الأرض قبل أن يضمن نقوده ، إنكم بهذا تتمكنون من الإيقاع به وتقولون : « ليس عندنا مال .. ومع ذلك نحن نرفض أن نعيد إليك العزبة ، حتى ولو لم ندفع ثمنها ، لأن الأرض هى أرضنا على كل حال . » صدقنى يا ماران . . إنك مهما شربت من خمر فلن تخدع الشريف ميرون هكذا ! » .

ورد لوكا غاضبا : « لا يوجد أحد عنده مسحة من العقل يفكر فى وضع يده على الأرض دون ثمن ... ماران وحده هو الذى يفكر فى ذلك ... هذا حديث سكارى » .

وأومأ الجمع استحسانا .. وتطلع ماران ستان إلى كل رجل فيهم ، والظاهر

أنه عجز عن أن يفهم علة وقوفهم منه موقف المعارضة ، وما كان يعبر إلا عما يجيش بصدر كل منهم .

وكان لوبو شيريتو ، كالعهد به ، يقلب الأمور فى ذهنه قبل أن ينطق بالكلام ، لحدث لوكا الآن زاجرا : « كنت أحسبك أعقل من ذلك يارجل.. ألا ترى أننا نقتصر فقط على الكلام والجدل والخصام ، ونحن لا ندرى إطلاقا هل توجد عزبة معروضة للبيع أو لا توجد ؟ »

فقال لوكا تالابا غاضباً : « هذا هو ظاهر الأمر . . إنما أنا أعلم علم اليقين أن العزبة معروضة للبيع يا عماه ، وقد علمت هذا من شيريلا بون ، وهو يد الملتزم اليونانى اليمنى . . . أفهمت يا عماه ؟ . . . لقد حدث اليونانى شيريلا ، كما أحدثكم الآن ، فقال إن العقود فى السنة القادمة ستختلف ، بمشيئة الله ، عنها هذا العام . . وقال اليونانى لشيريلا : «أنا أنوى أن اشترى عزبة السيدة نادينا لحسابى الخاص! » هذا ما قاله اليونانى . . وأنت يا عم لوبو ، لا بد أنك تذكر ، فقد كنت كبير السن إذ ذاك ، ألم يحدث نفس الشىء عندما باع شقيق الشريف ميرون أرضه ؟ » .

واعترف الشيخ قائلا : « لقد تطايرت إشاعات كثيرة إذ ذاك . . وما من أحد يستطيع أن يتذكر هذه الإشاعات كلها . . . ولكنكم تعلمون جيداً ، أيها الأصدقاء ، أن الأشراف يرفضون أن يبيعوا أرضهم للفلاحين ، لأننا لو أصبحنا من الملاك أيضاً ، نحن الفلاحين ، فمن ذا الذى يفلح فى الضيعة ؟ » .

وران على القوم صمت حزين عقب كلام الشيخ لوبو . . وترامت إلى الأسماع من الخارج وقع أقدام الراقصين ، ونغمات العازفين ، وصيحات الفتى بانتيليمون فادوفا . . . وبعد لحظات سمعوا من وراء البار صوت صاحب الخان ، وهو ينتهر مساعده الذى يأتى لمعونته أيام الآحاد وهو فتى ضخم لا يخلو من غباء .

«أنت ياهذا . . ألا تسمعنى ؟ . . هات كأسا لسيرافيم موجوس . . أفهمت؟ . . هاك ، خذ هذا . . أخذك الشيطان ، أيها العجل السمين » .

وبدد صوته الغليظ ارتباك الفلاحين ، وكأنما لوكا قد استرجع صوته ، فتكلم فى نبرات أعلى عن ذى قبل ، قائلا . « هكذا كان حالنا دواما . . . وهذا هو

السبب الذى يقعد بنا عن أن تنفض عنا رداء الفقر . . والسبب هو أننا نخاف . . نخاف أن نأتى بهفوة .. لقد رفضنا أن نسىء إلى الأشراف، فتركنا الغير يختطفون الأرض وهى فى متناول أيدينا .. اطمئن يا عم ، طالما كان للأشراف ضياع ومزارع ، ، فسيجدون دائما رجالا يفلحونها لهم ، والعلة هى أن الناس يتكاثرون باستمرار ؛ ولكن رقعة الأرض لا تتسع ولا تمتد كالمطاط » .

« لماذا تكثرون من الكلام ؟ » ثم صاح بهم فازيل زيدارو فجأة .. لقد أمسك عن الكلام حتى ذلك الحين ، لأنه لو استرسل لأسهب وأفاض ، ولطلب إليه الآخرون السكوت ... أما الآن فقد تفجرت مشاعره فى صوت علا على غيره من أصوات، قائلا: «هيا بنا نقابل الشريف، ونحدثه بأدب، ثم نستولى على العزبة».

وأتى ماتى دولمانو على كأسه ، ومسح شاربه البنى بظهر يده، ثم قطع فى الأمر وقال : « الشريف أبونا ووراءنا على أية حال ، وهو لن يتخلى عنا . . »

وكان لوكا تالابا يريد أن يعرض هذا الاقتراح بنفسه ، وهو ما دعا القوم إلى الاجتماع إلا من أجل هذا الغرض . . أما أن يسمع فكرته هو تتردد على لسان شخص آخر فأمر لا طعم له . . لقد شعر كما يشعر حصان تقدم به العمر حين يستجمع قواه ليجذب عربة ، فإذا به يقع أرضا، لأن العربة كانت فارغة.. ومن ثم حك مؤخرة رأسه وقال : « مهلا أيها الأصدقاء . . أو تحسبون ذهابكم لمقابلة الشريف مثل ذهابكم إلى الطاحون ؟ لا بد لكم من أن تعرفوا على التحديد ماذا تريدون ، لأنه سوف يطرح عليكم أسئلة ، ويحاوركم ويداوركم . . ونحن لو اقتصرنا على الوقوف هناك كالبلهاء ، فسوف يتميز من الغضب ، ولن نخرج نحن بنتيجة غير ضياع الوقت سدى ، بل قد تزداد الأمور سوءا .. »

وكان الأثر الذى خلفه هذا القول هو أنه أفضى إلى مزيد من الارتباك عجز لوكا نفسه عن محوه . . واستبد الخوف بالجميع ، وأخذ الجبن بنفوسهم ، فضاع شوقهم إلى الأرض ولهفتهم عليها .. وانفض الاجتماع كما ينفض الكرى عن العيون لطول السهاد . . وحاول لوكا عبثا أن يصلح العطب ، فقال : « لا بأس أيها الأصدقاء . . دعونا نتخذ قرارا . . . »

وأدلى كل منهم بقول ، ولكن ما من كلمة من كلماتهم حملت أى معنى . . أما

ماران ستان فكان وحده هو الذى احتفظ بشجاعته ، فأخذ يصيح المرة بعد المرة كأنما كان يسعى لمصلحته وحدها ، قائلا: « هذه الأرض أرضنا نحن ، لأننا نحن الذين نفلحها ، كلها عن آخرها ! . . »

وأدرك صاحب الخان أن الأمور قد اضطربت ، فعكف على عمله وراء البار وهو ينهر مساعده ويعنفه . . وجلس إلى طاولة قرب الباب شرطى شاب برىء المظهر ، وكان يحتسى كأسا مع أنطون ناتسو ، ويتحدث فى نبرات حذرة رقيقة، وهو يرقب فى حسرة الشباب وهم يرقصون الهورا خارج الخان . . وظل بوزوك وهو الرجل الحريص ، يرقب الرجلين ، فقد خشى أن يكون الشرطى قد تظاهر بمشاهدة الرقصة من أجل أن يستمع إلى ما يدور بين الفلاحين ، ثم ربما ينقل المعلومات إلى أولى الأمر ، ومن ثم يقع صاحب الخان فى مشاكل مع الأشراف.. وخشى ماران مغبة فورته الغاضبة ؛ فذهب إلى الشرطى يسأله مبتسما إن كان يود أن يشترك فى رقصة الهورا . . وتضرج وجه الشاب ، فقد كان فى صميم نفسه يود لو اشترك فى الرقصة ، ولكن خوفه من أن يجلب على نفسه غضبة ضابطه الأعلى صد نفسه عما تريد ، ومن ثم قال ، وهو يتحسر ، إنه لا يشعر بميل إلى الرقص، ولكنه يؤثر بدلا من ذلك كأسا أخرى . واطمأن بوزوك بالا، فذهب إلى الطاولة الكبيرة ، وقال : « يبدو لى ألا فائدة من هذا الحديث الطويل .. ماران هذا عقله عقل دجاجة ، إنه يبكى وينوح دون أن يدرك أن الرجل الحق لا يولول كالنساء ، بل ينهض ويقوم بعمل من الأعمال . »

وعندئذ قاطعه ماران ستان غاضبا : « عجبا ! .. من السهل عليك مخاطبة الناس بكل قبح ، لأنك تملك الأرض ، وأمورك تجرى كما تشتهى ، ثم أنت على علاقة طيبة بالشريف .. الأمر لا يعنيك فى كثير أو قليل . . . »

« هوه ! ! أتقول لا يعنينى ؟ سوف نرى ! » وتملكه الغضب وقال : « أتظن أننى أستمتع بخدمة أمثالك حتى تذهب الخمر بعقولكم ، أم ترانى أفضل ذلك على أن أجعل الناس يخدموننى ؟.. أنت لا تصلح لشىء أيها السكير ، وأنا أعجب لهؤلاء الناس الذين يسمحون لك بالحط من كرامتهم ... »

« أتراني أشرب على حسابك ؟ »

« لو أعطيتك أنا الفرصة لشربت ، ولكن ... »

وصاح لوكا تالابا وهو ينهض عن مقعده : « كفى نزاعا بحق السماء .. لقد سئمنا هذا الشجار ، هيا بنا إلى دار الشريف ، وليحدث ما يحدث » .

ونهضوا جميعا ، كأنما دفعتهم إرادة قوية ، فقضت على ما اعتراهم من تردد .. ونظر صاحب الحان حواليه ، واطمأن إلى أن كل واحد قد دفع ماعليه ، ثم قال وهو هادئ : « رافقتكم السلامة !! . . خذوا حذركم من ماران ، حتى لا يسيء إليكم.. لقد أفرط في الشراب قليلا ! » وانقشع غضب ماران ، وأشرقت أساريره .

* * *

وهتف صبي : « انظروا !!.. لقد جاء العم باتريتسا ! » وسمعت امرأة الصيحة ، فأدارت رأسها ، ورأته هي أيضاً ، فرددت ما قاله الصبي : « لقد جاء باتريتسا !! »

واجتاز الرجل الحارة غير المستوية ، حيث جفت برك المياه بتأثير الريح ... كانت قبعته تميل على مؤخر رأسه ، وكان يحمل ربطة على كتفيه .. وكان وجهه الأسمر يبدو أشد دكنة مما هو في حقيقته ، ولكن تألقت في عينيه فرحة غامرة .

واشرأبت الأعناق واحداً بعد الآخر صوب بيتر ، وهو يقترب مبتسما . . وخلف بانتيليمون فادوفا حلبة الرقص ، وجرى يقابله ؛ وتبعه فتيان آخرون ... وانفض شمل الرقصة ، وتجمع القوم حول الوافد الجديد وهم يتساءلون ويهتفون في دهشة بالغة .. ومضى العازفان يلعبان بعض الوقت ، تأدية للواجب لا غير ، ثم مالبثا أن لحقا بالجمع ..

ولم يكن في مقدور بيتر أن يرد على هذه الأسئلة التي انهارت عليه .. فقد كان يحظى بحب الناس جميعا ، لأنه كان دمث الخلق ، هادئ الطبع ، لا يتوانى عن مساعدة غيره .. وأخذ بانتيليمون الربطة منه ، يريد أن يحملها عنه إلى بيته .. واجتهد أن يحتفظ بمكان له قرب بيتر ، ثم جعل يكرر القول حتى انتهى صوته إلى الأسماع : « ها أنت ذا تعود ، أما أنا فلابد أن أذهب من فوري » .

فقال بيتر وهو ينظر إليه بحدة : «لاتجزع ، وسوف يرعاك الله أنت أيضاً..»

وأخذ يتبادل التحيات مع هذا وذاك ، وأخيرا بلغ الأرض الفضاء أمام الخان حيث وقف الرجال . . وسأله القوم عن آخر أخبار المدينة . . حتى بوزوك نفسه — وكان ولوعا بالإلمام بكل شيء — ترك البار ، وجاء يتقصى مايقال . . وتساءل إيجنات سيرسل ، وقد لحظ أن بيتر لا يتحدث إلا عن الجيش ، قائلا فى صوت كالعواء : « ولكن ما رأى الأشراف فى بوخارست ؟ مارأيهم فينا نحن البؤساء المساكين ؟ » .

فأجاب بيتر : « لن يصيبك من الأشراف أذى طالما أنت مطيع لاتتجاوز الحدود . . . »

ولم يقتنع إيجنات بهذا الجواب ، وإن أومأ برأسه علامة على الموافقة ورد سيرافيم موجوس بمرارة : « لابد للإنسان أن يتحمل قدر ما يستطيع ، وإلا طار عقله . . »

واقترب إيجنات قليلا ، ثم أسر إليه : « وماذا عن الأرض ياباتريتسا ؟ . . ألم تسمع عنها شيئا ؟ تقول الإشاعات هنا إن جلالة الملك يريد أن يوزع الأرض على الشعب ، ولكن الأشراف يقفون فى وجهه معارضين . »

« هذا ماقاله ماران فيلكو أيضا . . ولقد نقله عن ابنه الذى رحل للدراسة فى الإسكندرية — فهو يزمع أن يصير قساً ! » أضافها ايونتى أوربيسور منتشيا ، كأنما كان قوله حاسما قاطعا .

وقال تيودور ستريمبو وهو يتميز من الغيظ : « إننا نعيد ونزيد ، ولكنا لانخرج بنتيجة من هذا كله . . وأنا منذ عدة أيام ذهبت إلى محكمة بيلستى فى قضية . وكان كل واحد هناك يقول إن الربيع لن يحل إلا والأرض بين أيدينا . . لأن الملك أصدر أمراً بذلك . . بل إنهم غضبوا على ، وقذفونى بالشتائم لأنى لم أشأ أن أصدق قولهم » . .

وغمغم بيتر ، وقد حركته اللهفة التى بانت فى عيون الجمع الذى تكأكأ حواليه ،

قائلا : « ربما كان هذا القول صحيحا .. والحقيقة أن هناك إشاعات كثيرة تتردد فى بوخارست ، فمن قائل بشىء ، ومن قائل بشىء آخر . . حتى الأشراف أنفسهم لايدرون كيف يعالجون الأمر مرضاة للناس جميعا . . وهم لهذا يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع ؛ وهم إذا كانوا لايصلون إلى قرار . . . »

فقال إيحنات : « إن الذين أسبغ الله عليهم نعمة الغنى لن يسهل عليهم الإعطاء . »

« ليت الملك أمر بهذا . . فهو لو فعل ، لنال كل إنسان ما يريد ، سواء رضى الأشراف أو لم يرضوا ! » قالها تيودور ستريمبو وقد ومضت عيناه .

فعقب بوزوك صاحب الحان مستهزئا : « نعم » لو أن الملك استمع إليكم ، لكان كل شىء على ما يرام . . . ولكن للأسف أن الملك يصادق الأشراف ، وهو لن يخاصمهم من أجل عيونكم ياتيودور ! ! »

وتعالى الضحك إثر ذلك ؛ فقال ليونتى أوربيسور : « لو كانت أصواتنا فقط تصل إلى مسامع الملك ! ! »

وفى هذه اللحظة شقت أم بيتر طريقها بين الجمع الملتف حول ابنها ، وهتفت : « بيتريتسا ، بيتريتسا ، يا ولدى الحبيب !! لقد من الله على بعودتك وأنا فى أشد الحاجة إليك . . أحمد الله ربى أن رجعت إلى بيتك . . . »

وألقت بساعديها حوله ، وقبلته شاكية باكية .. وضمها الشاب إليه ؛ وقال برقة . « كفى بكاء يا أمى .. كفى . . . » .

وكانت سمارالدا امرأة ذبلت فى غير أوانها .. ومسحت المرأة عبراتها بطرف منديلها ؛ وتبسمت لحظة وهى فرحة ؛ ولكنها ماكادت تفتح فمها فتسأله كيف عاد ، حتى هطلت عبراتها مرة أخرى ؛ إذ خطر لها أنه ربما اضطر إلى قطع الطريق كله سيراً على الأقدام ، أو هو ربما كان جوعانا . . وطيب ابنها خاطرها ، وطمأنها عندما قال إنه لم يكن متعباً ألبتة ؛ لأنه عندما خلف القطار فى بيرديا ؛ كان من حظه أن يلتقى باستيفان أونتا ؛ الذى حمله فى عربته حتى ليسبيزى وهكذا أتيح له أن يسافر كما يسافر الشريف العريق .

واستطرد قائلا مودعا الجمع حوله : « ولكن هيا بنا إلى الدار يا أمى . . حسبنا هذا الوقت مع هؤلاء الصحاب » .

ورجع بانتيليمون مع بيتر ، وهو يحمل عنه الربطة .. وكانت داره فى طرف القرية ؛ على مسافة من بيت الشريف ، تجاه روجينوزا . . وسأل بيتر عندما ابتعد عن حلبة الرقص : « ولكن أين ماريورا يا أمى ؟ . أنا لم أشهدها بين الفتيات » .

وأوضحت سماراندا لابنها أن ماريورا ذهبت إلى بيت الشريف لتعمل مع خالتها بروفيرا ؛ وأن الفتاة تنال أجراً طيباً ، وأنها لا تعمل عملا شاقاً . . وعندئذ تذكر بانتيليمون فجأة أنه قد غفل عن دومنيكا بذهابه مع بيتر . . وبدأ صوت الكمان يعلو من جديد وراءها ، علامة على أن رقصة الهورا قد انطلقت مرة أخرى .

وكان بونجيو جالساً على مقعد قرب البوابة التى تؤدى إلى ساحة مركز الشرطة يحادث كونستانتين بيرزوتيسكو ، جابى الضرائب ؛ وهو رجل طويل نحيل حليق — ورفع بيتر قبعته ؛ وحيا ضابط الشرطة تحية عسكرية .

ورد بونجيو التحية فى لهجة ودية : « ها أنت ذا تعود أخيراً ! » واقترب بيتر فى احترام . وأخبره أن القائد أذن له فى الرحيل قبل موعده بيومين ، نظراً لحسن مسلكه طوال مدة الخدمة . . وطرح بونجيو عليه عدة أسئلة أخرى ، ثم تنهد لهفاً على الحياة فى بوخارست ، فهناك أتيح له أيضاً أن يذوق طعم الحياة حلواً مرة أو مرتين . . على أن هذا حدث قبل أن يتزوج . . و بعدئذ هتف يخاطب بانتيليمون : « أرأيت ؟ هذا هو السلوك الذى يجب عليك أن تسلكه ، أنت أيضاً ، هذا أفضل من أن تمضى هنا وهناك تتكلم كلاما فارغا يدعـــو إلى الثورة ! » .

ولوح بأصبعه محذراً وهو يضحك ، ثم صافح بيتر قائلا : « أهلا بك ومرحباً !! » .

— ٣ —

« ما خطبكم ؟ — ماذا تريدون ؟ » قالها ميرون ايرخيو جا يسأل الفلاحين الذين وقفوا عراة الرءوس ، وحيوه كالعادة بتقبيل يده فى احترام

وانقضت لحظة والرجال لا يجدون ما يفعلون غير التطلع لبعضهم بعضا التماساً للشجاعة . . ثم ارتفع صوت لوكا تالالايا يخاطب لوبو شيريتو : « ــ تحدث أنت ياعم لوبو ، أنت أكبرنا سناً وأفصحنا لساناً فى هذا الموضوع »

فصاح ميرون وهو نافد الصبر ، وقاطع لوكا الذى أخذ يحكى حكاية طويلة قائلا : « ولكن أوجز أيها الرجل .. لأن الجو بارد ، وأنا لا ألبس إلا ملابس خفيفة » .

ودبت الشجاعة فى نفس لوكا بتأثير كلمات ميرون أيوجا ، فقاطعه متهورا : « صدقت ياسيدى . . فالثرثرة عجز . . نحن باختصار نريد أن نشترى عزبة السيدة ، وأن نفلحها ، وأن يأخذ كل منا نصيبا منها . . ونحن قد جئنا إليك نسألك المعونة .. فهلا ساعدتنا ياسيدى ، وأشفقت بنا . »

« أنت والدنا على كل حال . . » قالها ماتى دولمانو بهدوء ، كأنما هو بهذا القول قد ضمن أن يكسب الشريف إلى صفه .

وأضاف فاسيل زيدارو برقة متناهية بحيث كاد لا يتعرف على صوته : « نحن لا نستطيع العيش على هذا الحال يا سيدى ! . . لقد حل بنا الشقاء ، ولم يعد فى طوقنا تحمله . »

وكانوا اثنى عشر رجلا لايزيدون .. وشعر كل واحد منهم أن من واجبه أن يقول كلمة ، وأن يلقى بدلوه فى الدلاء .

وحلق ميرون أيوجا فيهم ، وقد غلبته الدهشة .. كأنما هو يراهم لأول مرة ، أو كأنما كانت الكلمات التى بلغت مسامعه غريبة غير مفهومة . . وخيم عليهم الصمت ، ثم تساءل وهو يطرف بعينه : « تقولون عزبة ؟ . . أية عزبة ؟ » ثم تذكر فجأة ، فاضاف بسرعة : « آه ، نعم ، فهمت . . فهمت . »

وكان وهو يتكلم يشعر بالألم يعتصر جوانحه . . أما إن هؤلاء الفلاحين الذين عاشوا على ضيعة أيوجا أجيالا وأجيالا ، يتجرءون الساعة ، ويعرضون شراء ما تخلف منها ، فأمر جرح كبرياءه .. جرحا داميا . . وهو لو ترك نفسه على سجيتها ، لأمر الخدم أن يسلموهم إلى الشرطة ، فينزلوا بهم ضربا مبرحا يجعلهم يثوبون إلى رشدهم . . ولكنه كظم غيظه ، وقال بهدوء : « لا فائدة من مجيئكم إلى ، فأنا لا أملك ضياعا للبيع . »

واحتار الفلاحون وارتبكوا . . وكان ماران ستان وحده هو الذى رفع صوته : « ولكن لا يمكن للسيدة أن تفعل شيئا دون موافقتك ياسيدى! .. » واستجمع لوكا تالابا شجاعته ، وقال : « نحن نعتبرك رائدنا ياســـيدى ، ونحن نسألك الرحمة بنا .. »

وضحك ميرون أيوجا ازدراء . . « من غير شك .. ولكن يحسن بكم هذه المرة أن تلجأوا إلى السيدة ناديا نفسها .. بل أنا ، لو علمتم ، لا أدرى إن كانت تريد أن تبيع العزبة . . فأنا أسمع هذا منكم لأول مرة ! »

وظن الفلاحون أنه يلق نكتة ، فأشرقت أساريرهم . . واستطرد الشريف قائلا : « الواقع أن السيدة على وشك أن تصل فى أية لحظة .. فقد تلقينا منها برقية بالأمس تفيد أنها ستصل اليوم بالسيارة . ونحن فى انتظارها الآن . »

فتمتم لوبو شيريتو فى أسى : « أنا لا أعتقد أنك تريد حقا أن تبيعنا العزبة ياسيدى . . هذا هو سبب إحالتك لنا على السيدة . وليتها كانت تعرفنا . . ونحن أيضا لا نعرفها . . لقد قلت لزملائى قبل أن نأتى إننا لن نخرج بشىء . . ولكنهم لم يصدقونى ! . أما الآن فلا بد لهم ، هؤلاء الأغبياء ، من تصديق ! .

وجعل أيوجا . . فقد قرأ الرجل مادار بخلده . . وقال بفظاظة : « أنت على الرغم من شيبتك يالوبو ، فإن عقلك عقل عصفور ! . هل تحسب أن فى مقدورى أن أبيع عزبة لا أملكها ؟ »

وأسرع لوكا يلأم الجرح ، قائلا بذلة وخضوع . « لا تغضبن منا ياسيدنا ،

اغفر لنا وسامحنا ، فنحن قوم جهلاء ، لاندرى كيف ندبر هذه الأمور . نعم سنذهب إلى السيدة ، كما أشرت ، حين تأتى بالسلامة ، وسنتمسك بهذا الطلب لأنه ليس من العدل أن يأتى واحد آخر ويستولى على الأرض ، لأننا ، نحن وأباؤنا قد عملنا دائما فى هذه الأرض ؛ . إن الحياة قاسية علينا كل القسوة . وأنا لاأدرى كيف ندبر أمورنا ونحن لا نملك من الأرض إلا أقل القليل . . »

« أنتم دائما تقولون إنكم لا تملكون إلا أقل القليل ! . » قالها ميرون بحماقة ثم أضاف بعد وهلة . « ولكن الظاهر أنكم نجحتم فى تدبير أموركم حتى الآن ولم تموتوا جوعا ! »

فصاح ماران ستان : « لقد قاسينا كثيرا ياسيدنا ! . بل نحن قد غرقنا فى الشقاء إلى رقابنا لأننا لا نملك أى رقعة من الأرض ! ! »

فغمغم أيوجا : « الأرض ! ! الأرض ! ! فيما مضى لم يكن الفلاحون يسعون إلى وضع أيديهم على ما كان يخص الملاك ، وكانوا أسعد حالا . »

قال فاسيل زيدارو ؛ « لقد كان الزمن غير هذا الزمن ياسيدى ! »

وعاد ماران ستان يصرخ : « لقد كنا عبيدا أرقاء إذ ذاك أيها الشريف . . اجعل منا أرقاء مرة أخرى ، فربما يكون الوضع أحسن بالنسبة إلينا »

فانفجر أيوجا الآن ، وقد ضاق ذرعا بعنـــادهم : « الحق أنكم تعودتم على الشحاذة » .

فقال لوبو شيريتو بذلة ؛ « سنظل نطالب ، ونطالب ، لأنه لا سبيل لنا غير هذا .. لا أمل لنا فى التماس الرحمة بغير السؤال والطلب » .

وأدرك أيوجا النظرة الجائعة التى ظهرت فى كل العيون أمامه ، وهى عيون أطرقت الآن بحكم العادة . وشعر لأول مرة بأن هؤلاء الناس الذين ظن أنهم موالون له ، هم فى حقيقة الأمر أعداؤه الألداء . وندم على أنه قابلهم ، بل وعلى أنه سمح لهم أن يطيلوا فى الحديث . ولكنه أدرك فى نفس الوقت أن الأمور

لا يمكن علاجها بالقسوة والوحشية .. فاكتفى بأن تمتم وهو ضجر : « كفى كلاما الآن، فقد ضقت ذرعا بهذه الثرثرة .. أما أنتم فقد فقدتم كل إحساس باللياقة والأدب» .

وشخص ببصره عامدا ، وفى برود ، إلى كل واحد فيهم على التوالى ، فإذا به يطالع فى كل عين نفس اللهفة ونفس الحنين .. وشق عليه ما ارتسم فى نظراتهم من عناد .. وإذا برجل يرفع صوته ، فيقطع الصمت والضيق : « ياحيوان ، قصف الله عمرك » .

وكان الصوت صوت أحد الخدم وهو يسوق البقر فى ساحة الدار .. وكانت أسراب الدجاج تنبش فى الأرض ، وتضرب بمناقيرها ، ثم قرقرت دجاجة فى جلبة .

قال ميرون بهدوء ، كأنما جاء سباب الخادم فكسر حدة الهم الذى أخذ بنفسه : « هذه خلاصة الموضوع .. عليكم أن تحدثوا السيدة بأنفسكم ، إن لم يكن لديكم مانع ، فهى التى تملك العزبة .. والواقع أنى بدأت أفكر فى شرائها لنفسى » .

فصرخ لوكا تالابا فى هلع : « إذن لافائدة ترجى من محاولتنا حرام والله » .

وتساءل الشريف : « لماذا ؟ .. إنها منافسة عادلة .. أنتم تريدون الأرض وأنا أريد الأرض .. ولكن من حقى أن أشتريها ، فهى على كل حال كانت فى حوزتنا من قبل ، جزءا من الأرض التى كنا نملكها .. أنت تذكر هذا يالوبو ؛ لأنك عملت فى خدمتنا وأنت صبى ، عندما كان أبى على قيد الحياة .. وهذا ماينبغى أن يكون ، نعم من العدل أن يشترى الشريف أرض الفلاحين ؛ ولكن ليس من حق الفلاحين أن يشتروا من الشريف » .

وحاول بعضهم أن يفند هذه النقطة ، ولكن ميرون أيوجا لم يتمالك نفسه الآن . « كفى هذا الآن .. تفضلوا .. ماعاد بيننا كلام .. لقد فقدتم كل إحساس باللياقة والذوق » .

وعاد الفلاحون يتمتمون بعبارات تنم عن الاحترام ، ثم ولوا وجوههم نحو الباب . وفيما هم خارجون ، قال لوبو شيريتو بصوت عال . أراد أن يصل

إلى مسامع الشريف . « نعم ، إن الشريف على حق . . لقد كانت العزبة تمتد من إيزفورو إلى سير بانيستى . . وأنا أذكر جيداً حينما . . » .

كذلك تعالى صوت ماتى دولمانو فى نفس الوقت ، وهو يختنق سخطا . « إنه لن يشبع من الأرض أبداً . . عليه اللعنة ! »

ووقف ميرون أيوجا صامدا حيث كان . . أخذ يحملق وراءهم وقد تناسى قرقة الدجاج ، وخوار بقرة تنادى رضيعها . . حقا لم تجر فى رأسه إلا فكرة واحدة : « الأرض ، الأرض ، ثم الأرض . . الأرض هى كل ما يستطيع أن يفكر فيه هؤلاء الأشقياء ! »

والتفت ، فرأى جريجور وتيتو يدخلان من الباب . . لقد كانا يجوسان فى الحقول ، ويستمتعان بالطقس البديع .

وتساءل جريجور . « ماذا كانوا يفعلون هنا يا أبى ؟ . ترى هل وصلت نادينا »

فأجاب الشيخ . «لا ، لم تصل بعد ؛ ولكن بعض الناس جاءوا يطلبون عزبتها »

فقال الابن فى دهشة . « ماذا تقول ؟ . خبرنى ، من هؤلاء ؟ »

ونظر إليه ميرون أيوجا وهو صامت . ثم أشاح برأسه . قائلا . « الفلاحون »

— ٤ —

« انزل يا بن الزانية ، وإلا كسرت البوابة ، اذهب إلى الشيطان ! » بذلك صرخت الأم أيونا ، بصوتها الغاضب ، فى ولد فاسيل زيدارو الصغير الذى تعلق بأعمدة البوابة ، وأخذ يتأرجح عليها جيئة وذهابا ، وهو يصيح بأعلى صوته .

وكانت أيونا تطعم صغار الخنازير ، فى ظهر الفناء ، وكان يمتد إلى البستان . . وكانت تمسك بدلو الطعام تحت أنف الخنزير ، تستثير به شهيته . « تعال ياصغيرى إليك هذا الطعام ! » ولكن الخنزير أزاح منخاره عن الدلو الملآن ، ومضى إلى الدلو الفارغ ، وأخذ يلعقه وغضبت العجوز لهذا وقالت : « ياغبى ، تعال ، واملأ بطنك حتى تبشم . . أكلتك الكلاب ! ! » فلما أغرق الحيوان رأسه إلى عينيه فى الدلو ، جاء كلبها ـ وهو حيوان ضخم أبيض اللون قد وخطته رقع سوداء كبيرة

فمشى متلصصا إلى الدلو الفارغ ، فنظر فيه بجسارة ليرى ما إن كانت قد تخلفت فيه بقية له . . « لا تزج بأنفك فى الدلو . عليك اللعنة . . » وتراجع الكلب طائعا وهو يهز ذنبه أملا ، ويتطلع متحسرا إلى الخنزير وإلى سيدته من ناحية ، وينظر بعينه إلى الكلب الآخر ، وهو جرو هجين ، عمره نحو ستة شهور ، أخذ ينط هنا وهناك وراء العجوز ، وينبح بين الحين والحين ، كأنه طفل لعوب .

وأدركت أيونا أن الخنزير لاهم له إلا التلاعب بالطعام ، فحملت الدلو بعيدا وقالت : « لقد نلت كفايتك ، وأنت الآن تلهو بالطعام ، وتجعلنى أنحنى هنا حتى آلمتنى ساقاى ، أيها الغبى الخسيس !! » ونخر الخنزير فى رضى ، وأخذ يتشمم الارض حوله ، أملا فى العثور على كسرة أشهى مذاقا . . فلما لم يعثر على بغيته ، حاول أن يتبع سيدته ، ولكن حال دون ما يريد أنه شد برباط . . ومشى الكلبان وراءها حتى الردهة ؛ وهناك وضعت الدلوين قرب الباب ، وقالت : « إليكما الطعام عليكما اللعنة !! » واندفع الكلب الكبير إلى الدلو الفارغ ، ولكنه لما أدرك غلطته نظر إلى الجرو شذرا ، وعضه فى رقبته ، وألقى به أرضا بضع لحظات لا لشيء إلا ليلقنه حسن السلوك ، ثم عكف على الطعام ، متجاهلا كل التجاهل عويل زميله الصغير ، وصيحات سيدته وهى تقول : « أنتما دائما تتشاجران ، أيها الشيطانان الصغيران » .

وكان ابن فاسيل لا يزال يتأرجح على البوابة ، كأنما العجوز لم تزجره أبداً .

وصرخت أيونا غاضبة : « ألم تسمعنى أيها الشيطان الصغير ؟ إنك ستنزع المفصلات من مواضعها . . لم لا تذهب إلى بيتك ، وتتركنى فى سلام ؟ أنت ، وزميلك الشقى الآخر ملأتما حياتى بؤسا طوال الصيف كله . . أليس لكما أباء يحفظونكم من الشوارع ، ويمنعونكم عن حدائق الناس ؟ »

ولم يكن الطفل ليرهب كلماتها ، لولا أنه سمع صوتا آخر ينادى « نيتشو ، تعال يابنى ، هل تسمعنى ؟ لماذا تظل هناك وتتركها تشتمك ؟ » .

وكان فاسيل زيدارو يسكن فى الجانب الآخر من الطريق ، وكان له زوجة كأنها جندى من المشاة الذين يرمون القنابل اليدوية ، وكان لها لسان حاد لا يطاوله

لسان .. وكان الطفل لا يخشى أحداً غيرها ، فقد كان كل من فى البيت يدلله ، ويتغاضى عن شقاوته .. وكان لزيدارو ثلاث بنات وولد واحد ، وهو لم ينجب هذا الولد إلا بعد أن تزوجت الفتيات الثلاث — وشعرت زوجه بالعار والشنار، ورأت أن من غضب الله عليها أن يرزقها بطفل وهى فى هذه السن فتعانى ماتعانى فى تنشئته .

وتدلى نيتشو من البوابة ، وغير الطريق ؛ وأخذت أيونا دلوين من البيت ، وذهبت بهما إلى البئر ، وكان على مدى غير بعيد ، فى طرف الطريق ، قرب نقطة الشرطة .. وحف بها الكلبان وهى تمشى ، وجعلا يتشممان البوابات، ويتشممان فى الحفرات كأنما هما قد فقدا شيئاً يبحثان عنه .. ولم يستطع الصبي أن يستقر فى موضعه، رغم أنه قد دخل لتوه إلى الدار .. بل خطف سوطه ، واندفع وراء العجوز ، ولكنه عاد فتذكر أن لدى أسرته هى الأخرى كلابا ، ومن ثم عاد أدراجه .. وكان عندهم كلبة بيضاء ، أصيبت بالعرج منذ أن أطلق عليها الشرطة النار ذات مساء ، وكانت كلبة شرسة ، ولهذا كانوا يشدونها بحبل طوال النهار، ليحولوا دونها وعابرى السبيل .. وأراد أن يفك وثاقها ، ولكن العجوز أيونا كرت راجعة ، وقد ملأت دلويها . . وتبعها الصبي إلى الفناء وقال : « هل تسمحين لى . أنا وكلبتى ، أن نلعب مع كلابك ؟ من فضلك .. من فضلك .. » ولم ترد العجوز .. لقد تعود الطفل أن يحضر إلى بيتها ليلعب مع كوستيكا ، ابن أختها ، وهو قد رحل منذ أيام قلائل . . وكان هو أيضا فى الخامسة من عمره ، أسمر البشرة ، كأنه من الغجر ، كذلك كان عفريتا شقيا .. فلما تركت العجوز نيتشو وشأنه الساعة ، لعب ماشاء له الهوى مع الكلاب والدجاج والقطط . . ونهرته العجوز ، وطلبت إليه أن يرحل عنها ، ولكن كلامها كان ثغاء أكثر منه طحنا ، فقد كانت تحب الأطفال وتحب أن تحس بالناس حول دارها ، وكان هذا هو ماتعودت عليه طوال حياتها .

ولقد انتقلت إلى هذه الدار منذ عام.. وكانت تقوم فى صف بيت الشريف.. وكان لها فى الشارع المجاور ، بجانب بيت الملتزم كوزما بيريونا ، بيت آخر ، وهو بيت رائع كبير..ولقد عاشت فى هذا البيت طوال حياتها الزوجية مع أيونيتا كراكيوم الذى لقى حتفه قبل نحو عشرة أعوام .. على أنها لم تأس على حياتها

كأرملة ، لأنها كانت تشرف على كل شيء ، حتى عندما كان زوجها على قيد الحياة ، وكان زوجها ولعا بالكأس ، وكى ينعم براحة البال ، كان يسعى دائما إلى الحصول على عمل بعيدا عن بلدته .. ولقد اشتغل عمدة ، واشتغل حارسا ؛ كما عمل فى عدد عديد من الأعمال الأخرى ؛ وبهذه الطريقة استطاع دائما أن يحصل على نقود ينفقها فى الحان .. ونشأت أبونا الأطفال تنشئة حسنة ، وقرت بهم عينا .. أما ابنها فقد عمل مسجلا فى محكمة ببوخارست ؛ وتزوجت فتاتان من بناتها قسيسين ، أما الفتاة الصغرى فلوريكا فقد تزوجت من بافل تونسو فى القرية .. ولقد رأت أن تستقر مع فلوريكا وبافل فى أخريات أيامها ، ولهذا دعتهما إلى السكنى معها فى بيتها .. وكان ابنها لا ينفك عن الكتابة إليها يدعوها إلى العيش معه فى بوخارست ، حتى تبتعد عن المتاعب ، وتحظى بشيء من الراحة .. ولكنها لم تستطع أن ترحل عن موطنها حيث قضت حياتها كلها .. وهى مازالت تشعر بالقوة ، رغم أنها الآن فى الستين ؛ بيد أن ظهرها قد انحنى قليلا .. وكانت تأكل جيدا ، فأنت ترى دائما زجاجة من البراندى على مائدتها ، وكان لديها خنازيرها ودجاجها وقمحها .. وكانت ممتلئة قوية ، على نقيض غيرها من النساء ممن هن فى سنها ..

وعاشت سبع سنوات من الشتاء وهى تكظم غيظها من فلوريكا ، ثم أدركت بعدئذ أن من المحال أن يعيشوا معا ، فقررت أن تفوض أمر ابنتها لله ، وأن تبحث لها عن دار أخرى .. نعم ، إنها لتؤثر الفقر على هذا الشجار والخصام ، والشقاء الذى لاينتهى .. ومن حسن الطالع أنها لم توزع كل شيء بين أولادها بل أبقت عدة قطع من الأرض لنفسها حتى تؤمن مستقبلها ؛ وتجابه مثل هذه التقلبات .. ولهذا افترقت عن ابنتها بمحض إرادتها ، ودون أن يعقب ذلك أى شعور بالمرارة ، فقد كان زوج ابنتها أطوع لها من فلذة كبدها ... فلما كانت تملك هذه القطعة من الأرض بجانب الطريق ، إلى جوار بيت الشريف ، فقد بنت لنفسها دارا من بيدر الذرة نقلته هناك على عجلات تجرها ثيران اثنا عشر ، وقامت بنفسها فغطت الدار بالطين من الخارج ، وبالبياض من الداخل ... وقد تكرم رجل فأقام لها السقف ، وأنشأ ما يشبه المدفأة ، كما أنشأ حظيرة للدواجن وزريبة للخنازير ... وأهدى جار لها ضلف شباكين لم يعد فى حاجة إليها ... والحق أنها ما كانت تملك غير ثلاثة ألواح من الزجاج لها ، ولكنها لصقت على ما تبقى من فراغ ورقا حصلت عليه من القس ... ولقد أثار هذا كله سخط

فلوريكا ، لأن أمها جعلت منها حديث القرية ... أما الأم فقد ردت فى شىء من المرارة : « أعتقد يابنيتى ، أننى تحملت ما فيه الكفاية : »

على أن فلوريكا ، بعد فترة ، تناست الأمر ؛ ولما حل الربيع أوفدت أكبر أولادها ، كوستيكا ، ليؤنس جدته بعض الوقت ؛ ووفرت هى بذلك ما كان كان عليها أن تطعمه . . . وأزعج الطفل جدته طوال الصيف والخريف . . فمنذ يومين فقط من وفادته قلب البيت رأسا على عقب ، إذ جاء بشرذمة من الشياطين الصغار من رفاقه ... وتحملته على كره منها ، لا لشىء إلا لتدل على أنهم فى حاجة إليها ، وليست هى فى حاجة إليهم .

والواقع أنها لم تكن أبداً من النساء الثرثارات، بل كانت تنزع إلى حدة الطبع حين تتميز من الغضب ، أما قلبها فكان رقيقا رقة النسيم . . . وكان من طبعها أن تحدث نفسها ، أو تحدث الحيوانات التى كانت تمثل لها ، وتفهمها خيراً مما يفهمها الناس . . وكانت قبل أى خلاف تدعو الله أن يذهب بخصمها إلى الشيطان، وهى تعدل من لهجتها حسب الظروف طبقا لمقتضى الحال .

قال نيتشو شاكيا : « انظرى ياجدتى أيونا .. إن كلبك الكبير يرفض أن يترك لديك وحده ؟! ... » وكان قد أراد أن يشد الكلب بحبل، ويربطه بسكابته العرجاء ، فهكذا يلهو بهما .

فقالت أيونا دون أن تنظر إليه : « دع الديك وشأنه .. أيها البهيم الشرس... » وكانت تفكر فى الطعام الذى كان عليها أن تعطيه للدجاج ، لأن الليل اقترب ، وأخذت الدجاجات تتجمع حول الدار بعد أن قضت نهارها تنبش فى أماكن متفرقة .

واقتعدت بعد ذلك عتبة الباب ، ووضعت طبقا كبيراً فى حجرها ، ونادت على الدجاج ، شأنها كل مساء .

وجرت إليها الدجاجات من كل جانب ، كأنها أطفال طيعة ، وأخذت تتزاحم حول قدميها ، وتدفع بعضها بعضا . . . وجعلت تعد الفراخ واحدة واحدة ، واتضح لها غياب دجاجتين كبيرتين وديك . . . وأفرغت الطبق ، ونهرت

الـكابين بعيداً حتى لا يأكلا طعام الدجاج ، واتجهت إلى الطريق تنادى على الدجاج فى إصرار . .

وفتحت البوابة ، وإذا بصوت بوق سيارة يصرخ متوعداً . . ورأت ، على الجانب الآخر من الطريق ، الدجاجتين تتمرغان فى التراب والديك على مقربة منهما ، فنادت عليها وهى جزعة .

كانت هناك سيارة تنطلق بسرعة عظيمة ، ولـكن لم يبد على الدجاج أنها قد أبهت لها . . وخافت أيونا أن تدهم السيارة فراخها ، فاندفعت تعبر الطريق ، تزود عنها . . ولـكنها ما كادت تبلغ منتصف الطريق حتى أدار السائق عجلة القيادة بعنف ، وانزلقت السيارة ، وانطلقت بجانب أيونا فى سرعة البرق ، وهى تـكاد تنحرف إلى الخندق ، تحاشيا لها . . . وتصاعد من السيارة صوت نسائى صارخا ، كما تعالى عبر الطريق صوت زوج زيدارو وهى تنادى : « أين أنت يانيتشو . . . إنك ستقتل نفسك ! ! »

ووقفت الأم وقد نزلت بها صاعقة . . . واندفعت الدجاجتان تقرقران بهوس شديد ، أما الديك ، الذى سبق أن وقف حارسا لهما ، فقد استحال الآن كومة من الريش والدماء . . . والتقطته العجوز من طرف جناحه ، وسحبت جثته إلى الدار . وغمغمت فى عبارات مختنقة : « اغربوا عنا عليـكم اللعنة ! ! » .

— ٥ —

وتوقفت السيارة فجأة ، وقد جنحت بعنف عند قاعدة الدرج حيث كان جريجور وتيتو هيرديليا ينتظران ؛ بعد أن تناهى إلى سمعهما صوت النفيروالسيارة وهى تقترب ... وأوقفها السائق الموتور ، وقفز منها ، وأسرع يفتح الأبواب ، ليخرج منها الأشراف وقد تدثروا بالفراء والبطاطين والملافحوالعوينات ، كأنهم رواد يستـكشفون القطب الشمالى .

وكان جوجو أيونيسكو — كان يجلس إلى جوار السائق — أول من نفض عن نفسه الأغطية ، ووضع أقدامه على الأرض . . وكان مهتاجا ضيق الصدر بسبب ما صادفه من حوادث فى رحلته . . وصافح جريجور وقال : « يسرنى أن أراك

يارجل ، ولكن دعنى أقولها لك . هذه آخر مرة أسمح لهم فيها أن يضعونى فى هذه المواقف . . كفانى مالقيت ! ! »

وسأله أيوجا الشاب ، إذا لم يفهم شيئا : « ما خطبك ياجوجو ؟ ما سبب هذا الاهتياج ؟ »

فقال جوجو وهو ينزع نظارته : « إذا كانت زوجتك تريد أن تستمتع بمغامرات مثيرة فابحث لها عن ضحايا غيرى ! »

فهتف صوت نسائى مغردا : لاتكن أضحوكة ياجوجو ! . . . أتراك تخشى السفر بالسيارة ؟ . . ألا فاخجل من نفسك . . »

وضحك الجمع ما عدا جوجو الذى ضاق خلقه .

« أنا لم أتعود على هذه المخاطرات . . . والواقع أننى لست مستعداً لأن أدق عنقى حباً فى سواد عيون المغرمين بقيادة السيارات ! »

وأشرقت أسارير القوم لما انتابه من حنق ؛ وكانوا إذ ذاك قد خلعوا أوشحتهم ونظاراتهم ... ولم يتحرك ثلاثتهم وهلة ، بل ظلوا فى جلستهم التى سافروا عليها. نادينا إلى اليمين ، ويوجينيا إلى اليسار ، وبينهما راءول برومارو . . ونهضت نادينا قائلة : « سواء أكان الأمر هزلا أم جداً فإن حادث المرأة على الطريق كاد أن يفضى إلى كارثة ! ولو لم يتمالك رودلف نفسه لما كان أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن المرأة تسقط تحت العجلات ، وإما أن نقع نحن فى الخندق . . حقا ، لقد أحسنت صنعا يارودلف ! »

وتبسم السائق شكرانا ؛ ثم ما لبثت نادينا أن ألقت بنفسها بين ساعدى زوجها ، وهى تتحدث فى لهجة ودية متعمدة : « ما أشد شوقى إليك ياحبيبى جريج ! ! »

ووضع جريجور قبلة على خدها ، وكدرته كلماتها ، وبخاصة الطريقة التى نطقتها بها .. وعندئذ فقط لحظ جريجور برومارو .. ثم ، فى نفس الوقت ، وقع بصره ، وراء السيارة ، على حوض الزهر القرمزى ، وعلى القلب الملىء بالورود الذى أنشأه

هناك أمام عش ناديا ، حبا فيها . . . وصافح برومارو ، وهو يهمهم فى صوت لايبين : « آه ، أهذا أنت . . أنا ألم أعرفك فى هذا اللباس التنكرى ! ! »

وتدخلت ناديا على عجل ، فقالت توضح الأمر : « لقد جئت به معنا لتزداد الجماعة عددا . . لا مانع عندك ، أليس كذلك ؟ »

« لا ، لا ، على الـ . . . »

وأراد أن يقول « على العكس » ، ولكنه غير رأيه ، ولزم الصمت . وذهب إلى السيارة ، وقبل يد يوجينيا ، وعاونها على النزول . . وشغل نفر من الخدم أنفسهم بالأمتعة ، وأخذوا يصخبون دون أن يعرفوا على التحديد ماذا يفعلون . ولحظت ناديا الأمر ، فقالت تحدث السائق : « روداف ، هل لك أن تجمع أمتعة السيدة يوجينيا وتضمها معا ؟ »

ووقف تيتو هيرديليا فى جانب ، وقد اشتد به الضيق لأنه لم يقابل باهتمام من أحد . . . ولحظ جريجور هذا بغتة فحاول أن يعالج الأمر : « أرجو المعذرة . فقد نسيته تماما ، وما أنسانيه إلا الشيطان . . . اسمحوا لى أن أقدم لكم صديقى وضيفى ، تيتو هيرديليا . »

وانحنى الشاب وهو يبتسم على استحياء . . . وتفحصته ناديا لحظة ، ثم مدت له يدها . . ولم يملأ تيتو عينيه منها ، ولكنه لحظ أنها فاتنة إلى حد بعيد .

وتبسمت له يوجينيا ابتسامة حلوة للغاية ، « يالها من مفاجأة ! »

واستطرد جريجور عندما رأى أن جوجو نظر إلى تيتو نظرته إلى شخص غريب ، قائلا : « كان ينبغى فى الواقع أن تعرفا بعضكما . . . فقد التقيتما من قبل . إنه شاعر ، وبينه وبين يوجينيا صلة نسب ؛ فأخته هى زوجة شقيقها . »

وصاح جوجو وهو يقترب من هيرديليا : « نعم ، نعم ، بالطبع هذا صحيح . كيف حالك ؟ »

وماكان فى الحقيقة يتذكره ، ولكنه آثر التظاهر ، لأنه كره أن يرميه الناس

بضعف الذاكرة : فهو دليل على أن السن قد تقدمت به ... ولحظ تيتو ارتباكه، وشعر بوخزة ألم ، فقد تذكر أن أيونيسكو جوجو قد دعاه إلى بيته الصيف الماضى ، ليقرض الشعر طوال يومه . . . وتبادل الرجلان بضع كلمات، ثم انصرف جوجو يحدث جريجور ، قائلا : « يؤسفنى أننا لانستطيع أن ندخل عندكم . . فنحن ذاهبون مباشرة إلى ليسبيزى . وقد أرسلت إليهم التعليمات ليشعلوا المدافئ ، ويعدوا الطعام ... رباه — كم أخشى أن أركب هذه السيارة مرة أخرى !! »

واعترض أيوجا ، وأصر على بقائهم ، وعلى أن ينالوا حظا من الراحة أولا ؛ هذا بصرف النظر عن أبيه ، فهو من غير شك سيتكدر غاية الكدر إذا لم يفعلوا .

وقالت نادينا تغيظه : « لاشك أن السيارة قد هزتك هزا فأصبحت قليل الذوق » ثم أضافت ببساطة : « تفضلوا . . تعالى يا عزيزتى جينى .. تفضل يارول .. تفضل ! . . »

وكانت الردهة الكبرى مضاءة بالمصابيح ، وكانت دافئة بهيجة ، وأطباق الدولكيتا التقليدية فى الانتظار .. وسرعان ما ظهر أيوجا الكبير ، فعانق نادينا فى ود . . « ها نحن هؤلاء أخيرا نقبض عليك، يا صغيرتى الحسناء اللعوب !! »

وسرها هذا الإطراء ، فقبلته قبلة تسي ، وقالت : « ترى هل يوجد ألطف وأظرف من والدى ؟ »

واستغل جوجو مجيء الوافد الجديد ، فعاد يكرر شكواه من أحداث الرحلة، قائلا إن الإطارات انفجرت ثلاث مرات ، وإن السيارة تعطلت مرتين ، وإنهم فتكوا بعدد لا يحصى من الإوز والبط والدجاج ، وكذلك بأحد الخنازير ، وإنهم علم الله ، كادوا يدهمون عددا كبيرا من الناس ، وإنهم بصعوبة تجنبوا الاصطدام بمجموعة كبيرة من العربات والمركبات . . هذا لعمرى ما وصفته نادينا بأنه الاستمتاع بوقت طيب . . ولكن لاشك أن جريجور مسئول عن ذلك ، فهو قد سمح لنادينا أن تشترى هذه البدعة [1] ، والحق أنه لا يوجد فى البلد كلها إلا

---

(١) ليلحظ القارىء أن احداث الرواية تدور حوالى ١٩٠٧ ، والسيارات لم تكن قد شاعت بعد . (المترجم)

عدد أصابع اليد من المجانين الذين ابتاعوا لأنفسهم هذه البدع .. ثم إن المسألة تبذير فى تبذير ، أولا : لأنك تدفع ثمن السيارة ، وثانيا : لأنك تدفع ما يعادل أجر أستاذ فى الجامعة مكافأة لألمانى حقير كل مهمته أن يقود السيارة ، وبعد أليس من الأفضل السفر بالقطار كما يفعل الإنسان العاقل الرشيد ؟ »

وصاحت نادينا بالفرنسية : « لا تقلب الهزل جدا يا جوجو .. فأنا من حقى أن أنال بعض المتع الصغيرة ، تماما كما تستمتع أنت .. وأنا واثقة أنه لن يمضى وقت طويل إلا ونجد الحلاقين أنفسهم يمتلكون سيارات خاصة ، ويضعونها أمام محالهم ، وأنا عندئذ لن أجد متعة فيها .. أما الآن فإن ركوب الواحد فى سيارة رشيقة قوية من سيارات « بنز » يهز المشاعر هزا !! »

« كثر خيرك .. أنا متنازل عن هز المشاعر هذا !! » قالها جوجو ، وهو يرفع يده إلى السماء ، فأثار الضحك عاليا ..

وبعد برهة قصيرة ، هب هو ويوجينيا محيين تحية الانصراف .. ودعت يوجينيا تيتو لزيارتهما ، رغم أن وسائل الراحة ، فيما قالت ، غير متوافرة فى ليسبيزى ، ثم أضافت مبتسمة : « ولكن سيسعدنا حقا أن نراك عندنا .. وأرجو ألا تؤجل ذلك طويلا ، لأننا فى العادة لا نمكث أكثر من أيام قليلة .. »

فغمغم تيتو وهو سعيد : « ربما أمكننى أن أحضر غدا ... »

فسألت يوجينيا زوجها : « لا بأس ، أليس كذلك ياجوجو ؟ »

فأجاب زوجها : « بالطبع ياعزيزتى .. كلمتك قانون عندى ! »

ولما انصرفا ، أخذت نادينا تصف ماصادفها فى رحلتها الطويلة ، وكانت توجه الحديث على وجه الخصوص إلى أيوجا الكبير ، وصمتت فجأة ، وخاطبت جريجور « هل لك أن تنظر فى أمر غرفة رمول ياعزيزى؟ . لا مانع عندك بالطبع ياحبيبى .. إنه ضيف علينا ... »

وخرج جريجور مع برومارو ، وتبعهما تيتو ، فقد شعر أنه زائد على الحاجة

وكان قد ألقى نظرة فاحصة على نادينا ، فظل مستمسكا برأيه بأنها فاتنة ساحرة ، ولكن كان ثمة شيء فى جمالها هزه ، وجعل أوصاله ترتعد .

وبقى ميرون أيوجا مع نادينا .. وانفردا الآن سويا . . فرمقها بنظرة طويلة فاحصة جعلتها تجفل وتتساءل . « أتريد أن تفضى إلى بشيء يا والدى » .

فرد الشيخ فى جد : « نعم ، لقد سمعت أنك تريدين بيع باباروجا »

فقالت نادينا ، وقد أخلف هو ظنها قليلا : « أهذا هو الأمر ؟ . . أتراك مهتما بها ؟ »

فقال ميرون : « إنك لتعلمين مقدار اهتمامى . . ربما اشتريتها أنا نفسى . . »

فوافقت نادينا مبتسمة : « لا بأس إذن . . سنتحدث فى الموضوع فيما بعد.. وأنا فى الحقيقة لا أحب أن أتعامل مع الأقارب ، ولكنك يا والدى العزيز استثناء من هذه القاعدة . . هل تريد منى تعهدا على هذا . . هاك » وقبلته فى كل خد من خديه . . أما الشيخ فقد أخذ رأسها بين راحتيه ، وتطلع فى عينيها النديتين .

« هذا أمر خطير يا نادينا . . . »

فأجابت بنفس الابتسامة التى تنم عن عدم الاكتراث : « بالطبع ! »

ولم يرض ميرون عن جوابها كل الرضى ، فقد بدا له أنها لم تنظر إلى الأمر بالجدية الواجبة . . نعم ، ربما كان بيع الضيعة أمراً غير ذى شأن بالنسبة لها ، ولكنها من ناحية أخرى ربما كانت تتحاشى الخوض فى الموضوع . . ولهذا تركها لتنال حظها من الراحة بعد رحلتها المتعبة . . وهكذا وجدها جريجور ، عندما عاد من مهمته ، فوجدها جالسة فى مقعد وحدها ، وقد أغلقت عينيها .

وتساءل وفى صوته نبرة اتهام ، فقد أدرك أنها لم تكن نائمة : « لماذا أحضرت هذا الشخص معك ؟ »

« أى شخص ؟ » قالتها فى لهجة تنم عن الدهشة ، ثم ندت عنها بعد لحظة ضحكة

ساخرة : آه ، هل تقصد رءول ؟ ترى هل عدت إلى الغيرة يا جريج ؟ الظاهر أنك لن تشفى من هذا الداء »

ونهضت نادينا ، ومدت ساعديها ، كلا على جانب ، كأنما توقعت منه أن يعانقها . . لقد بدت أعطافها الرشيقة النافرة تشع حياة وغواية . . ونظرت إلى جريجور بعينين شهيتين ، وهمس فيها اللين فى صوت رخيم : « ألم تعد تحبنى . . يا صغيرى ؟ »

وتنفس جريجور عطرها . . وحاول جاهداً أن يقاوم ، ولكنه كان يعلم أنه يستسلم رويداً رويداً . . وخطر له ، والألم يعصف به ، أنها ربما تلعب بعواطفه . . ولكن هذه الخواطر كلها ذابت فى لظى عاطفته الجامحة . .

وانسابت نادينا من بين ذراعيه ، وأمسكت بيديه . . وتبعها هو كالكلب المطيع .

— ٦ —

عاد تيتو إلى غرفته فى الغد ، عقب الغداء مباشرة ، ليتأهب لزيارة ليسبيزى . لقد أخذ يرسم الخطط طوال الليل ، ولكن ما إن طلع النهار حتى نبذها نبذ النواة . لقد وضح له ألا فائدة ترجى من جوجو أيونيسكو ، ليته لم يتعرف عليه .

ولقد عرف عند مجيئه أن قرية ليسبيزى تقع غير بعيد ، فهى على مسافة تعادل المسافة بين برياسى وجيدوفيتا فى موطنه وهى مسافة كان يقطعها عادة مرتين ، بل وثلاث مرات فى اليوم الواحد . . ومع ذلك فيحسن به أن يتأكد ، ولهذا ذهب يستجلى الأمر من الخولى . . والتقى فى فناء بيت الشريف بشاب كانت ملامحه مألوفة لديه ، وكان قد رفع إليه قبعته مبتسما .

وتساءل تيتو ، وقد تعرف على بيتر بيتر ، وهو الذى التقى به عند مندلسون الحوذى ، قائلا : « ترى ماذا تفعل هنا ؟ »

فأجاب بيتر : « أنا لم أصل إلا بالأمس ، قد جئت لزيارة الشريف »

ومد هيرديليا يده إليه مصافحا ، فعرض بيتر عليه أن يصحبه إلى ليسبيزى ، إذ ليس أمامه شىء آخر يشغله . . وكان الشاب قد تعلل بالاستفسار عن التعويض الذى وعد به الشريف عن حادث الغابة الذى وقع لأبيه الشتاء الماضى ، لجاء لمقابلة ماريورا .. على أن مجىء الوافدين الجدد أفضى إلى هرج ومرج! وأخذت الفتيات يجرين هنا وهناك ، ولهذا لم يستطع إلا بمشقة بالغة أن ينتزع منها سوى بضع كلمات خطفا . . وكان رغم هذا راضياً . فهو قد التقى بالشريف أيضاً وأزجى إليه تهنئته على سلوكه الحميد فى الجيش .

وفتح قلبه إلى تيتو فى أثناء سيرهما إلى ليسبيزى ، فصرح له كيف أنه أراد أن يتزوج من ماريورا ، إذ حسبها ، المسكينة ، أنها انتظرته سنتين حتى الآن ؛ ولكنه مع ذلك لا يدرى إن كان سيتاح له أن يتم زواجه بها هذا الشتاء . لأن الزواج يحتاج إلى مال كثير ، وليس هو ولا هى يملكان منه شيئاً . . وهنا تذكر تيتو على الرغم منه أيون جلانيتاس الذى عاش فى قريته ، وكان مثل بيتر بيتر ، يشكو الفقر . . وحاول أن يواسى بيتر جاهداً بكلمات رقيقة ، لمجرد المشاركة فى الحديث .

قال بيتر ، وهو يشخص ببصره إليه مستفسراً ، كأنما كان يستمسك ببارقة أخيرة من الأمل : « ربما أخذت الأشراف بنا شفقة ، فسمحوا لنا بجزء من الأرض ، هكذا يقول الناس .. » .

وسأله تيتو فى دهشة : « هل تقصد أن تقول إن الأشراف يزمعون إعطاءكم الأرض فعلا . . دون مقابل ، أعنى يتقاسمون الأرض معكم ؟ » .

فأجاب الشاب : « نعم ، هذا ما أقصده ، فهم على أية حال يملكون الكثير ، أما نحن فلا نملك شيئاً على الإطلاق . . والواقع أننى سمعت كثيراً من الأشراف يقولون فى بوخارست إن الأرض يجب أن توزع على الشعب ؛ لأن من الظلم البين أن نرى الناس الذين يفلحون الأرض لا يملكون منها شيئاً . . . » .

فهز هيرديليا رأسه وقال : « إنك تصور الأمور على نحو جميل ، ولكنى صراحة لا أعتقد أن هذا فى الإمكان . . ما من إنسان يقبل أن يقسم ما يملك مع الآخرين .. ما رأيك فى هذا بإخلاص ؟ » .

فرد بيتر فى أسى : « أعتقد أنك على صواب .. ولكن معنى هذا أننا نموت جوعا ، لأننا لن نستطيع أن نتحمل هذا العبء » .

وانطلقا فى مسيرهما بضع دقائق دون أن ينبسا بكلمة ، ثم قطع بيتر الصمت كأنما عذبته فكرة واحدة ، قائلا : « ولكنهم إذا لم يروا عمل شيء فى هـــذا الخصوص ، فمن ذا الذى يجبرهم عليه ؟ نحن لا نملك أى قوة » .

وأدرك تيتو أن رفيقه كان تحت تأثير سراب كذوب ، فأسف على أنه قد بدد آماله . . وحاول أن يعالج الأمر على نحو ما ، ولكنهما لحسن الحظ بلغا ليسبيزى الساعة ، فاستطاع أن يطرق موضوعا آخر . قال :

« إن القرية قريبـــة جدا . . فنحن ما كدنا نبدأ فى المسير حتى وجدنا أنفسنا هنا ! » .

وطلع فى هذه اللحظة ، من فناء قريب ، رجل عارى الرأس ، غريب المظهر . . كان شعره طويلا مشعثاً ، وكانت له لحية بنية اللون غير كثيفة الشعر ، وكان له عينان واسعتان سوداوان تفيضان حياة .. وكان يرتدى جلباباً رمادياً ، ويحمل حقيبة مخططة شدت إلى عصى ، أما قدماه فكانتا حافيتين .

وخاطب تيتو فى صوت واضح النبرات ؛ وفى عبارات ملتهبة ، كأنما كان ينتظره منذ عهد طويل .. قائلا : « حذار ، حذار من التحول إلى الجانب الآخر يا سيدى . . إن يوم الحساب قريب وسوف تندم على أنك لم تصغ إلى صوت النذير . . ألا قد نفخ فى الصور ، ولكن الناس لا يسمعون ، لأن الخطيئة أصمت أذانهم . . وسوف يأتينكم فرسان ، . يحملون سيوفا من نار ، على خيول بيضاء ، وسوف يحار الناس ، ولكنهم لن يدركوا أن الله أرسلها عقاباً للعالم على ما اقترف من شرور » .

واستمع تيتو إلى هذا السيل المتدفق من الكلام ، وعجب على وجه الخصوص من مظهر الرجل . . وتدخل بيتر قائلا : « كفى ياعم أنطون ، هذا السيد لا يجد وقتا لهذا الهراء » .

ولكن الرجل ازداد إصراراً . . « أنا لا أتكلم هراء يا بيتر . . إن الحمقى وحدهم هم الذين يعجزون عن فهم الكلمة ، وهى كلمة لا تخرج منى أنا ، بل منه هو ، الذى أحاط علماً بكل ما هو كائن ، وبكل ما هو غير كائن » .

« لا بأس ، لا بأس ، ولكن كفى هــــذا . . » قالها بيتر وهو يمضى مع هيرديليا ، وأوضح أن أنطون المسكين كان راهباً فيما مضى ، ولكن عقله اختبل وأنه هرب من الدير ، وأنه أخذ يهرف بهذا الهذيان مدة سنوات الآن ، وأنه يعيش على ما يتلقاه من إحسان من الناس .

وكان قصر ليسبيزى قديماً ومتواضعاً ولطيفاً . . وكانت تقف فى فنائه الكبير ، الذى أحاطت به مبانى المزرعة ، عربة شد إلى عريشها حصان أسود . . وكان إلى جوار العربة شاب ، عرف فيه تيتو ابن الملتزم اليونانى — وهو الذى التقى به قبل أيام حين كان مع المعلم دراجوس . . وقال أرستيد إنه جاء مع أبيه ليقابلا جوجو أيونيسكو ، ولكنه لم يشأ أن يدخل لأن أحاديث العمل تبعث فى نفسه الضجر . . وطلب بيتر إلى الخادم أن تخبر أصحاب البيت بأن سيدا قد جاء من آمارا فى زيارة لهم . . ورجعت الفتاة فى طرفة عين تدعو تيتو إلى الدخول . . واستقبلته يوجينيا استقبالا حافلا ، وقالت : « ها أنت ذا قد جئت . كم أنا سعيدة ! ! » .

والواقع أنها كانت سعيدة حقاً . . فقد كانت فى الخامسة والعشرين ، وكانت قد تزوجت منذ أربعة أعوام . . وكان جوجو يحبها الآن حبه لها فى الأيام الأولى من زواجهما . . وكان يلبى كل نزوة من نزواتها ، ولكنه كان يبلغ من العمر ضعف عمرها تقريباً . . ولكنها ما كانت تسمح لنفسها أن تفكر فى غيره من الرجال ، فقد أحست أنها تدين لزوجها لا بالوفاء فحسب ، بل بالامتنان لعبادته لها عبادة فاقت كل الحدود . . ومع ذلك فهى أحياناً تحس بشوق لا تدرى كنهه ، وهو شوق لم تستطع الحياة الحديثة ، بما فيها من تصنع وقيود ، أن تشبعه . . وتعودت ناديتا أن تسخر منها ، فهى لا تدرى كيف أن امرأة على جمالها تسعد مع جوجو — هذا الذى انتهى به الأمر فأخذ يصبغ شعره ليبدو أصغر سناً . . ولكن يوجينيا ، رغم ما اكتسبت من أساليب وعادات العالم الذى تعيش فيه

الآن ، مازالت فى صميم نفسها ابنة بنتيا ، قس ليشينتا . . وهذا هو السبب فى أنها كانت تشعر فى صحبة هيرديليا كأنها قد عادت إلى أصولها الأولى لفترة قصيرة . . وتحدثا عن أخته لورا ، وعن أخيها جورج ، واستعادا ذكرى سنجورز ، وأهل ترانسلفانيا ، وأحوال ترانسلفانيا . وإذا بها تفطن لنفسها فابتسمت ابتسامة لطيفة ، وقالت : « لقد قضى جوجو وقتاً طويلا مع الملتزم الذى يستأجر أرضه . . لابد لى أن أخبره أنك قد حضرت . . » .

وفتحت الباب ، وإذا بصوت جوجو يرتفع من الداخل ، قائلا : « أنا آت يا حبيبتى ! ! » .

وظهر جوجو فى فتحة الباب ، ووقع بصره على تيتو وقال: « لماذا لم تخبرينى يا حبيبتى ؟ . . لقد أنهيت شغلى مع اليونانى منذ وقت طويل ، وكنا نتكلم فى السياسة . . » .

وصافح ضيفه بحرارة ، وقد بدا مشرق الأسارير ، وأصغر سناً مما كان بالأمس ونادى على بلاتامونو ليجلس معهم ، وقال له إنه نصاب ، ولكنه طلب إليه أن يتناول معهم فنجالا من القهوة ، وإن كان والحق يقال يستأهل الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . . وابتسم اليونانى متأدباً ، ولكنه اعتذر قائلا إن عليه أن يدبر بعض الأمور فى القرية ، وإنه مضطر إلى الذهاب لمقابلة السيدة نادينا ، واستطرد فعرض أن يأخذ السيد هيرديليا معه إلى آمارا ، إن رغب هو فى ذلك .

فهتف جوجو مغتبطا : « اذهب وتسكع فى القرية إذن . . ولكن لا تظن أن فى وسعك إغراء ضيوفى بعربتك هذه البالية المتداعية . . ثم تأكد أن نادينا ليست فى شوق لرؤية وجهك السمين لأنها تعلم حق العلم أنك تغشها كما تغشنى ! »

وصحب بلاتامونو حتى الباب ، ثم عاد وهو يفرك يديه فى جذل : « والآن لنسمع مايريد شاعرنا أن يسمعنا إياه !! »

واضطر تيتو أن يحكى لهم كيف ومتى جاء إلى هذا البلد ، وماذا فعل ، وكيف سارت الأمور . . . فلما استمع جوجو إلى قصة الشاب سخط على نفسه ، وأبدى

أسفه ، وقال بصوت عال : « ياللعار !! .. شاعر يأتى من ترانسلفانيا ولايجد له مكانا فى رومانيا !! .. هذه فضيحة ... يالبائس المسكين ! »

وتأثر هيرديليا بهذا الاهتمام الكبير ، واسترسل جوجو فى لهجة عاطفية : « أرجو أن تعمل فى معروفا وتنسى هذا كله ... هذا أولا .. أما ثانيا فسوف أرى بنفسى أن قريبنا الشاعر لن يشعر بوحشة فى رومانيا . أليس كذلك ياحياتى ؟» قالها مخاطبا زوجه .

وغردت يوجينيا : « طبعا ، لابد أن نعمل شيئاً من أجله .. »

فلما انتهى بلاتامونو من شئونه ، وعاد يستدعى تيتو ، التمس جوجو سببا آخر يدعوه إلى تقريعه . قال : « أما وأنت ستأخذ منى ضيق ، فسوف أزيد من الإيجار الذى عليك أداؤه .. ثم قل للسيدة نادينا إننا سوف نحضر غداً ونتناول معها طعام الغداء ، وننصحها بأن ترفع إيجار عزبتها كذلك .. هذا كل ما فى الأمر ياصديقى » .

— ٧ —

وقاد بلاتامونو العربة ، وأخذ يتبادل الحديث مع تيتو هيرديليا ومع ابنه ، ولكنه كان شارد الذهن .. إنه لم يشأ أن يبدى مدى اهتمامه بهذه الرحلة إلى آمارا — ولو لأرستيد نفسه . . ذلك أن مستقبل آل بلاتامونو كله كان رهنا بهذه الرحلة ... كان الرجل يحب الأرض ، ليس فقط لما تدره من مال ، هذا إذا حسنت إدارتها وزراعتها ، وإنما لما تتيحه للمالك من استقرار وطمأنينة على وجه الخصوص .. نعم ، إن قمة السعادة هى فى كون المرء يصبح مالكا لمزرعة ؛ كان هذا هو الحلم الذى هفت إليه نفسه منذ غدا ملتزما يستأجر الأرض من الغير . أما الآن ، فى آخر المطاف ، فقد أوشك الحلم أن يغدو حقيقة واقعة .. إنه لن يعثر ، أنى ذهب ، على ضيعة أروع من باباروجا ! .. والأمر الذى ينبغى تسويته هو ثمنها ... وكان يعلم أن نادينا فى حاجة دائماً إلى المال ... فما أكثر المرات التى لجأت إليه فيها بقصد أن يقرضها مالا .. ثم إنها تأنف من الأرض ؛ بل هى فى الواقع تعتبرها مجلبة للضيق والإزعاج .. وهى قد طلبت إليه الربيع

الماضى أن يبحث لها عن مشتر جاد يريد الشراء حقا ؛ وأضافت أنها سوف تبحث معه الموضوع بالتفصيل فى الخريف .. ولقد قال لها إن الذين يهتمون بالشراء ربما يتكاثرون إذا لم تشتط فى الثمن ؛ لأن النقود شحيحة ، والزراعة لم تعد تدر ما تعودت أن تدره من قبل .. ولقد ألمح إليها أنه ربما يتقدم هو نفسه للشراء ، وفهمت هى التلميح بطبيعة الحال .

وكان بلاتامونو يونانيا ، رومانى المولد ... وما كان يتحدث إلا كلمات قليلة من لغة أجداده ؛ ولكنه دل على حبه لليونانيين فعمد أولاده بأسماء أبطال الإغريق القدامى .. فالولد أرستيد ، والبنت هيلين .. ثم نال الجنسية الرومانية ، وداعبه الأمل فى أن يشتغل ابنه بالسياسة ذات يوم ، وأن يصبح نائبا .. وهو لهذا السبب أنفق على ابنه عن سعة ليتهيأ للاشتغال بالمحاماة ؛ واستجاب لكل نزوة من نزواته — على أن أرستيد لم يرث عن أبيه اجتهاده ، بل آثر الحفلات والجنس اللطيف على سهر الليالى فى طلب المعالى .. فهو ، رغم أنه قد قضى فى دراسته ثلاث سنوات ، إلا أنه لم ينجح فى امتحان واحد .. وكان يتعلل بأنه يريد أن يكون على أتم استعداد أولا ..

وصاح بوزولك صاحب الخان من فتحة الباب عندما رأى الملتزم عابرا :
« سعدت مساء ياسيدى ! »

ورد بلاتامونو التحية مبتهجا ، وأطلق نكتة من النكات .. كان يعرف كيف يحادث الفلاحين ؛ وكان يحظى بحب الناس أكثر من حبهم للأشراف الآخرين فى الولاية .. وكان الذين منهم فى ضيق يذهبون إليه أولا ، لأنه لم يكن بالرجل المتعجرف ؛ بل كان يصغى إليهم دائماً ، أو كان على الأقل لا يبخل عليهم بكلمة طيبة .

وترك العربة فى الفناء ، ولم يتركها أمام باب البيت ، مرضاة للأشراف .. وكان يزمع أن يصحب أرستيد معه لمقابلة نادينا ، ظنا منه أن أية امرأة لابد أن تتلطف فى الحديث أمام هذا الشاب الوسيم .. ولكنه غير رأيه فى اللحظة الأخيرة .. « لا علم لأحد كيف تجرى الأمور ، ولو حدث شىء سخيف ، والولد حاضر ، لكان أمراً يدعو للأسف ! »

وتبادل كلمات قليلة مع نادينا ، أحس بعدها أن قراره هذا كان قرارا حكيما . .
كانت السيدة جالسة مع زوجها ورمول برومارو ، لحيته أحسن تحية ، وكانت هذه علامة لا تبشر بخير .

« لقد كنا فى سيرتك الآن ، وها أنت ذا تأتى !! »

واصطنع الملتزم ابتسامة مناسبة ، وقبل يدها . . وانصرف الرجلان لأن الحديث حديث عمل . . ودعته نادينا إلى الجلوس فى الكرسى الذى خلفه رمول ، قرب المدفأة التى كانت تحترق فيها كتلتان كبيرتان من الخشب ، قد تصاعدت منهما زبالات واهنة من الضوء . . واقتعدت هى كرسيا آخر . وغمغمت فى تواضع : « هذا أحسن . . نستطيع الآن أن نتحدث بهدوء ! »

وكان بلاتامونو يدرك هذه التمهيدات جيدا . . فقد كان فرط الأدب من جانب نادينا معناه أنها تريد مالا . . وأراد أن يقطع عليها الطريق لحدثها عن المحصول ، وأن المحصول كان . . . ولكنها قاطعته مبتسمة : « نعم ، أنا عارفة . . فالمحصول دائماً هو أسوأ من كل تقدير وحسبان ، إما بسبب الأمطار ، وإما بسبب تحاريق المياه ، ثم إن الأسعار لم تكن أبداً جيدة لأن النقود شحيحة . . يحسن بنا أن نطرق موضوعا آخر . »

واسترسلت تقص عليه أنها أنفقت مبالغ طائلة فى الشهور الثلاثة التى قضتها بالخارج ، بل إن الأمر بلغ بها أنها اضطرت أن تسأل زوجها مالا ، رغم ما شعرت به من حرج . . ولكن جريجور كان لطيفا للغاية . ولم يقحم نفسه فيما اتخذت من تدابير ؛ ولم تشأ هى أن تطلب منه شيئا ، وبخاصة لأنه كان يقف موقف المعارضة من هذه الرحلة . وهنا رأى بلاتامونو أن من المناسب أن يقول إنه لم يتوان عن الرد على خطابها إليه ، وإنه أرسل إليها قسط الخريف قبل موعده بعدة شهور ، وإن كان الله وحده يعلم كم تكبد حتى تمكن من أن يجمعه لها فى هذه الأوقات العصيبة . . ولم تشعر نادينا بحرج أو انزعاج . . بل شكرته فى دلال ، واستطردت قائلة إنها عادت خالية الوفاض ، بل هى ، فوق هذا ، مدينة لأخيها جوجو . . ثم هى ما حضرت إلى القرية إلا لتحصل على موافقته

على أن يؤدى لها الإيجار مقدما ، رغم حاجتها الماسة إلى الراحة . ، وهى تريد مالها بأقصى سرعة فى الإمكان ؛ إما إيجار السنة القادمة كله ، أو الشطر الأكبر منه ، حتى يتسنى لها أن تتخلص من هذه المضايقات المادية المزعجة .

ونفث الملتزم آهة عميقة . . لقد راوده الأمل فى أن يحصل على صفقة طيبة ، فإذا بها ، بدلا من ذلك ، تطالبه بأن يدفع الإيجار مقدما .. هذا هو سوء الحظ الذى يلازمه . . ثم يالها من آمال هدهدت صدره هذا الخريف ! . وأجابها وهو يصطنع الحزن أن بوده لو يلبى أى طلب لها ، وأنه قد بذل كل تضحية استجابة لرغباتها ، ولكن من أسف فإن الأمور تجرى على غير ما يشتهى . . لقد كد واجتهد ، ولكن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح . . بل إنه معرض لخطر فقدان رأس ماله الصغير الذى كان فى حوزته عندما وفد إلى هذه العزبة .. ثم إن السيدة تريد الإيجار مقدما ، وهو ، هو المسكين ، لا يستطيع حتى أن يسدد الإيجار القديم .. وتاق أن يبرهن لها ، والقلم فى يده ، على أنه مهما بذل من جهد فلن يتمكن ، والأسعار على ما هى عليه ، من أداء ولو ثلاثة أرباع الإيجار ، هذا فضلا عن ضرورة الحصول على مبلغ صغير لنفسه ، وهو مبلغ يستحقه حقا نظير جهوده الخارقة ..

وغابت الحلاوة عن نادينا برهة . . ولكنها مالبثت أن استعادت رباطة جأشها ، فتبسمت ، وقالت إن الملتزمين كثيرون ، أما الضياع فربما كانت أقل عدداً . . ووافقها بلاتامونو على ما قالت ، ولكنه أضاف أن الأمر يتوقف على نوع الملتزمين ، والملتزم الذى يعرف الأرض معرفته بها لن يدفع فيها إلا أقل من نصف الإيجار الحالى الذى هو مضطر إلى أدائه .. صحيح أن الإيجارات ارتفعت فى بعض المناطق ، ولكن الفلاحين فى هذه المناطق بالذات موضع استغلال رهيب بحيث لم يعد أحد يدرى ما سوف ينجم من عواقب .. لقد هب الفلاحون ثائرين ، فهم أيضاً يريدون الأرض ، ويرفضون الاستمرار فى مكابدة الظلم ، ومعاناة الوحشية صامتين . . بل إنهم حتى فى هذه الولاية ، حيث العقود عادلة ، وحيث لا يغشهم أحد فى سحتوت ، تراهم يراوغون ويثيرون الفتنة والاضطراب ولا يدرى أحد غير الله ما الذى يجرى فى الأنحاء الأخرى .

وضاقت نادينا بهذا الحديث الطويل ... ولحظ الملتزم ما انتابها فأمسك عن الـكلام .. وخيمت عليهما فترة من الصمت ، ونادينا تتطلع إليه متفحصة ، كأنما تستشف ما يكمن وراء كلام هذا اليونانى ، وهو كلام لين ، يكاد يتسم بالذلة ولـكنه ينفذ إلى النفس خاصة .

« سنرى !! » قالتها بغتة ، فى شىء من السخط ، وهى تومئ إيماءة من يريد أن ينهى الحديث .

وأحس بلاتامونو أنه قد تجاوز حده قليلا ، فجعل يترقب فرصة ليتراجع هونا ما .. لقد كان يعرف فى نادينا الاندفاع والتهور ، وكان يعرف أنها قادرة حقا على البحث عن ملتزم آخر .. وتلك هى الطامة الـكبرى ؛ فهو بدلا من أن يشترى الضيعة يفقدها كلية . .

ودخل جريجور فى هذه اللحظة ، وأعلن أن نفرا من الفلاحين قد حضروا ، وأنهم يطلبون المثول بين يديها ، لأنهم كذلك يريدون شراء الضيعة .

ونهضت نادينا ، وقد أخذتها الدهشة .

« ولـكنى لم أتحدث فى شىء من هذا القبيل مع هذا السيد »!

كانت فى حيرة من أمرها ، ولـكن جريجور أصر على أنها يجب أن تقابل الفلاحين . . فهم أناس سيئو الظن ، وسوف يعتبرون أن من الظلم ألا يتلقوا جوابا منها شخصيا .. وما كانت نادينا تربطها بالفلاحين علاقة فى يوم من الأيام ، ولم تـكن هى من جانبها ترغب فى وجود هذه العلاقة ، فقد كانت تعتبرهم أشرارا متوحشين . . وترددت لحظة ثم قالت وهى تهز كتفيها : « لا بأس ياجريج ، إن كنت ترى ذلك .. ولـكن حذار أن يوسخوا الغرفة ، أو يملئوها روائح !

ودخل لوكا تالابا ، ومعه بعض صحابه .. كانت رائحة الثوم تفوح منهم جميعا وهى رائحة سرعان ماانتشرت فى أركان الغرفة الأربعة .

واستحثهم جريجور قائلا : « هيا ، حدثوا السيدة بـكل ما يدور فى خلدكم ، لاتخشوا شيئاً ! »

لقد حدثهم صاحب الخان ، منذ فترة وجيزة ، فقال إن اليونانى ذهب إلى بيت الشريف ، كى يمهد الطريق لشراء عزبة باباروجا — وعقد الفلاحون اجتماعا آخر ، بعد حديثهم بالأمس مع الشريف ميرون ، واستقر رأيهم على الذهاب إلى السيدة نادينا التى حضرت من بوخارست. أما الآن فهم يشعرون بالاضطراب ، وبخاصة لأن الملتزم كان حاضرا.. وبعد فترة من الصمت الطويل، تغلب لوكاتالايا على الارتباك الذى ساوره . فانطلق يتكلم ، وهو ينظر مباشرة فى عينى نادينا «اغفرى لنا ياسيدتى هذه الجرأة من جانبنا ، ولكن عذرنا أننا سمعنا أنك تريدين بيع العزبة، ففكرنا فى الأمر مليا ، وقلنا لماذا تذهب العزبة إلى الأجانب الغرباء ، فنحن على كل حال قد عملنا فيها دائما ، وسنبذل جهدنا كى ... »

وبرمت نادينا وضاقت ذرعا ، أولا من بلاتامونو ، ثم من رائحة الثوم والآن من حديث الفلاح ، إنها لم تفكر حقا فى بيع باباروجا صحيح أنها قالت للملتزم فى الربيع الماضى إنها تريد أن تتخلص من العزبة ، ولكنها لم تقطع فى ذلك برأى إذ ذاك . وهى لم تتحدث بذلك إلا لمجرد الحديث ، لأنها لم تستطع أن تتخلص من الملتزم وأن تطرده من حضرتها على عجل . وهو الذى قدم إليها مبلغا من المال . والظاهر أنه قد نجم عن هذه الكلمات القلائل التى فاهت بها عفوا سلسلة كاملة من الأحداث . لقد طرق حوها الموضوع بالأمس ، وهاهم هؤلاء الفلاحون يثيرونه اليوم . على أنها لم تدرك إلا الآن لماذا اشتكى بلاتامونو من الإيجار . ولم تتمالك أن تمنع نفسها من الابتسام ، وتطامت إليه فى سخرية . كان لا يزال جالسا فى كرسيه، وعيناه على الفلاحين، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الذهول وهى أمارات أراد أن يخفى بها مااعتراه من ارتباك ، نعم ، ما كان فى ذهنه إلا فكرة واحدة : «إنه سوء بختى أنا !»

ولما أحست نادينا أن الفلاحين قد أسرفوا فى الكلام ، قاطعتهم قائلة إنها لاتنوى أن تبيع الضيعة فى الوقت الحاضر ، وأنها راضية عن السيد بلاتامونو . فهو يؤدى ما عليه دائما بانتظام وكما يجب ؛ ثم إنه لايضطهد الفلاحين .. وأراد الفلاحون أن يوافقوها على ما قالت ، حتى لايضايقوا الملتزم : «الحق نقول إننا على وفاق دائما مع هذا السيد » .

واستطردت قائلة إنها لن تنساهم حين تنوى البيع،ولكن عليهم ألا يستمعوا إلى الشائعات، فهي شائعات لا يروجها إلا أولئك الذين يسعون إلى الانتفاع منها، أو على الأقل الخبثاء المولعون بالأذى . وهنا جف حلق بلاتامونو ، رغم أنها لم تنظر إليه ، ولا إلى الفلاحين .

فلما انفردا سويا مرة أخرى ، تساءل الملتزم فى وداعة : « ترى ماذا تنوين أن تفعلى بى ؟» .

فقالت نادينا : « سأنظر فى الأمر . وأرى ماأنا فاعلة » .

وأحس بلاتامونو بالأرض تميد تحت قدميه. وحاول أن يلح فى الأمر فسألها متى يأتى مرة أخرى.. وترددت السيدة وقالت إنها لاتدرى كم يوما ستقضيها بعد ذلك فى القرية . .

وتساءل الملتزم بغتة فى يأس : هل أنت غاضبة على ياسيدتى ؟

فقالت نادينا مبتسمة وهى تمد يدها إليه : « لست غاضبة أبداً . ولماذا أغضب؟ أنت لم تؤذنى فى شىء ، أليس كذلك ؟ اطمئن ، أنا لست غاضبة » .

وبينا بلاتامونو يتدلى من الدرج تمتم لنفسه مغتما : « هذا والحق يقال يوم نحس، عليه اللعنة !! » .

— ٨ —

بدأ الرذاذ البارد بعد ظهر الثلاثاء — وكان يتساقط فى بطء دليلا على أنه سيستمر مدة طويلة ، فهو مطر الخريف حقا .وكان جوجو أيونيسكو قد حضر مع يوجيفيا إلى آمارا لتناول الغداء — وكانت وليمة بهيجة ، انتهت بنقاش حول الخطة التى أزمعوا عليها للعودة إلى بوخارست .. وكان حتما على جوجو أن يكون فى بوخارست يوم الخميس ، وما كان فى مقدوره أن يتأخر بعد ذلك ، فهو أيا كان الأمر ، نائب ، وسوف ينعقد مجلس النواب فى مدى أسبوعين ؛ وهو مضطر إلى تبادل الرأى مع رفاقه السياسيين قبل انعقاد دورة المجلس . وعرض على تيتو

أن يصحبهما ، ولكن جريجور اعترض على هذا ، فكيف يجرؤ جوجو فيقترح اختطاف ضيفه من عنده . . وكان هو فى الحقيقة قد فكر فى إرسال تيتو مع نادينا ، حتى لا تسافر وحدها مع برومارو .

واختلى جريجور بجوجو وتيتو ، قبل أن يجلسوا إلى مائدة الغداء ، وتبادلوا حديثا خاصا . . ولما استمع جوجو إلى العرض الذى تقدم به بالولينو استشاط غضبا . . وكيف خطر فى بال جريجور أن بالولينو يهتم بأى أمر؟ . من الواضح أن جريجور لا يعرفه حق المعرفة ، برغم أنهما صديقان . . إنه يكتفى بإزجاء الوعود ، ثم هو لا يفعل شيئا فى النهاية . . وخالفه جريجور فى رأيه ، على تردد بعض الشيء ، ولكنه أضاف أن من المحال أن يبقى الفتى ، يقصد تيتو ، معلقا فى الهواء ، وإنما يجب عليهم . . . .

فصرح النائب جازما . « استمعا إلى : أنا أتعهد لكما بأنه فى مدى أربع وعشرين ساعة من وصولى إلى بوخارست سأهيء لهذا الشاب عملا ! . هذا عهد على . . وأنا لست بالولينو ! »

فقال جريجور : « طبعا ، فى وسعك هذا إن كنت حقا تريد أن تفعل شيئا . . ولكنك أنت أيضا ، ياعزيزى جوجو ، تميل إلى الإهمال ، ثم . . »

فضحك جوجو وقال : « أرجوك ! . أنا أعرف متى أهمل ، ومتى لا أهمل »

وهمس جريجو فى أذن تيتو بعد ذلك ، حين انفردا سويا لحظة . « إنك لسعيد الحظ . . والظاهر أن يوجينيا ترى مصالحك . . فهو متحمس غاية الحماس ! »

ولم ينبس الشاب هيرديليا بكلمة ، وإن أصغى باهتمام . . وجعل يردد فى ذهنه مبتهجا : إنه والحق يقال قد ولد فى يوم سعيد . . واندفع ساعة الغداء يأكل مسرورا ، وفى نهاية الوليمة ، حين تطرق الحديث إلى أغانى « الدوينا (٦) » الترانسلفانية ، شرع يغنى أغنية شعبية مطلعها . « الطريق طويل إلى كلوجى » فصفق له القوم استحسانا . . حتى ميرون الكبير أزجى إليه التهنئة ، أما نادينا وهى التى تعودت أن تسخر من الموسيقى الشعبية الرومانية فقد أخذت منه وعدا بأن يأتى لزيارتها حين يفد إلى بوخارست ويغنيها كل ما يعرف من الأغانى الشعبية . .

ورحل جوجو ويوجينيا والمطر ينهمر مدرارا .. ووقفت نادينا فى فتحة الباب وجعلت ترقب الريح وهى تدفع قطرات المطر، فقالت مرتعدة . « أعتقد أننى سأعود إلى بوخارست حتى قبل جوجو » أما أيوجا الشيخ فقد فرك يديه رضى وقال . « لا ضير من ذلك ياعزيزتى .. هذا المطرمفيد جدا لزراعة الخريف . فهو يدر علينا الملايين .. الملايين حقا ! »

« ربما كان هذا صحيحا يا والدى ، ولكننى لا أحب المطر، حتى فى المدينة . أما فى القرية فأنا أمقته مقتا ! ! »

وكان جريجور قدانتابه تغير منذ وصول نادينا .. فهو بعد أن عانقها مرة أخرى ، أدرك أن حياته بدونها ان تكون إلا حطاما وأنقاضا .. وغفر لها كل أخطائها ، وأحس أن هذه الأخطاء إنما تقع تبعتها عليه .. ثم إن أية امرأة على شاكلتها من حقها أن تحيا ، وأن تستمتع بخضوع الدنيا لها ، لا أن تحياحياة خاملة مغمورة ، وهى الحياة التى يريدها لها ، تدفعه إلى ذلك غيرته الشريرة . . ولقد ظن يوما أن مقاومتها الطبيعية لهذا الاتجاه آية على نقص حبها له .. وكان ينظر إلى مغازلتها على أنها جرائم ، بدلا من أن يرى فيها مجرد رغبة طبيعية للتألق .. نعم ، لم يفهم هو أنها وهى تصر دوما على أن تقدم له شيئا طريفا ، وعلى أن تكون دوما متجددة متغيرة . إنما كانت ترغب — بل ونجحت — فى أن تكون حبيبة وزوجة فى آن واحد .. ولقد نظر بعين السخط إلى نزواتها ، وكانت نزوات عادية للغاية ؛ بل إنه قد عاب عليها حبها للرقص والترحال .

ومع ذلك فلا مناص من أن يرقب نفسه الآن ، بل وطوال الوقت، وأن يكبح نزواته التى تطبع بها .. وكان وجود رءول برومارو لايزال يبعث فى نفسه الضيق ، رغم أن الرجل المسكين بذل جهداً جهيداً ليكون ذا فائدة ، فكان يحكى القصص ، ويروى الفكاهات اللطيفة ، ويسأل عن تربية الماشية ، ويصغى كالشهيد إلى آراء جريجور فى الزراعة ، ويلعب الورق مع ميرون الكبير ، ويعامل تيتو باحترام لأنه لحظ أن جريجور يكن له الحب ، ويحاول أن يسلى نادينا ، فيقص عليها نكات فرنسية حين يلحظ أنها ضيقة الصدر .. أما جريجور فكان لايغفل عن ملاحقته ، وكان يرقب حركاته وسكناته كلها ، رغم ما كان يرى فى هذا من مغالاة .. بل هو

قد وجد نفسه فعلا يرتاب فى نادينا، حتى فى أثناء اللحظات التى يخلصان فيها إلى نفسيهما تماما .. كان يخال قبلاتها قبلات غير صادقة ، وأنها تتصنع كلمات الهوى .. وكان يخشى طوال الوقت أن تكون قد تلاعبت بعواطفه .

ولقد دفعه حبه الذى اهتاج من جديد أن يسارع بالرحيل إلى بوخارست .. فهو لابد أن يفرغ من عمله هذا فى مدى أسبوع على أكثر تقدير ؛ وحاول أن يستميل نادينا ، ويقنعها بالانتظار من أجل خاطره .

فقالت نادينا : « أعتقد أننى أموت كمدا لو قدر لى أن أقضى أسبوعا آخر فى هذا المستنقع الرهيب .. وأنا لا أدرى لماذا لاتترك مرة واحدة فى حياتك هذه الشئون التى شغلت نفسك بها فنمضى سويا .. »

ووعد جريجور أن يكون على أتم استعداد يوم الأحد ، ولكنه استطرد قائلا إنه لا يود أن يحبسها ، ولا يريد لها التعاسة ، بل هو على العكس ، لا يتمنى إلا أن يراها سعيدة مرحة .

واستقر الرأى على الرحيل يوم الخميس ، ولكن المطر تساقط بشدة إذ ذاك ، فأجلت نادينا سفرها إلى يوم الجمعة .. وحسب جريجور أن هذا مجرد عذر التمسته لتبقى معه ليلة أخرى ، فسر وابتهج .

وتنفس صباح الجمعة فكان يوما مشرقا .. كان المطر قد توقف فى أثناء الليل ، ولكن الوحول والبرك التى نشأت فى الطريق ارتفعت حتى الركبة .. ووقفت السيارة عند الدرج ، بعد أن دارت حول حوض الزهر الذى كان على شكل القلب ، وقد زين الساعة بأزهار الخريف القرمزية التى تبسمت تحت قبلات الشمس ، وكانت قد بزغت لتوها من بين لفائف السحب .. وخطت نادينا إلى السيارة ، بعد أن قبلت جريجور عدة مرات ، فلما لمحت الأزهار قالت برقة : « انظر ياجريج ، هذا هو قلبك !! »

ولحظ تيتو بيتر بين لفيف الخدم الذين سعوا إلى تقديم خدماتهم ، وكان قد جاء يحوم حول بيت الشريف أملا فى رؤية ماريورا ، وفى الحصول على عمل

لنفسه . . وودع هيرديليا ميرون الكبير، وشكر جريجور شكرا حارا على دعوته له ـ ثم صافح الفلاح الشاب .

« حظ سعيد ياصديق ! »

فرد بيتر بحرارة : « رافقتك السلامة ياسيدى ! »

وسمعت نادينا صوته الغريب ، فالتفتت ، فإذا بنظرتها المتطلعة تلتق بعينيه البراقتين وهلة .

وسارت السيارة على الممشى الحجرى وئيدة ، لأن جريجور كان يتمشى بحذائها عارى الرأس .. وكانت نادينا جالسة بين الرجلين ، تبعث إليه قبلات بيدها المتشحة بالقفاز .. فلما بلغوا البوابة، طلب جريجور إلى السائق أن يتوقف برهة قائلا : « معذرة ، أريد أن أقول كلمة لنادينا . . . »

ومال فوق الباب ، وأخذ رأسها بين راحتيه ، وقبل طرف أذنها هامساً : « أحبك ! ! »

واهتز أنف نادينا طربا ، وقالت بالفرنسية : «أنت معتوه يا صغيرى العزيز! »

ثم انطلقت السيارة كما ينطلق العداء فى سباق . . ونظر جريجور وراءها ، فلم ير إلا يداً صغيرة تلوح فى الهواء فوق الرءوس ، كأنها حمامة بيضاء .

وسرعان ما بعدت السيارة ، وهى تلق بالوحل والمياه الوسخة على جانبى الطريق ، فسمع أيوجا صوتا يصيح فى غضب : « إلى الجحيم لعنكم الله ! ! »

وخرجت الأم أيونا من جانب الطريق ، وهو تنفض ثيابها غاضبة ، فقد علاها الوحل من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ..

وعلى مدى من الحارة كانت نيستور موكينيكا أنغلينا تقترب ، وقد حملت طفلا يرضع من ثديها ، أما الطفل الآخر ، وكان يبلغ الرابعة فقد تعلق بيدها .. وكان هذا الصبى ، وهو حافى القدمين مثل أمه ، يتعثر فى جلبابه الطويل الذى

كان يطأ به فى الوحل.. وكان يصرخ باستمرار : « أنا جائع يا أمى !! ..

وحاولت الأم أن تسكن من روعه ، وشدته من ذراعه ، وقالت متأففة :
« اسكت يا حبيبى ، اسكت ...

وغابت السيارة ، واختفت اليد البيضاء . . وارتجف جريجور أيوجا كأنما قد هب من حلم.. كان كل ما تناهى إلى سمعه هو عويل الطفل ، ودمدمة العجوز :
« إلى الجحيم لعنكم الله !! »

الفصل الرابع

الأضـــواء

— ١ —

طوال يومين كاملين ، لم يجد تيتو هيرديليا مناصا من أن يقص المغامرات التى صادفها فى الريف ، وكيف قضى وقته هناك .. جاءت أولا صاحبة الدار ، السيدة الكسندريسكو ، فطلبت إليه أن يحكى لها كل شىء ، فهى حين لا تجد ما تقوله عن جينتسا ، أو عن ميمى ، تتلهف شوقا إلى الخوض فى سيرة الناس ، وتناولها بالقيل والقال .. كذلك اضطر أن يقضى أمسية كاملة مع جارفيلاس ، ثم جاء الشاب مندلسون ، ابن الاسكافى ، وكان قد سرح من الجيش الآن ، فأخذ يسأله عما يعانيه الفلاحون ، وقال والثورة تملأ جوانحه ، إن المظالم الاجتماعية أصبحت لا تطاق بحيث غدا لزاما على الجماهير اليائسة أن تستولى على مقاليد الأمور ، وعندئذ ينهار كل شىء فى بحار من الدم والنيران .

وأسهم تيتو بطبيعة الحال فى هذا الحديث ، أعنى فى شىء من الاعتدال ، ذلك أنه بعد أن رأى النتائج التى أسفرت عنها اتصالاته بالمجتمع الراقى لم يعد يميل إلى الإسراف فى الكلام .. لقد تحمس أشد حماسة من أجل نادينا ، فقد بدت فى ناظريه أفتن النساء قاطبة ، والظاهر أنها قد مالت إليه ، رغم أنها لم تعره التفاتا كبيرا . فلم توجه إليه إلا كلمات قليلة حتى فى السيارة ، حيث أخذت تتحدث مع رءول بروملرو طوال الوقت بالفرنسية .

وذهب صباح الأحد إلى سترادا أرجنتارى فى زيارة إلى جوجو أيونيسكو .. وصحيح أن جوجو قد وعده بتدبير عمل له فى مدى أربع وعشرين ساعة ؛ ولكن لا بأس إطلاقا من أن ينتهز هـــذه الزيارة التقليدية التى يقوم بها مجاملة ، ليذكره بوعده .

وصاح النائب مزهوا : « لقد تم كل شيء . . وفى مقدورك أن تذهب غدا ، وتقدم نفسك إلى جريدة « درابلول » ، وتشرع فى العمل . . سل عن السيد ديليكينو، ولا تنس هذا الاسم ، فهو رئيس التحرير . . قل له إننى أرسلتك . . أما المرتب فهو ليس بالمرتب الكبير ، ولكنى سأعمل على أن يتحسن فيما بعد . »

وغمغم تيتو ببضع كلمات امتناناً وإعجاباً ، فقد انعقد لسانه من فرط الدهشة والفرح . . أما جوجو فكان يحب أن يكون موضع إعجاب ، وهو لهذا ، عندما ظهرت يوجينيا ، ولم يكن قد قص عليها شيئاً من هذا كله حتى يأتيها الأمر بغتة ، أخذ يحكى بلذة فائقة جميع تفاصيل الحملة التى شنها ومراحلها . . قال إنه لم يشأ ، وهو النائب المحترم ، أن يذهب ، والقبعة فى يده ، إلى جريدة «أديفارول» أو « يونيفرسول » ، فيخاطر بمقابلة قد يبوء منها بالرفض ، بينما هناك الجريدة التى تتبع حزبه هو ، ثم إن ديليكينو زميل له فى مجلس النواب ، فضلا عن الصداقة الشخصية التى تربط بينهما . . . واستقر رأيه على الذهاب إلى ديليكينو . . . وكان الرجل لطيفا ، ميالا إلى تقديم العون ، فوافق دون مشقة ، ولكنه أحاله على المدير التنفيذى — ومن ثم ذهب هو لمقابلته . . . ولكن اللقاء كان فاتراً كئيبا . فقد كان المدير التنفيذى يهوديا بدينا ، يلبس نظرات ذات حواف ذهبية . . . وبدأ الرجل يثرثر كلاما نظريا ، ويتحدث عن الأرقام . فقال « إن تكلفة الجريدة تجاوزت المقدار ، وإن توزيعها ضئيل للغاية ، رغم أسلوبها الأدبى الرشيق ، ولكن القراء هذه الأيام لا يتذوقون البلاغة والأدب ، وإنما هم يعنون بالجرائم والفضائح ونحوهما » .

قال جوجو : « وبعد ساعتين من الكلام تملكنى الغضب . . . فنهضت من مجلسى ، ووضعت يدى فى جيبى ، وقلت فى حزم : لا يهمنى هذا كله ، وإنما أنا أريد ترضية وإلا . . . . ، ولقد أفلحت هذه الحيلة ، إذ أجاب الرجل : « حسنا يا سيدى . . إذا كان هذا هو مرادك ، فأنا لا أملك غير الخضوع والامتثال . »

وبطبيعة الحال لم يخبر جوجو المستمعين اللذين كانا يصغيان إليه بإعجاب بأنه حين ألقى يديه فى جيبه ، أخرج محفظته ، ودفع مرتب صاحبه ستة شهور مقدما ؛ وقد قيد المبلغ بوصفه هبة من النائب أيونيسكو .

وربتت يوجينيا عليه ، وهنأته فى رقة؛ وهكذا أسهمت هى الأخرى فى تضخيم رضاه عن نفسه ... وبعدئذ أعرب للشاب عن أطيب التمنيات ، ودعياه إلى تناول الغداء ثانى يوم يقوم فيه بالعمل فى الجريدة .

وهمس جوجو متفكها ، وهو يودع ضيفه حتى الباب : « أرجو أن تذكرنى فى مقالاتك من آن إلى آن .

وكان تيتو يتلهف على رؤية نسخة من جريدة « درا بلول » . فهو لم يطلع قط على هذه الصحيفة أو سمع بها ... وحاول أن يعثر على نسخة منها فى عشرة أكشاك للصحف ، حتى أتيح له أخيراً أن يجد واحدة ، ففتحها على الفور ، وجعل يقرأها بدقة . . . وبدت الجريدة فى نظره تافهة ، فارغة ، سخيفة ، كأنها خطبة برلمانية . . وخاب فأله لحظة ، فقد كان يأمل فى جريدة من نوع آخر ... ولكن ما حيلته ؟ حسبه هذا بداية يبدأ بها .

فلما بلغ غرفته جلس يتصفح الجريدة مليا ، من العنوان إلى اسم الناشر ، حتى يألف الأسلوب . . . وإذ هو يشق سبيله خلال مقال ممل كتبه أحد الشيوخ ، طرقت جينتسا بابه . . « تعال لحظة يا عزيزى أعرفك بأختى تانتا . . لقد أطنبت لينوتا فى مديحك . »

وكانت السيدة الكسندريسكو تريد أن تتحبب إلى أسرة جينتسا ، فأخذت تلتمس الخطاب لتانتا ، فقد كان والدا الفتاة فى شغل حول مستقبل ابنتهما ... وهى فتاة لم تكن تملك من عرض الدنيا غير طلعتها الحلوة . . وكان تيتو فى تلك اللحظة هو الذى وقع عليه اختيار السيدة صاحبة الدار ، فهو يدفع أجر غرفته بانتظام ، وهو شاب حسن المسلك ، يختلط بعلية القوم ، ومن يدرى ، فربما لكونه صحفيا ، قد يصبح نائبا مثل كوستيل بيتريسكو الذى زامل زوجها فى المدرسة الحربية .

وهتفت السيدة الكسندريسكو فى لهجة سكرية : « أرأيت هذا الملاك الذى هبط علينا ياسيد هيرديليا »

وتضرج وجه تانتا ، كانت طويلة نحيلة ، وكانت ذات عيون ندية خضراء

متألقة .. وبهر الشاب لحظة ، الأمر الذى لحظته السيدة الكسندريسكو راضية .. وبعد عدة لحظات قالت فى لباقة : « حسنا ، لابد لنا أن نذهب الآن .. فنحن كما ترى ، قد اتخذنا أهبتنا للخروج .. وكنت أريد أن تلقى عليها نظرة لتدرك ما هى عليه من حسن .. ولكن لا تحزن ، فأنا أعدك بأن أصحبك يوما إلى بيت أسرتها ، وتستطيع هناك أن تطارحها الغرام لو شئت » .

وعاد تيتو إلى مقال عضو مجلس الشيوخ ، وطالعته بين السطور عينا تانتا الخضراوان ، ورأى شفتيها الباسمتين ، فاستخفه الوجد .

وذهب فى الغد إلى مقر الجريدة .. وقاده صبى إلى سكرتارية التحرير . وإذا به يجد فى إحدى الغرف الكبيرة رجلا كئيبا ، غير حليق ، على عينيه نظارات ، قد جلس وحده يقلب فى كوم هائل من الصحف التى بسطها أمامه على طاولة كبيرة ، وكان فى يده مقص ضخم .. ونظر الرجل إلى الزائر ، ثم واصل عمله . فلما انتهى منه ، أزاح بقايا الجريدة ليفسح لنفسه مكانا .. وعندما سمع أن هيرديليا كان يبحث عن ديليكينو ، قال فى صوت شابه الملال : « رئيس التحرير لا يوجد بالمكتب غالبا . فهو لا يأتى إلا لماما ، ولا أعتقد أنك تعثر عليه فى يسر . أما إن أردت أن تنشر شيئا فى الجريدة ، ففى مقدورك أن تتكلم مع رئيس التحرير المساعد ، وسوف يحضر عما قريب . أو تستطيع أن تتحدث معى بشأنه لو شئت .. »

وشرح له تيتو جلية الأمر ، فأشاح السكرتير برأسه استخفافا ، وقال : «هيه — إنهم لا يكفون عن المجىء .. إن لدينا من الصحفيين أكثر مما لدينا من القراء ! .. ومع هذا فأنا لا أدرى ماذا يكون الحال لو لم نستعمل المقص فى السطو على الجرائد الأخرى ! .. وأنت لترى الدار أشد ماتكون ازدحاما يوم دفع المرتبات ، أما عندما تريد مقالا ، فإنها لا تجد من يكتبه .. على أية حال الموضوع كله فى يد هيئة التحرير ، أما أنا فقد نفضت يدى من الأمر كله منذ عهد طويل ! »

وخط الرجل شيئا على رقعة من الورق ، حتى يتأكد من أن هيرديليا كان صادقا فيما قال ، ودفع بها مع رسول إلى المدير الإدارى .. وسرعان ما جاء الرد ،

فاستأنف السكرتير حديثه ، قال : « كل شيء على ما يرام . . نعم ، أنت موظف عندنا . . ولعلك تستطيع الكتابة كذلك !! » .

وبعد حين انطلق السكرتير على سجيته — كان يعتبر نفسه أكفأ سكرتير تحرير فى رومانيا ، وكان يضيق حين يجد الآخرين لا يشاطرونه هذا الرأى . . وكان يكره أن يجد نفسه مضطرا إلى العمل كالعبد الرقيق ، فى جريدة حقيرة مغمورة ؛ أما غيره ، وهم لا يساوونه كفاءة ، فيزدادون سمنة ويجعلون لهم ذكرا فى الصحف الواسعة الانتشار . . وعهد السكرتير إلى هيرديليا ، وهو الذى وفد من ترانسلفانيا ، مهمة جمع الأخبار من الصحف الألمانية والهنغارية عن رومانيا والرومانيين الذين يستوطنون فيها ؛ وقدم إليه من فوره كوما من الجرائد التى لم تمسسها يد من قبل . . . وما كان أحد فى الجريدة يعرف لغة أجنبية غير الفرنسية ، ولهذا لم يكن فى وسع أحد غيره أن يقرأها . . ولا بأس من أن يأخذ هيرديليا هذه الجرائد إلى بيته لو شاء ، فيطلع عليها حيثما يحلو له . . كذلك لا ينبغى له أن يسرف فى الكتابة ، فالجريدة الغراء فى حاجة إلى مقتطفات شيقة موجزة . . ولكن من الأسف أن درابلول . . ولكن يحسن بتيتو ، علاوة على ذلك ، أن يكتب المقال الافتتاحى مرة على الأقل كل أسبوع — وينبغى له أن يحاول فى هذا المضمار . . ذلك أن هؤلاء السياسيين الأغبياء قد أغرقوا السكرتير بمقالاتهم الثقيلة البغيضة . . ولكن لا ينبغى لتيتو أن ينسى أن الجريدة هى لسان حال الحكومة ؛ ولهذا يجب عليه أن يلتزم الحذر ، وبخاصة لأن الحزب ، بصرف النظر عن زعيمه الحالى ، به طائفة كبيرة من الطاعنين الذين كانوا يشكلون معارضة خفية فى داخله ، وكانوا دائما يتلهفون على سقطة يستغلونها عند قيادة الحزب الرسمية .

وختم السكرتير حديثه فى ود قائلا : « هكذا تسير الأمور ، يا صديقى العزيز ! . وفى وسعك أن تشتغل بالبيت حتى تألف صناعة التحرير . . ولكنى أرجوك أن تأتى دواما فى الصباح إذ ربما أحتاج إليك ! » .

وكان اسم الرجل روزو .

وعاد تيتو إلى البيت مباشرة ، فحبس نفسه فى حجرته ، وبدأ العمل بهمة . . قال يحدث نفسه إن الأبواب كلها مفتوحة أمامه الآن ، وكل ما هو فى حاجة إليه

هو المثابرة والعزم الذى لا يفتر أبداً .. وكانت السيدةالكسندريسكو قدذهبت فى صحبة جينتسا لتلعبا الورق معأهله .. وخيم السكون على أرجاءالبيت ، ولم يقطعه بين الحين والحين إلا صيحة طفل ، أو سباب ينبعث من الفناء الخارجى ، بما فيه من سكان كثيرين .. فلما أقبل المساء ، وكاد أن ينتهى من الكتابة ، سمع وقع أقدام فى الردهة .. وخطر فى باله أن هذه لابد أن تكون تلميذته ماريورا .. فأسرع إلى الباب يرحب بها ..

قالت ميمى فى صوت هادئ : « هل أبى بالبيت ؟ » .

وبغت الشاب وأجاب : « لا ، هى غير موجودة .. ولكن .. ولكن تفضلى .. تفضلى بالدخول . »

وتلاعبت شبه ابتسامة على شفتى الشقراء ، وقالت : « لا بأس من إلقاء نظرة على عش الشاعر ! » .

وتأججت عواطف تيتو ، وقبل يدها أكثر من مرة .. وطلب إليها أن تمكث عدة دقائق ، إشباعا لرغبته فى التطلع إليها ، فهو منذ أن التقى بها ذاك اليوم لم تغب عن ذهنه أبداً .. وقاطعته ميمى كأنما هى قد أعارته أذنا واعية ، أو كأنما كانت تعرف مقدما ما سوف يقول ..

« كانت هذه غرفتى قبل أن أتزوج .. وتعودت عندما أعود إلى البيت فى العطلات المدرسية أن أنام هنا .. ولم تكن أمى فى تلك الأيام تؤجر هذه الحجرة أبداً .. كم من أحلام رائعة حلمت بها فى هذا السرير الصغير ! .. »

وتشجع الشاب ، ودعاها إلى أن تخلع عنها معطفها ، وهو يتمتم فى أثناء ذلك : « لا تخشى شيئا .. أنا لا أعض .. حقيقة أنا لا أعض .. »

وتضاحكت ميمى وقالت : « طبعا أنت لا تعض .. ثم أنا لن أسمح لك — أن تترك آثارا على !! » .

وخلفته ، وتركت وراءها بسمة تعبق فى جو الغرفة .

— ٢ —

كان هذا الموسم أغنى مما سبقه من مواسم وأبهج . . وطارت نفس ناديننا ابتهاجا . . فقد كان هناك فى غضون شهر نوفمبر وحده ، افتتاح البرلمان ، وحفلات إليونا دومى وفيرودى ، هذا فضلا عن حفلات بادوروسكى الراقصة.. إنها حقا قد ابتاعت لنفسها عدة أشياء من باريس ، إنها لا تملك فعلا ملابس ألبتة ، بالمقارنة إلى مجموعة الاحتفالات التى يتحتم عليها حضورها .

وكان جريجور قد أجل موعد عودته من الريف يومين ، لأن أباه لم يأذن له بالذهاب قبل قفل الحساب ، وبذلك يتسنى للوالد أن يعيش فى سلام إلى شهر فبراير.. ولم يجد الشاب غضاضة فى ذلك ، فقد قرر أن يقضى الشتاء كله مع نادينا فى العاصمة .

« أخيرا ! ! » قالتها عندما سمعت بالقرار الذى اتّخذه .

وطلبت إليه من فورها أن يحجز لها أحسن مقصورة فى جميع الحفلات التى تم الإعلان عنها ، وأعلنت أنها لو تخلفت عن حفلة من هذه الحفلات فستعتبرها وصمه عار تمس كبرياءها . . واشتد التعب بزوجها وهو يجرى هنا وهناك ، وأرادت أن تخفف عنه هذا العبء ، فكانت تقول أحيانا : « لو كنت قد تعبت من اللف والدوران فدع رءول يذهب ، فهو يجيد هذه الأمور . . »

وعندئذ لا يلبث جريجور أن يعترض بأنه ليس تعبا على الإطلاق — وإن كان كذلك فى الحقيقة . — على أنه كان يلتمس وسيلة يبعد بها رءول عن مصاحبة نادينا بطريقة أو بأخرى . . لا لأنه كان غيورا ، فيما قال لنفسه ، ولكن لأن الرجل كان فى غاية السخف والعباء . ثم إن هذا الحب الوليد فى نفسه لا ينبغى أن يفسح مكانا للغيرة ، بل من واجبه أن يكون لها زوجا وعاشقا فى آن واحد ، تماما كما تفعل هى ، حتى يتأتى له أن يحتفظ بها فى عصمته .

أما نادينا فقد غرقت فى دوامة مشاغلها الاجتماعية ، وغفلت عن الجهود التى بذلها زوجها ، وإن كان من الحق القول بأنها ما كانت لتلحظها فى ظل أية ظروف

أخرى . . نعم لقد كان من الأمور الطبيعية أن يشغف بها كل إنسان حبا . . هذا أمر محتوم ليس منه فكاك ؛ وقد تعودت عليه طوال حياتها كلها ، وبدأ أول مابدأ مع أبيها الذى تدله فى حبها ، بل إنه حتى الساعة لتنبسط أسارير وجهه عند مرآها. والواقع أنها ما كانت تعرف أى ضرب من الحب ألبتة ، اللهم إلا حبها لنفسها ؛ فهى ما كانت تصد نفسها عن شىء ، لأنها كانت تعتبر كل شىء حقا مباحا لها . . بل إن لذة الاستسلام للغواية ماكانت تعرفها ، لأن كل شىء يبدو نتيجة طبيعية لجمالها . . وهى ماكانت خائنة لجريجور فى اللحظة التى تغلبها فيها العاطفة شأنها عندما تدخن لأنها تميل إلى مذاق الدخان . . وإنما كانت تأتى بهذه الأشياء لأنها تريد أن تجرب كل شىء فيه مغالاة ، سموا بنفسها عن غيرها من النساء ، واستعلاء عليهن . . وكانت فى أحيان كثيرة تتأمل جسدها العارى فى المرآة ، فتتيه إعجابا لما حوى من فتنة وسحر .

وكان رءول ، بالنسبة لها ، مجرد نزوة طارئة ، أو حلية تافهة تتحلى بها كل سيدة أنيقة ، شأنه شأن جرو صغير أو تعويذة تجلب السعد . . ولقد تدله فى هواها أمداً طويلا ، كما فعل الكثيرون غيره ، فتقبلته فى النهاية ، لا عن حب ، وإنما لأنها لم تعد تعبأ أو تبالى . . . وكان الناس يرون فيه فتى لطيفا ، وهو من جانبه كان يعاونها فى أمور كثيرة . . وكانت ترتاح إليه أكثر مما ترتاح إلى جريجور الذى كانت لاتزال تكن نحوه شيئا من الاحترام، ولو أنه كان احتراما من الوجهة المعنوية باعتباره زوجها . . أما مع رءول فهى ماكانت تحس بالحاجة إلى تصنع العاطفة ؛ بل ماكان هو يتوقع منها شيئا، غير ماتلقيه إليه من فتات المائدة . وكان على وجه الخصوص يزاملها فى الرقص ، فكان بهذا الوصف ، ذا نفع كبير.

أما جريجور فكان يحس بتقزز غريزى إزاء الرجال الذين هم على شاكلة برومارو. وكان يحتقر الرجل ، ويشعر شعوراً صادقاً بأن نادينا تحط من شأنها إذ تأذن له بمصاحبتها . ولقد أنحى باللائمة على نفسه إذ ترك الأمور تمضى إلى هذا الحد ؛ ورأى من واجبه أن يناهضها ، لا بالنقار والمشاحنات ، فهذا ماكان يزيدها إلا عزما على الاستمرار فيما هى فيه ؛ إنما ينبغى أن يكون حبه لها عاما شاملا متفانيا .. وإيته كان قد فهمها منذ البداية ، ولو فعل لما ضاعت عليه أربع سنوات من السعادة،

ولما اتسعت الهوة التي تفصل بينهما هذا الاتساع الذي يضطره الآن إلى بناء القناطر فوقها . .

وفي اللحظة التي اعترف فيها بغلطته ، استقر رأيه في الحال على أن يسحو تعويضا عن الماضي كله . . . نعم ، لا مناص من أن يعمل على حماية نادينا من كل فتنة ؛ لا بإزاحتها من الطريق ، وإنما بوجوده هو ، وبإشباعها بنفسه . . . ولما أدرك متاعبها المالية عرض عليها أن يتحملها عنها ، وفسر الأمر تفسيرا يطرى مشاعرها قائلا : « أنا أريد أن تكون زوجي أفتن النساء . . »

ولم تصدق نادينا سمعها . لقد ألفت حقيقة، هي أنه ، بطريقة لبقة ، ولأسباب لها ما يبررها ، كان لايهتم بحياتها الاجتماعية كثيرة التكاليف . . ومع ذلك فقد ردت عليه في صوت سلس : « هذا جميل منك ياحبيبي ، وأنا أشكرك جدا ، غير أني أخشى أن يبعث المبلغ في نفسك ذعراً . . »

«ما من مبلغ يبعث في نفسي الذعر،إن كان من أجلك ! » قالها جريجور بنظرة تأججت ولها وخضوعا .

وكان الزوجان في هذا الوقت يأتيان بأشياء لم يأتيا بها في أثناء فترة زواجهما كلها ؛ فهما على سبيل المثال يتناقشان مناقشة جدية في موضوع ملابسها ، وكانت تطلعه على أحدث الطرز التي تظهر في محلات الأزياء ، فتشرح له دقائق تفصيل الثوب ، ونوع القماش ، وما يتطلب من ملحقات . . . وكان بدوره يبدي اهتماما عميقا ، ويتناول الموضوع في جدية تامة كأنما الأمر مشكلة حيوية خطيرة . . . ويمضي النقاش بينهما أياما ؛ وتكشفت نادينا ، والدهشة ملء نفسها ، أن له ذوقا ممتازا في أزياء النساء ، كما أن له آراء مبتكرة طريفة .. ثم قالت على غرة : « كنت أحسب أن الزراعة همك الوحيد ، وأنا أرى الآن أني كنت على خطأ .

وابتسم جريجور قائلا : « لقد أصبحت أنت همي الوحيد منذ أن التقيت بك . . أنا أيضا أخطأت ، عندما اختلفت معك . . »

وبعد أن قضيا في بوخارست أسبوعين ، حضر بلاتامونو لزيارتهما . . .

وترددت ناديننا أول الأمر فى مقابلته . . . فهى ، بعد أن تقدم جريجور لمعاونتها ، لم تعد فى حاجة ماسة إلى عون من الملتزم ؛ ثم ليس من شك فى أن جوجو سيسمح لها بأن تؤجل سداد الدين الذى استدانته منه وهى بالخارج .

وبدأ بلاتامونو فأدلى بالسبب الذى دفعه إلى الشخوص إلى بوخارست . فهو قد انتهز فرصة مجىء ولده لتسجيل اسمه بالجامعة ، فصحبه بقصد أن يبدد سحابة سوء الظن التى نشأت بينهما . . . ولقد دبر الصبى شئونه على وجه السرعة ، وعزم على أن يعود مباشرة إلى القرية ، حتى يتمكن هناك من أن يعكف على الاستذكار على نحو أفضل ، ويعد نفسه للامتحانات التى لابد له من اجتيازها بعد عيد الميلاد. هكذا وجد بلاتامونو فسحة من الوقت ليهتم بشئونه هو . . . ولقد بذل جهدا جهيدا ، فاستخلص نصف إيجار الربيع ، وأتى به آية على أنه يفعل المستحيل استرضاء للسيدة نادينا . . . على أنه يريد أن يطلب منها معروفا بسيطاً ، وهو على ثقة من أنها لن ترفض طلبه ، نظراً لإخلاصه وتفانيه فى خدمتها ... وكان المعروف بطبيعة الحال عن باباروجا .. لقد سمع السيدة نادينا نفسها تقول إنها لا تنوى فى الوقت الحاضر أن تبيع الضيعة . . ومع ذلك فقد استمرت الشائعات تتردد ، كما أنه سمع من الفلاحين أن الشريف ميرون يريد شراءها أيضا . . أو تسمح له كذلك أن يعرب عن رغبته فى شراء العزبة أيضا . . . وبعد فهو يرجو منها ، وهى تقر باستلام دفعة مقدما عن ريع السنة القادمة أن تذكر أن هذه الدفعة تعتبر ضمانا ، على شرط أن يكون العرض الذى يتقدم به مقبولا لديها وأحسن من غيره من عروض . . . وهذا الإجراء بالنسبة لها ليس إلا مجرد إجراء شكلى ؛ أما بالنسبة له فهو نوع من الكفالة المبهمة ، ولكنها لا تقدر بمال ، باعتبارها دليلا على تقتهافيه ، واعترافها بخدمته وتفانيه.

وأصغت إليه نادينا دون مقاطعة . . . كان كل همها أن بلاتامونو قد جاء لها بمال . . . وكانت قد تعلمت من أبيها أن رفض المال حرام . . . أما المعروف الذى سألها الملتزم إياه فلا قيمة له ، لأنها لا تنوى البتة أن تبيع باباروجا . . بل إن عملية البيع تبعث على الضجر أكثر من عملية التأجير . . ثم ما أكثر المشاكل التى نشأت لمجرد التلميح برغبتها فى البيع .

وسألته : « من أين جاءك أنى أريد بيع عزبتى ؟ لقد أخذ كل واحد يقول

إنى أريد بيعها ، وأخذ كل واحد يتقدم لى بالعروض .. وأنا الشخص الوحيد الذى لا يدرى عن الموضوع شيئا .. ولعل من العدل أن أعرف أنا أيضا شيئا عنه كذلك .. أنت رجل عاقل ياسيد بلاتامونو ، ولابد لى أن أقول لك كلمة صريحة أنا لن أبيع الضيعة ، وليس فى نيتى أن أبيعها ، أؤكد لك هذا . . أهذا واضح ومفهوم » ؟

« إذن هذا الطلب الصغير الذى تقدمت به لن يضايقك على الإطلاق » قالها بلاتامونو فى نعومة ، وقد جال بخاطره ألا شىء يمكن أن يكون واضحا ومفهوما مع النساء ؛ ومن يدرى ، فربما الشىء الذى رغبن فيه بالأمس ، ورفضنه اليوم ، قد يتقبلنه فى الغد .

وقالت دون مبالاة : « حسن .. لابأس فى ذلك إن كنت ترغب فيه .. لقد أردت فقط أن أحذرك حتى لاتأتى فيما بعد وتقول كيت وكيت ! »

وأخبرت جريجور بعد ذلك بما حدث .. لم تكن بهما رغبة فى إخفاء هذه الأمور عنه ، وخاصة لأنها الآن تملك قدرا كبيرا من المال ، ومن ثم ستقل التكاليف التى يتكبدها . . وقال جريجور ، كما سبق له القول مرارا ، إنها حرة التصرف فى دخلها كما تهوى ، وإنه لايريد أن يقحم نفسه فى شئونها ، ولكن من رأيه أنه ما كان لها أن تبذل أى وعد لبلاتامونو . . لماذا تغلل يديها مستقبلا ؟

وأسفت ناديا على أنها قصت عليه الأمر ، ما كان فى ذلك جدوى .. لأن جريج متحذلق يثير الغيظ .. ولحظ جريجور ضيقها فأسرع يقول : « ربما كنت أغالى . . . ولكن لاتغضبى منى ياناديا . . . هيا ابتسمى . . إن ابتسامتك هى حياتى ! » .

— ٣ —

« من أسف أنك لاتعرف القراءة ياشيريلا ، تعال هنا وانظر إلى هذه ! ! »

وكان مكتب الضيعة يشغل غرفة صغيرة ، بها منضدة من خشب الصنوبر ، وبضعة كراس لامساند لها . وكان المكتب فى نفس المبنى الذى به نزل الخدم .. وأخرج بلاتامونو من محفظته المتضخمة رقعة من الورق الأبيض ، ولوح بها أمام عينى المشرف ..

وصاح فى نشوة : « أترى إلى هذه القصاصة من الورق ياشيريلا ؟ هذه هى باباروجا يابنى ! ! انظر إليها ... تستطيع أن تقول للناس ألا يضيعوا وقتهم وهم يحومون حول بيت الشريف بعد ذلك ! .

فقال شيريلا باحترام : « أسبغ الله عليك الصحة لتستمتع بها » .

فأجاب بلاتامونو : « ربنا يسمع منك !! أنا ياشيريلا قد عملت طوال حياتى ، ومن حقى أن أنال فى شيخوختى قطعة من الأرض .. وأنا لا أكف عن العمل ، ولو بالليل ، وأنك لتعلم هذا جيدا .. وأنا أكد وأكدح ولا أتوانى عن مساعدتكم — لا كالأشراف الآخرين الذين يحتسون القهوة فى شرفاتهم ، ويتوقعون إن يتساقط كل شىء عليهم رطبا جنيا دون تعب أو جهد .. ومع ذلك فالناس لا يرحموننى ، بل يحاولون أن يدفعونى جانبا .. هل هذا عدل ؟ قل لى بربك ياشيريلا ، فأنت رجل عاقل !.

قال المشرف : « إن الناس لا يخاصمونك ياسيدى .. ولكنهم كذلك لا يملكون أى قطعة من الأرض ؛ ولهذا تراهم يعملون بكل مافى طوقهم من جهد » .

فقال الملتزم وهو يطوى الورقة : « أنا لا أنادى بحرمانهم من الأرض ؛ أنا لا أقول بهذا .. ليأخذوا مايريدون من أرض ياشيريلا ، ولكن لماذا يقع اختيارهم على عزبتى ؟ » .

وكان اليونانى قد انتظر أمداً طويلا ليخوض فى هذا الموضوع .. فقد كان ينحى باللائمة على الفلاحين الذين ظهروا أمام نادينا خصوما ينافسونه .. والظاهر أنه هو نفسه ما كان يعزى قيمة كبيرة لهذا الإيصال الذى فى حوزته ، وإنما استخدمه تعزيزا لمركزه فى عيون القرويين . كذلك كان فى حاجة إلى الطمأنينة يدخلها على نفسه فى الوقت الراهن بسبب أرستيد ، فالولد شاء أن يعود معه إلى القرية ، بدلا من أن يبقى فى بوخارست ويستمتع بوقته ، فامتلأت نفس بلاتامونو قلقا ، وبخاصة لأنه لم يستطع أن يخفف عن نفسه ، فيفضى بالأمر إلى زوجه ، فقد كانت شخصيته ضعيفة .. وكانت علة قلقه أن يكون ابنه قد وقع فى أحبولة

فتاة من هذه الأنحاء ، أو أتى بحماقة من الحماقات ، ومن ثم يقضى على آماله فيه . وكان أرستيه كتوما جدا لايسر لأبيه بشىء . . وأحس بلاتامونو ، بوصفه والدا ، أن من المحال عليه أن يسأله فى ذلك ، ولعل هذا هو الذى آثار الضيق فى نفسه .. واختلج فؤاده غما ، وتوجست نفسه شرا .

وكان شيريلا يتحرق شوقا على إذاعة الخبر الذى تلقاه من بلاتامونو . كان من العسير عليه أن ينصرف عن عمله فى جليجانو خلال الأسبوع ؛ ومن ثم كان يتعين عليه أن يصبر حتى يقبل يوم الأحد ، فيسرع إلى بيته فى آمارا ، فينظر فى أموره ، ويزيح عن كاهله ما حمل من أسرار . . وأوقف الرجل عربته أمام جان وزوك ، حيث كان يتجمع الناس دائما بعد الكنيسة ، وتدلى منها ، وبعث بزوجه وابنته إلى الدار ... وكان الناس واقفين أمام المبنى ، يدرءون عن أنفسهم المطر ، وقد أخذ كل منهم يقص على صاحبه متاعبه وأشجانه . . وحياهم شيريلا ثم ولج الحان...كان لوكا تالابا واقفا وسط الجمع ، يحاور العمدة ، أما الآخرون فما كانوا يتكلمون إلاقليلا . فلما رأى شيريلاهتف فرحا ، كأنما وجد فيه حليفا موازرا : « لقد أرسلك الله أخيرا ياشيريلا . . فأنت لابد تعرف أن ... »

وانتهزها صاحب الحان فرصة لينظم شمل زبائنه ، قائلا لماذا : تقفون جميعا هكذا ، وتسدون الطريق ، وتحولون بين الناس وبين المرور.. اجلسوا إلى الموائد فلن يعضكم أحد ، وأنا لن أتقاضى منكم أجراً — هيا تعالوا هنا .. تفضل ياسيدى العمدة وتقدم الجمع ، فسوف يتبعك الآخرون . . »

واستطاع أن يجعل كل واحد يتخذ له مقعداً ، ويتناول شرابا آخر الأمر..

وكان أيون برافيلا ، وقد ازداد شراسة ، يتحدث عن باباروجا ، قائلا إن من الظلم أن نرى أولئك الذين أنعم الله عليهم بالثراء يحصلون على مزيد من الأرض ؛ أما الفقراء فيظلون فى شقائهم يعمهون .

فقال لوكا يحدث شيريلا بون وهو مغيظ : « أرأيت ، هكذا يمضى فى الكلام ساعات وساعات كل مرة ! »

فقاطعه غوغو قائلا: « أنا أتفق مع العمدة ... ولا أظنك على صواب ياعم لوكا ... هذا رأيي حقا ... والسبب أنك لو حاولت أن تشترى الأرض ، فكيف إذن تتوقع من جلالة الملك أن يعطيك شيئا منها ؟» .

وغمغم القوم استحسانا ، فتساءل تالابا بفظاظة : « ومن أنبأك بأن الملك سيوزع الأرض على الشعب ؟ ».

فرد تريفون زاجرا : « لقد سمع كل واحد بهذا ماعداك ! » .
« يجب عليه أن يوزع الأرض، وإلا متنا جوعاً » أضافها بصوت عميق مختنق فرن فى الخان كأنما قد انطلق من باطن الأرض .

وأدرك لوكا تالابا أن الأغلبية كانت تقف ضده ، فغير من لهجته ، قائلا : « ليت ماقلت يتحقق ؛ ولكنى أعتقد أننا لن ننال أكثر من الكلام ؛ أما غيرنا من الناس فيحصلون على الأرض ... وأنا عندما أحارب فى هذه المعركة ، هل أحارب من أجل نفسى فقط ياتريفون ، أم من أجل الجميع ؟ ... على أنه مازال فى مقدورى أن أشق طريقى على نحو ما ، شكرا لله ... ولكن الذى أقصده هو لماذا يأخذ الغير العزبة التى نعمل فيها ؟ لماذا لا نملكها نحن جميعا ؟ أنا لا أطلب تقسيمها بينى وبين ماران ستان فقط ؛ بل نشترك فيها جميعا ، إيحنات وتريفون وكل من يريد شيئا منها ... إن كل مرادى هو أن يعاوننا الله على أن نضع أيدينا عليها ؟ .. أخبرونى بربكم ، ألا تظنون أننى على صواب ؟» .

وطال النقاش أمداً طويلا ... وارتسمت على فم العمدة ابتسامة متعالية ؛ فقد آلمه أن القوم انصرفوا عنه .. على أن شيريلابون شعر بالارتباك ؛ فقد أراد أن يقاطع لوكا عدة مرات ، ولكن قلبه لم يطاوعه إذ رآه جياشا بالأمل ... وفى النهاية ذكر أحدهم أن اليونانى قد ذهب إلى بوخارست يلح فى طلب بابا روجا وعندئذ شعر شيريلا أن الوقت قد حان ، ثم قال : « نعم ، لقد ذهب فعلا ، ولم يخرج صفر اليدين » .

وغاض حماس لوكا فجأة ... كذلك جاء بوزوك ، وكان يقف وراء البار ، فلحق بهم ليستمع إلى مايقولون .

وحكى لهم شيريلا الخبر الذى تلقاه عن بلاتامونو ، فقال برافيلا فى غضب : « لما لم تخبرنا بذلك أولا ، بدلا من أن تدعنا نمضى فى الخصام والجدل ، فى حين أن اليونانى يملك الورقة فى جيبه ؟ » .

وزمجر القوم غضبا كذلك . . أما العمدة فقد تناسى الإساءة التى لحقت بمنزلته فقال والقلق يعصف به : « حسن . . . »

ولكن لوكا تالابا نهض عندئذ غضبا عنه . كأنما قد أثرت الصدمة فى صوته وملامحه ، فقال وهو يكز بأسنانه : « إنهم لن يظفروا بها . . بل سنقف فى وجوههم ! »

وساندته أصوات أخرى ؛ بعضها فى هدوء ، وبعضها الآخر فى عنف . . . « نعم ، سنقف فى وجوههم ! »

— ٤ —

لبست العاصمة ابتسامة بهيجة . والأعلام المثلثة الألوان ترفرف على جميع مبانيها الرئيسية . . . وكان « ميدان النصر » قد انتثر رملا أصفر — وأخلت الجماهير الغفيرة أرصفة الشوارع . وبزغت الشمس من خلال السحب ، فأطلت بأشعتها الذهبية فى فتور . . . وتهادى الموكب الملكى فى تؤدة ، واتجه ناحية القصر الواقع على « تل العاصمة » وأخذت سنابك الخيل التى تواكبه تصطك على الطريق . . . ووقف على العربة الأولى رئيس الشرطة منتصب القامة ، وقبعته العالية على مؤخرة رأسه ، وهو يلوح بيده فى عنف . كأنه ضابط إيقاع حاد الطبع ، بينما هو يتطلع إلى الوراء بين الفينة والفينة .

أما داخل القصر ، فكان مجلس النواب يدوى بالطنين كأنه خلية نحل . . . وامتلأت الشرفات بالسيدات ، وكان منظرهن أشبه بصفوف من الأزهار متعددة الألوان . . . وتلألأت الماسات كأنها قطرات ندى الصباح على أوراق الزهر الناعمة . . . وكانت شرفة رجال السياسة تعج بالملحقين العسكريين فى ثيابهم الرسمية ورؤساء البعثات الديبلوماسية فى أزيائهم الدولية التى يلبسها أهل حرفتهم .

وكنت ترى فى كل مكان بذلات السهرة ، والرءوس الصلعاء ، والنياشين . .

وامتدت مئات الأيدى تتصافح وتتبادل التحيات ... وكان أمام منصة الرئيس جمع من النواب ... وبين الحين والحين يأتى أحد ممثلى الأمة ، فيتطلع ببصره إلى عل ، بحثا عن ضيوفه فى الشرفة ، أو ليرسل قبلة فى الهواء لسيدة تبتسم .

وهتفت يوجينيا تحدث نادينا التى طبعت على فمها ابتسامة لطيفة : « انظرى هذا هو جوجو ! »

وكان جوجو أيونيسكو ، وهو واقف بالقاعة ، يأتى بعدد من الإشارات غير المفهومة ، وهو هاش باش ... وافترضت نادينا أنه يتساءل عن مدى رضاهم على المقاعد التى حصل عليها من أجلهم ، فردت عليه بحركة صامتة من شفتيها ، كأنما تقول : « جميلة جداً ، شكرا لك ... أنت رائع ! »

واختفى جوجو بين النواب ، ولكنه ما لبث أن عاد وهو يمسك بذراع رءول برومارو .. وألقى رءول بتحية مصطنعة ، وقال شيئاً لم يصل إلى مسامع أحد منهن .

وتساءل جريجور من وراء يوجينيا : « ماذا يفعل هذا الرجل فى قاعة النواب ؟

فقالت نادينا فى هدوء : « ولماذا تسأل هذا السؤال ؟ .. إنه لا يدع أى شىء يفوته .. ثم إن له اتصالات عديدة ، ويستطيع أن يدخل أنى شاء » .

وفجأة عم الهرج فى القاعة .. وهرع كثير من النواب ، وتدفقوا من الأبواب الجانبية .. ودخل الأساقفة ، من باب اليمين ، فى حللهم الغالية باحتفال مهيب ؛ أما عن شمال فقد تقدم قادة الجيش فى أزيائهم البراقة التى حفلت بالأوسمة والجدائل الذهبية .. وتعالى من قرب الباب صوت رهيب : « صاحب الجلالة الملك ! »

وخيم صمت مريع برهة ؛ ثم دوت عاصفة من التصفيق ، ولم تخمد إلا عندما تناول الملك أوراقه من يد رئيس الوزراء .. ووضع الملك نظارته على أنفه بعناية ، ثم بدأ فى القراءة : « حضرات الشيوخ ، حضرات النواب المحترمين ... »

وكان التصفيق يدوى ، عند كل جملة ينطق بها ، أحيانا فى حماس متدفق ، وأحيانا أخرى أقل تدفقا .. فيضطر الملك إلى التوقف ، ويتطلع من فوق نظارته

إلى هذا الخليط من الوجوه ، وقد شخصوا جميعا بأبصارهم نحوه ، كآلاف من الأشعة تجمعت فى بؤرة منشور سحرى .

« ... وإنى لأهتم اهتماما متواصلا برفاهية الفلاحين الكادحين ، فهم أساس دولتنا الركين المتين ، وعليهم يتوقف مستقبل البلاد ... »

وهنا ارتفع صوت جرجور ، وقد جف حلقه انفعالا ، ورن بين دوى التصفيق : « اسمعوا ... اسمعوا ... »

والتفتت نادينا إليه التفاتة خفيفة زاجرة .

وانتهى الخطاب ، وتصاعد الهتاف والملك يخترق طريقه من الباب ، ثم أخذ الجمع ينصرفون .

قالت نادينا وهى فى الردهة : « عرض جميل ، أليس كذلك ؟ . ثم إن الملك كان رائعاً جداً ...

أما فى الخارج ، فقد وقفت العربات الفارهة ، والسيارات الصاخبة ، ثم توالت التحيات والابتسامات ، فى ظل لحن عسكرى عزفته فرقة حرس الشرف .

* * *

كان الكلب يعوى بجنون ، والمطر ينهمر دون انقطاع .

« اذهب وانظر من هناك يارجل .. ربما عض الكلب أحد الناس فتقع على رأسك مصائب أخرى . » ؛ غمغم بها إيجنات سيرسل لنفسه ، وهو ينهض من جلسته متثاقلا .

فلما فتح الباب المؤدى إلى السقيفة ، وكان الخنزير يتشمم خارجه على جارى عادته محاولا أن يلج إلى الداخل ، كاد يطرحه أرضا عند اجتيازه الباب ... وحرج إيجنات ، دون أن يلق بالا إلى الخنزير ... وتوقف عند عتبة الباب ، وصاح : « إلى الجحيم أيها الكلب اللعين .. كف عواء !! »

وتمكن ، حيث وقف ، من رؤية بيرزوتيسكو ، جابى الضرائب ، فى صحن

الدار ، وقد انغرز فى الطين ، وأخذ يدفع الـكلب بمظلته المفتوحة . . وكان خفير القرية واقفا وراءه .

« أهـكذا تضطرنى إلى المجىء إليك يا إيجنات ؛ وفى هذا الطقس الـكريه ؟ . . . ليس هذا من الإنصاف فى شىء ! »

وبغت إيجنات ، ثم ألقى الـكلب بحجر ، وقال : « اخرس يالعين ، ألا تعرف من هذا ؟ »

ثم رقق من لهجته : « أتقول إننى دفعتك إلى المجىء ياسيدى ؟ . . حاشا لله !! . . ولـكنك ترى أن الفقر قد أخذ بخناقنا . . . وإلا لوجدتنى عندك قبـل زمان طويل . . . فأنا أعرف أين ديوان القرية ، وليس فى ساقى علة أعانى منها والحمدلله !! »

ونفض الجانى الماء عن مظلته بعناية ، ثم أغلقها ، وتقدم قائلا : « أراك تتحدث عن الفقر عندما تطالب بدفع الضريبة ؛ ولـكنى أجدك دائماً فى الحان ! . . أنا أعرفـكم جميعا يا إيجنات ! . . فلا تضيع وقتك فى خداعى ! . . إنى لأبذل أحسن سنين عمرى وصحتى فى خدمتكم ! »

قال الفلاح محتجا : « ماذا قلت عن الحان ؟ . . أنا لا أتذكر منذ متى ذقت الخمر آخر مرة ؛ فنحن والحق يقال لا نفـكر فى الشراب لأننا . . . »

فقاطعه بيرزوتيسكو وهو يدخل إلى الدار : « كفاك كلاماً ؛ فأنا ما جئت لأتبادل معك الحديث » .

كانت الزوجة قابعة فى هدوء تام قرب المدفأة ، وقد تجمع حولها أطفالها الأربعة ؛ فـكانت أشبه بدجاجة تملكها الخوف من صقر ضار . . وكان الخنزير ينخر راضيا ، ثم رفع رأسه فى دهشة . . أما الجانى فقد توقف مشدود القامة فى وسط الحجرة ، وتطلع حواليه منقبا . . وكان رجلا طويلا ضامراً ، بلغ رأسه حافة السقف . . وتناول الرجل السجل من الخفير ، فخط فيه شيئاً ، ثم نزع منه صحيفة .

قال فى غلظة : « استمع إلى يا إيجنات ! . . . أنا سأكتفى هذه المرة بتسجيل

هذا الخنزير .. لأنى لا أرى شيئا آخر غيره له قيمة .. أتفهمنى ؟ .. أنا لن آخذه فى الوقت الحاضر ؛ ولا تستطيع بعد أن تزعم أنى رجل قاس .. ولكن لا تظن أننى سأصبر عليك أكثر من أسبوع ؛ لأن من هم أعلى منى لا يصبرون علىّ كذلك ... واعلم أيضاً أنى لن أحضر إليك مرة أخرى ؛ فأهلك حذائى فى هذا الوحل .. خير لك إذن يا إيجنات أن تأتى على وجه السرعة . وإلا جاء خنزيرك إلى ، ولن تحصل عليه بعد ذلك أبداً ! »

وعندئذ اندفعت المرأة قائلة بمرارة : « حاشاك ياسيدى أن تأخذ منا خنزيرنا ... سوف يقضى الأطفال جوعا ، فهو كل ما نملك ، ولا نكاد نجد مانطعمه به .. وليس فى مقدورنا أن نقتنى ماشية لأننا لانملك عليقا ولاذرة . »

وتجاهلها بيرزوتيسكو تماما . وانصرف وهو يثنى جذعه إلى منتصفه حتى لا يصطدم رأسه بدعامة الباب . وودعه إيجنات ؛ وقد هده البؤس ، حتى فناء الدار ، كما تقضى دواعى اللياقة . وكان يشكو طوال الوقت ، ويغمغم فى اعتذار : « ما حيلتى ياسيد بيرزوتيسكو ؟ ما حيلتى ؟ ! »

* * *

أرسل أرستيد بلاتامونو الخادم تستدعى غيرغينا ، ابنة المشرف .. فهى وحدها التى تعرف كيف تكوى بنطلونه كما ينبغى ، فتجعل له ثنية ظاهرة . وهى ليست كغيرها من القرويات الغبيات اللائى لا يعرفن حتى كيف يسخن المكواة .

وكان وحده بالبيت .. فقد ذهب أبوه فى قضية إلى كوستنستى ؛ وطلب إلى شيريلا بون أن يكون شاهدا . وانطلق فى الصباح فى العربة ، هو والسيدة بلاتامونو ، وأخذا معهما شيريلا وزوجه أيضا .. وطلب اليونانى إلى أرستيد أن يصحبهم ، ولكنه أبى قائلا إنه سيستغل خلوته بنفسه ، فيعكف على الاطلاع .. وكانت أخته قد سافرت قبل أسبوع إلى بيتستى لتتلبث مع أسرة صديقة لها ، وتشم هواء المدينة .

ودخلت غيرغينا على استحياء إلى غرفة سيدها الشاب ، والخادم إلى جانبها .

« اسمعى ، أنت صبية ماهرة بارعة ، وأنا واثق أنك ستعملين فى معروفا.. »

وشرح لها ما أراد .. ووضع المكواة على النار ، وبسط البنطلون على الطاولة ووضع إلى جانبهما خرقة مبتلة . ثم طرد الخادم البلهاء .

قالت غيرغينا ، وقد أفزعها انتهاره للخادم : « سأحاول ياسيدى ، وإن كنت لا أدرى إن كان فى مقدورى أن أقوم بذلك كما ينبغى . . . »

وأخذت تكوى البنطلون . . ووقف أرستيد إلى جانبها يترقب . . كان جسدها اللدن مائلا فوق المكواة . . وكانت قد عقدت منديلها الأحمر على رأسها ، فتركت جيدها الأملس المائل عاريا . . وانحنى الشاب إلى الأمام ، ولمس عنقها بشفتيه . وبهتت غيرغينا ، وأدارت إليه عينين امتلأتا رعبا . .

وهمس الشاب ؛ وقد أخذ المكواة من يدها ؛ ووضعها موضعها من الطاولة : « لماذا تظنين أننى أرسلت فى طلبك يا غيرغينا ؟ . أمن أجل هذا ؟ . . » وأشار بازدراء إلى المكواة ، واستطرد قائلا : « فتاة جميلة مثلك ؟ »

وتراجعت غيرغينا صوب الباب ؛ وعيناها على عينيه ؛ وقد ارتسم عليها الرعب . . وتناول يدها وقال : « هل أنت خائفة منى يا ترى ؟ . أصدقينى القول . . ولكن كيف تخافين منى ؛ وأنا الذى لم أشأ أن أبقى فى بوخارست إلا بسببك يا حبيبة القلب . . »

وحاولت أن تصل إلى الباب مرة أخرى ... ولكن أرستيد أدار القفل فى المفتاح ، وأمسك بها من خصرها ، وقال : « لماذا لا تمنحينى ابتسامة صغيرة ياغيرغينا ؟ ... لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ ... أنا لا أريدك أن تنظرى إلى على هذا النحو ، لا ... لا ... »

وهمست غيرغينا : « إنك تسخر منى ياسيدى ... »

وغمغم أرستيد : « لاتكونى حمقاء ياغيرغينا . . لا . . لا . . » وأطبق بفمه على شفتيها

❋ ❋ ❋

هبط الستار بين عاصفة من التصفيق ؛ وانبعثت الأضواء فجأة فى جو المسرح

الخانق الذى امتلأ بأنفاس الجمهور .. واستمر التصفيق دقائق ، ثم هدأ النظارة ، وبدءوا يتطلعون حوالهم بنظاراتهم المكبرة .. وكانت نادينا جالسة فى مقصورتها ، كأنها إلهة تتقبل تعبد المؤمنين فى محرابها .. كانت ترمق شاغلى مقاعد الصالة بلحظ فاتر ، وتتبادل التحيات مع أصحاب المقاصير الأخرى .. فلما ألقت بنظرة عابرة أولية ، قالت تحدث جريجور فى دلال : « أرأيت ؟ حتى آل بريديلينو هنا ، كلهم دون استثناء ! .. ترى ما الذى انتاب هذا البخيل فيكتور حتى أنفق هذا القدر الهائل من المال ؟ »

فقال زوجها آسفا : نحن لم نرد لهم الزيارة ... ولم يصل إلى علمى أنهم قد عادوا من الريف » .

وبدأ القوم يتقاطرون ، وامتلأت المقصورة بعبارات تدل على فرط السرور : « لقد كان رائعا ... إنه ممثل عظيم ! .. لقد لعب دوره ببراعة .. أنا شهدت المسرحية فى باريس أيضا ... نعم ، كان يمثل فيها أيضا ... »

وانتهزها جريجور فرصة فأسرع إلى مقصورة آل بريديلينو ، وبعد كلمات قليلة ، قالت تيسكلا فى دهشة : « لقد تغيرت تغيرا تاما ... إنك تبدو شخصا آخر .. »

فتساءل جريجور : « هل لحظت ذلك فعلا ؟ ... إنى لا أستحى من التصريح بهذا ، ولكن ماحيلتى ... أنا محب ولهان ! »

وألقت عليه أولجا ابتسامة ونظرة هازئة .. أما تيسكلا فقد رنت برهة إلى مقصورة نادينا ، وقد امتلأت بشتى المعجبين ، وقالت فى تفكير : « نعم ، إنها أشد فتنة وجمالا عن ذى قبل » .

يقبل الشاب أيوجا يدها امتنانا .

ولما ارتفعت الستارة مرة أخرى ، وأظلم المسرح ، همست نادينا فى أذن جريجور : « ترى أين نذهب ياجريج بعد العرض ؟ »

ثم ، بعد حين ، وقد بلغت المسرحيه أوجها ، استطردت تقول بنفس العذوبة:

« لقد اكتشف رءول مطعما جديدا ، مطعما باريسيا جدا ، لا يؤمه إلا علية الناس.. ولقد أرسلته يحجز لنا مائدة ؛ وقلت له أن يعود ويأخذنا .. أتراني أصبت في هذا ؟ .. وسوف يأتي جوجو أيضا ، مع شريكة حياته ! »

فأجاب جريجور ، وهو يقبل خفية ساعدها العاري الذي امتد خلف المقعد : « كل ماتفعلين صواب في صواب ! »

وكان المطعم منتغى ليليا صغيرا في شارع معزول .. وكان مظهره الخارجي متواضعا ، أما بالداخل فكان الضوء الباهر ، والترف ، والدفء ، والندل الفرنسيون حقا ، وكانت هناك مباهج أخرى مثيرة . وكان صاحبه سليل أسرة من الأشراف الذين كان لهم اسم عريق .. وكان قد أضاع في باريس ثروة طائلة لم يتبق له منها إلا القليل ، الذي افتتح به هذا المطعم منذ قريب ، بغية أن يلتمس لنفسه عملا . . وكان هو بنفسه يستقبل ضيوفه مرحبا ، على النحو الذي كان يتبعه السادة النبلاء في الحفلات التي تقتصر على كبار القوم . . وكان رءول برومارو كما كان منتظرا ، صديقا حميما لصاحب المطعم ، وأخذ يلقي بمداعبات فكهة .. أما نادينا فقد تبسمت راضية ، وأخذت تكرر بالفرنسية : « هذا حقا مطعم فاخر ، باريسي الطراز جدا ! » .

وكان المكان يموج برجال في ملابس السهرة ، وبنساء يلبسن فساتين تحسر عن صدورهن . . وكان الندل يروحون ويغدون في خفة الأشباح ، وقد تراقصت على أيديهم صوان فضية قد حملت بالأطعمة . وجاءت راقصة أسبانية ، فجعلت تتأود على صوت الصاجات في رقصة تقليدية ، تصاحبها أوركسترا من العازفين على الجيتار . . ولعبت الفرقة معزوفات من مدريد وإشبيلية ، ثم انسحبت هي والراقصة وحل محلها ضارب على البيان ، فقدم مغنيا فرنسيا . وكان فتى رقيق الحاشية غض الإهاب ، تلقاه الجمهور الولهان بتصفيق تجاوز المقدار .. وبعد أن تبسم الفتى إلى الجالسين عن يمين وشمال ، خفتت الأنوار ، ولم يتبق مضاء غير بضع مصابيح زرقاء .. وألقى الفتى أغنية حالمة .. ثم أردفها بأغنيات أخرى ، صاحبت كل منها أضواء مناسبة .. وبعدئذ قدم الساقي إلى المغني جيتارا كان أحد العازفين الأسبان قد تركه على ناحية من البيان ، فتحولت الأضواء إلى لون وردي ، وإذا

بالمغنى المدلل يأتى إلى نادينا فغناها ، وهو يهتز طربا ، أغنية عن حب بغير أمل.

وكان الجو مشبعا بالدخان ، تفوح فيه رائحة ثقيلة من النبيذ المعتق ـ ولمعت العيون ، واهتز الضوء الأبيض على العيون الكليلة . . وتعالت الأصوات فى همهمة لا تبين .

فلما كانت نادينا بالسيارة ، قالت فى جذل ، وقد التفت فى فرائها : « لقدآن الأوان فأصبحت بوخارست مدينة أكثرحضارة مما كانت ؛ إنها لم تعد كلهاسجقا وثوما وقلة ذوق ! . . ألا ترى ذلك ياجريج :

« بالتأكيد ! »

واستطردت بعد برهة : « ثم هذا المغنى الفرنسى ، إنه ظريف جدا . . . ألم تر كيف غنى لى أنا وحدى ؟ »

وأحس جريجور بها إلى جواره ، دافئة سعيدة . . . قال فى لهفة وخضوع : أنت أجمل مخلوق فى الوجود . . »

* * *

« أهذا أنت يابيتريتسا ؟ »

نعم يا أماه ، افتحى الباب من فضلك ! »

ودخل الدار ، وكان الظلام دامسا بالداخل ؛ ولم يكن ثمة ضوء إلاهذا الوهج الأحمر فى المدفأة .

قال : « لا أظنك قد استغرقت فى النوم ! »

فغمغمت أمه وهى إلى جانب المدفأة : « كيف أنام وأنا أقضى هذا الوقت كله فى إطعامهم والسهر عليهم حتى يناموا . . . ثم أنت أيضاً ترجع متأخراً ياعزيزى . . وهذا أمر صعب على ؛ فأنتم عددكم كثير ؛ وأنا لاأدرى كيف أقسم بينكم الطعام بحيث أحتفظ لك بشىء منه أيضاً . . . يارب ! . . . »

وجلس بيتر على الدكة ، وتنهد . .

«أنا لاأغيب عن البيت ، لأذهب إلى الحفلات ، أو أستمتع بوقت طيب. ياأمى! »

وأعدت سماراندا طبقا من الحساء ، ووضعته له على الطاولة . . وانقضت فترة من الزمن لم تكن تسمع فيها إلا صوت الرشف والمضغ يسد بهما رمقه .. وكان الأطفال نائمين على دكة أخرى ، وفى السرير ، وعلى الفرن ؛ وكان صوت أنفاسهم يتصاعد ثقيلا . . . فلما كسر من شوكة جوعه ، أخذ يحدث أمه ، والطعام فى فمه ، فأخبرها بأنه لم يصل بعد إلى شيء مع الشريف الكبير . . . ولكن المشرف مافتيء يقول إن الأمر سينتهى على خير ، وإن الشريف متمسك بوعده ، وإنه أمر المشرف بنفسه فى الشتاء الماضى أن يدفع ثمن الثور ؛ ولكنه لم يذكر شيئا عن الدين الذى كان فى ذمة أبيه .

ونشجت المرأة وقد خنقتها العبرات : « هذا ما ظلوا يقولونه لى أنا أيضاً ؛ وهكذا تمر الأسابيع والشهور ، وسرعان ما يحل الحول على وفاة أبيك المسكين ! »

فقال الشاب فى عزم : « أنا لن أسمح لهم بمعاملتى هذه المعاملة . . . لأن الحق حقنا ، ونحن لا نطلب إليهم إحسانا ؛ إنما كان أبى يعمل فى خدمتهم حتى أخذه الله إلى جواره ! »

واغترف ما تبقى فى الصحن من حساء ، وظل صامتا برهة طويلة يرقب اللهب وهو يتلاعب فى وهن بالمدفأة . . وأخيراً قال فى نبرات مكتومة : « إن الإنسان يقاسى ويقاسى حتى يفيض به العذاب ، ثم بعدئذ . . . »

وعاد إلى صمته ، ولكنه استأنف الحديث ، قائلا : « إن الناس لا يكفون عن الكلام والخصام ، وهم لا يدرون ماذا يفعلون . . . . هذا هو السبب الذى جعلنى أتأخر . . . . »

وأمسك ، كأنما قد ألم به خاطر فجائى ، فقال : « لماذا لم تشعل المصباح ؟ ألا يوجد عندنا زيت ؟ »

« مازال لدينا منه القليل ؛ ولكنى رأيت أن أكتفى بضوء النار » .

فأومأ بيتر وهو حزين .

« صدقت ؟ حسبنا ضوء النار إذا لم يتوافر لدينا سواه . . . »

وتأجج اللهب ، فأشعل جذوة جعلت وجه بيتر يتوهج ويتورد . . وتحرك خياله على الجدار ، فبدا وكأنه يتذبذب ويهتز .

— ٥ —

كتب تيتو هيرديليا إلى أهله ، فوصف لهم كل مامر به من تجارب . . إن في وسعه على الأقل أن ينبئهم الآن بأن الله قد أعانه على الاستقرار على وجه يدعو للرضى . . وغالى تيتو بعض الشيء في خطابه ؛ فوصف « درابلول » بأنها جريدة مهمة للغاية . . . وأرسل مجموعة من النسخ إلى أبيه ، فهو يعرف فيه ولعه بقراءة الصحف ؛ ووضع بعناية علامات بالحبر الأحمر على المقالات التي دبجها بقلمه ،وبخاصة المقالتين الافتتاحيتين اللتين عارض فيهما الكونت أبوتي نفسه . . . كذلك أزجى المديح لجريجور أيوجا ، وقال إنه متزوج من امرأة في غاية الجمال والفتنة ، ولو أن سيدات أماراديا وما حولها وقعت أبصارهن عليها لمتن حسرة وكمدا . . وحدثهم عن الوقت الطيب الذى قضاه ببيتهم الريفى ، وهو بيت أشبه بقصر البارون بيكليني؛ وحدثهم عن عودته إلى بوخارست بالسيارة ، وأنه قطع مسافة طولها ما بين بيستريتا وكلوج . . وأبلغ أباه تحيات جارفيلاس إليه ؛ فقد كان بمثابة والد له ؛ وحمله أطيب أمانيه إلى صحابه أجمعين ، وبخاصة إلى القس بيلكوج ، فهو على كل حال قد كان لطيفا معه أخيرا ، وذلك حتى يتناسى ما شجر بينهما في الماضى من خلافات صغيرة . . وأضاف أنه يترقب حضور القس إلى رومانيا ، كما سبق أن وعد وهو يسعى إلى الكنيسة في برياس.. وهو لن يجد مشقة في الحضور ، فهو أرمل، وعلى سعة من الرزق ، ولن يندم على إنفاق المال ، لأن بوخارست مدينة ألطف من بودابست ، ثم هى فضلا عن ذلك كله موطن الرومانيين أجمعين . . كذلك أعرب عن تهانيه القلبية إلى غيغى بمناسبة خطبتها ، وتمنى لها السعادة مع زاجرينو ، فهو فتى لطيف جدا . . وأبدى أسفه لأنه لن يتمكن من حضور حفل قرانها ، لأنه في الوقت الراهن مشغول بأمور كثيرة ، لايجرؤ على إهمالها ، وهو بعد لم يتيسر له أن يحصل على قدر كبير من المال .

ولكنه أغفل غراميلته ، رغم علمه أن غيغى خاصة ستهتم بها جدا ؛ لأنه لم

يشأ أن يعرف عنه أهل أمارادیا أنه مشغول بهذه الأمور الفارغة هنا كذلك . . ولكنه فى الواقع قد شغل بهذه الأمور جدا منذ أن التحق بالعمل ، وتخلص من متاعبه اليومية .

لقد أوفت السيدة ميمى بوعدها ، فحضرت تلقى نظرة على غرفتها القديمة مرة أخرى . . وكان ذلك ذات مساء ، عندما علمت أن أمها ليست بالبيت . . واستقبلها تيتو أول الأمر بترحاب كبير ، فقد امتلأ زهوا لأن هذه المرأة الجميلة قد وقعت فى غرامه . . على أنه ما لبث أن أدرك أنه لم يكن بالرجل السعيد الوحيد الذى حظى بها ؛ وإنما كان كل ما استمتع به هو البقايا والفتات . . فهى قد مالت إليه لمجرد نزوة راودتها بأن يقع فى حبها شاعر . . والواقع أن ميمى نفسها لم تتوان عن إخباره بأن من واجبه ألا يشعر بأن له عليها حقا أيا كان ، أو يزعجها بغيرته ، إذ حسبها ما تلقاه من هذه الغيرة على يد زوجها .

وتقبل الشاب هذا الوضع بطبيعة الحال . وقال فى نفسه إنها قد منحته كل ما فى وسعها ، ثم هى ، بعد ، لا تكلفه شيئا ، فلماذا إذن يرفض هذه المخلوقة الرائعة ؟ .

ومع ذلك فقد نشأت مشاكل لم يكن منها بد . . فقد أحست تلميذته ماريورا بأن فى الجو أشياء ؟ وبدأت ترميه بالاتهامات قائلة إنها ليست فتاة من فتيات الشوارع ؛ وإذا كان هو لا يحبها مخلصا ، فلم لا يقول ذلك صراحة ، بدلا من أن يخونها مع كل ضروب النساء ؟ وختمت حديثها فألحت بأنها سوف تشكو مسلكه الشائن إلى السيدة جارفيلاس . . واضطر أن يقضى أمسية كاملة يقسم لها أنه يحبها وحدها حتى استكانت .

يضاف إلى ذلك أنه ، ذات يوم ، التقى وجها لوجه بالسيدة الكسندر ريسكو ، فحدثته فى صوت حزين له مغزاه ، كأنما قد هجرها جينتسا ، قالت : « أرجوك ياسيد تيتو ؛ احرص على ألا تحطم ميمى ! . . ربما قد وقعت فى هواك ؛ هذا صحيح ، وقد لحظت أنا من البداية أنها مالت إليك ؛ ولكن كن على حذر ؛ واسهر عليها ، فلو أن فاسيل زوجها اشتم الأمر فستكون الطامة الكبرى . . .

أنا لا ألومك ، فأنا أعلم كيف تتقد العاطفة فتلفح الإنسان بنارها ؛ ثم إن ميمى جميلة فتانة : ولا عجب أن تسأم فلاحا جلفا مثله ، ولكن . . . »

واستمع الشاب إلى عويل صاحبة الدار مستسلما ؛ واكتفى بإبداء الاعتراض فى صوت لا يبين ، أراد به أن يدل على أنه رجل مهذب ، وإن كان لم يتوقع منها أن تصدقه . . . والواقع أنه شعر بشيء من الحرج إزاء السيدة الكسندريسكو ، وكان ذلك بسبب تانتا التى أخذ يتودد إليها فى مثابرة وإصرار . ولقد أخذته منذ وقت مضى ، فعرفته بوالدى الفتاة ؛ وأثنت عليه أمامهما ثناء جميلا ؛ وبعدئذ أصبح يؤم بيتهم بانتظام ، وكان البيت يقـــع خلف المحطة ، ويملكه السيد السكندرويونسكو ؛ وكان يعمل رئيس قسم بوزارة المالية . . وكان تيتو مولعا بتانتا الجميلة فى الوقت الراهن.. وهو الذى قد استعاد إلهامه الشاعرى عن طريقها .. وقد أخذ كل مساء ، بعد أن يفرغ من عمله فى جريدة درابلول ، يشبب بها شعرا ، ويقتل الوقت فى سحابة من دخان السجائر . . وبدا له أن تانتا تبادله العاطفة .. فقد اعترفت له ، رغم حيائها ، أنها لم تعد تستطيع العيش بدونه ؛ وأنه إذا غاب عنها ثلاثة أيام على التوالى ، فستحتال على زيارة لينوتا (السيدة الكسندريسكو) ، صديقتها التى تسر لها بأسرارها ، فهى التى جاءت به إليهم .

ولم يحل هذا كله بينه وبين أداء عمله ؛ بل لقد دفعه هذا إلى العمل أكثر فأكثر كان يحرص على الحضور صباح كل يوم إلى « درابلول » وتقديم مقالاته كاملة . وكان يجد روزو دائما وحده . . وقد اقتعد كرسيه العتيد ، كأنما هو لم يتحرك من فوقه أبداً . . وكان الصحفيون والمحررون يتوافدون عند الظهيرة ؛ وكانوا دائما فى عجلة من أمرهم ؛ وكنت تراهم دائما مهتاجين ساخطين منهمكين فى النقاش ، ولكنك لا تراهم قط يمضون أبعد من ذلك . فيقومون بتحرير شيء .. والواقع أن هيرديليا وحده هو الذى اشترك فى التحرير مع روزو ، وكان الرجل غالبا ما يقول له : « أعتقد أنك لن تلبث أن ترقى سلم الصحافة يازميلى العزيز . . كل ما عليك هو أن تصغى إلى ما أقول ؛ وأنا لا أتكلم كلاما فارغا كما يفعل هؤلاء السادة الوجهاء ، الذين لا هم لهم إلا العناية بلباسهم ؛ والذين هم يفترون الأكاذيب ؛ ولكنهم يعجزون عن تحرير سطر واحد يناسب المقام . . . نعم سترقى يابنى ،

لأنك تحب العمل ولا تأنف منه . . . ثم إنك تملك الموهبة والمثابرة — وهذا بالضبط ما يحتاج إليه الصحفي البارع . . . ولكن لاتنس أن تترك هذه الحرفة يوما ما ، لأنك شاب أمين صريح لا تعرف اللف والدوران ؛ ومن الصعب على المرء أن يشق طريقه في الصحافة لو كان بهذه الصفات . . . ومع ذلك فأنت سوف تؤدى عملك على ما ينبغى ، أياكان حظك من الدنيا . . هذا رأيى فيك صراحة . »

ورأى تيتو أن من واجبه أن ينشر شيئا كلما تناول وجبة مع جوجو أيونيسكو ، أو استجاب لدعوة من جريجور ، أو اشترك في غير هذا وذاك من الأحداث الاجتماعية . . ولم يستحسن روزو منه هذا المسلك ، ورأى فيه تسلقا اجتماعيا . وصرح الرجل جازما بأن الصحفي يجب أن يتلبث في هذه الدنيا ، ولا يلقى بنفسه في حياة السادة الأشراف ، وإلا نام ضميره واستكان . . . نعم ، يتعين على الصحفي أن يحتفظ بقدرته على الاعتراض والاقتصاص ، سيما في رومانيا ، حيث البذاءة هي وحدها الشريعة المعمول بها .

« أى بنى : افتح عينيك ، وانظر حواليك . . لقد قطعت البلاد طولا وعرضا في سيارة ، وعشت في قصور الأشراف ، ولكنك لم تضع أذنيك على الأرض لتسمع الأصوات التي اختنقت . . . أنت لن ترى شيئا ، أو تسمع شيئا ، وأنت في سيارة ، أو تمضى متسكعا على الأرصفة في بوخارست . . . إن مظاهر الترف والحضارة التي تراها مظاهر كاذبة مصطنعة . . أما الحقيقة فهى مختلفة جداً يابنى . . نحن نصدر إلى الخارج عشرات الآلاف من أطنان الحبوب ، ومع ذلك فملايين الفلاحين عندنا لايجدون غذاءهم اليومى من الذرة . . . هل تفهم دلالة ماأقول؟ . . نحن نخادع أنفسنا بأضواء بوخارست ، ولكنا لا نتطلع إلى أبعد من أنوفنا ، لأننا نعلم أن وراء ذلك هاوية سحيقة نرتعد فرقا لو نظرنا فيها ! . . . هناك يابنى لاتجد ترفا ولاسيارات ولافيلات إنما هذه كلها قشرة تخفى تحتها بركانا من البؤس والشقاء . . . وربما تفجرت هذه القشرة غدا ، وعندئذ ! . . .

وكان تيتو قد تعود هذه التنبؤات التي تنذر بالويل والثبور . . فهو ، كلما تطرق الحديث إلى الوضع الراهن ، وإلى الآلام التي يعانيها الفلاحون ، ما كان يرى أحداً إلا ويذرف الدمع سخينا ، ثم يلقى بهذه التنبؤات الرهيبة . . ربما هكذا

كان الوضع دائما ، وربما هكذا سيظل دوما ... فأهل المدن الذين عرفوا الريف من خلال رحلاتهم البهيجة كانوا يعطفون على الفلاحين عطفا شديدا ، وكانوا يساندون رغبتهم الملحة فى الثورة، ذلك لأنهم كانوا واثقين من أن الفلاح الرومانى لن يتمكن أبداً من الثورة .

— ٦ —

ذات يوم ، تساءلت نادينا فى حماس . « ما رأيك ياجريج لو قضينا عيد الميلاد فى الريف ؟ »

ورد عليها جريجور بنظرة تزخر بالامتنان .. لقد أحس أنها تقدمت بهذا الاقتراح مراعاة منها لمشاعره .. وما كان ثمة شيء يبعث فى نفسه الغبطة أكثر من هذه الآية التى تدل على اقترابهـا منه شيئا فشيئا .. هكذا يتدعم حبهما بالتفاهم المتبادل ... والعاطفة الحسية تدوم عندما تتغذى على رحيق الروح الذى لا ينضب له معين .. وهو لو كان قد تصرف معها على هذا النحو من البداية لكان قد جنب نفسه وإياها قدرا كبيرا من التعاسة والشقاء .. ولكن من الجلى أن الإنسان لا يعثر على السعادة مالم تطهره الأحزان أولا ..

ولم يجدا مشقة فى الاتفاق على التفاصيل .. لقد قنع جريجور بالإصغاء إليها وبالعمل على أن يحقق لها رغباتها حرفيا .. كان الشيء الأول هو أن يقضوا عيد الميلاد فى آمارا ، أما عيد رأس السنة فلا بد أن يدون بالعاصمة .. وتم الاتفاق على ذلك .. الشيء الثانى هو أن عيد الميلاد يجب أن يكون عيدا بهيجا ، فى صحبة كثير من الناس ، ولا يخلو من الموسيقيين البارعين .. ووفق على ذلك بطبيعة الحال .. كذلك لا بدمن دعوة جميع جيرانهم الأثرياء .. وينبغى أن يقوم بذلك السيد الوالد ، فهو من غير شك سيغتبط لهذا القرار الذى اتخذاه ، على أن يدعو الوالى الموجود فى بيتستى، حتى تمثل الحكومة فى هذه الاحتفالات .. وتبسمت نادينا ، فقد بدت لها دعوة الوالى فكرة ظريفة .. وتساءل جريجور . « هل ترين أن ندعو أحداً من بوخارست ، أم من الخير ألا ندعو أحداً ؟ »

وهتفت نادينا فى دهشة : « بل لابد أن ندعو بالطبع ! .. فنحن لو اقتصرنا

على دعوة الأشراف والملتزمين والوالى لملأنا البيت كله مللا . . أولا يجب علينا دعوة جوجو ويوجينيا ، ومعهم أسرة أخيها ، وهو يعمل مدرسا أوشيئا من هذا القبيل فى جيرجو . . وطبعا هم سيأتون مع ضيوفهم ... ثم لابد أيضاً من دعوة بعض الشبان الظرفاء المرحين ، حتى يجد الإنسان من يستطيع أن يبادله الكلام ـ وليكونوا اثنين أو ثلاثة على أقل تقدير » وعندما جاءت إلى ذكر برومارو لحظت ، أو خالت أنها لحظت ، سحابة تمر على وجه زوجها . فأضافت على عجل . « أستطيع أن أسقطه من حسابى إن كنت لاتريده ياجريج ! . . . وأنا مافكرت فى رءول إلا لأنه دائما مرح و ... »

« لا أبداً ، كما تريدين ... مسكين رءول ! ! » قالها بشفقة واحتقار .

واستطردت نادينا : « ثم لاتنس هذا الشاب الترانسلفانى ، فقد نسيت اسمه فهو يستطيع أن يغنينا بعض أناشيد ترانسلفانيا »

وكان عيد الميلاد يقع يوم خميس . . فاستقر رأى نادينا على أن ينطلقوا جميعا إلى آمارا ضحى يوم الثلاثاء . . فيقضون هناك ليلة دون إزعاج ، ويستريحون كذلك ليلة العيد ... فلما حل الموعد، كان رءول وحده هو الذى وقف فى انتظارهم عند محطة الشمال ... وأما غيره من المدعوين فقد اعتذروا عن عدم الحضور فى آخر لحظة ... ولم يظهر تيتو إلا بعد محطة شيتيلا ، وكان بشوشا متألقا . . قال وكان غير صادق ، إنه وصل إلى المحطة والقطار يتحرك ، إنه قد وجد له مكانا فى ديوان آخر ... والواقع أنه كان قد حضر قبل قيام القطار بنصف ساعة ليضمن لنفسه مكانا مريحا فى عربة الدرجة الثالثة ، لأنه يسافر على حسابه الخاص ، ولا موجب لأن يبدد نقوده .

وكان جريجور هو وحده الذى أصغى إلى معاذيره . . أما نادينا فتبسمت له بغير احتفال ؛ فقد شغلت بقصة غرامية فى مجلة فرنسية « الحياة الباريسية » كان يحكيها لها برومارو . . . وتوقف هذا لحظة ثم مد لتيتو يده اليسرى عرضا، وقال : « كيف حالك ياعزيزى ؟ » . . . واستمر هيرديليا يحدث جريجور برهة عن الشئون السياسية ؛ ثم أخبره هذا بأن جوجو أيونيسكو قد سافر إلى ليسيزى قبل ثلاثة أيام ؛ وأن ثمة فرصة للقاء الكسندرو بنتى ، فسر هيرديليا لذلك ،

فقد سبق أن قابل الرجل فى سنجورز .. وانتحل تيتو عذرا ليعود إلى ديوانه ، فقد خشى أن يضبطه الكمسارى هنـاك ، فيضعه فى حرج ، لكونه فى عربة من عربات الدرجة الأولى ، وليس معه غير تذكرة بالدرجة الثالثة .

ولم يكن ثمة وجه المقارنة بين الثلج الذى خلفوه فى بوخارست والثلج الذى وجدوه فى آمارا .. ولهذا كانت زحافات الجليد فى انتظارهم عند كوستستى ، الأمر الذى جعل نادينا تقفز طربا .. وأمرت بمجرد أن وصلوا ، بتهيئة رحلة على الزحافات تطوف بهم الولاية فى اليوم التالى .. ونهض جريجور مبكرا ليدبر أمر الرحلة ، ولكنه تلق خبرا مزعجا .. وتفصيل ذلك أن إخيم العجوز ، وهو أبرع حوذى لديهم . قد فك الفرستين من الزحافة ، وبعد أن أطعمهما ، وروى عطشهما ، أخذهما ليربطهما بالحبال فى الاسطبل ؛ وإذا بإحدى الفرستين تجفل ، وتقع على ظهر العجوز ، فتهيضه .. واضطر القوم أن يحملوه إلى البيت على محفة ... ومن ثم أصبح من المحال أن يشترك فى الرحلة ، كما أنه لا يوجد من يجرؤ على معالجة الفرستين الجموحتين ..

وأسف جريجور على ما حل بإخيم ؛ ولكنه ضاق على وجه الخصوص لأن نادينا كانت مولعة بالسرعة ؛ ولن ترضى لو ركبت مركبة يجرها فرسان عاديان ... وإذ ذاك عرض بومبو ، المشرف ، أن يستدعى بيتر بن سماراندا ، فهو على كل حال كان أمباشيا فى المدفعية يعالج كل ضروب الخيل ؛ وهاتان الفرستان بالنسبة له لن تكونا أكثر من ألعوبة فى يديه ... فأرسلوا فى طلبه على الفور ..

ومع ذلك ، فهم لم يتمكنوا من البدء فى الرحلة إلا عند الظهر ... وأخذت نادينا تيتو إلى جوارها ؛ ووضعت رءول فى المركبة الأخرى مع جريجور ، فأغدق هذا عليها فى ذهنه قبلة لهذه اللفتة من جانبها ... وأمر السائق أن يسير إلى الأمام ، فيخترق روجينوزا وبيرلوجو وباباروجا وجليجانو وليسبيزى ؛ ثم يعود مرة أخرى .. وكان فى وسع القوم ، وقد التفوا فى الفراء ، كفرسان من العصر الوسيط ، وتغطوا بالبطاطين الصوفية السميكة ، أن يهزأوا بالبرد القارس الذى استمر أكثر من أسبوع .. فلما خلفوا آمارا وراءهم ، انبسط أمام ناظريهم سهل عظيم أبيض ، كأنه دثار من الفراء الثمين ، امتد إلى ما لا نهاية ، وأخذ

يخطف الأبصار فى ضوء الشمس الساطع .. وكان الطريق الرئيسى يخترق خطا مستقيما لامعا كانت تنزلق عليه المركبات بطريقة تأخذ بالألباب .. ووقف بيتر ، وقد مال إلى الأمام قليلا ، يحث الخيل على الانطلاق بطرقعة يصطنعها بلسانه بين الحين والحين .. وكان ، فى سترته الرمادية التى يلبسها الفلاحون ، وقد وضع على إحدى أذنيه « كاكيولته » الصوفية ، فبدا أطول قامة ، وأقوى عضلا مما كان فى حقيقته .

وانطلقت نادينا فى الكلام ، وقد استخفها الطرب . . فهى آنا تبدى ملحوظة لتيتو ، وهى آنا تصرخ فزعة ، وآنا ثالثاً تغنى ، وتقلد الخيل فى عدوها . . وكانت من وقت لآخر تهيب بالسائق أن يسرع : « انطلق ، انطلق ، ولا تتوقف ! » .

وغمغم الرجل ، وقال فى صوت مشوب بالسخرية ، دون أن يلتفت إليها : « أنا لن أتوقف ؛ كونى على ثقة من هذا يا سيدتى ! » .

وانطلقوا على هذا النحو زهاء ساعة من الزمان ، فاخترقوا روجينوزا وبيرلوجو وباباروجا وجايجانو . . وإذا هم يتقدمون مسرعين نحو ليسبيزى ، شهدوا على مرمى البصر سرباً كبيراً من الغربان ، انتشرت بضع مئات منها على الطريق ، كأنها بقعة من الحبر الأسود على صفحة عريضة من الورق الأبيض . . لقد استبد الجوع بها فلم تتحرك إلا حين كادت المركبة أن تطبق عليها . فأخذت تنعب وترف بأجنحتها . . وإذ ذاك جفلت الفرس الأمامية ، فى نوبة من الفزع إلى اليمين ، تدرأ عن نفسها ما يتوعدها . . وجاء بيتر فى نفس الوقت فضربها بالسوط على بطنها .. واشتد الفزع بالفرس ، من تأثير الألم ، فقفزت إلى الأمام على الطريق المستوى ، وإذا بزميلتها تجفل معها بدورها .

وصرخت نادينا : « ماذا تفعل ؟ . ماذا تفعل . . ؟ الفرس ستقتلنا . . . النجدة ! ! » .

وتعلقت برقبة تيتو ، أما الفرسان فقد أخذتا تصهلان وترهفان آذانهما ، ثم اندفعتا بجنون إلى الأمام ، وقد مست حوافرهما مقدم العربة المستدير . . وتعالى

صوت بيتر فى اطمئنان : « لا تفزعى يا سيـــدتى ، اطمئنى تماماً طالما أنت بين يدى ! » . .

وبدد صوته الأجش الغريب الوقع مخاوفها على الفور . . وإذا بها تسمع تيتو أيضاً يقول، وكأنه لم يفقد رباطة جأشه : « لا ضير يا سيدى ، لا ضير ! » .

وحاولت أن تبتسم، كأنما خجلت من الفزع الذى انتابها . وشد بيتر اللجام ، وهو مازال يميل بجذعه قليلا ، وإن ظل راسخاً كالطود ، وأخذ يكرر فى سكينة وحزم : هدوءاً ... هدوءاً ...

وخالت نادينا ، وهى ترقبه ، أن بوسعها أن ترى عضلاته نفسها وهى تلتوى التواء الصلب ، وقسوته تتزايد إذ رمى بثقله كله على ساقيه المشـدودتين . . واستعادت سكينتها تماماً ؛ وبلغت آمارا طروبة كالعهد بها . . ولما تدلت من المركبة أخذت تقص الحكاية ضاحكة : « الحق أننى فزعت فزعاً شديداً . . وكان من حسن الحظ أن وجدنا هذا السائق القوى ! » .

وأدار بيتر إليها وجها تألق بتأثير البرد ، وقد تجمدت أنفاسه على شاربه حبات دقيقة من الثلج ، أما عيناه الصغيرتان البراقتان فقد شع منهما البشر، وقال : « لا عجب أن تكون الفرسان خفيفتى الحركة يا سيدتى ، فهما فرسا الشريف والأمر بالنسبة لهما طعام وترف ، ولا عمل على الإطلاق . . لهذا ليس من العجب أن تجمحا أحياناً ! » .

وبصق مزهوا بين ثغور الفرسين المتعبتين .

« أحسنت صنعاً يا بيتر ، مرحى ! » قالها تيتو وقد استطاع أخيراً أن يخلع كل ما عليه من فراء ، وقفز من العربة ، ولف ذراعه حول منكبي السائق فى ود .

وعادت نادينا تقص الحكاية ساعة الغداء ، وقد نمقتها بعض الشىء بقليل من التفاصيل التى رأى تيتو أن يؤيدها ، شأنه شأن أى رجل مهذب . . وتضخمت التفاصيل القليلة شيئاً فشيئاً ، حتى غدا الحادث وهى تقصه المرة بعد المرة على كل ضيف وفد ذلك المساء مغامرة أى مغامرة ، تلعب فيها نادينا دور البطلة . . .

وكانت ، كلما رأت القلق يرتسم فى عيون المستمعين خوفاً عليها ، ازدادت جسارة ،وضحكت وقالت بغيراحتفال إنها تعشقالمخاطر العنيفة التى تهزالأعصاب وإنها سعيدة لأنها التقت بالموت وجهاً لوجه .. « لقد كدت تفقدنى يا عزيزى جريج .. ترى هل كنت تحزن على ؟ » وألقت عليه السؤال فى دلال ؛ فقبلها ، ورد عليها كأنها طفلة غريرة قائلا :

« معنى هذا أن عليك أن تكونى أشد اعتدالا فى ملذاتك ، وأقل نهبا للأهواء . . . » .

فقالت وهى تمط شفتيها : « اللذة المعتدلة ليست لذة على الإطلاق ! » .

واستقبل ميرون أيوجا ضيوفه باللطف الذى كان خليقا به .. ولكنه لم يوجه دعوة إلى بلاتامونو ، رغم أن جريجور رأى أن هذا أمر واجب ، فالرجل على أية حال كان يستأجر أرض جوجو ونادينا معا ، كذلك لم يدع كوزما بيريونا ، فقد كان موغر الصدر ضده جزاء الكذبة التى أطلقها عنالسرقة ؛ رغم أن الرجل قد بذل وسعه تكفيرا عن خطئه ، ومضى إلى حد أنه أعطى كيساً من الذرة لكل فلاح ناله أذى .

وكان آخر من وصل من بينستى فى السابعة مساء من الضيوف هما الوالى أندريه بوريسكو،والجنرالدارداﻻت، مع زوجتيهما . . وكانالرجلانفىطريقهما إلى ضيعتيهما ، الوالىإلى روكيو ، والجنرال إلى هوميلى ، ليقضيابقيةالمطلةهناك.. وكان بوريسكو رجلا عجوزا ضئيل الجرم، فى سن ميرون ، وكان يفيض حيوية ونشاطا . . وكان قد درس الطب فى أول عهده ، وكان عنده فعلا شهادة بهذا المعنى علقها على جدار بيته فى بينستى ، ولكنه لم يمارس الطبقط ، فقدكانيتقزز من أى داء أو مرض . . وكانت زوجته تشبهه ، كأنها شقيقةله ، سواء فىملامحها أوطباعها .. أما الجنرالدارداﻻت ، فهو على فرط طيبة قلبه ، كان يبدو متوحشا كأحد القراصنة ، وقد برز هذا الانطباع بتأثير شاربه الأسود المصبوغ ، بطرفيه المدببين، وهو شارب لا يتسق أبداً مع شعر رأسه الأشيب الأشعث . . وكانت زوجه ، وهى ممتلئة طويلة كزوجها ، أصغر منه سنا بكثير ؛ وكانت لا تزال ذات دلال . . وبدا البهو الكبير لا يكاد يتسع للضيوف جميعا . . ولم يشأ الوالى أن

يتناسى مركزه، فاتخذ مظهر الجد أول الأمر ، ولكن هذا المظهر سرعان ما تلاشى حتى لا يصد نفسه عن الوليمة . . ولما علم أن تيتو هيرديليا يعمل صحفيا فى بوخارست ويحرر فى جريدة الحكومة كذلك ، انتحى به ركنا ، وأخذ يسأله عن تفاصيل الوضع السياسى ، ثم صرح له أن الأمور تسير فى يسر فى ولايته ، وأنه هو نفسه ذو شعبية ومحبوب من الناس جميعا .

وظلت مغامرة نادينا تستأثر بالاهتمام ، فقد كانت موضوعا يستطيع أن يسهم فيه كل واحد . . حتى أيونيتا روتومبان ، وهو رجل حاد الطبع على شىء من التحفظ ، وكان يعيش بمفرده فى ضيعة جويا منذ زواج ابنته ، طرح على مضيفته عدة أسئلة عن هذا الموضوع ، وكان يومىء إليها ملاطفا مسايرا . . أما العقيد المتقاعد ستيفانسكو ، وكان يستأجر ضيعة فلادوتا ، فقد أحضر فتياته الثلاث جميعا ، وهن فتيات حسناوات ، على أمل أن نادينا ، باتصالاتها بعلية القوم ، تكون قد دعت بعض الشبان الجادين من بوخارست . . واستقبلتهن نادينا والحق يقال بترحاب كبير ، ثم دفعت بهن إلى رءول ، وأمرته أن يكون لطيفا معهن وهى مهمة بذل فيها قصارى جهده وهو يختلس النظر إليها خفية من حين إلى حين . . أما الضابط جرادينارو الذى كان يعتبر نفسه ذا سحر لا يقاوم ، لأنه بسيفه وحده ، قد غنم ضيعة كنتاكوزو ، وهى تربو على ثلاثة آلاف بوجون ، فوق زوجة حمقاء ريفية ؛ فقد ظل يحوم حول نادينا ضاربا بمهمازيه ، ثم ينفث عن صدره آهة ، ويرفع عينيه إلى السماء ابتهالا — واضطرت نادينا — تخلصا منه ، أن تنسحب لحظة مع تيتو هيرديليا .

قالت فى سأم : « ياله من ضابط سخيف ! »

ورأى تيتو فى نفسه زميلا شاطرها الخطر ، وشريكا متواطئا معها يومه ذاك . . أما وقد التقى بهاوجها لوجه ، فقد بدت أكثر جمالا مما كانت قبلا ، وهى فى فستانها الذى حسر عن صدرها ، وبساعديها العاريين ، والتألق العجيب الذى شع فى ملامحها المكتنفة بالغموض . . وهمس إليها فى صوت اختنق انفعالا : « أنا أيضا أفدت من مخاطرة اليوم . . فقد تعلقت أنت بذراعيك حول رقبتى ، وبعثت فى دفئا كأنما . . . »

قالت مبتسمة : « لا أذكر أننى فعلت ذلك . . وأنت تدرك بالطبع أننى لم أقصد . . »

قال تيتو وهو يتنهد . « هذا صحيح للأسف . . »

وإذ أخذ القوم يستعدون للجلوس إلى المائدة فى قاعة الطعام ، تناهت إلى الأسماع أغنية من أغانى عيد الميلاد .. وأصغى الكل إليها فى سرور . . وتتابعت بعد ذلك أغنيات ، أنشدها جمع من الشباب من الجنسين ، كان المعلم دراجوس قد اجتهد فى تنظيمهم ، وجاء بهم مفاجأة للشريف الكبير الذى سر سرورا بالغا فى الحقيقة . . وأمر الشريف أن يأتوا إليهم جميعا بشىء من الطعام والشراب ، ثم هنأ دراجوس وطلب إليه أن يمكث للعشاء .

واستمرت الوليمة بطبيعة الحال حتى منتصف الليل تقريبا ، وتخللتها كل صنوف الأنبذة ، كما أحيتها فرقة فانيتسا الموسيقية الشهيرة فى بيلستى — ثم تقدم الوالى بنخب ؛ ورأى العقيد ستيفانسكو أن من واجبه أن يحذو حذوه ، فشرب على صحة نادينا ، وعلى صحة كل من حضرن من سيدات . . وأبدت نادينا رغبة فى الرقص وشاركتها أخريات فى هذه الرغبة ، ولكن المائدة استمرت منصوبة . . ومن ثم طوى حاجز الزجاج المؤدى إلى البهو ، وتقدم الموسيقيون إلى قلب القاعة — الأمر الذى أسعد الناس جميعا ، سواء من بقى منهم على المائدة ، أو الراقصون الذين أطلقوا العنان لعواطفهم فى القاعة الأخرى . .

وحملت نادينا ميرون نفسه على أن يراقصها رقصة فالس قديمة العهد . . على أن رءول هو الذى تولى زمام الرقص ، إرضاء لنادينا لا أكثر ، رقص مع جميع السيدات . . وكانت السيدة الوحيدة التى رفضت أن يراقصها هى زوج الوالى ، التى اعتذرت فى بشاشة ، وقالت إنها تجاوزت السن الذى يتيح لامرأة أن تكشف عن مفاتنها ، وكان جوجو أيونيسكو ، رغم سنيه الخمسين ، منافسا خطيرا إزاء رءول ، وإن كان فى حقيقة الأمر قد رقص أغلب الرقصات مع يوجينيا ولأجل خاطرها فقط . . كذلك لم يشأ تيتو هيرديليا أن يتوارى ، أو يحرم على نفسه مراقصة نادينا ، فقال لها وهو مشبوب العاطفة فى أثناء رقصة بطيئة : « هذا

انتقام القدر لصباح اليوم ! » واهتصرها من خصرها ، فردت عليه غير عابئة .
« احترس وإلا كان شأنك شأن الضابط ! »

وأحس تيتو أنه قد تلقى دشا من الماء البارد . . وخجل من نفسه وتراجع ، واتخذ لنفسه مقعدا متواضعا إلى جانب دراجوس ؛ ولكنه ظل يرقب نادينا فترة من الزمن . . وكانت ترقص الآن مع رءول برومارو .

قال رءول وهما ينتحيان ركنا قصيا : « أرجو على الأقل أن تكونى قد لحظت التضحيات التى أبذلها . . »

والتصقت نادينا به دون أن تتطلع إلى وجهه .

أما هو فواصل حديثه ، وهو يضمها إليه ، ويترك يده تداعب ظهرها : « أنا يائس » . . لم أعد أستطيع صبرا . . لماذا تعذبيننى هكذا ؟ »

وتمتمت نادينا : « كن صبورا . . ولكن لا تمسك بى هكذا ، فقد يلحظ الناس . »

قال : « لقد وعدتنى يا نادا . . هل نسيت ؟ . . سأكون فى انتظارك يا نادا . . أتسمعين . . قولى إنك ستحضرين . . أرجوك يا نادا . . . »

« نعم ، نعم . . وكفى كلاما . . » همست بها ، وقد أمسكت ساعده بيدها اليسرى ، لأنها سمعت إذ ذاك صوت الضابط على مقربة منها ، تصحبه قرقعة مهمازيه ، قال : « رحمة بنا نحن أيضاً ياسيدتى . . . »

فتركت نادينا برومارو ، وانطلقت إلى ذراعى الضابط ، وهى تشدو مغردة : « نعم ، هذا السيد على حق . . أما أنت يارءول فعليك بالصبر . . وحسبك النهاية ! . »

وسر الضابط جرادينارو ، وسحبها مزهوا .

ولحظ تيتو رءول وقد هجرته الحبيبة قلى وتجنبا ، فوقف فى وسط البهو ، وعيناه لا تزالان عالقتين بها وهى تختفى مع زميلها ، فتبسم تيتو فى رضى داخلى ، فقد خال أنها لابد قد صدت برومارو على النحو الذى فعلته معه ، فحدث نفسه معجبا بها : « يالها من امرأة رائعة ! »

وجرى النقاش محتدما على مائدة إلى جواره . . وكان الوالى بوريسكو قد بدأه بمديح الحكومة ، فأثار بهذا نقداً لاذعا من جانب العقيد ستيفانسكو الذى لم يتردد فى التصريح قائلا : « لابد أن تحل بنا الكوارث لو استمرت الفوضى ضاربة أطنابها . . . » وما كان الرجل يعتنق رأيا سياسيا معينا ، وما كان كذلك يعنيه أى من الأحزاب تولى الحكم ؛ ولكنه كان يتوقع من الحكومة أن تعمل ، وأن تكون على بينة مما تريد ؛ وأن تحفظ الأمن والنظام ، وإلا حل الخراب بالبلاد . .

فقال الوالى متعاليا : « لا بأس ، لابأس ياسيادة العقيد ، فأنت وحدك الذى ترى الفوضى ضاربة ، لأنك تقف موقف المعارضة . . . ومن العبث أن تقول إنك لا تعتنق رأيا سياسيا معينا . . . فأنت مثلا . . . ألم تعط صوتك للحزب المعارض منذ سنتين ؟ إذن . . . »

فصاح العقيد غاضبا . « سيدى ، أنا أعطيت صوتى وفق ما أملاه على ضميرى ، كمواطن أمين . . وأنا لم أنضم إلى حزب معين ، لا حزب المعارضة ولا حزبك ؛ وهذا بالضبط ، لأحفظ لنفسى الاستقلال فى الرأى ! »

وواصل بوريسكو الكلام فى لطف . « لا تغضب ياسيادة العقيد : . . فأنا لا ألومك على إعطاء صوتك لمن شئت ، ولكنى لا أستطيع أن أسمح لك بأن تحط من قدرنا ظلما . . هذا كل ما فى الأمر !! »

ثم ، دون أن ينتظر العقيد حتى يلتقط أنفاسه ، وجـــه الخطاب بغتة ، كأنما قد هبط عليه وحى سعيد ، إلى المعلم دراجوس ، الذى لم يقل شيئاً حتى ذلك الحين .

« استمع إلى أيها السيد . . . ما اسمك ؟ لقد نسيت . . »

فقال المعلم : « اسمى دراجوس ! »

« نعم ، نعم . . . دراجوس . . خبرنا بربك فأنت تعيش مع الفلاحين ، وأنت من عامة الشعب . . . قل لنا صراحة ، ولا تتردد . . هل الهدوء والنظام مستتبان فى هذه الأنحاء ؟ أم أن الأمر كما يقول هـذا السيد ؟ . . أرجو أن توضح لنا . . . »

وتردد المعلم قليلا ، ثم أجاب وهو لا يحيد ببصره عن عيني الوالى : « يوجد سلام وهدوء ، ولكن يوجد كذلك فقر مدقع ! »

وتجهم بوريسكو قليلا : « أتقول الفقر؟ ... نعم ، بالطبع .. ولكن الفقر ليس من اختصاص الحكومة .. إنه يتوقف على الظروف وعلى الناس .. أما الحكومة فمن واجبها أن تعمل على توازن القوى ، هذا هو كل ماهناك ... »

فاستمر دراجوس ، فى لهجة أشد حدة عن ذى قبل تبريراً لموقفه ، قائلا : « طبعا ، ولكن ، كما ترى ، هذا هو عيد الميلاد ، ومع ذلك فالكثرة الغالبة من الناس لا تجد لديها ذرة على الإطلاق .. هذه حال مريعة ... فكر معى ... ماذا يفعل هؤلاء البؤساء حتى يحل الخريف المقبل ؟ .. لا سبيل أمامهم غير الشحاذة ، لا أقل... إن عشرات الرجال والنساء أخذوا يمدون أيديهم استجداء للذرة لا أكثر ؛ وإنهم ليقعون فى ديون لن يتمكنوا من الوفاء بها ألبتة ... وما يحدث هنا يتكرر فى كل مكان ، إن لم يكن على صورة أسوأ ... »

واستعاد ستيفانسكو ثقته بنفسه ، فقطع الحديث موجها الخطاب إلى الوالى .

« الواقع أن الأمر كما قلت لك ياعزيزى الوالى !.. بالضبط !.. الناس لايجدون كفايتهم ، وهم يهمهمون ويصخبون ويتوعدون .. بربكم أيها السادة ، أليست هذه هى الفوضى ؟ .. ثم إن المحصول هذا العام محصول طيب ؛ وكل شىء على مايرام .. تصوروا ماذا يكون الحال لو ابتلينا بالقحط أو غيره من خطوب ؟.. أنا أعتقد أن الفلاحين سيعصفون بمخازن الأشراف ، دون ما ضجة أو صخب ، إن لم يكن أسوأ من ذلك ! »

وارتبك بوريسكو ، وبخاصة نظراً لوجود تيتو ، لأنه قد يردد فى بوخارست ما سمعه فى مقاطعة الوالى ، فيرميه الناس هناك بالضعف وسوء الإدارة .. وأخذ يبحث عن جواب حاسم ، ولكنه لم يهتد إلى شىء ، فضاق صدراً .. أما ميرون أيوجا فقد قال فى هدوء : « هذا كله نتيجة الكلام الفارغ الذى يسرى فى المدن ... ذلك مصدر الشر الذى يولد السخط بين الفلاحين ، ويبعث فيهم روح العصيان... وعندما يأتى أناس المفروض فيهم أنهم ذوو مسئولية ، فيصرحون بأن الفلاح

لايستطيع العيش لأنه لايملك أرضا ، نجد الفلاح بطبيعة الحال يطالب بالأرض ، ولا يحترم ما عليه من التزامات . . . هذا هو بيت الداء ! »

فصاح العقيد : « لقد عبرت عن مشاعرى تماما أيها الشريف ميرون ! ! . . إن الفلاح يجلس فى الحان ، ويصرف مايتكسبه على الشراب ، ثم يجأر بالشكوى بأنه لا يجد ما يكفيه . . »

ولم يتمالك المعلم نفسه فأضاف : «صحيح أنه يوجد كثير من السكارى ولكن...»

على أن العقيد لم يتح له أن يفرغ من كلامه ، فاستطرد : « إنهم قوم مشاكسون طماعون ياسيدى ! . . هذا هو السبب الذى يجعلنا فى حاجة إلى قبضة حديدية تضع عقولهم فى رءوسهم ، وإلا . . . . »

فقاطعه الوالى ساخرا ، كأنما قد عثر الساعة على ما كان يبحث عنه من جواب حاسم : « أنت أيها العقيد تريد حكومة تضرب الفلاحين بيد من حديد ، أليس كذلك ؟ . . آمنت بالله ، لم لم تقل ذلك ؟ . . أنت ترى يا سيد هيرديليا ما يطلبه هذا السيد من الحكومة .. أرجو أن تكتب عن هذا فى « الدرابلول » ، حتى يسمع به الزعماء أيضاً — ما أفدح ما يطلبونه منا ، نحن الذين نمثل الحكومة .!!

وهبت إذ ذاك السيدة « بنتى » فقالت إن الوقت قد حان للانصراف ، ووافقتها زوج الوالى .. وعبثا حاول جريجور وميرون أن يعترضا ؛ وبعد عدة دقائق اكتشف الضيوف جميعا أن الساعة قد أشرفت على الرابعة صباحا، فنهضوا راحلين .. ولكن ثمة مشكلة خطيرة أثارتها السيدة بنتى نفسها: ماذا تفعل حيال أطفالها الثلاثة الذين أرسلتهم إلى الفراش بعد العشاء مباشرة ، وهم الآن يغطون فى نوم عميق ؟ . . حرام عليها أن توقظهم من رقدتهم، وهى تخشى عليهم الإصابة بالبرد لو خرجوا من الدفء الذى كانوا فيه إلى البرد القارس بالخارج .. وأصر جريجور على أن ينام آل بنتى عندهم ، واقترح أن يرجعوا إلى ليسبيزى صباح الغد ، أو يتلبثوا ما شاءوا . . كانت هناك غرفة بهيجة تحت تصرفهم، إلى جوار غرفة الأطفال مباشرة ، وهى غرفة تلى بدورها غرفة ناديناء ومن ثم سيشعرون بأنهم فى بيتهم تماما .

وتفرق الضيوف واحدا بعد واحد.. ثم مضى ميرون أيوجا إلى بيت الدائرة القديم ، أما من تخلف من الضيوف فقد صعدوا إلى الدور العلوى ، وأخذوا يتسامرون برهة على بسطة السلم ، قبل أن يأووا إلى فراشهم .. واسترقت بنتى وزوجها النظر إلى غرفة أطفالهم بما ينبغى من حذر قبل أن ينطلقا إلى غرفتهما.. أما هيرديليا وبرومارو ، وكانا يقطنان فى غرفتين متجاورتين ، تقعان وراء خلوة كبيرة فوق الشرفة حيث قامت نافذة زرقاء فوق المدخل الرئيسى ، فقد انطلقا إلى الفراش .. وكان القمر كاملا ، وقد انساب نوره من خلل الزجاج الأزرق ، فتوقف تيتو فى منتصف الطريق ، والتفت صوب نادينا وجريجور ، وقال فى شجن خليق به كشاعر : « إنها ليلة من ليالى الجنة ! »

وفتحت نادينا باب غرفتها .. كان الناظر يرى ، على ضوء المصباح الخافت المشتعل أمام الأيقونة ، السرير الكبير ، وقد بدا أبيض دافئاً. تطل عليه صورتها من عل .. وتساءل جريجور فى هدوء ، « هل أنت سعيدة يا حياتى ؟

قالت : « الحق أنى استمتعت بوقتى جدا جدا ... » وما لبثت أن أضافت بعد برهة قصيرة ، فقد عجزت عن مداراة فتورها : « أنا الآن فى غاية التعب بحيث ... »

ورنا جريجور إليها ، مشفقا عليها لما أصابها من إرهاق واضح ، فهمس برقة : « لقد أسرفت فى الرقص . ولكن هذا لا يهم ... أنا مسرور لأنك سعيدة ... لا بأس .. سأتركك الآن يا حبيبتى ، طابت ليلتك ! »

وأخذها بين ذراعيه ، وقبل شفتيها المتوقدتين.. وانسابت من حضنه فى رقة ، وقالت مبتسمة : « طابت ليلتك أيها الحبيب ! ... »

ووقف زوجها وهلة أمام بابها الذى أغلق دونه .. وتناهت إليه من أسفل همسات الخدم ووقع أقدامهم ، وهم يعيدون إلى البيت شيئا من النظام قبل أن يأووا إلى فراشهم ... وأطفأ هو الأنوار ، ولم يبق إلا ضوء القمر الأزرق وقد اختلط بظلمة الليل .. وكانت الطرقة الصغيرة الضيقة التى تؤدى إلى الغرفة التى تعود أن ينام فيها ، طرقة مألوفة جدا لديه .. وكانت غرفته تقع فى الظهر ، وبها نافذة تطل على بيت الدائرة القديم .

وخلع ملابسه ، وألقى بنفسه على الفراش ... ولكن النوم أبى أن يداعب أجفانه .. فقد أفعم قلبه بهجة وقلقا .. حقا لقد مضى زمن طويل منذ أن تاق إلى نادينا كما تاق إليها الليلة ، ولكنه مع ذلك رجع وحده هاهنا ... ومع ذلك فهذا خير وأبقى ، وإلا فما الفرق بين الحب الذى يكنه لها ، وحب الوحوش الضارية .. واندفعت به الأفكار مجنونة هنا وهناك ، فأخذ يرسم الخطط ، ثم ينسخ مارسم ، ثم يبنى آمالا جديدة .. ومرت ساعة من الزمان أو أكثر ، ولم تبد بارقة تدل على مقدم النوم .. ربما كانت الغرفة دافئة أكثر مما ينبغى .. ونهض من فراشه ، ولبس جلبابه ، ثم أشعل سيجارة .. لامناص من أن ينعش نفسه قليلا .. كان الظلام حالكا الآن أشد من ذى قبل .. وكانت أشعة القمر تتلاعب على السلم فى تراخ وفتور .. وتحسس طريقه ، وبلغ الخلوة التى فوق الشرفة ، حيث انتثرت هناك بضع كراس ومناضد صغيرة .. والتمس لنفسه كرسيا وجلس عليه فى حذر كما جاء ، كأنما خشى أن يزعج أحلام النائمين حوله .. وجلس وظهره إلى الحائط الذى كان يفصله عن حبيبة القلب .. ورأى وجه القمر الرهيب الغريب ، على مدى أمامه من خلال الزجاج الأزرق .. كان الهدوء مستتبا هنا أكثر مما كان فى غرفته ، وكانت البرودة التى التفت به قد هدأت من سورة نفسه ، وسكنت من ضربات قلبه .. ومال برأسه على ظهر الكرسى ، وأغمض عينيه ، وغمغم يحدث نفسه مبتهجا . « لا أظن أن من المستحسن أن أغفو هنا .. » وأخذ يسحب أنفاسا من سيجارته من آن إلى آن ، فانبعث منها وهج من الضوء الوردى .

وخيل إليه فجأة أنه قد سمع بابا يفتح ويغلق دون أن يند عنه صوت تقريبا . وأرهف أذنيه برهة ، ثم عجز عن كبح فضوله ، فنهض فجأة على قدميه .. وإذا بكرسيه يسقط على الحائط .. ونظر عن شماله أولا ، صوب غرفة نادينا ، ثم نظر إلى يمين .. وخيل إليه أنه يرى على الحائط ، بين غرفة هيرديليا وغرفة برومارو شبحا أسود يتحرك فى الظلام الدامس .. واقترب جريجور يستجلى الأمر .. كان الشبح ملتصقا بالحائط ، وقد مد يديه إلى أمام .. وإذا به يمسك بذراعها العارى ، ويتعرف عليها فى نفس اللحظة : « آه ، أهذا أنت .. لقد ظننت أنها خادم ... »

كان فى وسعه أن يحس بجلدها ناعما رخصا ، وقد علاه شىء من البلل فسحب

يده كأنما قد لمس جلد حية رقطاء .. وغلبه التقزز ، فبصق قائلا : « ياعاهرة! »

وأدار ظهره لها ، وعاد يشق طريقه خلال لجة الليل صوب غرفته ، مسرعا الخطى كأنما تتوعده موجة عاتية فأطبقت على قلبه .

وفي اليوم التالى نهض رءول برومارو مبكراً أكثر من غيره ، فهبط الدرج فرحا ، وهو يدندن بأغنية جديدة لقيت رواجا فى باريس . والتقى فى الدور الأول بجريجور .

« لقد غلبتنى ياعزيزى جريج ، فقد حسبت أننى أول من نهض ! » قالها وهو يقترب من مضيفه ، مادا يده مصافحا .

وتجاهل جريجور اليد الممدودة ، وأجاب فى صوت أجش : عد إلى بوخارست فورا .. المركبة فى انتظارك بالباب » .

وغاض الدم من وجه برومارو .. وتملكته الدهشة ، فغمغم بعبارات لارابط بينها . وأعاد جريجور القول : « أمامك ربع ساعة! »

وبعد خمس عشرة دقيقة كان برومارو قد ارتدى ملابسه .

ورفع بيتر السوط . فقد كان يقوم بعمل إخيم . . . فلما انطلقا ، صاح جريجور من قمة الدرج : « رفقا بالفرسين يابيترا » .

الفصل الخامس

الحمى

— ١ —

أبدى القوم أسفا على رحيل برومارو المفاجئ، فقد كان شابا فى منتهى الظرف ومع ذلك فقد استمر الهرج والمرج رغم رحيله ، وبلغ حدا جعل السيدة بنتى ترى لزاما عليها أن تدخل ، فقد لحظت أن زوجها قد استغرق فى حوار عنيف مع ميرون أيوجا وتيتو هيرديليا ، قالت : «هيا ياعزيزى الكسندرو .. لابد لنا أن ننصرف ، وإلا اضطررنا إلى قضاء ليلة أخرى هنا».

وصحبتهما نادينا حتى ليسبيزى استرواحا لنفسها ، ورياضة لبدنها .. وعادت فى وقت متأخر ، ساعة الغداء تماما .

وكان من المقرر ، وفقا للبرنامج الموضوع ، أن يصرف القوم ثانى أيام العيد فى بيت جوجو .. أما ميرون أيوجا فقد تخلف عن الركب ! فقد أبى أن يغير من عاداته ، ويترك بيته يوم عطلة .. كذلك صرح جربجور بأنه لن يستطيع الذهاب فهو مضطر إلى الشخوص إلى بيتستى حيث استدعى لأمر عاجل هام .

وفرح تيتو إذ وجد أن عليه أن يصحب نادينا وحدها ، رغم أنها بدت منحرفة المزاج .. فلما بلغا ليسبيزى ، حيث أزمعا البقاء للعشاء ، اشتكت زوجها قائلة إنها لم تلق منه إلا مايجرح أحاسيسها الطبيعية طيلة حياتها الزوجية : على أنها قبيل المساء عادت إليها حيويتها . واستعادت حلاوتها وبهجتها وهما عائدان إلى البيت ، فأخذت تثرثر فى بشر طوال الوقت ، وتضحك على نكات تيتو وتوقف المركبة لتتأمل القمر معجبة ، وتترنم بأغان فرنسية فى صوت تجمد من البرد .

والحق أن نادينا وجدت نفسها فى موقف حرج إزاء جربجور ، ولم تعرف أى طريق تسلك .. أمام القوم فلم يلحظوا شيئا ولكنه فى الواقع لم يوجه إليها

كلمة واحدة ، كما أنه لم يطلب منها تفسيرا ... لقد خطر لها أنه تبع برومارو ، وأنه اشتبك معه فى مبارزة .. ومثل هـــذا الأمر لامناص أن يؤدى إلى الطلاق ... ولو أمكن تجنب هذا ، فقد يلتمس جريجور حلا آخر أقل استثارة .. وهى من أجل هـذا وحده تطرقت إلى الـكلام عن زوجها وهى ببيت أخيها ، فى لهجة تمهد الطريق بها لأى حدث فى ضمير الغيب .

وفى اليوم الثالث من أيام العيد ، وإذ بناديننا تعود من نزهة قامت بها ، التقت بجماعة من الفلاحين فى الفناء ... وأحست بالسخط والضيق ... وكان بيتر بينهم ، وكان الفلاحون قد جاءوا به ظنا منهم أنها قد تلقى إليه أذنا واعية ، لأنه سبق أن قاد لهـا مركبتها ... ولـكن ماكاد الشاب يتفوه بـكلمات ثلاث حتى قاطعته نادينا فى حدة : « هل بلغ الأمر بكم أن تعترضوا طريقى ؟ .. ألم أقل لـكم إننى لن أبيع ؟ لماذا لاتتركوننى أنعم بالهدوء ؟ .. لقد جئت هنا ألتمس شيئا من الهدوء ، لا ... »

وانطلقت فى طريقها ، وصعدت الدرج غاضبة .

وتبعها هيردليا مضطربا ، وهو يهز رأسه .. ماكان يحسب أبداً أنها قادرة على كل هذه الثورة وهذا الغضب .

وظل الفلاحون حيث وقفوا ، يتطلع كل منهم إلى الآخر مرتبكا .. ورانت فترة طويلة من الصمت ، ثم قال ماران ستان متضاحكا ، وهو يحـكم طاقيته : « يالها من شيطان فى صورة امرأة !! »

ولـكن بيتر غمغم ببلادة : « صبرا ياسيدتى ، لابد أن نلتقى أنا وأنت ذات يوم !! »

واضطر تيتو ، إذ كان بيت دراجوس فى الضحى ، أن يستمع مرة أخرى إلى هموم أهل القرية ..

أما ميرون أيوجا فقـد أخذ فى نقاش حاد مع نادينا ـ بشأن باباروجا بطبيعة الحال .

ورجع جريجور أخيرا فى اليوم الرابع ، وكان يوم أحد ، ليلا ... واعتذر

عن غيابه الطويل ، وبدا سعيداً ، كأنما كان كل شيء قد جرى على هواه . . .
وحدث نادينا قبل العشاء قائلا إنه يريدها فى كلمة .. وتساءلت بابتسامة مغرية ، وقد لحظت الأسى فى نبراته وأساريره : « أتريدنا أن نذهب إلى غرفتى بالدور العلوى ؟ »

« لا ، لا . . . » قالها الزوج معترضا ، وقد اربد وجهه فجأة ، شأنه شأن من يرى خطرا يتهدده .

ودخلا قاعة صغيرة ، فقال جريجور بهدوء وبساطة : « هاك ما عزمت عليه » .

غدا ، الاثنين ، بقطار الضحى السريع ، الأمر الذى يتيح وقتا للاستعداد ، عليها أن تذهب إلى بوخارست . . . وهناك لابد لها من الاتصال فوراً بأحد المحامين للتقدم بطلب للطلاق ، على أساس أن الهجر من جانبه . . . طبعا هو لم يذهب إلى بينستى ، فما كان فى مقدوره أن يدبر أى شيء هناك فى أثناء أيام العيد ، بل ذهب إلى بوخارست كى ينقل أمتعته الشخصية إلى بيت خالته ماريوكا ، أرملة الجنرال كونستانتينسكو . . . وإنه ليقدم على هذا الإجراء ، على ما فيه من مشقة ، تجنبا للفضيحة ؛ ولكن على شريطة ألا تماطل وتسوف ؛ فهو والحالة هذه لن يضمن أن يقف موقفا سلبيا .. ثم ليذهب الشاب هيرديليا فى صحبتها ، حتى لا تسافر وحدها . وهو قد ابتاع فعلا تذاكر القطار فى كوستستى ؛ فلم يبق أمامهما إذن إلا أن يركبا القطار .

وكانت نادينا أول الأمر مهتاجة المشاعر ، ثم أخذت تستمع فى هدوء ، وقد زمت شفتيها فى سخرية لطيفة .

« لا بأس . . . » قالتها عندما انتهى من الكلام ، ثم خرجت وهو فى أعقابها .

وصرحت ، وهى تجلس إلى المائدة ، بأنها قد سئمت الريف ، وأنها تزمع الرحيل فى الغد ... وحاول ميرون أن يثنيها عن عزمها ، ولكن دون جدوى . . قالت إنها ستخلف جريج وراءها ، ولكن بودها لو صحبها السيد هيرديليا .. وتلقى تيتو هذا الاقتراح متحمسا بطبيعة الحال ، أولا لصحبتها ؛ وثانيا لأنه سيوفر أجر السفر .

وتبادلوا التحية فى البهو الكبير . . فقد كان الجو بارداً جداً فى الخارج . . وكانت نادينا قد ارتدت قفازها ، والتفت فى الفراء ، فمدت يدها بطريقة طبيعية ، وقالت : « وداعا ياجريج ! »

« وداعا !! » همس بها جريجور، فى صوت غير مسموع تقريبا ، وهو لايكاد يلامس يدها — كأنه خائف من نفسه .

وودعها أيوجا الشيخ حتى الباب ، وكان مفتوحا هونا ، فدخلت منه لفحة من البرد والنسيم . .

قال الشيخ وهو يفرك يديه : « يالها من امرأة جميلة فتانة . . . عار عليك ياجريجور أن تدعها تذهب هكذا سريعا ! »

فلما سمع بالطلاق ، أسرع يستعيذ بالله من الشيطان قائلا : « قل شيئا غير هذا ! ! . هذا جنون مطبق ! » وضاعت تأويلات جريجور سدى ، وبخاصة لأنه لم يكشف عن خبيئة السبب المستور . . وأبى الأب أن يستمع إليه . . . فهو ، وإن لم يقل هذا صراحة ، كان يفكر فى أن ابنه لو سرح نادينا ، فسيفقد هو كل أمل فى ضيعة باباروجا ، لو فكرت نادينا فى بيعها .

قال ميرون أيوجا : « أعتقد أنها أكثر حذقاً منك ، وأنها لن ترفع دعوى تطلب فيها الطلاق ! »

فأجاب جريجور : « إنها إذن سوف تعض بنان الندم ! » .

— ٢ —

استمر البرد شديد الوطأة طوال أربعة أسابيع قبل عيد الميلاد ، ومع ذلك لم تبد بادرة تدل على تغير الطقس ... وبدت القرية غارقة إلى وسطها فى الثلج ولم يجرؤ أحد على إطفاء النار فى المدفأة لحظة واحدة . . وشعر الشريف ميرون بشىء من الشفقة على الفلاحين ، فسمح لهم أن يحملوا الأغصان الميتة من غاباته دون أن يتقاضى عنها ثمناً ، أو يقيد ثمنها فى دفاتره ، دينا عليهم . . ولكن الشتاء

أخذ يسير وئيدا ، وأخذت بالتالى الأغصان الميتة تقل شيئاً فشيئاً .. وبدأ بعض الناس يستوقدون خشب سياجهم ، بل قطع بعضهم الأشجار التى فى حدائقهم .

ويوم الأحد ، اكتظ ديوان القرية بالناس .. وكان العمدة برافيلا قد وصل مبكرا ، فانتظر فى صبر حتى تجمع الناس كلهم .. إنه لم يخبر أحداً بما أمر أن يقوله من تعليمات .. ولم يبدأ فى الكلام إلا عندما رأى المدخل ذاته قد غص بالناس ، وإنه لم يعد هناك متسع لقدم فى المكتب ؛ وكانت الرجفة التى فى صوته ترجع إلى كأسين من شراب البراندى كان قد احتساهما فى حان بوزوك التماساً للدفء .. قال إنه رجل رقيق القلب ، يخشى الله فى معاملاته مع الناس ، وإنه يغمض طرفه عما يقترفونه من مخالفات عديدة ، ثم استطرد فاشتكى من أن آمارا قد أصبحت وكرا للصوص ، فلم تنقض ليلة منذ عيد الميلاد حتى الآن دون أن تحدث سرقة . . لقد سرق اللصوص الملتزم كوزما بيريونا ، كما تعرض هو نفسه لأن يتركوه دون أية ذرة يزرعها . .

وزمجر سيرافيم موجوس بصوت عال سمعه القوم جميعا : « لقد قاسينا كثيرا بسببه الخريف الماضى ! »

وصدق العمدة على كلامه ، ولكنه أثنى على الملتزم ، فهو ، قد عوضهم عن جريرته منذ ذلك الحين ، رغم أنه لم يكن على ذلك مجبرا .

وعندئذ صاح ليوتتى أوربيسور من المدخل : « نعم ، ولكنك أيها العمدة لا يمكن أن تعوضنا عن الضرب المبرح الذى نزل بنا ! »

ولم يشك كوزما بيريونا رغم ذلك ، فقد خشى أن يسمع الشريف الكبير بهذا ، فيسبب مزيدا من المتاعب .. ولقد مضى نحو أسبوع والمجرمون يحومون حول بيت الشريف أيضا .. نعم ، إن السرقة من الشريف لاتهم كثيرا ، فهى على كل حال ليست بالخطيئة كما يقول الناس ، لأنهم يستعيدون عرق جبينهم ..ولكن اللصوص سطوا على أهل القرية أيضا ، خطفوا دجاجة واحد منهم ، وذرة واحد آخر ، هذا فضلا عن الآب نيكوديم . فكل واحد فى القرية قد سمع كيف سرق اللصوص لحد

الخنزيرين اللذين ذبحهما فى عيد الميلاد .. وزوج ابنته فيليب إليوزا موجود، وإنه ليستطيع أن يشهد على هذا الكلام .. وهنا توقف العمدة ، ليفسح لزوج ابنة القسر فرصة الحديث .. أما فيليب ، وكان ثقيلا غبيا ، فقد تململ وسعل وأومأ برأسه ، فاشتدت بالناس الرغبة لأن يلعنوا أولئك الكافرين الذين سطوا على رجل من رجالات الكنيسة .. وقبل أن ينطق فيليب بكلمة ، صاح إيجنات سيرسل : « الناس يسرقون حيث يجدون شيئا يسرق — ولكن ، ماذا يأخذون من أمثالى ؟ أيأخذون الفقر ؟ »

وتصاعد بعض الضحك إذ ذاك، وبخاصة عند المدخل ، بل، ومن داخل القاعة أيضا .. واشتد الغضب بالعمدة ، وقال « نحن ما جئنا هنا للتنكيت يا إيجنات وأنا لم أدعكم هنا للهزل ؟ »

فرد الفلاح ، فى لهجة أشد تواضعا عن ذى قبل : « أنا لا أهزل ياعمدة ... فجابى الضرائب قد استولى على الخنزير الذى كان لدى ؛ بل لم نعد نملك ذرة أو حطب .. وأطفالى يولولون من الجوع والبرد . »

وهتف ليونتى أوربيسور فجأة ، كأنما قد بثت الشجاعة فى نفسه : « ليس فى مقدورنا أن نمضى هكذا ! .. نحن لا نجد ما نتبلغ به هذا الشتاء ... إما أن نموت ، وإما ... »

وتعالت عدة أصوات عند المدخل تأييدا : « هذا حق .. نحن نموت موتا بطيئا . »

وعندئذ جلجل صوت خلال الهمهمة العمومية : « هذا هو اليوم الثالث الذى لم أذق فيه شيئا ، وإنها لمعجزة أننى ما أزال أستطيع أن أقف على قدمى ، أى والله ! ! »

فصاح العمدة غاضبا ، استعادة لهيبته : « هيه .. هيه .. كفاكم هذا .. » وخفتت الضوضاء قليلا ، فاستطرد يتحدث فى رقة : « هناك فقر لاشك فى ذلك، ومجاعة أيضا بدرجة عالية ؛ ولكن هل معنى هذا أن تأتوا غدا فتمسكوا بخناقى لأنكم جوعى .. ؟ هل هذا قصدكم ؟ »

« نعم ، نعم . » هتف بها الصوت المجلجل مرة أخرى ، فى لهجة كان من الممكن أن تنم عن أى معنى . .

وكان الصوت صوت ميلينت هيرفيمو ، وكان رجلا طويل القامة ، غائر الخدين ، صفراوى السمات . . وكانت عيناه السوداوان تتأججان يأسا . . وكان له ثلاثة أطفال وزوجة ، رقدوا جميعا مرضى فى بيته ، لا هم بالأحياء ولا هم بالأموات .

واعتبر برافيلا أن هـذا الجواب معناه أن هيرفيمو متفق معه فى الرأى ، فاستأنف الكلام مرتبكا من حيث توقف ، قائلا إنه ينفض يديه من الامر كله من الآن فصاعدا ؛ وإنه سيحول جميع الشكاوى إلى رجال الشرطة ، ليحققوا بأنفسهم فى السرقات ، وليعيدوا الأمن والنظام إلى القرية . . وهنا زجر سيرافيم موجوس مرة أخرى ، كأنما اتقدت شوكة فى قلبه : « أتقول الشرطة ؟ . إنهم موجودون للزراية بالناس ، ولإيقاع العذاب بهم ظلما ، هذا كل ما فى الأمر . »

ورد العمدة متحمسا : « ولكن من واجب الناس أن يلزموا الجادة أيضا ياسيرافيم . . » ثم التفت إلى الجمع ، وقال : « هذا فى الواقع ما أردت أن أقوله لكم ، . أما أنتم فعليكم أن تتكلموا ، وأن تصرحوا بما يجول فى نفوسكم . . فأنا لا أريد أن يزعم أحد منكم فيما بعد أنه لم يعرف ، أو أننى لم أكن منصفاً »

وأخذ نفر من الناس يتحدثون معا فى آن واحد ، كل منهم فى موضوع مختلف . . قال بيتر بيتر آمرآ ، وكان يقف إلى جانب نيكولاى دراجوس ، « مهلا ! ! اتركوا كل واحد يتكلم بدوره ، حتى يفهم بعضنا بعضاً ، ونتفاهم كما يتفاهم البشر ! »

وتكلم لوكا تالابا أولا ، ولكنه لم يتناول أى موضوع يتعلق بمتاعب العهدة . . وإنما أخذ من فوره يتحدث عن باباروجا ، وهو الموضوع الذى سرق النوم من عينيه ؛ قائلا إن الشتاء قاس لاشك ، ولكنه لن يلبث أن يمضى كلمح البصر ، ثم يبدأ الربيع ، ويبدأ معه العمل فى الأرض .

« ماذا عسانا فاعلين ؟ . . هل نقنع بالوقوف مكتوفى الأيدى ، بينما يخطفها اليونانى منا ؟ . . إن السيدة تهزأ بنا ، بل هى تطردنا من حضرتها حين نريد أن نعقد معها صفقة عادلة . . ثم لا ينبغى أن نجلس هكذا نقرض أظفارنا ، ونشكو الفقر ، ونقول إنه سيقضى علينا ! »

شعر بيتو أن من واجبه أن يقول لهم شيئاً من شأنه أن يزيد الأمور تعقيداً ، فيخبرهم بأن السيدة تنفصل عن السيد جريجور .. ولقد جاءه الخبر عن أبرينا ماريورا ، ابنة أخت الطباخة التى تعمل فى بيت الشريف . . ومن ثم لا يدرى أحد غير الله متى تأتى السيدة إلى هـــذه الناحية ثانية ؛ أو متى تتاح لهم الفرصة ليبادلوها الكلام .

ووقع عليهم هذا الخبر وقع الصاعقة .. وعم الهرج والمرج ، شأنه شأن الضجيج الذى تعالى فى الحان ؛ وانهالت الاتهامات من كل جانب . وجاء تريفون غوغو ، وقد ازداد غلظة وتجهما ، فاتهم العمدة بأنه قبل برهة قال إن ماقاله لوكا كان خطأ ، وإنه الآن يلف ويدور لأنه يعلم من أين تؤكل الكتف .. واحمر وجه برافيلا ، وصرخ مستنكراً ، ولكن صوته غرق فى صياح تودر ستريمبو من المدخل : « خير لك ، بدلا من أن تتآمر على الفقراء ، أن تأتى معنا إلى أصحاب الأرض ، وتطلب إليهم أن يوزعوا العزبة بيننا ، إن رأت السيدة أن تتخلص منها ، إذ لم تعد بعد فى حاجة إليها . »

وأيده ليونتى أوربيسور ، فصاح : « أحسنت !.. هذا هو الرأى السديد ! »

وانبعث صوت تريفون غوغو من جـديد صرصراً عالياً من شدة الجلبة : « بل نذهب إلى جلالة الملك نسأله أن يعدل بيننا ! »

أما العمدة ، فقد أشرقت أساريره بتأثير الصياح ، فاستأنف الكلام أكثر هدوءا عن ذى قبل ، بل وبمسحة من السخرية ، قائلا : « لماذا هذا الكلام الفارغ أيها الناس ؟ . وأنا الذى كنت أظن أنكم عادة عقلاء كغيركم من بنى الإنسان ! . . بالله هل سمعتم عن شريف يعزق أرضه كأنها كوم من الزبالة ؟ . . خذوا تريفون هذا الذى يثرثر بالكلام ، إنه ليرفض أن يتنازل عن قطعة صغيرة من المامااليجا — وعلى العموم هو لا يملك منها شيئا — ولكنه مع ذلك يريد من الغير أن يتنازل عن

ضيعة بكاملها! — لا بأس ياتريفون — اذهب وخذ نصيبك من أرض الشريف! . الحق أنني لم أسمع طوال عمري مثل هذا الكلام! . لا، ولم يسمع به هؤلاء الناس، ولا لوكا الذى كان عمدة قبلى، ولا فيليب أو دراجوس أو الأب لوبو، وهو أكبرنا سنا هؤلاء جميعا قوم فضلاء عاقلون ، ولكنهم لم يسمعوا أبداً بمثل هذا . »

فقال إيجنات سيرسل : « إنه من يعيش فى بحبوحة يأبى أن يستمع إلى شىء؛ ولكنك إذا كنت لاتملك شيئا ، فإنك تستشف الأمل من كل شىء تسمع به . . ولولا هذا لهلكنا؛ والله يعلم ما نحن فاعلون . »

فقال العمدة ، وقد احتد من جديد : « خسئت يا إيجنات ، خسئت . . الرجل العاقل يضع كتفه إلى العربة ، ويساعد على دفعها من الحفرة التى وقعت فيها ، لاأن يتنحى جانبا ، بينما غيره يدفع العربة إلى الخارج . »

وغمغم ميليذت هيرفيمو بمرارة : « الله وحده يعلم كيف نكد ونعمل ، حتى تخرج عيوننا من رءوسنا ، ولكن هذا كله دون جدوى . »

من واجبنا أن نعمل ياميليذت،وهذا ما يجعل منا بشراً لا لصوص! . . قالها برافيلا جادا ، ولكنه أسرع فأضاف فى لهجة مغايرة : « الظاهر أننى كنت أتكلم عن شىء ، وأنتم تتكلمون عن شىء آخر . . لابأس . . ولكن دعونى أقولها لكم كلمة صريحة ، أنا من الآن فصاعدا لن أغمض طرفى عن أى شىء من أجل سواد عيون أى واحد فيكم . . إنما أنا سأترككم إلى الشرطة! »

فصاح سيرافيم موجوس : « نحن لانملك إلا حياة واحدة على كل حال ، لا مائة حياة! »

ولدغت كلمات موجوس مشاعر العمدة فانفجر غاضبا ، رغم أن الفلاح لم يكن قد تكلم بصوت عال كما فعل غيره ، وصاح : « انصرفوا الآن ، جميعا!! أنا أضيع وقتى معكم ، شأنى شأن من يلقى بالجواهر طعاما للخنازير! »

وانصرف القوم فى بطء ، وقد توقفت جماعات صغيرة منهم فى الفناء ، ثم فى الشارع ، وهم يقلبون الأمر على شتى الوجوه .

قال إيجنات سيرسل يحدث جماعة ازداد صخبها : « طبعا ليس مما يتفق مع هواهم أن يستمعوا إلى متاعب غيرهم من الناس . »

قال تودر ستريمبو مؤيداً : « هـذا أمر مسلم به . . لو أن الحكام قرروا أن يوزعوا الأرض لأعطوها للفقراء المعدمين ، أما هؤلاء فلن ينالوا منها شيئا . »

« هذا هو السبب الذى يدفعهم إلى شرائها ، حتى لا يجد الحكام وسيلة لإعطائها لنا ! . . ولكن لن نتام على هذا ! ! » قالها تريفون غوغو فى غضب شديد .

وانصرف بيتر مع شقيق المعلم ، ومع لفيف من الناس كبار السن . . كان يريد أن يحول الحديث ناحية السيد جريجور ، وأن يخبرهم كيف كان كريما معه ؛ وكيف أنه قبل يومين اثنين ، عندما عاد بيتر من كوستستى ، حيث ذهب بالسيدة إلى المحطة ، قد استمع إلى قصته من البداية إلى النهاية ، فنادى على المشرف ليونتى بومبو ، وأمره أن يشطب من دفاتره كل الديون التى كانت على والد بيتر ، وأن يدفع له من فوره ثمن ثورين — لا ثمن ثور واحد ، وهو الذى قتل فى الغابة .

ولما تطرق الحديث إلى الطلاق المزمع بين الشريفين ، أسرع بيتر فأدلى بالتفاصيل القليلة التى بلغته من ماريورا ، قائلا : « إن السيدة نزقة طائشة : وعنيدة حقا ؛ أما السيد جريجوريتسا ، فأنتم تعلمون من هو ، إنه رجل مثقف ، وقلبه من ذهب ، كأنما هو لا ينتمى إلى طبقة الأشراف إطلاقا . أنا لن أنسى أبداً صنيعه معى حتى يطوينى الردى ! »

— ٣ —

وعلم تيتو هيرديليا بأمر الطلاق الوشيك من نادينا وهما بالقطار . ولم يصدق الرجل سمعه . . ولكن جريجور أكد له النبأ ، بعد ذلك بعشرة أيام ، فصاح تيتو آسفا : « أيا كان الأمر فهى والحق يقال إنها امرأة فاتنة ! »

فتبسم جريجور : « زيادة على اللزوم ! »

ولكن تيتو ، على شدة حبه لجريجور ، وإعجابه البالغ بنادينا ، ماكان يجد وقتا ليشغل نفسه كثيرا بأمورهما الخاصة . . كان يلتقى بجريجور غالبا ، ويذهب

لزيارته أحيانا ، وأحيانا أخرى يتناول معه وجبة طعام . . كذلك كان يلتقى بنادينا من آن إلى آن آخر ، فى معرض من المعارض ، أو بيت جوجو أيونيسكو حين يدعى إليه . . ولكن لم يزد الأمر على هذا ، فقد انغمس فى ضجيج الصحافة أكثر فأكثر .. وأخذ روزو يضاعف من المهام التى يعهد بها إلى الشاب ، متعللا بضغط الأحداث السياسة المتزايد . . وأخذ سكرتير التحرير ، بغية النهوض بدرابلول ، يضيف أبوابا جديدة إلى الجريدة ، ولكنه لم يجد صحفيا آخر يتعاون معه تعاون هيرديليا ، ومن ثم عهد بهذه الأبواب إليه . وتقبل تيتو ، بحماسته المعتادة ، هذا كله راضيا . . وهكذا أصبح يتولى الإشراف على عمود خصص « للطرائف » ، وعمود آخر عن « الأصداء السياسية والاجتماعية » ، وعمود ثالث عن « النقد المسرحى » ؛ وكان هذا هو الموضوع الوحيد الذى استمتع بالكتابة فيه ، فقد كان يهوى المسرح ، كما أن هذا ساعده على أن يؤم المسرح كثيرا ، دون أن يتكبد نفقات أيضا .

وعندما عاد من آمارا ، كانت صاحبة الدار الثرثارة اللعوب تدخر له مفاجأة . . فهى ، إذ أخذت تسأله عما فعله فى الريف وهى غير مصغية له ، الأمر الذى جرح مشاعره نوعا ما ، كانت تتدخل بغتة وتقول : « لقد حضرت تانتا كثيرا فى غيبتك . . وكانت تتحدث عنك . . إنها فتاة رائعة ياسيد تيتو !.. أكثر مما تتصور .. لم يكن هناك من يضارعها خلقا وجمالا وحذقا غير ابنتى ميمى » .

وعادت تطلب إليه أن يحدثها عن الفترة التى قضاها فى الريف ، ثم إذا بها تقاطعه مرة أخرى ، وهى تهز أصبعها على استحياء ، وترميه بنظرات ماكرة : « أنت ولد شقى ! . . والحق أقول إن ذوقك جميل ! . . فالإنسان لا يرى فتيات على شاكلة تانتا فى كل شارع ؛ فهى جميلة ومتعلمة ومن عائلة طيبة . . والحق كذلك أنك شاب طيب ، وذو دخل محترم ، ومستقبل مضمون . . أنتما لائقان لبعضكما ، ولا يتمنى المرء خيرا من ذلك ، وكل ما أرجوه هو أن يحقق الله كل شىء على ما أتمنى ! »

ودهش تيتو ، واضطر أن يخضع طوال نصف ساعة من الزمان إلى الشروح والتفسيرات والخطط والنصائح والمحذورات التى كانت تلقى بها فى سرعة تصيب

الإنسان بالدوار ... وذعر الفتى .. صحيح أنه كان يحب تانتا ، ولكنه لم يفكر أبدا فى الزواج بها ؛ فالزواج ، وهو فى مركزه هذا ، مدعاة للسخرية لامراء .

والواقع أن تانتا كانت تأتى ضحى كل يوم فى زيارة للسيدة الكسندريسكو ، وكان تيتو يشعر بارتباك ، أخذ يتزايد باستمرار . وخطر للشاب أن يلتمس لنفسه مخرجا فيغير غرفته فجأة ، ومن ثم يخفى كل أثر له .. على أنه ، ذات يوم ، وكان يحادث تانتا فى غرفة السيدة الكسندريسكو ، وبينما السيدة الكريمة تنتحل عذرا لتتركهما وحدهما ، بعد أن رنت إليها تانتا فى ضراعة حلوة ، فإذا بطرقة وجلة على الباب ، وإذا بماريورا تدخل عليهما ، دون أن تنتظر إذنا بالدخول .

« عفوا ، أرجو المعذرة ! »

قالتها فى شيء من الاضطراب ، وبخاصة عندما شهدت تانتا ، إذ ما كانت تستحى من السيدة الكسندريسكو ... قالت إنها جاءت من أجل درسها ، وأنها وجدت الباب مغلقا ، و ...

وهب تيتو من جلسته ، وقال وهو متضرج الوجه : « ولكن المفتاح فى القفل ياعزيزتى ماريورا ! »

« صحيح ؟ .. أنا لم ألحظ ذلك .. إذن سأدخل .. عفوا » وأومأت برأسها قليلا ، وانسحبت ، بعد أن ألقت على تيتو ابتسامة باهتة .

وما كاد الباب يغلق حتى نهضت تانتا ، شاحبة الوجه ، وأخذت معطفها لتنصرف .. وأخذت السيدة الكسندريسكو تلتمس المعاذير ، ولكن عبثا ... صرحت تانتا بأنها خدعت ؛ وإلا لماذا لم يحادثها فى شأن هذه الفتاة الكئيبة التى دخلت غرفته كما تدخل بيتها ؟ .. ورفضت أن تبقى وانصرفت حزينة بائسة .

قالت السيدة الكسندريسكو معاتبة : « أرأيت ما فعلت ؟ .. أنا كنت أعلم أنك ستلقى مشاكل بسبب هذه الدروس فى يوم من الأيام ، فأنت قلق نافد الصبر لاتستقر على حال ... والآن ماذا أنت فاعل ؟ ... لابد أن تتصرف بحرص شديد مع تانتا ، فهى فتاة فى غاية الرقة والحساسية » .

وكان ثمة شجار آخر ينتظره فى غرفته ـ شجار مع ماريورا ، ولكنه طيب خاطرها فى يسر .

على أنه فى المساء ، وهو يوازن بين الخسائر والأرباح فى يومه ذاك ، شعر بالرضى .. وما لبث أن تحقق له الخلاص بسبب حدث لم يكن فى الحسبان ـ فقد غضبت تانتا ، وأنهت العلاقة بينهما .. ولم تحضر فى اليوم الثانى ، ولا فى الثالث ، فانتهى كل شئ .

وذات يوم ، وكان يوم سبت فى مطلع شهر فبراير ، اضطر تيتو أن يكتب مقالا هاما من أجل الجريدة ... وجاء ديليكينو بنفسه ، فألقى إليه بالتعليمات اللازمة .. وحرص الشاب على أن يخرج بشيء خارق للعادة ، حتى يدل رئيس التحرير على قدره .. ولهذا سر سرورا بالغا حين أخبرته السيدة الكسندريسكو بأنها ذاهبة مع جينتسا فى زيارة لوالديه ، وأنهما سيتأخران هناك ، وأن عليه أن يلحظ البيت ، وأن يغلق الباب ، ويخفى المفتاح فى مكانه المعهود لو خرج ..

وخلع الشاب بذلته ، ولبس جلبابا عتيقا ، وانتعل شبشبا رخيصا ، ولف لنفسه عدة سجائر ، ثم شرع فى العمل .. وعم الدفء الغرفة .. وكان قد أشعل نارا صغيرة ، أخذت تتلظى فى موقد من الحديد .. وسرعان مادبج عدة صفحات فى نعومة ويسر . كأنما كان أحدهم يملى عليه إملاء .. وكانت أفكاره مرتبة منتظمة كأنها حبات عقد نضيد .. والتفت رأسه فى غلالة من دخان السجائر الذى بدا لكثافته وكأنه سحابة من القطن المندوف .. وتناثرت أعقاب السجائر فى أرض الغرفة فدلت على الوقفات التى انقطع عندها وحيه الصحفى .. فلما بلغت الساعة الخامسة ، وبدأ الظلام يخيم على المكان ، كان لا ينقصه إلا فقرة تأخذ بالألباب يختتم بها المقال .. وأراد أن يستحث تدفق أفكاره ، فأخذ يعيد تلاوة المقال كله ، وهو يردد تلك العبارات التى بدت بليغة طنانة .. قال يحدث نفسه فى النهاية « أحسنت ! .. شيء عظيم !! مقال حافل بالإثارة ! » .

ولكن هذه الفقرة الختامية استعصت عليه ، وأراد أن يتلمسها فى تلافيف مخه فنهض ، وتناول المصباح من فوق الصوان قرب السرير ، ووضعه على المنضدة كى يشعله .. ونزع الغطاء فى حرص ، ثم الزجاجة ، وهو يعمل فكره باستمرار وإذ هو يبحث عن علبة الكبريت ، خيل إليه أنه سمع طرقة وجلة على الباب .. وفتح الباب ، قبل أن يتأتى له أن يلتفت .

« تانتا ! » هتف بها وقد خجل من نفسه لشدة الدهشة التى انتابته .

كانت واقفة إلى جانب الباب ، ترمقه بعينين واسعتين ، كأنما قد دخلت لتوها بيت رجل غريب لم يسبق لها أن رأته من قبل .

واستأنف هو الكلام ، وقد ثاب إلى نفسه : « سامحينى ياعزيزتى تانتا . . . انظرى كيف تريننى ! لقد كنت أعمل ، وكنت على وشك أن أشعل المصباح و . . »

وإذ هو يتحرك صوبها ، أوقفته بحركة غريزية ، ثم همست بعد لحظات قلائل : « أكنت تنتظر أحداً ؟ »

وهم بالجواب ، ولكنها أردفته بسؤالا آخر ، وقد ارتسمت على فمها بسمة غريبة : « حتى ولا أنا؟ »

وهز رأسه نفيا . .

قالت وهى تلقى عليه نظرة أخرى غريبة : « ومع ذلك فهأنذا قد حضرت ، كما ترى . . » كانت ملتفة فى معطفها الشتوى ، وفراء الثعلب حول جيدها ، وقبعة من المخمل على رأسها . . وبدا وجهها يشع نورا تحدى الظلمة المتزايدة .

« لقد أتيت بالسعادة إلى هذه الغرفة الكئيبة » .

وصب تيتو فى صوته رنة رومانتيكية ، كانت مصطنعة وغير طبيعية ، ولكنه كان فى صميم نفسه مخلصا . . ولم تستمع تانتا إلا لنداء قلبه ، فاقتربت منه مادة يديها ، خضوعا منها لهذا النداء .

« أنا لن أزعجك ، إنما سأكتفى بالتطلع إليك وأنت تكتب ؛ وحسبى أن أكون إلى جانبك ؟ . »

« على أية حال . . . »

وتهدج صوته ، فقد اضطرب لقربها منه . . وعجز عن أن يستكمل الجملة

التى بدأ بها ؛ فأخذ بيديها معا ، وضمهما إلى قلبه . . ثم ، دون مزيد من الكلام، خلع عنها معطفها ، أما هى فقد حسرت قبعتها الصغيرة .

وانسابت الظلمة إلى الغرفة خلسة ، فتداخلت الظلال ، واختلطت الحدود . . ولم يبق إلا الشباك المطل على الفناء محتفظا بلونه الشاحب ، وقد تجمعت داخل إطاره رقائق الثلج التى تبهر النظر ، كأنها أسراب الفراش الأبيض الذى أخذ يلاحق بعضه بعضا كأنما يبحث عن مأوى من البرد والظلام .

وبعد برهة سألته : « هل مازلت تحبنى ياترى ؟ »

ورد عليها تيتو بفيض من القبل . . وقاطعته هى بسؤال آخر : « هل تعتقد الآن أننى أحبك ؟ »

فأجاب الشاب : « ماساورنى الشك فى هذا قط . . أنت وحدك التى كنت تشكى فى حبى » .

قالت : « ألا ينبغى لى أن أشك فى حبك بعد الآن ؟ »

قال : لا

فلما أصبح وحده ، سحب الستارة ، وأشعل المصباح . . ورجع به الضوء الأصفر الباهت إلى دنيا الواقع . . لقد أدرك الآن أن حبه قد سرى الآن فى اتجاه جديد ، يفيض بالتبعات ، فى وقت هو فيه لم يبرح بعد بداية الطريق . . وليس من شك فى أنه أحب تاتنا ، ولكن هل من حقه أن يحطم حياتها ، وأن يربطها بمصيره ، وهو مصير غير مضمون من أى وجهة نظرت إليه . . ثم كيف يتمكن هو من الإبقاء على زوج ، بينما التكفل بنفسه مستقبلا لايزال مشكلة المشكلات؟ وأخذ يلتمس لنفسه المعاذير ، فقال إن تاتنا جاءت إليه بمحض رغبتها . وإن كل حب مهما كان قويا ، لا ينتهى حتما بالزواج ، بل هناك حالات أخرى أيضا . . . وتوقف فجأة عن التماس المعاذير ، وقال : « أنت وغد ياتيتو !! يجدر بك أن تخجل من نفسك ! »

— ٤ —

لم يستطع جريجور أيوجا أن يتلبث فى الريف أطول من ذلك .. فقد ثقلت عليه الوحدة ، كما ضاق من إصرار والده على أنه لاينبغى له أن يحطم زواجه بسبب سوء تفاهم عادى لايلبث أن يزول .. وكان هو من التقزز والخجل بحيث لم يستطع أن يخبر والده بحقيقة الأمر .. فقد شعر أن رجولته قد أهينت ؛ وأن خمس سنوات لم تكف لتهيئ له أن يثير فى زوجه ماينبغى من احتشام ، فلا تخونه تحت سقف داره .. ومع ذلك فهو مازال فى ريبة بشأن هذه العاطفة التى يكنها فى صدره. فهو يحاول أن يتلمس لها هذا العذر أو ذاك ، كأنما غرامه بها لم يمت بعد، أو كأنما كان يترقب عذرا قويا يجعله يمضى سيرته الأولى .. واحتقر نفسه ، وخشى من مغبة ضعفه .. على الأقل هو لن يعانى من الوحدة فى صخب حياة العاصمة .

وكان قد انتقل إلى الغرفة التى كان يعيش فيها وهو طالب فى بيت خالته ماريوكا ؛ فوجد الغرفة قد أعدت من أجله بعناية فائقة .. ورأت عمته أنها قد أعجبته ، فابتهجت قائلة : «هل أعجبتك ياجريجور ؟.. لقد هيأتها بنفسى .. وأنا أريدك أن تحس أنك فى بيتك ، وألا شىء ينقصك ، حتى لاتندم على ...»

ولم تزد .. كانت تدرك تماما أن جريجور يعلم أنها لا تحب نادينا ، ولهذا لم تشأ أن تأتى لها فى هذه اللحظة .. ولكن جريجور رد عليها كما لم يرد من قبل : «أما عن الندم ، فلا تخشى شيئاً ياعمتى العزيزة».

وتواعد مع جوجو أيونيسكو .. والتقيا بالنادى فى الغد .. وعقدت الدهشة لسان جوجو ، ولم يفهم شيئا .. لقد ذعر أيما ذعر عندما ترامى إليه النبأ من نادينا .. كيف تأتى هذا ؟ . لقد خال أنهما على وفاق تام .. ولم يشأ بطبيعة الحال أن يقحم نفسه ، أو يقدم النصح فى هذه المسائل الدقيقة ، ولكن .. ليس من شك فى أنه أحب جريجور ، حب الأخ أخاه ، وسيظل على حبه دوماً ، أيا كانت علاقاتهما العائلية .. وصحيح أن نادينا كانت صعبة المراس ، فهو ، رغم أنه يستنكف دائما من التدخل فى حياة الغير الخاصة ، ولو كانوا أقاربه الأقربين إلا أنه كثيرا ما تحدث معها ، حديث الأخ مع أخته ، فأخبرها أنها اشتطت فى

علاقاتها ، وأنها تستغل عطف زوجها وتسامحه معها .. نعم لامناص من أن يسأل نادينا ، من أجل خاطر جريجور ، عما إذا كانت قد شرعت فى إجراءات الطلاق وأى مرحلة بلغتها هذه الإجراءات ، لأنه يدرك حق الإدراك أن جريجور ، بعد أن رحل عن بيت الزوجية ، لن يرغب فى الاتصال بزوجه .. والتقى به جريجور فى الغد ، فى نفس المكان ، فأخطره جوجو أن نادينا ، عقب عودتها من القرية وكان ذلك منذ عشرة أيام ، أرسلت فى طلب المحامى أوليمب ستافرات ، وسألته أن يشرع فى الإجراءات على الفور .. ولعل الأوراق الآن فى المحكمة ..وشكره جريجور ، كما حمله رسالة شكر أيضا إلى نادينا ، وأضاف أنه سوف يتعجل الأمور على قدر مايسعه من جهد ، لأن من صالحهما معا أن يفرغا من هذه الشكليات على وجه السرعة ، وأن يسترجعا حريتهما ..

وذهب بعدئذ إلى بالولينو .. وكان لايعرف شيئا عن الطلاق .. وعجب الرجل وتأسى ، كذلك كان شأن ميلانى .. وألحا عليه أن يبقى للغذاء ، ورأى لزاما عليه أن يبقى ، بعد أن لم يعد فى وسعه أن يعتذر بدعوى أن ... وكان جريجور قد بنى لنفسه قوقعة تحميه من العطف عليه ، والرثاء لحاله .. وقبل أن ينتقل بالولينو من غرفة المكتب الوثيرة إلى قاعة الطعام ، لبس مسوح الرسميات وقال : « إذن فالأمر خطير لارجعة فيه ياجريجور ! ! »

« أو تظن ياعزيزى الكسندرو أننى أهزل فى هذه الأمور ؟ ! »

فقال المحامى بجد وحزم : « إذن سأتولى أنا هذا الأمر .. وأنا كفيل بأن أحصل لك على الطلاق فى أقصر وقت ممكن .. » على أنه بعد برهة عاد سيرته الأولى من المرح والخفة ، وقال : « أنت ترى أن لى شيئا من النفوذ فى محكمة العدل بفضل ما أستمتع به من مواهب متواضعة ! »

فأجاب جريجور يستثير غيظه : « أرجو ألا يكون تدخلك سريعا وحاسما على النحو الذى فعلته مع صديقنا الترانسلفانى .. أتذكر ؟ »

وارتبك بالولينو وهلة ، ثم انفجر محتدا فى ود : « حقا ياجريجور ، لم لم تذكرنى به من قبل ؟ لقد نسيته تماما ! أين هو الآن ياترى ؟ .. ولكن ألم

تتفق على أنه يأتى ويقابلنى كى ... بالله ياعزيزى ، لماذا لم يأت الفتى ؟ »

« اتركه وشأنه الآن، فقد ألقيت به إلىالدرابلول .. » فضحك بالولينو قائلا « آه ، لقد استوليت عليه خدمة لحزبك ، ثم تأتى وتتهمنا بالمحسوبية والتحيز ! »

وصحب أيوجا بالولينو إلى المحكمة ، عدة مرات ، حتى يتأكد بنفسه من جلية الأمر .. فلما انتهى من الإجراءات الشكلية الأولى ، وجد فى نفسه الشجاعة ليذهب فى زيارة إلى آل بريديلينو .. وعادت به الذاكرة حين قال : « أنا محب ولهان ! » فأضنته الذكرى .. ولم يخبر بريديلينو بالأمر إلا حين انفردا وحدهما، ودون أن يطرح عليه سؤالا من جانبه .. ولم يسأله فيكتور تفسيرا ، رغم ما اعتراه من حيرة .. ولم تشأ تيكلا، ولا أولجا أن تذكرا اسم نادينا فى أثناء تناول الطعام .. على أن جريجور ضبط أولجا وهى تسترق النظر إليه فى فضول لم تستطع أن تخفيه .. وتجاذبوا أطراف الحديث فى شئون شتى بهيجة ، بل لم يخوضوا فى السياسة إطلاقا .. وكان محور الحديث حفلات الرقص العديدة ، والاستعراضات والاستقبالات ، والحفلات المختلفة التى عمت بوخارست ، وأعطتها جوا يفيض بالحياة .. قال بريديلينو ، حبا فى إغاظة شقيقة زوجه : « أنا أعتقد أن هـــذا الموسم قد نظم خصيصا من أجل أولجا — فالرقص والحفلات فى كل مكان »

قالت تيكلا : « هكذا ينسى الناس همومهم ومتاعبهم » .

واستطرد فيكتور ، فتحدث فى جدية أكثر من ذى قبل ، قائلا : « نعم ولكنى لا أدرى هل فاتتك ملاحظة أن الرقصات قد أصبحت حسية منافية للحشمة، بل أحيانا يشعر الإنسان بالخجل من مشاهدتها » .

فأجابت أولجا تدافع بشده عن هوايتها المفضلة : « كفى تصنعا !! .. لم لا تعترف بأنك لا تميل إلى الرقص ، وأنك لهذا تجد فيه كثيرا من المساوىء والعيوب »

ولم يشترك جريجور فى المناقشة ، فقد خشى أن يتطرق الحديث إلى نادينا . وبعدئذ دار الكلام حول المهرجان الكبير الذى نظمته جمعية « أوبول » الخيرية فى التاسع عشر من فبراير بالملهى القومى .. وكان هذا حدثا بالغ الأهمية بالنسبة للطبقة الراقية ، فالأسرة الملكية كلها ستكون هناك ، وفى معيتها كبار القوم جميعا

ولقد احتجز الناس المقاعد كلها ، رغم المغالاة فى أسعارها إلى حد فاق كل تصور وخيال . ، ولم يكن مناص من تكرار العرض ، رغبة فى إرضاء المجتمع الراقى كله وكان البرنامج يتضمن استعراضا ، قام بتأليفه ثلاثة من الكتاب الفكهين للغاية من أهل الطبقة الراقية ، وكان لا يقوم بتمثيله إلا الجيلات من النساء والفتيات وأخذت أولجا دورا ، هو الرقص بطبيعة الحال . فتمشت فيها حمى النشاط .

ولما تبينت السيدة ماريوكا كونستانتينسكو أن الطلاق وشيك الوقوع خلعت برقع الحياء ، وأخذت تقص على ابن أختها كل ماعرفت عن نادينا ، فقالت إنها أمسكت عن الكلام من قبل لأنها لم تشأ أن تكون سببا فى تعاسته ، أو تكون لها يد فى تحطيم زواجه .. ثم هى قد حذرته من الزواج بها — ولكنها فعلت ذلك بلباقة طبعا ، لأن النصح فى هذه الأحوال أمر غير مرغوب فيه .. ذلك أن نادينا وهى لا تزال فتاة ، كانت كل الدلائل تشير على نوع المرأة التى ستكون ...

وما من أحد بطبيعة الحال ينكر على فتاة فى ميعة الصبا أن تكون أنيقة ، فاتنة ، زاخرة بالحيوية ، ولكن هناك حدود على كل حال .. أما نادينا فقد تجاوزت حدود اللياقة كلها ، فصدمت مشاعر الناس أينما ذهبت ، بأساليبها الجنونية وبهذه الشرذمة من المعجبين الذين يجرون فى أعقابها .. أما أن تستغل حب زوجها لها حبا أعمى ، فلا تستنكف من أن تتخذ لها عشيقا فى السنة الأولى من زواجها — هذا إن لم يكن فى الشهر الأول والحق يقال . . ثم تبع ذلك عشاق آخرون — كانت خالته تعرف منهم خمسة على وجه اليقين ، وكان آخرهم هو رءول برومارو الذى صحبته إلى الخارج فى الصيف الماضى ، والله وحده يعلم على نفقة من كان ذلك. ومن الناس من قال إن برومارو كان يعيش على مكاسبه من مائدة القمار وقطع آخرون بأنه كان على سعة ، وأن نادينا لا شك كانت تمده بالمال .

وحاول جريجور أن يحد من سيل هذه الأسرار التى أخذت تفضى بها إليه ، فهو منذ أن قرر الطلاق من نادينا ، لم يعد يعبأ بما تفعله الآن ، بل ولم يبال بما فعلته من قبل ، ولم يشأ ، حفاظا على كرامته الذاتية ، إلا أن يتذكر تلك الأشياء التى لا يخجل منها .. ولكن محاولته ذهبت هباء ، فقد أبت خالته ماريوكا إلا أن تعدد له أولئك الرجال الأربعة الذين نالوا حظوة من نادينا .. وكانت تاتى كل

يوم ببعض التفاصيل ، أو الأنباء الجديدة التى تلقتها توا من صديقة مخلصة ، الأمر الذى جعل جريجور يتحاشاها ، ويفكر فى الانتقال إلى فندق ، حتى يعيد إلى نفسه راحة البال .

ومن حسن الطالع أن أباه وصل إلى بوخارست فى نهاية شهر يناير ، وحاولت ماريوكا أن تنبئه بآخر الأخبار عن نادينـــا ، فاستمع إليها ميرون برهة وهو مشدوه ، ثم إذا به يقاطعها فى حدة ، قائلا : « حسبك هذه الثرثرة ياماريوكا ، ولا يليق بك ، وأنت أرملة جنرال رومانى ، أن تخوضى فى هذه الإشاعات التى لابد أن تتردد حول كل امرأة جميلة . . ولكنك تشبهين زوجتى الراحلة ، رحمة الله عليها ، وليس هذا عجباً ، فأنتما شقيقتان . على انك تحسبين أن من واجب النساء جميعاً أن يشغلن أنفسهن بشئون المطبخ ، أو يعكفن على حياكة جوارب أزواجهن . . . لقد تغير الزمن يا ماريوكا ! ! » .

واعترضت السيدة غاضبة : « ولكن جريجور يسعى إلى تطليقها ياميرون ! » وكانت ترهب ميرون أيوجا بعض الشيء ، فقد كانت تعرف فيه حبه للتسلط ، على حين أنها لم تكن ترهب الجنرال ، فقد كان حلو الشمائل ، لا يدور بخلده قط أن يفعل شيئاً غير ما ترى .

قال الوالد ، وقد أبى أن يسمح لولده بمقاطعته : « أتراك تسمعين لجريجور ، وهو ليس إلا غرا صغيرا ؟ . . ثم من قال لك إن التقدم بطلب الطلاق معناه أن الطلاق قد وقع فعلا ؟ . . مالم يصدر الحكم فعلا ، يا عزيزتى ماريوكا ، فالأمر لا يعدو كونه سوء تفاهم بين الطرفين ! » .

وكان ميرون أيوجا قد ترك كل التدابير الخاصة بعقود العمل الجديدة معلقة فى الهواء ، ولم يقطع فيها برأى فى آمارا ، وهذه مسألة أصبحت تتسم بالدقة والحساسية الآن ، فقد بلغته إشاعة تقول إن الفلاحين يرغبون فى تغيير شروطها . ولكنه كان فى شغل بأمر ضيعة بابارجا ، وانتوى أن يضع يده عليها ، أيا كانت التضحيات . . وبدا له أن اعتزام جريجور على الطلاق هو العقبة الكأداء التى يتحتم عليه أن يتخطاها .

على أنه قبل أن يذهب إلى زيارة نادينا ، عزم على أن يميل على دوميسكو فى بنك رومانيا ، فيتبادل وإياه حديثاً تمهيدياً ، ثم بعدئذ يجرى مفاوضات معه بعد أن يعلم من نادينا السعر الذى تطلبه ، والشروط التى ترتضيها . . وصحبه جريجور حتى بلغا المصرف ، فقد كان هو على موعد مع بالولينو . . وأخذ الشيخ ، وهما يقطعان الطريق ، يتفحص بدقة الإعلانات والملصقات العديدة التى تعلن عن الحفلات الراقصة ، وعن غيرها من أماكن اللهو .

قال ميرون فى احتقار : « لا هم للناس هنا غير الاستمتاع فأنت حيثما تذهب لا ترى إلا دعوة إلى اللهو والفجور . . . هم لا يبالون بشىء — أما نحن فنكد ونكدح لنوفر لهم الولائم والحفلات ! » .

وتألق وجه دوميسكو بشرا عندما شهد الشيخ ، واحتضن ميرون فى حماس تجاوز الحد ، إذا قورن بما تعود عليه من تحفظ واتزان . . وثبت نظارته ذهبية الحوافى ، علامة دلت دواما على عمق العاطفة التى تعتلج فى أعماقه ، ثم تغيرت نظرته الجافية فى العادة فاستحالت نظرة باسمة . . وقال ميرون أيوجا بعد عدة دقائق صرفاها فى أسئلة وأجوبة نمت عن ألفة وود : « أراك مشغولا جداً يا كوستيكا ، وأنا لم أحضر لأثقل عليك . . على أننا سنلتقى فى القريب ، ونتحدث فى الأمر ملياً . . . وأنا لا أريد أن آخذ من وقتك أكثر من دقيقتين . . هاك الأمر وما فيه يا كوستيكا ! » .

وقص عليه قصته واستمع إليه دوميسكو بانتباه عميق . . ولحظ ميرون أساريره وهى تتغير . . وأخيراً تكلم المدير وقال : « حسنا ياعزيزى ميرون . . الصداقة التى بيننا قديمة العهد جداً ، وهى لا تحول بينى وبين إعطائك جواباً فورياً صريحاً . . . » .

وكان الجواب الصريح هو الرفض البات . . قال إن الوقت ليس وقت شراء الأرض ، ولعمرى عند ميرون منها ما فيه الكفاية ، وحسبه أن يجد الصحة والعافية ليتمكن من الإشراف عليها . . على أنه يرفض حرصاً على مصلحته هو . . ولو أنه لم يكن صديقاً حميما لميرون ، أن يسمح له بأن يقترض أى مبلغ يشاء ، فالمصرف يعلم أن الضمان مكفول لأن من اليسير بيع ضيعته وفاء الدين . . ولكن

دوميسكو يؤثر من جانبه أن يحزن صديقه اليوم ، بدلا من أن يكون شحاذاً فى الغد ، فهذا ما تقتضيه دواعى الصداقة والوفاء .

« عجبى على تصرفاتك يا ميرون ! . . أتراك تعيش فى دنيا غير دنيانا ؟ أتراك لا تسمع ولا ترى شيئاً ؟ ألا تحس كيف تتأزم الأمور ، وكيف أن كل شىء ينهار ؟ ربما نستيقظ غداً أو بعد غد فنرى الضياع الكبيرة وقد انتزعت ملكيتها . . وعندئذ ماذا تفعل يا ترى إزاء التزاماتك حيال البنك ؟ . . وهذه الإشاعة تتردد وتتردد فى إلحاح . . وهذا ليس رأيى وحدى . . وإنما أنا أقرر حقيقة واقعة . . ثم إن ثورة الفلاحين أمر لا شبهة فيه . . لا — لا تحسب أن فى مقدورك أن تهون من الأمر . ربما الأمر ليس كذلك فى الناحية التى تعيش فيها ، ولكن الثورة حقيقة واقعة . . وربما كان هذا العامل هو بالضبط الذى أفضى إلى فكرة نزع ملكية الأراضى — أنا لا أدرى . . ولكن ربما كان الأمر كذلك . . على أنى من جهـــة أخرى لا أقول بأن الخطر محدق وشيك الحدوث . . فأنا لا أدرى ، ولكنه قائم موجود . . ولست أظن ، والحالة هذه أن من صواب الرأى الإقدام على شراء الأرض .. فالأرض أصبحت قضية غير مضمونة ، وستظل كذلك إلى أن ينجلى الموقف ... ولهذا : لا يخدعنك هذا المرح الذى يدب فى أرجاء بوخارست . ، إنه عرض من أعراض المرض ، ووباء الملاهى والمراقص والحفلات دائماً يسبق شراً ما ، أو هو يبرز هذا الشر . فالواجهة التى تبرق بريقا خاطفاً تخفى وراءها دائماً شيئاً عفنا . . أما البناء المتين فلا يعنى بالمظهر ، ولا يحاول أن يجتذب النظر بواجهته البراقة . . أنا لا أدين بالأحزاب السياسية ، بل ولا أهتم بما يشجر بينها من خلافات .. إنما أنا هنا فى المصرف ، أحس بنبض الحياة قوياً دفاقا ، أما نبضنا فهو يبرق بغير انتظام . . نعم ، إن كياننا كله يهتز يا ميرون ، ولا بد أن نتذرع بالحكمة حتى نجد العلاج » .

ولم يقتنع ميرون ألبتة ، ولكنه ازداد ضيقا . . وحاول أن يدارى ما انتابه من ضيق ... وافترقا ، على لقاء آخر ، فقد كانت هذه مقابلة تمهيدية . . كان ميرون واثقا من أن دوميسكو لن يصمد معه إلى النهاية .

قال ميرون يحدث نفسه : مسكين كوستيكا . . إنه رجل طيب ، ولكنه

للأسف محدود التفكير — ولكن هكذا كان شأنه دائما منذ أن توطدت بيننا أواصر الصداقة والود ! »

وتلاشى غضبه أسرع مما كان يتوقع .. والواقع أنه ما كان ينبغى له أن يتورط مع دوميسكو قبل أن يسوى أموره مع نادينا — فهناك كانت العقبة الكأداء .. حقا ، كان فى مقدوره أن يحصل على المال من أى مكان فى رومانيا ، ولكن الأهم من ذلك هو أن يتمكن من استخدام هذا المال ،

وكانت نادينا فى انتظاره ، بعد أن علمت بأنه آت .. وكانت الجمال مجسما .. واستقبلته بحفاوتها المألوفة كأنما لم يحدث ما يكدر الصفو منذ أن افترقا فى آمارا قبل ذلك بشهر .

قالت وقد تلاعبت على شفتيها بسمة صريحة متسائلة بمجرد أن دخلت به إلى غرفتها الأثيرة لديها : « ليتك تبقى للغداء معى يا والدى ، إن لم يكن لديك مانع ! »

فقال ميرون فى غبطة بالغة : « يسرنى هذا جدا بالطبع يا نادينا ! »

وأخذا يتحدثان فى المسألتين اللتين جاء ميرون من أجلهما ، حتى قبل أن يجلسا إلى الطعام .. أما فيما يختص بموضوع الطلاق فقد عرض عليها الصلح ، وهذا الاقتراح من جانبه هو ولم يفوضه فيه جريجور ؛ على أنه يضمن لها أن يقنع ابنه به لو وضعته موضع نظر .. ورفضت نادينا مبتسمة ، ولكن فى حزم . وقالت إن المباراة لم تكن من جانب جريجور ... كان بودها لو واصلت العيش معه ، برغم عدم رضاها عن نواح كثيرة ؛ ولكن الجفوة التى بينهما الآن قد أصبحت حديث الناس .. فقد علم الناس جميعا أنهما على وشك الطلاق ؛ وأن الصلح بينهما الآن سيجعلهما هزءا وسخرية .. ثم هما اليوم يستطيعان أن يشقا طريقهما فى الحياة ، أما فى الغد فقد يكون الأمر أكثر مشقة .. وواصل ميرون جهوده محاولا إقناعها ، ولكنها قاطعته قائلة : « إصرارك هذا يرضى غرورى يا والدى العزيز ؛ وإنه والحق برهان على حبك لى .. وأنا شاكرة لك جداً ، ولكنى أرجو ... » (وهنا ضمت يديها معا كأنما تبتهل فى صلاة) « أرجو أن تعطينى أسمى برهان على حبك لى .. ولكن لنتكلم فى شىء آخر »

« إن ما أردت أن أحدثك فيه لايمكن أن أذكره الآن لو أن قرارك نهائى ولا رجعة فيه ، قالها الشيخ فى أسى بالغ . . واستأنف الكلام بعد برهة قصيرة قائلا : « أنا أستطيع أن أبحث موضوع باباروجا مع زوج ابنى ، أما أن أبحثه مع مطلقة ابنى فأمر محال ! »

وتبسمت نادينا فكشفت عن أسنان من اللؤلؤ النضير ، وقالت : « ولكنك على خطأ بين يا والدى العزيز » .

على العكس ، هو لا يستطيع أن يتكلم عن الضيعة إلا مع زوجابنه السابقة . . ثم هى بعد لم تقطع برأى بشأن بيع الضيعة ، بل إنها لو ظلت فى عصمة جريجور فلن تبيعها . . أما الآن ، فهى عندما تصبح حرة التصرف فى أمورها فلسوف تفرغ من مسألة بابا روجا . . بل لعل من السخف أن تستمر فى علاقات عمل تربطها بجريجور ، ولو كان هذا العمل فى جيرته . . نعم « إنه ليسعدها أن تتخلص من الضيعة ، ولكنها لن تستطيع أن تقدم على شىء مالم تحصل على الطلاق ، لأنها ستضطر حينئذ إلى الحصول على موافقة من زوجها . . على أنها ترجو أن تنتهى هذه الشكليات فى مدى شهر على الأكثر ، وعندئذ ستسرع إلى القرية ، وتتلبث فى بيت جوجو بليسيزى ؛ ولن تترك القرية حتى تنتهى من مسألة البيع .

فهتف الشيخ : « أنت ، دون مجاملة ، أمرأة حاذقة حقا فى شئون الأعمال ؛ وسيصعب علينا أن نتعامل معك ! »

قالها هازلا وهو يبتسم ؛ ولكنه لم يكن راضيا ألبتة . . لقد فشلت كل الجهود التى بذلها كى يغتصب منها وعدا محددا على الأقل . . . ولكن نادينا انسابت من بين أصابعه فى دهاء وحذق كما ينساب الزئبق . وبدا له أنه قد استخلص منها أكثر من ذلك فى المقابلة الأولى بآمارا ؛ على أن هذه المقابلة لم تكن تدعو للرضى كذلك . . كان كل همه عند ذاك أن تكون له الأفضلية فى الشراء . . ولكن لا نكران فى أن الطلاق جعل كفاحه فى هذا السبيل أكثر مشقة . . وهذا هو السبب الذى جعله لا ينكص عما عقد العزم عليه . . وما كان الرجل يخشى العقبات ؛ ولكنه أراد أن يعد لكل طارئ عدته ؛ ومن ثم ذهب يستشير عدة مصارف أخرى كان له بها أصدقاء . . لم يتلق منهم رفضا قاطعا . . (سنرى . . سننظر فى الأمر . . نتحدث فى هذا فيما بعد ! . .) ؛ ولكن المعاذير التى تقدم بها دوميسكو تكررت ؛ كلمة كلمة تقريبا ، كأنما كانوا جميعا على اتفاق

فيما بينهم.. وعاد يستأنف محادثات غير رسمية مع دوميسكو، جلسا إلى المائدة، لا ثالث لهما؛ لحصل منه على وعد يشوبه الغموض.. فقد كان كوستيكا يحبه حبا جعله عاجزا عن الاستمرار فيما ارتأى من رفض قاطع.. كان كلاهما يأمل أن ينجح في إقناع الآخر، دوميسكو يريد أن يقنع أيوجا بالتخلي عن فكرة الشراء، وأيوجا يأمل في أن يحصل من دوميسكو على عون يساعده على الشراء.

وأدرك جريجور ما كان أبوه يجاهد في سبيله.. وعلم الشاب من نظراته، ومن الكلمات القليلة التي تساقطت منه؛ أنه غير راض كل الرضى عن النتائج التي توصل إليها.. وكان الوالد قد أبدى رغبته عند وصوله في زيارة آل بريديلينو، فلما انقضى أسبوعان أو نحوها، انطلقا إلى هناك سويا.

وكان الوالد، شأنه شأن ابنه، مولعا بهذه الأسرة — «ناس طيبون»، هكذا تعود أن يطلق عليهم؛ وقد جال بخاطره والد فيكتور في المكان الأول، فهو الذي كانت تربطه به أواصر المعرفة.. وكان اهتمام أولجا بوستيلينكو منصبا كلية على استعراض «أبول»، وهو الاستعراض الذي تقرر أن يقام في مدى أيام قلائل فقط، فاغتاظت أن وجدت كل واحد هنا يتحدث في الزراعة، لا لشيء إلا ليبعث البهجة في نفس ميرون.. وكان ميرون متأثراً بالحجج التي ساقها دوميسكو (رغم أنه يميل إلى الاعتقاد بأن هذه الحجج لا أساس لها)، ولكنه مع ذلك كان يتلمس من يؤازره في مناهضتها؛ ولهذا حزن عندما لم يجد أحداً يقف إلى جانبه.. قال له بريديلينو أيضاً إن هناك غليانا بين الفلاحين؛ وربما لم يبلغ هذا الغليان الحد الذي تقول به الشائعات في بوخارست، ولكنه موجود على أية حال.. ففي قريته هو، قرية ديلجا، فيما تقول التقارير التي تلقاها من المشرف الذي يعمل عنده، كان الفلاحون يسعون إلى الحصول على عقود جديدة، أكثر ملاءمة لهم بطبيعة الحال. وكان الأشراف والملتزمون من أهل مولدافيا، الذين تحدث معهم، وكانوا جميعا قوما متزنين على معرفة وثيقة بالفلاحين، قد صوروا له الموقف هنا على أنه موقف يدعو إلى أشد القلق.. وقام هذا كله دليلا على أن الظاهرة ظاهرة عامة، وأن نفس الأسباب لابد أن تفضي إلى نفس النتائج في جميع أرجاء البلاد... والشواهد على ذلك قائمة، بل هي ظاهرة للعيان في كل مكان. ولكن دون أن

تكون قاطعة مانعة .. فما ينطبق على ولاية ، قد لا ينطبق بالضرورة على غيرها من ولايات ، حتى وإن كان ...

واعترض جريجور محتدا ، بعد أن كبح نفسه زمنا حتى لا يقف موقف المعارضة من والده ، قائلا: « نحن لا نريد أن نرى الأشياء على حقيقتها يافيكتور.. إن الفلاح يخسر فى كل مكان بسبب نظام العقود الذى فرض عليه قسرا..وإن ديونه لتتراكم سنة بعد سنة ، حتى بلغت مابلغت من أبعاد حالية لاسبيل إلى احتمالها.. ومعظم الناس فى بلدنا غارقون فى الديون ؛ ولو استمروا يعملون ويكدحون حتى العام القادم ؛ فهم لن يجنوا عائداً لقاء عملهم ، بل ولن يتمكنوا من سداد ما عليهم من ديون .. وإذا كان هذا هو المصير الذى ينتظر الفلاحين ، فلا عجب أن نراهم قلقين مضطربين ؛ فهذا ليس إلا أمراً طبيعيا لا شذوذ فيه ! »

وندت عن ميرون أيوجا بسمة خفيفة ساخرة للأقوال التى صدرت عن ولده ، وإذا به يخاطب بريديلينو ، كأنما كانت هذه الأقوال غير جديرة بالاعتبار : « إن الفلاحين لا يرقدون على فراش من الورود لأن الملاك أيضاً فى موقف عصيب ، ولأن الزراعة كلها تعانى من الخراب والاضمحلال فى رومانيا ... لقد مرت بنا سنوات عجاف ، ولم تنتج الأرض شيئا ذابال، ومع ذلك لم يثر الفلاحون ؛ بل تحملوا متاعبهم ، وصبروا عليها كما صبرنا نحن ! .. وهذا الموسم ، والحمد لله ، صادفتنا سنة طبيعية.. ولهذا نرى أولئك الذين يتمتعون بمسكة من حسن التصرف قد حصلوا على ما يكفى ليغطى مطالبهم ؛ أما الكسالى والسكارى فلم يحصلوا على شىء ..هكذا كان الشأن منذ أن بدأت الخليقة .. ثم كيف يستساغ القول بأن هناك تذمراً خطيراً فى آمارا ، والفلاحون هناك يهرعون لشراء عزبة ناديتا ؛ وهكذا يضعون أنفسهم موضع المنافسة مع غيرهم ؟ .. الحق، إن الداء له علة أخرى، أيها الأصدقاء ، مهما أبديتم من آراء .. إنما موطن الداء هو ضعف الحكومة ؛ فهى تغض الطرف عن السخف الذى يقول ؛ أى غر انتهازى ينصب نفسه للدفاع عن الفلاحين ... حسب الحكومة أن تأخذ هؤلاء السادة ، الذين تدلهوا فجأة بحب الفلاح المسكين ، فتمسك بهم من أقفيتهم ، وتزج بهم فى السجون ؛ . وعندئذ سترون كيف يتلاشى فوراً هذا القلق الذى يسود بين الفلاحين . »

قال فيكتور مؤيداً: « طبعاً ، إن المعارضة تجنى المكاسب من ضعف الحكومة ؛ وهذه لا تهتم إلا بالخلافات الشخصية التافهة التي لا تنتهى ... على أن اللوم يقع على المعارضة أيضاً حين تشترك فى هذا الاضطراب الغادر ! »

فصاح ميرون محتداً : « لا تقل الغادر ياسيدى !.. بل قل المجرم !.. فأية جريمة أشد هولا من إذكاء شهوة الجماهير الجوعى !. وهذا بالضبط ما يفعلونه !.. إنهم يبذلون الوعود للفلاحين ، فيعدونهم بأن يعطوهم الأرض ، وذلك بقصد بذر بذور الشقاق بيننا وبين الفلاحين ... وهم لا يعبئون بأن يثيروا فتنة فى البلد بهذا العمل ، ولا يكترثون لمصالح البلد ، إنما كل ما يعنيهم هو مصلحة الحزب الذى ينتمون إليه .. هؤلاء هم السادة الذين يعيشون فى المدن ، وهم الذين يستغلوننا أسوأ استغلال .. إنهم لا يشبعون أبداً .. على أنهم لم يتمكنوا بعد من قهرنا ، لا بمصارفهم ، ولا بقروضهم ، ولا بصناعاتهم.. نحن فقط الذين نقف فى وجوههم .. ولهذا ، لما عجزوا عن الإطاحة بنا بهذه الطريقة ، أخذوا يدافعون عن الفلاحين ضدنا ، وهم الذين لم يتخطوا حدود المدن مخافة أن تتسخ أحذيتهم .. إنهم يريدون أن يوزعوا أرضنا بين الفلاحين — ولكن لم يخطر ببالهم أبداً أن يوزعوا الأرباح التى يجنونها من مصانعهم ومصارفهم .. والحقيقة هى أنهم يريدون قتلنا ، وبذلك يحرمون الفلاحين من قادتهم ، ومن ثم يغدو الفلاحون قطيعاً بغير قائد ، فيكونون تحت رحمتهم .. وهذا أمر مريع تعافه النفس ، وبخاصة عندما ترى أننا ، نحن المحكوم عليهم بالموت ، لا نعمل شيئاً غير التشدق بزعامة الحزب ، وروحات الحكومة وغدواتها ، والدسائس التى يكيدونها ، إلى آخر هذه السخافات ! »

قال جريجور مبتسماً ، وهو يحاول أن يلطف من الجو الذى خلقته غضبة أبيه : « ما كنت أحسبك يا أبى مهتماً بالسياسة هذا الاهتمام ! »

فأجاب ميرون بلهجة رقيقة ، فقد أدرك هو نفسه أنه قد تكلم فى عنف تجاوز الحد الذى ينبغى لحوار يدور حول مائدة طعام ، قائلا : « الجريمة ليست سياسة ياجريجور ! .. الجريمة جريمة ... وما يفعلونه ليس بسياسة ، إنما هو جريمة دة ترفونها . »

فقال بريدلينو ، ملطفاً من التوتر : « الحق أنهم لا يدينون بأى مبدأ من

المبادئ ، وهم لا يتورعون عن إثارة فتنة فى رومانيا ، لو كانت هذه الفتنة تخدم مصالح حزبهم . . »

وتدخلت السيدة بريديلينو فطرقوا مواضيع أرق من حديث السياسة ، ثم تطرقوا إلى مهرجان أبول الكبير ، فابتهجت الآنسة أولجا أيما بهجة . . على أن ميرون ، بعد وهلة ، وجد شيئا يعارضها فيه ، قال : « أنا لا اعتراض لى على مهرجان أبول ؛ بل قد يحقق المهرجان غرضا لا بأس به ؛ ولكن هناك على وجه العموم مغالاة فى الترف واللهو فى بوخارست . . بل يخيل للمرء أن الناس يوغلون فى الفجور على نطاق واسع .. ولست أدرى كيف يتسق هذا مع جو القلق الذى يعم الريف . . وبعض الوقار لاضير منه . . طبعا ينبغى على الحكومة كلها أن تضع حدا لهذه المغالاة . . ولا لوم على الناس ، وإنما اللوم على الحكومة .. ترى ماذا يقول الفلاحون لو شهدوا هذا الإسراف الدائم فى اللهو والمرح ؟ .. إنهم لايجدون ما يكفى لإعداد عصيدة المااليجا ؛ أما الأشراف فإنهم يشكون التخمة من كثرة الولائم والحفلات ! »

وثاب إلى رشده فجأة ، فابتسم فى حرارة ليزيل الأثر العنيف الذى أحدثته كلماته .. وأخيرا تلطف فى الحديث مع أولجا ؛ وكانت قد فزعت أول الأمر من بروده وصرامته ، وتبسط معها إلى حد أنها تجاسرت على دعوته لحضور المهرجان لمشاهدة رقصها .. فأجاب ميرون مبتسما : « يؤسفنى أننى لن أتمكن من الإعجاب بهذه الغادة الساحرة ، فهناك حفل آخر ينتظرنى فى القرية ، وهو حفل ليس بمثل هذه البهجة ، ولكنه حفل لا يمكن تأجيله . . على أننى سأترك جريجور مكانى ، ليصفق نيابة عنى ! »

وذهب جريجور فعلا إلى المهرجان الكبير ، شأنه شأن غيره من أهل الطبقة الراقية .. وكان الجمع المحتشد من أروع ماشهد المسرح القومى . حتى الشرفات ، حيث كان عدد المقاعد محدودا ، غصت بأصحاب الأسماء العريقة . . وكان هناك لفيف من سيدات اللجان يهرعن هنا وهناك ، ويتهامسن فرحات مع صديقاتهن فى غدوهن ورواحهن .

« لسوف تخلد هذه الليلة بحروف من ذهب حوليات رومانيا ! »

ونظر جريجور خلفه ، قبل أن ترتفع الستار ، فشهد تيتو هيرديليا غير بعيد وراءه .

قال مغتبطا : « مرحبا بك .. ماذا تفعل هنا بين زمرة الأشراف ؟ سأراك فيما بعد فى فترة الاستراحة ! »

وكان تيتو قد حضر فى مهمة رسمية بوصفه ناقدا مسرحيا . . وكان يلبس بذلته السوداء ، ولكنه شعر رغم ذلك بالحرج بين هذا الجمع الغفير من لابسى بذلات السهرة . . على أنه استعاد ثقته بنفسه عندما رأى زملاءه يلبسون مثل لباسه . بل كان فيهم من لبسوا ملابس النهار ليدلوا على أنهم قد حضروا تأدية لواجب ، لا ابتغاء المتعة .

وكانت نادينا تلك الليلة محط الأنظار . فى رقصة الغجر . وكانت آخر صيحة فى باريس . وكان رءول برومارو يزاملها فى الرقص ؛ ولقد أديا الرقصة بمهارة فائقة ، الأمر الذى جعل علية القوم من المشاهدين يطلبون إعادتها مرة أخرى ، ويصفقون تصفيقا متواصلا . . ولكن تيتو هيرديليا لم يستخفه الطرب — قال إن « السيدة نادينا » — فيما أطلق عليها الآن ، كانت فاتنة على وجه اليقين ، ولقد أدت دورها أداء رائعا ؛ ولكنه رأى من الأنسب لها أن تؤدى دوراً أقل خلاعة ، فهذا أليق بمكانتها . . ولقد أخذ يرقب ملامح جريجور فى فضول ، ونادينا تلف وتدور مع رءول ، ولكن جريجور تطلع إليها دون أن تطرف له عين . شأنه شأن أى مشاهد آخر .. إنما انصب إعجاب تيتو على تلك الحسناء التى التفت بها حاشية من الراقصات الرومانيات ؛ ترى من تكون تلك الحسناء ؟ . . ولم يجرؤ على شراء برنامج الحفل ، لأن البائعات كن جميعا من السيدات اللائى توقعن ثمنا خياليا مساعدة لجمعيات البر .

والتقى الشاب بجريجور فى فترة الاستراحة ، وانتحيا سويا أحد الأركان ، ليدخنا سيجارة . . لقد سره أن يشهد عرضا ، أعده علية القوم ، وكان كله باللغة الرومانية ، لا بشتى اللغات الأجنبية . . وأخذ يلح فى إبداء هذا الرأى أمام جريجور ، كأنما

حسب أن جريجور كان يقف منه موقف المعارضة . . حقا ، لقد كان الطلاب على حق عندما اعترضوا على اللغات الأجنبية . . وأراد ، توضيحا لفكرته ، أن أن يذكر على وجه الخصوص الغادة التي رقصت في اللباس الروماني ، وأسف لأنه لم يعرف اسمها حتى ينوه في مقاله بجريدة درابلول .

فسأله جريجور معاتبا : « هل تقصد أن تقول إنك لم تعرف الآنسة أولجا بوستيلينكو ؟ . . إنها أخت زوجة بريديلينو . . »

وظهر بريديلينو في تلك اللحظة . فوشى جريجور برفيقه، وقال : « أرأيت ؟ . إنه لم يعرف أولجا ؟ . إنه لم يعرف من تكون تلك الشابة التي أعجب بها دون النساء جميعا ، والتي أراد أن يزجي لها المديح في جريدته . . »

فقال فيكتور وهو يصافحه : « أنا واثق أن أولجا ستطرب غاية الطرب ياسيد هيرديليا ! . . لا يهم أنك لم تتعرف عليها . . فإن هذا معناه أن عليك أن تكثر من زيارتنا حتى لا تعود فتنسانا . . »

وشرعوا يحللون صاحب كل دور بالتفصيل ، وقد أغفلوا نادينا وبرومارو بطبيعة الحال . . وإذ هم مستغرقون في النقد والإطراء بهمة وحماس ، هب عليهم جوجو أيونيسكو بغتة ، وكان يتصبب عرقا لشدة حماسه ، فسألهم في لهفة كما سبق أن سأل كل واحد التقى به من قبل : « ما رأيكم في نادينا ورمول؟ . . ألم يكونا رائعين؟ أية موهبة خارقة ؟ . ياله من نجاح ! . . المسرح كله يهتز طربا ! . والثريات تتأرجح من شدة التصفيق ! .

ثم لحظ الحرج الذي ارتسم على وجوه المستمعين الثلاثة، فتبين فجأة زلة لسانه وحاول جاهدا أن يستدركها، فاستأنف الكلام بعد برهة في نفس اللهجة المتحمسة « ألا ترون أن هذا الموسم موسم رائع ؟ . . خارق للعادة ؟ . . أنا لا أذكر أنني شهدت هذا العدد العديد من الحفلات والرقصات التي شهدتها هذا الشتاء ، إنني مضطر أن أحضر هذه الحفلات كلها ، لأن نادينا .... »

وأمسك عن الكلام . . لقد ذكر نادينا ثانية ، فسقط في زلة أخرى . . وكان سيء الحظ . . وفتر حماسه ، فأضاف وهو يمسح جبهته متنهداً : « في رأيي أن هذا شيء متعب ، والظاهر أن كل واحد قد طاش عقله ! »

— ٥ —

لم يكن فى مقدور أيون برافيلا أن يشترك صراحة مع أولئك الذين سعوا إلى شراء باباروجا... وخشى أن يستشف الشريف ميرون خبيئة نفسه، وعندئذ لا يفتقد وظيفته كعمدة فحسب، بل إن الشريف قد يحيل حياته فى القرية إلى جحيم لا يطاق، ولا يدرى غير الله ماسوف يقدم عليه حينذاك — صحيح أن الشريف طيب القلب وأنه حلو الشمائل طالما كنت تتمشى معه، ولقد استفاد برافيلا كثيراً من ولائه له، وخفضه جناح الذل، ومع ذلك فهو لم يستطع أن يقف جانبا، ويكتفى بالنظر، إذ لا ضير إطلاقا من الحصول على قطعة من الأرض يتملكها الإنسان.. ثم إن هذه فرصة لا تتاح كثيرا.. ولهذا أرسل فى طلب لوكا تالابا، عندما سمع أن الشريف ميرون قد ذهب إلى بوخارست، واتفق معه على أن يذهب رجال القرية أيضاً، فيقابلوا السيدة، ويعرضوا عليها الأمر.. ولو فرض أن السيدة لم تعمل على مرضاتهم، فإن عليهم أن يتقدموا بشكوى إلى المسئولين. فطالما ساعد هؤلاء الفلاحين الذين وفدوا من جهات أخرى، وعاونهم على شراء الأرض، وتوزيعها بينهم.. يضاف إلى هذا، أن لوكا، عندما كان يتولى منصب العمودية، وصله مرة منشور من الوزارة يهيب بالفلاحين أن يتعاونوا على شراء الأرض، ويمنيهم بتأييد أولى الأمر.. ومن الخير أن يذهب أكبر عدد من الناس، حتى يدرك من بيده الأمر أن الناس جميعا هم الذين يطالبون بالأرض. رغم أنها تكلف كثيرا، وأن لابد لهم أن يعتصروا المال من بين براثن فقرهم.. وعرض العمدة رغم ما عرف الناس عنه من بخل، أن يدفع أجر مسافر فقير، ألا وهو بيتر، ابن سماراندا، فهو عون كبير، لأنه قضى فى بوخارست ثلاثة أعوام بالجيش.

فلما عاد ميرون أيوجا إلى آمارا، انطلق الفلاحون، وكان عددهم سبعة، صوب بيردى، حيث استقلوا القطار من هناك. ووصلوا إلى بخارست فى الصباح وبلغوا سترادا أرجنتارى ساعة الغداء.. واستقبلتهم فتاة، فى مريلة بيضاء، عند قمة الدرج، فأخبرتهم أن سيدتها قد نهضت لتوها من النوم، فقد سهرت الليلة الماضية فى حفل كبير، وأن عليهم أن ينتظروا فى الخارج، أى فى الشارع، حتى تأذن لهم.. وانتظر القوم فى هدوء على الرصيف، فلم تكن ثمة حيلة غير ذلك

وهم على أية حال ما جاءوا إلا لهذا الغرض .. وأخيرا جاءت خادم أخرى، فدعتهم إلى الدخول ، وطلبت إليهم أن يمسحوا أقدامهم عند الباب. وكانت السيدة نادينا مرحة مبتهجة ، وتحدثت إليهم فى لطف ، كما سمحت لهم أيضا بالكلام ، ولكنها فى النهاية قالت إنها ستبيع الضيعة لمن يتقدم بأحسن سعر ـ ولمن يدفع نقداً .. فخاطبها بيتر وكان أشد جسارة من غيره، قائلا : « على كل حال ياسيدتى ، إننا جئنا إليك من سفر بعيد ، وصرفنا نقودا من أجل ذلك .. ونحن نعرف فيك طيبة القلب . وعشمنا أن تنظرى إلينا بعين الشفقة ، وأن تبيعى لنا الأرض بسعر أرخص من غيرنا ، لأن ... »

والتفتت نادينا إليه فى دهشة، ورأت فيه سائقها القديم .. ورمقته بنظرة طويلة تريد بها أن تذكره بمركزه ، ولكن بيتر قابل نظرتها ببساطة ، كأنما كان يقول لها إنه لا يخاف من امرأة ، ولو كانت تنتمى إلى طبقة الأشراف . . فأجابته ، وفى صوتها رنة احتقار: « أتظن أننى من أجل عينيك الزرقاوين وحدهما أتنازل عن ضيعتى ؟ .. لا يابنى ، لا أيها القوم الطيبون .. أنا أبيع عزبتى من أجل المال، ولست أتصدق بها على الغير .. أما الدولة فتستطيع أن تتصدق كما تشاء » .

وعاد الفلاحون إلى ناصية الشارع ، وأخذوا يقلبون الأمر على شتى الوجوه حتى نفذ البرد إلى نخاع عظامهم .. وأخيراً هبت عاصفة ثلجية ، ازدادت ضراوة باستمرار . فمضوا يسيرون نحو جورا موسيلور ، حيث عرف بيتر صديقاً من كوستنتى يملك إحدى الحانات ، وكان على استعداد لإيوائهم بثمن بخس ، دراهم معدودات .. وتناولوا لقيمات قليلة من الطعام الذى جاءوا به معهم، ومضوا يتحدثون إلى وقت متأخر فى الغرفة التى وضعهم فيها صاحب الحان جوار المطبخ . وأسرعوا ، فى اليوم التالى ، بمجرد أن بزغ الفجر، إلى وزارة « أراضى التاج » وهناك كان عليهم أن ينتظروا فى الفناء . . وصاح فيهم رجل ذو لحية سوداء طويلة من وراء المدخل المسدود ، وقال : « لا يسمح بالدخول للجمهور إلا بعد الساعة الحادية عشرة » وكان هناك قوم آخرون ، أهلك البرد والخوف أبدانهم، وكانوا مثلهم قد وفدوا من جهات أخرى يحملون معهم متاعبهم. وعندما انفتحت البوابة ، تدافعوا إلى الداخل ، ولكن الحاجب أوقفهم ، وكان رجلا قميئاً كئيب المنظر ، تكاد لحيته تصل إلى وسطه .

« ماهذه العجلة ياقوم؟ ليس هذا بملهى!. ماذا تريدون، ومن تطلبون؟ »

وأخذ كل واحد يقص متاعبه، وهو يتكلم باحترام.. وسر الحاجب، فرقت حاشيته قليلا، ولكنه أبى أن يستمع إلى النهاية، وقال:

« السيد الوزير لم يصل بعد.. وربما يأتى بعد حين.. لا بأس أن تبقوا هنا برهة لتستمتعوا بالدفء »

وهكذا تلبثوا.. ومضت ساعة أو نحوها، ثم أعلن الحاجب أن الوزير لن يحضر يومه ذاك؛ وإنما سيحضر فى الغد.. وعادوا إلى الخان واستأنفوا الكلام.

وكانوا أسعد حظا فى اليوم التالى.. أرسلهم الحاجب إلى الدور العلوى فبلغوا مكتبا يكتم الأنفاس، ويغص بالناس.. واستقبلهم شاب بشوش السمات، مطلى وجهه بمسحوق البودرة، وقال فى ود. «ماخطبكم أيها الأصدقاء؟. ما الذى جاء بكم هذه المسافة كلها من..؟ أتقولون من أرجس، أى نعم؟»

وأخذ لوبو شيريتو يحكى حكايتهم، مع كثير من التنميق. ولم يبد على السيد أنه قد ضاق ذرعا على الإطلاق، ولكنه بمجرد أن فهم جلية الأمر قاطعه قائلا: « فهمت .. عزبة معروضة للبيع.. انتظر لحظه ... »

وضغط على زر، وخط سطرين على قصاصة من الورق، ودفع بها إلى الغلام الذى استدعاه، قائلا: « السيد الوزير مشغول جداً ولا يستطيع مقابلتكم الآن أيها الأصدقاء. ولكنى سأرسلكم إلى سيد آخر يتولى عن الوزير حل هذه المشاكل كلها.. وهكذا تنالون حقوقكم.. هذا كل مافى الأمر أيها الأصدقاء.. خذهم ياغلام إلى المدير العام! »

ومشوا صفاً واحداً وراء الرسول فى ممرات شتى حتى وجدوا أنفسهم فجأة أمام سيد عجوز عبوس الطلعة جاف المظهر واستمع الرجل إلى حكايتهم من البداية إلى النهاية، ثم سألهم زاجراً « هل أنتم تريدون شراء عزبة السيدة، أم أنتم تريدون أن تأخذوها منها؟ »

فاعترض لوكا تالابا: « لا، لا، نحن لا نريد ... »

فصرخ المدير قائلا: «اخرس الآن .. لقد تكلمت زيادة على اللزوم واستمعت أنا إليك .. الوزارة ليس من حقها ، كما أنها ليست فى وضع يتيح لها ،التدخل فى الصفقات التى تعقد بين فرد يبيع ممتلكاته الزراعية، وبين مشترين يريدون شراءها .. مع بعض الاستثناءات التى نص عليها القانون ، وهى استثناءات لا تنطبق على هذه الحالة .. والأمر ومافيه أنكم تعودتم الجرى هنا وهناك بشكاوى لا أساس لها ، بدلا من أن تسعوا إلى الاتفاق مع سادتكم الأشراف على النحو اللائق. وقد خطر لكم الآن أن تطلبوا الأرض من الأشراف بأسعار غير معقولة ، أو دون مقابل على الأصح .. لقد فقدتم صوابكم .. وتجاوزتم حدود الأدب .. والرأى عندى هو أن تستمعوا إلى سادتكم الأشراف ، وأن تعملوا بجد .. ويتعين عليكم أن تجتهدوا ، وألا تستمعوا إلى ألسنة السوء .. ثم أنتم عماد البلاد ، وأنتم ...»

ولم يدرك لوكا تالابا من هذا الكلام كله شيئا إلا أن بابا روجا تنساب من بين أصابعهم ، وأن هذه الجهود التى بذلوها ، والنفقات التى تكبدوها ضاعت كلها هباء .. ولم يطق أن يتحمل ثقل هذا الخاطر ، فانفجر فجأة قائلا : «ولكن لماذا ياسيدى يأخذ الآخرون منا الأرض ...»

ولكنه لم يستطع أن يستكمل كلامه ، فقد هب المدير واقفا ، وقد اندفع الدم قانيا إلى وجهه ورأسه الأصلع ، كأنما قد انصبت على رأسه زجاجة من الحبر الأحمر فصرخ قائلا: «اخرس ياوغد ! .. وإلا أرسلت فى طلب الشرطة لتعلمك الأدب ، يالئيم. أنا أضيع وقتى وصحتى لأحاول أن أعلمكم ، ولكنكم لا تريدون حتى أن تسلكوا مسلك الأدب ! .. [واستعاد رباطة جأشه، واستأنف الكلام أشد هدوءا من ذى قبل] .. لقد بدأتم بداية خاطئة أيها المساكين ؛ فأنتم لم تعودوا تقنعون بما وهبكم الله ، ولهذا تتلهفون على نهب ممتلكات الغير .. توبوا إلى رشدكم ! . . وعودوا إلى موطنكم ، وانصرفوا إلى العمل فى أمانة — العمل هو أغلى ما يملك وطننا الحبيب ! .. ولو أردتم حقا شراء عزبة السيدة ، فاذهبوا إليها ، وتحدثوا معها ومع غيرها من الأشراف.. الكلام المؤدب لا يرد عليه إلا بجواب حسن. أفهمتم؟»

وحملق الفلاحون فى فمه ، وما حوى من أسنان ذهبية . وعندما تركوا القاعة ، ظل صوته الخشن يلاحقهم . . وأخذوا يجوسون خلال الممرات مرة أخرى ،

ثم وجدوا أنفسهم أخيرا بباب مكتب الوزير ثانية .. وكان لوكا تالابا قد قال ، عندما تركوا المدير أصلع الرأس ، إن عليهم أن يواصلوا جهودهم ، وأن يحاولوا مقابلة الوزير ثانية..ولكنهم ما كادوا يتقاطرون داخل الغرفة حتى اندفع حاجب رهيب ، وصاح فيهم بصوت كالرعد : « اخرجوا ! . . انصرفوا سريعا !. السيد الوزير خارج! »

وانفتح باب محراب السيد الوزير،وظهر فيه سيد من النبلاء ، ملتف فى الفراء وقد انتعل خفا فوق الحذاء ، وغطى أذنيه بفراء ثمين . . وكان وجهه سقيما ثقيلا يبدو عليه السأم والملال . وكان فى معيته الشاب الذى التقى بهم من قبل. وتوقف الوزير لحظة ، برهانا للذين وقفوا فى الممر على أنه لم يكن متعاليا ، وإنما هو مهتم بأمور الفلاحين ، الذين من واجبه أن يرعاهم ، فقال فى صوت ممطوط: « ماخطبكم ياأبنائى ؟ . . أية رياح جاءت بكم ها هنا ؟ »

وهمس الشاب فى أذنه ، فقال الوزير راضيا ، وهو يمضى فى طريقه: آه، نعم. نتم إذن قابلتم المدير العام .. حسن جدا ــ لقد أخبركم إذن بما ينبغى عليكم عمله ومن واجبكم مراعاة كل ماقاله لكم ، فهو يفهم متاعبكم ، ويعرف كيف يعالجها».

وهبط الدرج الرخامى وئيدا ؛ بينما وقف الفلاحون إلى الوراء ، وقبعاتهم فى أيديهم . . واختفى كل إنسان ، كأنما الشمس قد غابت عن الوجود . .

قال بيتر . «هيا بنا..لم يعد أمامنا مانفعله هنا ! »

«هيا!» قالها لوكا تالابا مغمغما ، وهو يضع كاكيولته على رأسه .

وذهبوا إلى المحطة من فورهم ، على أمل أن يجدوا قطارا فإن لم يكن فليقضوا ليلتهم هناك ، لأنهم قد أنفقوا كل ما كان معهم من نقود، ولم يبق إلا ثمن التذاكر.. وأسعدهم الحظ .. فلما شرع القطار فى المسير ، حمدوا الله فى نفس واحد بالطريقة التى تعودوا عليها ..

وكان الدفء يشيع فى العربة ؛ وكان بها عدد قليل من الركاب ، معظمهم من الفلاحين ، بعضهم من أيا لوميتا ، وبعضهم من موسكل ، أو تيلورمان ،وبعضهم الآخر من بلاد على مدى بعيد، وانطلقت الألسنة بتأثير الدفء..أما السبعة الوافدون

من آمارا فقد جلسوا معا فى ركن من العربة وقد اختنقوا كمدا ؛ ولم ينبسوا بكلمة إلا بين الحين والحين .. وزمجر لوبو شيريتو ندما على أنهم أنفقوا قدرا كبيراً من المال بغير طائل . . وأيده لوكا فى رأيه ، وقد غص حلقه من الجفاف . . على أنهم بالتدريج عادوا إلى أنفسهم ، فأخذوا يسترجعون ما مر بهم من تجارب ، ويزنونها وزنها . . وشعر كل واحد فيهم بأن عليه أن يدلى بدلوه فى الحديث ، أو على الأقل ينفث من صدره آهة . . نعم ، لو لم يحدث ما حدث ، لكانت النتيجة غير النتيجة . . وبدأ الركاب الآخرون يشتركون معهم فى الشكوى ، دفعت المصلحة الذاتية بعضهم ، وبعضهم الآخر فضولا منهم ، أو لأنهم مروا هم أنفسهم بتجارب مماثلة .

وتكلم الشيخ لوبو ، حرصا منه على أن يبرهن لجميع من بالعربية بأن الشيب لم يخط رأسه سدى ، قال. «لقد قلت لهم من بداية البداية إن الأشراف لا يريدون أن يبيعوا الأرض للفلاحين ؛ ولكنهم لم يلقوا بالا إلى كلامى ، وفى النهاية تبعتهم أنا نفسى ».

« لقد سمعت كلامك ؛ وإنى لأعجب لك لأنك لم تدرك كيف تجرى الأمور بينما الكل يدركون ! » وكان المتكلم شابا وسيما ، حسن الهندام ، امتلأت عيناه الزرقاوان رقة تأسر النفوس ، قال . « لقد حاول الناس أن يشتروا الأرض من الأشراف فى بلدى كذلك ، ولكنهم لم يفلحوا فى ذلك قط، لأن الملاك متمسكون بها ، كيلا تنتقل إلى أيادى الفلاحين ، وإلا فمن أين يحصل الأشراف على من يفلح لهم أرضهم ؟ .. ولقد قمنا بما قمتم أنتم به منذ سنة أو نحوها ، وتعبنا وشقينا مثلكم ثم خرجنا بنفس النتيجة ! ».

وتساءل لوكا تالابا . « من أين جئت ؟ »

فأجاب الشاب . « من فوسكانى ؛ إن كنتم قد سمعتم بها . . إنها على مسافة بعيدة ، على الجانب الآخر من البلاد . . . »

فقال ماران ستان مزهوا . « نعم أنا سمعت بها . . لقد ذهبت إلى هذه الأنحاء

عندما كنت بالجيش فى المناورات . . ترى هل المعيشة صعبة على الناس هناك صعوبتها هنا ؟»

فتأوه الغريب قائلا : « إنها فى غاية الصعوبة .. بل لعلها أشق مما هى فى هذه الأنحاء .. والحق أنها تدفع الإنسان إلى اليأس .. هل تظنون أننى مغرم بالسفر حاملا حقيبة امتلأت بالأيقونات التى أبيعها ؟ رباه ! مامن أحد فى عائلتى قام يوما بشىء من هذا القبيل ! . نحن جميعاً ، زوجتى وأولادى أيضا ، نعمل من مطلع الربيع حتى آخر الخريف . ومع ذلك لانكاد نحصل على قوتنا ؛ ولهذا أنا مضطر إلى القيام بهذا العمل حتى يعيننا الله ، فنحصل على قطعة من الأرض . والناس فى موطنى يأملون خيرا ، وهم يقولون إن الملك سرعان ما يبدأ فى توزيع الضياع ، كما تقول الإشاعات منذ سنوات طوال ».

« حقا، إن الناس لايكفون عن ترديد هذا القول!.. » فاه بهذه العبارة رجل ضئيل نضح وجهه عرقا ، وكان جالسا فى ركن .

فقال لوبو شيريتو ، وهو يتطلع إلى الرجل الجالس فى الركن .

« هكذا يتحدث الناس عندنا أيضا! . ولكنى لا أظن أن الأشراف يسمحون للملك بهذا ؛ لأنهم ليسوا أغبياء أيضا ؛ ثم إن السلطان كله فى أيديهم ! »

فقال الشاب الذى يبيع الأيقونات. « هذا ماأردت أن أقول . . الملك لا يستطيع أن يتصرف وفق مشيئته ؛ لولم يسانده الناس ؛ ولو كان الأشراف يعارضونه . . والناس فى بلدى يقولون إن السلطات فى جهات أخرى أخذت فى توزيع الأرض ولكن لاينبغى أن ننسى أن الناس قاموا بثورة منذ سنة أو نحوها، كبارا وصغارا لقد وضعوا أيديهم على فئوسهم ومعاولهم ، وقاموا بضجة سمع بها العالم من أقصاه إلى أدناه .. صحيح أن كثيرا منهم لقوا حتفهم ، لأن الأشراف رفضوا أن يتقبلوا هذا صاغرين . فاستدعوا الفرسان والمدفعية حتى يخلد الناس إلى الهدوء .ولكن السلطات عندما أدركت أن دماء كثيرة قد أريقت ، أشفقوا على الناس وأمروا الأشراف والفلاحين بإيقاف القتال .. قالوا لهم . « نحن سنعمل على استتباب السلام والعدل بينكم ! » واستمع الناس إليهم ، واستكانوا وعادوا إلى بيوتهم . ثم ما لبثت السلطات أن اقتطعت أجزاء صغيرة من أراضى الأشراف ومنحتها للفلاحين ، حتى يكون لهم أيضا من الأرض نصيب ».

وخيم الصمت ثقيلا على العربة . . وأخذ المصباح الكهربائى ، الذى أضىء تلقائيا يتأرجح باستمرار ، فأرسل خيالات غريبة ، مرة هنا . . ومرة هناك . . وعندئذ تنهد نفر من الفلاحين . . ومالبث بيتر ، ولم يشترك فى الكلام قط ، أن غمغم الآن واللهب يتوهج فى عينيه . « إذا لم نضع نحن أيضا أيدينا على فئوسنا ومعاولنا فلن . . »

وتوقف فجأة ، كأنما قد انبثقت الكلمات من ذات نفسه دون أن يعنيها . . وسمعه القوم ، ولكن مامن أحد فيهم التفت إليه ، اللهم إلا لوبو شيريتو ، فقد تمتم فى هدوء . « أمسك عن الكلام يابيتر ، أمسك عن الكلام »

وخيم الصمت مرة أخرى . . وهدرت العجلات هدرا رتيبا كأنها صدى جرس بعيد . . وتلاعبت ألسنة من الدخان فى الشبابيك المظلمة ، وقد حملت معها آلاف الشرر البراق . . وانتشر فى جو العربة الذى يكتم الأنفاس ، وفيما بين الضوء المنبعث من مصابيح الكهرباء والخيالات المتحركة ، صدى صوت العجوز وهو يخاطب الفتى فى جبن . « أمسك عن الكلام يابيتر ، أمسك عن الكلام . . »

الفصل السادس

النذير

— ١ —

انزعج بلاتامونو أيما انزعاج عندما شهد مشرفه الوفى ، شيريلا بون ، ذليلا منكسر الخاطر .

« ما خطبك ؟ .. ماذا جرى لك يا شيريلا ؟

ونظر المشرف إليه نظرة قاتمة ، وأجاب : «إنه ابنك يا سيدى لو علمت ....»
فتساءل الملتزم فى حيرة : « سبحان الله ، ماذا فعل ابنى بك ياشيريلا ؟ .

قال الفلاح وهو تعس: « أنزل الله به ما يستحق، إن لم ينل عقابه من الناس... لقد اقترف فى حقى جرما خطيراً ، وجلب العار على رأسى . . . ما كنت أظن أبداً شيئاً من هذا القبيل قد يحدث ـ أنا على كل حال قد خدمتك بأمانة وإخلاص..

وارتبك بلاتامونو . . فهو ، منذ أن جاء شيريلا وابنته إلى القرية ، كان يساوره الخوف من أن يعبث أرستيد بالفتاة .. ولقد حدث هو ابنه فى شأنها ، ومع ذلك فقد وقع المحذور . . كيف يجابه هذا الأمر يا ترى ! .. وحاول أن يهون من الخطب ، فلطم المشرف على كتفه لطمة الصديق للصديق قائلا « لا تحزن هذا الحزن ياشيريلا . . هكذا شأن الشباب دائما — ولقد حدث ذلك من قبل — ومع ذلك فالعالم لم يكف عن المسير . . نحن ننظر فى هذا الموضوع، ونرى ماذا ... »

فصاح المشرف وهو يبتعد عنه مستاء : « لا ياسيدى .. أنا واثق بأن الأمر لايعنيك ، فهو لا يمسك بشىء . . ولكن ماذا نحن فاعلون بالفتاة ؟ هل نستطيع تزويجها وبطنها منتفخ ، أو على كتفها طفل ، وهى حديث القرية ؟.. ؟

فقاطعه بلاتامونو مترددا، بقصد أن يقول شيئا والسلام «هون عليك ياشيريلا.»

قال الفلاح : « لقد وقعت الواقعة الآن ياسيدى .. والله فوق كل معتدأثيم وهو عليم بكل شىء ، وسيجازى كل إنسان . . ثم عليك أن تبحث عن رجل غيرى ، لأنى لن أعمل فى خدمتك بعد الآن .. طالما قال لى الناس إن الشيطان يقطن هذه الدار ؛ ولكنى رفضت أن أستمع إليهم .. جازاكم الله .. أما أنا وأنت ، فسنسوى الحساب بيننا وقتا آخر ! »

وفزع بلاتامونو من المرارة والجرأة اللتين خاطبه بهما شيريلا اليوم ، فقد كان دائما يتسم بفرط الوداعة .

وانطلق يلتمس ولده ، وكان قد عاد إلى القرية بعد أن قضى فى بوخارست شهرا دون أن يحضر امتحانا من الامتحانات .

هتف ، وهو يبدى على الشاب المذنب عطفا أشد مما أبداه نحو الفلاح ! «أرأيت ما جلبته على من متاعب يا بنى ؟ .. كذلك لم تترك ابنة شيريلا وشأنها أيضا ، والآن ... »

فأجاب أرستيد وهو منتفخ الأوداج : « لا تبالغ هذه المبالغة يا والدى !!.. غيرغينا فتاة حسناء .. وأنا على كل حال لا أستطيع أن أجرى وراء الغربان فى القرية ! » .

وحاول بلاتامونو أن يعترض وقد بان الخوف فى صوته ، ولكنه مع ذلك استكان فى صميم نفسه لصراحة ابنه ، وقال : «لا بأس فى هذا كله ، ولكن ... »

فقاطعه الشاب : « أنا عارف .. لقد جاءت إلى غيرغينا شاكية .. وقلت لها بوضوح ما ينبغى عمله .. وعرضت عليها بعض النقود ؛ لأن الأمر لا يكلف كثيراً ، ولكنها رفضت .. على من يقع اللوم إذن لو علم الناس بالأمر ، وتركت هى بعارها ؟ .. لو سمعت كلامى ، ما علمت أمها نفسها بالأمر ، ولمضى كل شىء فى سلام .. ومع ذلك فعليك طبعا أن تعالج الموضوع كله فيما بعد ، ولابد أن تصرف بعض المال أيضا ، إرضاء لشيريلا والفتاة .. وان تعوزك الوسيلة ، فأنت حاذق ، وتعرف كيف تعامل الفلاحين ! »

فأجاب الملتزم وقد استعاد رباطة جأشه ! « طبعا .. يجب ألا نبالغ فى الموضوع .. ومع ذلك ليت الأمور لم تصل إلى هذا الحد .. لا بأس .. »

أما شيريلا فكان يتلظى غما .. وعندما أخبرته زوجه بما حدث للفتاة ضربهما معا .. وما لبث أن شعر بالأسف .. فقد رأى أنه أشد منهما جرما ، لأنه دخل فى خدمة اليونانى بدافع الطمع فى مزيد من الكسب ، رغم ما ترامى إليه عن سمعة العائلة .

وأحس بالحاجة تدفعه إلى أن ينفث الهم عن صدره ، وبخاصة عندما رجع إلى آمارا .. نعم ، لن يمضى يومان أو ثلاثة إلا وتعرف القرية كلها بالأمر .. كيف له أن يواجه الناس؟ . وذهب إلى القس نيكوديم ، فأخبره بكل شيء وشكى حاله ، وسأله النصح .. وكان القس أيضا ذليلا منكسر الخاطر ، فهو ، بعد أن كل بصره ، بدأ سمعه يخونه .. على أنه عندما أدرك جلية الموضوع ، دهش له ، واستعاذ من الشيطان ، ونادى على ابنته . « أسمعت يانيكولينا بما حدث للمسكين شيريلا مع ابن اليونانى ؟ »

واشمأزت نيكولينا ، ولعنت اليونانى ، ونادت على زوجها ، وقالت . « هل علمت يا فيليب بهذه الحيلة القذرة التى لعبها الطالب ، ابن اليونانى ، على شيريلا؟»

واستمع إليها زوجها صامتا ، وهو يهز رأسه إعرابا عن غضبه ، ثم تساءل فى ترو . « ماذا تزمع أن تفعل الآن ياشيريلا ؟ »

فأجاب الفلاح مغتما : « لهذا جئت إلى الأب نيكوديم ألتمس منه النصح ... أنا فى الحقيقة لا أدرى ماذا أفعل . ؟ »

« وبعد !! » قالها فيليب ، ثم كررها فى نفس اللهجة الصارمة بعد أن توقف طويلا ، « وبعد ! »

ورجع شيريلا إلى بيته دون أن يسترشد بنصيحة ما . ولكنه مع ذلك شعر براحة نفسية ؛ كأنما انزاح الهم عن صدره بإفشاء متاعبه إلى الغير ، وبسماع اللعنات تنصب على اليونانى .. وقام فى المساء بزيارة للمعلم دراجوس .. وكانت

حكاية غيرغينا قد ترامت هناك من قبل . . والواقع أنها ذاعت إذ ذاك فى جميع أرجاء القرية ، بل قد بلغت مسامع الشريف ميرون ، فاشمأز منها اشمئزازا عميقا وقال أمام أزباسيسكو والمشرف بومبو : « أرأيتم ؟ . . هذه هى القاذورات التى يرتعون فيها ، ثم بعدئذ نعجب لماذا يغلى الفلاحون ويهيجون ؟ »

ودار النقاش محتدما بين عائلة دراجوس حول احتمال مجىء شيريلا . . كان نيكولاى ، شقيق المعلم . قد سمع بالأمر من بيتر بن سماراندا ، وكان قد التقى به فى الشارع .. وكان الشاب يتميز من الغيظ ، فقد جاء عليه حين من الدهر أراد فيه الزواج من غيرغينا ، ولا أحد غيرها ، لأنه فيما ظن ما من فتاة أخرى مثلها !.

قالت فلوريكا زوج أخيه : « أرأيت كم كنت حكيما عندما تذرعت بالصبر فلم تتعجل ؟ »

فقال المعلم رأفة منه ورحمة : « بل على العكس ، لو أنك تزوجت بها عندما أغرمت بها ، لما وقعت الفتاة المسكينة فى براثن الخنزير اليونانى !! »

وطلب نيكولاى إلى أخيه ، وهو يغلى سخطا ، أن يقدم يد العون إلى شيريلا ، لأن من المحال أن تمضى هذه الفضيحة دون جزاء .. فهبت فلوريكا على الفور قائلة : « استمع إلى يايونيل !! . إياك والتدخل فى الأمر .. وأنت عندما تسمع كلامى ، كل شىء يمضى على ما يرام ، أما عندما تصرف النظر عما أقول فلا نلقى غير المتاعب . . على كل إنسان أن يهتم بمشاكله ، وأنت على كل حال لم تشر على شيريلا أن يلتحق بخدمة بلاتامونو ، إنما ذهب هو إليه بمحض اختياره . . ولقد وقع فى هذه الورطة من تلقاء نفسه ، فليخلص نفسه بنفسه كذلك . »

ووصل شيريلا بون وفلوريكا توقد المصباح . . وكان النقاش قد خفت حدته إذ ذاك ، فأخذوا يتحدثون فى موضوعات أخرى . . واستمعوا إلى شيريلا بانتباه عميق . وما لبثت فلوريكا أن قالت فى جفاء ، فقد كانت دائما فى هم بسبب ماقد يقدم عليه زوجها : « هذه فعلة قذرة ياعم شيريلا ! . . وكان من واجبك أن تكون أشد حرصا مما كنت ، فأنت تعلم أن ابن الملتزم كان زير نساء »

فقال الفلاح موافقا ، وهو يتطلع إليها فى حزن : « صدقت ، ومحال أن يوجد من هو أسوأ منه .. ولو كان المرء يعلم المخاطر التى فى ضمير الغيب ، لالتزم الحيطة والحذر ، ولكن والحال هو الحال .. »

فقال نيكولاى متهما : « لقد كنت أنت شديد الطمع ، فالتحقت بخدمة اليونانى وها أنت ذا الآن تدفع بغيرغينا ثمنا لطمعك ! »

فأجاب شيريلا بمرارة : « أنتم على حق .. ولكن لا حاجة بكم إلى شتمى .. حسبي ما نزل بي من عذاب .. فأنا بعدما علمت بأن غيرغينا كانت تحبك ، لم أعد أتشدد فى مراقبتها ، لأنى كنت واثقا بك أيضاً ! »

فصاح نيكولاى وهو يعض على أسنانه . « لا تجزع .. فأنا لن يهدأ لى بال حتى أنتقم من هـــذا الفتى اليونانى ! » وعجز عن تحمل المزيد من الكلام . فترك الغرفة .

وبقى شيريلا بون حتى حان موعد العشاء ، فانصرف وهو أهدأ نفسا .. كانت أية كلمة من كلمات المواساة الآن بلسما شافيا على جرح دام ..

وأخذ منذ ذلك الحين يقص قصة غيرغينا لكل إنسان يلتقى به فى الشارع . ونصحه العمدة أن يتذرع بالصبر ، فربما تحسنت الأمور فى النهاية .. أما لوكا تالابا فقد أبدى بعض العطف ، ثم أخذ يستجوبه بشأن الملتزم ، كم عرض ثمنا لباباروجا ، وما الثمن الذى طلبته السيدة ؟ .

وكان تريفون غوغو هو وحده الذى رد ردا جافيا عندما التقى شيريلا به ، فقص عليه قصته ، قال : « هيه ياعم شيريلا ، أنت على الأقل تملك مخزنا ممتلئا حتى ليكاد ينفجر من شدة الامتلاء .. أما أنا فأكافح منذ عيد الغطاس لأسد رمق بيت امتلأ بالعيال وليس به حبة من الذرة .. »

فأجاب شيريلا : « أنت على حق ياتريفون .. كل إنسان عنده متاعبه .. »

فغمغم غوغو . « المتاعب تبدو أخف وطأة عندما تكون شبعانا ! »

ومضى شيريلا فأمسك بتلابيب بانتيليمون فادوفا ، وكان قد حصل على

يومين أجازة من الجيش ، فأخبره بقصة غيرغينا . . وكان الفتى الآن جنديا ، وفى بزته العسكرية ، التى كان يبدو فيها وسيما للغاية ، وكان حريصا على التمسك بأهداب الفضيلة والسلوك الجيد حتى يتنكب العقاب ، فلا يحرم من المجىء إلى موطنه . . . وكان الفتى يعيش فى قلق دائب خشية أن تتناساه دومينكا فتتزوج قبل أن ينتهى من خدمته العسكرية . .

وكان بيتر بن سمارااندا ، يؤجل باستمرار موعد زواجه من ماريورا ، ابنة إيرينا . . وكانت تعمل خادمة فى بيت الشريف . . وكان بيتر مغرما بها منذ زمان طويل ، ولكنه لم يجرؤ على الزواج بسبب فقره . أما الآن ، بعد هذا الحديث الذى وقع لغيرغينا ، فقد كان له حديث آخر مع أمه التى وافقت بشدة على ما اعتزمه ولدها . . وكانت تستحثه على ذلك منذ أمد بعيد — وهو لو كان قد استمع إليها لكان قد استقر به المقام فى بيت له الآن . . ومن ثم أخذت سمارااندا فى الغد تشاور أم ماريورا ، وخالتها بروفيرا . . وتصادف أن التقى شيريلا ببيتر ، وهو فى خضم هذه التدابير ، فلما أخبره بما حاق به على يد الملتزم أجاب الشاب من بين أسنانه . « طيب ياعم شيريلا ، أنا لن أغفر له ، حتى لو أخذوا حياتى ثمنا لها . . »

فقال شيريلا بذلة . « أصبت يابيتر ، أصبت ! »

— ٢ —

ذات يوم رأى تيتو فى مكتبه القس بيلكوج من أهالى بريباس . كان حسن الهندام ، سواء فى بزته الكهنوتية أو المعطف الشتوى الذى لبسه فوقها ، وكانا جديدين . . وكانت لحيته مشذبة مهذبة — أو باختصار كان أنيقا أناقة طالب زواج تقدم ليد عروس . . ولم يكن تيتو قد رآه هكذا قط فى مسقط رأسه .

قال القس . « لقد أخذت معاش ستة شهور ، فحضرت إلى هنا . . لقد كنت دائما أخشى أن يدعونى الله إلى جواره قبل أن يتاح لى مشاهدة بلادى . . » وانتشرت على وجهه المرح ابتسامة يشوبها الحياء . « لقد وصلت هذا الصباح . فجئت إلى هنا من الفندق ، فلا أضل طريقى قبل أن أتعرف على المدينة . »

وكان والد تيتو ، وهو يفخر بما يحظى به فلذة كبده من احترام ، قد أشار على القس بأن يذهب لمقابلته فى مكاتب الجريدة ، فالأرجح أن يجده هناك أكثر مما يجده فى بيته .. وقدم هيرديليا بيلكوج إلى سكرتير التحرير ، ثم انصرف الاثنان إلى جولة فى قلب المدينة ، كى تتهيأ لهما فرصة الكلام على راحتهما .. وكان حتما على القس أن يخبر الشاب بكل ما حدث فى أماراديا ، صغيرا كان أم كبيراً وبخاصة عن زواج غيرغينا .. ولقد كتبت له أمه عن هذا الزواج ، ولكن دون التفصيلات التى كان يريدها .

وأصبح تيتو مرشدا لبيلكوج فى بوخارست .. ذهب بالقس أولا إلى تمثال ميخائيل الشجاع (٩) حيث رسم الصليب على صدره بانفعال شديد .. ثم اقترح عليه الشاب أن يأخذ تذكاراً يريه لأهله فى مسقط رأسه — ورقة ذابلة من إكليل كان معلقا على سن من أسنان السياج الحديدى الذى أحاط بقاعدة التمثال . وبعدئذ زارا عدة كنائس ومتاحف ، ثم ذهب إلى عدد من المحال الكبرى .. ولم يكن الزائر سعيد الحظ فى زيارته لمجلس النواب والشيوخ .. إذ لم يسمع هناك بالمصادفة غير المناقشات المعتادة الرتيبة ، دون أن يتخلل الجلسة أى خطاب هام ، ولكنه أعجب بها رغم ذلك ، إعجابه بكل شىء وقع تحت سمعه وبصره .. وكان محالا أن يكون حاله غير الحال ، فقد جاء من مسافة بعيدة ، كما أنفق الكثير من المال .. ثم كان هناك بعد ذلك المسرح القومى ، حيث ذهب القس مرتين بصحبة تيتو ، ومالبث أن أولع به ، فأصبح يؤمه كل ليلة .

فلما انقضى على بيلكوج أسبوعان ، لم تعد صحبة تيتو لازمة . كما أنه لم يشأ أن يستنزف وقت هيرديليا ؛ ذلك أنه اكتشف نفرا من رفاقه القدامى ، منهم كاتب بمكتب البريد ، ومنهم صيدلى ؛ وكان كلاهما زميلا له بالمدرسة فى آماراديا — وكان تيتو قد عرفه بأسرة جارفيلاس بطبيعة الحال ، بل وتناول معهم الغداء مرتين أو ثلاث ، فقد سر من صنوف الطعام التى افتنت فيها السيدة جارفيلاس الشحيمة اللحيمة ؛ ولم ينس أن يهنىء تيتو على حسن طالعه إذ أتيح له هذا الطعام .

أما تيتو ، فهو بقدر ما استمتع بصحبة القس الذى وفد من قريته ، لم يأسف على أن يترك بيلكوج وشأنه ، هذا فضلا عن أنه قد تكبد بعض المال فى هذه

كله، فقد اضطر أحيانا إلى أن يتناول طعامه بالمدينة مع القس، فيدفع لنفسه، ولم يخطر فى بال بيلكوج أبداً أن يستضيفه على حسابه، بل الواقع أن القس كان يسعده جداً أن يتقبل الضيافة من تيتو. كذلك أهمل تيتو عمله بالجريدة؛ الأمر الذى جعل روزو يقول «إن تيتو قد بدأ ينبج نهج غيره سواء بسواء».

ووقعت بعد يومين اثنين من وصول القس حادثة مؤسفة للغاية، وربما كانت قد تفضى إلى نتائج وخيمة، فهى لو بلغت مسامع بيلكوج لأصبحت حديث الناس جميعا فى آمارادبا.

كانت تانتا تأتى لزيارة تيتو لماما، حين تكون السيدة الكسندريسكو غائبة بطبيعة الحال.. وحاول الشاب عبثا أن يدفعها إلى التزام الحرص، فكانت تجيبه بأنها لاتبالى بأحد، ولا تعبأ بشىء، لأنها تحبه.. وكان ضمير تيتو يوخزه بسببها؛ وتحرج أن يقول لها إن السكان الآخرين، أو السيدة الكسندريسكو، قد يلحظوا شيئا، ومن ثم تحدث فضيحة.. وكان على حق فى مخاوفه... ثم كانت هناك أيضا تلميذته ماريورا رادوليسكو، فقد اشتمت شيئا، بل وحاولت أن تضبطهما معا.. ولكن من حسن حظه أنه عندما ذهب ذات يوم ليتناول طعامه مع عائلة جارفيلاس وجد ماريورا غائبة. فأخبرته السيدة الطيبة، وهى ساخطة، بأنها ضبطت الفتاة فى الشارع وهى تحدث سيدا كبير السن يكاد يبلغ جارفيلاس عمرا، وتتبادل معه القبلات.. وشكت إليه أن هذه الفتاة، التى أحسنت معاملتها، ودللتها كابنتها، لم تكن عند حسن ظنها بها.. والحق أنها لحظت على الفتاة تطلعها إلى الرجال، ولكنها لم تأخذ عليها ذلك؛ فالصبية على كل حال لن تكون راهبة.. أما أن تساير الفتاة هؤلاء الكهول، بل وعلى قارعة الطريق، فهذا هو العبث الذى يسرى فى دمائها.

وختمت السيدة جارفيلاس كلامها، فقالت فى كدر: «أنا لا أدرى مسلكها معك ياسيد تيتو؛ ولكنى أرجو ألا يغضبك طردى لها، فالدنيا زاخرة بالفتيات».

ومضت ليال بعد ذلك، وإذا بتيتو يودع بيلكوج، ثم يسرح إلى بيته لمقابلة تانتا التى أخطرته بالأمس بأنها ستحضر إليه، لأن أخاها والسيدة الكسندريسكو قد تواعدا على سهرة طويلة فى لعب الورق.

وقضى الحبيبان معا ساعتين من الزمان ؛ وإذا بهما يسمعان طرقة خافتة تدق على الباب . . وعقدت الدهشة لسان الاثنين ، وعم الصمت لحظات ، أخفت تاتتا فى غفوتها نفسها إلى ذقنها تحت اللحاف ، وقد امتلأت عيناها رعبا .. واقترب تيتو من الباب على أطراف أصابعه ، وقد وضع أصبعه على شفتيه محذراً الفتاة من أن يند عنها صوت . . وتساءل فى صوت أجش : « من هناك ؟ »

وجاءه الرد من الردهة : « إنه أنا . . أنا . . . لحظة واحدة من فضلك ! »

وكان تيتو فى شدة الاهتياج فلم يتعرف على الصوت . . أما تاتتا فقد هزت رأسها فى هوس ، وهمست فى إذن تيتو الذى نظر إليها مدهوشا ، وقالت: « جينتسا ! »

وازداد هيرديليا الشاب ارتباكا عندما عرف الطارق ، وقال : « أهـذا أنت ياسيد جين ؟ . . ماذا تريد ؟ . . ماذا حدث ؟ . . . »

وألح جينتسا من الخارج : « لا شيء ، لا شيء ، افتح الباب فقط لو سمحت ! »

وذعر تيتو ، ونظر إلى تاتتا مستعطفا، وإذا بها ، بدافع فجائى ، تختفى بكاملها تحت اللحاف .

وفتح تيتو الباب ، ودخل جينتسا مبتسما : « اغفر لى حضورى الآن على غير موعد ، ولكن . . هل أنت وحدك ؟ »

فقال هيرديليا متردداً . « طبعا ، من ذا يكون هنا ؟ »

« لقد ساورنى العجب ، فقد خيل إلى أن سمعت أصواتا ، وهـذا هو الذى دفعنى إلى طرق الباب . . لقد حضرت لآخذ بعض الأشياء من غرفة لينوتا (السيدة الكسندريسكو) و . . . »

وكان ، وهو يتـكلم ، يحملق فى أرجاء الغرفة متوجسا غير مصدق . . لقد حضر الآن دون أن يخبر السيدة الكسندريسكو ، فقد تركها فى بيت والديه مستغرقة فى لعب الورق . . واعتذر بصداع خفيف ألم به ، وأبدى رغبته فى الخروج إلى الشارع يشم الهواء ، فلا يتخم نفسه بالأسبرين . . . وكان قد تعرف منذ شهر

مضى على فتاة حسناء، وحيدة والديها، وذات بائنة . . . والظاهر أن الفتاة قد مالت إليه، فألمح إليها، عندما التقيا للمرة الثالثة، بنيته على الزواج .. وإنها لزيجة رائعة، ويرفع من قدرها ما سوف تتيحه له من صلات ونفوذ فى محيط العمل! فأبوها مدير مساعد، وهو أحد عمد الوزارة . . فلما تأكد من مشاعر الفتاة، شاور والديه فى الأمر . ولكن فى سرية شديدة، حتى لا يبلغ مسامع تانتا، فتسقط منها كلمة عن غير قصد أمام لينوتا . . وسر الوالدان . . وأخذ هو ينقل حاجياته خفية شيئا فشيئا . تجنبا لإثارة شجار مع السيدة الكسندريسكو، على أن يذهب والده أيونيسكو ذات يوم، فيتقدم إلى لينوتا، ويحدثها نيابة عنه، ويشرح لها الأمر كله، ويطلب إليها أن تترك ولده وشأنه . . وهو لهذا جاء إلى البيت، ليحمل مزيداً من حاجياته . . وكان قد دخل الغرفة الأخرى، ولكنه لم يجد علبة ثقاب، فقد ترك علبته مع لينوتا، التى وضعتها فوق النقود التى تراهن بها استجلابا للحظ . وكان قد أخذ يتحسس طريقه صوب الباب وهو مغيظ، عندما ترامت إليه أصوات من غرفة الساكن . وتردد لحظة . . كيف له أن يزعج الشاب والحالة هذه ؟ . على أنه عاد وعاب على نفسه أن يحضر دون جدوى، لا لشىء إلا لأنه لا يملك ثقابا. ثم إن تيتو وحده على كل حال . . وأخذت عيناه، وهو يتكلم، تجوسان خلال أرجاء الغرفة حتى وقعتا على المنضدة؛ وهناك بجوار الشمعدان رقدت قبعة صغيرة من قبعات السيدات . . وتوقف عن الكلام، ونظر إلى القبعة بركن عينه، وقال بلهجة ذات مغزى . «كازانوفا!»

وتملك الغضب تيتو، إذ أدرك أن أمره قد انفضح، وقال . «ألا تظن أنك ياعزيزى قد تجاوزت المدى ؟ . . لقد نهضت من نوى؛ وفتحت لك الباب؛ . . وهذا يكفى! . . قل لى ماذا تريد؟ ثم . . . »

ولكن فضول جين كان قد بلغ النهاية . «ترى أين اختفت السيدة ؟»
وأجاب وعينه تنقب فى كل ركن . «أريد بعض الثقاب!؟»

وجلس تيتو على حافة الفراش، وقال بصبر نافد وهو يشير إلى الثقاب التى وضع على الصوان القائم إلى جوار السرير «تفضل و . . . »

أشكرك ياعزيزى ... ولا تغضب على لأن . . هأنذا ذاهب ، أرأيت ؟ »

واقترب من الصوان ، ولكنه وهو يمد يده ناحية الثقاب ، خيل إليه أن اللحاف بارز فى ناحية ما . . . وتناول علبة الثقاب ، وقال فى خفة . عصفوران يتناغيان ماكان يخطر ببالى أن . . . ولكن لا لا . . . أنا لن أزعجك . . . أنا ذاهب . ولا تعبس هكذا . . أنت تعلم أنى أحفظ السر يافتى ، وسأتركك .

وبينما هو يقترب من الباب، أضاف . « سامحينى ياسيدتى فقد أثقلت عليك . . »

وفتح الباب وهو يضحك، ولكنه عاد وسأل تيتو وعيناه ترمشان . « سؤال واحد فقط ، أجبنى عنه أيها الماجن ، أهى جميلة ؟ »

وكان التوتر قد بلغ حدا جعل تيتو موزعا بين الغضب وبين الحاجة إلى الصبر . كان يقول لنفسه فى ذات اللحظة إن من واجبه أن يأخذ جين من قفاه ويطرده إلى الخارج ؛ ثم يعود ويقول إنه سلك مسلكا غبيا إذ فتح الباب وسمح له بالدخول . وأراد أن يتخلص منه على قدر ما يسعه من سرعة ، فأشاح برأسه فى احتقار دون أن يرد على سؤاله بجواب . . . وعاد جين مرة أخرى صوبه ، وقال . لماذا أنت غاضب ياعزيزى ؟ على كل حال أنا . . . »

وكان ساعتها واقفا إلى جانب الفراش ، وقد استبد به فضول لم يستطع أن يغالبه ؛ وإذا به ، فى سرعة خاطفة ، يرفع طرف اللحاف ، فيكشف عن تانتا . وينتهى من جملته المعسولة . . » أنا لم أر هذه السيدة الفاتنة ! !

على أنه لما تبين أخته ، جمدت بسمة الفضول على وجهه ، فاستحالت عبوسا ودهشة . . وتمالك نفسه بعد برهة، واستأنف الكلام غاضبا . « أنت إذن هذه السيدة الناشئة ! ! ! أجمل التهانى ! ! ليتك تخجلين من نفسك ! »

وهب تيتو قائما ، ولكنه لم يدر ماذا يفعل . . كان يرى أن من واجبه أن يتدخل ، وإن أدرك أن هذا تدخل مسرحى بعض الشىء، ولا يليق بظروف الحال ، قال . « أرجوك ياسيدى . . . »

فقال جين متثاقلا . « إنها أختى ، ومن حقى أن أمسك بها من خناقها لو شئت ! » ورأى تيتو أن هذا القول كان فى غير موضعه، شأنه شأن كلامه هو.

وعندئذ قالت تانتا فى سكينة تامة . « استمع إلى ياجينتسا . . . أنا لا أريد منك أبداً أن تعلمنى الأخلاق . . . لم أطلب هذا إليك مرة ، ولن أطلب منك أبداً . . هذا أمر مسلم به . . . ولهذا يحسن بك أن تهتم بـ . . . . . بصاحبتك لينوتا ، وتتركنا وشأننا ! »

وبلبل هدوءها وبرودها أخاها ، فتملكه الغضب، وغمغم ببضع كلمات، وأعاد علبة الثقاب إلى موضعها على الصوان القائم إلى جانب الفراش ، وقال فى نفخة كاذبة : « لى شأن معك فيما بعد ! .. أما الآن ، فعودى إلى البيت ... فورا ... وأنا لن أتحرك من هنا حتى تنصرفى ! .. »

فأجابت تانتا بازدراء : « سأنصرف عندما يتراءى لى أن أنصرف ... أنت تعلم جيدا أننى لا آبه لكلامك على الإطلاق ! »

« كذا !! .. وعندك من الوقاحة ما يجعلك تعارضيننى ؟ » هتف بها جين ، وكأنما وقع على عذر يتيح له التراجع محتفظا بماء وجهه : « حسن جدا ... ابقى هنا . . . واستمرى فى فجـــورك . . . لا بأس . . . سوف تدفعين ثمن هذا غاليا : »

وأسرعت تانتا تتهيأ للانصراف رغم ذلك .. وأراد تيتو أن يقول شيئا يبعث الطمأنينة إلى نفسها ؛ أو على الأقل كلمة من كلمات الحب . ولكنه خشى أن يبدو سخيفا . . . بيد أن تانتا كانت هادئة ثابتة ، كأنما لم يقع شىء ألبتة .. ودهش الشاب لهذه السكينة التى رانت عليها ، ولتمالكها زمام نفسها . . . كان على يقين من أن جين سيثيرها فضيحة .. ولكنه لم يكن يعرف ، وهذا مالم تشرحه له تانتا ، إن لديها ما يدعو لهذه الثقة بنفسها .. فقد حدثتها أمها بما اعتزمه جينتسا من هجران لينوتا ، وسوف يدرك أخوها أنها عليمة بسره، وهو لهذا لن يجرؤ على الإفضاء بسرها ، حتى لا تقدم بدورها على خيانته .

وعاش تيتو على نار يومين متتاليين ، يترقب وقوع الكارثة بين لحظة وأخرى . . ولكنه لم يلتق بجين ، كما لم يتلق خبرا من تانتا . . وبدأ يتخيل أن الأمور تجرى رخاء ، وإذا بالسيدة الكسندريسكو تدعوه إليها بعد ثلاثة أيام ، وكانت جالسة وحدها مغتمة ، وقالت : « أرأيت إلى ما فعلت يا سيد تيتو ؟ . . لقد حدثني جينتسا بما حدث ، ولم يخبر أحداً سواى، لأنه لا يريد أن يسبب تعاسة لوالديه المسكينين.. الحق ياسيد تيتو ، كيف أقدمت على ما أقدمت عليه ؟.. ما كنت أظن أبداً أنك تفعل ما فعلت بهذا الملاك البرىء ! . . وكنت أظن أن أهل ترانسلفانيا قوم مؤدبون ، حسنو المسالك ، وإذا بى أرى ... ولكن ماذا أنت فاعل الآن ؟ . . لو حدث شىء ، وعلم والدها بالأمر — وأنا أعرف أنه حساس جدا لكل ما يمس شرف عائلته — فسيضربك بالنار ! .

وكان هيرديليا الشاب يعلم جيدا الجواب الذى تتوق إليه صاحبة الدار ، ولكنه لم يستطع أن يعطيها إياه . . صرح لها بأنه يحب تانتا ، وأن العلاقة بينهما ليست علاقة عابرة ؛ ثم عاد وغمغم بشىء ، عن أن مركزه غير مضمون ، وعن آماله فى المستقبل ، عندما يستطيع أن يكلل حبهما بالزواج .. على أن السيدة الكسندريسكو لم تلح فى الأمر كما كان يخشى .. كان كل ما يهمنا هو جينتسا ؛ الذى حرم عليها أن تستقبل تانتا طالما أن تيتو يسكن عندها ... وهى لهذا تطلب إلى تيتو ، من أجل خاطر جين ، أن يبحث له عن مأوى فى بيت آخر ... ثم إن الشهر قد قارب نهايته ... والواقع أنها ، بصرف النظر عما تطورت إليه الأمور ، ما كانت لتسمح له بالبقاء أكثر من ذلك ، لأن ميمى فى حاجة إلى الغرفة ، وما كانت تود أن تذكر له السبب ؛ بل هى لم تفض به حتى إلى جينتسا ؛ وهو أن ميمى وزوجها على غير وفاق ، وأنهما يسعيان إلى الطلاق .

وعثر تيتو لنفسه على حجرة خلال يومين ، وبنفس السعر ، فى ميدان أمبريرى ، قرب الدرابلول ، بل وأقرب إلى قلب المدينة . كذلك شجر خلاف بين آل جارفيلارو وبعض السكان ، فاستقر رأيهما كذلك على الانتقال منذ شهر ولم يؤخرا انتقالهما إلا بسبب هيرديليا ، فاستأجرا لهما الآن شقة مناسبة فى الشارع نفسه . . وعندما أخذ تيتو بيلكوج ليريه مسكنه الجديد ، قال القس . « حمداً لله ياعزيزى الشاعر أن خرجت من هذا المسكن القديم ! . . أنا لم أشعر بميل إطلاقا لهذه السيدة العجوز التى تطلى نفسها بالمساحيق كأنها مهرج فى سيرك . كل ما كانت

تفعله هو الصراخ والتأود والغمز واللمز كأنما كانت تمشى على نار .. حذار من هاتيك النسوة ، فهن فى غاية الخطورة . »

— ٣

قال كوزما بيريونا شاكيا ، وهو يعتصر يديه . « ماذا نحن فاعلون حيال الفلاحين ياسيدى ميرون . إنهم يرفضون تجديد العقود القديمة ، بل هم يتوعدوننى ! أنا ما كنت أثقل عليك بهذه الأشياء كلها ، ولكن هؤلاء الناس أصبحوا خطراً علينا يا سيدى ميرون .. ولست أدرى ، هل فقدوا صوابهم أم أن الشياطين قد سكنت أرواحهم ؟ .. أنا لم أعرف فيهم أبدا هذا العناد الذى هم عليه الآن ! »

وكان ميرون أيوجا قد غفر أخيراً للملتزم الخطأ الذى وقع فيه فى الخريف الماضى بشأن الذرة ، فأخذ الآن يعطف عليه ، ولكنه لم يتمالك أن قال : « إياك أن تكون قد تخيلت أشياء وهمية كما فعلت بشأن السرقة ! » .

واستعاذ كوزما بالله فى ذلة ، وقال : « ما كان قد حدث ياسيدى ميرون !... أنا دفعت الثمن غاليا ! ... ومنذ العيد الماضى لم تمر ليلة دون سرقة ، ولكنى لم أجرؤ على المجىء إليك وإخبارك ، وإنما تحملت ذلك كله ... أما الآن فالأمور خطيرة جداً ! » .

واستطرد يقول : إن الفلاحين يرددون فيما بينهم وبين أنفسهم أنهم وإن اتفقوا مع ملاك الأرض ، إلا أنهم يرفضون الاستمرار فى العمل ما لم توزع باباروجا بينهم ، لأن الضيعة لا تهم السيدة فى قليل أو كثير ، وهى لا تريد إلا أن تبيعها للأشراف الآخرين . وقالوا أيضا إنهم لا يستطيعون العيش دون الأرض التى بذلوا فى فلاحتها العرق والدم ، ولهذا فهى لابد أن تكون من حقهم ، نعم ، فهكذا قال الملك وكثيرون من الأشراف .. وقالوا إن من بيدهم الأمر هم وحدهم الذين يقفون ضد هذا الرأى ، الأمر الذى جعلهم ينتظرون فى هم وقلق وقد جف ريقهم .. ولقد سمع الملتزم بهذا كله من أتباعه المخلصين ، ومن ثم فلا بد وأن يكون الخبر صحيحا .

قال الشيخ : « إذا كان الأمر حقا كما تقول ، فهذا نتيجة اللغو الفارغ . .

ولكن ليت شعرى لماذا لم أسمع بعد بشىء عن هذه الأمور ؟ ..

قال كوزما : « لأنهم لا يجرءون على إخبارك ياسيدى ميرون ... إنهم خائفون خجلون ! »

ولم يتعجل أيوجا أمر العقود ، فقد يزمع إجراء بعض التعديلات التى رأى أنها فى صالحه وصالح الفلاحين على السواء . . والواقع أنه كان قد عقد اتفاقيات مع بعض القرويين فى الخريف الماضى ، ومن ثم ضمن استمرار العمل فى الأرض .. وأرسل الشريف يستدعى المشرف بومبو الذى قال : إن الفلاحين حدثوه كذلك فى شأن التعديلات ، بل إن بعض من عقدوا اتفاقيات فى الخريف الماضى قد صرحوا بأنهم لن يعملوا ما لم تعدل العقود لصالحهم . . ولما شخص إليه ميرون ببصره متسائلا ذعر المشرف،فأردف قائلا: إن الفلاحين قد دأبوا على هذا الكلام ؛ وإنهم يضطربون ويثورون قبل كل ربيع،ولكنهم لن يلبثوا أن يتفقوا ، ويستأنفوا العمل ، إذ لا خيار لهم .

قال الملتزم فى كدر : « صبرا ياليونتى ، فأنت تهون من الأمر إلى حد بعيد... صحيح أن الناس كانوا يتكلمون هكذا فى عهود مضت ، ولكن الحال لم يكن أبداً كما هو الآن !.. على كل حال أنا أعرف الفلاحين أيضاً ، وأنا أعيش بينهم .. »

قال بومبو مترددا : « مازال أمامنا متسع من الوقت ؛ والثلج والصقيع لم ينزاحا عن الأرض بعد ! »

ولم يشأ الشيخ أيوجا أن يبدى ما كان يشعر به من قلق، رغم أنه لم يرض ألبتة عما سمع .. لقد خال أن الملتزم يغالى فى الأمور ، فهو بطبعه جبان خائر العزم .. ولكن لا ضير من اتخاذ جانب الحيطة والحذر .. ولهذا أمر المشرف أن يشرع فى إبرام العقود فى اليوم التالى مباشرة ؛ وأن ينتهى منها كلها فى مدى أسبوع .. وأحجم الشيخ عن فكرة إجراء التعديلات كما أزمع من قبل .. فربما اعتبر الفلاحون ، وهم على ما هم عليه من هياج ، أن الشروط الجديدة قاسية فوق ما يطيقون .

وبعد ثلاثة أيام حدث ليونتى بومبو الشريف قائلا إن الفلاحين جميعا رفضوا توقيع العقود ، وإنهم جميعا طلبوا إليه أن يخفف من وطأة الالتزامات ، لأنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال العيش فى ظل الالتزامات القديمة .

وحضر المعلم دراجوس فى ضحى اليوم نفسه . . ولقد سبق أن زار الرجل بيت الشريف مرتين منذ عيد الميلاد ، ليتحدث فى شئون المدرسة . . وتلقاه ميرون مرحبا ، فهو لم ينس الأهازيج التى أعدها دراجوس من أجله ، بل وأنحى باللائمة على نفسه لأنه سبق أن أساء الظن بالمعلم ، ربما بسبب مظاهر خادعة ؛ ولكنه على كل حال رجل جاد ناضج الفكر . . . ورغم ما كان يعانيه من ضيق الآن، لما ترامى إليه من المشرف، الأمر الذى جعله لا يميل إلى الكلام ، فقد بدا له، من الخير، أن يتحدث مع دراجوس، فلعله عن طريقه قد يتمكن من التأثير على أهل القرية ؛ ومن ثم يعود إلى توطيد الهدوء والنظام القديم . . ودعا ضيفه إلى الجلوس ، وقدم إليه الدولكيتا التقليدية ، وأخذ يستفسر عن أحوال المدرسة . . وكان أيون دراجوس شاحب الوجه ، وأساريره تدل على انفعال عنيف ، كما كانت يداه ترتعشان . .

وأخيراً قال ميرون فى ود : « لقد انطلقت أنا فى الحديث ، ولم أسألك عن سبب زيارتك . . ابدأ أنت أولا ، لأنى أريد أن أتكلم معك فى أمر بعد ذلك ! »

وازداد المعلم شحوبا، ووضع يده على ركبته، وأخذ يدق بأصابعه فى اضطراب .

ولحظ أن وجه أيوجا قد اربد بمجرد أن فاه بكلماته الأولى . . على أن هذا لم يثنه عن عزمه ، بل بث فى نفسه قوة أشد ، ودفعه إلى مواصلة الكلام فى هدوء وثقة .

وقاطعه الشيخ فجأة قائلا ، « هلا أخبرتنى عن السبب الذى دفعك فعلا إلى الحضور هنا ؟ »

ولم تفت هذه المقاطعة فى عضد دراجوس ، بل استمر يشرح له أنه لا يريد شيئا لنفسه ، ولكنه سمح لنفسه أن يأتى ويحدث أيوجا عن العذاب الذى يسود

القرية ، الأمر الذى دفع الفلاحين إلى الثورة بسبب ما يعانون من جوع وفقر . على أنهم ما فتئوا يتطلعون إلى أيوجا بوصفه راعيا لهم ، ويعقدون عليه الرجاء فى التخفيف من الأحمال التى أثقلت ظهورهم . ثم إن العقود الراهنة ثقيلة الوطأة لا يمكن احتمالها بعد، فقد أحدقت المجاعة بالناس فى أثناء الشتاء بسبب هذه الالتزامات، ومن اليسير ، لقاء تضحية هينة جداً ، أن تتحسن أحوال الناس جميعا .

وتساءل أيوجا : « باسم من تتكلم ؟ »
فقال دراجوس ببساطة : « باسم أهل القرية ياسيد ميرون »
« هل هم فوضوك فى المجىء وإبلاغى بمتاعبهم ؟ »

« لا ، لم يفوضنى أحد ، ياسيد أيوجا ، ولكنى وجدت نفسى مضطرا أن أقوم بذلك ، فقد جاءوا إلى ، وأخبرونى بمتاعبهم و. . . » .

فصاح الشيخ محتدا : « إذن كف عن الكلام .. أنا لست فى حاجة إلى وساطتك لأتبين رغبات شعبى ! إن الوسطاء أمثالك لا يجلبون إلا الشقاء على القرويين .. وهم بدلا من أن يعملوا على إنارة الناس ، يسممون نفوسهم ، ويبذرون فيهم بذور السخط ، ويستغلونهم حتى يختلقوا لأنفسهم الاحترام والمحبة . . الحق أن إحساسى الأول لم يخدعنى قط . . لقد عرفتك على حقيقتك ، ولكنى أخطأت إذ جئت بك إلى القرية لتفسد حياة هؤلاء القوم المساكين ! »

وهمهم المعلم ، بابتسامة ذليلة جاءت غصبا عنه: « صدقنى ياسيد أيوجا، أنا... »

وضاق ميرون ذرعا بكلمة « سيد أيوجا » التى لم يكف عن ترديدها ، واعتبرها إهانة له . . فازدادت لهجته حدة ، قائلا: « كفى ! . . أنا لا أتعامل مع الوسطاء الذين يقحمون أنفسهم فيما لا يعنيهم ! . . . »

فتمتم دراجوس فى قنوط : « لقد حضرت بوحى من ضميرى تأدية لواجبى ، ولقد فعلت . . . ولك أن تقرر ما ترى . . ولكنك قلت إنك تريد أن تحدثنى فى أمر . . . »

فصاح أيوجا : « لا لا . . . لا يوجد لدى ما أقوله لك . . كفاك كلام الآخرين ! » وأولاه ظهره . فانسحب المعلم فى هدوء .

وكان المعلم ، عندما اتخذ سمته صوب بيت الشريف ، واجف القلب ، جاف الحلق ، من شدة الانفعال . . كان قد رتب فى ذهنه كل شىء أراد أن يقوله للشريف ميرون . وكان كل شىء واضحا جليا حافلا بأسباب الإقناع . . كان من المحال أن يجد شيئا يستغلق على الأفهام أو يلق معارضة . . فهذا ، فيما رأى ، موقف فريد فى بابه ، تحدق به أخطار فريدة فى بابها ، وكان هو يحس بهذه الأخطار ويراها رأى العين . أما أن يطويها فى صدره فخيانة إزاء الرجل الذى يستطيع ، بإيماءة من أصبعه ، أن يقضى على العفن الذى يملأ الجو ، وأن يعيد الثقة والصبر إلى النفوس ؛ إلى أن يقيض لهم أن يلتمسوا حلا دائما للمشكلة .

أما الآن فهو يتصرف ساخطا على نفسه ، لا على ميرون أيوجا ، لاعنا عجزه عن إقناع الشريف بالحقائق التى بدت واضحة كل الوضوح فى ذهنه . . وهذه الأشياء التى كانت تدمى قلبه ، لقد بدت عندما تحولت إلى عبارات ، باردة جرداء غير ذات أهمية . . ولهذا لم يكن عجبا أن يتلقاها ميرون أيوجا دون أن يدرك لها معنى . .

وخرج دراجوس من بيت الدائرة بنفس الابتسامة الكسيرة التى تجمدت على وجهه — كان يمشى فى حذر متكئا على مظلته كما يتكىء على عصا ، متحاشيا الوحل والطين ، وملتزما جانب الطريق . وارتفع صوت أنطون المخبول من فناء دار الأم أيونا مناديا : « قف ياسيد . . . لا تهرب » .

وكان أنطون ، منذ أن حل الشتاء ، قد اتخذ لنفسه مأوى فى دار الأم أيونا التى كانت تصب اللعنات على رأسه ، ولكنها مع ذلك تتحمله — ولكن أنطون خرج من ظهر الدار ، حافى القدمين ، مهتاجا وقال :

« لماذا تهرب ياسيد دراجوس ؟ . . ألأنك ذهبت إلى الشريف الشيخ ؟ . . لا تخجل ولا تأسى على ما فات ، لأن يوم الحساب والتكفير قريب ؛ أما من وقفوا مكتوفى الأيدى فسيدفعون الثمن باهظا ! ؟ . . ولكن عندما يأتى الذين يمتطون صهوة الخيول المطهمة بالنبأ العظيم . عندئذ ستنهض أنت وتصيح أن . . . »

وتعالى إذ ذاك صوت الأم أيونا تنادى على فراخها . . . وتوقف المخبول بغتة ،

والتفت إليها ، كأنما كان النداء موجها إليه ، وغمغم فى انكسار : « لحظة واحدة يا أم أيونا ! »

وسمع دراجوس وقع أقدامه العارية وهى تضرب فى الوحل ، ثم تغيب عن الأسماع ؛ هذا على حين تعالى صوت العجوز وهى تنادى على فراخها ...

— ٤ —

ذات صباح ، بعد انتقال تيتو إلى المسكن الجديد ، وإذ هو يدخل مكتبه وجد روزو مغتما حزينا .

هتف فى مرارة : « أرأيت يابنى . . . لقــــد كنت أنا على صواب . . ما قولك الآن ؟ »

ولم يدر هيرديليا فى أى أمر أصاب سكرتير التحرير ، فهو دائما على صواب فى كل أمر ، وحيثما كان . . وأجاب بابتسامة غامضة مؤيداً له . . واستأنف روزو الكلام قائلا : « أظنك قرأت جرائد الصباح ، أليس كذلك ؟ .. ولكن ما يكتبونه فى الجرائد لا يزيد على قرص البراغيث إذا قورن بالواقع . . ووزارة الداخلية تكتفى بإصدار البيانات عديمة الجدوى . . أى نعم . . ولكن الواقع يابنى العزيز هو أن . . . . »

وانتهى بإيماءة كان المقصود بها هو أن يعبر عن قصارى قلقه على البلاد — وظل هيرديليا الشاب ، على حاله دون تأثر ، غير فاهم ، بينما واصل السكرتير الكلام فى غموض ، « لقد بدأت رقصة الموت ، وفقد أولو الأمر فينا عقولهم .. والآن لنرى كيف يجابه صاحبنا السيد ديليكينو الموقف ، فلطالما استرعيت نظره منذ أمد طويل إلى . . . . »

وتمكن هيرديليا الشاب، بعد لأى ، فأدرك أن روزو كان يتحدث عن قلاقل قام بها الفلاحون فى بعض نواحى مولدافيا . . ولقد ظهرت بشأنها نتف من الأخبار والفقرات القصار فى جميع الجرائد التى صدرت فى الأيام الأخيرة الماضية؛ ولكن هيئة التحرير فى الدرابلول لم تعرها ما هى خليقة به من اهتمام .. وكانت

الشائعات التى ترددت بالعاصمة أكثر مما نشرته الجرائد ، فى لهجة تنم عن الرضى ولا يعتورها خوف أو وجل . . وحاول هيرديليا أن يهدئ من روع روزو ، فأنبأه بالتفسير الذى سمعه فى كل مكان ، وهو أن هذه القلاقل كلها نشأت جزاء وفاقا لما اقترفه فريق من اليهود استغلوا الفلاحين المساكين فى قرى مولدافيا أشنع استغلال .

قال تيتو مبتسما : « لن يحزن أحد على زوال بضعة شوارب يهودية ، فهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تتخلص بها القرى منهم . . وهم قد تكاثروا بسرعة غريبة على كل حال . »

وهب السكرتير قائما كأنما قد لدغته عقرب : « مرحى ، مرحى يازميلى العزيز ! هذا ما أردت أن أسمعه منك . . هذه هى العقلية التى تفضى بالبلاد إلى حافة الهاوية — تلك هى البلطجة التى ترى فى اليهود سبب كل بلاء ! . . ومع ذلك فأنا موافق على الثورة ضد اليهود لو ضمنت لى أنك بذلك تتجنب الكارثة الكبرى التى تحلق فوق رءوسنا . . ولكن هل فى وسعك أن تخبرنى بالضبط إلى أين تنتهى بنا هذه الثورة ضد اليهود ؟ . أأنت واثق بأن الفلاحين فى الغد ، أو بعد غد ، لن يستمروا ثورتهم فينتقوا لحى الأشراف والملتزمين من المسيحيين ؟ »

وفطن تيتو الآن إلى أن روزو كان يهوديا ، فندم على النكتة التى أطلقها أمامه ، فمس أحاسيسه العنصرية . . وأراد أن يكفر عن خطئه ، فأسرع يحبذ كل شىء يقوله روزو ، بل ويسانده من حين إلى حين ، قائلا : « طبعا » أو « هذا واضح » . وحاول السكرتير أن يقنعه أن هكذا بدأت الثورات كلها ، بقلاقل لم يعرها أحد أهمية ، ولكنها كانت نذيرا . . قال :

« ماذا يحدث الآن يا صديق ؟ . . هذه الأحداث التى وقعت فى مولدافيا ، لا يرى الناس فيها إلا ثورة ضد اليهود ؛ ولقد قلتها أنت الآن ؛ ماذا يهم لو زالت بضعة شوارب يهودية . . لا مانع عندى من إبادتهم . . فهذا صمام أمان . . إذ بقتل عدد من اليهود ستهدأ ثائرة الفلاحين ، وينسون ما يلقونه على يد الأشراف والملتزمين ، الذين هم ليسوا بيهود ، ولكنهم يستغلونهم سواء بسواء . . لا تظن

أننى أخترع هذا اختراعا . . هاك الصحف اقرأها . . فهذا مكتوب فى كل مكان أحيانا صراحة ، وأحيانا تلميحا — نعم ، الآثام التى يقترفها الفلاحون الثائرون تجد من يبررها فى ظل الشعار القائل : « يسقط اليهود !! » إنهم يزعمون أن هناك قضية مقدسة تكمن وراء هذا كله، أنا أسلم بهذا .. لأن قضية الفلاحين قضية مقدسة وعادلة . . ولكنهم بدلا من أن يلتمسوا الحلول الشريفة ، ليخففوا من غلواء الفقر الذى يرزح تحته الفلاحون ، تراهم يزيدون النار اشتعالا . . لا بأس ، وأنا لا أقول شيئا عمن يقفون فى صفوف المعارضة ، فهم يناهضون الحكم القائم على كل حال ، لأنهم يحاولون اغتنام كل فرصة ، ولو كانت كارثة ، ليستولوا على مقاليد السلطة . . ولكن بودى لو أن الحكومة تصرفت بحكمة ، ولكن لا . . الأمر على العكس . . فهى تتصرف أسوأ مما تتصرف المعارضة ، لأنها لا تفعل شيئا على الإطلاق ، فقد فقدت صوابها ، أو قل إنها لم تدرك ماذا يحدث فى حقيقة الأمر . . ولكن الواقع أن الثورة تنتشر ، وأنه ما من أحد يتخذ أى إجراء لإعادة الأمن إلى نصابه .. لهذا كله كان الموقف خطيرا غاية الخطورة ! »

وكان روزو لا يكف عن خلع نظارته من فوق أذنيه ، فيمسها بعناية ، ويعيدها مكانها ، ثم يواصل الكلام فى حدة أخذت تتزايد على الدوام ، بقصد أن يقنع الشاب مهما كلفه ذلك من ثمن ، كأنما كان فى اقتناع الشاب القضاء على كل خطر وتهديد . . وكان تيتو مقتنعا بأن بلاغة السكرتير قد انطلقت من عقالها بسبب الملحوظة التى أبداها ، ورأى أن من واجبه أن يستمع مستسلما ، رغم أنه تلقى ساعته من البواب خطابا بخط تانتا لم يقرأه بعد ، وكان يتحرق شوقا على الاطلاع عليه .. ومن حسن طالعه أن وصل على خشبة المسرح إذ ذاك الصحفى أنتيميو ، وكان فى معطف من الفراء ، مغطى شحما ، وقد وضع على مؤخرة رأسه طاقية من الفرو الصناعى . . ودون أن يحتفل بهرديليا أدنى احتفال ، ألقى بنفسه على كرسى قريب من مكتب سكرتير التحرير ، وقال وهو ينفث عن صدره آهة : « لقد اتجهت هذه الاضطرابات وجهة سيئة ياعم روزو . . ولقد دعى مجلس الوزراء إلى الانعقاد أصيل اليوم لاستدعاء احتياطى الجيش ! »

وأشار السكرتير بأصبعه إلى تيتو منتصرا : « ماذا قلت أنا لك يا سيدى العزيز هل سمعت ما قال ؟ .. احتياطى الجيش !! »

وشرع أنتيميو يكتب قصته ؛ ولكن روزو أوقفه قائلا بمرارة : « اكتب فقط عن اجتماع مجلس الوزراء . . ما الباقى فلا يمكن أن ينشر فى درابلول . . هذا حظنا التعس . . عندما نجد أخبارا مثيرة ، نعض أناملنا من الغيظ ونحن نرى أديفارول تقوم بنشرها . »

وخرج ديليكينو من مكتبه بعد برهة ، وكان حليقا نحيفا هشا . . وكان يبدو أكبر سنا من حقيقته دون ابتسامته المعهودة . . قال رئيس التحرير : تعال ياروزو أملى عليك كلمة . . فأنت أسرع المحررين . . الكلمة فى الحقيقة بيان رسمى . . أأنت مستعد ؟ . . حسن ! « إزاء إلى الأخبار المهيجة للخواطر التى دأبت على نشرها بعض الصحف فى الأيام الأخيرة ، فقد علمنا من أوثق المصادر أن الهدوء التام يسود جميع أرجاء البلاد ؛ وأنه لا يوجد ما يدعو إلى إثارة القلق فى نفوس أبناء الأمة . أما الحوادث التى وقعت ، وهى حوادث صغيرة لا تتعدى النطاق المحلى ، فترجع إلى فتنة أثارها قوم من أصحاب النوايا الخبيثة . . ولكن لا مناص من القول بأن الحكومة تقف موقفا حازما ، وهى عازمة على الحفاظ على الأمن والنظام ، مستخدمة كل الوسائل المشروعة التى فى متناولها ضد أى شخص كائنا من كان ! ، تكفى هذه الفقرة ، أعد قراءتها ! »

وأعاد روزو القراءة ، فقال رئيس التحرير راضيا : « نعم ؛ ضعها على رأس المقالات السياسية ، بين عمودين ، وببنط كبير ! »

ولما هم بالانصراف ، سأله السكرتير : « هل ننشر شيئا عن احتياطى الجيش ؟ لقد جاءنا النبأ الآن . »

فأجاب ديليكينو : « لا لا . . انشر البيان فقط ... والواقع أن مسألة احتياطى الجيش ليست مسألة مؤكدة بعد ... ولابد أن ننتظر ريثما يقرها مجلس الوزراء ، أو يقر غيرها . »

واغتنم تيتوهيرديليا الموقف ، فانسحب إلى طاولة بعيدة ، وأخذ يطالع خطابه . . إن تانتا لم تعرف بانتقاله إلا الآن . ولم يبلغ جينتسا والديها بأمرها ، ولكنه

يتجسس عليها ، ويتوعدها بفضيحة لو ذهبت إلى بيت السيدة الكسندريسكو .. قالت إن لديها الكثير لتحدث تيتو به ، وإنها تتوق إليه ، وترغب فى رؤيته .. وطلبت إليه أن يترك عنوانه الجديد مع البواب فى مظروف ؛ فهى سوف تعود حتما .. وأخفى هيرديليا الخطاب ، وكتب عنوانه على قصاصة من الورق ، دون أن يوقع باسمه .. وكان تيتو من جانبه يتوق إليها ، فقد جذبه صوتها الرقيق وعيناها الساحرتان .. ولقد حاول عبثا أن يفرح بانتقاله من بيت السيدة الكسندريسكو ، ولكنه ما استطاع الهرب ، فقد ظلت تانتا تتملك فؤاده ، ولم يستطع هو عنها حولا ، أيا كانت الضرورة التى تدعو إلى فرقتهما .. وكان غيابها عنه يبعث ألم وإلهام له فى آن واحد .. فكان كل ليلة يفرغ شوقه فى أشعار ملتهبة ، لم يشأ أن يتناولها بالتهذيب ، لأنه لم يكتبها بقصد النشر ، وإنما تخففا من همه.

واستأنف روزو الكلام ، بعد انصراف ديليكينو والصحفى ، وكان كلامه الآن مشوبا بالسخرية ، بسبب البيان الذى تغافل الحقيقة الرهيبة .. وتظاهر هيرديليا الشاب بأنه يصغى إليه ؛ ولكن الكلمات دخلت من أذن ، وخرجت من الأخرى — أصوات بغير معنى . كانت تانتا وحدها هى التى تحتل تفكيره . وأراد أن يحدد لها موعدا مع العنوان ، ليدل على أنه سيكون فى انتظارها ... ولكن ماذا لو لم تحضر فى الموعد ؟ ولهذا أضاف ، بديلا عن الموعد ، « أنا أحبك »

وتنهد معتبطا وهو ينصرف من المكتب .. أخيرا انتهى الكلام فى القلاقل والاضطرابات .. وبدا له أن هذه الاضطرابات لا تزيد على كونها صورة أخرى من هذا الموضوع الأبدى الذى لا يكف القوم عن الخوض فيه ، وهو قضية الفلاحين .. ولقد تعودت البلد أن تخوض دون انقطاع فى المشكلات الخطيرة دون أن تقوم بشىء حيالها .. وكان الناس يتوهمون أنهم بالكلام ، ولا شىء غيره ، كانوا يؤدون واجبهم . وأن المهم فى الأمر هو الكلام ، لا العمل وخاصة إذا كان الكلام يكشف عن الفظائع والأهوال كافة .

كذلك جاء جارفيلاس ساعة الغداء ، وطرق حديث القلاقل والاضطرابات .. وكان قد سمع بفضائح رهيبة على لسان الشرطة ، فقيل إن الفلاحين قد أقدموا على نهب مدينة ، وإن الناس أخذوا يتحدثون عن التعبئة العامة .. وفى الأصيل التقى بالقس بيلكوج ، وكان فى غاية القلق ، وقال : « أظن أننى أسأت اختيار الوقت الذى أزور فيه هذا البلد . . . إن الأشياء التى سمعتها تدعو للأسى ، رغم أننى لا أدرى مبلغ صحتها .. ولقد أخبرنى بواب الفندق بأن بعض اليهود جاءوا من مولدافيا يتحدثون عن فظائع رهيبة » .

فأجاب تيتو فى ثقة ، بدأ يحس هو نفسه فى ظلها شيئا من القلق : « لقد ألف الناس الحديث هكذا أيها الأب ... هم يحبون أن يعملوا من الحبة قبة .. وربما كان فى الأمر شىء ، ولكنه ليس بالخطورة التى يتوهمونها ! »

« أنا لا أدرى إذا كان من الحكمة أن أرجع لمسقط رأسى فى سلام ، فقد تنشب الحرب فتأخذنى من تلابيبى هنا . وافرض — لاقدر الله — أن الحدود أغلقت ، وأن القطارات توقفت !! »

قال هيرديليا وقد ثقل الهم على قلبه : « كفى . لا تقل هذا الكلام .. هل تظن أيها الأب أن هذا البلد أصبح مرتعا للموبيقات .. اطمئن ولا تلق بالا إلى هذا الهراء ! »

والتقى فى الغد مصادفة بجريجور أيوجا . وكان ذلك بمقر جريدة درابلول .. وكانا لم يتقابلا من نحو أسبوعين ... وكان جريجور قد حضر ليستجلى الحقيقة من كل هذه البلاغات المتناقضة التى أخذت تروج وتنتشر . أما فى النادى ، فكان كل شىء يقال حسب لون الحزب الذى ينتمى إليه المتكلم ؛ وكنت ترى من تربطهم صداقة وطيدة بالوزراء ، إما أنهم لا يعرفون شيئا على وجه اليقين ، وإما أنهم أخفوا الحقيقة عامدين .. ولم يكن جريجور قد ذهب إلى آمارا منذ عيد الميلاد ، سواء بسبب الطلاق أو من أجل دواعى أخرى . . ولكنه رأى من واجبه ، إذا كان هناك ثمة خطر ، أن يمكث فى القرية إلى جانب والده . .

قال بابتسامة مغتصبة : « أنا لا أعتقد أن الجرائد تعرف الحقيقة ، وهى

لا تنشر غير الأكاذيب .. ولقد أخبرني بريديلينو أن أنصرف لشئوني، وأن الحكومة لن تسمح بالإخلال بالأمن في أرجاء البلاد ... على أن هناك آخرين يقولون. إن الحكومة عاجزة؛ وإنها لم تعد تملك ناصية الجماهير الغاضبة ..

ولم يتمكن تيتو هيرديليا من أن يدله على أخبار لم تنشر، أو على الأقل أخبار من الممكن الزعم بأنها صادقة كل الصدق .. كذلك لم يشأ أن يحكي لأيوجا القصص التي سمعها في العاصمة .. وعرفه بروزو الذي سر بذلك، وقال في مهابة بعد أن أزجى المديح إلى تيتو : « الحقيقة أيها السادة هي أشد سوادا مما يظن أي إنسان .. إن الحركة تزداد انتشاراً يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، ولا يعرف أحد هل مازال في الإمكان اتخاذ أي إجراء من شأنه أن يوقفها عند حد ..؟ هذا هو المصير الذي انتهينا إليه .. ومن حسن الحظ أنه مامن دماء قد أريقت بعد، ومامن أرواح قد أزهقت .. ولكن لايدري أحد ماذا يأتي به الغد » .

وحدث أيوجا بإسهاب عما وقع في بعض القرى والمدن، وما نهب منها وما خرب، ثم تعالى صوته كخطيب يخاطب مجلس النواب من المنبر : « البلد في طريقها إلى الثورة، ياسيدي العزيز، البلد كلها !! » .

وتأثر أيوجا من هذا النذير الذي صدر عن السكرتير، فاستقر رأيه على الرحيل في غده إلى آمارا .. ودعا تيتو إلى مصاحبته واعدا إياه ألا يمكثا هناك أكثر من يومين أو ثلاثة أيام، بل إن اضطر إلى البقاء أكثر من ذلك، فسيسمح لتيتو بالعودة إلى بوخارست... وسر تيتو لهذه الفكرة، سيما في الظروف الراهنة، فنظر إلى روزو مستفسراً، فرد هذا عليه في عطف . « في وسعك طبعا أن تذهب يازميلي العزيز، وأنا لا أستطيع أن أرفض لك هذا الطلب ! .. ولعلك تعود إلى الجريدة بمقال ممتع — فقال لابد أن يكون له دوي كبير، أعني ... آه، آسف، فالمقال عن آرجس. أما في الوقت الراهن فكل شيء هادئ، ولكن ينبغي الحذر مع ذلك في أي مكان في الريف، وبخاصة في هذه الأيام العصيبة .. ولهذا عليك أن تلزم جانب الحيطة ياعزيزي، ولا تدع الفلاحين يقبضون عليك ! » .

فضحك تيتو قائلا . « أنا لست من الأشراف ملاك الأرض ! » .

فهتف السكرتير: « لاتضحك ياصديقى ؛ فهل تظن أن أولئك اليهود المساكين الذين يعانون العذاب الآن هم من ملاك الأرض أيضا ؟ »

— ٥ —

قال جوجو ايونيسكو فى جد لم يتعود عليه : « أنا إذ أحذرك من العواقب إنما أقوم فقط بواجبى ياعزيزتى ؛ .. ليس من الحكمة الذهاب إلى الريف الآن !.. طبعا أنا لا أستطيع أن أمنعك إذا لم تصغى إلى ؛ وبيتى فى ليسبيزى هو تحت أمرك فى أى وقت من غير شك ؛ ولكنى أظن أنك بعد التروى وإمعان الفكر سوف ...»

فقاطعته نادينا فى استخفاف : « لقد أعملت فكرى وانتهى الأمر ... أنا لا أرى سببا يصدنى عن الذهاب ... بل على العكس .. كل شىء يدفعنى ألا أؤجل حسم الموضوع ؛ وهذا لا يتأتى بغير وجودى هناك ؛ اللهم إلا إذا أردت أنت أن يغشنى القوم ؛ وهذا مالا أرضاه لنفسى كامرأة ؛ لأن كل إنسان يتوقع أن يضحك على .. والواقع أنى لن أذهب وحدى ، بل سآخذ محامى معى ... »

« ألا تستطيعين الصبر قليلا حتى ينجلى الموقف ؟ » .

فأجابت نادينا ضاحكة : « أنا لست ذاهبة غداً ياجوجو ! .. فأنا لم أحدد الموعد بعد ... سأنتظر أولا حتى تجف الأرض قليلا ، ويتحسن الطريق ... وعلى كل حال لماذا أنت مضطرب هكذا ؟ — إن كل شىء هادئ تماما فى تلك الأنحاء ! » .

فقال جوجو متوسلا : « اتركى الضيعة وشأنها الآن ... إنها فى عهدة ملتزم ... اتركى الملتزم يعالج الأمر مع الفلاحين » .

« هل تعتقد حقا أن الفلاحين يهاجمون النساء .. لا تكن غرا !! »

قال جوجو : « لا بأس ، أنا لن ألح عليك ، لأنى أرى أن هذا الإلحاح لن يزيدك إلا عنادا وإصرارا .. لقد كلمت والدى ، وهو يرى أن الفكرة جنون

مطبق ، بصرف النظر عن رأى جينى ، وأنت تعلمين مقدار حبه لك .. أليس كذلك يا عزيزتى ؟ .

وفاضت عينا يوجينيا عبرات ... وأرادت أن تجيب ، ولكنها ما كادت تفتح فمها حتى شرعت فى البـــكاء ... وضاق جوجو ، وقال : ماذا بك حقا ياحياتى ؟ .

فقالت نادينا : « الذنب ذنبك ياجوجو .. لماذا تبعث الذعر فى نفوس الناس دون موجب ... ، أنا آسفة ياعزيزتى جينى ! .. لو كنت أعلم أن هذا الموضوع سيسبب لك هذا الإزعاج لما ذكرت أننى ذاهبة ! ...

وكان جوجو ويوجينيا قد نزلا ضيوفا عليها فى الغداء . . . وكان ثلاثتهم — وإجراءات الطلاق تسير فى مجراها — يأكلون معا تقريبا باستمرار ، إما هما معها ؛ وإما هى معهما ..

وأخيرا صاح جوجو ، وقد ضاق ذرعا بعنادها : « اسمحى لى يانادينا ، أن أقول لك إن هذا جنون مطبق ! » .

فأجابت نادينا ، وقد ومضت عيناها : « إن ما يغرينى فى الأمر هو الجنون لا أكثر ! » .

والحق أن الناس كلما نهوا نادينا عن الفكرة ، ازدادت تمسكا بهـا . . وكان أول من صدها عنها هو أوليمب ستافرات ، المحامى الذى يتولى إجراءات طلاقها ، وكان سيدا كبير السن كلفا بالمغازلة ، وكان يعنى بلحيته عناية فائقة .. وكان الرجل يتودد إلى نادينا من وقت إلى آخر ، وأحيانا يتجاوز حدود اللياقة فكان يقف أمامها ، ويتنهد ، ويرفع عينيه إلى السماء ، علامة على العاطفة المشبوبة ، على أنه لمـا سمع أنها أزمعت أن تصحبه معها إلى الريف ، رأى ألا مناص له من استرعاء انتباهها إلى ما يكتنف هذه الرحلة من مخاطر .. على أن نظرة ساخرة من نادينا كانت كافية لأن تجعله يغير رأيه . قال : « أنا طبعا لا أفكر فى نفسى ، بل أفكر فيك ياسيدتى العزيزة ! .. أما عن نفسى فأنا مستعد فى أى وقت لأن

أصحبك إلى آخر الدنيا . » ثم تنهد واستأنف الكلام ، قائلا : « ولعلك تلحظين أخيراً أن للمحامى ، أيضا ، قلبا ينبض ! » .

أما رءول بروءارو فقد رفض رفضا قاطعا ، وقال : « فيم تفكرين بحق السماء ياناديا أتفكرين فى الذهاب إلى الريف الآن ! . أهذه نكتة من نكاتك ؟ أما عن نفسى فأنا سعيد جدا فى بوخارست ! » .

بل إن رودلف السائق رأى من واجبه أن يحذرها من أن الرحلة حافلة بالمخاطر .

ولكن ناديا ، وهى تنظر إلى الأمر على أنه مغامرة من المغامرات ، اعتبرت الرحلة إلى الريف الآن مدعاة للبهجة . . وبطبيعة الحال لم يكن ثمة ما يدعو للعجلة وكان فى وسعها التريث والانتظار . وصحيح أن قرار الطلاق قد أصبح الآن نهائيا ولكن مازال هناك أسبوعان أو نحوهما حتى تصدر الوثائق الرسمية . . وما كانت تنوى أن تبيع ضيعتها مالم يتم ذلك باسمها هى ، ولكنها ظلت تحدث نفسها بأن عليها أن تقرر إلى من تبيع الضيعة ، وتسوى كل شىء ، حتى إذا ماحل اليوم الذى تصدر فيه وثائق الطلاق ، كان فى مقدورها أن توقع عقد البيع . وأن تنهى كل صلة لها بالريف .

قالت : « بالله ياجرجو ، لماذا تريد أن تجعل رحلتى الأخيرة إلى الريف رحلة غير عادية ؟ .. أنا أكره كل شىء عادى ! ! » .

— ٦ —

صباح السبت ، بينما كان المعلم دراجوس يقوم بشرح حكم جماعة « الفاناريوت » للصف الرابع ، إذا به يجد شرطيا بجانبه فى الصف قائلا فى هدوء « إن الرقيب يطلبه على عجل فى نقطة الشرطة ليحدثه فى أمر هام . . » وكأنما كان المعلم يترقب هذه الدعوة ، فأجاب فى سكينة : « حسن ، سأكون هناك فى لحظة » .

ولما لم يتزحزح الشرطى عن موقفه ، قال : « أم تراك تريدنا أن نذهب سويا ؟ .. لابأس »

وتلفت حواليه ، وقد عجز عن تذكر المكان الذى وضع فيه قبعته . . كانت القبعة على الطاولة ، وأخيرا وقع بصره عليها ، ولكنه تناول معطفه أولا .. وعندئذ سأل الشرطى : « هل أسمح للتلاميذ بالانصراف أم . . . »

وعندما هز الرجل كتفيه ، لأنه لم يدر ما يجيب به ، واصل المعلم الكلام : « لماذا ينصرفون على كل حال ؟ . . أنت ياستيفان بومبو ، تعال مكانى إلى المكتب .. احفظ النظام ، واكتب على السبورة اسم كل تلميذ يأتى بجلبة .. أفهمت؟.. أما أنتم يا أطفال ، فالزموا الهدوء ، وإياكم والخروج عن النظام . . أنا لن ألبث أن أعود . . . »

وتطلع إلى الشرطى كأنما يستشف شيئا من سحنته ، ولكن وجه الرجل لم ينم عن شيء . . ولما خرجا إلى الشارع ، قال بثبات : « أرى أن أميل على بيتى ونحن فى الطريق ، كيلا يستبد الوهم بزوجى ، فتذهب بها الظنون كل مذهب ! »

وذعرت السيدة دراجوس عندما شهدت الشرطى يمشى وراء زوجها فأخذت تنشج . ثم شرعت تكيل السباب .. وحذت حماتها حذوها . .

صاح دراجوس ، وقد هاجته دموعها : « كفى نواحا ، أنا لم أمت بعد !! بل أنا لا أدرى لماذا أرسلوا فى طلبى ! » .

قالت فلوريكا : « هيا يا أبى ، اذهب معه . . لاتجلس هنا دون حراك » . وهب الشيخ على عجل ، كأنما أيقظه صوتها من غيبوبة . . وأراد المعلم أن يقول شيئا ، فهو على كل حال ماهال بالشرطى إلا من أجل هذا السبب . ولكنه رأى أن من اللازم ألا يتأخر ، فاكتفى بالهمهمة وهو غائب اللب ، وقال : « لو قدر لى ألا أرجع . . أعنى لو حدث هذا ، فأنا سأخبر والدى ، فهو سيأتى معى على كل حال . . هيا بنا !! » .

ورأى أن عليه على الأقل أن يقبل زوجه ، ولكنه صد نفسه ، حتى لاتزداد الأمور سوءا ، وحتى لايشتد بها الخوف . . وإذ هو ينصرف قال فى هدوء شديد : « إلى أن نلتقى . . . »

وكانت أمام نقطة الشرطة عربة لوبوشيريتو ذات الحصانين واقفة تنتظر . وتساءل المعلم فى لهفة : « إلى أين ياعم لوبو » .

فأجاب العجوز : « لا أدرى ياسيد دراجوس . . لقد أمرت أن أحضر عربتى ، ومعها الدواب ، ولم يكن أمامى غير الخضوع ! » .

وكان الرقيب بونجيو واقفا فى انتظار دراجوس بالفناء ، وتلقاه فرحا كأنما كان يخشى أن يرفض المعلم الحضور . . وتصافحا على جارى العادة ، ودخلا إلى المكتب .

« ماذا حدث حتى ترسل فى طلبي من الفصل أيها الرقيب . . » سألها المعلم دراجوس ، فى حيرة رجل لا يدرى من الأمر شيئا ، رغم أنه كان فى صميم نفسه يعلم أن السبب يرجع إلى إثارته غضب ميرون أيوجا منذ ثلاثة أيام .

وأومأ بونجيو إيماءة غامضة قصد بها أن يلمح إليه بأنه غير مسئول على الإطلاق .. وأبلغ دراجوس أنه تلقى برقية تطلب إليه أن يرسل المعلم إلى بيتستى فورا ، وأن يأتى به إلى مقابلة رئيس الشرطة شخصيا .

وتساءل المعلم وهو مهموم : « وما الداعى أيها الرقيب » .

فأجاب بونجيو : « الأوامر أوامر ياسيد دراجوس . . ولا بد لى من تنفيذها ! »

قال دراجوس : « أنا لا ألومك إطلاقا . . إنما خيل إلى أنك ربما تعرف السبب ، والأمر سيان على كل حال .. ولكن متى يجب علينا أن نرحل؟ »

فأجاب الرقيب : « على وجه السرعة ، هذا ما صدر به الأمر . . ولكنك لو شئت أن تحضر شيئا من البيت ، فإننا نستطيع أن نؤجل الرحيل ساعة ، لا أكثر ، لأن المسافة بعيدة إلى بيتستى ، وخيل العم لوبو كما تعلم .. »

فقاطعه المعلم ، حفاظا منه على كرامته ، وخاصة لأنه بدأ يشعر أن أوصاله ترتعد : « حسن !! هل سمعت الأمر الصادر يا أبى ؟ .. اذهب على عجل إلى

المدرسة أولا ، وأطلق سراح التلاميذ — فقد تركتهم هناك وحدهم . . ثم قل لزوجتى فلوريكا أن تأتى بما تراه صالحا لى فى هذه الرحلة ، وأسرع حتى لا يضيع علينا الوقت فنجلب المتاعب إلى الرقيب » .

وقدم بونجيو كرسيا للمعلم ، وأخذا يتحدثان فى أمور عادية ، كذلك حضرت السيدة بونجيو ، ومكثت معهما برهة تسأل عن أحوال فلوريكا . . ثم ظهر شقيق المعلم ، بعد نصف ساعة ، بعد أن سمع الخبر من أهل القرية . . كان مذعورا يتميز من الغضب ، وكان يصيح قائلا : إنه سيذهب إلى الشريف ميرون ، وإنه سيركع على ركبتيه مستعطفا . . . وغضب بونجيو ، وقال : إنه سيغير من مسلكه لو أصبح الفتى مصدر متاعب له . . وعادت فلوريكا وهى تحمل طعاما وملابس .

قال : « أأنت على استعداد ياسيد دراجوس . . هل نشرع فى المسير ؟ »

وفتح باب قاعة رجال الشرطة ، وصاح : « تعال يابوجزا !! » .

وظهر فى فرجة الباب شرطى مدجج بالسلاح ، وضرب بمهمازيه انتباها .

وكان هناك نحو ثلاثين فلاحا قد تجمعوا فى الساحات وعلى الطريق . . لقد انتشر فى القرية خبر إلقاء القبض على المعلم انتشار النار فى الهشيم . . واربدت أسارير بونجيو ، فقد كان يخشى أن تتعقد الأمور . . ومع ذلك فقد تحدث مع الفلاحين بلهجة رقيقة ، قائلا : أليس لديكم شىء آخر تعملونه ؟ . . أفسحوا الطريق !! » .

واقترب ماران ستان منه متوددا ، فقد كانت تربطه بالرقيب رابطة ود ، وقال :

« لا تكن قاسيا أيها الرقيب . . . فمن العار أن يذهب السيد دراجوس هكذا ! . . ولو شئت أنت ، فى مقدورك . . . » .

فغمغم بونجيو قائلا : « لا تتدخل فيما لا يعنيك ، وإلا غضبت منك ياماران » .

وحمل عليه الآخرون كذلك ، فنظر الرقيب إلى دراجوس ، وكان يودع زوجه ، وقال : « هيا يا سيد دراجوس ، هيا ! ! . وأنا أرجو أن تحرص على ألا يحدث شىء فى الطريق ، فالشرطى لديه أوامر بإطلاق النار ! . .

فابتسم دراجوس ، والتفت إلى الفلاحين الذين أحاطوا بالعربة ، وقال : « لا تخشى شيئا .. وداعا أيها الأصدقاء ، إلى أن نلتقى مرة أخرى ! .... » .

وردوا عليه جميعا : « فى أمان الله !! » .

وبدأت العربة فى المسير ... ولم ينظر دراجوس إلى الوراء ... كانت بندقية الشرطى الجالس إلى جواره تتطوح إلى خلف وإلى قدام نذيرا وتحذيرا .. وتمشت فلوريكا ، وقد سالت عبراتها على وجنتيها ، فى عرض الطريق وراء العربة التى أخذت تغيب عن الأنظار رويدا رويدا ... وتنفس بونجيو الصعداء ؛ فقد نفض عن صدره هما ثقيلا ... قال يحدث من كانوا حوله : « هل تحسبون أننى أستطيع التصرف على هواى هنا ؟ ... أنا عندما أتلقى أوامر ممن هم أعلى منى مرتبة ، لا أجد مفرا من تنفيذها .. أنا جندى ، ومن واجب الجندى ألا تطرف له عين وهو يتلقى أمراً من الأوامر .... » .

« هذا صحيح !! » قالها نفر من الفلاحين مؤيدين ... أما جمهرة الفلاحين فقد ظلوا فى عرض الطريق يتحدثون ويتجادلون ويثيرون أسئلة شتى ... وفجأة هب نيكولاى دراجوس ، فقال بمرارة : « أنتم لا تفعلون شيئا غير الوقوف هنا تثرثرون ثرثرة عواجيز النساء ، بدلا من أن تذهبوا إلى الشريف ميرون ، فتطلبوا إليه أن يمنع الظلم عن أخى المسكين .. ثم أنتم لا تدركون أنه بسببكم قد زج بنفسه فى خلاف مع الشريف و .... » .

وأصغى إليه الفلاحون ، بعضهم مؤيدا . وأغلبهم دون أن يقول شيئا ... وإذا قائل يقول : « فى مقدورنا أن نذهب ، وهو لن يقتلنا على كل حال ... » ولكن صوتا آخر غمغم فى خفة . « لم لا تذهب أنت يانيكولاى ، بدلا من أن تدفع الآخرين على الذهاب ؟ » .

فصاح الفتى غاضبا : « هل قلت لكم إننى لن أذهب ؟ .. هل قلت لكم إننى لن أذهب ؟ .. هل تظنون أننى أخاف الشريف مثلكم ؟ » .

واشترك فلاحون آخرون ، فى اهتياج أشد ، وكذلك النساء والأطفال ..

وغص الشارع بالناس ، من نقطة الشرطة حتى دار الأم أيونا ... وتحرك الجمع صوب واجهة بيت الشريف أيوجا ، وهم يتحدثون ويصخبون ، أما لوكا تالابا فكان يحدث الجمع قائلا : إن الناس فى القرى يقفون فى وجه كل من يعاملهم هذه المعاملة ، وهب تريفون غوغو ، فقال فى صوته النافذ : « هيا بنا جميعا ، كفانا ثرثرة كنعيق الغربان ! »

ودخلوا إلى الساحة التى بها دور الخدم ، فتطاير سرب من الحمام فى الهواء ، وتفرق الدجاج وجلا ... وامتلأت الساحة .. وخرج المشرف ، ليوتى بومبو ، عارى الرأس ، وسألهم فى دهشة : « ما الأمر ؟ ... لماذا تجمعت القرية كلها هنا ؟ » .

وأجابته عدة أصوات فى وقت واحد .. وحك المشرف مؤخرة رأسه ، واستأنف الكلام ، قائلا : « لسوف يغضب الشريف ... » .

وتعالى صوت من بين الجمع قائلا : « ليغضب ما شاء له الغضب ، فنحن أيضا غاضبون ! »

وظهر ميرون أيوجا بنفسه فى تلك اللحظة صدفة ... لقد بدا لمقدم الربيع أصغر سنا ..

« ماذا حدث يا بومبو ؟ ... ماذا يريد هؤلاء الناس جميعا ! » ...

وأخذ ماران ستان يحدثه عن السبب الذى دعاهم للحضور ، وتكلم آخرون كذلك ، وأخيراً أدرك ميرون أيوجا الأمر كله ، فقال : « هم إذن ألقوا القبض عليه ! .. حسنا فعلوا ... وأنا الآن أرجو أن تثوبوا إلى رشدكم ! » .

وهتف البعض فى وقاحة بأن الواجب يقتضى العفو عن المعلم — فتملك الغضب ميرون ، وقال : « هذا النوع من السلوك لا تأثير له على ! ! .. وأنا يدهشنى أنكم لم تعرفونى بعد ، رغم أننا نعيش معا . . وأنا كنت أحسبكم قوماً مهذبين ، ولكن يؤسفنى أنى أخطأت التقدير .. ثم أنتم الآن جمع غفير ، أما عندما يتعلق الأمر بالعقود فأنتم تتهربون وتتباعدون ! » .

وصاح تودرستريمبو ! « نحن لم نعد نتحمل العقود القديمة يا سيدنا ! .. وأطفالى يتضورون جوعا ، رغم أننى أعمل طوال النهار ... » .

فصرخ ميرون أيوجا : « أتقول إنك لم تعد تتحمل ؟ .. حسن جدا ! .. ابق فى بيتك ، وضيع وقتك فى البكاء والكسل ... أما الذين يجدون ويلزمون جانب العقل ففى مقدورهم أن يكسبوا رزقهم من العمل بأمانة ! » .

قال سيرافيم موجوس برقة وحزم : « ما من أحد يضيع وقته فى الكسل واللهو يا سيدنا ... كلنا نعمل بكل ما فى طاقاتنا من جهد ، وقد آن الأوان أن تمد لنا يد العون ! » .

قال الشيخ ميرون بفظاظة : « أنا لا أساوم مع أحد .. وأنا لا أطلب إليكم شيئا ... وطالما هناك أرض فلن يعوزنا من يفلحها من العاملين ! .. وإذا رفضتم أنتم العمل فسنجلب أناسا من ترانسلفانيا يفلحونها ! » .

فصاح تريفون غوغو : « لا نريد أجانب هنا يا سيدنا ! .. نحن الذين قمنا بفلاحة هذه الأرض دوما ، وليسوا هؤلاء ... » .

فقال ميرون غاضبا : « أتظن أننى فى حاجة إلى رأيك أيها المأفون ؟ ... إياك وقلة الحياء ... هيا انصرفوا .. ليس عندى بعد ما أقوله لكم ! ... اغربوا عن وجهى ! » .

قال لوكا تالابا بثبات ! « ليس هذا عدلا يا سيدنا ! ... لا لا ، هذا ليس عدلا ... »

ووقف ميرون أيوجا دون حراك حتى خلت الساحة من الناس .. وإذ ذاك قال فى اشمئزاز : « أغلق الأبواب يا بومبو ! » .

— ٧ —

وفى اليوم التالى ، وكان يوم أحد ، وبينما الناس ينصرفون من الكنيسة ، فإذا بنبأ يتردد ويقول إن ثمة رجلين كانا يمتطيان جوادين أشهبين ، قد عبرا القرية منذ قليل ، وهما يحملان الأوامر الصادرة من الملك . . وتقاطرت جماعات الناس فى الفضاء الواقع أمام الخان ، حيث اعتاد القرويون أن يرقصوا الهورا واجتمعوا ليسمعوا النبأ .. وكان الكثيرون ينمقون فى رواياتهم، ويحشونها بالتفاصيل . وكان إيحنات سيرسل يتنقل من جماعة إلى جماعة ككلب ضال ، ويسأل نفس السؤال : « أتظنون انه قد أصدر أمراً بخصوص الأرض ؟ » .

وصاح العمدة أيون برافيلا ، بعد أن أصغى إلى يمين وإلى شمال ، فقال ساخرا « أنتم متأكدون من أن فرسانكم ليسوا من عمل الوهم والخيال ! » .

ولم يضحك أحد .. وقال عجوز معاتبا : « لا تسخر منا ياسيادة العمدة . . ليس المقام مقام هزل ... والأمور لن تمضى دوما فى الطريق المعوج ، بل لابد أن يتحقق العدل يوما ما !! » .

فأجاب برافيلا وقد تغيرت لهجته : « ولكن العدل لن يأتى على ظهر جواد يا صاحبي العجوز ! » .

فغمغم الشيخ : « لا يهم كيف يأتى ، المهم أن يأتى والسلام . ! »

وقال ليونتى أوربيسور: إن أنغلينا ، زوج نيستور موكينيكو، هى التى التقت بالفارسين .. فقد أخبره بذلك شخص..لا يتذكر من كان.. ورأى لوبو شيريتو أن الحكاية تحمل فى طياتها بعض الحقيقة ، لأنه هو أيضا قد سمع كثيراً من الأنباء فى بيتشى ، قبل ذلك بيومين ، عندما ذهب بالسيد دراجوس إلى هناك .

وبعد برهة جاء فاسيل زيدارو بأنغلينا لتقص عليهم الحكاية ، وكيف حدثت .. ولما رأت المرأة هذا الحشد الكبير حولها ، وعيونهم اللهفى متركزة عليها، نكصت على عقبيها ، وخافت من الكلام ، وقالت : « لقد تركت الأطفال وحدهم بالبيت و . . . »

وأراد العمدة أن يستجوبها ، ولكن أنغلينا ذعرت ، ودافعت عن نفسها بقولها : إن أناسا آخرين لابد قد شهدوا الفارسين أيضا ، فهما والحق يقال لم يتنكبا طريق الناس .

واستحثها إيجنات سيرسل ملاطفا : « هيا يافتاتى ، قولى لنا الحكاية من بدايتها ، ولا تخشى شيئا ! ... نحن أيضا نريد أن نعرف الأوامر التى جاء بها الفارسان ، وذلك حتى لا نقع فى أى خطأ أيا كان ! »

وأخيراً استجمعت أنغلينا أطراف شجاعتها ، وقالت : « أنا كنت فى طريق إلى بيت حماتى ، لأستعير مزيدا من الذرة . . وكان ابنى معى . . وبينما أمر بجانب الكنيسة ، سمعت الأجراس ، فرسمت الصليب على صدرى ، وشعرت بالخجل من نفسى ، لأنى لا أذهب إلى القداس ، بسبب كل هذه المتاعب التى تأخذ بخناق ... وما كدت أستعيذ بالله حتى شهدت الرجلين على جوادين أشهبين وهما يجتازان الطريق . . وكانا يأتيان عن طريق ليسيزى .. وتنحيت إلى جانب الطريق ، وإذا برجل منهما ينادى بى ، قائلا إلى أين ذاهبة أيتها المرأة ؟ قلت : « أنا ذاهبة إلى دار حماتى ، هناك ! » وعندئذ قال الرجل الآخر : أنت امرأة مسكينة جدا فيما أرى ؛ ولكن لاتحزنى ، فعندنا لكم أخبار طيبة .. لقد أرسلنا الملك لنخبر الشعب بأن الضياع من الآن فصاعداً قد أصبحت ضياعهم ؛ وأن على الشعب أن يقوم بتوزيعها فورا قسمة عادلة، وأن يطارد الملاك والملتزمين وأن يحرق بيوتهم وصوا معهم وآلاتهم الزراعية ، فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك أبداً ! هل فهمت يا امرأة :.. ويجب على الناس ألا يتوانوا ، فهذا أمر الملك ، ومن لا يطيع هذا الأمر فسيدفع الثمن غاليا ! » هذا ماقاله لى الفارس . « فقلت له : « فهمت ولكن . . » فقال : « هذا جميل إذن ، الوداع ! » فقلت لهما « اذهبا فى عناية الله ! » ثم انطلقا إلى الوادى ، والتفت أنا إليهما ، وجعلت أتابعهما بنظرى فترة ، ثم مضيت فى طريق ، وقلت لحماى ماأخبرنى به الفارسان ، فدهش هو أيضا دهشة شديدة . . »

وخيم الصمت على القوم ؛ وأخيراً قال إيجنات سيرسل ، وهو يهز رأسه : « هذا عظيم ، عظيم جدا !! »

واستمعوا إلى مزيد من كلام أنغلينا ، قالت: إن الفارسين كانا فى ملابس بيضاء. وإنهما انطلقا إما إلى روجينوزا ، وإما إلى فايدى . وأرسلها العمدة بعدئذ لترعى شئون أطفالها . .

ثم وصل أنطون ناتشو بعد ذلك بكثير، وكان قد ذهب فى مهمة إلى روجينوزا . . كذلك قال إنه التقى فى طريقه بالفارسين المتشحين بالبياض ، كما ردد الشىء نفسه، أعنى أن على الناس أن يوزعوا أرض الأشراف دون أى تأخير ؛ أما من يقاوم منهم فلا ينبغى أن يؤخذ بالرحمة ، لأن الفلاحين لم يلقوا رحمة فى يوم من الأيام .

وكان الجو كئيبا ؛ والسماء ملبدة بالغيوم ؛ رغم أن الربيع قد أقبل الآن . . وكان الناس يرتجفون ، ولكنهم لم يتفرقوا أشتاتا . . وعند الظهيرة وصل ماتى دولمانو ؛ ومعه آخرون من ليسبيزى ؛ وقالوا إن الفارسين مرا عبر قريتهم أيضا كذلك رجع إيرى بوبا من فايدى ؛ وهو خفير كوزما بيريونا ؛ فقال : إن الناس هناك أيضا فى حيرة يعجبون من أمر الفارسين اللذين أمرا القرويين أن يستولوا على أرض الأشراف فورا . .

قال ليونتى أوربيسور : « ليس لهذا كله غير معنى واحد يا إيرى . . لقد حل دورنا الآن ! » .

وقال إيجنات سيرسل مزهوا : « ألم أقل لكم أنا قبل زمن طويل : إن الملك يرغب فى توزيع الأرض . . لقد رفضتم أن تصدقونى إذ ذاك ؛ والآن ها أنتم هؤلاء ترون أننى كنت على صواب ! »

ولزم العمدة الصمت ؛ وانسحب إلى الخان يدفئ نفسه بقليل من الشراب ، ثم أوى إلى بيته ، فقد آثر أن يبعد عن المكان والناس يستمرءون هذا الهراء .
أما بيتربيتر فقد أخذ يذكر لوكاتالابا بما تجشموا فى بوخارست من متاعب ، جريا وراء ضيعة السيدة ، وختم كلامه قائلا : « من حسن الحظ أننا لم نتورط فى هذا الأمر ! »

« اصبر قليلا ، فالمسألة لم تنته بعد ! . . أما لو وزعت الضياع فعلا ، كما يزعم الناس ، فهذا شىء فى منتهى الجمال ! »

وتعالى صوت تريفون غوغو ، ساخطا غاضبا ، فغلب التردد الذى ران على الفلاحين الآخرين ، قائلا : « ماذا نحن فاعلون إذن ؟ .. هل نكتفى بالجلوس هنا نقتلع كيزان الذرة ، أم ينبغى علينا .. »

وأخذت أصوات جديدة تردد معه : « نعم ، ماذا نحن فاعلون ؟ .. لقد شبعنا من الكلام والنصح والإرشاد ! »

وتدخل ميلنت هيرفيمو فقال محتدا : « هذا حق والله ! .. والآن علينا أن نلقم الأشراف الكلمات الجوفاء ، فقد شبعنا نحن منها !! »

النيران

الفصـل السـابع

الشــــرارة

— ١ —

فى نفس يوم الأحد هذا ، عند الظهيرة تدلى جريجور وتيتو هيرديليا فى محطة جيردى ، حيث كانت تنتظرهما العربة الصفراء من آمارا . وقد وقف إخيم أمامها .

وتساءل جريجور : أكل شىء على ما يرام يا إخيم ؟ .

فأجاب الحوذى : الهدوء مستتب فى الوقت الراهن يا سيدى ! .

ولم يستحسن جريجور هذا الجواب ، ولكنه لم يلح فى السؤال ، فقد كان حسبه ما لقى فى رحلته من مضايقات . . لقد كان هو والشاب هيرديليا الراكبين الوحيدين فى العربة . . وكانت جميع العربات الأخرى تقريبا خالية من الركاب كذلك ، ولكن كانت هناك جماهير خائفة فى كل محطة ، وكانوا يرددون حكايات عن الفظائع التى ارتكبها الفلاحون ، وكل همهم ما قد يقدمون عليه من جرائم فى المستقبل . بيد أن كل واحد فيهم كان يعترف فى النهاية بأن الهدوء مستتب فى ناحيته ، ثم يستطرد ويقول : إن ثمة أشياء لا يمكن تصورها لا تزال فى ضمير الغيب . . وعلم جريجور أنه ما من شىء قد وقع فى تلك النواحى ، فعجب لهذه المبالغات كلها ، ورأى فيها استحثاثا للناس على الإخلال بالنظام . . وكان من سوء حظه ، علاوة على ذلك — أن طلع عليه إيلى روجوجينارو من محطة اسمها تيتو ، وهو الملتزم الذى زامله فى السفر فى الخريف الماضى ، وهو الذى أثقل عليه بنظرياته السخيفة فى الشئون الزراعية . . ولم يستطع أن يتخلص من الرجل قبل كوستستى ، وإذ ذاك قال الرجل بصوته الجهورى المرح الذى تعود عليه دائما: حسنا يا سيدى ، أترانى كنت على صواب بشأن الفلاحين ؟ .

وانتقل الرجل بعد ذلك إلى ديوانهما ، ليتجاذب وإياهما أطراف الحديث

بعض الوقت ، فقال : إنه أسرع إلى بوخارست عندما ترامى إلى سمعه أن ضيعة باباروجا معروضة للبيع . . ولقد حاول هو قبل ذلك بزمن طويل أن يجد له مستقرا بالقرب من بوخارست ؛ وإنه ليود أن يشترى له قطعة من الأرض فى « أرجس الدنيا » حيث بدأ أول عهده يمتهن مهنة الزراعة الشاقة . . ولهذا أخذ اولا يسعى طالبا المزيد من المعلومات ، ثم ذهب فى زيارة إلى البيت الكائن فى ستراداأرجيفتارى . . وماكان يعرف أن السيدة وزوجها يسعيان إلى الطلاق ، ولهذا سأل السيدة عن صحة زوجها — والحق، إنها لفى غاية الجمال، بل إنه لم يجرؤ على التطلع إليها وقاية لها من العين الحاسدة ، ولكنه عاب نفسه عندما أخبرته بأمر الطلاق من فمها الصغير الحلو .. وتباحثا فى أمر الضيعة ، واستقر بهما الرأى على لقاء ببيتها فى القرية خلال أيام قلائل ، لأنها ذاهبة إلى هناك لتبيع الضيعة ، لا لغرض آخر . . وإذا به الآن يرى الثورة قائمة ، فيضطر إلى العودة مسرعا إلى موطنه فى أولينا حيث جمع ثمرة كفاح السنين ، فقد علم كيف يخاطب الفلاحين ويتعامل معهم ؟ .

صاح : « أسأل الله أن يقينا شر هذه النار ! . . وليت أولى الأمر كانوا على حذق وبراعة . . فالفلاحون يطلبون العدل ، ولكنهم فى حاجة أيضا إلى حاكم يسوسهم . . أما لو كان الحاكم ضعيفا ، فلن يقنع الفلاحون بالعدل وحده . . ولهذا السبب أنا أرى أن الشعب لن يركن إلى الهدوء مالم تكن هناك يد حازمة . . وأنا لا أصدق الجرائد ، فهى تذكر الأكاذيب أكثر مما تذكر الحقائق . . وقد التقيت قبل الأمس بملتزم يهودى من ضواحى فاز لوى ، وقال لى هذا التعس أشياء هى أبعد ما تكون عن التصديق - قال إنه اتفق مع فلاحيه كما سبق له أن فعل من قبل ، ولكن عندما حل موعد توقيع العقود ، حضر رئيس الشرطة ، وأشار على الفلاحين أن يحذروا من خداع الملتزم اليهودى ، وأن من الخير لهم أن يطردوه من القرية .. أسمعتم بمثل هذا ؟ ! رئيس شرطة يحرض الفلاحين على طرد أحد الملتزمين !! .

هذا كل ماكانوا ينتظرونه ! لقد أشعلوا النار فى بيته ، وأهلكوا ماشيته ، واقترفوا آثاما أخرى عديدة .. ثم ما رأيكم فى السبب الذى دفع رئيس الشرطة

على تحريض الفلاحين ؟ . . ألأنه يحقد على اليهود ! أبداً والله !! إنما كان شقيق زوجته يريد أن يستولى على التزام العزبة . . ولكنه لم يتمكن من الحصول عليه.. فقد ظن أنه بمجرد أن يطرد اليهودى سيتمكن من وضع يده على العزبة الرائعة . . ولكن ماحدث لم يكن فى الحسبان ، لأن الفلاحين هبوا وأرادوا توزيع الأرض فيما بينهم . . وبطبيعة الحال غضب رئيس الشرطة غضبا شديدا ، واستدعى الجيش . ولكن لم تكن ثمة جدوى . . فقد نفض الناس عنهم ثوب الخوف ، لأنهم كانوا يعلمون أن لدى الجنود تعليمات تقضى بعدم إطلاق النار ، ولهذا كانوا يهجمون على الجنود بالمذارى والأحجار ، فلم يدر المساكين إلى أى جهة يهربون.. ولهذا أيها السادة أنا لا أعرف كيف يمكن استحثاث الفلاحين على التزام الهدوء ، والامتثال إلى الطاعة ، ولو كان أولو الأمر أنفسهم هم الذين يشجعونهم على هذا المسلك الشائن ! . حسبنا أن المعارضة لا تراعى المسئولية الواجبة ، وأنها تكثر من الضجيج فى جميع الجرائد ، وتقول : إن الفلاحين على حق ، وإنهم لا يجدون من يهديهم سواء السبيل ! » .

وازداد جريجور كآبة كلما اقترب من آمارا .. لقد أحس أن الجو ينذر بشر مستطير .. كذلك ندم هيرديليا الشاب على حضوره ، فقد رأى الهم الذى ران على رفيقه ، ولم يدر العلة التى دفعته إلى دعوته . . واشتم جريجور ما ألم به ، فقال فى سأم : « أنا آسف إذ أجد نفسى هكذا ، وأنا شخصيا لا أدرى علة لما اعترانى ! » .

وسارت العربة بمشقة عبر الطريق ، وكان موحلا من أثر أمطار الربيع المبكرة . . وغمغم إخيم ، وهو يستحث الفرسين قائلا : « الطريق لا يجف أبداً عندما يهطل المطر باستمرار ، والشمس لا تطلع إلا لماما » .

وتفحص جريجور القرى والحقول مليا ، كأنما كان يحاول أن يستشف منها شيئا .. كانت الأرض الداكنة المشققة ، تحت قبة السماء المعتمة ، تكتنفها عيون لامعة من ماء ، ليس بالعذب وليس بالأجاج ، أما فى القرى فقد تجمع الفلاحون على عادتهم أيام الآحاد ، يتحدثون فى الخان ، أو أمام أحد المنازل . . وبدا لجريجور أن فى عيونهم بريقا جديدا ، وأن أساريرهم تنم عن عزم قوى وتصميم.

أكيد . . وسأل جريجور الحوذى بعد أن اخترق ليسبيزى : « كيف حال العمل يا إخيم ؟ » .

فأجاب العجوز فى حذر : « جميل ياسيدى لأننا لم نبدأ فيه بعد !! أما الطقس فسيء ، لأن المطر لا يكف عن الانقطاع ، والناس لم يستقر رأيهم بعد بخصوص العقود . . » .

فصاح جريجور : « أتقول إن العقود لم تبرم بعد ؟ » .

« الأمر كذلك ياسيدى ، والناس مصرون على الامتناع ، ويتباودن فى الموضوع ، فقد ترامت إليه الأنباء هنا بأن الضياع ستوزع بين الفلاحين .. وهم لهذا ينظرون ويترقبون .. » .

وفى آمارا تجمع رهط من الفلاحين أكثر عددا من المعتاد حول حان بوزوك . . وقال إخيم : إن الناس قد وفدوا من القرى الأخرى أيضا ، وذلك بسبب الفارسين اللذين جاءا هذا الصباح بأوامر الملك . .

بل إن وجه والد جريجور أيضا نم عن القلق ؛ رغم أن الشيخ حاول أن يخفيه . . وكان أيوجا الشاب على يقين من أنه لن يتمكن من معرفة شيء منه ، ولهذا رأى أن يتصل بالفلاحين ليستشف منهم كنه الجو السائد ، وإن كانت كلمات إخيم القليلة قد دلت على الشيء الكثير . . وحدث الشاب أول من حدث المشرف بومبو فاعترف له بما يعتريه من فزع شديد ، وأن من المحال إخطار الشريف ميرون بشيء من الأخبار ، لأنه مضطرب كل الاضطراب ، ولأنه يخشى أن يغضب الشريف عليه .. ولو أن الشيخ قد قبل فقط أن يخفف من وطأة الالتزامات التى جاءت بالعقود ، لما كان ثمة مايدعو إلى القلق الآن . . فلعل الناس حينئذ كانوا يقنعون قليلا بما يلقى إليهم من فتات ، أما الآن فهم لا يريدون حتى أن يسمعوا شيئا عن العقود — وبخاصة لأن شائعات شتى تتردد بشأن توزيع الضياع — ومن ثم لم يعد ثمة سبيل للوصول إلى اتفاق مع أى إنسان .

وذهب جريجور إلى القرية فى صحبة تيتو . . والتقيا بالرقيب بونجيو ، فأخبرهما بأن الهدوء مستتب حتى الآن ، بيد أن إلقاء القبض على المعلم دراجوس قد أفضى

إلى بلبلة أهل القرية . . وهو لا يعرف السبب الذى دعا إلى إلقاء القبض على المعلم ، ولكن الناس يقولون فى القرية : إنه يرجع إلى الشريف ميرون ، لأن دراجوس قد تشفع لديه من أجل الفلاحين .

ثم انضما أخيرا إلى الجمع الواقف أمام الحان .. وسألهم جريجور عن متاعبهم فتلقى منهم إجابات رقيقة ، ولكنها لا تشف عن رأى ، فنهم من لم يجرؤ على الجهر برأيه ، ومنهم من لم يشأ أن يكشف عن دخيلة نفسه ، رغم أن نظراتهم جميعا كانت تنم عن التساؤل والاستطلاع أكثر مما كانت تنم عن العداء .. وألح جريجور خاصة على بيتر الذى كانت سماته تبدو أكثر من غيره قلقا وأشد توترا .. وارتبك بيتر . . فقد كان يكن الإخلاص لجريجور ، لاسيما بعد أن أعطاه هذا ثمن الثورين ، وبعد أن ألغى الديون التى كانت عليه ، فكان لذلك مستعدا لأن يذهب إلى الجحيم من أجله . . قال فى حيرة : « نحن نفعل ما يفعله غيرنا ياسيد جريجور . . إن العقود القديمة كانت قاسية علينا جدا ، ولم نستطع أن نعيش .. وبربك ياعم لوبو ، حدث السيد جريجور عن متاعبنا ، فأنت أكبر منى سنا ، وأطلق لسانا » .

واستحثه جريجور بفضول وود : « هيا ياعم لوبو ، هات ماعندك » .

« الأمر وما فيه ياسيدى أن بعضنا وافق ، وبعضنا الآخر أخذ يقلب الأمر فى ذهنه ، وكل حسب مايوحى إليه عقله وإحساسه » قالها لوبو شيريتو ، وهو يزن كل كلمة نطق بها . . « ولكن الناس يمرون بفترة صعبة جدا ، وليتك تصدقنا ياسيدى ، أنا رجل عجوز ، والله وحده يعلم إن كان العمر يمتد بى حتى عيد الميلاد أم لا يمتد ، ولكن الذى أدريه هو أننا نسير من سيء إلى أسوأ .. لقد كنت أنا فتى يافعا على أيام جدك ياسيد جريجور ، ولهذا أنا أعلم كيف كانت تجرى الامور حينذاك .. لقد كان جدك على شاكلتك ، طيب القلب رقيق الحاشية ، وما كان يسمع عن أحد يعانى من الجوع أو البؤس إلا ويأمر على الفور بأن ينال حاجته من بيت الدائرة .. وما كان يأخذ إلا عشر المحصول ، ولهذا استطعنا أن نعيش ، ثم إن الأرض كانت كافية ، لأن الناس لم يكونوا بهذه الكثرة . »

وواصل الرجل ذكرياته حتى قاطعه الآخرون . فسألوا جريجور عن الفارسين

اللذين حملا رسالة الملك ، وتساءلوا عن متى وكيف يبدأ توزيع الأرض ؟ .

وسأل جريجور هيرديليا الشاب ، وهما فى طريق العودة ، عن انطباعاته ـ قال تيتو : « الظاهر أن الناس يركنون إلى الهدوء .. ولو أن المرء عرف كيف يسوسهم لأمكنه الاتفاق معهم .. ولكن لايدرى أحد إلى متى يستمر هذا الهدوء ، لأن .. ؟ »

فغمغم جريجور وهو قلق : « هذا بالضبط هو السؤال الأساسى ! » .

وقضى المساء وحده مع أبيه يبحثان الموقف ، ويقرران كيف يتجنبان الكارثة المحتملة .. وغضب ميرون غضبا شديدا عندما سمع أن ابنه قد تكلم مع الفلاحين فى القرية ؛ ولما سأله جريجور أن يتدخل بغية إطلاق سراح المعلم على وجه السرعة هب الشيخ قائلا : « أنت إذن تريد أن أحط من منزلتى أمام الفلاحين » .

فهتف جريجور : « المسألة ليست مسألة كرامة يا أبى . . المسألة هى أن دراجوس لم يقترف جريمة تدعو .. »

« إن صاحبك دراجوس هو الذى يثير ثائرة الناس فى قريتى ! ! .. إنه هو الذى بث البلبلة فى نفوسهم ؛ وهو الذى أهاجهم ضدى . وهو الذى نكأ جراح ماعانوا من مظالم .. ومافعله أصحابك فى العاصمة ، فعله دراجوس هنا .. لقد حطم الجهد الذى بذلته أنا طوال ثلاثين عاما . . والواقع ، لمعلوميتك الخاصة ، إذ ربما لم يصل إلى علمك ، أنه أنا الذى طلبت إلى رئيس الشرطة ـ لما توافر لدى من أسباب وجيهة ـ أن يزيح المعلم من القرية ، وأنا أؤكد لك أن عدم وجود صاحبك هو خدمة للفلاحين أنفسهم ! » .

« أنا أخالفك فى هذا الرأى يا أبى ؛ فدراجوس لاغناء عنه هنا ، فى هذا الوقت بالذات .. فهو وحده ، بنفوذه الشخصى ، الذى يستطيع أن يكون « فرملة » توقف هذا العداء وتلك الكراهية » .

قال الشيخ ميرون باحتقار : « مادمنا قد بلغنا هذه المرحلة ياجريجور فلا مناص من الاستمرار .. أنا وحدى « الفرملة » يابنى ! ! » .

وامتلأت نفس جريجور ارتياعا .. لقد أدرك أن والده يعيش فى دنيا غير دنياه ، وأنه ينظر إلى الأشياء على غير حقيقتها .. وأخبر والده بكل شىء سمع به، مؤكدا له أنه لم يكتشف إلا قدرا ضئيلا من المظالم التى تنذر بلهب مستطير، نظرا لقلة الوقت الذى أتيح له ،. وأخيرا طلب إلى والده أن يأذن فى بذل محاولة الوصول إلى اتفاق مع الفلاحين .

ورفض ميرون .. كان على يقين من أن جريجور ، بأساليبه النسائية ، سيزيد الأمور سوءا .. ولقد بلغ إيمانه بخبرته الشخصية ، وبمعرفته بالناس حدا جعله يعتبر أن من المهانة ، فى هذه اللحظة الحرجة ، أن يتراجع عن استخدام وسائله المجربة ، الموثوق بها ، والتى أنضجت عشرات السنين ، وأن يعهد بالموضوع ، بدلا من ذلك ، إلى شاب أتخم رأسه بالمعلومات النظرية .

قال ميرون متعاظما : « إن لحظة واحدة من الضعف أو التردد أو عدم التبصر لن تكون إلا مدعاة لتشجيع هؤلاء الفلاحين المناكيد ، فتراهم يغتبطون لاضطرابك ، ويواصلون فعالهم الإجرامية ! . والواقع أنك تغالى فى الحالة هنا وإن كنت تفعل هذا بالطبع دون قصد .. أنا لا أدرى ما يحدث فى النواحى الأخرى ، ولكنى أعتقد أن هذه المغالاة المقصودة قد خلقت جوا كئيبا على وجه العموم ـ وأنا لى ، مع رجالى ، وسائلى الخاصة الموثوق بها ـ أولا الاستسلام ، ثم المفاوضة بعد ذلك .. وطبعا لا يستطيع المرء أن يعمل ، أو أن يحصل على أية نتائج ، باستخدام طريقتين فى وقت واحد .. وأنت لو كنت قد استشرتنى فى الأمر لسألتك ألا تقحم نفسك مع الفلاحين ، أو تصغى إلى طلباتهم . هذا ، فى رأيى ، علامة على الضعف ؛ وأنت بهذا تصورنى فى صورة طاغية جبار ، وتقلب سياستى رأسا على عقب » .

فقال جريجور : « عندما يشجر خلاف ، فمن الخير دائما أن يوجد وسيط . »

فقاطعه الشيخ فى حدة بالغة ، فقد تذكر كيف أدلى المطم باقتراح مماثل ، قال لالا ـ أنا لا أرى أى خلاف ، بل أنا أكثر من هذا لا أعترف بإمكان وجود خلاف بينى وبين رجالى .. فإن هذا معناه أننى ، أنا أيضا ، أسخرهم كما يسخرهم

الآخرون ، أو أننى أستغل عجزهم ـ وأنت تعلم حق العلم أنه لم يكن من عادتنا أن نشبع على حرمان الفلاحين. »

واستمر النقاش إلى مابعد منتصف الليل بكثير .. ولجأ جريجور إلى كل حجة والتمس كل ذريعة ، ولكن إصراره أسخط الشيخ ، بقدر ما أغضب عناد ميرون ولده ، فقال له آخر الأمر صراحة: إن احتقاره للحقيقة الواقعة قد يفضى به إلى المخاطرة بأملاكه ، بل وبحياته .

قال الشيخ فى النهاية : « لقد أشرف الصبح ، ونحن نضيع الوقت فى الجدل ! ويؤسفنى أنك لم تتعلم بعد أن أباك لايستسلم أبداً حين يكون على يقين من أنه على صواب ، وهو لا ينحنى أبداً إلا أمام الله سبحانه ! » .

فتساءل جريجور : « إذن لم يبق أمامى إلا أن أعود كما جئت » .

فقال الشيخ وهو يهز رأسه : « هذا ما أرى .. وأنا كنت أود أن تكون إلى جوارى ؛ ولكنى أراك عقبة فى سبيلى ، بدلا من أن تكون ساعدا لى .. ارجع إلى بوخارست ، واتركنى أدافع عن أرضى .. هذا هو واجبى طالما أنا على قيد الحياة . »

وحاول جريجور ، فى صباح الغد ، أن يستأنف النقاش ؛ ولكن أباه أوقفه فى حزم ، وأشار عليه بالرحيل .. وكان الشاب قد قلب الأمور فى ذهنه ، فرأى أن هذا ، والحق يقال ، هو الحل السديد .. وإلا فهو لن يلقى غير الاعتراضات حيثما ولى وجهه ، الأمر الذى سيفضى إلى شلل كل حركة يقوم بها .. يضاف إلى ذلك أن نادينا أعلنت عن قدومها .. وسمع جريجور بهذا الآن لأول مرة ، فقال غاضبا ، « ماذا يقول الناس عن هذا .. أنت تعقد صفقة مع زوجتى السابقة .. شىء جميل والله ! ! ماذا سوف يظن بنا الفلاحون ؟ » .

قال الشيخ : « ألمجرد أنها طلقت منك ، هل معنى هذا أنها أصبحت مجذومة ينبغى أن يتحاشاها كل إنسان ، وألا يرتبط وإياها بأى عمل ؟ .. أنت فى هذا ، شأنك فى كل شىء ، تبالغ وتغالى .

فصاح جريجور : « لا أدرى من منا الذى يبالغ يا أبى ؛ ولكنى أعلم علم اليقين

أنى لا أستطيع أن أبق ، وأن أقابل نادبنا فى نفس اليوم الذى صدر فيه حكم الطلاق ! ».

فقال ميرون مؤيداً : « هـــذا سبب آخر يدعوك إلى أن تتركنى وشأنى ، لصالحنا معا ! » .

واضطر جريجور أن يرحل عقب الغداء مباشرة ، حتى يجد فسحة من الوقت ليلحق بالقطار السريع من كوستنسى . . . ووصل إخيم مبكرا فى العربة الصفراء، وتوقف على عتبة الدرج . . وعانق ميرون ابنه ، دون عاطفة كالعهد به دائما ، أما جريجور فلم يتمالك مشاعره ، فقبل والده على خديه .

« سأعود بعد أيام قلائل يا أبى . . وأرجو أن أجدك وحدك عندئذ ! » .

فأجاب الشيخ فى ثقة : « ستعود حين يهدأ كل شىء ياجريجور »!.

وسحب جريجور العربة حتى واجهة الفيلا الجديدة ؛ بجانب حوض الزهر الذى على شكل القلب ، وكان الحوض قد أصابه التلف من قسوة الشتاء . . فلما مر خلاله المدخل ، تطلع إلى الوراء . . كان الشيخ واقفا فى نفس المكان ، راسخا كطود امتدت جذوره فى الأرض .

وكان الفلاحون متجمعين أمام الخان ، شأنهم فى اليوم السابق ، كأنهم لم يتحركوا من أماكنهم على الإطلاق .

وتساءل جريجور : « لماذا ظل هؤلاء الناس ينتظرون يا إخيم » .

فتمتم الحوذى : « ليتهم يعرفون ياسيدى ! ! إنهم لايجدون ما يفعلونه غير الانتظار كالبلهاء ! » .

وشعر تيتو هيرديليا ، كما شعر طوال رحلته كلها ، بأنه كان غير ذى فائدة . . ولقد سره أن يرحلا ، فقد راوده إحساس خفى بأنهما خارجان من إناء امتلأ بماء يغلى . .

— ٢ —

قال إبجنات ميرسل ، وعيناه تتبعان العربة الصفراء وقد انطلقت فى طريقها : « لماذا يعود بهذه السرعة ياترى ؟ »

وشخصت أبصار الفلاحين جميعا وراء العربة ، بحكم العادة .

وتساءل واحد منهم : « وما الذى يبقيه هنا ؟ . . إنه ذاهب إلى مكان أفضل وأدفأ » .

قال سيرافيم موجوس فى حدة : « لا عليك،فالشريف الشيخ باق هنا ؛ ونحن لن نتخلص من الأشراف على هذا النحو ! » .

فصاح بيتر : « ليتهم كانوا جميعاعلى شاكلة السيد الشاب ! . لقد رأيتم بالأمس كيف جاء وتكلم مع الناس . . وهو لولا الشيخ . . . »

فقال سيرافيم موجوس : « المشكلة هى أن الشيخ يمسك زمام الأمور ! » .

وهبت لفحة من البرد ، فالتف القوم فى معاطفهم ، وجذبوا أرديتهم فوق آذانهم ، ولكنهم كانوا غير ميالين إلى الانصراف . .

وذهب بعضهم على عجل إلى بيوتهم ، يعنون بأمور ماشيتهم ، أو يخطفون قضمة طعام ، ثم عادوا سراعا مخافة أن يحدث شىء مافى أثناء غيبتهم . . أما الناس الذين وفدوا بالأمس من القرى المجاورة يتساءلون عن الفارسين المتشحين بالبياض ، فقد عادوا مرة أخرى ، يصحبهم آخرون جاءوا معهم ، كأنما قد وفدوا إلى حفل اجتماعى كبير . . وأخذوا جميعا يخوضون فى نفس المتاعب، كما كانوا يخوضون دائما، وإنما الآن على حذر ، كأنما كانوا يخشون عيونا تتجسس عليهم . . وكان كل منهم يشيح ببصره عن بصر الآخر ، كأنما خشى أن يرى ما يشتعل فيه ، أو كأنما يحول بين الغير وبين اكتشاف النيران التى تحترق فى عينيه هو . . . ولكن الريبة كانت مرسومة على كل وجه ؛ وكان هناك سؤال واحد يتسم بالعنف والبؤس ينتظر الجواب عنه ، ولا مجيب . .

وكان العمدة ، فى كل مرة يمر فيها ، يصيح : « هيه يارجال ، أليس لكم بيوت أو زوجات أو أطفال ؟ »

فيرد عليه فاسيل زيدارو بنفس الجواب الجاف ، فيثير شيئا من الضحك الغليظ : « نحن أشراف الآن ياعمدة ! . . والزمن قد تغير ! ! . . . »

ولم يتفرقوا أخيرا إلا عندما حل الليل ، وبعد أن شهدوا العقيد ستيفانسكو فى عربته المقفلة ، وبعده الملتزم كوزما بيريوتا ، وهما يتجهان صوب بيت الشريف. ولكن لم يشهد أحد اليونانى ، فقد وصل بعد سدول الليل ، وعندئذ لم يكن قد بقى فى الخان إلا شرذمة من الكسالى المتقاعسين .

وكان ميرون أيوجا قد استدعاهما سويا . بل واستدعى كذلك بلاتامونو . بقصد استطلاع الحقائق كاملة . . وكان أشدهم جبنا هو الضابط المتقاعد الذى أخذ يولول كما تولول المرأة العجوز ، فاشتكى من أنه على وشك أن يفقد ثمرة كده طوال حياته . . على أن همه الأكبر كان بخصوص بناته الثلاث : وكان من رأيه أن يرسل بهن بعيدا مخافة أن يدنس عرضهن هؤلاء الوحوش المجانين . ثم اتضح، بعد أن وجه ميرون أيوجا إليه بعض الأسئلة الجادة ، أن كل شىء هادىء فى قريته، وأن العقود قد أبرمت ، إلا أن العمل لم يبدأ ... قال : إنه يخشى ما يأتى به الغد، فأنت لايمكنك أبدآ أن تكون على ثقة بما يضمره هؤلاء الوحوش المخابيل .

صاح ستيفانسكو محتدآ : « كيف يمكننى أن أهدأ وأستكين ياسيدى ، وأنا أعرفهم حق المعرفة ! ! إن لديك الشرطة هنا، على عتبة بابك . . أما أنا فليس لدى شىء . . . أنا وحدى مع بناتى المسكينات تحت رحمة طغمة من الأوغاد . . . لقد طلبت إلى القائد داردلات أن يرسل على الأقل فصيلة من الجنود حماية للفتيات الصغيرات . . ولكن وا أسفاه — لقد عجز عن . . ليس فى عزبته غير مراسلة واحد . . ثم يطلبون منا أن نهتم بالزراعة فى هذا البلد ! ! نعم ، لابد أن يسلخ الفلاحون جلودنا ، عندما يتبينون أن الحكومة نفسها لاتعبأ بما يحدث لنا ! ».

قال ميرون بازدراء ؟ ! « ماذا يفعل الفلاحون يا ترى : لو سمعوك تتكلم هكذا أمامهم ؟ ! » .

فصاح العقيد غاضبا : « ما حيلتى ! . . هذا شيء غير معقول . . أنا أتكلم معك الآن باعتبارك زميلا يشاطرنى العذاب ! . . أما مع الفلاحين فأنا عسكرى المسلك للغاية . . هذه هى الحقيقة ! » .

أما بلاتامونو فكان أهدأ جأشا منهما . . كان قد أرسل ابنته إلى بيتستى قبل ذلك بفترة وجيزة ، ولم يكن ثمة ما يخشاه هو أو زوجه أو ولده . . وهم باقون فى مكانهم مهما حدث ، لأنه لم يعد لهم فى الحقيقة مكان آخر يذهبون إليه ، بعد أن وضعوا مالهم كله فى الضيعتين (وبطبيعة الحال أغفل ذكر المبلغ الكبير الذى وضعه بالمصرف فى بوخارست) والواقع أنه كان على علاقات طيبة مع الفلاحين ؛ فهو لم يكن قاسيا عليهم قط ، ولم ينزل عليهم ضربا ، ولهذا لم يكن ثمة ما يدعو أحداً منهم إلى كراهيته . نعم ، لقد غضب شريلابون المسكين لما وقع بين الفتاة وأرستيد ؛ ولكنه سوف يعمل على تسوية هذا الأمر فى النهاية . . ولقد أبرم هو العقود بسهولة فيما يختص بليسبيزى ، ومنح الفلاحين بعض الامتيازات ، ولكنه يأمل أن يعوضها بوسائل أخرى . . . إنما العلة كانت بباباروجا . فالفلاحون الذين رغبوا فى شرائها من قبل ، يطلبونها الآن بالمجان . . ومن حسن الحظ أن السيدة ناديتا تزمع الحضور ؛ ومن ثم سيسوى الأمر كله .

ولم يكن لدى كوزما بيريونا جديدا يقوله . . وكان أيوجا يدرك حقا مايعتمل فى أعماقه من مخاوف ؛ أما السر الذى لم يشأ أن يبوح به كوزما لأى إنسان فهو أنه قد طلب إلى عائلته أن تتهيأ للرحيل فى أية لحظة ؛ فخير له أن يفقد كل شيء بدلا من أن يفقد حياته .

وأشار ميرون أيوجا عليهما بأن يلزما جانب السكينة والحزم ، وإن أدرك أن كلماته قد لا تسفر عن أية نتيجة ، كائنة ما كانت . حسبهما ما يعانيان حاليا من رعب ... وكان فى الحقيقة قد استدعاهما معا ليسبر غور انطباعاته هو ؛ فهو بعد الذى سمعه من قبل ، رأى أن الإشاعات التى راجت عن عزم الفلاحين على السلب والنهب لاتزيد على كونها مغالاة من جانب ذوى العزيمة الخائرة ؛ وإذا به يشعر الآن أن هذه الإشاعات مؤكدة تماما لما شهده من بكاء الملتزمين وشكواهما ... حقا لقد وضح له كل شيء الآن .

وكانت ثقته بعمدة القرية والرقيب أقوى ؛ فهو قد تبادل معهما حديثاً طويلا تلك الليلة، بعد انصراف الملتزمين.. قالا له: إن الناس يركنون إلى الهدوء، وإن كانوا يتذمرون على جارى عادتهم بخصوص العقود.. وليت الجو يتحسن، فلا يلبث كل منهم أن يعود إلى عمله. ولقد انصرف الناس عن فكرة شراء باباروجا ؛ فقد تملكتهم فكرة مؤداها أن أولى الأمر سيوزعون الضيعة بينهم دون ثمن .. ومن ثم كانت حكاية الفارسين المتشحين بياضا اللذين أعلنا توزيع الأرض ... كان هذا هو الحلم الذى راودهم دائما ، وبخاصة إبان الربيع .. ومع ذلك فقد أضاف برافيلا فى لهجة تنم عن الاحترام ألا مناص من العمل يدا بيد مع الشرطة ، حتى إذا ما اقترف أحد هؤلاء المخابيل أمرا نكرا ضربوا على يده على الفور .. وقال بونجيو ، من جانبه ، إن على العمدة أن يكون يقظا كل اليقظة ، فالقوة الموجودة بنقطة الشرطة قوة صغيرة ، خمسة رجال لا أكثر ، بما فيهم هو نفسه .. ووعد ميرون أيوجا أن يسترعى انتباه رئيس الشرطة إلى هذا ؛ فهو حتما سيمر فى هذه الناحية عما قريب ، كما سوف يطلب إلى بوريسكو أن يبعث بإمدادات من الجيش .. وأضاف قائلا : إن الأمن لا يتوقف على عدد الناس الذين يقومون بالحراسة ، وإنما يتوقف على يقظتهم .

قال الشيخ : « ولا بد للناس أن يشعروا بأن قبضة السلطان قوية ، على ألا يكون هناك أى استفزاز ؛ ولكن لا ينبغى كذلك أن يوجد أى تردد ؛ فأية محاولة لخرق النظام لابد من سحقها سحقا لتكون عبرة قبل أن تشد من عزم الآخرين .

« سمعا وطاعة ياسيدى ! » قالها العمدة فى استكانة . أما بونجيو فقد أجابه بتحية عسكرية ، وقد انتفش صدره دلالة على أن حماسه قد تجاوز المقدار .

— ٣ —

وصل تيتو هيرديليا وجريجور أيوجا إلى بوخارست قبيل المساء .. وكان القطار السريع غاصا بالركاب الفزعين الذين هربوا من بيوتهم خوفا من الفلاحين ، لجأوا إلى بوخارست بوصفها الملجأ الوحيد الذى يحميهم من كل ما يتهددهم .

قال جريجور فى أسى : «هذه بداية الفزع ! .. ولن يؤدى هذا إلا إلى إذكاء أوار هذه الكوارث كلها ! » .

ولم يتمكنا من الحصول على عربة فى الموقف الكائن خارج محطة الشمال ، فتعلقا بترام تجره الخيل ، وكان مزدحما غاية الازدحام ، ثم تدليا عند محطة المسرح القومى ، حيث قال جريجور إنه ذاهب إلى بيت بريديلينو .. وأراد تيتو أن يتمشى فى المدينة بعد ذلك ليجمع مزيدا من الأخبار ، وإذ هو يمد يده إلى صديقه مصافحا ، اقترب منهما صبى من الغجر من باعة الجرائد ، وكان يصرخ بأعلى صوته : « أديفارول — عدد خاص !! .. أديفارول — عدد خاص !! »

واشترى كل منهما صحيفة .. كانت العناوين الضخمة تقفز من الصفحة الأولى : « اضطرابات الفلاحين تناقش فى مجلس النواب » ... ودون أن ينبسا بكلمة ، ذهبا تحت مصباح الشارع ليطالعا الخبر ... كان ثمة استجواب فى مجلس النواب ، أثار جدلا حاميا ، حول قلاقل الفلاحين التى كانت تنتشر انتشار النار فى الهشيم . وقام لفيف من نواب المعارضة ، فاتهموا الحكومة بالقصور فى مواجهة هذه الثورة التى قامت ضد الظلم والطغيان ، ودافعوا عن الفلاحين ، وعارضوا بشدة فى الالتجاء إلى القمع والإرهاب . . ومن جهة أخرى اتهم لفيف من مؤيدى الحكومة المعارضة بأنها تساند الأشرار ؛ وادعوا أنها ، عن طريق عملائها ، تشجع الأعمال غير المشروعة التى يقوم بها الفلاحون .

قال جريجور : « دعاية طيبة جدا !! البلد تحترق ، وهؤلاء السادة يكيلون المديح لبعضهم بعضا » .

ومضى تيتو هيرديليا فى طريقه عبر شارع النصر .. كان كل ما سمعه هو الكلام عن « الثورة » ، « والفلاحين » ، « والاضطرابات » ، « والملتزمين » وقطع الميدان متجها صوب غرفته ، ولكنه توقف على صوت مألوف : « هيه ياسيد هيرديليا . . كيف حالك ؟ . . ما رأيك فى هذه الاضطرابات » . . أيه « أرأيت الأشراف وكيف أخذوا على غرة » ! لقد ظنوا أنهم وجدوا لهم كبش فداء فاتهموا بنى إسرائيل باستغلال الفلاحين ! .. أرأيت ، فى هذه البلاد ،

الإسرائيليون هم دائما أس البلاء كله ... أما الآن ، عندما ثار الفلاحون ضد ملاك الأرض ، فقد انتفت عنهم الطيبة ! .. الآن يستدعى الجيش ليفتك بهم قتلا وشنقا !».

وكان المتكلم هو مندلسون ابن الأسكافى من حى بوديستى وأثارت ابتسامته البغيضة حنق تيتو ، فرد عليه ردا جافيا : « لا يوجد ياسيد مندلسون ما يوجب اغتباطك من .... » .

فاعترض الشاب ، وهو يلفظ كلماته بحدة جعلت نبراته اليهودية تبدو مضحكة نابيـة ، قائلا : « اغتباطى » « ... من قال إننى مغتبط » .. أنا أولا رجل اشتراكى ، وضد العنف ، ولهذا يستحيل على أن أغتبط لهذا الحال .. وفضلا عن ذلك فأنا أعلم أن هؤلاء الفلاحين البؤساء سيدفعون ثمنا غاليا نظير بسالتهم حين ثاروا ضد الأشراف .

وأخذ الشاب ، زهاء ربع الساعة ، يفيض فى نظرية الظلم الاجتماعى ، محاولا أن يقنع هيرديليا بأن العمل الذى قام به الفلاحون أحزنه أكثر مما أحزن غيره من الناس ... وأراد تيتو أن يتخلص منه ، فاعتذر بأن عليه أن يرجع إلى بيته على عجل ؛ فقد طال غيابه ، وماعاد إلا فى التو واللحظة .. ولكن الفتى مندلسون ظل برفقته حتى بلغا البوابة الأمامية ، ولم يسمح له بالدخول حتى انتهى هو من محاضرته .

وكان هناك خطابان فى انتظار تيتو .. أحدهما وصل عن طريق البريد ويفيد بأن تانتا ستحضر الأربعاء مساء فى السادسة ، بعد الغسق ، واختتم بآلاف من القبل .. أما الثانى فقد تركه القس بيلكوج ، وأخبره فيه أنه راحل على وجه السرعة ، لأن الثورة قد اتسعت أبعادها جدا ، وأنها سرعان ماتمتد إلى بوخارست ، وأن أى تأخير من جانبه قد يكلفه حياته .. وأسف تيتو على هرب القس على هذا النحو ، فقد كان بوده أن يرسل إلى عائلته بعض الأشياء من بوخارست ، وهى أشياء طفيفة على كل حال .. وطاف بخاطره فجأة ، ورسالة القس فى يده ، ترى متى قالت تانتا إنها آتية ؟ .. الأربعاء ! .. اليوم هو الاثنين ، ومعنى هذا أن موعدها بعد غد .

وذهب فى الغد إلى درابلول مبكراً أكثر مما تعود ، ولكن كانت غرفة روزو مكتظة بالمحررين وبالضجيج ؛ الأمر الذى لم يحدث قط من قبل .. وكان النقاش يدور حول أحداث الأمس فى مجلس النواب ، لا سيما ذلك المثال الذى دبجه وزير سابق ، وكان قد ظهر فى جريدة المعارضة « صوت الشعب » . وكان ديليكينو رئيس التحرير يزفر حمما وهو يعلق على بعض الفقرات التى كان يطالعها بيبى أنتونياد بصوت جهورى ، وكان الرجل دائما ، لاحمرار وجهه ، فى حال مزمنة من الحنق .

صاح محتدا : «أصغ يا سيدى الرئيس ، هاك أقسى فقرة ...» اسمع .. « إنه عجز الحكومة وعدم قدرتها على معالجة هذه الأحداث الخطيرة أمر يدمى الفؤاد، إن كل ما يطلبه الفلاحون هو أن تتاح لهم الحياة — وهذا ما يأبونه عليهم فى وقاحة .. وعندما ترتفع هذه المطالب العادلة فى استغاثة إلى السماء .. نسمع السيد المحترم رئيس الوزراء يتحدث عن الحقوق المكتسبة . . أية حقوق مكتسبة ! . . أهى الحق فى إبادة فلاحينا — هؤلاء الفلاحين الذين هم عماد البلاد وسندها ومصدر قوتها ؟ .. ولكن مهلا ، ها نحن أولاء نصل إلى فقرة رائعة حقا . . ألا فاعلموا أنه لا يوجد غير حق واحد فرد يسمو على كل غيره من حقوق ، ألا وهو حق الفلاحين فى أن يعيشوا فى بلادهم ؛ وحقهم فى ألا ينهب منهم شىء ؛ وحقهم فى أن يدفعوا عن أنفسهم طمع الإدارة الفاسدة ، وحقهم فى أن يلتمسوا بعض العون فى كفاحهم للظفر بأرض آبائهم وأجدادهم وأخذها من براثن المستغلين الذين غلظت أكبادهم . أما أولئك الذين يعجزون عن إدراك هذا الكفاح المقدس فلا بد من إبعادهم إلى مراكز تليق بمستوى ذكائهم .. وبعد فمن واجبنا جميعا أن ندرك أن هناك حدا لكل شىء ، حتى فى هذا البلد المبارك ، وأن الحجارة نفسها ستنفض عنها الجمود لو سمحنا بإراقة الدماء الرومانية الزكية بسبب عجز الحكومة » .

وخيم الصمت على الجمع وهلة ، وقد جلت بهم دهشة بالغة . . وبلغ الحنق بديليكينو مداه فصاح : « هذه دعوة صريحة للثورة ! .. وليس هناك غير جواب واحد يناسب المقام ، وهو إلقاء القبض على صاحب المقال ، أيا كان ! . . والعار كل العار أنه وزير سابق » .

قال بيبي أنتونياد : « هكذا هم يا سيادة الرئيس . . طالما هم يرغبون فى قلب الحكومة ، فسيلجئون إلى كل وسيلة ! »

قال رئيس التحرير مجاهدا الجهاد الأكبر : « وهذا هو السبب الذى يحتم على الحكومة أن ترد على هذه الفعال الإجرامية بطريقة واحدة لا غير — إن سجن « فاكاريستى » هو المكان اللائق بهم !! أما إذا رأت الحكومة أنها لا تستطيع أن تلجأ إلى هذه الوسيلة ، فعليها أن تعتزل ، وأن تترك الحكم لهذه الطغمة من الأدعياء ليهدئوا من سورة القلاقل التى أثاروها . . »

فاعترض صحفى عجوز ، دافيديسكو ، فقد أفزعته فكرة العودة إلى صفوف المعارضة ، وقال : « ولكن لماذا تعتزل الحكومة يا سيدى ؟.. خير من ذلك أن ندفع بهم إلى من يسومهم خسف العذاب ، وبهذا يثوبون إلى رشدهم . . »

وكان تيتو هيرديلياقد هاله هذا الحشد من رجال الصحافة فانتحى أحد الأركان ، وإذا به الآن يصبح محط الاهتمام عندما سأله روزو عما شهده فى القرية . . فقرر تيتو أن الهدوء مستتب على وجه العموم ، ولكن الجو مشوب بالكآبة ، فإذا بديليكينو يستأنف الكلام ، قال : « طبعا .. الهدوء مستتب حيثما لم تمتد بعد أصابع المحرضين الذين دفعتهم المعارضة .. ولكن حسبنا أن نرسل إليهم المقال الذى كتبه هذا السيد ، أعنى الوزير السابق ، وسنرى بعدئذ هل يستمر هذا الهدوء ؟ »

ولم يخل روزو إلى نفسه حتى ساعة الغذاء ، رغم أنه تاق إلى أن يبلغ تيتو ، وهو الحل الذى يبثه أسراره يوميا ، بعض التفصيلات المروعة التى لم يعرفها أحد سواه . فلما هم تيتو للانصراف ، قال سكرتير التحرير يخاطبه فى لهجة لها دلالتها: « ليتك تمر على مجلس النواب هذا المساء يا بنى العزيز !. فلعل شيئا مثيرا قد يطرأ من جديد !.. وأرجو أن تأتى إلى المكتب غدا مبكرا ، أفهمتنى ؟ ! »

— ٤ —

بزغت الشمس صباح الثلاثاء من خلل ستارة من السحب القاتمة . . وتجمع الفلاحون ، تحت أشعتها الدافئة ، حول حان بوزوك ، جاهدين أن يكتشفوا ما دبر بليل فى بيت الشريف . . وجعل العمدة يكرر بأسلوبه الفكه المعسول : « لماذا تضيعون وقتكم فى التسكع حول هذا المكان يا أصحابى ؟ أتراكم تنتظرون الفارسين الخرافيين أن يظهرا مرة أخرى ؟ لماذا لا تهتمون بعملكم ؟ » .

فصاح ماران ستان ، وهو نشوان بعض الشيء بعد أن قضى زمنا فى بار كريستى : « أرأيت إلى هذين الفارسين ، ألم يكونا على حق فى رسالتهما ؟ وإلا فما الذى دفع سادتنا الأشراف إلى الاجتماع معا ، والتشاور سويا ؟.. آه ، الخوف له سلطان عظيم ، أليس كذلك يا عمده ؟ » .

فأجاب العمدة ساخرا : « ما هذا الكلام الفارغ ياماران .. هم ، ممن يخافون؟ أيخافون منك يا غبي ؟ » .

وضحك البعض ، وصاح البعض الآخر متوعدين : « نعم ، سنجعلهم يخافون ما أيضاً ! » .

فقال سيرافيم موجوس : « لا أظنهم قد اجتمعوا لمجرد اللهو والمتعة ! » .

وقال إيجنات سيرسل : « هم حتما يتآمرون لإخفاء الأوامر التى صدرت بتوزيع الأرض ! » .

فأضاف تودر ستريمبو : « الحمد لله أن الفارسين قد أخبرانا بهذا حتى نعد للأمر عدته » .

وقاطعهم العمدة محتدا : « كفى هراء ، وإلا تملكنى الغضب ! . أنا أتحدث معكم حديثا رقيقا ، وأنتم لا تكفون عما أخذتم فيه من هذا الكلام الفارغ ! . . لا يمكن أن نصل إلى اتفاق هكذا ! » . وإذا بماران ستان ، وقد اتسمت أساريره بالاهتمام الشديد مع سخرية طفيفة : يقول . « لعلى قد أسرفت فى الشراب ، هذا

مالا أنكره يا عمدة ، ولكن قل لى بربك ؛ ما الذى اتفقتما عليه أنت والرقيب فى بيت الشريف ليلة الأمس . »

فأجاب برافيلا فى لهجة عدوانية : « أتظن أننا نخفى شيئا عنك أو عن أى إنسان آخر .. أمن العار أن يرسل الشريف ميرون فى طلبى . . ماذا فى هذا وأنا العمدة على كل حال .. أم ترانى فعلت شيئا يدعو للخجل . . أم هو عيب أن نحاول حفظ الأمن والنظام فى القرية ! . . أهذا قصدك يا ماران ؟ »

فأجاب ماران برصانة ، وكأنما قد اختفت نشوة الخمر منه : « هذا آخر شىء كنت أفكر فيه ! . . إن ما نريده هو السلام والهدوء والعدل ! . . »

ولكننا حسبنا أن الشريف كان يسألك عن كيفية السير فى توزيع الأرض على الناس . »

فسأل العمدة ضاحكا : « هل تحسب أن الشريف ميرون ، دون الناس أجمعين ، يوزع أرضه يا بنى ؟.. ألا تعرف أنه يحب عزبته حبا جما ؟ ».

فغمغم إيجنات سيرسل : « ومن ذا الذى يوزع عزبته طواعية ؟ . . أما إذا كان الأمر من الملك !.. وهم ، ألم يأخذوا منى الخنزير وفاء للضرائب ؟ . . والتزمت أنا الهدوء ، وأنا عديم الحيلة ! ! ثم إن أولادى يتضورون جوعا ! » .

ولم يحر العمدة جوابا ، فأطلق عدة نكات ، ثم مضى فى طريقه إلى مكتبه . .
وعند الظهيرة ، ظهر ماتى دولمانو ؛ وقد حضر من ليسبيزى حيث استمع من الخدم الذين يعملون ببيت الدائرة أن السيدة قد جاءت بالسيارة من بوخارست اليوم . وأنهم قاموا بتنظيف غرف البيت . كما أعدوا وسائل التدفئة .. وكان هذا الخبر بمثابة قط انطلق فى قفص من الحمام ، فبعث فى الفلاحين غليانا شديدا ؛ فتعالت أصوات القوم ، واختلطت بعضها ببعض .

« لماذا حضرت ؟.. أهى لاتزال تريد بيع باباروجا إلى الغير ؟ » .
« نحن لن ندعها تفعل ذلك بأى حال من الأحوال » .
« من الأفضل أن نشعل النار فى المكان ! » .

« ربما تكون قد تلقت أمرا بتوزيع الأرض و .... » .

« لا بد أن نستولى على الأرض غصبا ولا ننتظر .. » .

وصاح بيتر بيتر، فى صوت علا على أصوات الآخرين : « ماذا لو حضرت ؟ نحن هنا على كل حال ! » .

وبينما الهرج مستمر كان بافل تونسو ، وهو رجل قمىء ضعيف ، وكان زوجا لابنة الأم أيونا ، يحدث ولده الصغير كوستيكا : « اذهب إلى بيت جدتك يابنى ، والعب مع لداتك من الأطفال .. هذا ما قالته أمك لك .. وليس هذا المكان مكان أطفال .. أسمعت؟ » ولم يحرك كوستيكا ساكنا ، وظل يتعلق بكم أبيه ، فاستطرد الرجل : « هيا : وإلا نلت جزاءك .. أسمعت ؟ » .

وتباكى الطفل : « أنا خائف من الكلاب ؟ » .

فقال الوالد : « أى كلاب ؟.. لا يوجد كلاب فى طريقك إلى بيت جدتك .. الكلاب هناك فقط .. هيا بنى .. ولا تكن عبئا على » .

وانطلق كوستيكا فى الطريق على مضض ، إثر وعيد أبيه ، لأن أباه لا يتوانى عن ضربه حين يتملكه الغضب . وكان الغلام حافى القدمين ، عارى الرأس ، يلبس قميصا قذرا ممزقا ، له أكمام فضفاضة .. فلما ابتعد عن الجمع عاد إلى ما تعود عليه من خفة وبهجة .. وعندما بلغ دار الأم أيونا ، وقبل أن يدخل إلى الفناء ، نادى على نيتشو بن فاسيل زيدارو ، وكان يصرخ بصوت عال أزعج جميع الجيران .

وكانت الأم أيونا مشغولة بأمر دجاجة ولو لم تشأ أن ترقد على بيضها ، فاضطرت إلى مطاردتها فى جميع أرجاء الحديقة والفناء . وعندما سمعت صوت الغلام ، غمغمت بين أسنانها ، فقد تركها توه المخبول أنطون لتنعم بالهدوء : « ما كدت أتخلص من معتوه ، حتى ابتليت بأشد منه ! » .

وظهر كوستيكا ونيتشو على عتبة الدار ، فزجرت دون أن تنظر إليهما .. « اسمعوا يا أولاد .. يجب أن تلزما الأدب فى لعبكما .. ولا تكونا مصدر قلق وإزعاج .. إن عندى ما يكفينى من المتاعب ، ولا ينقصنى تعبكما ، عليكما اللعنة!! » .

ولم يلق كوستيكا بالا إلى شجار جدته ، وهو بعد أن نط هنا وهناك ، وبعد

أن آثار غيظ الكلاب ، أعلن أنه جوعان . صاحت الأم أيونا : « هل أرسلوك هنا وأنت جوعان أيضا ؟ . هاك طبق المماليجا (٨) على المائدة ، وهو ملفوف بالقماش ، أما وعاء اللبن فهو على المدفأة .. اذهب وكل حتى تبشم ! »

ومضت إلى عملها ، وأخذ الطفلان يلعبان ، على أنها كانت بين الحين والحين تصب اللعنات عليهما ، حتى لا يسرفا فى الشقاوة .

« اتركا الكلاب وشأنها ياشياطين ! . وإلا عضتكما . . ولا تصرخ فى الدجاج ياكوستيكا ، عليك اللعنة ، وإلا ذعرت فلاترجع فى المساء ! . هل جننت ياغلام ، أم أنت فقدت صوابك ؟ . لا تركب على الخنزير ، فأنت ستقصم ظهره ، عليك نقمة الله ! »

وبعد حين خرج كوستيكا إلى الطريق حيث وجد مجالا أوسع ليظهر نيتشو على حيله . ورأى الغلام أن من واجبه ، وهو أكبر الصبيين ، أن يستثير إعجاب زميله ، فيأتى بكل سلاطة ممكنة إزاء جدته .. وعادت الأم أيونا ، بعد برهة ، تصرخ من دارها : « لا تلعب فى الطريق ياولد ، وادخل إلى صحن الدار ، فربما دهمتك عربة . فأقع أنا فى المتاعب بسببك ! » .

وإذا بصوت آخر يتعالى فى الجانب الآخر من الشارع ، وكان صوت زوج فاسيل زيدارو : « تعال إلى أمك يانيتشو ، ولا تساير هذا المخبول كوستيكا ! . تعال هنا ، فعندى شيء لك ! » .

وكان كوستيكا يلعب لعبة الخيل ، فيجرى هنا وهناك ، ويصهل منتصرا كلما مر بنيتشو الذى أذهله هذا العرض ذهولا جعله لا يعى نداء أمه .

أما الأم أيونا ، فقد أسخطها تهجم زوج زيدارو ، وأبت على وجه الخصوص أن يهان حفيدها . فخرجت إلى باب الشارع ، ويداها مبتلتان من الغسيل : « أنت ياكوستيكا ! . ادخل أيها الشيطان الصغير ، لماذا تجرى فى الشارع ؟ . ألا يتسع هذا الفناء لك ؟ . أسمعتنى ؟ . إما أن تدخل وإما أن تعد إلى بيتك ! » .

ودون أن يكف الطفل عن اللعب صاح : « هل أنا اقترفت خطأ ياجدتى ؟ .

لم لا تتركيننا نلعب ، نحن لا نفعل مالا ينبغى؟ ».

ولم تجد الجدة حجة تتذرع بها ، فغمغمت غاضبة ، وصفقت الباب ، وعادت إلى « طشت » الغسيل .

« عد إلى بيتك — إلى جهنم — ولا تسبب لى إزعاجا ، فليس لدى من الوقت ما يجعلنى أجرى وراءك ، عليك اللعنة ! » .

على أنها ما كادت تلبس «الطشت» حتى تناهى إلى الأسماع صوت بوق سيارة يأتى من بعيد .. ورغم ما اعتراها من غضب فقد ظلت تنادى على حفيدها الحبيب: « ادخل بسرعة وإلا دهمتك السيارة » .

ولم ينتظر نيتشو نداء أمه لشدة ماانتابه من ذعر ، بل انسحب مسرعا وراء بوابته ، وقنع بالنظر من خلال القضبان . . أما كوستيكا . . وهو البطل ، فقد انتصب فى وسط الطريق وقال مزهوا : « انظر يانيتشو ، أنا لست بخائف ، انظر ! انظر ».

وبسط ذراعيه ، فبدا كالوطواط فى أكمامه الفضفاضة المدلاة ، وأخرج لسانه فى سلاطة إلى السيارة التى ظهرت الآن على الطريق ، وأخذت تقترب مسرعة ، ونفيرها يدوى دويا . .

وتعالى صوت العجوز من باب الدار: « كوستيكا » أين أنت، احترس لنفسك، عليك اللعنة ! ! .

وكانت السيارة على مدى خمسين ياردة ، ولكن الطفل لم يتحرك رغم تحذير النفير الغاضب . . ولحظ السائق مسلكه الشرير ، فحاول أن ينحرف إلى إلى يمين ، تفاديا له . . وإذا بكوستيكا يتحرك إلى اليمين كذلك — كأنما هو قد آلى على نفسه أن يقع تحت عجلات السيارة مهما كلفه ذلك، وأدار السائق العجلة مسرعا ومال بالسيارة إلى اليسار ولكن الطفل تحرك فى نفس الاتجاه بنفس السرعة . . وزأرت فرامل السيارة ، وتعالت صرخات السيدة الراكبة ، ثم توقفت السيارة فجأة . وإذا بالسائق فى اللحظة التالية يظهر إلى جانب الصبي الذى وقف

مشدوها ، ولسانه قد تدلى خارج فمه ، على بعد خطوتين من مقدم السيارة .

وصاح السيد ذو اللحية الصغيرة من السيارة : « شده من أذنيه ياورودلف لتعلمه الأدب .. هذا الغر المأفون ! »

وأمسك السائق بالصبي وصفعه على أذنيه ، ثم دفعه بخشونة ناحية البوابة حيث وقف نيتشو مذهولا فاغر الفم .

« هنا يجب أن تقف أيها الوغد الصغير ، لا أمام السيارات ! »

ولما تحركت السيارة ، واندفعت داخل فناء بيت الدائرة ، ملأ كوستيكا الجو صراخا ، فهرع إليه الجيران .. وجاءت الأم أيونا لاهثة فزعة : « ما الأمر يا كوستيكا ؟ ماذا حدث ؟ »

وأجاب الطفل بين النشيج : « أنا .... أنا ... كنت ... ألعب ... و .... آه يا أذنى ... يا أذنى !! »

فتساءلت العجوز : « ماذا حدث يا نيتشو ، ألم تكن هنا ؟ »

فتمتم نيتشو ، وهو يشهق انفعالا : « لقد هجم السائق عليه لأنه لم يشأ أن يبتعد عن الطريق ! ... »

فصاحت الأم أيونا ، وقد استعادت رباطة جأشها قائلة : « تستأهل ! ليته قصف رقبتك أيها الوغد الصغير !.. أنت لا تسمع الكلام ؛ مهما بححت صوتى ... عد إلى بيتك ... اذهب إلى جهنم ، أنت وأهلك ... لقد زهقت روحى ! .. عد إلى بيتك الآن ، وإلا نزلت عليك ضربا ياشيطان ! »

ونهض الطفل صارخا دون أن ينظر إلى أحد ، وشرع فى المسير وهو يمسك بأذنيه ..

« لقد خلعوا أذنى ! .. أواه ، أواه لقد قتلونى !

وصاحت امرأة وهى تهز رأسها قائلة : « الولد أصابه مس من الجن !! »

وقالت زوج فاسيل زبدارو ، وهى تأخذ بيد ولدها مزهوة : « تعال ياعزيزى نينشو ... أما أنت فولد طيب ، ولست وقحا صفيق الوجه ! » .

وعادت الأم أيونا إلى دارهـا ، وهى تستعيذ من الشيطان ، وغمغمت : « عليك اللعنة ! » .

— ٥ —

كانت شرفة الصحافة فى مجلس النواب تـكاد تـكون خالية . . وكان تيتو هيرديليا وثلاثة من الصحفيين يتباحثون فى احتمالات سقوط الحكومة ، أما بيديدو ، وهو صحفى محنك من « اليونيفرسول » ، فقد غفا فى ركن خاص كان يحتفظ به لنفسه عادة ، استعدادا للجلسة .. وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ، ومع ذلك فلم يكن بالقاعة غير لفيف من النواب النكرات الذين أخذوا يتثاءبون فى ملل ، وقد لبسوا لباس الوقار وكأنهم قضاة .. أما شرفات النظارة فـكانت غاصة بالجماهير .. وتفحص صحفى شاب الجمهور بعينيه ، ولحظ عدد الوجوه المهتاجة القلقة الساخطة ، فقال : « لا أحد غير الأشراف والملتزمين فى الشرفة ــ كأنما فى مقدور الخطب التى تلقى هنا أن تدفع عنهم سخط الفلاحين ! » .

وكان تيتو هـ ديليـا يعلم أنه لو شاء أن يحصل على أخبار ، فهو لن يجدها إلا فى الردهـة الـ ـفلى .. عدا أنه ندر أن دخل قاعة الجلسات ، فقـد كان هيابا وجلا لايستطيع أن يفعل كما يفعل لداته من الصحفيين ... وكان هو فى تلك اللحظة برما ملولا ... لم تثره كثيرا المجادلات العقيمة التى تبادلها زملاؤه الثلاثة، تأييدا للحكومة أو مناهضة لهـا .. فهو ما كان يدرى شيئا عن الحوافز الخفية للصراع الدائر بين الأحزاب أو داخلها ... كذلك ما كان يعرف من رجال السياسة إلا الذين يتردد ذكرهم فى الجرائد ، وهؤلاء ما كان يعرفهم إلا اسما

وفجأة دخل عليهم صحفى محدودب الظهر واهن القوى ، فى غموض وعلى أهمية .. وكان ذلك هو بوبيسكو راكارو من محررى ديميفيتا . ونهض محرر اليونيفرسول ، وقال متثائبا : « ماذا جرى أيها الزملاء ، هل بدأت الجلسة أم

لم تبدأ ؟ .. من جهتى لتذهب إلى جهنم ؟ » .

صاح راكارو : « سكوتا ! .. لقد بدأت الآن ! .. ولكن ليس فى جدول الأعمال مايهم .. وخير لكم أن تسمعوا إلى أخبارى ، فهى أخبار مثيرة ، وقد جاء بها توا السكرتير الخاص لوزير الداخلية . . أخبار رهيبة ! .. يقول السكرتير إنه حدث هذا الصباح ، فى قرية صغيرة على الدانوب — وهو لم يشأ أن يقول أين ، ولكن لابد أنها جيرجيو — تمرد رديف الجيش الذين سبق استدعاؤهم ، وثاروا على ضباطهم ، وقتلوا اثنين منهم وأصابوا آخرين بجراح خطيرة .. وبعدئذ تشتتوا فى القرى ، وقد أخذوا أسلحتهم معهم . . ما رأيكم ؟ . . ليس هذا هزلا ! ... إنما تخيلوا الذعر الذى عم أرجاء الحكومة ؟ ... هكذا لم يعد الجيش نفسه مأمونا ... والاضطرابات وصلت إلى فلاسكا .. والظاهر أيضا أن أنباء قد وصلت من إيلفوف ، قرب بوخارست ، تقول إن الفلاحين فى هياج وغليان ... ماذا لو غزوا العاصمة ، وساندهم الجيش ؟ ، . يقولون إن الحكومة تفكر جديا فى طلب مدد من جيش أوستريا ، وإلا ضاعت البلد وانقلبت أعاليها أسافلها » .

وكان للخبر وقع الصاعقة . . اشرأبت الأعناق من شرفة الجماهير المجاورة . . وأبدى أحد الصحفيين ملحوظة ، : « ما أكثر الحكايات التى تروج الآن !! . أستطيع أن أغط فى النوم وأنا أستمع إليها » .

فأجاب بوبيسكو راكارو غاضبا : « ماذا تعنى بقولك : تغط فى النوم وأنت تستمع إلى حكاياتى ؟ .. ألم أقل لكم إن الخبر مثير ، وإن الذى جاء به هو السكرتير الخاص لوزير الداخلية ؟.. وإن أحدهم قد أبلغه إلى جماعة من النواب.. ترى هل نحن بحاجة إلى حكايات هذه الأيام ؟ ! . الواقع أننى سأحمل الخبر مباشرة إلى جريدتى ، ولكنى لا أدرى إن كانت الحكومة ستسمح لنا بنشره » .

فقال بيديدو بفتور : « أنا لا أبدد قواى فى نشر هذا الخبر ! .. هذا مضيعة للوقت ... نحن لاننشر إلا البيانات التى تحمل طابعا رسميا » .

فقال شاب وهو يضحك مستهزئا : « لهذا كانت جريدتكم هى لسان حال الجبناء ! » .

وتكلم بيديدو بلا مبالاة : « تستطيع أن تمضى فى هذا الحديث كما تشاء يابنى ! ثم ، أتظن أن اليونيفرسول ملك يمينى ؟ » .

ثم أخذت الحياة تدب دون الشرفات . . . كان الأمناء والكتبة يلفظون بالكلام حول منصة الرئاسة . . . وتناهت إلى الأسماع أصوات الحجاب فى الممرات . . « اجلسوا فى مقاعدكم رجاء ، أيها السادة ! » .

وإذ هو يتفحص النواب دونه ، لمح تيتو هيرديليا ، جوجو أيونيسكو ، وكان يبحث عن زوجه فى شرفة السيدات . . فلما وقع بصره عليها ، تبادل وإياها إشارات التحية . . ولحظت يوجينيا هيرديليا الشاب ، فأشارت لجوجو تدله على وجوده ، فلم تمض دقيقتان حتى ظهر زوجها تحت شرفة الصحافة ، ونادى على تيتو : « هات يوجينيا فى نهاية الجلسة ، وانتظرانى فى الطابق الأول ! » .

وكان هيرديليا قد لحظ توه يوجينيا ، فتبسمت له فى ود ، وألقى هو إليها بتحية ، وهو ينحنى باحترام .

وأخيرا بدأت المراسم . . واستمرت الجلبة فى القاعة ، وكان هناك حول الرئيس لغط من البيانات الرسمية ، والخلاصات العاجلة ، وشئون أخرى لم يكن يستمع إليها أحد . . وإذا بشخص لاسمة له يندفع نحو مقاعد الوزراء ، فتعالى صوت الرئيس آمرا : « الكلمة الآن للنائب صاحب التقرير » .

واعتلى المنصة سيد ذو شارب مهيب ، وقرأ فى صوت جهورى مشروع قرار يدعو إلى إلغاء الضريبة على البنزين . . وغرقت كلمات الرجل فى خضم الحديث الدائر بين النواب ، كأنما قد اعتراهم الخجل من سماعها .

وتمتم محرر اليونيفرسول ، وهو يدون ملاحظاته : « أرأيت ماالذى يشغلهم فى هذه اللحظة ؟.. كل همهم أن يجعلوا الحياة أكثر رخاء بالنسبة لحفنة من أصحاب الملايين لا يزيدون على الثلاثين عددا من الذين يجوبون البلاد فى سيارات ! » .

وانقضت دقيقتان ، وتعالت أصوات الحجاب مرة أخرى : « إلى الاقتراع ، رجاء ، أيها السادة . »

« هيا بنا أيها الأصدقاء ، فقد انفض السامر ! » قالها أحد الصحفيين ، وهو يلم أوراقه ، ويتخذ طريقه إلى الخارج .

وتخلف تيتو هير ديليا حتى شهدجوجو أيونيسكو وهو يتمشى منتفخ الأوداج أمام صندوق الاقتراع ، ثم وهو ينزل الدرج فى صحبة يوجينيا .

قال جوجو ، وكان فى غاية القلق : « لقد قال لى أحدهم ، لست أدرى من هو ، وربما كان ديليكينو ، إنك ذهبت إلى آمارا مع جريجور . . . كيف تجرى الأمور هناك ؟.. أنت لا تتصور ما نعانيه نحن من قلق . . تصور يا صديقى أن نادينا قد اختارت هذه اللحظة بالذات للذهاب إلى الريف ، وبيع العزبة !! لقد رحلت ظهر اليوم ، بالسيارة ، ما رأيك فى هذا ؟ ! » .

وحاول هيرديليا الشاب أن يهدئ من روعه ، فقال: إنه هو نفسه لم يعد من آمارا إلا ليلة الأمس فقط ، وأن الأمن والهدوء مستتبان هناك . على أن جوجو استرسل فى الكلام والدموع تكاد تسح من عينيه : « نعم ، ولكن ألم تسمع أنت بالقتل والنهب الذى بدأ فى فلاسكا ؟.. أتذهب هى إلى الريف والإنسان لا يطمئن حتى فى بوخارست على نفسه ؟ والله أنا مازلت عاجزا عن تصور أنها قد رحلت حقا !! أية نزوة ، وأى عناد !! أنا لم ألق أحدا بهذا الشكل. إن الإنسان فى هذا الوقت يتخلى عن الضياع والأموال ، ويلق بها إلى الشيطان ، إنقاذا لحياته !. لماذا إذن هذه العجلة من أجل بيع العزبة ؟.. أنا فى الحقيقة لا أدرى . ولا بد أنه قد مسها مس من الجن ، هذا هو تفسيرى للأمر و لست أجد تفسيرا غيره . »

وأخذ الزوجان هيرديليا معهما إلى البيت ، وطلبا إليه أن يبقى ليتناول العشاء ودار الحديث عن نادينا طوال المساء كله .

— ٦ —

كان الفلاحون يتباحثون ساعتهم فى أمر السيدة التى مرت بسيارتها فى طريقها إلى بيت الشريف ميرون ، وإذا بولد بافل تونسو يقترب باكيا صارخا .

« أواه ، أواه لقد خلعوا أذنى ، أواه ، لقد قتلونى ! » .

وتساءل فاسيل زيدارو ، وكان واقفا على حافة الجمع : «من هذا الذى ضربك يا كوستيكا ؟ .. أم تراك لا تريد أن تخبرنى ؟ تعال وقل لى من فعل بك هذا . »

وكان بافل تونسو قد ذهب إلى بيته ؛ ولهذا لما لم يسرع أبوه لرؤية ما حل به أدرك الطفل أن أباه لا يمكن أن يكون بين الجمع ؛ ومن ثم أنف حتى من الرد على فاسيل زيدارو ، ومضى فى طريقه أعلى صراخا مما كان ، ليشهد القرية كلها على ما حل به من آلام .

وكان ثمة امرأة تمشى وراء الطفل ، فرأت أن من واجبها أن ترد على فاسيل نيابة عنه : « لقد صفعه الأشراف لأنه لم يبتعد عن طريق السيارة » .

وهز زيدارو رأسه وقال . « ألا يجد السادة الأشراف شيئاً يعملونه خيراً من التصدى لطفل ؟ » .

وسانده بعض الفلاحين الذين وقفوا على مقربة منه وقالوا : « صدقت ، فلماذا يضربون الطفل ؟ . . إنه على كل حال لم يبتلع ما لهم » .

وهنا استشاط إيجنات غضباً : « ألا يكفيهم أنهم يسوموننا العذاب ، فإذا بهم الآن يتحولون إلى أطفالنا . . لقد تركوا أولادى يتضورون جوعا ، وسلبوا منى الخنزير . . هذا كله جميل منهم والله ! » .

واشترك آخرون فى الحديث وقالوا : « من الخير لهم أن يتركوا أولادنا وشأنهم ، ! ما الذى يوغر صدورهم ضد الأولاد المساكين ؟ ألا يستطيعون أن يتركوا حتى الأطفال فى سلام ؟ . . ربنا إنك لتنزل بنا عقاباً صارما ! . . ومع ذلك فنحن لو تركناهم يفلتون منا . . ولنفرض أننا رفعنا عصينا وداعبنا بها ظهورهم ! . . أتراهم يعاملوننا معاملة الحمق إذ ذاك ! » .

وامتقع وجه تودر ستريمبو ، وجحظت عيناه ، فقال مهتاجا : «لو كان هذا ولدى للقنتهم درساً أو درسين ! » .

وكان تريفون غوغو مقطب الوجه كعادته ، وكان واقفاً بين جماعة قريبة إلى باب الخان ، فتكلم بصوت هادئ متئد واضح النبرات ، قائلا : « إن الأشراف لن يسلكوا مسلك الأدب إلا إذا بعثنا الذعر فى نفوسهم ! » .

واختلطت الأصوات ، وتشابكت ، وعلا بعضها على بعض . . وتشكلت جماعات ، آنا هنا ، وآنا هناك ؛ وأخذت تستمع وتزجر وتصب اللعنات . . وهب الجمع ، وتحرك ، كأنما تدفعه هنا وهناك ريح عاصفة . . وخرج كريستى بوزوك صاحب الخان على عتبة الباب ، فلما أدرك سبب الفتنة صاح فى وجه تريفون : « هل أنت تتكلم عن ابن بافل ! الصبى ؟ . . ليذهب إلى الشيطان ، فهو مجرم صغير صفيق الوجه ، إنه عفريت شرير . . ألم تشتمه أنت نفسك يا تريفون منذ وقت قريب لسبب أو لآخر ؟ » .

ونزلت كلمات صاحب الخان كما ينزل الماء البارد على جمرات النار . . وخيم الصمت وهلة بعد ذلك ، كأنما قد استيقظ القوم من كابوس مزعج . . وخجل تريفون من نفسه أو كاد ، فغمغم معترفاً بالحق . .

ولكن صوت بيتر بيتر ، وقد أفعم بالحقد ، أزال عنه تردده : « لماذا تشتم الطفل يا عم كريستى ؟ . . ألأن الأشراف ضربوه ؟ » .

وتوهجت الجمرات لهبا مرة أخرى ، فقد كانت تكمن فى بطونها النار التى أذكتها هذه الكلمات . . وإذا بتريفون ، وكان لم يجد فسحة من الوقت ليتفل فمه على هذه الكلمة الأخيرة التى فاه بها ، يستطرد الآن غاضبا : « الظاهر أنك تمالئ الأشراف !. وهذا هو السبب الذى يجعلك لا تشعر بمشاعرنا فى صميم نفسك . . أنت لا تتألم حين يقع علينا ضرب أو إيذاء ! »

واشتم بوزوك النيران تتلظى فى قلوبهم . . ورغم أنه منذ لحظة واحدة فقط قد رأى من السخف أن يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ، فالطفل قد ضرب بوجه حق ، وهو طفل يعرف عنه الجميع أنه أسوأ شيطان فى القرية (وما أكثر الأيام النكدة التى عاناها بافل تونسو بسبب ولده هذا ، وهو وحده أعلم بها) ، إلا أنه مع ذلك كله هب ، وقد جرفته دوامة الغضب غصبا عنه ، فقال فى سخط شديد « ما هذا الذى تقوله يا تريفون ؟ . أتقول إننى أمالئ الأشراف ؟ ألا تخجل من إلقاء هذه الإهانات فى وجهى ؟ أنت على وجه الخصوص الذى أكلت كثيرا من طعامى ! أتراك تحذو حذو أمثال بيتر الذين يدبون حول منزل الشريف طيلة النهار ثم يأتون هنا ويتشاجرون معى ؟ » .

وصاح بيتر وهو يشق طريقه مندفعا صوب صاحب الخان قائلا: « لماذا تقول هذا القول يا عم كريستى ؟ . . وماذا تقصد بكلمة « أدب » ؟ لأنى أعمل فى خدمة الأشراف ؟.. أأنا أم أنت الذى نال من الوجيه الشيخ رخصة لبيع الخمور ، وغش الناس ، وملء جيوبك بالمال ؟.. اتركونى إليه ، وليجاوب عن سؤالى ، فأنا لن أسمح له أن يطأنى بأقدامه أمام أهل القرية كلها ! »

فقال صاحب الخان يحاول تهدئته ، فقد رأى إيماءاته المتوعدة التى حاول أصحابه أن يخمدوا من سورتها : « كفى طنطنة يا بيتر ! .. أنت جرو مغرور منتفخ الرأس !.. لقد لحظتك منذ أن عدت من الجيش ، فرأيتك تتصرف كأن ليس على الأرض غيرك فى القرية !. اصبر قليلا يا بنى ، فأنت مازلت صغيرا . . ودعنا نعيش أيضا ، ودعنا ندلى برأينا من وقت إلى وقت آخر ! » .

وكلما اعترض الناس طريقه ، وأمسكوا به ، خفف بوزوك من لهجته . وكلما ازداد بيتر غضبا ، صاح : « اتركنى إليه يا عم ايونتى .. خل عنى يا عم تودر ؛ وأنت ألم تسمعه يشتمنى ؟. . أنا أريد من هذا الفظ البدين أن يدلنى عما اقترفته حتى أهان هذه الإهانة ! » .

قال ليونتى أوربيسور ، وقد أمسك بذراعه ، فقد سره أن يقوم بدور فى هذا الشجار : « اسكت ؛ إنه لم يقدم على ضربك ! » .

فصاح بيتر ، وقد تملص منه ، وإن كان قد هدأ بعض الشيء قائلا : « كنت أفضل أن يصفعنى على وجهى من أن يوجه إلى هذه الألفاظ . . أنا لم آخذ منه شيئا أبداً ولم أكن وقحا معه قط — كل ما فى الأمر أننى أميل إلى جانب الصبي ! » .

فقال تودر ستريمبو فى مرارة : « هذا هو حالنا ! . . نحن ، حين يضربنا الأشراف ، لا نرد إليهم الضربات ، بل ولا نعترض عليها ، إنما يعارك الواحد منا الآخر ، ثمنا لضربهم لنا ! » .

فتمتم إيجنات سيرسل فى كمد : « صدقت ياتودر .. الأمر كما تقول ! » .

فصاح بيتر ، وهو يسوى ملابسه : « أنا لست سريع الغضب ؛ ولست أنا

من هذا النوع ، ولكن لو سخر مني أحد ، أيا كان شأنه ، فلن يستريح لي بال حتى أنال حقي منه كاملا ، ومع شيء من الأرباح أيضاً . »

وعندما هدأت سورة الغضب ، ظهر بافل توفسو إذ ذاك وقد ارتسم على وجهه تعبير حزين . . . وأحاط الفلاحون به ، وتعلقوا بكلماته . . وحاول صاحب الخان أن يكفر عن الواقعة السابقة ، فاستهل الكلام ، قائلا : « ماذا جرى لولدك يا بافل ؟ . . ماذا فعل الأشراف به » ؟ .

فقال الفلاح ، في لهجة دلت على الحقد أكثر مما دلت على الشقاء : « لا تسألني يا كريستي ، دعني وشأني ! . . لا يوجد تحت الشمس من هو أتعس مني ! » .

وشيئا فشيئا حكى لهم ما حدث ، وكيف حدث ، قال إن كوستيكا كان جالسا إلى باب بيت جدته ، يلعب في هدوء مع ابن فاسيل زبدارو ، وجاءت السيارة ، وبقي الطفلان مستكينين حيث كانا ، إما بتأثير الخوف ، وإما بدافع اللهو البريء ، فراقبا السيارة ، شأنهما شأن القوم هنا حين مرت بهم السيارة من قبل . . . ماذا دار بخلد الأشراف الذين كانوا في السيارة ، علمه عند الله وحده ، ولكن السيارة توقفت ، وقفز منها الألماني فجأة ، وهجم على الطفلين . . . أما نيتشو ، وكان أصغر الصبيين ، وأشدهما هلعا ، فانسحب إلى فناء داره ، لحسن حظه ، وإلا لكان أصابه ما أصاب صاحبه . . ولكن كوستيكا بقي حيث كان ، لأنه لم ير سببا يجعله يشعر بالذنب ؛ بل هو لم يدرك ما كان يقصده الألماني بضرب نفيره ضربا متواصلا . . . ولكن الألماني اندفع إلى الصبي فأمسك بأذنيه ، وشدهما ولواهما حتى لم يعد لها شكل . . ثم انهال على الولد صفعا وركلا حتى هده هداً . . . فلما أشفى غليله ، سب الألماني الغلام بالألمانية ، ورجع إلى السيارة ، ومضى بها إلى بيت الشريف الشيخ .

واستطرد بافل وهو يرشم الصليب على صدره كأنما هو في محراب : « والآن التهبت أذن الصبي ، وأوجعته ألما ، اللهم انتقم من المجرمين الأشرار . ولقد تركت زوجي تضع عليه الضمادات ، وأرسلت الأم نستاسيا لتعاونها ، فهي حكيمة وذات خبرة ، وقد عالجت ابنة زامفير قبل سنتين ، حين سحق النورج يدها . . ولقد أشار

على العم لوكا ، وأنا فى طريق إلى هنا ، أن أحمل الصبي إلى المستشفى فى بيتستى ، وإنى لفاعل ذلك ، إذ لاحيلة لى غير هذا ، فإن قلبى ينفطر ألما وأنا أرى الصغير المسكين يتألم . كل ماأرجوه هو ألا يضيع سدى ماأنفق من مال ، ولست أدرى كم يبلغ قدره ، فربما يصاب الطفل بالصمم بقية حياته ..»

وختم الكلام متنهدا ، وقد ندت عنه إيماءة تدل على اليأس . . وران الصمت على الفلاحين الذين كانوا يهزون رءوسهم عطفا عليه .. وبعد عدة لحظات ، قال فاسيل زيدارو فى تؤدة ، كأنما يزيح عن كاهله حملا ثقيلا : « كنت أسائل نفسى كيف يجرؤ صبي صغير أن يوقع أذى بالأشراف ؟ » .

وتعالت الآن أصوات عديدة تعرب عن موافقتها بلهجات شتى : « لا لا ، الصبى لايجرؤ على إيذاء الأشراف . . . » أما بوزوك صاحب الخان فقد علا صوته على كل الأصوات ، فقال آمرا : « لماذا لاتأخذ ولدك من يده ياباڤل ، فتذهب به ، وهو على ماهو عليه من ضمادات وشقاء ، إلى بيت الدائرة ، وتطلب إليهم تعويضا عن آلامه .. اذهب الآن فورا ! » .

والتفت باڤل إلى صاحب الخان مرتبكا ... وارتفعت أصوات أخرى حوله تهيب به : « اذهب ياباڤل . . كريستى على حق . . لاتتردد . . من واجبهم أن يدفعوا لك تعويضا .. » .

وغمغم الرجل مترددا : « ربى ، هل حكمت على بالضرب أنا أيضاً ؟ . إنهم لن يخافوا منى ، وأنا الشيخ الضعيف ! » .

فتطوع بيتر ، وقد شد معطفه على منكبيه : « هيا ياباڤل ، أنا ذاهب معك ! » .

وصاح رجل قصير قوى العضل ، أزاح « كاكيولته » المائلة إلى مؤخرة رأسه ، قائلا : « لنذهب كلنا معاً . . هم على كل حال لا يستطيعون ضربنا جميعاً ! » .

فنهاه إيجنات سيرسل على عجل : « الزم الصمت يا جرافيلا ، ولا تتصرف تصرف الأطفال ! . » ونحن ، ألم نذهب منذ قليل من أجل السيد دراجوس ، فطردنا الشريف ميرون طردة الكلاب ؟ » .

فقال تريفون غوغو فى صوت عميق مكروب : «لو سمحنا لأنفسنا أن يعاملونا بهذه المعاملة ، فسيطردونا بطبيعة الحال ! » .

وهبت عدة أصوات فى وقت واحد : « لماذا نسمح لهم ؟ لماذا نسمح لهم ؟ نحن لسنا بكلاب ! » .

وانبعث صوت رفيع منفرد ، كأنه خيط قان ، فكان واضحاً وضوح صوت هبط من السماء : «خير لنا أن نشعل النيران فيهم ، فنحيلهم إلى هباء ورماد ! » .

والتفتت الأصوات إلى ميلينت هيرفيميو ، وكان قد شمخ برأسه عاليا ليدل على أنه لن يسحب ما قاله .. على أنه فى هذه اللحظة سمع صوت سيارة تقترب على الطريق .

« إنها آتية ، إنها آتية ! » همست بها أصوات عديدة ، امتلأت رعبا ، كأنما هى فجأة قد أنسيت وعيد ميلينت .

وكانت جمهرة الفلاحين تملأ الساحة التى رقصوا فيها رقصة « الهورا » يوم الأحد ، وانتشروا عبر الطريق من جانب إلى جانب ، فوقفوا دون حراك ، كأنما يسدون الطريق .. ولكن السيـــارة لمـا اقتربت ، صاح أحدهم استرضاء : « لا تسدوا الطريق يا فتيان ، فالسيارة آتية ! » .

وأفسح الفلاحون الطريق ، فى بطء وتثاقل . وتجمعوا على حافة الشارع .. وأخذت السيارة تضرب النفير باستمرار محذرة غاضبة ، وبدأ طنين الموتور ، والانفجارات المنبعثة من العادم بانتظام ، تزداد وضوحا كلما اقتربت السيارة فأغرقت الأصوات كلها . . واصطف القوم فى صلابة على جانبي الطريق . كأنهم حرس من العصر الوسيط ، وراقبوا السيارة وهى تمرق أمام أبصارهم الغاشية ووجوهم الكسيفة .. وكان بوزوك صاحب الخان هو وحده الذى رفع كاكيولته وانحنى على عاتقه فى احترام وهو على باب الخان .. وبرزت من السيارة يد رقيقة تلوح فى ود ، رداً على تحيته .. أما بيتر بيتر فقد عجز عن كبح جماح نفسه فاندفع إلى وسط الطريق ، وصاح غاضبا وراء السيارة : « تباً لكم ! ! تباً لكم ! ! » .

وانفجرت مئات الألسنة تردد الصوت فى ثورة ، وخطف تريفون غوغو حجراً ، وألقى به على السيارة ، وهو يكز بأسنانه غاضبا : « لصوص ، سفاكو دماء ! » .

ولكن صوت السيارة أغرق صيحات الاستهزاء التى انبعثت من الجماهير ... والتفت السيد ذو اللحية الصغيرة وهلاً ، كأنما قد أوجس شرا ، فرأى الوجوه الغاضبة . وقبضات الفلاحين المتقلصة ، وتريفون غوغو وهو يلقى بالحجر . . واستبد الذعر بالسيد، واحتار فى أمره ، فأشاح برأسه على عجل، تجنبا للقذيفة.. وعلى قدر ما خفت صوت السيارة ، تعالى الضجيج بين جمهرة الفلاحين فى وسط الطريق ، وإذا بصوت أجش ينبثق كالأمر النافذ : « أنتم أسافل ، أولاد كلاب !! ».

الفصل الثامن

اللهب

— ١ —

فى صباح الغد ، وكان يوم أربعاء ، وصل بلاتامونو فى عربته إلى ايسبيزى بصحبة المحامى أوليمب ستافرات ، وكان قد أنزله المبيت فى جليجانو .

« ها نحن أولاء ، ياسيدى المحامى ، قد وصلنا فى أمان ! » قالها الملتزم الذى كان يتولى القيادة ، وقد جلس ستافرات فى المقدمة معه ، أما أرستيد فقد جلس إلى الخلف .

قال المحامى ، وهو يربت على لحيته الصغيرة التى وخطها الشيب ، ويحدج النظر حواليه طوال الوقت ، كأنما خشى أن يخرج عليه دهماء من الفلاحين فى آية لحظة ، فيثبوا عليه من أماكنهم ، قال : « نعم وصلنا ، ولكنى لا أدرى إلى أى حد نحن فى أمان ، وربما نتبين الأمر فيما بعد ! » .

واستطرد بلاتامونو يطيب من خاطره بحيث بدا صوته مدعاة للسخرية : لا تجزع ياسيدى العزيز ! . الناس هنا ليسوا بالجنون الذى يظنه أهل العاصمة ! .. والفلاح سلس القياد جدا بطبعه : بل ربما كان سلس القياد أكثر مما ينبغى ! » .

ولكن المحامى لم يكن ليطمئن نفسا بهذه الكلمات الفلسفية ، بل كان فى حال دائمة من الفزع ، توسوس المخاطر فى صدره فى ألوان مفزعة جدا ، وتصور له الأشباح فى كل مكان ، ومن ثم كان يلعن اللحظة التى رضخ فيها لنزوة امرأة طائشة . والحق ، ما الذى كان ينقصه فى بوخارست من نعيم وأمن فيدفع به فى هذه المغامرات الريفية ، فى أقاليم تتهددها الثورة بفظائعها ! . . ألم يكن أليق به ، وهو السيد الوقور ، أن يقنع بمطالعة هذه القلاقل فى الجرائد وهو ببيته ، جالس فى كرسيه الوثير ، ويحتسى القهوة التركية اللذيذة ، ويدخن السجائر ، بدلا من الرعدة التى

أرعشته .. أوله هاهنا ؟ كان يعلم حق العلم من خبرته الماضية أن الخلط بين العاطفة وبين العمل يعرض للخطر العاطفة والعمل على السواء ... ترى ما الذى اعتراه حتى تورط مع عميلته بهذه الطريقة الحمقاء ؟ هى والحق يقال حسناء شهية، ولكن انظر إلى أين أفضت به هذه المغامرة ؟ .. ولو كان قد غنم منها شيئا — ولكن . . . إنها لم تنقده بعد أتعابه نظير الطلاق . . . كل الذى تلقاه منها هو الوعود ، وهو قد عاملها باعتبارها عميلة ممتازة . . . نعم ، إنه لن يغفر لنفسه أبداً وبخاصة لأنه لم يرفض السفر فى اللحظة الأخيرة ، عندما ذكرت الجرائد كلها حوادث العنف والإخلال بالأمن فى جميع أرجاء البلاد . . . ورأى أن عليه على الأقل أن يبقى فى بيتستى ، حيث مقر الجيش ، وذلك بعد أن شهد السمات الوحشية التى ارتسمت على وجوه الفلاحين فى كل القرى التى مروا بها ؛ فرآهم يتهامسون فيما بينهم همسات لا يعلم كنهها غير الله ويتآمرون فى وضح النهار ، وعلى مرأى ومسمع من الناس أجمعين .. وكان طوال الليل يتقلب فى فراشه على جمر من القلق ، فيقوم المرة بعد المرة ليتأكد من أن الباب موصد جيدا . ويرتعد فزعا عند كل ضجة تأتى من الخارج .. كذلك لم يكن يشعر إزاء الملتزم بثقة كبيرة ، أيا كان الود الذى يبديه . . . فمن ذا الذى يضمن له أن الملتزم على غير علاقة خفية بالفلاحين ، ومن ثم ربما يجد المحامى فجأة هؤلاء الأوغاد فى غرفته ذاتها ؟ !

ولمح ستافرات ، قبل أن يدخل من باب البيت ، حفنة من الفلاحين ! خمسة عددا ، فى الفناء .

قال فزعا ، وهو يسترعى نظر الملتزم إليهم : انظر ، ها هم أولاء !

قال بلاتامونو مهدئا من روعه : إنهم قوم مهذبون ياسيدى ! . أنا ضامن لهم ! وأنا أعرفهم جيدا .. فهذا الذى يلبس « كاكيولا » بيضاء هو ماتى دولمانو ، وهو رجل ذو حيثية وهو طيب القلب . وربما اضطررت للتعامل معه شخصيا ، فهو أحد أولئك الفلاحين الذين كانوا يسعون إلى شراء عزبة السيدة نادينا ! .

وكان المحامى ستافرات قد وفد مرتين بالأمس إلى بيت ميرون أيوجا ، مرة عند وصوله ومرة عند رحيله ، ولكنه لم يدخل البيت القديم نفسه . . وأخذ الرجل يتفحص الآن المبانى والفناء ، كأنما لم يقع بصره عليها من قبل ، فقال وهو

كئيب؛ لا ضمان البقاء فى هذه البيوت على الإطلاق... كل شىء مفتوح على مصراعيه ويستطيع كل من شاء أن يدخل ، وأن يخنقك ؛ وأن يشعل النيران فى كل شىء ، ثم يعود أدراجه دون أن يجد أحداً يقف دونه .

ولم يكلف بلاتامونو نفسه حتى مشقة الرد عليه ، اللهم إلا بابتسامة. أما أرستيد وكان يجلس إلى الخلف واضعا يده إلى فمه ؛ فكان يضحك من المحامى . لعزيمته الخائرة .. والواقع أن البيت كان محل إهمال، وخصوصا المبانى الخارجية. .وكانت صيانته فى عهدة الملتزم الذى كان من حقه أن يستخدمها كما يشاء ، فيما عدا المبنى الرئيسى ، وهو المبنى الذى قام جورجو أيونيسكو بتجديده قبل ذلك بعدة سنوات، واحتفظ به لنفسه وزوجه . وكان بلاتامونو يستخدم معظم المبانى الخارجية مخازن له ، وكانت الاسطبلات والزرائب تكاد تكون خالية ، فلم تكن تضم غير الجواد الذى يملكه الخفير . دوميترو كيوليكى ، وبقرة حلوب ، وعدة دجاجات من أجل الأشراف حين يقضون بضعة أيام فى القرية . أما لو مكثوا مدة أطول ، فكان الملتزم يرسل إليهم الزاد من جليجانو . . وكانت هذه المنطقة العريضة كلها من المبانى الخارجية لا يشغلها غير دوميترو كيوليكى وأسرته ، وكانت تتكون من زوجة وأربعة أطفال . . وكان الملتزم قد وجده هناك ، فأبقاه فى الخدمة ، لأنه كان رجلا من الممكن الاعتماد عليه . . وكانت زوجه تعمل طاهية فى بيتستى، وكانت تعرف كيف تعد الطعام للأشراف . . وكانت البنت الكبرى ، أبلينا ، تشتغل خادما فى بيت الدائرة ، وكانت حاذقة ماهرة كأى مدبرة منزل من المدينة . أما فى غير ذلك من شئون . فكان دوميترو عادة يجلب الخدم من القرية . . . ولم تكن الحياة تدب فى المكان إلا عندما يجتمع هناك عدد من الأشراف ، فعندئذ يمتلىء البيت بالناس وبالهرج والمرح .

وكان السائق ينظف الآن السيارة فى أحد المخازن ، وهو يدندن أغنية ألمانية فى حماس .. وكان هناك عدد من البط والدجاج يجوس فى الفناء وتستمتع بدفء الشمس . . وأسرع دوميترو كيوليكى ، وهو رجل غائر الوجه ، محدودب الظهر قليلا ، ليساعد الشريفين على التدلى من العربة . . وأبلغ الرجل بلاتامونو، جوابا عن سؤال طرحه عليه أن السيدة قد نهضت من نومها وأنها الآن تتأهب أمام المرآة .

وقاد الملتزم المحامى ستافرات عبر السقيفة التى تحمى المدخل ، ودخل به إلى الردهة الكبيرة حيث بقيا وهلة إلى أن ظهرت أيلينا فأعلنت أن السيدة ستحضر سريعا ، ودعتهما إلى غرفه الجلوس ، وكانت تقع إلى اليسار ، بجانب غرفة خاصة يتخذها جوجو أيونيسكو للمطالعة. أما عن يمين فكانت تقع غرفة المائدة، وكانت بدورها تتصل مباشرة بالردهة، وتفصلها غرفة أخرى أصغر منها عن غرفة النوم.. ولقد شطر جوجو الغرفة الصغيرة إلى شطرين ، أقام أحدهما حماما حديثا لم يكن يفتح إلا على غرفة النوم . . . كذلك امتد ، من ظهر غرفة المائدة ، ممر كان يؤدى إلى غرفة صغيرة اتخذت مكتبا . . وجاء بعد ذلك المطبخ الكبير ، ثم على مدى منه مساكن الخدم ، التى كان يقطن فيها دوميترو كيوليكى هو وأسرته .

وكانت نادينا تبدو مشرقة فاتنة — قد تألق وجهها وردا وبهجة . . وسألت ستافرات فى سخرية حلوة « هيه أيها البطل الهمام ، أما تزال خائفا ؟ آه لو كنت أعلم أنك هياب هكذا لكنت أعفيتك من هذه المهمة ، وعهدت بها إلى محام آخر! » .

وغمغم المحامى قلقا ؛ قائلا « أنت تهزلين ياسيدتى ، إذ ليس لك خبرة بالحياة . . . من أسف أننى . . . . »

واستطردت نادينا جادة ، قائلة « أرجوك ، كفى نواحا ياسيد ستافرات . . أم تراك تحاول عامدا أن تبعث فى نفسى الأسف لأننى حضرت ؟ تأكد أننى لن آسف بل على العكس ، فالبلد الآن أكثر بهجة مما كانت فى أى وقت سبق ! وهذا اروع ربيع أو ربما يبدو لى كذلك لأننى . . . ولكن لنتكلم فى شئون العمل » .

وتبادل الرجلان نظرات تدل على الفهم ، فقد سبق لهما أن تباحثا فى هذه الأمور بهدوء الليلة الماضية بعد العشاء ، واستمر النقاش بينهما حتى منتصف الليل . . . ولقد رحب المحامى بهذا الحديث ، لأنه أجل خلوته إلى نفسه ، وهو أمر كان يفرق منه .. وشرح بلاتامونو الأمر ، ووافقه ستافرات ؛ فقال إن على السيدة أن تقرر أولا إلى من تبيع الضيعة ؟ ، حتى تبدأ المفاوضات على نحو جدى .. أما الكلام مع لفيف من العملاء فى وقت واحد ، دون الدخول فى تفاصيل عملية ، فمعناه ضياع الوقت ، ومتاعب لا لزوم لها على كل حال .. أما هو ، بلاتامونو ، فهو صاحب

الحق الأول ، ولـكنه لا يريد للناس أن يتقولوا عليه بأنه فرض نفسه على السيدة. وكان واثقا بأن الضيعة لو بيعت ، فستباع إليه ، فهو وحده الذى يعرف قيمتها الحقيقية ، ويعرف ماتدره من ريع . واقد كان أحرى بالسيدة أن تعقد الصفقة، حين تقدم هو إليها عارضا الشراء ، ملحا فيه . . أما الآن فالموقف غير موات لها لأن كل إنسان يرى ، وهذه الاضطرابات قائمة، أن امتلاك الأرض مضيعة لماله، ثم من يدرى ماذا يأتى به الغد ؟ . أما فيما يختص به هو نفسه ، فهو فى الوقت الحاضر يتقدم بعرض لا أكثر ، على شرط أن تعقد التسوية النهائية بعد أن يهدأ الموقف قليلا .

وأخذت نادينا تستمع نافدة الصبر إلى اعتراضات المحامى ووساوسه، ولم تشأ أن تقاطعه ، وتخبره بأنها ما استدعته إلا لأنها لاتعرف كيف تعالج هذه الأمور؟ لاليقيم الدليل على الصعوبات القائمة ويزيد الطين بلة . . وأخيرا قالت : «لقد سبق أن أخبرتك ، إذا لم تخنى الذاكرة ، أننى سوف أبيع لمن يعرض أكبر ثمن يدفعه نقداً . . أما التفاصيل فأمرها موكول إليك! ».

واعترض ستافرات قائلا : «نعم ، ولـكن كيف يمكننا أن نعقد مزاداً علنياً! ».

فسألت نادينا مبتسمة : « أليس فى مقدورنا أن نسمع العرض الذى يتقدم به كل واحد ، ثم نقرر نحن بعدئذ ؟ » .

وتدخل بلاتامونو قائلا : «ربما كان هذا معقولا فى ظروف غير هذه الظروف ياسيدتى ؛ أما فى الوقت الحاضر فهذه التدابير لاتليق . . . » .

وأجابت نادينا : «أنت تقصد بسبب الفلاحين . . أنا فى الحقيقة لاأجد مانعا من البيع للفلاحين . . لقد وعدتهم بأن أفاوضهم حين يأتى الوقت . . ولهذا أرى أن كل ماعلينا أن نعمله هو أن نستدعيهم ».

واعترض الملتزم مرة أخرى : « لست أظن فى هذا فائدة ياسيدتى ! . . . فالفلاحون حتى عندما سعوا جاهدين إلى الشراء كانوا يفكرون فى ثمن أقل ، وشروط سهلة للدفع ، إذ لارأس مال عندهم غير عملهم ! » .

صاحت نادينا : « طبعا ، ليس تحت هذه الشروط ! » .

واستطرد بلاتامونو : « هم يريدون الضيعة الآن ، نعم ، ولكنهم يريدونها مجانا بلا ثمن ! » .

« ماذا تقصد بقولك مجانا ؟ .. كيف يمكنهم أن يحصلوا عليها » ؟ .

« بالتوزيع عليهم دون ثمن ! » .

« يالها من فكرة ! » .

قال الملتزم : « ومع ذلك هم يتطلعون وينتظرون ، هكذا تهب الريح الآن! »

وغمغم ستافرات : « ربما لم يعد المجال يتسع لإظهار العجب من تطلعات الفلاحين ، فنحن جميعا نعرف من الجرائد أنهم قد وضعوا فعلا هذه التطلعات موضع التنفيذ فى كثير من البلاد ! . . وليس من شك فى أن الوقت الحاضر ليس وقتا مناسبا جداً لإجراء مفاوضات بشأن بيع عزبة ما ، وفى مقرها ذاته . . كان من الممكن جداً أن تتم هذه الإجراءات التمهيدية فى بوخارست ! »

فردت نادينا غاضبة : « لقد فهمت اعتراضاتك ، ولكن لمـــاذا لم تبد هذه الاعتراضات فى بوخارست ؟ » .

« لقد سبق أن حذرتك من أن الرحلة إلى الريف رحلة خطرة ، ولكنك أبيت أن تصغى إلى » .

« كفى كلاما فى الرحلة وفى مخاطرها . فأنت لو أخبرتنى بأن الصفقة لا يمكن أن تعقد الآن ، أو أنها تتم على نحو أفضل فى بوخارست . . . »

« أصبت ياسيدتى ، وأنا أعترف بأننى كنت مقصراً . . . »

ورأى المحامى أن عليه تبعة تهوره إذ ترك بوخارست . لا لأنه قصر فى إعطائها النصيحة السليمة . . وأحس بأنه لم يعد مهتما بصفقتها ، بل كان همه كله هو متاعبه التى يعانى منها . . كان الآن يتساءل إن كان فى وسعه أن يعالج الأمور بحيث لاينام ليلته فى جليجانو — بل على الأقل يشق طريقه إلى بوخارست . . وما كان قد جرؤ على أن يخبر نادينا أو الملتزم بما شهده بالأمس فى آمارا ، حين التفت برأسه فى السيارة ، لأنهما ما كانا يصدقانه بل ربما سخرا منه . . ثم هو نفسه كان

على غير يقين تام ، فربما كان الأمر وهما صرفا راود رجلا عصبيا . . . ولكن حتى لو كان الأمر كذلك ، فهو قد يغدو حقيقة واقعة غدا ؛ فلماذا إذن ، وهو الرجل الوقور المتمالك لقواه العقلية ، يخاطر بنفسه ، إذ ربما يفتك به الفلاحون المجانين ؟ . . إن عليه ، على النقيض ، أن يغتنم فرصة للنجاة بنفسه حيثما استطاع .

واستطرد بلاتامونو : « عليك بالصبر قليلا ياسيدتي — فأنت قد أحسنت صنعاً بالحضور إلى هنا ، لتدلي الناس على أنك لاتزمعين التخلص من الضيعة على النحو الذي زعموه . . والأمر بعد لن يستغرق أكثر من يوم أو يومين وتسكن ثائرة هذه الفتن كلها . . والواقع أن رئيس الشرطة يجوب الريف بنفسه ، وسيمر هنا اليوم ، ليخطب في الفلاحين ، ويهدئ من اضطرابهم ، ويخرج هذه الأفكار من رءوسهم » .

قالت نادينا : « وماذا عن السيد الشيخ أبوجا ؟ . . أنا لم أجد وقتا بالأمس إلا لألقي إليه بالتحية . . . ومحال أن أتخلص منه . . بل يجب أن نكلمه أيضا حتى لايظن بي الظنون » .

قال الملتزم : « لا لا ياسيدتي . . . تأكدي أنه لايفكر في الشراء الآن . . . ابقي هنا هادئة مستريحة البال في الوقت الحاضر ، وسنرى مايأتي به الغد . . لو شاء السيد أبوجا أن يقول لك شيئا فسيرسل إليك برسالة ، هذا أمر مفروغ منه » .

ولم ترض نادينا عن هذا الحل ، وإن اضطرت إلى الاعتراف بما فيه من حجية وإذا بها تقول بصراحة ، كأنما تستيقظ من حلم : « لماذا جئت أنا إذن؟ . إذا كان على أن أنتظر حتى تمر هذه العاصفة ، على حد قول السيد ستافرات الآن ؛ فلما تجشمت أنا مشقة الحضور ؟ » .

واستصاحا بلاتامونو : « لا تندمي ياسيدتي . . . لقد استمتعت برحلة طيبة وأنت — بمشيئة الله — ستعقدين صفقة طيبة » ، وطال الحوار زهاء ساعتين من الزمان ، فكانوا يلفون ويدورون حول الأسئلة ذاتها ، ويجيبون بنفس الإجابات وينتهون إلى نفس القرارات . . ووجهت نادينا دعوة إلى ستافرات ليبقى في صحبتها

ويتناول طعام الغداء . . وانسحب الملتزم وهو يعد بالرجوع، بعد حين، فى المساء ليأخذ المحامى للمبيت .

قالت نادينا تحدث ستافرات ضاحكة، وبلاتامونو يلقى إليهما تحية الانصراف « أرجو أن تطارحنى الغرام ، لا أن تلقى الرعب فى قلبى بهذه الحكايات المزعجة عن الفلاحين » .

وارتبك أوليمب ستافرات ،وداعب لحيته ، وألقى عليها نظرة اصطرعت فيها الشهامة مع القلق .

أما أرستيد فكان ينتظر نافد الصبر فى الساحة ، بعد أن جمش أيلينا جمشة خفيفة أمام عين أبيها الذى أخذ يتحدث معه عن القلاقل فى هذه الأنحاء ، قتلا للوقت لا أكثر . . . وكان دوميترو يتوق لهفا إلى معرفة ما إذا كانت الأرض ستعطى للفلاحين .

قال بلاتامونو وهو ينزل الدرج على عجل ، وينطلق مباشرة إلى العربة : « هيابنى ، فقد انتهينا ! » ثم خاطب أرستيد بصوت أشد انخفاضا : « هيا ، فقد يستبد القلق بوالدتك ! » .

فلما خرجا إلى عرض الطريق ، التقيا بماتى دولمانو وبقية الجمع الذى شهداه من قبل ، كأنما كانوا فى انتظارهما . وأشار دولمانو إليهما بالتوقف ، ثم اقترب منهما .

وتساءل الملتزم مترددا كالعهد به دائما : « ماذا دهاك ياماتى ؟.. ماخطبك؟ » .

واستدار الفلاح من تحت رأس الجواد ، ومضى إلى بلاتامونو . . . كانت أساريره أشد قتامة مما كان عادة ، وكان هناك بريق خفى فى عينيه .. ووضع قدما على السلم ، ومال ، ثم همس فى أذن الملتزم : « اصغ إلى ياسيدى ، اترك باباروجا وشأنها ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ! » .

واربد وجه بلاتامونو ، ولكنه استطرد فى نفس اللهجة الرقيقة إخفاء لمشاعره : « ما خطبك الآن ؟.. ألم أخبرك بأنى لن أزج بنفسى إذا كنتم ستأخذونها ؟ »

فسأل الفلاح مرتابا : « لماذا إذن جاءت السيدة هنا ؟ » .

« ربما كانت تريد بيعها ، فهى ضيعتها على كل حال ! » .

قال ماتى‌دولمانو متوعدا : « ومع ذلك فليس لك أن تتدخل ؛ نحن لن نسمح لأحد أياً كان أن يأخذ الأرض منا ! » .

فقال الملتزم متلعثما ، فى صوت حاول أن يجعله متوددا ، ولكنه لم ينجح : « لا تقلق بالك من جهتى ياصديقى !!.. ولابد لكم من الاتفاق مع السيدة ! » .

قال الفلاح : « اترك السيدة لنا . . . هذا كل مافى الأمر ياسيدى ، ولا تقل بعد ذلك إننى لم أحذرك ! » .

فأجاب بلاتامونو ، واثقا بنفسه بعض الشىء . « هذا عهد بيننا ياماتى ، وأنا حين أتكلم ، يخرج الكلام من قلبى !.. تأكد من هذا ياماتى.. إلى اللقاء ! » .

وانتحى الفلاح جانبا ، وهو يهمهم لنفسه ؛ أما الملتزم فقد استحث حصانه على المسير : « هيا . . . هيا .. فقد تأخرنا ! » .

— ٢ —

قال بوزوك وقد وقف فى فرجة الباب مرة أخرى ، وأخذ يتطلع إلى الشارع : « ماذا جرى للناس ياترى ؟.. أهكذا يبقون مختبئين فى عقر دارهم ؟ . . . والزبائن أمثالك ياسبيريدون لا يدرون ربحا كثيرا ! » .

وكان سبيريدون راجالى قد ابتاع لنفسه قدحا من الشراب ، ودفع ثمنه .. كان بوده أن يطلب المزيد ، ولكنه كان يعلم أن بوزوك لن يقبل أن يعطيه نسيئة ... كان اسمه مقيدا فى عداد الذين عليهم ديون ، وهو لم يدفع بعد شيئا يتخفف به من دينه ... وأجاب هاشا باشا استجلابا لثقة صاحب الحان : « ربما هم قد أخذوا فى تنظيف محاريثهم ، فقد تحسن الجو ، وهم بهذا يتهيئون لتوزيع الأرض . »

« طبعا .. طبعا .. فأنتم قد لحظتم كيف هرع الملاك الواحد تلو الآخر

متنازلين عن ضياعهم !! » قالها بوزوك ساخرا دون أن يلتفت إليه ، ثم استدار وعاد إلى البار ، واستطرد قائلا : « أنت سكير عربيد ياسبيريدون ، ولكنك على الأقل أكثر فطنة من الآخرين .. فأنت لا تكد دون مقابل ! » .

وكان الفلاح شيخا واهن القوى ، فاكتست ملامحه سمة البؤس ، وأجاب باكيا : « غيرى يتعاطى الشراب لأن الشراب يبث فى نفسه السعادة ؛ أما أنا فأشرب بسبب ما أعانى من فقر ومن متاعب ياعم كريستى !... هكذا كانت حياتى منذ أن ماتت زوجى ... أما ابنة زوجتى فلا وقت عندها لى ، إنها تسبنى ، وترفض أن تلحظنى بعنايتها ! » .

قال صاحب الخان مقاطعا : « أنا أعرف حكايتك بحذافيرها ؛ هكذا إرادة الله ياعم سبيريدون ! » .

« طبعا أنت تعرفها ، وتعرفها جيداً ! » قالها الشيخ متأذيا ، وأشاح ببصره ناحية الباب المفتوح ، حيث دخل إذ ذاك ابن فيليب اليوزا ، وكان نظيفا ، ينتعل حذاء ... وصاح الطفل فى صوت متحشرج ، وهو يلتصق بالبار ، ويتفحص بعينيه الرفوف وراءه : « لقد أرسلنى جدى من أجل — أرسلنى من أجل — ! » .

قال بوزوك مبتسما : « من أجل ماذا أرسلك جدك يا أنطون ؟ » .

قال الطفل ، وقد سره أن تذكر أخيرا : « من أجل .. من أجل كيلوجرام من البترول ، ولكن فى زجاجة من عندك ، لأن زجاجتنا قد كسرت » .

« هل أحضرت النقود ، أم لا ؟... » .

« هاهى ذى ! » قالها أنطون مزهوا ، وهو يكشف عن النقود التى كان يقبض عليها بإحكام فى قبضة يده .

* * *

كانت السيدة دراجوس قد عادت توها من بيتستى حيث كانت تقوم بزيارة زوجها فى السجن .. ولقد جاءت بالقطار حتى كوستستى ؛ أما بقية المسافة فقد

قطعتها مشياً ، إذ مامن سائق عربة واتته الشجاعة ليرحل إلى الريف ، رغم أن زوج المعلم كانت على استعداد لأن تجزل العطاء .

وعادت إلى بيتها وهي أشد شقاء منذ ساعة رحلت ، فقد قضت يوم الاثنين كله على أبواب رجال الحكم ولكن دون جدوى ... ووافق النائب العام ، على مضض شديد ، أن يسلم إلى دراجوس ما جاءت به السيدة من مال وطعام .. وبالأمس ، وكان يوم ثلاثاء ، غيرت من خطتها ، فنحت بعض المال لأحد الموظفين الأقل مكانة . واستطاعت بهذه الطريقة أن تقابل زوجها برهة وجيزة .. وكان الرجل حتى الساعة لا يدرى لماذا ألقى القبض عليه؟ ، إذ لم يخبره أحد بشيء ، كما لم يستجوبه أحد عن شيء ؛ ولكنه كان يعتقد أنه محجوز هناك ليحولوا دونه وإثارة الفلاحين ضد ملاك الأرض .. وضحك أيونيل المسكين ، وهو يخبرها بهذا ، قائلا : إن من الخير له أن يبعد عن آمارا ، فهو لو كان هناك ، ثم وقع شيء فى القرية ، لاتهمه الأشراف ، هو وحده ، بتبعة كل شيء .

وبكت فلوريكا وهي تحكى حكايتها على شيوخ القرية الذين كانوا يعتصرون أيديهم وهم يصيخون السمع إليها .

وغمغم نيكولاى دراجوس بغتة ، وقد اربد وجهه غضبا : « لاضير ، فنحن ان نعانى بعد ذلك طويلا ، وسوف نعاقبهم بما يستحقون ! »

قالت فلوريكا ، وهي تجفف دمعها : « الزم الهدوء يانيكولاى ؛ ولا شأن لك بالناس وبشرورهم !. . ولوساءت الأمور فسيقع اللوم كله على أيونيل مرة أخرى... وسيقولون إنه هو الذى علمك أن ... »

قال : « بل أنا لو علمت بأنهم سيقطعوننى إربا ، ويلقون بى إلى الكلاب ، فلن يهدأ لى بال حتى ينال كل واحد مايستحق !... ولا يهمنى غضبك ، فأنا لن آبه لأحد أيا كان ! » .

* * *

صاح ليونتى أوربيسور ، وقد توقف فى الطريق وفأسه على كتفه . « مرحبا ياتريفون !... هل بدأت العمل ؟ » .

فأجاب تريفون غوغو من سقيفة الباب حيث انبعث منها صوت معدن يضرب فى الحجر .

وتساءل ليونتى دون تفكير : « أتراك تشحذ منجلك ياتريفون أم .... » .

قال تريفون دون أن يرفع رأسه : « نعم ، أنا أشحذه استعدادا ليوم عظيم ! » .

« الظاهر أنك تريد أن تحصد قبل أن تزرع ! » .

« لو اضطررت إلى ذلك ... فالجواب نعم ! » .

* * *

دخلت العربة البوابة ، وكانت مفتوحة كالعهد بها .. وصاح داران ستان من وراء العربة الخالية فى الأطفال الذين كانوا يلعبون فى الفناء ، وهو يلوح بعصى فى يده كأنها سوط . « أفسحوا الطريق ياأولاد ، ابعدوا عن أقدام الثيران !... أفسحوا الطريق ! ... »

ثم ، وبينما الثوران ينطلقان فجأة إلى ظهر الفناء ، تقدم أمامهما مسرعا قلقا ! وقال « أخذكما الشيطان .. أأنتما حيوانان مختلا العقل ! .. لماذا تنطلقان هكذا ؟ هيه .. هيه .. سأضربكما ضربا مبرحا !.. هل جننتما؟.. هل تحسبان أن فى مقدوركما أن تقدما على أى شىء مثلما يفعل ملاك الأرض ؟.. سأريكما ! » .

ولطمهما لطما عنيفا بطرف العصا ، أحدهما تلو الآخر . وتمتم وهو يكز بأسنانه : « لا يكن شأنكما شأن ملاك الأرض ، عليكما اللعنة ! » .

* * *

قال فيليب اليوزا يخاطب الأب نيكوديم ، وكان جالسا على كرسى فى الشرفة التى سطعت عليها الشمس : « أنا لا أدرى ماذا أفعل يا أبتاه ! .. الطقس قد تحسن ، والأرض قد جفت ، وأنا فى حيرة من أمرى .. هل أبدأ فى حرث

الأرض ؟ أنا لا أستطيع أن أظل هكذا لا أفعل شيئاً ؛ وأنا أرى أن الآخرين..» ولزم الصمت متسائلا . . . وكان القس مغتما لتقدمه فى السن ، ثم لأنه كان يتحرق شوقاإلى ابنه الذى غدا متسلطا على فكره كلما ازداد ضعفا . . . ولقد كان معتل الصحة طوال الشتاء لسبب أو آخر ، فأخذ يردد أن العمر لن يمتد به حتى يقبل الصيف . . . ولكن ما إن أشرفت أشعة شمس الربيع الأولى حتى أشرقت أساريره واستعاد اهتمامه بالحياة . . وأجاب زوج ابنته الذى وقف بجانبه ثقيلا بليداً كأنه كتلة من الخشب بقوله : «ينبغى أن نعمل يافيليب ، ولكن إذا كان الناس يرون . . » ثم استطرد فى لهجة أخرى : « ليت شعرى ماذا يتوقع الناس حتى لا يشرعوا فى العمل ! » .

قال فيليب : « إنهم يتبعون بعضهم بعضا ، وكل واحد يستحث الآخر ، لا أكثر . . ولكن الوقت قد مر ، والحقيقة هى أننا ما زلنا دون أى عقد مع صاحب الأرض ، وليس عندنا غير أرضنا . . » .

وأحضرت نيكولينا قدحا من اللبن الحار لأبيها ، وكان فيليب قد بحث الأمر معها قبل ذلك بفترة وجيزة ، فانفجرت بصراحتها المعتادة القاطعة قائلة : «إن الناس قد فقدوا صوابهم ، وهم يجرون وراء سراب محال — وسوف يتضورون جوعا فى النهاية — ولسوف ترى إن لم أكن على صواب ! » .

قال فيليب وهو كسيف البال : « أسوأ ما فى الأمر هو أننا لا ندرى إلى أين نتجه . . والواجب أن نكون على بينة مما نفعل » .

قال القس ، وهو يدفىء يديه حول القدح ! « نحن لا نستطيع أن نتصرف ضد رغبة الناس . . إنما نفعل ما يفعله كل واحد . هذا هو سبيلنا ولا سبيل لنا غيره » .

واستطردت نيكولينا غاضبة : « ليبعد فيليب عن طريق الناس فهو رجل ذو عائلة كبيرة ، وليس له أن يتأثر بالحمقى الذين يخربون وينهبون ، ولم يتورعوا عن نهب اللحم منذ الخريف الماضى . . نحن لن نجد أحداً يعطينا طعاما ، أو يهب لمساعدتنا . . إن لى خبرة بهؤلاء الناس ، ولا أريد أن أسمع عنهم شيئا بعد ! » .

واستحسن فيليب مسلك زوجه وحماسها ، فقال فى تفكير : « لقد بلغ العالم الدرك الأسفل من الشر والانحطاط ، لم يعد بعده زيادة لمستزيد ! » .

وما لبثت نيكولينا أن غمغمت فى قلق بعد لحظة ، كأنما قد لمح لها خاطر فجأة : « ترى ما الذى حدث لأنطون ؟ .. لماذا لم يعد بالبترول من الحان ؟ ، لقد ذهب منذ وقت طويل و .... » .

* * *

صاح إيجنات سيرسل فى زوجه غاضبا ؛ وكانت عاكفة على مشاكستها وهى على باب الدار ، بينما هو يتلكأ فى الفناء : « كفى يا امرأة ! .. ألا تسمعين ؟ ... لئن لم توقفى هذه الأقذار التى تنساب من فمك فسأقفله لك بطريقة لن تنسيها أبداً .. وإياك أن تخبرينى بما ينبغى على أن أفعل ، وبما لا ينبغى أن أفعل ! » .

« السباب سهل عليك .. أنت تهرب طوال النهار من البيت ، ولكن ماذا أفعل أنا ؟ .. قل لى ماذا سوف يحل بى وبالأطفال ؟ .. كيف لى أن أطعمهم ؟ .. لقد استجديت جيرانى جميعا ، واستدنت منهم حتى ضاقوا بى ذرعا ! .. لم يعد فيهم أحد يريد أن يسد رمقى ولو بحفنة من دقيق الذرة ! » .

كان إيجنات يعلم أن زوجه على صواب ، ولهذا ازداد غضبا .. فهو عندما لم يجد شيئا آخر يفعله ، شرع يصلح السور ، ويعمل بالساطور ، ويضرب بالمطرقة كمن به مس من الشيطان .. وتوقف وهلة ، وقد أراح فأسه على كتلة الخشب ، وقال « ألا تدركين يا امرأة متى تتكلمين بأدب ؟ .. ماذا تريدينى أن أفعل ؟ أتريدين أن أشنق نفسى ؟ .. سأفعل ذلك ، وستقرين عندئذ عينا ! .. أنت لا صبر عندك ، مثلك مثل جميع الناس ، أنت تحبين الشجار كما يحب الكلب النباح .. ألا ترين أننا جميعا نبذل كل ما فى طوقنا ، وإن الله لابد معيننا على أمرنا ؟ » .

واستمرت المرأة تدمدم فى صوت شاك باك ، فأثارت فى نفسه من الضيق فوق ما يطيق ... وكان كلبه راقداً هادئا على مقربة منه ، وكان بارز العظم ، بائسا ، جوعان .. وشخص إيجنات ببصره إليه ، واستشاط غضبا ؛ كأنما كان

استسلام الكلب مبعثاً للهزء به ، فركله فجأة ركلة جعلته يتدحرج مرة ومرة ! ومن ثم ابتعد عنه عدة خطوات .

« اذهب إلى الجحيم ، واغرب عن وجهى ! » .

وعوى الكلب عواء طويلا كئيبا ، كأن مجرد ترداده تهدئة لسورة سيده ، فاستكانت مشاعره ، واستأنف عمله فى السور قائلا ! « أخذك الشيطان ! » .

* * *

« هالو ، هالو . . . نعم ، نعم . . هنا نقطة بوليس آمارا . . أنا رئيس النقطة ، الرقيب بونجيو . . ماذا تقول ؟ . أهذا أنت يابوبيسكو ؟ . . حفظك الله أنا لم أتبينك من صوتك ! . . كل شىء هنا يابوبيسكو ! . كيف الحال عندك فى إيزفورو ؟ . . على ما يرام أيضا . . ماذا تقول ؟ . . أشعلوا النيران فى بيت الدائرة ! . . أين ؟ . . فى دوبريزى . . أوه ، تيلورمان . . إنها بعيدة عنا جدا ، فى وسط المقاطعة . . ولكنه أمر رهيب على كل حال ! ماذا فعلت الشرطة ؟ . . أوه . لا يوجد أحد من رجال الشرطة هناك ! . . هذا هو السبب إذن ، وإلا . . استمر ، استمر يابوبيسكو . . أنا مصغ إليك . . أتقول إن الوالى والمفتش رحلا عن إيزفورو منذ ساعة ؟ . . حسن جدا . . أنا أعرف أنهما آتيان هنا . . أنا فى انتظارهما . . شكرا لك على كل حال . إنهما لن يصلا قبل العصر ، أليس كذلك ؟ لا بأس ، لا بأس . . سأخبرك فورا لو وقع شىء هنا . . وأنت أيضا افعل نفس الشىء لو حدث شىء عندك . . حسن يابوبيسكو ! . . إلى اللقاء ، وحظا سعيداً ! . . كيف صحة السيدة بوبيسكو ؟ . على ما يرام . زوجى ديدينا فى صحة جيدة ، شكرا لك . . أطيب التمنيات لكم منا أيضا ! » .

وكان بونجيو ، وهو يتحدث بالتليفون ، يأتى بإشارات يائسة لزوجه حتى تلزم الهدوء إلى أن ينتهى . . فلما وضع السماعة قال فى ملل : « حسن ، ماذا تريدين ؟ ألا ترين أننى مشغول ؟

وكانت السيدة بونجيو تطالع بانتظام جريدة يونيفرسول ، وكانت فى رعب شديد من الأنباء التى تقول : إن القلاقل بين الفلاحين فى زيادة مضطردة . . لم تعد تستهويها الآن أخبار الجرائم والحوادث المثيرة . . وهى ، منذ أن قرأت

فى الأيام الأخيرة عن الناس الهاربين إلى المدن ، أخذت تسائل زوجها باستمرار عن مصيرها ، أتراها تبقى هنا ليتولى الفلاحون قتلها ؟ .. ورأى الرقيب أن شجاعته العسكرية ستنهار ، انهيارا إذا هى صممت على الفرار ، بل ومما زاد الطين بلة أنها حدثته فى هذا أمام رجاله ، بل وأمام المدنيين أيضا ! الأمر الذى ثبط من عزيمة رجاله ، ونشر فكرة الثورة بين الفلاحين . . ولقد حذرها أولا بأدب ، ثم كال لها السباب بعد ذلك ، ولكن السيدة استطردت قائلة : « ماذا قررت بشأنى ؟ هل تبقينى هناك .. ؟ »

وانفجر زوجها ، منتهزا فرصة خلوتهما قائلا : « اصغ إلى ياديدينا .. إنك تخرجيننى عن طورى .. ألم تسمعى بأذنيك أن الوالى والمفتش قادمان ؟ » .

« نعم سمعت ، ولكن .. »

« إذن اتركينى وشأنى .. أنا سوف ألقى بجريدتك اللعينة إلى النيران . . بل أنا لم أعد قادرا على أداء واجبى فى هدوء بسبب نواحك وصراخك ! أنت لا تكفين عن القول بأن الفلاحين سيقتلونك ! .. والظاهر أنك فقدت عقلك ! إنهم لو قتلوك فسيقتلوننا معاً – ولهذا أنا تزوجت منك ، ورفعتك من الحضيض وجعلتك زوجة ضابط ! ! » .

وتركت ديدينا الحجرة باكية قائلة: «ربنا يعاقبك ، .. ولتذهب إلى الجحيم!»

* * *

« رحماك يارب . . الموت يأبى أن يأخذنى وأن يريحنا جميعا ! .. لقد ظللت ألازم الفراش منذ الخريف الماضى ! . . وتوسلت إلى الله أن تأخذه الشفقة بأطفالى ، فإن قلبى لينفطر وأنا أراهم جوعى مهلهلى الثياب ! .. أوه ، لقد انتهيت وسوف أختنق – لا أستطيع أن أتنفس .. أرأيت إلى يدى ، كيف هما باردتان؟ أواه ، ياربى!» .

وكان جو الكوخ خانقا من رائحة العرق وأنين المرأة المريضة . . وانساب ضوء الشمس صافيا من خلل الشباك القذر .. وأخذت كتلة من الخشب تئز فى

المدفأة، وترسل سحائب الدخان فى الغرفة . . وترنم الطفل ذو السنتين وهو يلعب مع القط الموخط سوادا وبياضا على أرض الغرفة، بما فيها من بلل وطين.

ووقف ميليتت هيروفيمو قرب السرير الخشبي، وقد شبك يديه أمامه، وانحنى فوق المرأة المريضة . وعيناه حزينتان مفعمتان بالعطف . . وكان خداه الغائران الصفراوان يرتشعان ، وهو يشعر بمعدته تتلوى من الجوع بحيث خشى أن يبلغ الصوت مسامعها .. قال بعد وهلة : « أتشعرين بألم شديد ؟ » .

واسترخت أساريرها لحظة ، كأنما صوته قد جلب لها الراحة ، وأجابت بابتسامة باهتة : « أنا لا أشعر بألم ولكن .. آه يارب ! ! » .

وانتفضت وارتعدت كحيوان جريح .

وبعد عدة دقائق اندفعت ابنتها ذات السنوات الخمس وهى مربدة الوجه ، وأخذت تشكو على عتبة الباب : « أبتاه ، بافالوك — قال لى .. وأنا قلت .. وهو قال ... »

« عودى إلى الأطفال يالينوتا ، والعبي معهم .. هيا أمك مريضة و ... »

ولم تنتظر الطفلة لتسمع النهاية ، بل خرجت راضية ، وأخذت تصيح من المدخل : « يابابافالوك ، بابا قال إن .. »

* * *

هرع ليونتى بومبو إلى زوجه بالخبر الذى نمى إليه من بعض الناس الذين كانوا فى طريقهم إلى موزاسيني فى عربة .. قال إنهم التقوا ، على مدى من وادى تيلورمان ، بجماعات من الفلاحين ، كانوا ينطلقون من قرية إلى قرية ، ويطردون أصحاب الأرض ، ويصادرون ضياعهم ، ويشعلون النار فى بيوتهم حتى يضمنوا أن يذهبوا بغير رجعة ..

وكان المشرف أشد جزعا من الشريف نفسه، خشية أن يثور الفلاحون؛ رغم أنه ، فيما قال لزوجه ، لم يضطهد أحداً ، بل قدم المعونة حيثما استطاع ، ولهذا لم

يكن ثمة مايدعو للخوف . واستطرد معذلك، فقال: إنالفلاحين ، عندما يفقدون صوابهم ، لا يأخذون أياً من هذه الاعتبارات فى الحسبان .. وكان للرجل - فئة من الأصدقاء الذين كانوا يسرون إليه بما يحدث فى القرية ، وكانوا يطمئنونه دائما بأن كل واحد يحبه حبه لأخيه ؛ ولكنه كان رغم ذلك لايثق ثقة كبيرة فى أقوالهم ؛ فهو يعلم كنه التأكيدات التى أفضى بها هو نفسه إلى الشيخ ميرون ، وكم فيها من صدق .

والحق أنه ماكان بحاجة إلى من يدله على وجود هياج بين الفلاحين ، وعلى أنهم يدبرون أمراً ، وإن كانوا لم يدركوا كنهه على وجه التحديد . . . وهم إذا اكتشفوا الساعة ما كان يحدث فى الأماكن الأخرى ، فلن يكون من العجب إذا هبوا هنا أيضا ، وأخذوا يقترفون الجرائم ... وهم ، بعد ، يشعرون بمرارة بالغة ؛ وقد ينتظر منهم أى شىء ، كائنا ما كان .. وبينما زوجه تهدئ من روعه قائلة : إن الله العادل الرحيم موجود ، وإنه هو الذى يتولى حمايتهما ، وإذا بخادم الدائرة يدخل ، ويعلن فى لهفة : إن الشريف يريده فى التو واللحظة .

وتساءل ميرون : « قل لى ، ماذا يعمل الآن رجالنا الذين يشتغلون هنا عادة ؟ .. هل ننتظر مجىء الثورة أيضا ، كما فعل البؤساء الآخرون ؟ .. إننا لانملك شيئا حيال هؤلاء المساكين ؛ لقد فتنتهم اضطرابات الغوغاء ، ولا مناص لنا من الانتظار ريثما يثوبون إلى رشدهم .. على أننا ما زلنا نملك زمام أنفسنا ياليونتى ! .. ولابد أن نهتم بأمورنا ياليونتى ! .. وإذا كنا لانستطيع أن نبدأ العمل فى الحقول ، فنحن نستطيع على الأقل أن نعمل فى الحديقة . لقد أقبل الربيع ، ومن العار أن يجدنا على هذه الحال ! ».

قال المشرف ، كأنه جندى أمام قائد برتبة فريق : « سمعا وطاعة ياسيدى ! »

« ويجب ألا ننسى أن السيدة نادبنا هنا ، وأن رئيس الشرطة قادم بعد الظهر و .... »

* * *

سأل سيرافيم موجوس عندما خرج إلى الطريق : « أين كنت ياتودر ؟ » .
فأجاب تودر ستريمبو متمهلا : لم أذهب إلى أبعد من فايدى ... ذهبت لرؤية صهرى ! » .

وتصدثا فى الجو والأرض وفيا يعانيان من فقر ... قال تودر إنه قد سمع فى فايدى أن الناس فى الأماكن الأخرى قد نهبوا كل ماوقعت عليه أيديهم ، وأنهم طردوا الملاك ، وأن كل واحد قد أخذ ما كان فى حاجة إليه من الأرض .

وتأوه تودر ستريمبو حسرة وقال: « الظاهر أن الثورة لن تأتى هنا إطلاقا ؛ ولو جاءت لأمكننى أن أحصل على قليل من ذرة الملاك أطعم بها عيالى ... ما أقسى هذا الشتاء الذى مررنا به ! » .

قال سيرافيم موجوس وهو يكز بأسنانه ، وقد اربد وجهه كأنما قد امتلأت شرايينه سما زعافا : « أنا من ناحيتى لا أتمنى إلا أن أصفع هذا الرقيب ، وأهشم رأسه تهشيا يعلق بذا كرته حتى وهو فى قبره ! .. هذه أمنيتى ياتودر — ثم ليقطعوا رأسى بعدها لو شاءوا ! » .

* * *

كانت أحسن عربة ، بأحسن جياد ، تقف فى الانتظار ساعة عند أسفل الدرج ، وقد حلت بكل أنواع اللفافات ؛ ومع ذلك فقد أبى قلب كوزما بيريونا أن يطاوعه على الرحيل .. وأخذ خادمان والخفير ميترو تو يتململون حول العربة ويرتبون وينظمون .

وظهر الملتزم أخيرا فى صحبة زوجه وعياله ، وقد حمل كل منهم صندوقا أو طردا صغيرا .. وسار وراءهم لازار أودولو ، وهو الخادم الذى كان موضع سر كوزما ، وكان عارى الرأس ، يصغى باحترام إلى التعليمات التى انهالت عليه . أما السيدة بيريونا وعيالها فقد نظموا أنفسهم فى العربة بين الأمتعة .. واستطرد الملتزم يخاطب لازار قائلا : « أرجو أن تكون قد فهمت كل شىء يالازار .. اعتن بكل شىء ، ولا تترك البيت دون حراسة ، فتذهب إلى الحان ، أو يلهيك أى أمر آخر ! » .

واعترض أودولو قائلا : « لا تقل هذا ياسيدى ! .. فأنت تعرفنى خيراً من ذلك ! ».

وعاد كوزما بيريونا يؤكد عليه ، وهو يصعد إلى جوار السائق : « لابأس ، لا بأس ... ولكن يجب أن تهتم كل الاهتمام بالازار ! »

« سمعا وطاعة ياسيدى ! ... » قالها وهو ينحنى ، ولكنه استطرد بعد لحظة ، فى شىء من الحيرة قائلا: « اغفر لى ياسيدى هذا السؤال ، ولكن من واجبى أن أعرف ... ترى هل ستعودون ؟ ».

فصاح الملتزم : « ماذا تقول يالازار ؟ .. ماذا تقصد بهذا السؤال ؟ .. لم لانعود ؟ .. كلام فارغ ! .. هل تظن أننى أترك ممتلكاتى هكذا ببساطة ؟ .. أهناك سبب يدعونى لهذا ؟ ما الذى دفعك إلى هذا القول يالازار ؟ .. لا يابنى ، ألم أقل لك إننا سنرجع الليلة ؟ .. أم ترانى غفلت عن إخبارك ...؟ نعم سنرجع الليلة ، إن شاء الله ! .. نحن ذاهبون فقط إلى كوستستى ، لنشترى بعض حاجيات الأطفال ، فقد أقبل الصيف ... أما بيتستى فهى بعيدة جداً ... أرجو أن تسير الأمور على مايرام ، وداعا يالازار .. هيا أيها السائق ! ».

وأطلق السائق العنان للخيل ، وتحركت العربة ، ومالت إلى اليمين خلال البوابة .. فلما اختفت قال أحد الخدم ضاحكا : « إلى حيث ألقت ! .. هكذا يذهب واحد منهم ، وإن احتمال عودته كاحتمال بقائى هنا ! ».

وغمغم يعقوب ميتروتو بقوله : « إنه ينتظر أمراً منى ليعود ! ».

« كفى لغوا ياأولاد ! » قالها لازار أودولو بطريقة آلية ، ولكن بغير اقتناع كبير ».

* * *

قال لوبو شيريتو عندما دخل لوكا تالابا داره : « أية ريح ألقت بك هنا يالوكا ؟ .. اتخذ لك مقعدا ... هات له كرسيا أيتها العجوز ، ولا تهتاجى هكذا ، فهو لم يأت سعيا وراء عروس ! ».

قال لوكا : « لاتشكلى خاطرك يا أم براشيفا ، فقد تعبت من الجلوس ». ولكنه مع ذلك جلس .

وكان قد جاء ليحادث العم لوبو فى شأن باباروجا التى جعلت النوم يطير من أجفانه حتى الآن ، حين كان الأمر أمر شرائها بأمانة ، وهو ما كان يذهلنى ، فقد بذل كل ما فى وسعه ، وكد وكافح وطرق كل سبيل .. بل هو الآن يرفض أن يسقط الأمر من حسابه ، ولكنه سمع الناس يقولون : إنهم سيستولون على الأرض غصبا ، دون عقود ، وإن كل واحد سيأخذ ما يقدر عليه .

« أقولها لك كلمة صريحة ، أنا لم أتدخل أبداً فى هذه الأمور حتى الآن ياعم لوبو ، وأنا غير ميال إليها .. والآن يأتى الناس لإغرائى ، الواحد تلو الآخر ، فيقولون : إنه يجب ألا ندع الأمور تهدأ وتستكين ؛ وإننا إذا بدأناها ثورة ، فيجب أن نمضى فيها إلى النهاية .. قلت لهم : « حسن ، لقد بدأنا الثورة ، ولكنكم لم تثبتوا على رأى » . قالوا : « نعم هذا صحيح ، ولكن جاء دورنا الآن ، ومن العدل والحق أن تكون الضياع كلها لنا » . أنا أرى هذا كله ، ولكنهم مع ذلك لايتركوننى فى سلام ، بل يدفعون بى إلى الجنون ! » .

قال لوبو الشيخ دفاعا عن نفسه : « أنا أقول لكل واحد إننى لا أقحم نفسى فى شئون الغير ، ولا أتدخل فيما لا يعنينى .. لقد شهد شعرى الأبيض هذه الأشياء من قبل . . والأمر هو كما كان ، مع شىء من التغيير هنا أو هناك ، ثم جاء الفيضان ! .. لا لا ... لن ينجم عن هذا خير يالوكا ! » .

* * *

كانت الخادم فى غرفة المائدة بفلادوتا ، تعد المائدة لشخص واحد لأول مرة .. بالأمس رحلت الفتيات إلى المدينة ، وعاد العقيد إلى البيت فى وقت متأخر .. ووضعت الأطباق ولا حيث تعود الضابط أن يجلس ، ولكن المائدة بدت عارية تماما .. لهذا نثرت الأطباق حول المائدة ، وهى تتوقف كل مرة ، حتى عادت إلى وضعها الأول مرة أخرى .

وغمغمت الفتاة فى استسلام ، ولكن عن غير رضى : « سيان عندى أعجبته

المائدة أم لم تعجبه !! » ورنت ببصرها ناحية الشباك الكبير المطل على الفناء ، حيث كان العقيد ستيفانسكو يحادث الفلاحين بغير ما طائل .

وكان الملتزم الشيخ الذى سبق له العمل بالجيش يبدو أكثر جسارة وأشد حيوية عن ذى قبل .. فهو ، قبل البارحة ، فى لحظة تجل ، تذكر فجأة الضابط تاسيسكو ، الذى سبق أن نال ترقية فى نفس الوقت معه ، كما عمل فى نفس كتيبته سنوات ، حينما كانا برتبة نقيب فى سيفران . وكانت زوجه ، رحمة الله عليها ، على صداقة حميمة بالسيدة تاسيسكو . . ولما كان الضابط وزوجه قد انتقلا منذ قريب إلى بيتستى ، ثم هما لم ينجبا أطفالا ، فقد كان فى مقدوره أن يذهب بالفتيات الثلاث إلى هناك حتى يزول كل خطر .. ولم يكلف العقيد نفسه حتى مشقة الكتابة فى هذا الأمر ، بل انطلق صباح الأمس ، ومعه الفتيات وكل مايتزود به ، ثم عاد وحده سعيدا بعد أن تخلص من أكبر متاعبه .. كان فى مقدوره الآن أن يخاطب الفلاحين وهو هادىء البال ، بل وأن يهزل معهم ويغيظهم : « أنتم الآن كالأعيان وأكثر .. لم يعد العمل يناسبكم ! .. طبعا من السهل على المرء أن يجلس والغليون فى فمه ، فيلعن الأشراف ، ويهيج الثورة ، هـــذا كله أسهل من عزق الأرض وفلاحتها .. ما قولك فى هذا يا ستيفان ؟! » .

قال ستيفان مبتسما : « لا بأس من المحاولة ياسيدى العقيد ! » .

وتدخل صوت عميق النبرات : « لقد رأينا كيف سارت الأمور ، وكانت كلها سوءا فى سوء .. أما الآن فستجرب طريقة أخرى ، وسنرى . »

قال العقيد : « سترون الجحيم يا فتيان . »

وانقضت دقيقتان وهم ينتقلون من موضوع إلى موضوع ، وإذا باستيفان يتساءل بابتسامته المعهودة : « بخصوص الفتيات الصغيرات ، هل أخذتهن إلى المدينة يا سيادة العقيد ؟ » .

فأجاب العقيد ضاحكا : « أراك تفضل أن يكن هنا ، أليس كذلك ؟ . أنا أعلم أنكم أوغاد سفلة . »

« تعال يا سيادة العقيد . »

« بل أنت كذلك يا ستيفان ! . . ألم أعمل أنا مع أمثالكم فى الجيش ؟ . . أنا أعرفكم ظهرا لبطن . . ولكن ماذا تستطيعون أنتم حيالى ؟ أتقتلوننى ؟ . . أتظنون أننى أخشى الموت ؟ أنا ، ضابط الجيش ! . أم تراكم تريدون نهبى ؟ . . فى وسعكم هذا لو شئتم . إن كل ما أملكه وضعته فى هذا المكان ، واقتسمته معكم . . لا شىء يهم يا فتيان ، والله موجود وهو مطلع على كل شىء ! أنا لم أضربكم ولم أغشكم ، ولم أكن ظالما معكم بل ساعدتكم ، ودافعت عنكم ، وقمت بإرشادكم ، والآن تأتون وتريدون إيذائى ! . . هل هذا عدل ؟ » .

ونظر العقيد إلى كل فلاح بدوره ، كأنما كان يتوقع كلمة ، أية كلمة ، من الاعتراض أو التأييد . . ولزم القوم الصمت . . وأخيرا غمغم ستيفان ، وكان أكثرهم صراحة : « إذن ! »

وضاع صوته فى الهواء ، كفقاعة من صابون .

* * *

قالت سماراندا شاكية : « ما خطبك يا عزيزى بيتر ؟ . . لماذا تكون فى شدة القلق ؟ ولم لا تبقى فى البيت كالناس العقلاء ؟ » .

فقال بيتر بصوت أجش : « هأنذا هنا يا أمى ! »

« نعم ، أنت هنا ، ولكنك ضجر تتململ طوال الوقت . . والله إنى لأخشى أن يمسك أذى لو ظللت تتدخل فى كل شىء ، بدلا من أن تهتم بشئونك . »

قال الشاب : « أنا لا أتدخل فيما لا يعنينى يا أمى ، وليس هناك أى سبب يدعونى لذلك ! . . ولكن إذا كان الناس يطلبوننى ، فلابد لى من الذهاب إليهم ومن العار على ألا ألبى نداءهم ! » .

« ليس هذا عارا على الإطلاق يا حبيبى ! . . أنا أرملة ، وإخوتك عيال صغار — وأنت أملى وملاذى الوحيد . . لقد أخذوك منى فى الجيش زمنا طويلا ، وكان لابد لى من أن أكافح وحدى . »

« الناس يقولون إنهم سيستدعوننا إلى الجيش مرة أخرى لأن . . . »

صاحت المرأة وهي تستعيذ من الشيطان هلعا : « رعانا الله ، ونجانا من هذا يا بني ! » .

قال بيتر : « ولكن الأمر لم يصل إلى هذه الأنحاء بعد ، وإلا لكان العمدة قد قال لنا !.. ليكن ما يكون يا أماه ، ولا تجزعي لغير ما سبب ! » .

ثم أضاف بغلظة ، بعد وهلة ، كأنما كان يلمس الموضوع الذي يمس شغاف قلبه . ليت السيدة ترحل عن هنا.. إنها تأتي بالشر كله معها ، لست أدري كيف.. ليتها فقط تنصرف عنا ، بدلا من أن تسمم الجو بوجودها . »

واستشاطت سمارانداً غضبا فجأة وقالت « لتذهب السيدة إلى الجحيم — وليأخذ الشيطان هذه المرأة المأفونة . »

* * *

دخل العمدة برافيلا إلى الخان ، وهو يفرك يديه في بشاشة ، وقال « أأنت وحدك يا كريستي ؟ . . أنا أفضل أن يكون الخان هكذا !. آتني بكأس سراعا — فأنا على عجل من أمري ! . . إن بين يدي أمورا كثيرة ، ولست أدري أين أنا منها ! » .

وسأل بوزول وهو يعد الشراب : « هل سيحضر الوالي ؟ » .

قال العمدة وهو يأتي على الشراب جرعة واحدة : « أتى الله به على وجه السرعة ، ليهدئ من ثائرة الناس ! » .

فغمغم صاحب الخان آسفا بقوله « الظاهر أنهم يركنون إلى الهدوء الآن فيبقون في بيوتهم . . لم يحضر أحد إلى هنا غير سبيريدون ، وقد طردته منذ برهة خلت .

قال العمدة مغتما : « الحق ، لو علمت ، أن هذا الصمت ليس بالعلامة الطيبة فالكلاب حين يهم بالانقضاض ، يتوقف عن النباح » .

« هل تراءى إليك شيء ؟ » .

« أنا لست بحاجة إلى من يقول لى ـ فالناس لا يفبسون بشىء حين يدبرون أمرا بليل !... ثم هل يعلم أحد شيئاً ؟.. إن الواحد منهم يتحرك يا كريستى، ثم يتبعه الآخرون كالأغنام » .

« هذه أوقات عصيبة يا سيادة العمدة ! » .

« هكذا الحال .. وليته لا يزداد سوءا ! » .

وعاد وتذكر أنه كان على عجل من أمره . فذهب إلى الباب ، وصاح بلهجة آمرة غير لهجته الأولى : « احرص يا كريستى على أن يكون الخان مرتبا منظما .. من يدرى فربما قدم الوالى وقام بتفتيشها ! .. خير لك أن تكون على استعداد ! » .

« دعه يأتى !... ولكنى لا أظن أن من المحتمل أن يهتم أحد بتفتيش الخانات فى الوقت الحاضر ! .. هناك أمور أهم من ذلك بكثير !.. » .

— ٣ —

فى صباح الأربعاء ، وصل تيتو هيرديليا إلى « درابلول » مبكرا جدا ، وكى ينبىء روزو بخبر ثورة جنود الجيش ، وقتلهم بعض الضباط ، وبخاصة لأن جريدة « ديمينيتيا » لم تنشر شيئا عنه .

قال السكرتير متعاليا : « نعم ، علمت به .. بل أنا أعلم أشياء أخرى أكثر غرابة منه .. ولقد حاولت صحيفة ديمينيتيا أن تنشر هذا الخبر ولكن قيل للمحررين إنهم لو نشروه ، فسيصادر العدد كله ، ولهذا عدلوا عن النشر .. طبعا يابنى ، أنا علمت ، ولست أدرى كيف جال بخاطرك أننى لا أعلم به ؟ » .

ونهض من وراء مكتبه الذى فرش بالصحف ، وأخذ تيتو بيده كأنه تلميذ صغير ، وقاده إلى خريطة رومانيا التى كانت مثبتة على الحائط .

ومضى كأنه معلم ، وجرى بسبابته على تعاريج الحدود ، وقال : « أرأيت حدوة الحصان هذه يا بنى ؟.. أتراها ؟.. أتذكر ما قلته لك قبل نحو عشرة أيام حين كنا نتحدث عن قلاقل الفلاحين ؟ . ألم أكن على صواب ؟ .. انظر ،

لقد بدأوا من هذا الركن ، ناحية بوكوفينا ، عندما ثاروا ضد اليهود ، وامتدت الثورة واندلعت ، بدأت بالمناداة . « يسقط اليهود » و « يسقط أصحاب الشوارب الجانبية » . . هل تذكر أنك ، أنت أيضا ، ظننت أن الأمر كله لا يعدو غير حفنة من أصحاب الشوارب الجانبية من اليهود ؟.. والآن انظر لقد امتدت الثورة إلى تيلورمان هناك . . انظر ! . . وأخذ اللهب ينتشر شيئا فشيئاً . . . وأنا أؤكد لك أنهم فى غضون ثلاثة أيام أو أربعة سيصلون إلى سيفران ، أعنى على طول حدوة الحصان كلها . . والآن نجد السادة الحكام فى رعب من الهتافات التى تنادى بسقوط اليهود ، ويحسون بها تلسع جلودهم ، لأن الفلاح لا يميز بين اليهودى والمسيحى ؛ بعد أن هب ينشد العدالة . . ثم إن القلاقل أخطر ما تكون حيث لا يوجد يهود . . فنى مولدافيا لم تقع حادثة قتل أو سفك دماء ، أما فى هذه الأنحاء فقد ذبح الفلاحون الثائرون نفرا من ملاك الأرض والملتزمين . » .

وأخذ يجلسه على مكتبه مرة أخرى .. ولم يكن فى وسع العين أن ترى غير رأسه ، ونظارته وهى تبرق بريقا رهيبا .. وأصغى تيتو إلى روزو فى هلع ، وبخاصة عندما ذكر تيلورمان .. معنى هذا أن آمارا أيضا كانت فى خطر؟ وكذلك كانت ناديا التى حدثه جوجو أيو نيسكو بشأنها الليلة الفائتة .

قال بغتة : « قل لى ياسيد روزو ، هل جاءت أخبار خطيرة من أرجس » ؟ .

أجاب السكرتير : « ليس بعد ، ولكن من الصعب على أرجس أن تنجو من الطوفان إذا كان قد امتد إلى تيلورمان التى تجاورها .. ولكن لماذا هذا السؤال؟ أمن أجل صديقك ؟ .. هو والحق يقال فى خطر شديد ، وإن كان المرء لا يستطيع أن يتنبأ بشىء .. الأمر رهن بنزوات القدر .. على أية حال ، إن كنت أنت مهتما بالموضوع ، فسأدلك على مصدر موثوق به ، — اذهب إلى مودرينو ، وهو مدير بوزارة الداخلية ، وقل له إننى أرسلتك مندوبا عن الجريدة .. إن الأخبار ، أعنى الأخبار الرسمية ، تذهب كلها هناك الآن ... وهو يتولى مهمة خاصة هناك .. وإنه لشاب مهذب رقيق الحاشية ، ولكنه يحب التظاهر ، وأنا أقول لك هذا حتى تتمكن من معاملته » .

وشعر تيتو بالامتنان ، وشكره على صنيعه .. لقد سره خاصة أن تتاح له القدرة على معاونة جريجور أيوجا، فهو قد رحب به ترحيبا حارا عندما التقيا أول مرة ... وقد عامله معاملة الصديق منذ ذلك الحين ، وكذلك جوجو أيونيسكو ، فالمسكين في قلق شديد بخصوص نادينا .

وانفتح الباب فجأة ، وظهرت رأس ديليكينو فى فرجته وقال« أوردت أخبار أخرى ياروزو ؟ » .

فأجاب السكرتير دون أن يرفع أنفه عن كوم الصحف : « لم يرد شيء، وربما ترد فيما بعد قبيل الظهر .. وسأنبئك هاتفيا . »

فلما أغلق الباب، تساءل تيتو فى دهشة: « أهو قدحضر فى هذا الوقت المبكر؟ » .

قال روزو ساخرا : « بل هو قد حضر قبلى يا بنى ، نحن فى حالة انهيار ! .

قال هيرديليا : « أتقصد الحكومة ؟ » .

أجاب روزو محتدا كعادته : « الحكومة والناس جميعا ... لن يمضى وقت طويل إلا ويحل بنا الخراب جميعا ! » .

قال الشاب ، وهو يبتسم فى سذاجة : « نحن على الأقل سوف نتمكن من العمل فى حرية أكثر ونحن فى صفوف المعارضة ! » .

« لا تفرح كثيرا لانضمامك إلى المعارضة ياصديق ، فهذا أمر محفوف بالخطر بالنسبة إلينا . . . » قالها السكرتيروهو يمسح نظارته مهتاجا.. وبدا وجهه، بدونها كليلا عابسا ، ثم قال : « ألم تلحظ هذا الجيش العرمرم من المحررين ومساعدى المحررين والمخبرين الذين جاءوا اليوم ، إنهم جميعا من الانتهازيين .. وأنا غدا ، ربما أجد نفسى وحيدا إلا من هذا المقص — هذا إذا لم يلق بى إلى عرض الطريق كذلك .. تلك نتيجة العمل فى صحيفة حزبية ياصديق الشاب .. فطالما أن الحزب يتولى مقاليد الحكم ، فالفرصة يغتنمها كل من قدر عليها .. ثم بعدئذ .. ولكن لا خوف عليك ... واستطرد قائلا بعد أن لبس نظارته ، ورأى ما اعتلى وجه تيتو من شحوب ؛ أنت ما زلت فى أمان لبضعة شهور ، وهذا يتيح الفسحة من الوقت لتدبر شئونك » .

وأخذ القوم يفدون الآن إلى سكرتارية التحرير .. كان كل وافد جديد يأتى بخبر جديد ؛ وكان كل خبر أسوأ من سابقه ، قيل إن الثورة قد امتدت إلى هذه المقاطعة أو تلك ؛ وإن الفلاحين فى هذا الإقليم أو ذاك قد فتكوا بعدد عديد من الملتزمين وكبار ملاك الأرض ، وقيل إن الجيش قد اشتبك مع الفلاحين الثائرين فى هذه القرية أو تلك ، وإن هناك مئات من القتلى والجرحى من الفريقين ، وقيل إن أهل القرى فى بعض الأنحاء الأخرى أقصوا فرق الجيش بإلقاء الأحجار عليها ! وإن كثيرا من الولايات قد أصبحت معزولة لأن أسلاك البرق قد انتزعت كلها ؛ وقيل إن الفلاحين الثائرين قد أمسكوا بسيدة من الملاك ، فحسروا عنها ثيابها ، وطوفوا بها فى عدة قرى ، وقيل إن وزيرا كان غبيا لأنه أرسل قوات من الجيش إلى نفس الولاية التى جندوا منها ، الأمر الذى جعلهم يطلقون النيران على آبائهم وإخوتهم — وحدث أن أصاب جندى أباه بين الفلاحين الثائرين ، فلما طلب إلى رئيسه أن يأذن له بدفنه ، منحه نوطا مكافأة له ، كما أشاد به فى يوميات الجيش ؛ وقيل إن الحرس الوطنى قد أنشىء فى بعض المدن دفاعا ضد هجمات النهب التى قام بها الفلاحون المخابيل ؛ وإنه ليلة الأمس ، قرب مشارف مقاطعة إيلفوف لم تتمكن داورية من المشاة إلا بشق النفس من تشتيت جماعة قوامها بضعة آلاف من الفلاحين كانوا فى طريقهم إلى بوخارست .

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة دخل عليهم الصحفى البدين ذو المعطف المصنوع من الفرو و « الكاكيولا » التى من الجلد ، وكانت عليه سيماء الجد كأنه وزير دولة ، وكان يتفصد عرقا أكثر مما تعود ، فقد كانت الشمس طالعة بالخارج ومد يده يصافح نفرا منهم فى سأم ، وغمغم بالفرنسية : « صباح الخير » ثم غرق فى كرسى قرب روزو .. وهبط الوجل عليهم شأن من فى جعبته معلومات من مصادر عليا ، فسكتت الألسنة المهتاجة ولحظ تيتو أنه قد لزم الصمت حتى الانتباه إلى شخصه ، فسأله ساخرا ، ولكن بفضول : « أجئت بشىء يا أنتيميو ؟ » .

فهتف الصحفى فى شجن : « شىء هام جداً يا عم روزو . . . ومن أسف أنه ليس فى صالحنا ، رغم أنه يمسنا جداً ، إذ إن مصيرنا معلق عليه » .

فقاطعه السكرتير وقد نفد صبره : « هات ما عندك ، واعفنا من هـــذه المقدمة ! » .

قال الصحفى وهو يصب مسحة من الحزن فى صوته : « لقد سقطت الحكومة.. هناك حكومة ستشكل مساء الغد على أكثر تقدير ! » .

ومضى يقص على من أرادوا مزيداً من التفاصيل، فقال « إن رئيس الوزراء قد شرف بمقابلة الملك ، وأخبره أن اضطرابات الفلاحين قد تجاوزت المدى ، وأن الأمر يتطلب حملات تأديبية رادعة .. وضرب له الشواهد على أن الجيش لم يعد فى وضع يجعلهم يعتمدون عليه اعتماداً تاما فى هذه المهمة الخطيرة ؛ وطلب إلى الملك أن يوجه نداء يطلب فيه معونة من جيوش النمسا ، فهذا هو الحل الوحيد، وإلا فالبلد مهددة بالخراب التام .. ولكن الملك رفض رفضا قاطعا أن يطلب تدخل القوات الأجنبية لتهدئة القلاقل المحلية الصرفة ؛ وطلب إلى رئيس الوزراء أن يلتمس حلا أليق بظروف الحال ، وأخلق بما للبلاد من اعتبار . فلما لم يكن فى جعبة رئيس الوزراء هذا الحل ، ونظرا لضغط المعارضة ، وكانت حتى فى هذا الموقف تأبى أن تقدم عونها ، فقد اضطر أن يقدم استقالة الحكومة .. ولقد قبلت الاستقالة من حيث المبدأ ، ولكن اتفق على عدم إعلانها حتى يجدوا خلفا له ، وذلك تحاشيا لازدياد الاضطرابات، وكان لا مناص من أن تتعاون الحكومة الجديدة مع البرلمان القائم ، لأنها مضطرة إلى إصدار قوانين جديدة ؛ وهو موقف يعطى مظهر « الجبهة الوطنية » معالجة للموقف الخطير ، وتيسيرا لاتخاذ تدابير صارمة .. ولهذا وجب على زعيم الحزب ورئيس الحكومة أن يشاور زملاءه ، ثم بعد ذلك يأتى ويخطر الملك برأيه .. على أن هذه كلها ليست إلا مجرد شكليات سرعان ما توضع موضع التنفيذ » .

وعقب روزو بابتسامة مريرة : « ها قد عدنا إلى المعارضة ! .. هل عرف ديليكينو بهذا ياترى ؟ .. »

ودخل مكتب رئيس التحرير ، وبعد برهة ظهر ديليكينو فى فتحة الباب وهو ممتقع الوجه ، وقال : « ما هذا الذى تقوله يا أنتيميو ؟ تعال هنا ! » .

ودلف الصحفى إلى مكتب رئيس التحرير ، وقال فى نفس السجن « خرجنا من الحكم يا سيدى ! » ..

وانصرف تيتو هيرديليا خلسة ، فقد هزته عبارة روزو فى الصميم .. ها هو

ذا ريشة تتقاذفها الرياح، وهو الذى ظن أنه لو عمل بجد وضمير لضمن لنفسه عيشا رغدا . لابد له أن يستجلى الأمر مع روزو ، حتى لايجد نفسه طريدا فى الشارع.

ولكنه لم يشأ أن يكدر نفسه بنذر السوء فى الوقت الحاضر ... كفى بالمتاعب حين تأتى ، ولا موجب لأن يعذب نفسه بترقبها .. ولما كان وقت الغداء قد حل ، فقد مضى يلتمس مودرينو فى وزارة الداخلية .. وهناك اضطر أن ينتظر مع غيره من الصحفيين الذين جاءوا يسعون وراء الأخبار . . وكان مودرينو فى اجتماع مع الوزير ، والراجح أنه كان يطلعه على التقارير والبرقيات التى وصلت فى أثناء الليل وصباح اليوم . . ووصل الرجل أخيراً ، فى بشر وأنس ولطف ، يتقطر حلاوة كحسناء تأخرت عن موعد غرام .

« معذرة سادتى الأعزاء .. إنه السيد الوزير ! . . أوقات صعبة أيها السادة ، لحظة واحدة من فضلكم حتى أنتهى من هذا الملف ، وأنا رهن إشارتكم بعدئذ ،

وضغط على جرس ، فدخل كاتب عتيق بائس المنظر ، فأخذ (الملف) ،وأغلق عليه الخزانة ، ثم أعطاه المفتاح . . وتقدم مودرينو إلى لفيف الصحفيين ، وأخبرهم ببعض الأنباء التى كانوا يعرفونها من قبل ، ثم أبلغهم ، ترضية لهم ، أنه سيدلى فى الخامسة بعد الظهر بما يرد إليه من أخبار فى غضون هذه الفترة ، حتى قبل أن يرفعها إلى الوزير .

وانصرف الصحفيون بهذا الضجيج المعتاد . . وتخلف تيتو هيرديليا وحده فعرفه بنفسه ، وطلب إليه ماعنده من بيانات عن أرجس قائلا: إنه يستفسر نيابة عن جريجور أيوجا . .

هتف مودرينو وهو يصلح من ربطة عنقه : « آه ، السيد أيوجا ! . . . أعتقد أننى قد شرفت بلقائه فى القطار مرة . . بكل سرور ياسيد هيرديليا . . تعال فى أى وقت تشاء ، وسأكون طوع أمرك . . ولكن فى مقدورك أن تبلغ صديقك أن كل شىء هادئ حتى الآن فى أرجس . . »

وهبط تيتو هيرديليا الدرج راضيا مغتبطا كأنما قد سمع خبرا حافلا بالإثارة وغمغم لنفسه : « لابد لى أن أعمل كل ما فى طوقى لأبرهن لهم على عرفانى الجميل من يدرى ماذا يأتى به الغد . ؟ »

— ٤ —

كانت ساحة ديوان القرية والطريق الممتد أمامها غاصين بالفلاحين الذين وقفوا ينتظرون زهاء الساعة الآن ، ومع ذلك قالوا لى لم يأت بعد . . وكان العمدة برافيلا ، فى حمى من الحماس ، قد دفع بكل إنسان هناك كأنما قد شب حريق . . وكان ينقل الكلام من هذا ، ويدفعه إلى ذاك ، ملتمسا الأعذار بلهجة ودية : « لاخير يا أبنائى ، فنحن الذين نكون فى انتظار الوالى ، وليس هو الذى ينتظرنا هكذا الذوق ! » .

وتلبث الفلاحون بصبرهم المألوف ، فليس للوقت ثمن عندهم ، اللهم إلا فى أثناء موسم العمل فى الأرض . . وإذ هم فى الانتظار ، انطلقت الألسنة من عقالها حتى كلت . . فمن قائل إن الوالى قد حضر ليوزع الأرض ، فهذا ماقد حدث فى إحدى الولايات ، ومن ثم هدأ الناس هناك ، واستأنفوا أعمالهم . . وتحدث آخرون فى نفس الوقت عما قام به الفلاحون فى تيلورمان ، وكيف انفجروا ثائرين ، من أصغرهم إلى أكبرهم ، فطردوا ملاك الأرض ، وأصبحوا هم سادة كل شىء .

هتف صوت تعس : « هؤلاء نوع آخر من الناس ، وليسوا مثلنا . . إنهم يملكون أرضا هناك ، ولم يحضهم الفقر بنابه مثلنا هنا ! » .

« ولكن الحظ يواتى الشجعان ، لا العاجزين الذين تنخلع قلوبهم رعباً ! » .

« أظن ان ما يجرى فى عروقنا ماء لا دماء » .

« كفى . كفى يا فتيان ! » .

وكان الرقيب بونجيو قد اتخذ حيطته ، فوضع شرطيا فى مفترق الطريق أمام حان بوزوك ، وأمره بأن يأتى على وجه السرعة حين مقدم السادة الأشراف ، وكان الآن واقفا فى عرض الطريق ، وعيناه شاخصتان فى الاتجاه الذى توقع أن يهبطوا منه . . كان يتبادل الحديث مع الفلاحين حواليه ، ويطلق بعض النكات التى كان القوم يتلقونها بطبيعة الحال بما يليق من احتفال . . والواقع أن أحد الفلاحين أجاز لنفسه أن يسأل فى جد : « إنى لأتساءل يا سيد بونجيو عما إذا كانوا

سيعطونا قطعة من الأرض ؟ أنت تعرف على وجه اليقين.. واقه كم يكون جميلا منهم لو فعلوا ذلك يا سيد بونجيو ؟ » .

فأجاب بونجيو . « أتظننى يا أخ فى غير حاجة إلى أن آخذ قطعة منها لنفسى؟ ها . . أتظن أننى أملك الضياع مثل الشريف ميرون ؟ . . أنا لا أملك غير سيفى وسلاحى ، ومرتبى المتواضع ! » .

« بالإضافة إلى ما تلتقطه إلى جانب ذلك يا سيد بونجيو ! » قالها أحدهم متفكها ! .

وضحك الفلاحون ، فاستشاط الرقيب غضبا ، وقال :

« ألستم حلاليف أجلافا ؟.. من هذا الذى قالها — بودى أن أعرفه ! . . هكذا أنتم جميعا ، لا حياء عندكم ولا أدب ، ثم بعدئذ تشكون حين ينزل بكم ما تستحقون ! . تعال يا هذا ! » .

« دعه وشأنه ياسيد بونجيو.فقد كان يهزل كالمأفون ! » .

« لهذا أنا أريده ، فأنا أريد أن أقول له نكتة ! » .

وإذا بالشرطى يصل فى هذه اللحظة ، ويعلن لاهثا أن السادة قد مالوا إلى بيت الشريف ميرون أيوجا .. وهاج الفلاحون وماجوا .. وجاء العمدة يستطلع ماقاله الرسول ، ورأى أن من واجبه أن يوضح لهم أن الوالى لا يمكن أن يمر ببيت الشريف الشيخ دون أن يعرج على بيته ، فهما صديقان من قديم .. على أن هذا لم يخفف من الهرج والمرج ، بل زاد من الهياج العام . . ترى ماذا كان الوالى والشريف ميرون يدبران الآن معا ؟ .

وظهرت عربة الوالى الكبيرة الثقيلة بعد ربع ساعة من الزمان ، وتوقفت وسط الجمع .. وكان ميرون أيوجا جالسا إلى جوار بُوريسكو ، وكان قبالتهما ، على المقعد الصغير ، مفتش الشرطة تيبريو كوربولينو ، وهو رجل ذو شارب صغير أنيق على وجهه الأسمر العريض .

وهتف بوريسكو وهو يتدلى مختالا من العربة : « كيف الحال عندكم ؟ » .
« نحن فى خدمتك ياسيادة الوالى ! » قالها أيون برافيلا فى خصوع ، وقد أسرع لمعاونة الوالى . أما بونجيو فقد وقف منتصبا ، ويده اليمنى مرتفعة بالتحية .

وتساءل الوالى: « ألست أنت العمدة ؟.. آه ، نعم، عرفتك !! .. هل كل شىء هادئ هنا ؟ . . والنظام مستتب ؟ »

قال العمدة فى نبرات معسولة ، وقد ارتسمت على وجهه بسمة مصطنعة : « كل شىء على مايرام ياسيادة الوالى ! ».

وهتف الوالى، وهو يرمى ببصره إلى الفلاحين الذين وقفوا فى سكون يتطلعون إليه وإلى عربته ، دون أن يرفعوا طواقيهم عن رءوسهم : « هذا مايجب أن يكون يا أبنائى. أحسنتم! .. والواجب عليكم أن تسلكوا مسلك الهدوء والأدب ، كما هو خليق بأهل رومانيا ! ».

ونزل ميرون أيوجا من العربة ، فأخذه الوالى من ساعده ، ودخلا سويا ساحة ديوان القرية .. وتخلف المفتش برهة يستمع إلى تقرير الرقيب وهو يوىء برأسه بين الحين والحين . . . وتوقفوا جميعاً مام المكتب ... وتجمع الفلاحون حوالیهم ، تاركين دائرة صغيرة خالية أمام الوالى الذى أخذ يتفحص مظهرهم ، وبخاصة ما ارتسم على وجوههم من تعابير .. وحاول، على شدة تعبه ، أن يبتسم وأن يبدى لهم الود وحسن النية .. كان هذا هو اليوم الثانى من رحلته التى أراد بها البحث والاستقصاء والنهوض بالروح المعنوية..ولكن مسلك الفلاحين أزعجه أكثر مما أزعجه التعب الذى ألم به ؛ فقد ساءه أنه ، حيثما ذهب ، لا يجد إلا أقل قدر من الاحترام ، بل ومن المهانة والاستفزاز . وكان قد ألف من الناس أن يستقبلوه فى هذه الرحلات بالهتاف والتهليل والدعاء له بطول العمر . أما الشكاوى والالتماسات فما كانت تأتى إلا بعد ذلك . أما الآن فالقرويون يستقبلونه فى صمت وتجهم ، وبنظرات مرتابة .. وهو ما كان ليطيق هذه الفوضى لولا أنه كان يحاول أن يبعد عن ولايته الاضطرابات التى نشبت فى غيرها من الولايات ..

ولكنه انتوى رغم ذلك أن يلقنهم درسا فيما بعد ، حين يستقر الأمن ويستتب

النظام .. وكان بوريسكو يكن فكرة عظيمة عن نفسه بوصفه واليا . وكثيرا ما كان يقول : إن الولاية التي ترد أولا في حروف الأبجدية ، (ويقصد بها ولاية آرجس) تتمتع بالوالي الأول من حيث الكفاية والمقدرة .. والواقع أن الولايات المجاورة قد غرقت في بحار من الثورة التي اجتاحت البلاد ، أما في ولايته فلم يحدث شيء من هذا القبيل حتى الآن ؛ وكان يعتبر هذا برهانا على الأساليب الممتازة التي كان يطبقها . وهو إنما يقوم بالدورة التفتيشية الحالية وهو يعتقد اعتقادا جازما بأن الفلاحين عندما يرونه ويسمعونه فسوف يتأثرون من هيبته تأثرا يدفعهم إلى سلوك مسلك الأدب والنظام ، حتى وإن كانوا يضمرون من قبل نوايا عدوانية . ولقد حدث المفتش كوربولينو ، عندما تركا بيتستي ، وأن من رأيه أن القيام بهذه الرحلة خلال القرى في هذه الأوقات العصيبة أمر يتسم بالفطنة وحسن التقدير . فأجابه بأنه سيظل دائما أبداً يحمل لواء الشعار الذي يدين به (وهو شعار طالعه في إحدى الصحف منذ قريب فاتخذه ديدنا له) ، والشعار هو : « يد حديدية في قفاز من الحرير » ولقد أراد على وجه الخصوص أن يظهر للملأ ما يتحلى به من صفات باعتباره رجلا من رجال الإدارة الممتازين، ذلك أن الوزير قد تردد في تعيينه ، وأظهر بعض الإيثار لمحام كان يشغل هذا المنصب في ظل الحكومة الأخيرة ولكن بوريسكو أعد للأمر عدته — بمعنى أنه شد الخيوط عن طريق بعض الأصدقاء ذوى النفوذ في بوخارست ، فقضى على معارضة الوزير .

« مرة أخرى يا أبنائي أرجو أن تكونوا في أحسن حال ! » وكان يكرر هذه العبارة في صوت جهوري يناسب هذا الحفل الشعبي .

وتوقف برهة ، يترقب ما اعتاده من استجابة ... ولكن الناس لزموا الصمت اللهم إلا أولئك الذين كانوا في الشارع ، وكانوا يحاولون أن يدلفوا إلى الساحة ، منزعجين ضاحكين استهزاء . . وتمالك الوالي نفسه . . وإذ هو على وشك أن يستأنف الكلام هب العمدة صارخا : « الهدوء يا إخوان ، الهدوء ... دعونا نصغي إلى السيد الوالي ! » .

وعندئذ ألقى بوريسكو خطابا وطنيا .. تضرج وجهه ، وتضخم صوته ،

وأتى بالإشارات والإيماءات . . وانبعثت من فمه ، وكانت تلمع فيه بضعة أسنان ذهبية ، كلمات ضخمة تناسب المقام ، فطارت فى الهواء وانفجرت دون أثر فوق رءوس المشاهدين الذين لم يفهموا منها حرفا كما تنفجر البالونات الجوفاء يوم عيد.. ومن المزايا السياسية العديدة التى كان الوالى يعزوها إلى نفسه ميزة هى أنه خطيب شعبى لا يبارى . . فكان يعتقد أن كلماته الملتهبة تنفذ مباشرة إلى أفئدة الفلاحين فتفرض عليهم الخضوع والامتثال . . وكان يتلاعب بالألفاظ والعبارات التى لا تقاوم مثل : « الفلاح هو سند البلاد » و « جهودكم المقدسة » و « الفلاح الرومانى الذى عرف بالحكمة وحب العمل » و « الرعاية الأبوية التى يوليها الملك وتوليها الحكومة للشعب » و « ضعوا ثقتكم فى زعماء بلادكم » و « حب الوطن » و « مصالح البلاد تتطلب الأمن والاستقرار » و « رومانيا لن تموت أبداً » . . . إلخ إلخ . . وأصغى إليه الفلاحون دون حراك ، وعيونهم لا تنم عن شىء . . كانت مئات الوجوه تحمل نفس التعبير ، فبدت كأنها تنتمى إلى رأس واحدة ، تراودها نفس الأفكار ، ونفس المشاعر ، أو كرجل واحد له صور لا عداد لها ، مجرد نتاج جماعى صدر عن مصنع عظيم . . هذا السكون ، وهذا الصمت العنيد أغضب الوالى ، وألقى فى قلبه الرعب حين التقى به فى أول قرية زارها ، الأمر الذى جعله لا يكاد يقوى على مواصلة البلاغة التى أخذ فيها .

أما ميرون أيوجا فلم يصغ إليه . . كان لا يكن غير الاحتقار لهذا الأسلوب الذى يسعى إلى تهدئة الفلاحين بتقديم كلمات جوفاء لهم . . وهم لم يكونوا فى حاجة إلى خطب ، بل كانوا فى حاجة إلى نصائح وإرشادات . . ولقد استرعى انتباه بوريسكو إلى ضرورة عدم إضاعة الوقت فى صياغة الكلمات ، بل ينبغى استغلال الوقت فى البحث فى إيجاز وإخلاص بقصد تكشف ما يرغب فيه الفلاحون وما يطالبون به ؛ تبين ما إذا كان من الممكن أو من غير الممكن تحقيق ما يطلبون.. ثم لا ينبغى أن تكون الوعود التى تبذل وعودا جوفاء ، بل يجب أن توضع موضع التنفيذ على الفور . . ولكن الوالى أبى ، أيا كانت الأسباب ، أن يتخلى عما انتوى من خطابة ، وقال إن الناس فى كل مكان خطب فيه كانوا يستمعون إليه باهتمام واحترام ؛ والخطبة الناجحة فى شأنها شأن خطبته كانت خير بداية لتهدئة الناس ، ولاكتشاف حقيقة الأمور . . والآن ، وقد تبين الشريف ميرون وقع الخطاب

وهو الخطاب الذى لم يصغ إليه أحد غير المفتش والرقيب والعمدة فى حماس كاذب خليق بهؤلاء المرءوسين ، فقد أحس بالعار بل وبالمهانة أمام الفلاحين .

وبعد نصف ساعة من الزمان ، ترك الوالى بوريسكو المحسنات البديعية ووجه الخطاب للفلاحين دون مواربة قائلا : « والآن يا أبنائى ، لابد لكم أن تبرهنوا لى فورا بأنكم رومانيون مخلصون، ومواطنون صالحون ! .. وأنا كوالد لكم ، وكابن من أبناء بلدنا الحبيب ، أطلب إليكم أن تقدموا هذا البرهان ! .. وأنتم لو كنتم تريدون أن تدلوا على كونكم قوم مهذبون ، أمناء مجدون ، وإنى لأعرفكم كذلك، فلا تعيروا التفاتا إلى ما يقوله المغرضون، ولا تستمعوا إلى الإشاعات الشريرة، بل أحرى بكم أن تسارعوا إلى محاريثكم ، وأن تعودوا إلى عملكم السامى النبيل ، فهذا العمل هو عماد بلادنا وسنده .. ولقد وهبنا الله مناخا رائعا ، والأرض لا ترقب شيئا غير هذا العرق الأمين الذى يتفصد منكم لتدر محصولها الوفير ، من أجلكم أنتم ومن أجل بلادنا الحبيبة ! .. أتسمعوننى أيها الأبناء ! .. أتفهمون ما أعنى ؟ والآن ، أتراكم فاعلون ما قلته لكم أم أنتم رافضون ؟ »

واستجاب القوم لكلماته الأخيرة فى تردد .. وارتفعت من بين الجمهور أصواته تنادى : « نستطيع يا مولانا ! .. نحن لا نملك أى قطعة من الأرض ! .. أين نشتغل إذن ؟ » .

واعتبر الوالى هذا الكلام استجابة لخطبته ، فرمى بنظرة ذات مغزى إلى ميرون أيوجا ، وهتف : « لماذا لا تستطيعون يا أبنائى ؟ .. هيا ، صرحوا بما يجول فى خواطركم حتى نعلم به نحن أيضا ! .. »

وأجابت عدة أصوات ، فى نبرات أشد ثباتا : « نحن لا نملك أى قطعة من الأرض .. نحن فى حاجة إلى الأرض .. لا يمكننا أن نعيش بدون الأرض ! » .

وارتدى بوريسكو الآن سمة معلم رقيق الحاشية يساير حفنة من التلاميذ الجهلاء : « حقا ، كيف استطعتم أن تزعموا هذا الزعم أمامى ؟ . أتقولون إنكم لا تملكون أرضا ؟ ألم يشأ السيد أيوجا أن يعطيكم الأرض ؟ . . وكذلك الملاك الآخرون ! .

ألم يعملوا دائما على تزويدكم بالأرض، من عهد أسلافكم الأولين؟. إنهم لا يؤجرون ضياعهم إلا لكم ، لا للأغراب ! » .

وانتصب تودر ستريبو على أصابع قدميه ، وصاح محتدا : « نحن لا نستطيع أن نمضى هكذا ! .. إننا نكدح نظير لا شيء ، والفقر يفتك بنا ! » .

فسأله الوالى صراحة : «إذن فأنتم تريدون عقودا جديدة ! مهلا يا أبنائى لأن ..» فقاطعته أصوات فى صخب : « لقد سئمنا من العقود ! . . إننا نريد الأرض لنا ، لأننا نحن الذين نفلحها ! ».

ولم يرض ميرون أيوجا عن الاتجاه الذى اتخذته الأحداث ، فأشار إلى أنه ، أيضا ، يرغب فى الكلام . . ولزم الفلاحون الصمت . فقد كان الشريف الشيخ بالنسبة إليهم هو السيد الحق الواجب الاحترام ، وهو الذى يدينون له دائما بالإجلال . .

وتساءل الشريف الشيخ ، وهو يكتسح الجمع كله بنظرته : « لماذا هذه الضجة كلها ؟. . هل ترون أن من الواجب على أن أعطيكم أرضى ، مكافأة لكم على أننى أنا ، وأبى ، وجدى قد آويناكم ، أنتم وآباءكم وجدودكم فى ضياعنا ، وأعطيناكم عملا تكسبون منه عيشكم . . نحن قد شاطرناكم السراء والضراء ، ولكنكم الآن تريدون أن تأخذوا منا كل الأرض التى ورثناها ، وتطردونا من بيوتنا كالأغراب !.. هل هذا هو العدل فى نظركم ؟.. وأنت يا تودر ، أنت صاحب اللسان الطويل ، هل تقبل أن تقسم ما تملك مع الآخرين ؟ . . أخبرنا الآن ، وقل لنا صراحة ، حتى نتمكن من سماعك ! » .

والتفت الواقفون حول تودر ستريبو ، ضاحكين ، ولكنه لم ينكص على عقبيه ، وقال : « ليتنى كنت أملك شيئا يا سيدى ، كنت عندئذ أتقاسمه مع الناس .. ولكنى لا أمتلك شيئا ! » .

وواصل ميرون الكلام فى إصرار : « بل أنت تملك شيئا . أليس عندك بيت ، وأليست قطعة الأرض المقام عليها البيت ملك يمينك ؟ » .

فأجاب تودر بنفس النبرات : « إن البيت يتهاوى على رءوسنا ياسيدى ! » .

واستطرد الشريف الشيخ قائلا « أ لأنه آيل للسقوط لا تريد أن تقتسمه؟ أما أنا ، وأولئك الذين عملنا على ألا تتهاوى ممتلكاتنا على رءوسنا فتريدون منا أن نقتسمها معكم ! . هذا هو قصدكم فيما أعتقد ، أليس كذلك ؟ . ليس هذا هو الطريق الصحيح للنظر إلى الأمور يارجالى ! . وهؤلاء الذين علموكم هذا الأسلوب من التفكير أوقعوا بكم أذى كبيرا ، وأنتم الآن قد فقدتم صوابكم ، فتجرون وراء المستحيل ، بدلا من أن تنصرفوا إلى أعمالكم كما يفعل العقلاء من الناس.. ألا فاعلموا أن هؤلاء الذين يشجعونكم على أن تنهجوا هذا النهج إنما هم يستهزئون بكم .. أنا لم أكذب عليكم أبداً ، ولم أخدعكم بالوعود الجوفاء ، والذى أوده هو العدل والمسلك الحسن .. وإذا كنتم أنتم غير راضين عن العقود القديمة ، فنى مقدورنا أن نبحثها معا ؛ ولو رأيت أنا أن الحق فى جانبكم ، فنى مقدورنا أن نغيرها .. لا بالتهديد والوعيد ، ولكن بالكلام المهذب كما يفعل الناس .. إن التهديدات لاتخيفنى ، ولست أنا بالرجل الذى ينحنى لها أيا كان مصدرها .. كما أن الذين هم على حق لايتوعدون ولايهددون ، لأن العدل لايعلى عليه فى حد ذاته ، وبعد ، فالمرء يستطيع أن يقفز فوق الجدول بوسيلة أو بأخرى فى بعض الأحيان ، أما لو حاول أن يقفز فوق النهر فسيجرفه التيار ؛ كذلك فى مقدوركم أن تجتازوا البحار ذاتها بالوسائل المشروعة .. هذا ماينبغى أن تعوه فى ذاكرتكم يارجالى وأنا أقول لكم هذا لأنى بلغت من الكبر عتيا ، ولى خبرة واسعة ، وصادفت فى حياتى أشياء كثيرة .. والآن ثوبوا إلى رشدكم ، واركنوا إلى الهدوء ، فهذا هو الطريق الوحيد الذى يكفل لكم الحياة ! »

وانبثق ، من الصمت الذى خيم عقب ذلك ، صوت إيجنات سيرسل باكيا ذليلا ، وكان واقفا فى المقدمة ، فبدا الصوت وكأنه آهة صدرت عن الجمع كله : « خير لنا أن نموت بدلا من أن نحيا هذه الحياة ! » .

وتشجع الآخرون هنا وهناك على الكلام .

« أولى بكم أن تقتلونا وتتخلصوا منا ! » .

« سواء متنا من الجوع أو من غيره ، تعددت الأسباب والموت واحد ! » .

« إذا كنا نضطر إلى العمل حتى نقع من طولنا ، فن واجبكم على الأقل أن تعطونا على الأقل ما يكفينا . »

« ليس من العدل أن يأكل البعض حتى يتخموا، بينما نحن نتضور جوعا » .

ورأى الوالى أن الأمور تسير سيرا مرضيا ، فالناس الساخطون عندما يأخذون فى الكلام ، يكون هذا بشيرا على أنهم قد بدأوا يثوبون إلى رشدهم .. وشرع يخطب فيم مرة أخرى ، فأعاد نفس الكلام الرتيب ، قال إنه جاء يعقد لواء السلام بينهم ، فإن أسوأ أنواع السلام خير من أشد المعارك بطولة . . وهو فضلا عن ذلك ، قد جاء بالسيد أيوجا بين ظهرانيهم ، كى يتوصلوا إلى اتفاق يحقق السلام بينهم .

« حسنا ياسيادة الوالى ، نحن على استعداد للاتفاق مع الشريف . . » قالها لوبو شيريتو ، وهو يأتى إلى المقدمة . فقد رأى أن من واجبه ، وهو أكبرهم سنا ، أن يوضح الأمر تماما ، قال . « لقد أثارها غيرنا حربا شعواء ونحن نريد أن نأخذ قطعة من الأرض كما فعل غيرنا حيث أضرموا النيران فعلا ، ذلك أننا لانملك شيئا على الإطلاق . . وما يقوله السيد الشريف حق وعدل . . فليس من الذوق أن نحاول الاستيلاء على أرض يملكها شخص آخر تعب وكد فى سبيلها من عهد أسلافه الأولين ياسيادة الوالى . . وأنا لاأظن أن رجلا من هؤلاء الناس الأخيار يريد أن يستولى على أملاك الشريف ميرون ! فنحن على كل حال ، نعيش جميعا معا ، ويساعد بعضنا بعضاً . . ولكن توجد ضياع كثيرة تركها أصحابها ، وأعطوها للغير الذين لاهم لهم غير أن يمتصروا منها المال ، وأن يستنزفوا دماءنا . . والفلاحون ليسوا أشرارا ، وهم يلزمون الهدوء ، ولكن لابد لكم أن تعطوهم أرضا ، وإلا عجزوا عن مواصلة العيش . . هأنذا أعبر لكم عما تريده القرية .. ونحن لو تكلمنا كلنا معا فى نفس الوقت فلن نجد فرصة للوصول إلى تفاهم . »

وانفجرت الصيحات عالية من كل أركان الجمع . . كان كل واحد يهتف بكلمة واحدة .. « الأرض ! حتى استحال الجمع جوقة من الأصوات لاحصر لعددها تردد باستمرار « الأرض ! .. الأرض ! .. الأرض ! . . . »

وارتبك بوريسكو ، وبدأ فى خطبة أخرى، فقال : إنه يدرك حبهم للأرض ورغبتهم فيها . . أليس هو نفسه صاحب أرض ، يمتلئ قلبه حبا فى الحقول التى حرثها أجداده الأولون ؟ . ولكن الناس لا يمكنهم أن يحصلوا على ما يشتهون فورا ، هكذا . . فالبلد لها قوانينها التى لابد من احترامها . . ولا بد أن يتذرع الفلاحون بالصبر ، وأن يركنوا إلى الهدوء ، ثم هو ، بمجرد أن يصل إلى بيتسى سيرفع الأمر إلى الحكومة ، وهى حكومة فطنة ، تدرك المظالم الواقعة على الفلاحين تمام الإدراك . . ولسوف تصدر الحكومة القوانين اللازمة بحيث تعطى الأرض لأولئك الذين يلزمون جانب الاعتدال ويحترمون القانون . . ولقد كان هذا الوعد الكاذب وحيا هبط عليه الساعة ، وندم على أنه لم يخطر له فى القرى الأخرى كذلك . . فالحاجة إلى الحفاظ على الأمن والنظام فى البلاد ليست فقط مبررا يدعو إلى الاستعانة بهذه الوسيلة المشروعة من وسائل الإقناع ، بل هى واجب تحتمه الضرورة . . ولن يتذكر أحد ، عندما يستتب الأمن بعد ذلك ، هذه الكلمات التى قيلت خبط عشواء ؛ بل إن أولى الأمر على أقل تقدير سيكيلون له المديح لسرعة بديهته فى مخاطبة الفلاحين بكلمات تناسب هؤلاء الأطفال الكبار .

ولكن الفلاحين استمروا يقاطعون وعوده بإطلاق النكات والضحكات . . ونادى بهم صوت أن كفاهم هذا الكلام ؛ وأضاف صوت آخر بأن الأشراف يتغذون على الأكاذيب ؛ وقال ثالث إنه مامن شريف يفتح فمه بكلمة إلاوتخرج أكذوبة من الأكاذيب . . وكان ميرون أيوجا يختنق سخطا تحت هذا الوابل من الوقاحة . . وارتبك الوالى ، وغاض لونه ، ولم يعد يدرى ما يقول بعد ذلك، ولحظ العمدة أن النكات لم تعد بالنكات الفكهة ، فصاح على عجل :

« كفى كلاما يافتيان ، والزموا الصمت ! » .

ورد لوكا تالابا ، وكان أحد أولئك الذين وقفوا فى المقدمة : «من الخير لهم أن يخفضوا عما بنفوسهم حتى يعلم السادة الأشراف مايضايقهم ! » .

ولكن الفلاحين لزموا الصمت مرة أخرى ، ورأى بوريسكو أن القوم لم يفهموا قصده على حقيقته ، فحاول مرة أخرى أن يستهويهم بالوعود .

على أنه ما كاد يفتح فه حتى قاطعه سيرافيم موجوس : « كفي ماتزل بنا من مهانة لم تنزل حتى بالحيوانات ! » .

وأضاف نيكولاى دراجوس عابسا : « ألم تنكلوا من قبل بأخى وحملتموه خطايا غيره ، وأرسلتم به إلى السجن ؟ » .

وقال أبوه فى نبرات أهدأ وأكثر احتراما : « هذا ظلم بين ياسيادة الوالى ! والقرية أصبحت بلا معلم أيضا ! » .

وهتف القوم باسم المعلم الذى حمل خطايا غيره ، وحار الوالى ، ومال على العمدة يستوضحه الأمر ، فلما حصل على ما يريد من معلومات ، أسرع فقال «مهلا مهلا!. دعونا نتفاهم ياأبنائى . . إن قضية المعلم دراجوس ليست بين يدى ، وهى ليست من اختصاصى . . إنه موضع تحقيق ، ولهذا . . »

ولما استمر الهرج والمرج ، استطرد بوريسكو فى صوت أعلى من ذى قبل « ومع ذلك ، أنا سأطلب إلى النائب العام أن ينظر فى إطلاق سراحه فورا ، ومن الممكن أن يمضى التحقيق بعدئذ وهو مطلق السراح . . أتسمعوننى ؟ . . ألا يرضيكم هذا يافتيان ؟ » .

وغمغم نيكولاى دراجوس ببضع كلمات ؛ ولكن كل واحد كان يتكلم فى نفس الوقت ، ويصرخ مع الصارخين ، ولهذا ضاع صوته بددا ، ولم يعد الناظر يرى منه إلا أسنانه البيضاء القوية كأنها أنياب متكشرة . . وانطلقت فى هذا الخضم المتزايد صيحة عمومية تهيب ببافل تونسو أن يذهب إلى الوالى فيسأله تعويضا عما لحق بابنه من سوء معاملة . . وحاول بافل جاهدا أن يشق طريقه بين الجمع، تدفعه أصوات عديدة ملحة: «امض يابافل . . ماذا يارجل؟. أأنت خائف؟. اتركوه يمر يارفاق ، فإن له مظلمة يشكوها ! » .

وأخيراً عندما أصبح بافل تونسو أمام الأشراف ، أخذ ، وهو مربد الوجه يقص عليهم بصوت باك كيف وقع الأذى بابنه، ثم طلب تعويضا عن هذا الاعتداء . وسر الوالى من هذا الاستطراد ، ورأى أنه لو أرضى الفلاحين فى هذه الأمور

الصغيرة ، فسوف ينسون حماقتهم الكبرى .. وطرح الوالى عدة أسئلة على بافل ، وأبدى عطفا عليه ، ثم أمر العمدة أن يجرى تحقيقا على الفور ، وأن يدون شكوى الرجل ومطالبه العادل ، حتى يتمكن هو ، أى الوالى ، آخر الأمر من أن يفرض على الأفراد الذين كانوا بالسيارة أن يقدموا تعويضا مناسبا ، وأن ينزل بهم العقاب فى نفس الوقت وفقا للقانون .. وسر القوم من هذا التصريح ، الذى قيل فى نبرات جادة صارمة ، فأعربوا عن غبطتهم إذ هدأت أصواتهم ولانت .

أما بيتر بيتر فقد استشاط غضبا عندما رأى بافل تونسو ماضيا ليتقدم بشكواه ، وأخذ يدمدم من تحت أسنانه . . وكان من البداية قد شق طريقه إلى المقدمة ، مع قادة القرويين ، وكان الساعة واقفا إلى جوار الرقيب بونجيو . . ولقد استمع بهدوء واحترام إلى كلام الوالى كله ، بل وكان احترامه أشد إلى كلمة الشريف أيوجا بحيث إنه زجر أكثر من مرة أولئك الذين كانوا يصيحون بصوت أعلى مما ينبغى ، ولكنه ما كاد يسمع بالسيدة وبحادث السيارة حتى اربدت أساريره ، وتمشت فى أوصاله موجة من السخط كلهب متقد .. وحاول جاهدا أن يتمالك نفسه ، رغم ماسببه له هذا من ألم ؛ ولكن عندما أشار الوالى إلى الناس الذين كانوا بالسيارة انفجر قائلا فى غلظة ، وعيناه تلتهبان ، كأنما يدفع مظلمة عن نفسه : « إنها غلطة السيدة كلها ياسيادة الوالى ، وهى ماجاءت إلى هنا إلا لتدفع السكين فى إجراحنا ! »

واعتبر القوم هذه المقاطعة ، وبخاصة عبارته النارية ، غاية فى الوقاحة بحيث أثارت سخطا عاما . . ورماه ميرون أيوجا بنظرة ازدراء ، وصد مفتش الشرطة نفسه عن سبه . أما بوريسكو فقد قال غاضبا : « ماذا بك يافتى ؟ إيه ! »

ونزل السؤال على بيتر كأنه صفعة على وجهه . . فهذا الوالى نفسه الذى استمع إلى صيحات الآخرين وهزئهم به ، لم يجد غيره الآن ليسبه ، وكأنما هو أحط من فى القرية شأنا ، هو الذى . . وأجاب متجهما ، وقد لصقت كلماته بحلقومه : « لماذا جاءت السيدة إلى هنا ؟ . . لماذا تجعل منا أضحوكة لها ؟ . . نحن لا نريدها ، ولترجع من حيث جاءت ، لترجع إلى أصحابها الأشراف النبلاء ، ولتتركنا فى سلام . فلا تعذبنا ، ولا تكسح أطفالنا . . نحن لم نوقع بها أذى ، ولكن محال أن نتركها لتبيع العزبة لأننا . . »

ولم يستجب إلا فئة قليلة من الجمع ، أما البقية فقد أشاحوا برءوسهم وتطلعوا إليه فى دهشة وود . . وهب الرقيب بونجيو ، إذ ظن أن بيتر قد نسى نفسه ، فتكلم فى غضب دون أن يدرك كنه ماقال ، وربما ندم عليه فيما بعد ، فمد يده فجأة . وغطى بها فم الشاب ، شأنه مع طفل غرير . . وجن جنون بيتر من حركة الرقيب ، ورأى فيها إهانة أخرى أمام أهل القرية . . وإذا به يبعد يد الرقيب فى عنف ، وجذب نفسه جذبة جعلته يصطدم بأولئك الذين وقفوا خلفه ، وصاح غاضبا : «ارفع يديك عنى . . لماذا تضع يديك على ؟ . . أترانى عبدا عندك ؟ . . إنك تجعل منى موضعا للسخرية ! لماذا وضعت يديك على ؟» .

وسرت رعدة بين الجمع ، كأنما قد بعثت الحياة فى الآلام التى سبق أن عانوا منها . . ولكن العمدة أيون برافيلا أسرع ، قبل أن يدرك أحد ماقال ابن سمارانداا أو يتبع الطريق الذى افتتحه لهم ، فخاطبه متوددا ، ولكن فى لهجة آمرة تناسب المقام تماما : «صه يافتى . . مامن أحد وضع يده عليك ، أو هزأ بك . اسكت ، وخير لك الآن أن تذهب ، فتنظر فى شئونك ، ولا تعكر صفو هذا الاجتماع» .

أما سيرافيم موجوس ونيكولاى دراجوس وكانا يقفان على مقربة من بيتر ، مع بضعة أشخاص آخرين ، فقد غمغما فى نفس واحد : «ماكان ينبغى له أن يضع يديه عليه . . لماذا فعل ذلك ؟» .

واستغل العمدة تدخلهما ، فاستطرد فى نفس اللهجة الحازمة : «هيا ياسيرافيم وأنت يانيتشو . . اذهبا به حتى يهدأ . . هيا ، اذهبوا !» .

وكأنما نزلت صاعقة على بيتر من إصرار العمدة فشق طريقه بين الجمع ، يتبعه سيرافيم ونيكولاى ثم آخرون غيرهما . . وواصل بيتر الصياح بنفس الألفاظ المرة بعد المرة ، كأنما هى قد اصقت بلسانه ، فلم يستطع أن يقول غيرها : «لماذا وضع يديه على ؟ أنا لست أضحوكة أحد ! . . لماذا وضع يديه ؟ . .» .

ولما مضى بيتر والآخرون إلى عرض الطريق ، هتف أيون برافيلا يخاطب الوالى بصوت عال حتى يتناهى إلى أسماع الجمع كله ، قال إن الفتى فى رأيه قد التاث عقله ، ولا يدرى أحد غير الله أية أفكار غريبة قد طرأت عليه ، وإلا فهو شاب

جد مهذب ، بل هو أفضل فتى فى القرية . . على أن الفقر قد أخذ بعقول كثير من الناس ، فدفع بهم إلى الميا ، ، دون أن تساورهم نية التصرف على هذا النحو ... وشحب وجه المفتش كوربولينو ، وعض شفتيه فى اهتياج وتردد ، وأحس أن صيحات الفتى قد تطلق الثورة من عقالها — هذا إن لم تكن فى حقيقتها الإشارة المتفق عليها من قبل بين الفلاحين المتآمرين .

فلما مر الحادث ، رأى الوالى أنه قد قام بواجبه ، وأنه فى وسعه الآن أن يمضى إلى تهدئة القرى الأخرى قبل أن يرخى الليل سدوله . وارتأى أن من اللازم ، حتى يختتم رحلته بما ينبغى لها من وقار ، أن يلقى خطبة أخرى قصيرة عن « وطننا الحبيب » و « بلادنا » و « الملك المبجل » و « واجبنا كمواطنين » و « اهتمام الحكومة بكم » ؛ ثم أنهى الخطاب جذلان راضيا : « والآن يا أبنائى ، وداعا !! . إن لى بكم ثقة كبيرة ، تماما كثقتكم بى . . . وعليكم بالنظام والهدوء والعمل ! .. هيا أيها المفتش ! . . حظا طيبا وصحة موفورة ! » .

وخرج الفلاحون متزاحمين من ساحة الاجتماع . . . وأراد بوريسكو أن يرافق ميرون أيوجا إلى بيته ، ولكن الشيخ أبى . فعانق كل منهما الآخر ، وهما يفترقان . . . وصعد الوالى إلى القرية ، وجلس إلى جانب المفتش ، ثم مالا إلى اليسار ، ناحية ليسبيزى ، أما ميرون أيوجا فقد سار على يمين وحده .

قال الوالى ، حين قطع مسافة من الطريق : « ما رأيك أيها المفتش فى الطريقة التى عالجت أنا بها الأمور هنا ؟ » .

« إن عندك قدراً كبيرا من الشجاعة والتجارب ! » قالها كوربولينو فى لهجة تنم عن الإعجاب ، ولكنه أحس فى صميم نفسه أن هذا الأسلوب فى معالجة الأمور لم يفض فى الواقع إلا إلى تشجيع الإخلال بالأمن بين الفلاحين .

وسار ميرون أيوجا فى وسط الطريق ، متفحصاً الأكواخ والساحات فى أثناء مروره ، كأنما لم يقع عليها بصره منذ زمان طويل . . . وكان نادماً على أنه قد وافق على الذهاب مع هذا الغر الأبله ، بوريسكو ، الذى حسب أنه بهز لسانه يستطيع

أن يؤثر فى هؤلاء الناس الذين اضطربت نفوسهم بتأثير رياح السفسطة التى هبت من المدينة .

وجاء ، على مدى خطوات وراءه، العمدة والرقيب ، وقد أحاط بها الفلاحون. كان الكل يتحدثون معا هادئين ، كأنما كانوا يودون أن يتجنبوا إثارة الضيق فى نفس واليهم الشريف ، وهو الذى كان يمشى أمام الجمع ، كراع يقود قطيعه .

وعم المرح والضجيج عند خان بوزوك . . وكان الرجل واقفا أمام عتبة الخان ؛ فانحنى فى احترام إلى ميرون أيوجا . . . فلما مر الشريف الشيخ ، تصاعد المرج مرة أخرى ، بعد أن توقف برهة . . وتناهى إلى الأسماع صوت يبتر واضحا جليا : « لماذا وضع يديه على ؟ » .

— ٥ —

حاول المحامى ستافرات جاهدا أن يتناسى ما اكتنفه من رعب ، وأراد أن يكون حلو المعشر ، حسن الصحبة ، بيد أن جهوده ذهبت هباء . . . ورأى أن من البلادة والسخف أن يفكر فى مغامرة عاطفية والجو مشحون بهذه المخاطر كلها ...والواقع أن المسألة بدت فى ناظريه أقرب إلى السخف منها إلى العاطفة المشبوبة . . وأدرك بغتة أنه رجل عجوز ، وأن مما يثير الهزء به أن يحوم حول سيدة شابة مترفة مثل نادينا : فهى لو أرادت أن تلتمس حبيبا لكان من المحال أن ترى فيه هو شيئا مما يجذب النساء ، إنما هى كانت تلهو به حين تحملت آهاته .

وكانت نادينا تثرثر فى مرح، وتتحرك جيئة وذهابا ، وهى تعد التدابير اللازمة لوجبة الغذاء ، وخاطبته قائلة : « كنت أظنك رفيقا بهيجا ، تضحك معى وتغازلنى، أو على الأقل تحكى لى بعض النكات — أو بعبارة أخرى كنت أظن أننا سنقضى يومين فى هناء هنا . . أما الآن فالظاهر أنك ملول مذعور ، قادر كل القدرة على تعكير مزاجى ! » .

ولم يجبها ستافرات إلا ببسمة مريرة، قصد بها أن يعبر عن حقيقة، هى أنها لم تكن تقدر الموقف على حقيقته ، وهذا هو ما جعلها تنظر باستخفاف إلى الأمور ، ولا تفكر إلا فى ذاتها . .

على أنه ازداد تجهما فى الضحى ، وطلب إليها أن تصيخ السمع إليه فى انتباه وجد ، ثم استجمع كل مالديه منقوى الإقناع ، فأوضح لها ببلاغة أن من الجنون التلبث هنا فى وسط الفلاحين المتمردين ، فهم قد يثورون فى أية لحظة ، ويأتون بعمليات السلب والقتل . وهى لو كانت ترغب فى مغامرة طريفة ، لحسبها ماأقدمت عليه حتى الآن ، فهى قد اخترقت عشرات القرى بالسيارة فى وقت لم تكن فيه القطارات نفسها آمنة . — بل إنها قضت ليلة فى بيت الدائرة دون حماية ، فعرضت نفسها إلى هجوم مفاجىء قد يقوم به الفلاحون دون أن تتوافر لها وسيلة للدفاع . ولقد انهار الغرض من الرحلة ، أو ربما التعلة التى انتحلتها ، كذلك صرح لها بلاتامونو ، وهو أحد الراغبين فى الشراء . . خلاصة القول إذن إنه لا مناص من الرحيل عن المكان فوراً ، إن لم يكن إلى بوخارست — فهى بعيدة جدا ومحفوفة بمخاطر شديدة — فليكن إلى بيتستى ، ومن هناك يواصلان الرحلة بالقطار ، على أن تتبعهما السيارة عندما يتيسر ذلك .. ذلكم هو السبيل الذكى ، ولا سبيل غيره ، للتخلص من هذه الورطة الحرجة .

وتظاهرت نادينا بادىء ذى بدء بالإصغاء إليه فى تخابث ومكر . . . ولكن شيئا فشيئا دب فى نفسها أيضا الرعب الذى شاب كلماته ، حتى ماكان منها عاديا لا إغراق فيه ، وإن كان ظاهرا جليا على وجهه . . وبدأت تدرك أن ستافرات كان فى الواقع على حق ، وأن الخطر واقف بالباب ، على أهبة الانقضاض عليهما . وكان فى وسع الناظر أن يشهد ، من خلال شباك غرفة الجلوس المفتوح على مصراعيه ، ساحة البيت العارية المنبسطة . . ولم يكن هناك ثمة صوت ، فبدا السكون ثقيلا على الأنفاس . . . وأبرز لألاء الشمس المختفية وراء السحب وطأة الهدوء المؤلم ، وهو هدوء انتثرت فيه كلمات ستافرات المفعمة بالرعب كما تنتثر الطيور الفزعة . . . وشعرت نادينا بأن من المهانة أن تبدى مابها من قلق ، وأرادت أن تتظاهر بالشجاعة ، ولكن الصمت المخيم بالخارج جعلها لا تجرؤ على التفوه بكلمة . ولم تتمالك نفسها إلا عندما سمعت صوت رودلف وهو يصفر لاهيا ، بينما يصلح موتور السيارة ، فجاءها الصوت نجدة من السماء . قالت : « بالطبع ، ولكن ألا ترى أنك تغالى كثيرا ياسيد ستافرات ، فأنت تعلم أن الملتزم قد أكد لنا أن الفلاحين هادئون هنا و . . .

فهتف المحامى : « إن صاحبك الملتزم حمار كبير ، لو سمحت لى بهذا التعبير ياسيدتى ! . . والواقع أن الناس الذين يعيشون فى خطر دائم يألفون تجاهل هذا الخطر . . هذا هو التفسير الوحيد لمسلك الشيخ أيوجا . . وهو رجل عاقل متزن، ولكن لم يبد عليه أى جزع بالأمس . . . وربما كان عنده من الأسباب مايدعو لهذه الثقة — أما نحن ، نحن الغرباء على هذه الظروف غير العادية ، فإنا لنشم نذر السوء فى الجو . لأن حواسنا أشد حساسية ، ولم تصدأ بعد من كثرة الاحتكاك يوميا بالمخاطر . . . »

وكان أوليمب ستافرات يزداد حدة كلما واصل الكلام ، الأمر الذى دفع نادينا ، بعد فترة تنازعها فيها الخوف والكبرياء، فأرسلت إبلينا تدعو إليها رودلف .

قالت تحدث السائق « لقد عزمنا على الرحيل فوراً . أعد السيارة حالا ! » .

فأجاب رودلف ببساطة أن السيارة عاجزة عن الحركة فورا ، فقد حدث عطل بالمولد الكهربائى ، وكان قد فك بأجزاءه توا يحاول أن يصلح مابه ، ولكنه سيعيد تركيبه فى مدى ثلاث ساعات أو أربع ، وحينئذ يتمكنون من الرحيل . وطلبت إليه نادينا أن يتعجل . فقد أصبح لزاما عليهم أن يرحلوا ، وهى ترفض أن تبيت ليلة أخرى هنا ، أيا كان الثمن .

قال ستافرات حين أصبحا وحدهما مرة أخرى : « أرأيت يا سيدتى — سوء الحظ ! ! فبعد ثلاث أو أربع ساعات سيخيم الظلام ؛ وإذا كان من الخطورة المرور بالقرى نهارا . فكيف يكون الحال والسفر ليلا ؟ . ولكن علينا بالصبر فالعمال أحيانا يبالغون فى تقدير الوقت اللازم للإصلاح ، حتى يبرهنوا على براعتهم وأهميتهم . . ولعل صاحبنا رودلف ينتهى قبل ذلك ، بعد أن رأى أنك فى عجلة شديدة ، وعندئذ . . . »

نعم ، لقد جاء الآن دور المحامى ليهدئ من روع نادينا ، فأخذ يزور المخزن المرة بعد المرة ، حيث كان يعمل رودلف ، ليرى كم بقى له من الوقت حتى يفرغ .

وفى نحو الساعة الخامسة تناهت إلى الأسماع أصوات فى الفناء، كانت بشيراً بوصول الوالى بوريسكو، وكان ماراً فى طريقه من آمارا إلى ليسبيزى، حيث ألقى هنـــاك كذلك خطابا على الفلاحين .. وقد مال على نادينا فى زيارة قصيرة، ليزجى إليها التهنئة على قدومها فى غمار الناس فى هذه الأوقات العصيبة، فضربت هى بذلك مثلا على الشجاعة والإقدام لغيرها من ملاك الأرض .. وكان بلاتامونو وابنه قد حضرا الاجتماع، ورأيا من الحكمة أن يذكرا للوالى أن نادينا كانت بالدائرة .. وكان بود بوريسكو، فى لهفته على بلوغ كوستنتى قبل أن يرخى الليل سدوله، أن يتناساها، رغم أن ميرون قد ذكرها له، بل وطلب إليه أن يزورها.

« حسن، حسن يا سيادة الوالى، ولكن أأنت واثق من عدم حدوث ما يكدرنا هنا حتى الغد؟ ... » سؤال طرحته نادينا على الوالى، غير آبهة بلطفه ومروءته، وما صحب ذلك من قرقعة مهمازى المفتش كوربولينو.

واعترض الوالى مزهوا: « حقا يا سيدتى، كيف تأتى لك أن تتصورى غير ذلك؟ .. أتقولين حتى الغد؟ إنك لتجرحين كبريائى يا سيدتى .. هنا فى وسعك أن تكونى مطمئنة أبد الآبدين! ».

وانصرف مسرعا، وهو يمطرها بالتهانى والتحيات .. وبقى بلاتامونو ليصحب المحامى ستافرات إلى مقره ...

قالت نادينا وقد غلبها فزع أشد هولا من ذى قبل: « أنا أريد أن أرحل على الفور! . لابد لى من الذهاب .. لا أريد أن أبيت ليلة أخرى هنا ... أنا أمقت هذا المكان! ».

قال الملتزم فى صوت هادئ النبرات، كان يحمل الثقة فى طياته: « اطمئنى يا سيدتى .. لا تشغلى بالك هكذا! .. إن رجالنا على خلق حميد .. والوالى أيضاً قال لك إن ... ».

وهتف ستافرات: « من أسف أن صاحبك الوالى مأفون يتيه خيلاء بنفسه .. ولو سرنا وفق ما قال ... »

قال بلاتامونو ، وقد ارتسمت عليه بسمة مطمئنة حانية : « لا لا ، في مقدوركم أن تنعموا بنوم هنيء . . لايوجد ما يدعو إلى الانزعاج إطلاقا ! » .

وتم الاتفاق على أن تمر نادينا ، بفجر الغد ، بسيارتها على جليجانو لتلتقط متافرات الذى سيكون فى انتظارها .. وودعتهما حتى السقيفة ، وراقبتهما وهما يدلفان إلى العربة . . فلما بدأت الجياد فى المسير ، استدار الثلاثة وانحنوا لها . . وردت عليهما بابتسامة ، ثم لوحت لهما بيدها الصغيرة البيضاء ، فى حركة أشبه ما تكون بجناح طائر يفر هاربا ، وتابعتهما ببصرها حتى اختفيا إلى اليمين من خلال البوابة إلى عرض الطريق . . وصحب دوميترو كيوليكو العربة بضع خطوات ، وظل واقفا عارى الرأس فى وسط الفناء دون حراك ، كأنما قد صعقه خاطر فجأة . . وبقيت نادينا حيث كانت ، وهى ما فتئت تلوح بيدها ، وعيناها شاخصتـــان ، دون أن تدركا شيئاً ، إلى الراحلين . . وغمغمت دون وعى : « غداً . . . غداً . . . » .

ولمحت دوميترو ، وكانت لم تلحظه من قبل ، فارتعدت فرائصها هلعا ، كأنما هى قد التقت وجها لوجه بألد أعدائها . . . وتلاشت كلماتها ، ولكن بسمتها ظلت ثابتة لاتريم ، ذكرى من ذكريات المـاضى .

— ٦ —

« من هذا ؟ . . من هناك ؟ . . . من الطارق ؟ »

« انهض من فضلك يا ايونتى ، فقد وقع شىء . . . . » .

ودمدم المشرف بومبو ، وقد تعرف على الصوت : « أهذا أنت يا سيادة العمدة ؟ .. مهلا لحظة ! » ثم أضاف يحدث نفسه ، وهو يتحسس فى الظلام مضطربا ، وقد عجز فى غفوته عن أن يدرك شيئاً مما قال العمدة : « ترى ما الذى حدث الآن بحق السماء ؟ ! » .

ولما فتح المشرف الباب ، دفعه أيون برافيلا إلى الداخل . . ، ولم يتح له أن يلقى عليه سؤالا واحدا . قال : « ارتد ملابسك ! .. روجينوزا تحترق ! » .

فقال ليوتى بومبو غير مصدق : « رباه ! روجينوزا ؟ .. هذا محال ! » .
قال العمدة وقد نفد صبره : « هيا ولا تحاول ! .. ألا ترى بعينيك ؟ .. إنها تنير السماء كالقمر ! » .

قال المشرف مستعيذا من الشيطان وهو يدلف إلى كوخه : « رباه ! رباه ! » .

وسمع العمدة ، وهو بالخارج ، زوج بومبو تسائله ، ثم تنخرط فى نشيج وجل .. وتراجع العمدة إلى حيث وقف خفير روجينوزا ، وهو الذى جاء بالخبر ... ولقد كان وقع الصدمة عليه من الشدة بحيث لم يفرط فى استجواب الخفير ، بل أسرع مباشرة إلى بيت الشريف .. وكان الخفير يتنفس لاهثا ، ويغمغم لنفسه وهو غائب الرشد طوال الوقت .

وسأل العمدة ، وهو يشخص ببصره إلى روجينوزا ، حيث كانت السماء حمراء كشرق الشمس : « هل مضى عليها وقت طويل وهى تحترق يانينشوفور ؟ » .

فأجاب الخفير فى نبرات مختنقة : « عندما رأيتها لم تكن الديكة قد بدأت تصيح صيحة منتصف الليل ... ولست أدرى كم الساعة الآن ، ربما كانت الساعة الواحدة ؟ . ولابد أن وقتا قد انقضى منذ أن أيقظت الناس من نومهم ، وجئت أنا إلى هنا . »

« أين بدأت النيران ؟ » .
« أولا فى القش والدريس ، ثم شبت بعدئذ فى المبانى الخارجية ، فقد هبت نسمة خفيفة كالتى تهب الآن هنا . »

وظهر المشرف الساعة ، وقد ارتدى ثيابه كاملة ... وتعالى من الدار صوت زوجه وهى تبكى ، قالت : « احترس ياليوتى ... ولا تكن قاسيا ، فربما تلقى متاعب مع الناس ، وأنت تعرف كيف اشتد بهم الغضب الآن . »

وانطلق بومبو مع العمدة والخفير دون أن يطرح أسئلة أخرى .. على أنه بعد بضع خطوات قال فى جزع : « ماقولك ياسيادة العمدة — أليس من الأفضل أن نوقظ الشريف ميرون أيضاً ؟ » .

فتمتم برافيلا : « لا لا ، دعه يستريح !.. فهو فى الغد سيشبع غضبا وهما ! » .

وكانت الأشجار على مشارف الدائرة متقاربة كأنها حائط أسود حجب مرأى روجينوزا . ولم يتمكن ليونتى من رؤية النيران إلا عندما بلغوا الطريق فصاح ، ويده على فمه : « رباه !!.. رباه !!.. » .

وانتشرت إلى الشرق سحابة هائلة من اللهب عبر السماء .. ورغم أن القرية كانت على مدى ثلاثة كيلو مترات ، فقد بدا اللهيب الهائل وكأنه قد أطبق على حدود آمارا . . . وكانت السماء صافية ، شأنها فى ساعات الفجر الأولى ، اللهم إلا من بضعة نجوم كانت لاتزال تتلألأ فزعا ودهشة ، كأنما كانت هى أيضاً وشيكة على الموت فى أية لحظة . . ومن قلب جمرات قانية ، أخذت ألسنة اللهب القوية ، كأنما أخذت أيد قوية تواصل إذكاء أوارها باستمرار ، تتلوى دون انقطاع ، وتختلط وتتشابك كأنها الحيات المقدمة تاعق القبة الزرقاء ، وتنفذ إلى أعماقها ، فترسم ألوانا شتى هائلة ، ثم إذا بها تمحوها بأعمدة ضخمة من الدخان ، فيطفو كل عمود منها لحظات إلى قطعة أرجوانية اللون ، ويرفرف فى جنون كأنه راية حمراء تنذر بشر مستطير . . . وتراقصت الخيالات الضخمة التى ألقت بها ألسنة النيران على الأرض ، كأنما زلزلت الأرض زلزالها ، فأخذ كل شيء يتقوض وينهار . . .

وتأوه المشرف مرة أخرى : « رباه !!... ماهذا ؟ »

فغمغم العمدة ، وهو يرمق اللهب فى فزع كصاحبه : « كنى عويلا ... هيا ... لابد أن نوقظ رئيس الشرطة . . . هيا بنا إلى هناك » .

وكان الرقيب بونجيو قد خرج لتوه من البوابة ، فى كامل ثيابه ، مسلحاً ، وفى رفقته شرطيان . . . ولقد أيقظه بعضهم قبل ذلك بزمن وجيز ، فهب من فراشه على الفور .

وتساءل وهو شارد الذهن : « ماذا نحن فاعلون ياسيادة العمدة ؟ »

فأجاب العمدة فى كآبة : « لامناص من الذهاب إلى روجينوزا أيها الرقيب ،

فتلق نظرة !.. من حسن الحظ أن جاء أحدهم فأيقظنا . . . وأنت يانيتشوفور ، انطلق على وجه السرعة إلى بيت الدائرة ، فأحضر خادما وعربة ، حتى نمضى إلى هناك على عجل . »

وإذ هم ينتظرون أخذوا يحملقون فى رعب إلى اللهيب الهائل . وبدا لهم أن النيران تزداد باضطراد ، وأنها تمتد وتنتشر كالطوفان . . . وصاح ليونتى لاهثا : إن آلافا من حمل عربة من العلف كانت تحترق هناك ، هـذا علاوة على المبانى والصوامع نفسها . ولم يحرؤ أحد ، بعد ذلك ، حتى على الـكلام . . . وبدا الأمر كأنما أزيز اللهب قد ترامى إلى الأسماع فى هذا الصمت الثقيل ، وهى تتلوى وتتأود عبر السماء . . ورقدت القرية ، فيماوراء هذا كله ، صامتة كالقبر ، نائمة أو مصطنعة النوم ، يخف بها الرعب الذى كان يعم الجو كله . . . وشعر الذين كانوا فى عرض الطريق أن هناك فى كل دار ، ومن كل شباك ، ثمة عيونا جوعى ترقب وهج النيران ، وتترقب إشارة سرية أو نداء خفيا . .

وشهدوا فجأة جماعة من الناس تتهادى من اتجاه روجينوزا ، وتصفر لاهية ، كأنما النيران التى خلفوها وراءهم لا تقلق بالهم فى قليل أو كثير . . . وكانوا كلما ازدادوا قربا ، ازدادوا جسارة ، كأنما كانوا بهذا المسلك يسخرون من الجماعة التى وقفت أمام نقطة الشرطة .. وإذا هم يمرون بهم ، قال واحد منهم ببساطة : « مساء الخير ! ... » .

وهب العمدة والمشرف والرقيب ، وأسرعوا جميعا يجيبونه فى نفس واحد : « أسعد الله مساك ! » .

وتوقف الصفير وهلة ، كأنما كان الرجل يتوقع سؤالا أو تقريعا ؛ ثم إذا بالنغم يعلو مرة أخرى ، وإذا بنفر منهم ينفجرون ضاحكين . . . فلما قطعوا مسافة من الطريق ، أطلق أحدهم شهقة عالية طويلة ، كأنما أراد بها أن يوقظ الناس جميعا من رقادهم . . . واندلعت فى نفس الوقت ألسنة اللهب من الشرق ، كأنما صوت الإنسان الذى تردد صداه هنا قد أذكى أوار النار هناك . . . وانطلق

الشرر في الفضاء عارما متدفقا ، ثم هطل عليهم نجوما متساقطة ، كأنها سرب من الطيور الملتهبة العاصية ، تحركها قوة خفية ، قد تساقطت صوب آمارا وهي تطير على غير هدى .

وفاق الرقيب بونجيو من الغيبوبة التي أمسكت بثلاثتهم في قبضتها ، فغمغم بصوت مبحوح من الهلع : « أظنها الثورة قد نشبت ! » .

الفصل التاسع

النيران

— ١ —

تنفس صبح الخميس فى آمارا بفجر قرمزى صارخ اللون على غير العادة . وخضب اللهب المتصاعد من الأرض الأفق البعيد فاحمر غضباً وسخطا إلى أن ارتفعت وراءه حافة الشمس رويدا رويدا كأنها رأس غارقة فى الدماء ؛ ثم إذا بهذا الوهج المحموم يتلاشى وراء اللهب المتدفق الذى حف بالسماء . . وعلى قدر ما صفا الجو،ازدادت سحب الدخان فى المشرق عدداً كأنها سواعد علاها السواد امتدت إلى علٍ وهى تعتصر أياديها وترفعها إلى السماء .

ونهض الفلاحون مع الشمس ، كالعهد بهم دائماً . . وتلبثوا فى أفنية دورهم ، يشخصون بأبصارهم إلى السماء الصافية ، وما يكتنفها من سحب الدخان، ويهوون برءوسهم يتشممون الأدخنة الخانقة ، دون أن تساورهم دهشة ولا فرح ، كأنما هم يستقبلون شيئاً عاديا لامناص منه ولا فكاك . . وخرج بعضهم إلى الطريق ليشهدوا المنظر ، أو ليطالعوه من وضع أحسن . أو ليتبادلوا الكلام مع عابر سبيل .

وهتف فاسيل زيدارو من فناء الدار يحدث ليوتى أوربيسور وكان يقطن علىمدى بضعة أكواخ منه ، فخرج إلى الطريقعندما سمع جاره يسعل ويتمخط: هذه نيران حقة ، لا هزل فيها !.. وهكذا أخذت تندلع منذ منتصف الليل ... كان من الممكن أن تعيش القرية كلها عيشة النبلاء سنة أو أكثر على ما أتت عليه النيران هناك ! » .

فرد ليوتى أوربيسور فى صوت عال حزين ، وهو يحك صدره راضيا ، كأنما قد سكنت حدة الألم فيه : « لتتحول إلى رماد وهباء،فما يهمنى هذا فى شىء . .

لقد بقيت فى أما كنها أمداً طويلا ، بينما نحن نهلك جوعا ، فلا يستمع أحد إلينا ! » .

وكانت الأم أيونا ، وهى على مدى من الطريق ، وقد حملت سلة من حبوب على ساعدها ، تطعم فراخها ، وتلعن الدجاجات النهمات منها ، وتدافع عن الخائفات ، فتوزع العدل قسمة عادلة بصوتها الذى لا يكف عن الزجر والتقريع .

وسألها فاسيل : « أرأيت إلى هذه النيران الهائلة يا أم أيونا ؟.. إنها تبدو وكأننا فى عيد ... مارأيك يا أم ؟ » .

وأدارت العجوز رأسها إليه وهلة ، كأنما تزنه حق قدره ، وإذا بها تولى انتباهها إلى فراخها قائلة : « هذا هو الشيء الوحيد الذى يجمع من أجله الناس الأعياد ، عليها اللعنة ! » .

وجاء آخرون من الذين كانوا يسكنون على مقربة ، وكل منهم بسؤال أو إيضاح ؛ ثم أخذ كل واحد بعد دقائق قليلة يتريث حتى يدلى صاحبه بالأمر الذى لاشبهة فيه . . وإذا بهم كلما ازدادوا عدداً ، غدت وجوههم أشد تجهما ، وأصواتهم أشد غلاظة ، كأنما قد أثقل الصبر على نفوسهم فما عادوا يطيقونه إلا بمشقة بالغة ، ، إلى أن انفجر ليونتى غاضباً : « لماذا أنتم واقفون هنا، ترغون وتزبدون ؟.. ألا ليتنا نجد شيئاً آخر نفعله !.. هيا بنا إلى القرية فنرى ما يحدث فيها ... نحن لانريد أن نبقى بمعزل عن الأحداث . » .

« أحسنت ! » صاح بها كل واحد فيهم ؛ كأنما كان كل واحد لسان حال لما يعتمل فى أعماقهم جميعاً .

والتقوا فى الطريق بجماعات أخرى واصلت السير معهم ... وبدأ الفراغ أمام الخان كساحة السوق ... وكان هناك أيضا النساء والأطفال اختلطوا بالجمع المحموم .. كان كل واحد يتكلم ، كلاما مقتضبا هادئا ، كأنما كان يزن كل حرف ، وقلما كان منهم من تكلم بصوت عال ، فتسقط كلمته حينئذ نقطة ثقيلة من الماء همت من سحابة عاصفة ، فتستدير لها الرءوس فى دهشة .

وتساءل زيدارو عندما سمع جلبة من داخل الخان : « من هناك ؟ »

فأجاب إيجنات سيرسل ، وكان دائب الحركة هنا وهناك بين الناس : « جمع غفير ... يوجد ماران ودراجوس الشاب ، وبيتر بن سماراندا — قوم كثيرون يقضون وقتا طيبا للنظر فى أمر هام ! » .

فعاد فاسيل يسأل : « أى أمر ؟ » .

فرد إيجنات محذرا : هم على بينة من أمرهم ، فاتركهم وشأنهم ، لأنهم يعرفون ما يفعلون . »

فقال ليونتى أوربيسور مهتاجا : « ألم أقل لك ياعم فاسيل إننى شهدتهم ليلة الأمس يصفرون ويتمشون فى الطريق ؟ لقد خرجت أتفرج على النار وهى تشتعل ، وكنت أسائل نفسى عمن فعلها .. كانت نارا هائلة ، وشبت فى أماكن متفرقة فى نفس الوقت ، كأنما كان هناك عدد كبير منهم ! » .

فقال رجل مقعد واهن القوى : « ألم يكن يجدر بهم أن يخبرونا بشىء عن هذا الأمر ، حتى لا يزعموا فيما بعد أننا تخلفنا عنهم ، ومن ثم يتركوننا دون أى نصيب من الأرض ! » .

فقال إيجنات بلهجة ذات مغزى ، شأنه شأن من يعلم بواطن الأمور : إنهم لو بدأوا فى سؤال كل إنسان ، لما أتيح لهم أن يفعلوا شيئا على الإطلاق » .

فهمس البعض مؤيدين : « هذا صحيح والحق يقال ! »

وانفجرت فى تلك اللحظة عاطفة من الضحك أطلقها جماعة فى طرف الجمع ، فتحرك القوم فى اتجاهها .. وإذا بصوت تغمره الفرحة والسعادة يقول : « أنت إذن حملت فأسك معك ياتودر ؟ وأنا لا أظنك تريد إضرام النار فى الأحراش الآن ؟ »

وبدا السؤال طريفا طرافة جعلت الناس يطلقون مرة أخرى ضاحكين .. وضحك تودر ستريمبو كذلك ، وكان فأسه على ساعده الأيسر ، ومعطفه على كتفه ، فكشف — إذ ضحك — عن أسنانه الطويلة اللامعة كأنها أنياب حيوان جائع .. وقال : « كان لا بد لنا ياعم يوسف من أن نبدأ بإشعال النار ، هكذا تعلمنا ! »

وظهر نيكولاى دراجوس على باب الخان ، وقد تهدل وجهه كأنه لم يذق النوم

ألبتة ليلته تلك ، ولكن بدا مع ذلك أشد نشاطا من المعتاد . فلما وقع بصره على تودرستريمبو صاح يخاطب من كانوا داخل الخان « هيا بنا يابيتر ! كفى تلكؤا فقد حضر تودر ! » .

وخرج إلى الطريق ، ثم تبعه بيتر من الخان ، مع جمع من الآخرين ، وكان معظمهم من الشبان .. ثم ظهر صاحب الخان من الخلف ، وشد نيكولاى من ساعده .

« هيه يافتيان ، لقد نلتم كفايتكم ، ثم تريدون الآن أن تنصرفوا دون أن تدفعوا ثمن ماشربتم ! .. أهذا هو السلوك يانيكولاى ؟ » .

وقاطعه بيتر فى احتقار : « أصغ إلى ياعم كريستى ، خير لك أن تعود أدراجك، إلى بارك الصغير ، وتكف عن إزعاجنا .. نحن سندفع حين يحين الوقت .. أما الآن فاغرب عنا ، اغرب عنا ! » .

وعمت الدهشة بوزوك ، فالتفت إليه وأراد أن يرد عليه ، ولكن الفتى رماه بنظرة ازدراء ، قائلا فى نفس اللهجة : « اطمئن ياعم كريستى ، نحن لن ننساك ! ... سنسوى حسابنا معك بالعدل والقسطاس ؛ ولكن صبراً حتى يأتى دورك ! نحن من الآن فصاعدا لن نتمهل فى تسوية حسابنا ، كن من هذا على يقين ! » .

وضحك بعض الواقفين حواليهم ، وتمتم آخرون فيما بينهم وبين أنفسهم ، أما صاحب الخان فقد شحب وجهه ، وغمغم بصوت أجش : « ما الذى يوغر صدرك ضدى ، أى بنى بيتر ؟ .. أنا على كل حال ... »

ودفعه بيتر جانبا دون أن يرد عليه ، وخاطب تودر ستريمبو : « من حسن الحظ أنك جئت ، فقد تعبنا منا لانتظار ... انظر ، لقد طلعت الشمس ، وأقبلنا على الظهر ، ومع ذلك فنحن لم نبدأ بعد » .

واعترض تودر : « يوجد متسع من الوقت يابيتر ، فما من أحد يطاردنا ! ... كان لابد لى من تدبير أمر أطفـــالى ، فهم لا يجدون من يرعى شئونهم » .

وقطع نيكولاى دراجوس الحوار .... كان بينهم عشرون من الذين كانوا بالخان ، وكانوا الآن على أهبة الرحيل ... ووصل شيريلابون فى هذه اللحظة ، لاهث الأنفاس من الجرى ، وقد حمل هراوة مميزة فى يده .

وهتف وهو لا يكاد يستجمع أنفاسه : « انتظروا أيها الفتيان ... انتظروا لاتذهبوا دونى ! .. عيب على أن يفوتنى هذا وأنتم تعلمون جيداً ماأصابا بـ ... »

فقاطعه نيكولاى ، ولم يدعه يستكمل كلامه ، قائلا : نحن لانستطيع أن ننتظر بينما أنت تهرش ظهرك و ... فلما رأى أن الجماعة قد تضاعف عددها ، استطرد فى لهجة أخرى قائلا : « لاتأتوا جميعا فتزحمونا ... لقد اكتمل عددنا ... ثم إن هناك أناسا فى انتظارنا ليقدموا لنا المساعدة هناك أيضا ، لو اقتضى الأمر ! » .

وعاد الرجل العجوز صاحب الصوت الحزين ، وكان قد شق طريقه إلى المقدمة ، فقال شاكيا : « يبدو لى أنكم ترفضون الاتفاق ، وتأخذون كل شىء على عاتقكم ، دون أن تعبئوا بنا ! .. ليس من العدل فى شىء أن ... »

فهتف بيتر مزهوا كديك يتأهب للصياح : « اتركنا فى سلام أيها الشيخ ! .. أمامنا أولا بعض حسابات لا بد من تسويتها ، ثم سنعمل بعدئذ على أن يتم كل شىء وفق الصالح العام ، صالحنا جميعا ! » .

وانطلقوا إلى ليسبيزى ... وكانوا جميعا لايحملون شيئا فيما عدا تودرستريمو بفأسه ، وشيريلابون بهراوته .. وكان إيلياء اسيرلان أشدهم زهوا ، وكان لايكف عن التطلع وراءه ، وعن السخرية من الجمع الذين تركوهم خلفهم واقفين ، دون حراك ... وقال فاسيل زيدارو ، بعد أن مضت الجماعة بعض الطريق : « ترى إلى أين هم ذاهبون فى هذا الاتجاه ! ... أم تراهم لايزالون يقصدون بابا روجا ؟ » .

وكان بوزوك ، صاحب الخان ، واقفا بين أولئك الذين تخلفوا ، وكان يغمغم لنفسه فى اضطراب ، وإذا به فجأة يسترجع شجاعته ، كأنما قد ذهب عنه خطر داهم : « لماذا تسأل إلى أين يذهبون يافاسيل ؟ .. ألا ترى أنهم قد

أهاجوها ثورة ؟ .. خير لك أن تسألنى ما الذى يوغر صدورهم ضدى ؟ .. أنا لم أقترف أى أذى فى حق أى إنسان ، أيها الأخوان و ... » .

* * *

كانت إيلينا ، ابنة دوميترو كيوليكو ، ترقد قرب باب ناديناً فى الغرفة الصغيرة التى تفصل غرفة المائدة .. وكانت السيدة قد طلبت إليها أن تغلق الأبواب كلها ، كما أنها قامت بنفسها لتتأكد من أن الأبواب موصدة بإحكام .. وقالت للفتاة : إنها تخشى اللصوص ، فانطلقت إيلينا ضاحكة .

وفى هذا الصباح نهضت إيلينا ، ومضت إلى غرفة المائدة فى هدوء حتى لا تزعج السيدة .. وفتحت الباب الأمامى تحت الشرفة ، وكذلك شبابيك الردهة وغرفة المائدة ... وكانت تريد أن تمضى فى تنظيف البيت قبل أن تستيقظ السيدة ، فحملت فراشها ، وسارت فى الممشى ، واخترقت المطبخ ، متجهة صوب دارها ، فإذا بها ترى والديها بالمطبخ ، بجانب النيران المتأججة ، وهما فى حال من الرعب والغم .

وحياها أبوها قائلا : « هيا يا فتاة ، وكفى تلكؤاً كالأشراف ، فليس هذا وقت النوم ! . لقد وقع شىء رهيب — كأنما لم يكن ينقصنا غير هذا !.. »

وكان دوميترو ، قبل ذلك ببرهة ، عند شروق الشمس ، قد ذهب يوقظ السائق من نومه ، كما تقتضى التعليمات التى لديه .. وانتظر حتى خرج الألمانى من غرفته الصغيرة ، ثم انطلق هو فى دورته الصباحية المعتادة يتفحص المخازن . . . فلما عاد من دورته ، وجد رودلف راقدا بجانب البوابة ، مهشم الرأس ، ومغطى بالدماء والأقذار .. ولعله كان قد خرج إلى عرض الطريق ليشهد النيران المشتعلة فى روجينوزا من وضع أحسن ، فهجم عليه أولئك الذين كانوا يكمنون فى انتظاره هناك . . ترى من يكونون ، ولكنه لم يكن يعرف ، هكذا قال ؛ ولكنه كان قد سمع ليلة الأمس أحدهم يقول : إن الألمانى لن يفلت حتى ينال جزاءه من الضرب المبرح لأنه سبق أن ضرب بعض الأطفال فى آمارا قبل يومين .. ورفعه المشرف على ظهره ، وحمله إلى غرفته حيث رقد الآن كتلة عديمة الحركة ، رغم أن دوميترو قد غسل ما علق به من دماء ، كما ضمد رأسه . ولهذا وجب على إيلينا أن تذهب

فتخبر السيدة ، عندما تستيقظ ، وتدلها على ما قد وقع ؛ وعليها هى أن تقرر بعد ذلك ما تفعل ، فالسائق لن يتمكن من القيادة وهو فى هذه الحال على وجه اليقين كذلك ليس من الحكمة أن تبقى السيدة بعد ذلك . . فاللهب المشتعل فى روجينوزا لاشك سينتشر ويمتد بعد أن اشتد الحقد بالناس . . وهو لهذا عزم على أن ينطلق إلى جليجانو ، بمجرد أن يفرغ من إطعام الجواد ، ليخبر سيده بما حدث .

* * *

عاد العمدة برافيلا ، والرقيب بونجيو ، والمشرف بومبو متعبين منهوكى القوى يعلوهم السواد من الدخان والرماد . . ودلفت العربة إلى ساحة بيت الدائرة ، بعد أن توقفت وهلة فى الشارع حتى يتدلى منها رجلان من رجال الشرطة .. ولم يقبل بونجيو المثول أمام الشريف ميرون ، إلا بمشقة بالغة . لأنه رأى أن الواجب يقتضيه أن يسهر دون انقطاع فى نقطة البوليس ، حتى لا يباغته هجوم مفاجىء يقوم به الفلاحون

وكان الشريف ميرون مستيقظا يترقب ، وكان قد شهد اللهب الذى أضرم فى روجينوزا ، وسمع أشياء من الخدم عما قد حدث . . وكان أول رد فعل ألم به هو أن يستدعى إخيم من فوره ، فيطلب إليه إعداد الخيل . ثم ينطلق إلى مكان الحادث . ولكنه عاد وغير رأيه . . فليس من شك فى أن المشرف قد قام بكل ما يمكن القيام به فى هذا السبيل . . أما وجوده فلن يسبب غير المتاعب . وسوف يفضى إلى عواقب وخيمة . . والحق أنه ، منذ الأمس بعد الاجتماع الذى دعا إليه الوالى ، قد ساوره إلهام خفى بألا مناص من وقوع شىء لا يمكن الحيلولة دون وقوعه ولقد كان تدخل الوالى هو اللمسة الأخيرة . . نعم ، كان لا يزال من الممكن القضاء على النوازع الفوضوية الكامنة باتخاذ التدابير المناسبة التى تتسم بالحزم والشدة . . فالخوف هو الأساس الوحيد لاستتباب الأمن بين الناس البدائيين . . أما الوالى فقد جاء تحدوه روح التساهل والوفاق ، وكلاهما علامة من علامات الضعف ، وهى روح تشجع الذين كانوا لايزالون يترددون. والواقع أن بوريسكو قد فعل بالضبط ما أشار به جريجور . . وكأن اللهب المشتعل فى روجينوزا شاهد بين على ما ساور الشيخ ميرون من وساوس .

وأصغى إلى القصة التى قصها عليه ثلاثتهم فى هدوء كأنما لم يكونوا يخبرونه بأن ممتلكاته قد ضاعت هباء .. قالوا إن النيران اندلعت أول ما اندلعت فى عرمات الدريس ، ولكنهم ما كادوا يكتشفونها حتى كان كل شىء مشتعلا ، ثم انتشر اللهب وامتد إلى المخازن والاسطبلات .. وهرع الخدم الذين كانوا هناك لينقذوا الحيوانات ، ولكن الحيوانات نفقت حرقا رغم ذلك ، إذ لم يتمكن أحد تقريبا من الاقتراب من المبانى الخارجية .. ولو أن المياه كانت متوافرة ، والقرية كلها قد هبت للمعاونة ، لكان من اليسير جدا الحيلولة دون وقوع الكارثة . ولكن الفلاحين تحركوا فى تراخ ، ولم ينهض إلا أولئك الذين يقطنون على مقربة ليهتموا بأمر دورهم دون غيرها . أما الآخرون فقد راحوا يغطون فى سبات عميق كالموتى ... أما أولئك الذين كانوا يتسكعون حول المكان فلم يكترثوا فى قليل أو كثير ، ولم يدر فى خاطرهم شىء غير السلب والنهب .. وقال الرقيب إن النار قد أشعلها رجال من آمارا . فهذا ما أخبره به الفلاحون الذين قام باستجوابهم ، وكذلك زميل له وصل من إيزفورو صباح اليوم .

وتساءل الشيخ أيوجا بغتة فى لهجة أشد بهجة عن ذى قبل قائلا « هل هناك بارقة أمل فى اكتشافك لهم ؟ » .

« أظن أننى أستطيع لو ... » .

وتردد بونجيو وهلة قبل أن يعترف صراحة بأنه لا يجرؤ على استخدام وسائله المعتادة .. لقد أصبح الفلاحون فى هياج شديد ، وغدوا يميلون إلى المشاغبة ، كما حدث بالأمس مثلا ، مع الوالى .. كان من المحال كبح جماحهم بالكلام أو الوعيد كما أنه لم يعد قادرا على استخدام القوة فى الوقت الحاضر ، إذ ليس لديه من الرجال ما يكفى ، ثم هو يخشى أن يثير ثائرة القوة كلها ، فيوقع بنفسه جزاء صارما وهو لهذا يحاول الحفاظ على الأمن ، فى آمارا على الأقل ، بالرفق والتساهل ؛ وهذا فى الواقع ما أشار به رئيسه مفتش الشرطة بالأمس فقط .. وإلا فهو ما كان يغض الطرف عن الجماعة التى كانت تصفر ليلة الأمس ؛ إذ ليس من شك فى أن محركى الفتنة فى روجينوزا كانوا بينهم .

وصرح ميرون أيوجا بأن الرقيب ، والموقف قد تطور على هذا النحو ،

لا يتمكن من حمل شيء غير النجاة بجلده ، والواقع أنه هو نفسه ما كان يملك غير هذا . . المهم الآن هو الصمود حتى تدرك السلطات أخيراً أن الثورة التى أهاجوها ليست قناعا مزيفاً مثل المظاهرات التى يقومون بها فى بوخارست ، بل لابد لهم من اتخاذ التدابير اللازمة . . ثم أهاب بالعمدة والرقيب أن يؤديا واجبهما . قال : « والأمر لا يخلو من وجود بعض الناس الصالحين فى القرية ، وربما كان هؤلاء أكثر عددا من الصالحين . . هؤلاء أوقفوهم عن الحركة ، حتى لا يغلبهم الأشرار على أمرهم ، لأنهم أيضا مهددون بالكارثة المقبلة . . ثم ماذا يفعل الأب نيكوديم ؟ . . يجب أن نعيد إلى ذاكرة الناس أن يوم الحساب آت لا ريب فيه ، وحينئذ سيلقى كل واحد جزاء ما قدمت يداه ! » .

* * *

وقف نفر من الفلاحين ، فى الطريق الممتد أمام بيت الدائرة فى ليسبيزى ، يتحدثون عن النيران ؛ وكانوا يرون فيها نذيرا ، ولكنهم لا يدرون أهو نذير سوء أم نذير خير .. وكان ماتى دولمانو الذى ذهب إلى آمارا الليلة الماضية ، يداوم التطلع إلى الطريق ، شأنه شأن من ينتظر شخصا . ولا يكف عن التمتمة لنفسه : « النار وحدها هى التى تمحو الخطيئة ! » .

وأومأ الآخرون ، وقال واحد فيهم إن كلامه زاخر بالمعانى . . وعندئذ لمح ماتى جماعة تقترب من آمارا ، فقال فى غبطة : « اطمئنوا ، سيأتى وقت تدركون فيه معنى كلامى واضحا ! » .

وكانت الجماعة الوافدة من آمارا قد ازدادت عددا . . انضم إليهم بافل تونسو فى الطريق ، كما انضم آخرون بدافع الفضول لا أكثر .

وكان القوم جميعا يتبادلون الرأى مع ماتى دولمانو ، ثم تفرقوا إلى جماعتين وانطلقت أغلبيتهم مع نيكولاى دراجوس .

قال بيتر : « هيا . هيا . . يوجد منا عدد كاف — ولو احتجنا إلى مزيد من الناس فإن ماتى يعرف كلمة السر » .

وقال إيلياء سيرلان متحمسا : « أنا باق معك يا عم بيتر ! » .

وتساءل مانى دوانو ، وهو يشير إلى جماعته : ولكن لماذا يتجمع هؤلاء هنا على كل حال . . ؟ .

فأجاب بيتر : « بالضبط ! » . . ولكن لا داعى لأن نضيع وقتنا فى الكلام أرأيت كيف يسرع الآخرون ؟ .

— ٢ —

كانت نادينا قد قلبت شكل غرفة النوم فى بيت الدائرة وفق هواها على قدر ما وسعها . . أما جوجو ويوجينيا فقد قنعا بقسط معتدل من وسائل الراحة فى الريف ، فقد كانا يهتمان بالمنفعة أكثر مما يهتمان بالجمال . . ولكن نادينا ما كانت تنكر على نفسها أى قدر من الترف حتى فى غضون الليالى القليلة التى تنزلها بالفنادق فى أثناء ترحالها . . وكان السرير الأثرى الضخم المزدوج ، وهو الذى ألف جوجو أن يقول عنه فى فخار بأن فى وسعك أن تركن إليه كما يركن الطفل فى حضن أمه يبعث الذعر فى نفس نادينا ، ليس فقط بسبب نعومته الخارقة ، بل أيضا لافتقاره التام إلى الذوق والجمال . . وبعد أن أخذت نادينا حماما لتغتسل من آثار الرحلة باتت الليلة الاولى على أريكة بسيطة عريضة كانت موضوعة فى ركن من الغرفة التى إلى جوار الردهة . . ومن هذا الجانب كان يطل شباك كبير ، يحميه سياج من الحديد على منظر بهيج هو حديقة الزهور التى بالخارج . . وطار النوم من جفونها فى الليلة الماضية ، رغم حاجتها الشديدة إليه هربا من هذا الخوف الملح الذى سيطر عليها سيطرة تامة . . كانت تتخيل دائما أنها تسمع وقع خطوات ، إما فى الحديقة ، وإما فى الغرف الأخرى ؛ أو يدا تطرق على الشباك ، أو إنسانا يحاول أن يدير قبضة الباب فى الردهة . . .

وكانت كل مرة تغفو فيها تلك الغفوة التى تسبق النوم ، تسمع جلبة غريبة جديدة تفزع لها ، وتطرد عن نفسها الأمن والسكينة . . على أنها لم تستغرق فى النوم إلا ساعة الصباح . بعد أن استمعت برهة إلى صياح الديكة فى القرية وهى تنبىء بمطلع الفجر . وكان صياح أحد الديكة تحت شباكها هو الذى أيقظها الآن

من حلم لذيذ لم تستطع أن تتذكره ، بل احتفظت بالمتعة التى أحست بها . وبالندم على أنها لم تتمكن من المضى فى الحلم حتى النهاية . . ودون أن تدرك أين كانت ، حاولت زهاء دقيقتين ، وعيناها مغمضتان ، أن تستغرق فى النوم مرة أخرى ، وتواصل الحلم ، أو تحاول على الأقل أن تسترجعه . بيد أن المخاوف البشعة التى صارعتها طوال الليل ، ثارت ثانية ، فاستيقظت تماما ، ولكنها لم تجرؤ على فتح عينيها ، كأنما هى أكثر أمنا لو لم تر شيئا . . وخيم الصمت تماما . . . فلم تشعر أولا إلا بالذبذبات الطبيعية فى أعصابها السمعية ، وهذه تمضى عادة دون أن تلحظها أذن ، وكانت تختلج اختلاج الرقيق الذى لا ينتهى . . ثم أحست بوجيب قلبها وهو يخفق فى صدرها ، وبعد برهة خالتها دهرا ، أطلقت دجاجة فى الحديقة صوتا فجائيا مبحوحا ، فرن فى سمعها واضحا ، كأنما كان الشباك مفتوحا على مصراعيه . . ورق قلبها لهذه الصيحات الفجائية برهة ، ولكنها لما تبينتها استحال خوفها إلى ثقة . . ومدت يدها صوب الطاولة الصغيرة حيث كانت قد وضعت ساعتها الذهبية الصغيرة .

وغمغمت وهى تحملق فى ميناء الساعة : « الساعة الثامنة ! كم أنا متعبة ! . . أنا لا أريد أن أنهض أبدا . . ومع ذلك فلا بدلى من الرحيل . . لقد تأخر الوقت ، وكان أجدر بى أن أكون فى الطريق الآن ، لو . . . . لو أن روداف كان فقط مستعدا لكنت فى السيارة بعد نصف ساعة . . ترى أين ذهبت الفتاة ؟ » .

بدأت تنادى ، وهى تتغنى بالاسم وتمط فى حروفه . « إيلينا . . إيلينوتا . . أين أنت يا إيلينوتا . . إيلينا . . . »

وبعد دقيقة أو نحوها ظهر رأس الفتاة فى فتحة الباب المؤدى إلى الردهة . . متلصصة فى هدوء ، كأنما تستشف عما إذا كانت سيدتها تنادى فعلا ، أم هو وهم صوره لها الخيال .

وتساءلت نادينا . وهى تتمطى فى تراخ تحت اللحاف ، وترقد مستكينة رقدة القطة فى الدفء : « هل أخرج روداف السيارة ؟ » .

وكانت إيلينا ، على حسنها وصفائها ، تحمل دائما بسمة طريفة خفيفة الروح أعجبت بها نادينا . بل إنها طلبت إلى الفتاة أن تأتى معها إلى بوخارست . . أما

الآن فقد كانت بسمة الفتاة تتسم بالقلق .. ولحظت نادينا ما ارتسم على الفتاة فسألتها : « هل عادت أمـــك إلى تقريعك يا إيلينوتا ؟ . هيا ، لا تحزنى ، فهذا لا يليق بك ! » .

« أواه يا سيدتى العزيزة ... »

وغلبتها الدموع فى اللحظة التى بدأت فيها الـكلام .. وأخذت ، بين البـكاء والنشيج ، تحكى ماوقع للسائق ، وأن روجينوزا تحترق .. ولـكن نادينا لم تدرك مضمون الـكلام ، كأنما عجزت عن فهم مدلوله ، وقالت : « لابأس ، لا بأس ، ولـكن هل أعدت السيارة ؟ أنا مضطرة إلى الرحيل . »

فلما تأتى لها أن تفهم ، تجمدت رعبا فى الفراش ، وسحبت اللحاف حتى ذقنها وهى تحملق فى إيلينا بعينين زائغتين شاردتين .. ولم تستطع إلا بعد لأى ، فغمغمت فى صوت غريب مكدور قليل الحيلة : « ماذا أفعل الآن يا إيلونيتا ؟ . إنهم سيقتلوننى أيضا ، إنهم سيقتلوننى . .

وكانت الفتاة تحبها ، وترثى لها على مابها هى من خوف .. وإذا بها تستعيد شجاعتها ، فتسر لها بأن أباها قدانطلق منذ برهة ، فذهب إلى الأشراف فى جليجانو ليخبرهم بما حدث ، وليس من شك فى أن الأشراف سيأتون فى أحسن عربة لديهم فيأخذونها معهم ؛ ومن ثم ليس مايدعوها إلى الخوف أو القلق على الإطلاق .. يضاف إلى ذلك أن الناس هنا ليسوا أنذالا ، ولن يجسروا على اقتراف أشياء شريرة .. وأصغت نادينا إليها ، ولـكنها لم تفهم شيئا .. ولـكن صوت الفتاة ، مع ذلك ، أسكن من روعها ، ولطف من سورة الفزع فى قلبها .. وإذا بهـا تزيح فجأة اللحاف جانبا ، وتقول على عجل : « خير لى أن أرتدى ثيابى ، حتى يجدنى الملاك متأهبة .. هات فستانى ياعزيزتى ، بسرعة ... » .

ودارت بجسمها ، ووضعت قدمها فى (شبشبها) الناعم ، وانتصبت قائمة ، ثم حسرت عنها لباس النوم ، وألقت به على الفراش .. كانت عارية تماما ، على النحو الذى كلفت دائما أن تمضى به فى غرفة نومها ، بين المرايا التى تعكس ثنيات أعطافها فتجعلها تزهو بجمالها .. ولـكن لم تـكن بها نية الآن للإعجاب بعريها ، وإنما كانت

الحركة حركة تلقائية .. وتمشت رعدة فى أوصالها رغم أن الغرفة كانت دافئة.

وتمتمت : « هيا يا إيليونيتا ، هيا ، فإنى أشعر بالبرد . » .

وصاحت إيلينا : « ياالله ، كم أنت جميلة يا سيدتى ! » .

وتبسمت نادينا على غير إرادة منها . . لقد كان هذا الإعجاب يهز نفسها طربا دائما . وبينما الفتاة تساعدها على ارتداء قميصها الحريرى الأبيض ، وبينما هى تضع ساعدها الثانى فى الكم الفضفاض ، ترامت إليهما أصوات فى الفناء بالخارج .

وهتفت إيلينا فرحة : « أظن أن الأشراف قد وصلوا ياسيدتى ! » .

وهمست نادينا فى صوت قد جف من أثر الانفعال : « اذهبى وانظرى يا عزيزتى ، بسرعة ... ثم عودى وأخبرينى ! » .

واندفعت إيلينا تعبر الردهة ، أما نادينا فقد أحست بقلبها يقفز قلقا ... كانت ركبتاها ترتعشان . . فطوت نصفى القميص أمامها وجلست على الأريكة ، تصيخ السمع فى يأس وتوتر ... لم تستطع أن تتبين إلا ضجيجا مضطربا ، كانت تنبثق منه نبرة صوت مألوف مبهم ... وحاولت أن تتعرف على صوت الملتزم ، أو المحامى ، ولكنها لم تستطع ؛ كأنما هى لم تعد قادرة على تذكرهما .

وخطر لها خاطر فجائى : « ولكن لنفرض أنهم ليسوا هؤلاء ؟ » .

وانقبض قلبها قبضة مؤلمة غاية الألم بحيث أرادت أن تصرخ ... وفى تلك اللحظة سمعت بجلاء وقع أقدام مسرعة فى الردهة ثم انفتح الباب عنوة ، وإذا أمامها فلاح شاب قوى العضل بارز العظم ، « كاكيولته » السوداء على جانب ، وعيناه الداكنتان عابستان ، وكان يرتدى صدرة سوداء مما يرتديها الفلاحون فوق جلبابه الأسود الطويل ، وينتعل حذاء ثقيلا فى قدميه .. وأقفل بيترالباب ، وانتصب أمام نادينا فى ثبات : « سيدتى ، لماذا ...؟ » .

وتحشرج صوته فجأة ، كأنما يد عاتية تعتصر حلقومه .. وكانت نادينا تحاول أن تنهض ، فى اللحظة الأولى من الفزع الذى تملكها ، ولكن ساقيها لم تحتملاها ،

فانطرحت على حافة الأريكة . . وحلقت بعينين ملؤهما الفزع فى الفلاح الذى اندفع إلى غرفتها ... وفى لمحة عين تبينت فيه الرجل الذى قاد لها المركبة عندما جمحت الخيل ... كانت إذ ذاك قــــد أعجبت بقوته الخارقة ، وبثقته بنفسه ، وبهدوئه ؛ أما الآن فهذا الرجل نفسه قد جاء يبتغى قتلها . . . وسمعت السؤال الذى طرحه عليها ، ورأت فى نفس اللحظة عينيه . . . ولحظت فى اللحظة التالية أن صوته قد تغير ، وأن بريقا جديدا قد حل محل العبوس . حقا ، لقد لحظت هذا البريق النهم المضطرم فى عينى كل رجل تقريبا ، وكانت تستمتع به دائما ، فهى ترى فيه برهانا ساطعا على العاطفة التى يثيرها جمالها . . ولفحتها نظرة الفلاح كلهيب النار ، وأحست بها على جسدها ، وإذا بها تدرك فجأة أن جسدها كان عاريا وهبت على قدميها ، ولفت صدرها بقميصها ، وأخذت تصرخ فى قنوط : « ماذا تريد ؟ . . النجدة ! النجدة ! » .

وفهم بيتر صيحاتها فهما خاطئا . . . وفارت الدماء فى عروقه ، واحمر وجهه حتى عيناه . . . لم يعد يرى شيئا غير وجهه . . . وبطريقة فطرية مد ساعديه بيديهما المعروقتين الهائلتين ، يحاول أن يكبت عاطفة لم يعد يطيق معها صبرا ، فتلعثم مرتبكا ، « حسن . . لماذا . . . . » .

وحاولت نادينا أن تندفع إلى النافذة الأخرى . . . ومس كمها الفضفاض ساعده الممتد ، فقبضت عليه أصابعه على غير إرادة منه . وصرخت ، وهى تحاول أن تنزع كمها من قبضته : « اتركنى وشأنى . . . حل عنى . . . النجدة . . . » .

والتقط بيتر طاقيته من فوق الأرض ، ووضعها على رأسه ، وتلبث لحظة يطيل النظر إلى نادينا ، كأنما لم يرها على حقيقتها إلا الآن ، فغمغم لنفسه دون مبالاة : « النساء سواء ! ... » ثم أضاف فى صوت أراد به أن يكون آمرا : « لو كان لحياتك قيمة فى نظرك ، فلابد لك من الهرب ياسيدتى ! . . أسمعت ؟ . . لابد أن تهربى فورا . . . وإلا . . . »

وتطلعت نادينا إليه دون أن تعى شيئا ، ورفعت بصرها إليه وإذا بها تدرك الخطر الذى أحدق بها ، فأخذت تنشج باكية : « إلى أين الفرار ؟ . . أنقذنى ! . . ماذا أفعل ؟ » .

ولم يشأ بيترو أن يترك العنان لعواطفه ، فأعاد قوله فى غلظة : « افعلى ما يلهمك به الله ياسيدتى ... ولكن لا تترددى طويلا ... »

وتركها وهو يتمتم بالحروف الأخيرة ... وسمعت نادينا وقع حذائه على الأرض .. وانطلقت تبحث عن جوربها ، وهى تهمس من بين شفتيها الجافتين ، كأنما كان فى وسع أحد أن يسمعها : « لابد لى من الذهاب .. أين أذهب ؟ ... رباه .. رباه ، أين أذهب ؟ ... »

— ٣ —

كان بلاتامونو ، وهو ينطلق فى جولته الليلية المعتادة ، قد شهد النيران وهى تندلع فى الشرق ، فقال فى نفسه إنها لابد أن تكون فى تيلورمان ، على حدود الولاية بالضبط ، أو ربما فى إيزفورو ... ولكنها ، على أية حال ، إشارة إلى أن الثورة كانت تقترب ، وأنها سوف تنفجر هنا أيضا فى مدى يومين ... ولهذا قر رأيه على أن يغتنم فرصة سفر نادينا ، فيركب معها حتى ليسبيزى ... وكان حتما عليه أن يوقظ زوجه ليشاورها فيما ينبغى أن يحملاه من عتاد بالإضافة إلى المال والجوهرات .

كذلك أيقظ أرستيد نفسه فى وقت مبكر على غير المألوف ، وكان من عادته أن ينام حتى الظهيرة .

وحنق الشاب إذ قطعوا عليه أحلى أحلامه ، فقال إن أباه قد أصبح عصبيا ، شأنه شأن المحامى ستافرات الذى أخذ يرتعد فرقا منذ وصوله .. ونهض مع ذلك لأنه فى الواقع كان هو نفسه أشد فرقا ، وكان فقط يتظاهر بالبطولة حتى يناله إعجاب أبيه ، هذا الأب الذى أساء هو إليه واستغل حبه له أسوأ استغلال .

وعلى شرف من الساعة السابعة استعد ثلاثتهم للسفر ، بصرف النظر عن أوليمب ستافرات الذى اتخذ أهبته منذ الأمس ، والتمس النوم وهو فى ثيابه كاملة حتى لا يؤخذ على غرة من هجوم بليل .. ولم يدل بلاتامونو بطبيعة الحال بشىء إلى الخدم ، ولا إلى بقية أهل الدار عن رحيلهم ، لأنه لم يشأ أن يبث الذعر

فى نفوسهم ، أو يشجع الفلاحين على الإثم والعدوان . . أما عندما ينصرفون فلتكن مشيئة الله ..

وظهر دوميترو كيو ليكى فجأة ، عند منتصف الثامنة ، بينما هم يترقبون نادينا بصبر نافد — تلك التى أبت أن تكف عما ألفته من إهمال واهتمام بالتافه من الأمور ، حتى وقت الخطر كما هو الحال الآن . . وبعد لحظة من الدهشة البالغة نفث المحامى ستافرات عن مكنون غضبه ، فصاح : « هذه السيدة ستكون سبب دمارنا ! » ، وتساءل لماذا لم تحضر السيدة مع هذا الرجل فى عربته — الأمر الذى لم يكن ليحط من قدرها — بدلا من أن تجعلهم جميعا ينتظرون زمنا لا يدرى غير الله مداه حتى يأتى الفلاحون ويقطعوا رقابهم . . . وعرض أرستيد أن يرجع دوميتروكيوليكى فى عربتهم الصغيرة ، فيأتى بالسيدة ؛ وفى غضون هذا الوقت يعدون هم العربة الكبيرة فتحملهم إلى كوستنستى ... ولكن بلاتامونو رأى من الفطنة أن ينطلقوا فورا فى العربة الكبيرة ، فيمروا على ليسبيزى ، ويلتقطوا نادينا ثم ينطلقوا من هناك عبر كنتاكوزو إلى الطريق الرئيسى ، وهو طريق مأمون ، وربما كان فى حراسة الجيش أو الشرطة ... ولهـــذا أمر بالجياد أن تشد إلى العربة توا . .

وجلسوا جميعا فى الشرفة ينتظرون العربة ، ويسألون دوميتروكيوليكى مزيدا من التفاصيل ... وكانت السيدة بلاتامونو تجوس فى أرجاء البيت ، باكية متوسلة إلى الخدم أن يعتنوا بحاجياتها ، وألا ينسوهم كذلك . . . وكان دوميترو ، وهو واقف فى قاعدة الدرج ، يعتصر طاقيته فى يديه ، على وشك أن يقول إن الناس فى ليسبيزى يركنون إلى الهدوء ، وإنهم نادمون على أن العمل لم يبدأ بعد ، فإذا بجمع قوامه أربعون فلاحا يندفعون فى صخب من البوابة ، وبعضهم يلوح بالعصى .. وجلس الثلاثة فى ذهول على قمة الدرج . . . ولم تمض برهة حتى أحاط الفلاحون بالشرفة ، وكل منهم يتدافع ويكيل السباب ليكون فى المقدمة . . وكان دوميترو هو وحده الذى وقف حاسر الرأس فى وسط الجمع الساخط .. وخرج الخدم من المبانى الجانبية ، وقد أخذتهم الدهشة ؛ وظهر السائق وهو يجر الجياد ليشدها إلى العربة التى وقفت على استعداد .

وتمالك بلاتامونو نفسه ، فنهض ، وقال فى دهشة مصحوبة بالود : « ماذا حدث يا صحبي ؟ . من أغضبكم ؟ » .

وأجابته فى نفس واحد عشرات من الأصوات الغاضبة ، وكل منهم أعلى صوتا من الآخر ، وكلهم يلعنون ويشتمون ويتوعدون ، وكلهم يأتون جلبة تصم الآذان لا يتبين السامع منها إلا شذرات من اللغة البذيئة . . ولمح بلاتامونو ، وعيناه جاحظتان ، سمات فلاحين من آمارا وليسبيزى وجاليجانو بين الوجوه التى استبد بها الغضب . . واستقرت عيناه على شيريلابون ، وكان أقرب من غيره إلى المقدمة ، بجانب نيكولاى دراجوس شقيق المعلم ، فقال ملاطفا : « قل لى يا شيريلا ، ما خطبكم ؟ . ماذا تريدون منا ؟ . . أنت تعرف جيدا أننى لن أتردد فى . . »

وبدأ شيريلابون فى صوته الذليل المعتاد ، ولكنه إذ أخذ يتكلم ، صعد سلالم السدفة الأربعة ، وهو يتكىء على هراوته الجديدة الغضة التى حملها فى يده اليسرى .

« سيقولون لك بأنفسهم ماذا يريدون . إن لهم ألسنة فى أفواههم ؛ أما أنا فلى حساب مع هذا الوغد بسبب غيرغينا . »

وبلغ الشرفة ، فلما نطق بكلمة « الوغد » هجم على أرستيد ، وكان لا يزال فى جلسته هناك مبهوتا ، وعلى سحنته ابتسامة بلهاء ، فصفعه على وجهه صفعة تردد صداها بشدة ، كأنما قد ضربه بفأس .

وجعل بلاتامونو يصيح : « لا تضربه ياشيريلا ! »

ولكن الفلاحين هجموا عليهم فى تلك اللحظة ، مستعملين أياديهم وأرجلهم وطرحوهم أرضا . . وهتف المحامى يائسا : « لا تقتلونى يا إخوانى ؟ . . أنا لست من هنا ! . . آه ياربى !! . . »

واختلطت صرخات السيدة بلاتامونو والنسوة الأخريات من الداخل بالصخب والصياح . . . ولكن الصفعات لم تدم أكثر من دقيقتين ، ثم إذا بصوت نيكولاى

دراجوس يهتف آمرا : « قفوا !! .. اتركه ياعم شيريلا .. نحن لم نقطع هذا الطريق الطويل لننزل عليه ضربا .. كفى يا فتيان ، أتسمعوننى ؟» .. لقد جئنا بقصد قطع دابر هذا اليونانى حتى لا يتعرض لبناتنا ونسائنا بعد ذلك ! » .

وصعق القوم وهلة ... وتساءل قوم : « ماذا قال ؟ » وصاح آخرون : « إنهم يريدون أن « يطوشوه » . » واحتد البعض قائلين : « ليتكم تقتلونه ، فهو ليس خسارة على الإطلاق . وكان أرستيد ، وهو راقد بين أحذية الفلاحين ونعالهم وقد بهت من الصفعات التى انهالت عليه ، يفكر فى أن يتحرك قليلا إلى جانب ثم يغيب عن الأنظار .. ولكن أباه أخذ يصرخ فى يأس : « اعف عنه ياشيريلا !. رحمة به يا فتيان !.. اغفر له يا نيكولاى ! » .

ولكن أحداً لم يعبأ به .. وصاح قائل : « أفسحوا الطريق ، وتنحوا جانبا! » .

وأمسك نيكولاى دراجوس بأرستيد من أحد ساقيه ، فقد نجح الفتى فى أن يزحف مسافة قليلة فى أثناء هذا الوقت ، فجذبه إلى الوسط ، وطرحه على ظهره ، ثم هتف العريف فى الجنود : « تعال يا تريفتى ، وأنت يا فاسيل ... أمسكوا بيديه .. وأنت ياكوستيا أجثم على صدره ، ولا تدعه يتحرك .. وأنت أمسك بساقيه .. تعال ياشيريلا !! » .

وتزاحم الفلاحون جميعا حوله ، يطالعون المنظر فى نهم ... وأتى بلاتامونو بنفسه فى وسطهم بجنون : « الرحمة ياشيريلا ! . آه ، ياربى — اقتلونى أنا ياقوم بدلا منه ! » .

واعترضت طريقه سواعد ، وتلقى هو عددا من الصفعات ، وسمع الناس صوت شيريلا وهو يقول مؤنبا : « هكذا بكيت أنا ، عندما رأيت ابنتى غيرغينا ببطنها المنتفخة ، بينما هذا اللص النذل يضحك ويهزأ ... » .

وصرخ أرستيد صرخة تردد صداها فى الجو : « النجدة !.. النجدة !.. آه يا ربى !.. » ، وتعالت صرخاته من شدة الألم ، واستحالت إلى أنات ، ثم إلى نهنهة ونشيج .. واستمر شيريلا بون فى مهمته ، وهو يتحدث فى هدوء ، كأنما

كان يعالج خنزيرا صغيرا : « هيه ، أيها الديك الصغير ... حسبك ما نلت من نسائنا ، ولكنك ستتأدب من الآن فصاعدا .. آه ، لقد انفطر قلبي طوال الشتاء وشكوت إلى كل إنسان ... »

وأخذ نيكولاى دراجوس يرقب المنظر وهو مقطب الوجه ، ويرمى بنظرة إلى بلاتامونو من آن إلى آن ، وكان على مدى قليل منه ، يتلوى فى قبضة الفلاحين ويصرخ وينشج .

« أخيرا ، انتهينا ! » قالها شيريلا ، ونهض على قدميه .

وانفجر بضعة رجال ضاحكين ، ثم تعالى بعض الهتاف ، وعادت الضجة من جديد بعد أن ماتت وهلة .. وترك القوم أرستيد يتأوه على أرضية الشرفة .. وجذب أبوه نفسه من بين سواعد الفلاحين ، وألقى بنفسه على ولده : « ولدى الحبيب ، ولدى الحبيب ... يا أوغاد !! » .

وهبط شيريلابون ونيكولاى دراجوس الدرج إلى الفناء ، وتبعهم آخرون فى ضجيج . وتمالك بلاتامونو نفسه فجأة ، فنادى على زوجه ، التى وقعت مغشيا عليها عدة مرات من الرعب ، فأبلغها أن عليهم أن ينطلقوا فوراً إلى كوستستى على الأقل ، ليلتمسوا طبيبا هناك ، وإلا فالولد مقضى عليه لا محالة .. ثم رفع ابنه من الأرض بجهد بالغ، وأخذه بين ساعديه كأنه طفل،ومشى به بين جميع الفلاحين الصاخبين الذين تنحوا جانبا ، برغمهم ، وأفسحوا فراغا ليخترق الفناء إلى حيث وقفت العربة تنتظر ، والسائق يرغى ويزبد إلى جانبها ، وقد أخذته الصاعقة فبهت . وبينا الملتزم يسير متثاقلا ، يحمل حمله ، وزوجه تتبعه برفقة خادمتين عجوزين ، هتف : « شد الخيل يامتروفان ، بسرعة يامتروفان؛ لابد أن نذهب إلى المستشفى، وإلا مات الفتى !! » .

ولما سمعه الجمع وشاهدوه ، جاشت عواطفهم أسى على ما ألم بالوالد من حزن . وكان دراجوس هو وحده الذى انفجر قائلا فى حقد واحتقار . « اغربوا عنا !! اغربوا عنا !! ليت الطبيب يعيده سيرته الأولى ! » .

بيد أن أحداً لم يعاود الضحك ، بل راقب الجمع الملتزم وهو يتخذ له مكانا فى العربة ، وقد أمسك أرستيد بين ذراعيه، بينما السيدة بلاتامونو تحتضنهما، ثم تصعد هي إلى جانب السائق، على حين أخذ دوميترو كيوليكي والخادمتان يعاونونهم فى لهفة. — وانطلقت الجياد صوب البوابة ، وإذا هى تخترق الجمع ، صاح بلاتامونو ، وعيناه تذرفان الدمع ، وصوته يفيض أسى : « لا بأس ياشيريلا . . الله عليم بكل شىء ، ولسوف ينزل بك عقابا أشد مما أنزلت بى ! » .

قال شيريلا بون : « لقدنالنى منك مافيه الكفاية ، ولم تنتظر أنت عقاب الله ! »

وانهال دراجوس عليهم سبابا ، وهو يكز بأسنانه : « اغربوا عنـــا ، أيها اليونانيون الأقذار ! » .

ومرقت العربة من البوابة . ثم مضت لحظات، فقال نيكولاى وهو أهدأ جأشا من ذى قبل : « لقد فرغنا مما جئنا لأجله ، ولتنصرف الآن إلى بيوتنا . . . أمامنا أشياء أخرى نعملها » .

والتقت عيناه بنظرة ساخطة ألقاها شاب مفتول العضل ، قال : « ماذا تقول يابن العم ؟ . نحن لم نشعلها ثورة من أجل ابن اليونانى فقط . . . »

قال دراجوس ، وقد ازداد غضبا . « أتريدمنا أن نعلمك ماتفعل عندما تتخلص من الأشراف ؟ . أليس لك عقل فى رأسك ، أم أنت طفل رضيع ؟ . هيا ياعم شيريلا ! . . هيا يافتية آمارا، إننا نعرف ماينبغى أن نفعل دون سؤال الآخرين ! » .

فأجابت أصوات عدة : « صدقت ! . . صدقت ! . . كان الله فى عونك ، وفى عوننا أيضا ! » .

ومع ذلك ، فبعد أن انصرف أهل آمارا ، وقفت الجماعة التى تخلفت فى فناء البيت فى حيرة من أمرها ، لا تدرى ماذا تفعل ، ثم إذا بهم يسخطون على ماأصابهم من عجز ، وأخذوا يصيحون ، وكل منهم أعلى صوتا من أخيه ، ويسبون ويتدافعون: « لنشعل فيه النار مثل روجينوزا . . . قفوا ، إياكم وهذا ، لماذا نعود إلى بيوتنا وأيدينا خاوية ؛ لماذا نشعل النيران ، بدلا من أن يأخذ كل منا شيئا ؟ . . المخازن

ممتلئة . . . رباه ! . هيا يا أولاد ، ولا تترددوا . . . أ أنت خائف يا أيون ؟ لم يعد عندنا أشراف بعد ! » .

واندفع رجل فوق الشرفة،حيث كان الخدم يعملون ، وهم يبكون . . وانطلق الآخرون وراءه كقطيع من الغنم . . وجرت النسوة إلى داخل البيت مولولات من الرعب . . وتوافدت أفواج الفلاحين من الطريق ، بعد أن سمعوا أن الناس كانوا متجمعين فى بيت الدائرة . . . وكان الذين دخلوا البيت يتدافعون فى عنف، ويأتون بجلبة شديدة ، ويحطمون أشياء كثيرة ، كأنما كانوا يحاربون عدواً لدوداً. وخرجوا ، واحداً واحداً ، بأشياء مختلفة ،حسب رأى كل منهم فى أيها أغلى ثمنا، فحملوها إلى دورهم ، وهم يصيحون فى رضى ، ثم يسرعون عائدين ليحصلوا على شىء جديد قبل أن يصبح الكل هباء . . . أما الذين جاءوا متأخرين فكانوا ينقبون فى الفناء ، وكان الكثيرون منهم يحومون حول المخازن . . وأصبح البيت خلية من النحل ، يعج رجالا ونساء وأطفالا ، لاتشغلهم جميعا إلا فكرة واحدة هى ألا يأخذ أحد أكثر مما يأخذون .

أما المحامى ستافرات ، فهو بعد أن تلقى وابلا من الصفعات ، انتهز فرصة تزاحم الجمع على ابن بلاتامونو ، فشق طريقه عائداً إلى البيت . وكان قد درس فى اليومين الماضيين جميع المخارج ترقبا لمثل هذه الطوارئ . . ومن ثم داف من المطبخ إلى ظهر البيت ، وخرج إلى الفناء الصغير . . وكان حاضر الذهن ، رغم ما أصابه من صفعات وركلات ، فلم يشأ أن يختبىء فى أحد المبانى الخارجية ، كما انتوى من قبل ، بل تسلق السياج الممتد حول حديقة الخضروات ، وانطلق فى شجاعة مخترقا الحقل صوب الطريق الرئيسى الذى يتاخم أكواخ القرية . وما كان يخطر فى باله قط أنه قادر ، وهو فى سن السادسة والخمسين ، على هذا المجهود البدنى الخارق.. ولقد تناسى ضعف قلبه ، ومبادئ الربو ، وأن الطبيب قد نهاه عن الجرى . . واستطاع، وهو يتفصد عرقا ، ويتيه بزهو أعطاه قوة متجددة ، وقد مال قليلا ليتنكب العيون ، أن يشق طريقه بين شرخات الحقل اللزجة التى اكتنفتها الوحول هنا وهناك . . . ها هو الكوخ الأخير . ودفعته نفسه أن يتوقف ليلتقط أنفاسه ، وليجفف عرقه ؟ ولكنه تغلب على ضعفه ، وواصل سيره مائلا صوب الطريق

الرئيسى . . وإذا به يلمح عربة ، ويتعرف عليها ، فأخذفى الصياح ، ولكن صوته ضاع فى جلجلة العجلات . . . وغلبه اليأس وهلة . . ماذا لو التقى بدهماء من الفلاحين فى طريقه ؟ وانطلقت العربة فى طريقها لاتلوى على شىء ، وجيادها تركض ركضا ، ثم أخذت تتضاءل شيئا فشيئا على مدى النظر .

وصاح المحامى يحدث نفسه فى مرارة : « ما أغبى هؤلاء الفلاحين ! » أولا يهجمون على الملتزم يبتغون قتله ، ثم لايلبثون أن يطلقوا سراحه فى العربة . . . لو كنت أعلم لبقيت هناك، إنى إذن ما كنت أعانى من الخوض فى هذه الأوحال كلها !! »

— ٤ —

تمتمت نادينا تحدث نفسها المرة بعد المرة، وهى تلبس ملابسها فى عجلة يائسة، كأنما البيت قد اشتعل نارا . . « لا بد لى من الرحيل فورا ! . . أين قبعتى ؟ . . أوه ، لابد أن أرحل ! » .

وكانت قد جمعت أدوات الزينة الخاصة بها: ساعتها وحاجياتها الأخرى الصغيرة ، وألقت بها فى حقيبتها الجلدية الحمراء التى تحمل اسمها بحروف من ذهب . . وإذ هى تمر أمام المرآة ، تطلعت إليها بحكم العادة، فإذا بها تشهد ، والرعب يملأ نفسها ، شخصا غريبا .

وغمغمت ذاهلة : « مسكينة أنا ! ! . أهذا كله بسبب . . . ؟ . . . لا بد أن أخرج بسرعة ، أنا . . . »

وكان بيتر قد دلف من الردهة إلى الشرفة ، ثم هبط إلى الفناء حيث تجمع هناك نفر من أهل ليسبزى . . وكان تودرستريمبو يحاور زوج دوميترو كيوليكى، لأن أبلينا لم تكف عن محاولة العودة إلى البيت لتكون إلى جانب سيدتها ، ولكن تودر كان يحول بينها وبين ماتريد باستمرار ، بل ويدفعها حتى انخرطت الفتاة فى البكاء . قال :

« حسنا فعلت إذ حضرت يابيتر ، فإن هاتين المرأتين أرادتا الفتك بى ! » ثم أضاف بابتسامة ذات مغزى : « هل رحبت بك السيدة وألحت عليك فى البقاء ؟ ».

فقال الشاب عابسا : « صه ياتودر ، ولا تكن فظا !.. ثق أننى لقنتها درسا لن تنساه أبداً . . . وهى سوف ترحل الآن،وتترك لنا الضيعة وكل شىء : »

قال بعض الرجال من أهل ليسيزى : « أحسنت صنعا ! » .

ولكن تودر ستريمبو تضرج وجهه فجأة وقال . «أهذا ما أزمعنا أن نفعله يا بيتر؟ أترانى قطعت هذا الشوط الطويل حتى كلت قدماى لأعود صفر اليدين ؟ ».

قال بيتر : « ماذا تريد غير ذلك ياتودر ؟ » .

« ألم تكن أنت نفسك القائل بأنها هزئت بنا طويلا و . . . . . »

« أهزئت هى منك أم منى ؟ . . . »

فقال تودر محتدا : « هذا شأنك ، إن كنت ترى ذلك .. أما أنا فلى رأى آخر .. احمل هذا يا إيلياء . . . أنا لن أترك زمامى للغير الذين . . . . » والتفت إلى إيلياء سيرلات ، ودفع بفأسه بين ذراعيه .

وانطلق وهو يزبد ، فاخترق السدفة ، واختفى داخل البيت . وفاضت نفس أيلينا رعبا ، فأمسكت بيتر من كمه ، وصاحت : « لا تتركه يقتلها يابيتر ! »

فقال الشاب غاضبا : « لتذهب إلى الجحيم إذا لم تراع ماقلته لها » ثم تمالك نفسه وقال : « لقد أخبرتها . . »

وفى اللحظة التى دخل تودر فيها الردهة ، خرجت نادينا من غرفة النوم ، فى ثيابها كاملة ، وهى تحمل حقيبتها .. فلما رآها الفلاح ، اقترب منها ، وقال ساخرا: «إلى أين تريدين الفرار ياحماتى الصغيرة ؟. ابقى هنا وهاتى قبلة !»

وترددت نادينا لمحة عين ، ثم اندفعت كالبرق إلى الردهة ، وهى توصد الباب دونها .. واشتعل تودر ، فحطم الباب بكتفه حتى دون أن يعالج المقبض .

وصرخت نادينا ، جاحظة العينين : «النجدة !»

وابتسم تودر : « أنا لا أروق لك ، أليس كذلك ياسيدتى .. لا يهم ، المهم أنك تروقين لى ! » .

وطرحها أرضا .. واستمرت نادينا فى الصراخ : «النجدة !.. النجدة» !..»

«كفى صراخا أيتها الكلبة الحقيرة !..» قالها الفلاح وهو يقبض على حلقها بكلتا يديه .

وتحشرج صوت نادينا كأنما قد اقتلع من جذوره .

وظهر تودر بعد دقائق قليلة على السدفة ، وقد أخفى حقيبة نادينا تحت سترته وهو ينظر نظرة شزراء راضية . وتناول فأسه من إيلياء .

وتطلع إليه القوم فى فضول وخوف ، ولكن أيلينا انفجرت صائحة «لقد قتلها والله !.. قاتل !.. قاتل !..»

وصاح بيتر : «رباه ! أتراك فعلت هذا ياتودر ؟» .

ورد تودر هادئا : «لقد ماتت كما تموت الدجاجة !.. أنا ما كدت ألمسها ، بل حاولت فقط أن أمنعها عن الصراخ ، ولكنها لفظت أنفاسها» .

فعاد بيتر يكرر فى أسى : «رباه ! المسألة أصبحت خطيرة الآن ياتودر .. من الآن فصاعدا ..»

ونظر الفلاح إلى بيتر ، ثم إلى الآخرين ، فى دهشة ما لبثت أن استحالت إلى حنق ، ثم إلى غضب شديد .. وانتفشت الشعيرات الطويلة التى انتثرت على وجهه العريض غير الحليق ، ولمعت عيناه الصغيرتان الغائرتان ، مثل جمرات من الفحم الملتهب أذكت أوارها ريح صرصر عاتية . وأخذ يهذى هذيان وحش مخبول ، وهو يتحرك جيئة وذهابا كأنما يتمشى حافيا على نار تحترق ، وقال :

«ماذا لو ماتت ؟.. ألم تمت زوجتى لأنها لم تجد ما تأكله أياما وأياما ، ولم أتمكن أنا حتى من أن أحملها إلى طبيب ؟.. هل اهتم أحد من الأشراف فسأل لماذا ماتت زوج تودر ستريمبو ؟.. أنا إلى اليوم مدين للقس ولغير القس بسبب الجنازة ، وأولادى يتضورون جوعا !.. أنا لا أملك من الأرض قطعة فى حجم قبضة يدى .. لقد ذبلت من شد الكد حتى خرجت عيناى من رأسى ، ومع ذلك

فلا أزال لا أجد ما أطعم به أولادى . . لماذا إذن تغضبون على لأنى قضيت عليها؟ . أجدر بكم أن تبصقوا عليها ، وهى جثة هامدة . . . إنها لم تأت هنا إلا من أجل متعتها وراحتها ، لا لكى تترك الأرض لنا ، بل لتعطيها للملاك آخرين من أمثالها. أنا عزمت على قتل كل واحد من الملاك ، فى كل مرة يعترض أحدهم طريق ، ولسوف أضربه بفأسى ، حتى لا يبقى منهم أو من ذريتهم أحد حيا يرزق ! » .

ورفع فأسه ، ولفها حول رأسه فى جنون ، وقد انبعث صوته الأجش ، مرة عاليا ، ومرة منخفضا ، كنفير مكسور : « لقد شبعت من الألم والعذاب ... أنا الآن أريد ترضية ؛ ودم الملاك وحده هو الذى سيروى غليلى ! » .

ومزق بفأسه شبابيك البيت ، فتهشمت بدورها مع أطرها . . وكأنما قد أصابت الفلاحين الآخرين عدوى الغضب والتخريب ، فاندفعوا وراءه بكل سلاح وقع فى أيديهم ، بغية التدمير والتكسير . . وصرخت زوج دوميترو ، وشدت شعرها ، خشية أن تمتد أيديهم إلى ممتلكاتها أيضا . . وفى نفس الوقت جرت أيلينا إلى البيت لترى ما حل بالسيدة نادينا . . أما بافل تونسو فقد وضع عينه على السيارة من بداية البداية . . وكان قد اكتشف فى أحد المخازن معولا ، فأخذ الآن يضرب به السيارة ، والغضب يشتد به عندما وجد أنها لم تتحطم على الفور . على أنه وقد رأى أن خزان البنزين قد انثقب ، وضع المعول على الأرض ، وصعد إلى الغرفة العليا فوق المخزن المجاور للباب ، فجذب حفنة من التبن ، وجعل منها ضفيرة وتحسس جيبه يلتمس الثقاب ، وأوقد الضفيرة بعد لأى . . ثم انتظر حتى اشتعل اللهب ، فألقى بها على بركة البنزين الذى تجمع تحت السيارة ، وإذا بلهب أزرق يلتف بالسيارة ، ويرتفع إلى خشب السقف ، ويمتد إلى غرفة التبن المجاورة ، وفى دقائق قليلة أحاطت سحابة من الدخان الخانق بالمبانى الخارجية كلها ، وألسنة اللهب الصفراء تتلوى فيها فى اضطراب وقلق .

وانطلقت من أفواه الفلاحين فرحة غامرة وحشية : « النيران ! النيران ! » « آه ، إنها لتدفىء قلبي ! » صاح بها تودر ستريمبو ، ووجهه يلمع عرقا ، ثم التفت صوب المبانى المحترقة كأنما كان يود أن يلقى بنفسه فى الحريق .

ووقف بيتر قرب الشرفة ، وقد تملكته دهشة بالغة . . كان ينظر إلى الناس الذين تجمعوا فى ساحة الفناء نظرة رجل فى حلم ، ولم يلحظ إلا بعد لأى أن ماتى دولمانو كان يقف كذلك فى نفس المكان الذى وقف هو فيه .

« هيا يابيتر . . هيا نخرج السيدة من البيت . . سوف تحرقها النار ومن العار أن نتركها إلى هذا المصير ! » .

ووافقه بيتر على عجل : «صدقت ياعم ماتى .. لقد فقد الناس صوابهم تماما» وخرجت أيلينا فى تلك اللحظة من البيت المشئوم ، وقد حملت بين ذراعيها جثة نادينا وقد التفت فى ملاءة بيضاء .

— ٥ —

بدت صحيفة درابلول فى حداد . . وعندما وصل تيتو هيرديليا إلى الدار فى العاشرة لم يجد حتى روزو نفسه على مكتبه العتيد الذى تراكمت عليه الصحف . . والظاهر أن سكرتير التحرير كان قد حضر ، ولكنه خرج فى حاجة منذ قليل ، بعد أن ترك رسالة قال فيها إنه سيعود بعد نصف الساعة .

وكان هيرديليا الشاب قد تأخر لأنه مال فى طريقه على مودرينو فى وزارة الداخلية ليحصل منه على بعض المعلومات بخصوص ولاية آرجس ، كما سبق له أن وعد جريجور أيوجا . . ولم يتأت له أن يستوضح شيئا . . وكان جريجور قد اتصل بالأمس هاتفيا بمدير مكتب الوالى فى بيتستى ، فقيل له إن الوالى كان يطوف بالولاية ، وإنه من المتوقع أن يعود بالليل . . ولكن كل شىء كان هادئا فى الوقت الراهن ، كذلك لم ترد أنباء تشير إلى وقوع اضطرابات فى أى مكان ، رغم أن خطر العدوى كبير ، فإن تيلورمان وهى التى احتدمت بها الثورة ، على قرب قريب . . وبحث تيتو عن جريجور طيلة الضحى ، ولكنه لم يعثر عليه إلا فى المساء عند آل بريديلينو ، وقال جريجور ضاحكا معتذرا : إن تيتو إذا أراد أن يعثر عليه فليطلبه دائما أول مايطلبه عند آل بريديلينو ، فهو يقضى هناك من الوقت أكثر مما يقضى فى بيته . . وابتسم هيرديليا — فهو قد لحظ أن الآنسة أولجا بوستيلينكو لا تغض

طرفها الساحر عن أيوجا الشاب ، بصرف النظر عما يربط جريجور وفيكتور من صداقة »

والتقى تيتو بجوجو أيونيسكو فى اليوم ذاته ساعة الأصيل . . كذلك تحدث جوجو هاتفيا مع بيتسى . . كان فى غاية الشجن . . وكانت عيناه دامعتين باستمرار ونفسه مفعمة بالتطير ، رغم مابذلت يوجينيا من جهد لترفه عنه .

ولقد دبر تيتو أمره بطبيعة الحال بحيث يكون فى بيته فى الخامسة ، وهو الموعد الذى كان ينتظر فيه تانتا ... وكان الشاب هناك فى الموعد المضروب بالضبط ، واندفع الاثنان يتعانقان ، وهما يبكيان قليلا من فرط الفرحة باللقاء .!. وظهر أن « الأمر الهام » الذى سبق أن ذكرته فى البطاقة التى بعثت بها إليه لم يكن هاما على الإطلاق ... وفحواه أن جينتسا قد هجر السيدة الكسندريسكو بعد انتقال تيتو بأيام ثلاثة ، وأن جينتسا لم يكن هو الذى طالب بوجوب انتقال تيتو ، ولكن صاحبة الدار نفسها كانت تريد الغرفة لأن ميمى لاتجد لها مكانا بعد أن سرحها زوجها أخيراً ... وحاولت السيدة الكسندريسكو أن تختلق مشاحنة ، فجاءت إلى بيتهم واصطنعت خلافا مع كل إنسان ، بل واتهمت تانتا بصوت عال فى عرضها ؛ ولكن جينتسا انفصل عنها نهائيا ، فخطب إلى نفسه ابنة مساعد المدير — والواقع أنه تصرف تصرفا نبيلا ، فدحض اتهامات السيدة الكسندريسكو أمام والديه .. واستمع تيتو إلى هذا كله باهتمام شديد ؛ أولا لأن تانتا هى التى كانت تقصه عليه ؛ وثانيا لأنه يهتم من قلبه بكل أمر يخصها .. وقال لها مخلصا : إنه لو كان فى مركز مضمون ، حتى ولو بعض الشىء ، لتزوجها فى الغد ؛ ولكن لامناص على كل حال من أن تكون له أبد الآبدين .. واستطرد قائلا : إنه من الآن فصاعدا لن يناديها إلا « بياخطيبتى » ، بدلا من كلمات الإعزاز الأخرى ، دليلا منه على ما قال .

وهتف روزو عندما دخل ووجد تيتو غارقا بأنفه فى الصحف : « أجئت ياهيرديليا ؟ . . برافو !! .. انتهى الأمر يازميلى العزيز ... فى عصر هذا النهار ستكون هناك حكومة جديدة !

وأضاف ؛ بعد أن تصفح عدة جرائد، « أرأيت إلى هؤلاء السادة الشرفاء وكيف غيروا موقفهم ؟ ... إنهم لم يعودوا يتكلمون عن كفاح الفلاحين المقدس .. الفلاحون الآن « مهيجو فتن » ولا بد أن تتخذ حيالهم تدابير رادعة .. ألم أنبئك أنا بهذا كله منذ نحو ثلاثة أسابيع يا زميلى العزيز ؟... أنت سرعان ما تراهم يخرجون المدافع ليكتسحوا الثورة التى كانوا يمجدونها حتى الأمس القريب ، ويرون فيها كفاحا مقدسا ! .. أرأيت ! .. لقد ظلوا يرددون « الكفاح المقدس » ، « ولا ينبغى أن تراق نقطة دم واحدة من الدم الرومانى » حتى الأمس — أعنى حتى الساعة التى تأكدوا فيها أنهم مستولون على ناصية الحكم .. ومعنى هذا أنهم أشعلوا الفتنة فى البلد عامدين ودون وازع أو ضمير .. إن خراب البلد ليس شيئا فى نظرهم ، المهم هو أن يصلوا إلى الحكم ، حتى ولو كان ذلك فى بلد ممزق الأوصال .. حرام هذا ... إنهم قوم أسافل ياصديقى ! .. أنا لا أعبأ بالسياسة ؛ والأحزاب لا تعنى فى نظرى شيئا بمذاهبها ؛ أما هؤلاء القوم ، فهم طغمة من الأدنياء ! ».

وهنا دق التليفون ، فتوقف عن الاسترسال .

« هالو ! .. نعم نعم ، هنا « درابلول » .... السيد هيرديليا ؟ .. نعم ها هو ذا .. »

وكان المتحدث هو جوجو أيونيسكو، يسأل عن الأخبار ؛ فقد أصبح من المحال الاتصال ببيتستى اليوم ... ووعده تيتو بأن يمر عليه بعد أن يقابل مودرينو .

واستأنف السكرتير الكلام ؛ كأنما أشعلت هذه المقاطعة مشاعره أكثر فأكثر : « مساكين ! .. كلهم يضطربون ويتعذبون ، لأن هؤلاء السادة يبتغون الوصول إلى الحكم ، أيا كانت الوسيلة ! ! ثم ما أكثر الناس الذين سيتعذبون ، وكم من الدماء ستراق !! .. إن هؤلاء الناس لن يتورعوا عن إقامة مذبحة للفلاحين ، كما لم يتورعوا عن دفعهم إلى الثورة !! .. أكثر من هذا ، أنا أؤكد لك أنهم سيجعلون كبش الفداء بعض المشاغبين ... وبالطبع ليس منهم الوزير الذى أعلن أن هذا الصراع مقدس ... لا يا زميلى العزيز ! .. إنما الاتهام سينصب علىّ ، أو عليك ، أو على معلم أو قس مسكين ليس عضوا فى حزبهم ، أو على أحد الاشتراكيين ... »

وقاطعه التليفون مرة أخرى ... وكان المتحدث هو جريجور ، قال إنه ينوى أن يمر على تيتو ليذهب معه إلى وزارة الداخلية ... ثم أخذ روزو طوال الساعة ونصف الساعة يصب على مسامع الشاب الوديع كل ما فى جعبته من دهاء سياسى .

واستقبل مودرينو جريجور أيوجا بلطف بلغ منتهاه ، رغم مشغوليته الفائقة بسبب التغيير الوزارى ، وذكره بلقائهما فى القطار ، وبحديثهما مع روجوجينارو.. وقال : إنه تلقى هذا الصباح إشارة هاتفية من بيتستى تفيد أن الفلاحين أشعلوا النار فى أثناء الليل فى دائرة بجنوب الولاية ، فى كفر اسمه روجو نيتسا أو روجينوزا.. فالاسم لم يكن واضحا ، لأن الوالى ، وهو الذى تكلم شخصيا ، كان يتلعثم وفى غاية القلق .. وأضاف مودرينو أنه طلب بيتستى قبل ذلك بساعة ، ليحصل على معلومات وافية عن آرجس ، فأخبره الوالى أن الاتصالات السلكية بالجزء الأدنى من الولاية معطلة أو مقطوعة ، ولهذا لن تتوافر لديه معلومات جديدة مالم يصل الرسل الذين أوفدهم ... وأضاف الوالى أنه قد أبلغ عن خبر النار التى اشتعلت فى كفر روجينوزا كما تلقاها هو هاتفيا من كوستستى . ولكنه لا يستطيع أن يشهد شخصياً بصحتها ، وربما كانت فكاهة سخيفة . لأنه هو نفسه كان حتى ليلة الأمس يلف بالولاية ، وكان الأمن مستتبا على أكمل وجه فى تلك المنطقة .

وابتسم مودرينو : « ربما كان واليكم هذا رجلا ممتازا غاية الامتياز ، ولكنه يفرط فى التفاؤل إلى حد بعيد » .

وشكره جريجور أيوجا بحرارة .. ثم تناولا التغير الذى طرأ على الحكومة زهاء دقيقتين ، فقال جريجور إن صديقه المحامى بالولينو ، ربما يتولى منصب الوالى فى أرجس ... هذا ، على الأقل ، ما قاله له بالولينو نفسه ... وكان مودرينو يعرف المحامى بطبيعة الحال ، فقال إنه سيكون نعم الوالى ، وبخاصة فى هذه الأوقات المضطربة .

وحدث جريجور تيتو ، وهما فى الطريق ، قائلا إنه لو عين بالولينو فعلا واليا ، فسيصحبه فى طريقه إلى آمارا .. وصرح بأنه فى غاية القلق بخصوص

مصير والده ... وتوقف على الطوار أمام المسرح القوى ، فنظر فى ساعته ، وغمغم فى كربه : « النصف بعد الثانية عشرة ... ترى ما الذى حدث فى آمارا الآن ، يارب ؟ » .

— ٦ —

ما كاد النهار ينتصف حتى علمت آمارا كلها بما أتاه أولئك الذين رحلوا إلى ليسبيزى وجليجانو فى الصباح ... وكلما انتقل الخبر من فم إلى فم تجسمت الأحداث بطبيعة الحال .. قيل على سبيل المثال إن اليونانيين ، الابن وأباه ، قد نالا نفس المصير ، وإن رجلا من جليجانو قد قتل نسوة بفأسه ، وإن القوم قد قطعوا لسان المحامى الذى وفد من بوخارست ، وأرسلوه يجرى فى الحقول ، وهو لا يرتدى غير سرواله .. أما فى ليسبيزى فقد نال الرجال جميعا بغيتهم من السيدة الجميلة ، وأخيرا لوى تودر ستريمبو رقبتها ، كما يلوى المرء رقبة دجاجة ، ثم ألقى بجثتها إلى النار .. أما بافل تونسو فقد نزل على الألمانى ضربا مبرحا حتى مات . ولكن الفلاحين عادوا أدراجهم وحدانا واثنين اثنين ، لا جماعة متراصة كما رحلوا ، ولهذا لم يلحظهم أحد عندما رجعوا إلى دورهم ، اللهم إلا بافل تونسو الذى جاء يصرخ كالمجنون ... والظاهر أن أحداً شهد تود ستريمبو ، وقد حمل كيسا ثقيلا على كتفه ، وهو كيس قال الآخرون : إنه كان مليئا بالنقود الذهبية والمجوهرات التى استلبها من السيدة المتوفاة .

وكان العمدة برافيلا قد ترك كاتبه بالديوان ، أما هو نفسه فقد بقى بالبيت .. كان يعلم بكل شىء يجرى فى القرية ، ولكنه أراد أن يبتعد عن أى تدخل كائنا ما كان .. لقد سمع أن بعض الأفراد ينوون به شرا ، وأن يشعلوا النار فى مخازنه لأنهم يكنون له بغضا وحقدا بسبب أذى سبق أن أوقعه بهم ، ولذلك رأى من الفطنة أن يدع أهل القرية يمضون فيما هم فيه من خبل ، على النحو الذى توحى لهم به عقولهم .. ثم لماذا يعرض حياته وأملاكه للخطر والناس قد طاشت أحلامهم؟ فسرعان ما تأتى السلطات ، وتجعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ولن يلبثوا أن يندموا غاية النــــدم ... على أنه ، حتى ذلك الحين ، لابد أن يسير وفق هواهم ، إيثارا للسلامة .

أما الكاتب ، شيريتا دوميتريسكو ، فقد ضاق من الوحدة فى الديوان ، فنادى على الخفيرين ، وتجاذب معهما الحديث فيما يجرى من أحداث . وكان يندد بوحشية الفلاحين ويشجبها ، ويقف إلى جانب الأشراف متحمسا ، فهو يعتبر نفسه واحدا من طبقتهم ، وكان فى أثناء كلامه يتيه عجبا بنفسه على الدوام ، ويصلح من ياقته وربطة عنقه فى المرآة الصغيرة التى وضعها على مكتبه .

ولقد حدث صباح اليوم ، بعد عودة العمدة من روجينوزا وحديثه مع الشريف ميرون ، أن اصطدم بالرقيب بوجيو فى ود فى أثناء مسيرهما بين بيت أيوجا ونقطة الشرطة . . كان كلاهما يريد أن يتملص من مسئولية الحفاظ على النظام والأمن فى القرية . . وقال برافيلا صراحة إنه ينفض يديه من الأمر ، وإنه لم يعد له أى نفوذ . . وصرح الرقيب فى مرارة ، بعد أن صب اللعنات على كل شىء بوجه عام ، بأن على الشرطة دائما أن تقوم بالعمل القذر الذى يأباه الآخرون ، وأضاف متوعدا : « لا تجعلنى أخرج عن طورى ، وإلا أطلقت الرصاص عليكم جميعا كالغربان ، يا أيها الأجلاف الملاعين ! » .

والواقع أن بوجيو كان فى حيرة من أمره فى صميم نفسه ، رغم هذا الادعاء المظهرى بالشجاعة . . كان فى حسابه أن ينال قسطا من الراحة فى الوقت الحاضر لأنه لم يكد يغفو الليلة الماضية حتى أيقظه القوم ، وهو الآن تعب منهوك القوى لا يجد فرصة يلتمس فيها غفوة . . ولقد اضطر أن يدخل فى شجار مع ديدينا نحو ساعة من الزمان ، وكان من الممكن أن ينتهى الأمر بأن يكيل لها الصفعات ، لولا أن العريف قد دخل عليه ، وأخبره بأمر جماعة الفلاحين الذين رحلوا إلى ليسبيزى — لا تحدوهم بالطبع نوايا سلمية ؛ ثم توالت عليه الأخبار بعد ذلك بما فعله الفلاحون ، وأخيرا وصل لازار أودودى ، وهو رئيس خدم الملتزم كوزما بيريونا ، وكان يرتعد فرقا ، وقال إن جماعة من الناس كانوا يحومون حول بيت الدائرة ، وإنه يخشى أن يشعلوا فيه النار .

وعقد الرقيب مجلسا يضم العساكر الأربعة ، بعد أن فرغ من الشجار مع زوجه واستقر الرأى ، نظرا لقلة عددهم ، على أن يتظاهروا بتجاهل هذه الاضطرابات التى وقعت فى القرى المجاورة ، أو تلك التى قد تقع سواء بسواء . . بل ورأوا أن

يغمضوا عيونهم على المخالفات التى تحدث فى آمارا ، وهو الأمر الذى ساروا عليه من قبل فى الواقع منذ أن بدأ الشغب قبل أيام قلائل .. ولكن لامناص لهم من الحيلولة دون وقوع تخريب ، أو إشعال حرائق .. أما لودعت الحاجة ، فلتخرج القوة كلها ، إرهابا للناس .. ولكن لاينبغى بحال أن يعبئوا بنادقهم بالرصاص مسبقا ، وإنما يقومون بهذا وهم فى الميدان ، حتى يشتد وقعها على الناس .. أما لو اضطر هو — معاذ الله — إلى إصدار الأمر بإطلاق النار ، فليصوبوا أولا فوق الرءوس ، فإذا لم يؤد هذا إلى الأثر المطلوب ، فلهم عندئذ فقط أن يطلقوا النار مباشرة .. وأخيرا لاينبغى لأحد أن يترك نقطة الشرطة ، تأهبا لكل طارىء ، كما ينبغى أن تكون أسلحتهم ومعداتهم فى متناول أيديهم .

وخاطب خادم بيريونا قائلا : « أنت يا أودودى لاترى غير الثورة حيثما توليت وجهك — حتى ولو لم تر غير رجلين يتجاذبان الحديث .. هذا هو مقياس شجاعتك يا أودودى ! »

قال لازار أودودى مستسلما : « لم يعد فى طوقى أن أكبح جماح الناس ، أيها الرقيب .. افعل أنت ماتشاء ، وأنا مضطر إلى إبلاغك بالأمر ، حتى إذا مارجع الملاك لن يتهمونى بالإهمال فى المحافظة على ممتلكاتهم . »

ثم أرسل الرقيب بعد ذلك بوجزا ، وهو أشد رجاله لماحية ليقدر الموقف على حقيقته .. وعاد الشرطى بأنباء كانت أشد وقعا من بلاغ الخادم .. والحق أن بيت الدائرة لم يمس حتى الآن ، ولكن الفوضى كانت ضاربة هناك ، إذ إن الناس يحملون القمح والذرة والحبوب وغيرها ويضعونها فى سلال أو أكياس... ولقد تقاطر الناس فى هدوء من فايدى لينالوا نصيبهم .. ولقد تم السطو على جميع المخازن ليلة الأمس .. وأخبر أحد الخدم الشرطى بأن خفراء الملتزم كانوا هم أنفسهم أشد الناس همة ، فهم الذين دعوا الناس إلى الغنيمة .. والظاهر . كما هو فى واقع الأمر ، أن أودودى نفسه كان على تفاهم مع الفلاحين ، بمعنى أنه لم يعبأ بما فعلوا بالمخازن وغيرها ، على شرط ألا يمسوا بيت الدائرة .. أما وقد اكتشف أنهم يريدون إشعال النار فى البيت ، أو نهبه على الأقل ، فقد جاء يتقدم بالشكوى .. ولم يكن يوجد كثير من الفلاحين هناك ، لأن كل واحد أخذ ما أراد

وانصرف لحاله . . أما خارج الخان . فقد اجتمع نحو خمسين فلاحا ، بل وربما أكثر ، وكانوا إما يتجاذبون أطراف الحديث ، وإما يدبرون أمرا بليل .

وعبس بونجيو وقال : « إذن فالأجلاف يأبون أن يتركوا الأشياء على حالها . » ولكنه التزم جانب التعقل ، ورأى عدم التدخل . . لماذا يثير ثائرتهم وهم لم يخلوا بالأمن .

وبعد أقل من نصف الساعة اندفع الشرطى الذى كان واقفا فى الساحة إلى مكتب الرقيب ، فقال لاهثا : « النار . . النار ! . . بيت الدائرة يحترق ! ! »

وخرج الرقيب ، واجف القلب . . نعم ، ففى اتجاه بيت كوزما بيريونا ، تصاعدت سحب كثيفة من الدخان . . لم يعد فى مقدوره أن يظل متجاهلا للأمر ، وهو لو فعل لتعرض لمحاكمة عسكرية إذا ما اكتشفت الحقيقة ، ولابد أن تكتشف الحقيقة إذا لم تقدم الشرطة على شىء ، والفلاحون قد أشعلوا النار فى البيت . . وألقى الرقيب بعدة أوامر ، ووقف موقف التأهب ، بينما ديدينا تصرخ ، وهى تعتصر يديها : « سيلفسترو ! . سيلفسترو ، احترس لنفسك حتى لا يقتلوك ! »

وتمالك بونجيو نفسه ، وبقى هادئا ، وقد استقر عزمه على ألا يجازف بنفسه بل يقوم بداورية ، إظهارا للسلطان لا أكثر . . ولم يكن يريد أن يثير الفلاحين بل كانت بغيته أن يلاطفهم . . وانتوى أن يعالج الحريق ، لا على أنه عمل مقصود بل على أنه حريق عادى . . أما فيما بعد ، عندما تستقر الأوضاع ، فسوف يغير مسلكه ، ويكيل الصاع صاعين لهؤلاء الأوغاد .

وعلى ناصية الطريق القريب من الخان ، كان الطريق المؤدى إلى البيت غاصا بالفلاحين واقترب الرقيب ، وهو يمشى مشية عسكرية أمام الجنود الأربعة ، بخطوات متئدة ، وقد تألق وجهه ، وندت عنه ابتسامة لطيفة أراد أن تكون دليلا على أنه لا ينتوى نوايا سيئة . . وبقى الفلاحون فى سكون ، ينظرون إلى رجال الشرطة دون مبالاة ، كأنهم غرباء عابرو سبيل . . فلما كان العساكر على بعد خطوتين فقط منهم ، أفسحوا لهم فراغا ، ليشقوا طريقهم فيه . . وتساءل بونجيو مازحا : « هيه ، يا إخوان ، ألا تريدون أن تسمحوا لنا بالمرور ؟ » .

فهتف صوت ساخر : « لماذا تريد أن تمر ؟ .. ألا ترى أن البيت يحترق من تلقاء نفسه ! » .

وتظاهر الرقيب بأنه لم يفهم دلالة الكلام ، وتوقف وسط الفلاحين وقال : « إنه يحترق حقا .. ولكن لابد أن نؤدى واجبنا .. أعندكم مانع ؟ أعندك مانع ياسيرافيم ؟ » وكان سيرافيم موجوس يقف أمامه مباشرة ، ووجهه عابس مكفهر .

وهز موجوس كتفيه استخفافا ، دون أن يجيب .. ولكن تريفون غوغو تكلم نيابة عنه : « أما نحن فنعرف واجبنا نحوك .. من السهل ضرب الناس وتعذيبهم حين تكون لك اليد الطولى ! » .

« لو كان عمل الإنسان يتطلب هذا ياتريفون .... » قالها بونجيو متوددا ، فقد أدرك أن الفلاحين يحاولون استفزازه .

وقال سيرافيم موجوس فجأة : « أتراك تذوقت طعم الضرب؟ .. إن لم يكن فسأذيقك طعمه ، يا بن الزانية ! » .

وصفع الرقيب على خديه ، وهو يتكلم ، فى سرعة البرق .. بل إن بونجيو لم يجد فسحة من الوقت ليدرك ما كان يجرى .. لقد انهالت الصفعات عليه من كل جانب .. وأحس ، وكأنه فى حلم ، بتريفون غوغو وهو ينزع بندقيته عن كتفه ، ثم وهو يضرب برأسه فى صدره ، فكان الخاطر الوحيد الذى خطر له هو أن يولى الأدبار .. وصرخ الفلاحون ، وهجموا عليه : « هيا ، أعطوه ما يستحق !! » .. « اسلقوه ضربا !! » ، « اذهبوا عنا .. اذهبوا عنا !! » . أما العساكر . فكانوا يصرخون فى رعب : « لا تضربوا !! » ، وتدلى برأسه ليشق له طريقا .. ولم يدم الهياج إلا دقائق قليلة .. ثم استطاع ، رغم وابل من الصفعات ، أن يبتعد مسافة قليلة ، ثم خفت الصفعات كلما قل الجمع الذين تكأكئوا عليه ؛ بينما استمر الصراع وراءه عنيفاً صاخبا ، كأنما لم يلحظ الفلاحون أنه قد تملص من بينهم .

وارتفعت الصيحات خلفه ساخرة : « اغربوا عنا !! ولوا أدباركم !! » .

وأطاعت ساقاه النداء على غير إرادة منه ، فقطع مسافة بسرعة خارقة .. وتتابعت أقدام أخرى تجرى فى إثره .. كان بوده أن يتبين من كان هؤلاء ، ولكنه خشى أن ينظر خلفه .. واستمر الصياح .. فلما جرى هكذا بجنون بضع دقائق ، لحظ بوابة عن يمينه مفتوحة على مصراعيها ، وتبين أنها دار ماران ستان ، فاندفع إلى الفناء صوب الحديقة . . وحاول الكلب عبثا ، وهو يزمجر غاضبا ، أن يقف دونه ، ولكن الرجل لم يبطىء فى خطوه وينظر حواليه إلا عندما وجد نفسه بين الأشجار التى خلف الدار ... وجاء فى إثره العساكر الأربعة ، بنفس السرعة اليائسة ، على مسافات دلت على الترتيب الذى هربوا به من الصفعات . . وكان العساكر الأربعة جميعاً قد فقدوا أسلحتهم ، شأنهم شأن رئيسهم ، وكان منهم اثنان عاريى الرأس . بعد أن تركا قبعتيهما على أرض المعركة.. وتوقف الفلاحون المنتصرون ، عندما بلغوا واجهة الدار ، وهم يصخبون ويلعنون ، يهزون قبضاتهم ، ويلوحون فى الهواء بالبنادق التى تخلفت فى حوزتهم ... واطمأن الرقيب بعض الشىء عندما رأى رجاله فى إثره ، فأدار ظهره إلى الجمع الصاخب ، وواصل تراجعه عبر الحديقة فى خطو معتدل ، بقصد أن يجد مكانا يلجئون إليه جميعاً .. وإذ هو يتمالك نفسه تدريجيا ، ظل يردد فى ذهنه : « من حسن الحظ أن البنادق لم تكن معبأة ، وإلا فتك بنا هؤلاء الأوغاد » .

وبينما العساكر ينسحبون ، وهم يتحسسون فى رفق كدماتهم وضلوعهم المرضوضة ، أخذ الفلاحون يدلون بتعليقات بذيئة حول الاشتباك الذى جرى ، وهم يضحكون ويسبون ويشتمون ... وجعل تريفون غوغو يرقص ويلوح ببندقية فى الهواء ، وهو يهتف ويرقص فى مرح كان يتعارض كل التعارض مع ما ألف من عبوس ، وقال : « الآن حان الوقت ، أيها الأصدقاء .. الآن حان الوقت ! » .

وانتشر نبأ طرد العساكر بسرعة فى أرجاء القرية ، فعمت الفرحة كل مكان وانزاح حمل ثقيل من فوق صدور الفلاحين . وأسرع أصغر أبناء سماراندا إلى بيته . وكان يحوم بالصدفة حول الخان ، فرأى ما حل بالعساكر ، فاندفع لاهثا مبهور الأنفاس ، وقال بمجرد أن وصل إلى الفناء : « أخى بيتر ! .. أماه ! ..

لقد طردوا ... العساكر ... الناس .. وضربوهم ضربا .. شديداً . و ... » .
وكان بيتر ، بعد أن وصل من ليسييزى ، لم يترك داره منذ ذلك الحين .. كان مهتاجا سريع الانفعال ، يحس طعم المرارة فى فمه .. لم يحدث أمه بكلمة ، بل ولم يشأ أن يتناول الطعام .. وغمغم الآن فى حدة : « ليذهبوا إلى الجحيم ، فما كان فيهم خير لأحد ! ! ... » .

— ٧ —

كانت الساعة تقترب من السادسة مساء عنـــدما صاح صبية الصحف فى بوخارست : « عدد خاص .. الحكومة الجديدة .. نداء إلى الشعب ! ! » .

وكان جريجور ، منذ عودته من آمارا ، قد ألف تناول عشائه مع آل بريديلينو كل مساء .. لقد أصبح من المحال أن يبقى مع خالته ماريوكا يستمع إلى حديثها الفارغ ، أو أن يذهب إلى المطاعم أو النادى مع صحاب كانوا حتى الأمس القريب مستعدين للموت فى سبيل الفلاحين ... لقد نادوا عن فكرة توزيع الأرض ، وهم يحسبون خفية فى صميم أنفسهم أن شيئاً لن يحدث . بل كانوا يتيهون كبرياء بالظهور بمظهر ذوى الأفكار التقدمية .. أما اليوم ، فهؤلاء الناس أنفسهم يلحون فى استخدام السلاح ، ليكتسحوا القرى الثائرة من الوجود ، أما الفلاحون هناك فلا بأس من أن يضربوا جميعه ، ودون استثناء ، بالسياط ، حتى ينبثق الدم من أجسادهم ، فيكونون عبرة لمن يعتبر ، ومن ثم لن يجرؤ فلاح أن يرفع رأسه مرة أخرى إلى أبد الآبدين .. وكان ينطلق على سجيته هنا ، فى بيت فيكتور ، وبخاصة الآن وأبوه يجابه الخطر وحده فى القرية ، وهو عاجز عن مد يد المساعدة إليه ؛ كان هو وفيكتور على تفاهم ، كالعهد بهما دائما .

وابتاع وهو فى طريقه إلى هنا هذا المساء كل عدد خاص من الصحف حتى يطالعها مع فيكتور ، ويتناولاها بالتعليق فيما بعد . . ولم يكن معنيا بتشكيل الحكومة ، ولكن اهتمامه انصب على النداء ، فقد ترددت الشائعات بأن الحكومة ستعلن فى النداء عن إصلاحات كبرى ، وهى إصلاحات ستضع نهاية لاضطراب الفلاحين على الفور ، كما ستقضى على الحاجة إلى القمع عن طريق السلاح .

وأتيح لهما ، قبل أن تعد المائدة ، أن يتناقشا فى جميع التدابيرالتى وردت فى النداء ، ولكنهما اختلفا فى الرأى حولها .. كان من رأى بريديلينو أن الحكومة الجديدة استهلت استهلالا رائعا ، وأن النداء كان بمثابة غصن زيتون فى يد أولئك الذين سيتولون تهدئة الفلاحين .. لم يكن فى المقدور الوعد بأ كثر من هذا ؛ وبخاصة فى ظل الضغط القائم من أثر القلاقل .. ولكن جريجور رأى أن الإصلاحات الموعودة فى النداء ما هى إلاسخرية فارغة فى نظر أهل القرى الثائرة .. فالفلاحون يريدون الأرض ...وهم قد أحرقوا ، وانتهكوا كل حرمة ليصبحوا سادة للأرض ، والآن تأتى الحكومة الجديدة ، وبدلا من أن تعطيهم الأرض ، تعفيهم من بعض الضرائب ، وتبذل لهم الوعود بتأجير أرض الدولة لهم وتقول : إن شروط العقود مع الملاك ستخفف وطأتها ، ونحو هذا ، وهذه كلها أمور كان من الممكن أن تكون ذات فائدة كبيرة قبل أن تنشب الثورة ، أما اليوم ...

واستطرد جريجور : « لقد رجعت من آمارا منذ أيام قليلة فقط ، وهناك أحسست بوجيب قلب الفلاحين ! .. لقد سعوا جاهدين قبل شهر أو نحوه أن يسمح لهم بشراء باباروجا ، أما اليوم فهم لايفكرون حتى فى هذا ... هم الآن يطالبون بكل بساطة بتوزيع الضياع كلها فيما بينهم ... أيقنع مثل هؤلاء الناس بإعفائهم من الضرائب ؟.. هذه لعمرى سخافة ! » .

قال بريديلينو مبتهجا : « حسن ، ولكن لامناص فى هذه الحالة من استخدام القوة لتهدئتهم أولا ، ثم هم بعد أن يعودوا إلى رشدهم سيفهمون دلالة التدابير التى اتخذت لصالحهم » .

فأجاب جريجور : « هذا صحيح ، لابد لنا من أن نلتزم الرياء والنفاق ... لقد ثار الفلاحون ..إذن فلينزل الجيش لإيقاع العقاب بهم ، هذا كل مافى الأمر !.. إن الإصلاحات لا يمكن أن تناقش إلا مع أناس أصحاء ، لامع مرضى بهم لوثة .. وهذا النداء ليس إلا مظهرا من مظاهر الرياء والنفاق ، وذلك هو مايغضبنى ... فالثورة لا يمكن إخمادها دون إراقة الدماء .. والحكومة ، بدلا من أن تطلق الرصاص مباشرة على الثائرين ، تلوح أولا بهذا النداء فى الهواء ، تبرئة لنفسها

فيما بعد ، فتزعم بأنها لم تكن تريد إراقة الدماء ولكن . . . هذه مناورة رخيصة ، وهى لن تنطلى على الفلاحين ، بل ستزيد من هياجهم ، وستفضى إلى مزيد من إراقة الدماء ».

وكانت تيكلا قد منعت أى نقاش يدور حول الثورة أو السياسة وهم على المائدة . . . ومن ثم صرفوا معظم الوقت يتحدثون عن ميرون أيوجا . . قالت السيدة بريديلينو : « إن أوصالى ترتعد كلما أفكر أن فيكتور قد يكون وحده فى القرية فى هذا الوقت ! » .

ونظر جريجور إلى أولجا . . . وعندئذ تساءل بريديلينو قائلا : « على فكرة يا جريجور — معذرة لو كان هذا السؤال خارجا أو تعوزه اللياقة — ولكنى سمعت أن زوجتك قد . . . »

« زوجتى السابقة ! » قالها جريجور بسرعة وقد تضرج وجهه .

« نعم ، سمعت أن زوجتك السابقة قد ذهبت إلى القرية فى هذا الوقت . . . أصحيح هذا ؟» لو كان الأمر كذلك فالحقيقة أنها . . . . »

فغمغم أيوجا ، وقد اربد وجهه : « لا أدرى ! . . هى ، فيما يختص بى قد ماتت منذ زمان طويل » .

— ٨ —

ظل بومبو المشرف يوالى إخطار الشيخ أيوجا بكل ما يحدث فى القرية ، بناء على ما لديه من تعليمات . . ولقد أخذ الشريف ميرون ، منذ أن تلقى الخبر الخاص بروجينوزا فى الصباح ، يستدعيه المرة بعد المرة ليطرح عليه نفس الأسئلة : « ماذا لدى رجالى من حيل أخرى يدبرونها ؟ » .

ولم يحجب بومبو عنه إلا حقيقة واحدة هى مقتل نادينا ، فقد خشى أن يصر الشيخ على الذهاب إلى ليسبيزى ليشهد الأمور بنفسه . . وعندما سأل عن السيدة أجاب بومبو بأنه لم يتلق خبرا عنها ، ولكن ربما لم تكن السيدة فى القرية بعد . .

وعندئذ صاح ميرون مغتبطا : « بالطبع ، ليس هذا مكانها الآن ! من حسن الحظ أن لديها سيارة ، وفى وسعها أن تفر فى الوقت المناسب ، وإلا علم الله المخاطر التى تتعرض لها على أيدى رجالنا » .

وخرج الشيخ وحده إلى الفناء بعد العشاء ، كما كان يفعل كل مساء ، بقصد ممارسة قليل من الرياضة قبل أن يأوى إلى الفراش ... وكانت السماء صافية ، ذات لون أرجوانى قاتم ، والنجوم تلمع كقطرات الندى ... وأضفى نسيم الربيع على حركاته قوة ، فمضى يتمشى حول الفيلا الجديدة ، ويسير على الممشى المغطى بالحصباء ، وكان قد تم تنظيفه منذ قليل ، وانطلق إلى البوابة المؤدية إلى الطريق .. ورأى على مقربة منه ، إلى الأمام ، من خلل الأشجار ، النار تلتهم بيت كوزما بيريونا ، وتحترق فى هدوء ، دون أن يندلع منها لهب كبير — بل انبعثت منها رقعة من اللون الأحمر على الأفق البعيد .. وكانت الساعة العاشرة ، وقد سكنت ثائرة الحرائق والجلبة التى أتى بها الفلاحون ... ونامت القرية ، كأنما أحداث القرية كلها كانت حلما من الأحلام ، لولا ضوء النيران الذى قام دليلا على أنها حقيقة واقعة ... وكان ثمة بقعة أخرى حمراء ، على مدى أبعد ، إلى اليسار ، أنارت السماء ، فكانت علامة على أن النار اشتعلت فى ولاية ليسبيزى ، إن لم يكن فى جليجانو أيضاً .. بل استمر الوهج الوردى كذلك إلى اليمين ، ناحية روجينوزا ... كان كل شىء مازال مشتعلا ، وظل كذلك يشتعل فى هدوء ، ودون عجلة ، كجمرات من الفحم .

وغمغم ميرون أيوجا ، وهو يتوقف برهة قرب البوابة : « ما كان يخطر فى بالى أبداً أن رجالى هم أشر الناس . وما كنت أظن أنهم يذهبون فى كل مكان حولنا ، ليثيروا الآخرين بخبثهم !! .. لقد ضاعت جهودى سدى عليهم !! .. لا فائدة ، لقد قضى على الفلاح أن يظل همجيا وحشيا أبد الدهر ! » .

وعاد أدراجه حول الجانب الآخر للبيت ، ومر بالمبانى القديمة ، ودخل الحديقة الكبيرة التى فى ظهر البيت ، حيث لا توجد أشجار تعترض النظر .... وترسبت المرارة فى نفسه شيئا فشيئا .. وأصبحت لا تطاق ... لقد كان متأكدا فى صميم نفسه ، حتى هذا الصباح ، رغم كل الشائعات ، أن فلاحيه سيلزمون الهدوء ، حتى ولو هبت القرى المجاورة كلها ثائرة ... وكان يرتبط بهم ارتباطا وثيقا برباط

من حياته هو ، وحياة أجداده ، بحيث وجد من المحال عليه أن يؤمن بأنهم لا يشاطرونه هذا الشعور بالأسرة الواحدة .

وبلغ موضعا حيث تنتهى الحديقة ويبدأ الحقل . . . ورقدت الولاية إلى ظهره ، وومضت المصابيح التى فى الفناء على مدى النظر ضوءا أصفر كشموع وجلة فى بيت من بيوت الله . . . وتوقف هنيهة ، وعاد ينظر إلى بيت بيريونا وهو يحترق . . . وفجأة اعتصر قلبه ألم مبرح ، إذ بدا اللهب فى ناظريه وكأنه يلتهم مبانيه نفسها .

وكانت البقعة الدموية الحمراء تشتعل فى السماء ، وولاية أيوجا تحف بها كأنها أطلال سوداء لا يزال الدخان ينبعث منها .. وتبددت أفكاره أشتاتا ، وحلت أفكار أخرى محلها ، لتتبدد هذه بدورها ، وهكذا دواليك .

« هذا لا يمكن أن يكون ! » .

وإلى اليسار ، كان من الممكن رؤية اللهب المتصاعد فى ليسبيزى بجلاء ، وقد بدا على مدى أقرب ، كأنما قد أذكت يد أوارها من جديد . ولحظ الشيخ أيوجا ، فيما بين النارين ، وهجا جديدا على الأفق كجرح غض ، ثم أخذ يمتد وينتشر أمام باصرتيه ذاتهما .

« تلك هى كانتا كوزو . . . إنهم لم ينسوا الضابط جرادينارو كذلك ! . . » غمغم بها ، وهو يتفحص بعناية ألسنة النار التى أخذت تزداد انتشارا .

والتفت إلى اليسار ، فى اتجاه باباروجا وفلادوتا ، وقال فى نفسه : « الظاهر أن العقيد قد نجا حتى الآن . . . »

على أنه إذ اتجه ببصره ناحية كيرتينكا وجد ولاية بوبيسكو كيوكو تشتعل ، وكذلك بيت الجنرال داردالات فى هوميلى بوادى تيلورمان ، وكذلك بيت أيونيتا دونتومبان فى جويا .

وصاح ميرون : « مسكين أيونيتا . . . لقد نهبوه هو أيضاً !! » .

وبدت النار المشتعلة فى جويا ، من حيث وقف الشيخ ، قريبة من روجينوزا ، ولكنها كانت أشد توهجا ، آية على أنها قد اشتعلت من وقت قريب .. وكان

من الممكن رؤية نيران أخرى، فيما وراء روجينوزا، ربما فى أورديلو أو إيزفورو... كذلك كان ثمة نيران على مشارف آمارا ، ربما فى دومبرافيني ..

وخطر فى بال ميرون ، وهو يولى وجهه نحو ولايته مرة أخرى ، بعد أن جال ببصره على طوال الأفق : « نار وخراب من كل جانب !! . ونحن أشبه ما نكون بالجزيرة !! »

وأرخى الليل سدوله على كل شيء ... لم يكن ثمة نسمة ولا صوت ... ولم يستطع الشيخ ، وقد لفه صمت عميق ، أن يسمع شيئا غير تنفسه هو ، وقد تصاعد خشبا متوقدا .. ورفرفت ألسنة اللهب الصامتة فى جميع الأرجاء ، كأنها نتن تصاعد من قروح على جسم هائل صلب على الأرض ، فعكر الجو كله .

ووقف ميرون أيوجا فى الظلمة دون حراك ، وإذا برعدة تنتابه ، كأنما مرت بأطرافه موجة فجائية من البرد ، وعاد أدراجه ، وعيناه على منازله ، التى كانت ألسنة اللهب تتلوى فوقها ... وعاد الشيخ يغمغم فى إصرار :

« هذا لا يمكن أن يكون !! » .

الفصل العاشر

الدماء

— ١ —

نهض كل فلاح فى آمارا، فجر يوم الجمعة، وفى ذهنه فكرة واحدة — هى أن رفاقه لا ينبغى أن يتفوقوا عليه ... وتلبث المجدون حتى الهزيع الأخير من الليل وهم يحملون من بيت الملتزم كل ما أمكن إنقاذه من النزات . . ولقد اشتبك بافل تونسو بالأيدى مع يعقوب ميتروتو ، وكاد يفتك به من أجل عجل بقر أخذ يقوده إلى بيته ، فاشتكى الخفير من أنه سبق أن وضع عينه عليه لأسابيع خلت، والشاهد على ذلك زامفير شيلارو ... ولما اشتعلت النيران ، أخذت الناس الفرحة ، ولكنهم مالبثوا أن ندموا على أن النار بدأت قبل أن يأخذوا كل ما كان ذا فائدة لهم ؛ وبخاصة الآن بعد أن تخلصوا من رجال الشرطة .. حقا، من أسف أن تضيع هذه الأشياء الطيبة كلها بددا فى لهيب النيران .. ثم إن أشد الناس فقراهم أقل من حصل على شيء ، لأنهم لم يجرءوا فى البداية على مد أيديهم إلى شيء ، فلما واتتهم الشجاعة ، لم يكن قد تخلف شيء .

ولم يكد إيجنات سيرسل ينهض من نومه حتى دب شجار بينه وبين زوجه ، فقد أخذت تعنفه لأنه لم يأت بما فيه الكفاية ؛ وكان أحرى به أن يأتى بخنزير صغير أيضا . وليس من شك فى أن هذا كان يعيد السعادة إلى نفوس الأطفال مرة أخرى ... وجعل زوجها يذكرها دون جدوى أنه قد أتى بثلاث زكائب من الذرة ، وهو قدر يكفيهم حتى منتصف الصيف ؛ وأن ظهره كاد ينقصم من حملها ، فظل يؤلمه طوال الليل ؛ ثم تأتى هى الآن فتشكو من أجل خنزير صغير .. قال إيجنات :

« كيف يتأتى لى ، يا كلبة الشيطان ، أن أحمل خنزيرا ؟ أأحمله على ظهرى ؟ لا يمكن لإنسان أن يقود خنزيرا من خلف ، إنه ليس رجلا ولا ثورا !! »

« ولكن كيف تأتى ذلك للآخرين؟ ..وهم أناس يملكون أكثر من خنزير يدخرونه لعيد الميلاد ، وليسوا مثلنا ، نحن الذين استلبنا خنزيرنا على يد جابى الضرائب ، عليه اللعنة !... ولقد أخبرتنى أيونيتا تينشا ليلة الأمس فقط أن زوج ابنة القس قد استولى على ثلاثة من خنازير الملتزم ، فدفع بها إلى زريبته . »

ولو لم يكن إيجنات فى شدة الغضب لقال إن زوجه كانت على صواب . والواقع أنه،وقد هزه الطمع فى الذرة ، شأن كل فقير لايفكر إلا فى «المماليجا» لم يخطر له الخنزير على بال .. قال غاضبا : «إن الشيطان ليختنق تحت إهابك!.. طبعا أنت لا تعرفين أن القس يسكن أمام بيت الدائرة ، وليس على فيليب إلا أن يعبر الطريق فيعود بكل الخنازير التى يملكها الملتزم ! »

وأخذ الرجل يتلكأ فى البيت والفناء وهلة ، ثم إذا به يتناول حبلا ، وينطلق إلى دار جابى الضرائب . . كان يعلم أن بيرزوتسكا وزوجه قد وليا الأدبار والظلام لايزال مخيما منذ صباح الأمس ، بمجرد أن شهدا النيران فى روجينوزا... ولقد بلغ بهما الهلع حدا جعلهما لا يتجاسران على المسير فى الطريق ، بل لزما الحدائق والحقول ، وكلاهما يحمل على ظهره ربطة صغيرة.. ولقد صادفهما بعض القرويين ،ولكن القوم ا كتفوا بصب اللعنات عليهما لشدة ما انتابهما من فزع . ومن ثم لم تبق بالدار إلا صبية بلهاء لترعى الأشياء التى جمعها بيرزوتسكا منذ أن انتقل إلى البلد ، ولم يكن يملك إذ ذاك شروى نقير ؛ فقد كان مجرد النظر إليه مدعاة للشفقة به .. ودخل إيجنات سيرسل الفناء ، وذهب من فوره إلى الزريبة ، حيث أخذت ثلاثة من الخنازير تقبع وتخور . . . وأطلق سراحها ، متمهلا ، وأخذ يعاير وزن كل منها ، واختار أسمنها ، وشد الحبل إلى ساقه الخلفية، وسار به نحو البوابة المفتوحة .. ولحظت الصبية أن الخوار المعتاد فى الصباح قد توقف، فخرجت مسرعة تحمل كيسا من الذرة .. وخطف إيجنات الكيس من يدها ، دون أن ينطق بكلمة ، وانطلق فى طريقه ، وهو يهز الكيس المألوف أمام الخنازير .. وتمالكت البلهاء نفسها فجأة ، فأخذت تصرخ: « أوه !.. النجدة!.. لقد سرقوا الخنازير !.. النجدة !..

ولم يأبه إيجنات . بل خرج من البوابة ، تتبعه الخنازير الثلاثة .. فلما كان

فى منتصف الطريق أتى إليها بحفنة من الذرة ، وانتظر عليها حتى التهمتها ، ثم مضى بها . . وخرج نفر من الجيران على صراخ الفتاة ليروا ماحدث .

قال واحد منهم فى ود وغبطة : «أهكذا أخذتها ياعم إيجنات ؟

فأجاب إيجنات ببساطة : «لقد سبق له أن أخذ خنزيرى ! » ، ثم أضاف مبتهجا هيا ياأولادى ، هيا . . . »

وبلغ بيته فى أمان ، ولم يفقد إلا الحبل الذى تركه معلقا فى ساق الخنزير ، حتى انحل منه وسقط فى الطريق . . فلما دخل إلى صحن الدار ومعه الخنازير الثلاثة ، قال لزوجه مزهوا ، وهو يمسك بالكيس : « هاك خنازير وذرة أيضا ، ولكن إياك وأى كلمة أخرى ، وإلا استعملت حزامى عليك ، أيتها المرأة اللعينة ! » .

ووقفت المرأة مبهورة وهلة ، وما لبثت أن تمالكت نفسها ، فقالت فى جشع : « رباه ! . ياأم يسوع الرب !.. تعالوا إلى ياأعزائى ، تعالوا . . »

قام ميلينت هيروفيمو ساعة الفجر فى هدوء حتى لا يقلق زوجه التى أخذت تلوى طوال الليل من الألم . . ونزع الريش عن دجاجة ، ووضعها على النار . . ثم نشر مفرشا على المائدة . . وكان الرجل ، منذ أن رحل الملتزم كوزما ، يحوم حول بيت الدائرة مخافة أن يحدث شىء ليس فى الحسبان . . ولقد أخذ بضع زكائب من الذرة ، ولكن اهتمامه انصب أكثر ما انصب على أطايب المأكولات ، فقد كانت أمنيته أن يعامل زوجه وأولاده كأحد الأشراف . فهم قد تضوروا جوعا أمداً طويلا..وكان الرجل على يقين من أن المرأة المسكينة مامرضت ، وما لزمت الفراش هذا الأمد الطويل إلا نقلة ماتنال من طعام ، وأنها لو تغذت جيداً يومين على الأقل فلابد أن تبرأ من علتها بأسرع من أى من هذه العقاقير . . ولما رأى الناس قد انصرفوا إلى المخازن دون غيرها ، هرع إلى المشرف لازار ، فدفعه جانبا ودخل إلى البيت .. وكان بوسع لازار ، وهو أقوى الرجلين ، أن يتغلب عليه ، لولا أن الآخرين هبوا لنجدته.فضربوا المشرف ضربا مبرحا ، وتفرقوا فى الغرف يحطمون . ويلتقطون كل مايروق فى ناظريهم . . وتشمم ميلينت حوله حتى اكتشف «الكرار» وقد اكتفى بأطايب المأكولات .. ووجد هناك سلتين ، فملأهما بالأطعمة

المحفوظة ، وزجاجات النبيذ والمشروبات ، والجبن ورغيف من الخبز الأبيض ، والسجق ، وفخذ كامل من لحم الخنزير المقدد ، والزيتون ، وبكل ماوقعت عليه يداه . . وكان الظلام دامسا عندما بلغ بيته ، فلم يشأ أن يخرج المأكولات من السلتين ، بل أخفاها فى مدخل الدار ، وقد انتوى أن يعد المائدة بحيث تبدو فى صباح الغد ، كليلة من ليالى العمر . .

وتهلل وجهه المكدود سعادة ، وهو يفرغ السلتين ، ويضع هذه اللذائذ كلها على المفرش الأبيض . . وخطا إلى الوراء ، إعجابا بعمله ، وأشعة الشمس الأولى تبدو من خلال الشبابيك القذرة ثم التفت إلى الفراش حيث رقدت المرأة وشخصت إليه بعينيها الكبيرتين السوداوين فى خوف ، فقال مبتسما ، كأنما كان يلتمس منها المغفرة : « لقد ظننتك نائمة . . أرأيت إلى هذه الأشياء الجميلة ؟ لقد جئت بها كلها لك ! . . إن الأطفال يأكلون أى شىء ، طالما كان طعاما ، أما أنت فلابد أن تتغذى جيداً ، حتى تتحسن صحتك بعد أن عانيت من المرض وقتا طويلا . . ولقد سلقت لك دجاجة فى الحلة ، لأجعل لك منها حساء ساخنا مغذيا و . . . » .

وتوقف بغتة . . كانت عيناها شاخصتين إليه فى ثبات دون حراك ، بنفس النظرة التى بان فيها الرعب . . وكان فمها منفرجا قليلا ، كأنما كانت ترغب فى الكلام .

وغمغم ميلينت فى حيرة : « آه ، يارب ، أهى ماتت ياترى ؟ »

واقترب من الفراش ، ولمس ساعدها الواهن ، وكان مستندا على حافة السرير الخشبى ، وقد تدلت أصابعه . .

قال الرجل فى غباء ، وهو يطيل النظر إلى عينيها الرائقتين ، وكانتا لاتزالان تحدجان فى الطاولة : « لقد ماتت . . ماتت الآن فى الوقت الذى . . . » .

ونهض الطفل الأصغر من الفراش تحت أقدام المرأة التى طواها الردى ، باكيا يفرك عينيه . . وبعد لحظات ، رأى والده ، فتألق وجهه ، ومد يديه إليه

ليرفعه من الفراش .. وأخذه ميلينت بين ذراعيه وضمه إلى صدره بشدة ، وقبله بلا وعى ، ثم عاود النظر إلى المرأة ، كأنما يأبى أن يصدق .. وأيقظ الطفلين الآخرين : «كفى نوما ، هيا .. لقد آن لكم أن تنهضوا ! ... » .

وتحرك الطفلان فى نعاس ، وهما يغمغمان .. فلما وقع بصرهما على المائدة التى اكتظت بصنوف الطعام ، أشرقت أساريرهما ، وتذكرا ما بهما من جوع وأجلس ميلينت الأطفال الثلاثة على الدكة ، وقال : «كلوا ما شئتم يا أولادى .. كلوا حتى تمتلىء بطونكم ! .. لا تتعاركوا ، ولا تأتوا بضوضاء ، لأن أمكم قد ماتت ... أنت كبيرهم يا با فيلوس ، فانظر حتى لا يفور الحساء ... أما أنا فذاهب لأستدعى جارة لتغسلها ! » .

قفز العقيد ستيفانسكو من الفراش ، ولبس جلبابه ، وانتعل شبشبه ، ثم خرج مسرعا حاسر الرأس كما كان .. وكانت الشمس التى أشرقت توها تسطع فى عينيه ، ولهذا لم ير بوضوح أول الأمر ، وقد نهض ساعته من النوم ، جماعة الفلاحين الذين ملأوا الفناء فى شغب .. وهتف خبط عشواء ، «ماذا بكم ؟.. لقد أيقظتمونى من نومى ، ودفعتم بى إلى هنا وأنا فى سراويلى ! » .

وانفجر الذين وقفوا قربه ، وسمعوا كلماته ، ضاحكين ... أما البقية فقد اشتد صخبها .. وما لبث أن أدرك أن كثيرين منهم قد جاءوا حاملين المذارى والفئوس والمجارف استعدادا للقتال — وكان العقيد قد احتفظ بروح الإقدام فى مواجهة الخطر من أيام الخدمة العسكرية .. وهو ما كان يخشى أن تأتى الثورة فتبغته إلا بسبب الفتيات ، وكان يحبهن حبه إنسان عينه ، فقد خاف أن ينتهك هؤلاء الأوغاد عرضهن ، ومن ثم يحطموا منهن بقية حياتهن .. أما الآن ، فقد أحس أنه فى بيئته ، فلم يتأثر بصراخ الفلاحين ، بل صاح فيهم مرة أخرى صيحة عالية ، سمعها القوم جميعا : «اصغوا إلى ... كفى هذا الهرج والمرج إن كنتم تريدون أن تسمعوا بعضكم بعضا ! ... والآن ما خطبكم ؟ .. وأنا أراكم قد جئتم مسلحين — مائة منكم أو أكثر — وأنا وحدى بمفردى ! ... ما الأمر ؟ .. ماذا تريدون منى ؟ »

وكان الفلاحون قد استكانوا إلى الهدوء لحظات قليلة ، فهبوا الآن فى صخب مجنون « إليك عنا !! نحن لا نريد أن نعقد معك أى اتفاقات ! ... ارحل عن الضيعة ، هى ضيعتنا ، أيها العقيد ... انظروا إليه كيف يقف هناك — غراب النحس هـذا العجوز ! ... سننزل عليك ضربا ! فلطالما غششتنا وهريت جلودنا ! ... الأرض ! — الأرض ! — مجهودنا وتعبنا ! ... أرضنا .... » .

وظل الشيخ ستيفانسكو ينظر ويصغى إليهم بلطف وأنس ، كأنما كانوا يزجون إليه التهانى .. فلما خف الضجيج ، استطرد قائلا « كيف أستطيع أن أفهمكم إن كان مائة منكم يتكلمون فى نفس واحد ؟ » .

وانقضت ربع ساعة فى جلبة ، ثم انتخب القوم رجلين يتحدثان عنهم . وأومأ العقيد راضيا .

« أحسنتم صنعا يا أولاد ! .. أنا أعرف الآن مع من أتكلم .. هيا يا أيون أم تراك تريد أن تتكلم يا .. ما اسمك — فأنا لا أتذكر » .

فأجاب الفلاح مزهوا : « أنا ستيفان كاليجان ياسيدى ! » .

فصاح ستيفانسكو مرحا : « حسن .. باركك الله ، فقد نسيت اسمك يافانيتسا والآن هات ما عندك يافانيتسا » .

وتساءل كاليجان فخورا : « ماذا تقول ياسيدى ؟ . ألا تعرف أنت أن الثورة قد جاءت ؟ » .

« أرى أنها قد جاءت . ولكنى لا أدرى ما علاقة الثورة بى ، أما بالنسبة لى .» .

فصاح الفلاح الثانى فى غلظة : « أنت تعرف ما نريد . . لا تدع عدم المعرفة وسواء كنت تعرف أولا تعرف ، فنحن نريد العزبة ، لقد كنت سيدا عليها أمدا طويلا ، والآن جاء دورنا ! .. وأنت إذا أعطيتها لنا ، لخيرا وبركة .. أما إذا لم تعطها فسنأخذها على كل حال ! » .

قال العقيد وهو يأتى بحركة بيديه كأنما يدفع الشيطان عنه . « خذوها إذن

يا أولادى ! . . أتظنون أنها عزبتي ؟ . . اغرسوا فيها محاريثكم ، وليبارك الله لكم فيها . هذا كل مايعنيني من الأمر ! » .

فرد الفلاح : « أنت فقط تقول هذا الآن لأنك خائف منا ، أما فى الغد فستنسى كل ماقلت . . إنك لايمكن أن تغشنا بعد الآن ياسيادة العقيد ! . . لقد تركناك تحظى بالخيرات طويلا ! .. أما الآن ففى مقدورك أن تحزم متاعك وتذهب عنا فنحن لن نسمح لك ، ولا لأى مالك آخر ، أن يضع قدمه فى أرضنا . . هذا قول صراح ! . » .

وتساءل الشيخ فى بساطة : « وإلى أين أذهب أنا يا أيون ؟ » .

وأجاب أيون : « عد من حيث جئت ياحضرة العقيد ! . . نحن لم نأت بك إلى هنا ، ولم نطلب إليك أن تأتى هنا أيضا ، » ! . .

واعترض الملتزم : « خبرونى بربكم ، كيف يمكننى أن أرحل هكذا ؟ . . كيف أترك ما كسبت ؟ . . أهذا شىء ممكن بحقك يا أيون ؟ » .

« نعم ممكن ، لقد كسبت ما كسبت من كدنا وعرقنا ! » .

« أجئت أنا إليكم عاريا كما ترونني الآن ؟ » .

فأجاب الفلاح دون تأثر : « لا تضيع وقتك . . احمد الله أننا لم نشتمك أو نضربك كما فعل غيرنا بأمثالك من الملاك ! ... أم أنت لم تسمع بهذا ياترى ؟ اذهب وأنت صحيح معافى ، فربما نلتقى ثانية حين يصبح للخنازير أجنحة يطيرون بها ! » .

ولكن العقيد أبى أن يعامل هذه المعاملة .. التمس ذريعة ، بل ومضى إلى حد أن اقترح عليهم أن يسمحوا له بالانضمام إلى الثورة ، إنقاذا لرأس المال الذى استغله فى الضيعة ، وكان يبلغ على وجه التقريب بائنة البنات . . . واستمع إليه الفلاحون ، بل وضحكوا من بعض النكات التى أطلقها ، ولكنهم وجدوا جوابا لكل شىء تقريبا ، فإذا أعوزتهم الحجة عادوا يكررون فى عناد أن هذا كان

كدهم ، وأن الثورة لاتسمح للملاك بأن يقحموا أنفسهم فى شئونهم .

قال كاليجان : « اطمئن ، نحن سنعالج أمورنا بأنفسنا .. الشعب مع الشعب ، والملاك مع الملاك ... أما أنت فاذهب إلى المدينة ، فهناك يوجد الملاك أمثالك ، وهناك تجد مكانك ! » .

وطلبوا إليه أولا أن يمضى لشأنه ، على ألا يأخذ معه أكثر مما يستطيع حمله فى ربطة على ظهره ... ولكنهم سمحوا له أخيرا أن يرحل فى عربته ، وأن يأخذ كل ما يستطيع أن يضعه فيها ... وأخذ العقيد يعطس ، بعد أن وقف طويلا عارى الرأس ، فى هواء الصباح البارد .

« ها ! ... لم يكن ينقصنى إلا أن أصاب بالبرد !! » .

فهتف واحد منهم : « وما رأيك فى أولئك الذين ضربوا ، أو نالهم ما هو أسوأ من الضرب ماذا يقول هؤلاء ؟ » .

فصاح العقيد فى مرارة : لقد أنزلتم بى ما فيه الكفاية من الأذى ، حين رميتم بى إلى الشارع وأنا خالى الوفاض ؛ ... أنا رجل عجوز ، عندى من البنات ثلاث فى سن الزواج ! » .

* * *

شرع بيتر ، منذ ساعات الصباح الأولى ، فى إصلاح البوابة المؤدية إلى الطريق ، وهى بوابة لم يتبق فيها إلا عودان ... ولم تكن هذه بالمهمة الملحة ، فقد قامت البوابة هكذا منذ توفى أبوه قبل عام ونصف العام ، وكان من الممكن أن تظل زمنا أطول من ذلك .. ولكن بيتر كان يحس بالحاجة إلى الاستغراق فى شىء ، بدلا من المضى مع الغير حيثما كان ..

وكان ، منذ أن عاد من ليسبيزى ، مشغول البال موجع الفؤاد .. ولقد علمت أمه من الجيران ، والرعب يملأ نفسه ، بالأحداث التى وقعت . ولكنه أبى أن يخبرها بنفسه عن شىء .. وعندما أخبرته أن الناس يلقون عليه تبعة المتاعب كلها ،

انفجر غاضبا ، وقال إن من يتهمونه بهذا كاذبون ، والله شاهد على أنه برىء من كل ذنب .

والواقع أن هذا ما كان يردده لنفسه ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يخمد تأنيب ضميره له . . ولقد ندم على أنه لم يعكف من البداية على أمور أسرته وحدها ، بدلا من أن يتورط فى حركة شراء الضيعة ، وفى موضوع توزيع الأرض الآن . ولقد كان الأشراف فى غاية اللطف معه ، فضلا عن جريجور ، فهو لو كان أباه ، لما فعل له أكثر مما فعل . . وهو ، جزاء هذا ، رد الجميل إلى السيدة ناديننا، هكذا ، لأنها أساءت إليه عندما رفضت بيع باباروجا . ولقد شعر دون الناس جميعا بإهانتها ، أما غيره فقد تحملوا الأمر فى هدوء — ولقد عقد عزمه منذ الشتاء الماضى ، حين ذهبوا إلى بوخارست ، أن يردها الإهانة بدوره . . وكان منذ ذلك الحين لا تشغل باله غير هذه الفكرة ، فلما ازداد الهياج بالناس سر وابتهج ، إذ تيسر له أن ينفث بذلك عن مشاعره . . ولم يكن قد عقد نيته من قبل على ما يكون عليه انتقامه منها ، كما قد فعل الشاب دراجوس وشريلابون ، ولكنه اكتفى بأن أخذ يعيد لنفسه بأنه سيترك الأمر رهن الظروف حين يأتى الأوان . . والظاهر أنه، فى ليسبيزى ، قد فقد الرشد فجأة . . فقد اندفع إلى داخل البيت ، بقصد أن يقتلها شنقا ، ولكنه ما كاد يقف أمامها حتى أدرك أنه يؤثر قتل نفسه على قتلها . ثم قتلها تودر ستريمبو رغم ذلك . . ولقد خطر له أن يحول بين تودر والدخول ؛ ولكنه لم يقدم على ذلك ، فقد أحس بالخجل أمام الناس ؛ فربما اتهموه بأنه يأخذ جانب السيدة — لسبب غامض غير مفهوم . . والحق أنه رغب ، والناس قد أخذوا فى نهب البيت ، فى أن يقتل تودر ستريمبو على فعلته لولا إحساسه بالخجل ، الذى صد نفسه عما أرادت . . وعاد من ليسبيزى وحده ، تاركا الآخرين جميعا يتفرجون على الحريق . . بل إن ماتى دولمانو تكدر لقتلها — ولم يجرؤ بيتر أن يعترف، حتى بينه وبين نفسه ، لماذا ضاق لمقتلها كل هذا الضيق ؟ . . كان كل همه أن يكرر لنفسه المرة بعد المرة ألا ذنب عليه ولا جريرة ، فالأمر قد وقع غصبا عنه ، وألا يد له فيه . . . ورفض أن يترك داره ، مهما وقع من أحداث ولو ترتب على ذلك أن يحرم هو وحده من الأرض ، دون أهل القرية جميعا . . ولقد رأى السيدة فيما يرى النائم ليلة الأمس . . ولقد ضمها بين ذراعيه ، ولكنها

لم تصرخ فيه ، بل لاطفته قائلة : « لماذا تركتهم يقتلوننى ؟ » واستيقظ وصوتها الغائب مازال يرن فى أذنيه .

وهو الآن يقطع الخشب ، ويدقفيه ، ساخطا ؛ لأنه أرادأن يتناسى ذكرياته أو يئدها وأدا .. ولكن على قدر مابذل منجهد ، فقد ظل يشعر باللوعةوالضنى .

— ٢ —

عم الهياج جميع أرجاء آمارا مدى ساعتين عقب شروق الشمس كأنما البلد كلها قد اتخذت أهبتها للتحرك ، شأنها شأن قافلة قد توقفت طويلافى مكان واحد.

وكانت الأخبار والشائعات كلها تلتقى فى الساحة أمام الخان ، وكانت من الكثرة والتنوع بحيث أخذ الناس يتوقعون باستمرار سماع حدث جديد ، أشد غرابة من سابقاته ، وهى أحداث ما لبثتأن بدت وقائع يومية مألوفة .

وكان بعضهم ، بين الفينة والفينة ، يذكر الشريف ميرون بنظرة متسائلة .. وأراد آخرون أن يغيروا الموضوع ، كأنما كان السؤال يبعث الذعر فى نفوسهم ، أو كأنما هم لا يريدون أن يفهموا .. بل إن غوغو تريفون نفسه ، وهو الذى بح صوته من كثرة مباهاته بالمعركة التى نشبت مع رجال الشرطة ، وكان يعتبرها انتصارا ذاتيا له ، اقتصر على الهمهمة وعلى هز كتفيه .

ولكن حوالى الظهر ، ظهر أنطون المخبول فجأة على الطريق ، وقد تصبب عرقا ، وكان قذرا ، وأكثر رثاثة مما كان عندما خلفهم قبل ذلك بأيام ؛ بيد أن وجهه كان يفيض كبرياء ، كأنما قد تجمعت فى شخصه فرحةالدنيا كلها .. وأخذ يحكى لهم من فوره أنه لم يعد ثمة أثر لأى مالك من ملاك الأرض ، فيما بين روزيورا والإسكندرية ، حيث كان يجوس هناك مؤخرا .. ولقد تهدمتالمنازل كلها حرقا . ولم يعد ثمة أثر يدل على مواقعها .. ووصف لهم كيف أن الناس ، صغارا وكبارا . قد تجمعوا فى القرى ، وتجهزوا بالسلاح ، ووقفوا مستعدينحتى لا يرجع ملاك الأرض ، فيحولوا بينهم وبين توزيع الأرض . بل إن منهم من أراد أن يذهبإلى بوخارست . لينقذوا الملك من حيث سجنهالأشراف فالأشراف

هم الذين حالوا دونه وإرسال نداء إلى الشعب يعلن فيه استحسانه لطرد الأشراف ويدعوهم إلى الإسراع إلى تقسيم الأرض قسمة عادلة ، وألا يتمهلوا فى توزيع الضياع على الفقراء بالعدل والقسطاس .

وسخر الفلاحون من المجنون ، فقد ألفوا نبوءاته ، بل إن بعضهم سأله كيف واتاه الحظ فلم يعتبره القوم شريفا من الأشراف ، فيقتطعوا قطعة من لسانه ، حتى يخلصوا العالم من هرائه .. وإذ هم مشغولون هكذا ، ظهر ماران فياشو ، وهو رجل موثوق به من إيزفورو . . كان يحمل ولده الذى كان على عتبة الموت فى عربته (الكارو) إلى كوستستى لرؤية الطبيب . . وتوقف الرجل بالخان لينال قسطا من الراحة ، وليطعم الجياد ، فقد عانت من شتاء قاس دون علف ، وكانت لا تتمكن من الوقوف إلا بمشقة . قال ماران إنه سمع ليلة الأمس أن الملك قد عزل الأشراف الذين تولوا مقاليد البلاد حتى الآن ، لأنهم لم يسلكوا مسلكا حميدا حيال الناس ، ولأنهم رفضوا إعطاءهم الأرض ؛ وأنه قد عهد بالحكم إلى آخرين وعدوا بأنهم لن يسمحوا للملاك بأن يضعوا أقدامهم فى القرى ، وأنهم سيوزعون الضياع كلها بين الناس ، ومن ثم يتاح لكل إنسان أن يزرع رقعته من الأرض ويتعهدها بالرى والسقيا .

ولكن الأشراف الذين عزلهم الملك توصلوا إلى تفاهم فيما بينهم ، وأبوا الرضوخ إلى أوامر الملك ، واتفقوا مع قواد الجيش على الفتك بالملك ، ثم الذهاب بالجيش والمدفعية لاسترجاع الضياع من الناس ، فى تلك الأماكن التى استولوا عليها ، فيدقون أعناق الناس الذين ثاروا على أشرافهم .. وأراد الملك أن يتحاشى الأشراف المتمردين عليه ، فأرسل خفية كل مالديه من أتباع موالين له ليأمروا الفلاحين بطرد ماتبقى من الأشراف ، بحيث لا يتخلف أحد منهم بينهم ، ولينهوهم عن السماح للأشراف باسترجاع الضياع ؛ وأن من يساعد الأشراف على هذا سينزل به عقاب صارم ، لأن هؤلاء الأشراف قد وطئوا أوامره تحت الأقدام . . أما أولئك الذين كانوا يقطنون على مقربة من بوخارست فيتحتم عليهم أن يهبوا ، وينطلقوا إلى العاصمة ، مؤازرة للملك ضد الأشراف ، لأنه يقف إلى جانب الشعب ، ويرغب فى التعامل معهم معاملة عادلة ؛ وهذا هو السبب الذى جعل الأشـ افـ يقفون ضده

ولو أن أنطون قال لهم هذا كله ، لما كانوا يصدقونه ؛ أما ماران فيلشو فكان رجلا عاقلا متزنا .. ولم يكد الرجل يرحل فى عربته حتى ظهر رجل آخر، جاء من جوغانى ، فأخبرهم نفس الخبر تماما ، وكان قد سمعه من فم فلاح ، يمتطى جوادا وعلى صدره صليب من الفضة .. وتأيد الخبر بعد ذلك بقليل من رجل جاء من فايدى وكان قد تلقاه من موزاسينى .

وبدأ القلق يستبد بالناس .. وتخيلوا أنفسهم معاقبين ، ومحرومين من الارض ، لأنهم لم ينفذوا أوامر الملك — وصحيح أنهم لم يعرفوا بها، ولكنهم الآن يعرفون .. وقال نفر : لابد لهم من الذهاب إلى الشريف الشيخ ، فيخبرونه بهذه التعليمات ؛ وبأن من واجبه أن يرحل عنهم ، لأنهم لا يريدون أن يصب الملك عليهم جام غضبه .. وأضاف آخرون إن على كل إنسان أن يذهب إلى الشريف ، وأنه لاينبغى للناس أن يتخلفوا مختبئين فى بيوتهم وقت الشدة ، فإذا ماأقبل وقت المكافأة هرعوا زرافات ووحدانا .. وقال نفر آخر إن فيليب إليوزا ، زوج ابنة القس ، لم يتوان مثلا عن الذهاب إلى بيت الملتزم كوزما ، وعن أن يحمل إلى بيته ثلاثة خنازير تبلغ العجول حجما .

وهتف تريفون غوغو : «هيا بنا إلى ديوان القرية ! ولنسأل العمدة لماذا لم يخبرنا بهذا الأمر الذى جاء من الملك» .

وانطلقوا يصيحون بهتافات حماسية ، ليشجع الواحد منهم الآخر ، ولكنهم لم يجدوا غير الكاتب شيريتا ، وعاملا من مكتب الضرائب ؛ وكان خائفا متذللا ظنا منه أنهم قد جاءوا للفتك به ، لأنه كثيرا ماجاء إلى القرية ليجمع الضرائب فى الشتاء الماضى .. أما شيريلا فقد تبادل الكلام مع الفلاحين ، فإذا بتودرستريمبو يصفعه صفعة خفيفة ، وهذا أمر كان يتوق إليه من زمان طويل .

قال شيريتا دوميتريسكو متوعدا ، وقد جرحت مشاعره جرحا داميا ! «لقد ضربتنى ياتودر ، ولن أنساها لك ! .. ما كان ينقصك غير هذا بعد جريمتك التى اقترفتها بالأمس ! لابأس ، سنصفى حسابنا ، كن من هذا على يقين ! » .

فأجاب تودر مبتسما : «قل لى ماالذى يمنعنى من ضربك .. أنت لست بأفضل

من خنزير قذر .. بل وسأضربك مرة أخرى إن لم تكف ! » .

أما أن يخاطب الكاتب هكذا أمام هذا الجمع الغفير فأمر جرحه جرحا كان أشد إيلاما مما لو كان قد ضرب مرة أخرى .. وأمسك عن الكلام ، وأدار ظهره متعاليا .. والواقع أن الفلاح لم يعد يأبه له ، لأن العمدة برافيلا وصل فى هذه اللحظة لاهثا ، شاحب الوجه من الخوف ، بعد أن سمع أن الفلاحين قد هجموا على ديوان القرية ! « ماذا جرى لكم أيها الناس ؟ . . ألم يكفكم ما فعلتم بالأشراف ، أم تريدون الآن أن تحاربوا السلطات كذلك ؟..هل تملككم الجنون أم أنتم فى طريقكم إليه ؟ » .

وهتف تريفون غوغو ، وكان يقف قبالته : « لماذا حجبت أوامر الملك عنا ياحضرة العمدة ؟ » .

ولما سمع برافيلا سبب هذه المتاعب كلها ، قال إنه لم يتلق أية أوامر من أى شخص منذ أول البارحة ، بعد أن رحل الوالى ، كما أن البريد لم يصل ، وأن ثمة عطل بالهاتف منذ ذلك الحين ؛ وإنه إما أن الاسلاك قد قطعت ، وإما أنه قد حدث شيء آخر .. فطلب تريفون إلى العمدة فى لهجه آمرة ، كأنما قد غدا زعيم القرية ، أن يرسل المنادى يستدعى الناس إلى ديوان القرية ، ثم يذهبون بعدئذ جميعاً إلى الشريف الشيخ .

قال برافيلا : « أنا لن أرسل مناديا ، ولن أذهب معك شخصياوأنت تدفعلت كل شيء أردت فعله بدونى ، ولهذا فأنا لن أشترك فى أى شيء تفعله الآن ، ولن أقحم نفسى فيه ... أما أنت فخلص نفسك مما وقعت فيه ! . . أنا العمدة ، ولا يسعنى أن أتصرف بمقتضى الإشاعات والحكايات الخرافية ! »

فهب تريفون رافعا قبضته : « بل هذا فى وسعك، ولئن لم تفعل فالذنب ذنبك ! » .

فتساءل العمدة ، وقد استشاط غضبا : « أتتوعدنى بالضرب ياتريفون ؟ . . أتريد أن تصدر إلى أوامر ؟ . . هيا إذن ، اضربنى ياتريفون ! » .

وهجم تريفون عليه ، وهو يسب ويلعن ، ولكن الفلاحين حالوا دونه ...

وتبع ذلك اشتباك شديد بالأيدى ، زاد من حدته الصيحات والهتافات التى أسهم فيها كل منهم بنصيب ... وحاولوا جميعا أن يقنعوا العمدة بأن يقف إلى جانبهم، لا ضدهم ؛ لأن هذا أمر لايليق ، بل مضوا إلى حد أن هددوه بالحرمان من أى نصيب من الأرض ... وبقى أيون برافيلا دون حراك ، أولا بسبب كبريائه المهيضة إذ خاطبه هكذا نكرة مثل تريفون ؛ وثانيا لخوفه مما قد يقع لو أن الأمور عادت سيرتها الأولى ؛ وصرح بأنه يؤثر الحرمان من الأرض عن أن يداس بالنعال. وصاح تريفون فجأة ، بلهجة متعالية : « أنت تعودت أن تسير فى ركاب الشريف؛ أما نحن فنحتاج إلى عمدة يكون عونا لنا ؛ ولا بد لك أن تدرك أن الأمور لايمكن أن تجرى كما كانت تجرى ! » .

فقال برافيلا هازئا : « ربما نصبك الناس عمدة عليهم ! ! خيرا يفعلون ! » .

واستشاط تريفون غضبا ، ودعا المنادين ، وطلب إليهم أن يذهبوا من بيت إلى بيت ، وأن يدعوا الناس إلى ديوان القرية . . ورأى العمدة أن من الخير له أن يمسك عن الكلام بعد أن شهد أكثر الناس يقفون إلى جانب تريفون . ولم يصرح ، إلا بعد أن ذهب المنادون ، بأنه كان فى وسعه إيقافهم لو شاء ، فقد كان هو وحده صاحب الحق فى إعطاء الأوامر هناك .

وبقى الفلاحون فى الساحة ينتظرون حضور الآخرين ، ويدبرون الخطط . ويصيحون ويتكلمون ... وانتقلت عدوى الغضب من واحد إلى آخر ، فأخذ الكل يلعنون ، ويتميزون من الغيظ ... كانوا يحثون بعضهم بعضا على عدم الخوف من أى رجل طالما أن الملك قد أعلن بنفسه أنه يؤازرهم، ولأن الأشراف لن يجسروا على العودة إلى التنكيل بهم ... وقال البعض إنه حتى لو جاء الجنود ، أيا كان عددهم ، فلن يكون ثمة مبرر للخوف ، لأن الجنود هم كذلك من الفلاحين ، وهم لن يطلقوا النار على الشعب ؛ بل الأحرى أن تمتد العدوى إليهم ، فيطلقوا النار على الجانب الآخر ، وعندئذ سنرى ماذا يفعل الأشراف ... وجاء ذكر ميرون على ألسنة القوم مرة ومرة ومرة ، بل لعنه بعضهم ، وسمع الناس تودرستريمبو وهو يقول بصوت جهورى : « هو لص عريق ، وهو أس المتاعب كلها ! . . إنه هو سبب هذا الفقر الذى نعانى منه جميعا، وهو الذى حرض الغير جميعا على اضطهادنا.

وقتلنا جوعا ! . . انتظروا على حتى أضع يدى على عنقه ، وستروا حينئذ ما يحل به ، ابن الزانية ! » .

وخشى آخرون أن تضيع جهودهم سدى بسبب الشريف الشيخ ، فهو لن يتنازل عن ضيعته طواعية ، ثم من ذا الذى يأخذها منه عنوة ؟ .

وهتف بعض الفلاحين فى غضب : « ولكن لماذا بالله نسأله رأيه ؟ . . أتراه يستمر فى إصدار الأوامر لنا ؟ . ثم هل جاءت الثورة لتجعلنا نحن فى خدمته ، أم هو فى خدمتنا ؟ » .

« لا عليكم من هذا كله ! ! أنا أراهن على أن أسنانه تصطك الآن رعبا ! ! ما علينا إلا أن نعبس فى وجهه ، ولن تروه إلا موليا الأدبار بأقصى سرعة ، على الرغم من كبر سنه ؛ ولن تستطيعوا اللحاق به ولو بكلاب الصيد ! ! » قالها شاب حليق نحيل ، فأثار عاصفة من الضحك والاستحسان .

واكتظ ديوان القريه والساحة بالناس زهاء ثلاث ساعات . . وعاد المنادون بعد أن طافوا بالقرية ، ولكن الناس ظلوا فى أماكنهم ينتظرون كبار أهل القرية . أما تريفون فقد لبس ثوب الزعيم ، وخرج أكثر من مرة متسائلا : « ألم يأت لوكا تالابا بعد ؟ . . ألم يحضر الأب لوبو ، أو ماران ستان ، أو فيليب إليوزا إلى هنا بعد ؟ » .

وأخيرا وصلوا جميعا ، واحدا واحدا . كأنما قد جهلوا سبب استدعائهم ، وكل منهم بدوره يتملص من التورط فى أى أمر .

وصاح تودر ستريمبو : « ولكنكم ستتدافعون بالمناكب عندما توزع الأرض ... نحن نعرفكم حق المعرفة ! . . لقد أردتم شراء باباروجانقدا ، وأشحتم بوجوهكم عنا نحن الفقراء المساكين ا كانت الأرض حلوة إذ ذاك ؛ أما الآن وهى ستوزع فيما بيننا جميعا ، فأنتم لا تتلهفون عليها ! » .

فأجاب ماران ستان فى حيوية · « بل أنا متلهف جدا يا تودر ، فقط أعطنى بعضا منها ! » .

فزجره ليونتى أوريبسور : « لقد أخذت ماشئت من بيت الملتزم كوزما ، أما الآن فأنت لاتريد أن تكون لك علاقة بنا ! » .

فأجاب ماران وهو كليم : « هل طلب أحد إلى شيئا ياليونتى ؟ قل لى بربك ! » .

فرد تودر : « هل طلب أحد إليك أن تذهب للمساومة على باباروجا ؟ .. ولكنك مع ذلك جريت وراءها ولسانك يتدلى ! » .

واحتد النقاش ، وازداد الجمع هياجا . . لقد أحسوا أن الشيوخ يناوئونهم لأنهم لايريدون لفقراء الناس أن يتملكوا الأرض . . وكلما ازدادوا ترددا ، بدت فكرة العمل أبهج مخافة أن ينقلب الحال فترى ، عندما توزع الأرض ، أن من عنده يعطى فيزداد ، ومن ليس عنده ينحى جانبا ، كما كان سيكون عليه الحال لو تم شراء باباروجا .. وتطايرت الألفاظ غليظة متوعدة ، وكثرت الشتائم وازدادت عددا ؛ وأغضب الكلام لوكا تالابا ، فقال إنه ليس بخادم أحد حتى يخاطبوه هكذا ... واغتاظ فيليب إليوزا ، وأراد أن ينصرف إلى بيته ... ولكن أحدهم مالبث أن أشار إلى خنازير الملتزم ، وانتهى الأمر إلى التشابك بالأيدى .. وحاول فيليب أن يفسح لنفسه مكانا يمرق منه ، وكأنما قد أطلق هو عنان غضبهم ، فإذا بوابل من الصفعات تنزل عليه من كل جانب ، ولم تتوقف إلا عندما هتف لوكا ، وقد اهتاجت نفسه أيضا ، قائلا : « أدعوتمونا إلى هنا لتوسعونا ضربا ؟ أهذا مسلك حميد منكم ؟ » .

فرد تريفون غوغو ، وهو يكشف عن أسنانه : « نعم ياعم لوكا ، من لايفهم حلو الكلام ، لابد له أن يفهم الصفعات ! ! » .

— ٣ —

قال روزو يخاطب تيتو هيرديليا ، وهما يخترقان تل ميتروبول : « أنا لم أضع قدمى فى مجلس النواب طوال ثلاث سنوات ، أما اليوم فأنا أدفع ثمنا لذهابى إلى هناك ! ... » وأخذ يتوقف من آن إلى آن ليلتقط أنفاسه ، فقد كان يعانى من السعال قليلا وقال : « لابد لى من مشاهدة الأحداث عن كثب ، فهى أحداث غير عادية

أتراك تعرف المحور الذى تدور عليه القضية فى واقع الأمر ؟ . أنا أتشاجر معك، وكى أنال منك ، ترانى أدفع من هنا . . . من قمة هذا التل . . التل الذى تسلقته بعون الله — أقول ترانى أدفع من هنا صخرة عاتية ، فتجرى وتتدحرج ، وهى تنذر بسحق كل شىء فى طريقها ، وتجرف بيتك وبيوت غيرك من الناس ، فيشتد بك الذعر والأسى . . وإذا بك ، وأنت ترى ما أنا عليه من شدة الغضب ، تهرع إلى قائلا : « تعال نصالحك ! » فأصيح أنا ، أنا الساحر البارع ، أصيح بالصخرة أن تتوقف عن التدحرج : « قفى أيتها الصخرة ، فقد تصالحنا . . ولم تعد بك حاجة إلى إيقاع الدمار » .

وكانت شرفة الصحافة مليئة اليوم بالناس . . وكذلك الشرفات الأخرى كلها وكان الجو أشبه ما يكون بليلة الافتتاح الكبرى فى المسرح ؛ وكانت دورة المجلس التى كان مقدرا لها أن تنعقد الساعة الثالثة تبدأ عادة بعد الرابعة ؛ أما اليوم ، فقبل الثالثة بخمس عشرة دقيقة ، كان أعضاء الحكومة الجديدة هم وحدهم الذين تخلفوا عن الحضور . . . ولم يتأت لروزو أن يحشر نفسه فى مقعد إلا بعد أن اصطنع مشاجرة . . وبقى تيتو هيرديليا واقفا فى المؤخرة . . وكانت مقاعد النواب غاصة بالناس ، لأن أعضاء مجلس الشيوخ حضروا كذلك ليشهدوا الجلسة . . وكان الرعب ، أكثر من الجد ، مرتسما على الوجوه كلها . .

وجاء ستان را كارو ، وهو رئيس تحرير صحيفة ناشئة مستقلة لا هى فى العير ولا فى النفير ، فقال فى صوت جهورى ، قاصرا بطبيعة الحال أن يسمعه أولئك الذين كانوا فى الشرفات المجاورة ! « لو أن الحكومة الجديدة حكومة ديمقراطية حقا ولو كانت تحب الفلاحين كما كانت تفخر وهى فى صفوف المعارضة ، ففى مقدورها أن تصدر قرارا يقضى بنزع ملكية الضياع ، أو هى تستطيع على الأقل أن تعلن عن إزماعها إصدار هذا القرار ، وأنا على يقين عندئذ من أن أولئك الناس الجالسين هناك ، وقلوبهم ترتعد فرقا من الثورة ، سيصفقون لها فى جنون » .

قال محرر اليونيفرسول : « أنت تهزل يا تيتشو ، ولكن ما تقوله فى الواقع هو الصدق بعينه . . ولقد تحدثت أنا مع نفر من النواب والشيوخ ، فقالوا إنهم على استعداد لقبول أى إصلاح ، مهما كان جذريا ، حتى نزع الملكية ، لأنه

لا يوجد سبيل آخر أمامهم يتيح لهم العودة إلى الريف، حتى بعد زوال الاضطرابات. »

فقال صحفى عجوز ، وهو نائب سابق ، وكان صاحب لحية مهيبة : « الناس يقولون وعودا كثيرة، ولكنهم سرعان ماينسونها عندما يتلاشى الخطر» وقوبلت هذه الملحة بعاصفة من البهجة ، سرلها الرجل سرورا بالغا جعله يواصل الضحك حتى نهاية الجلسة رغم ما اعترى جيرانه من غيظ .

وفجأة هبت همهمة عامة ، فأنبأت بوصول الحكومة الجديدة . وافتتحت الجلسة . . وقف رئيس الوزراء ، وكان شيخا محدودب الظهر ، له صوت أشبه بصوت أرملة كئيبة ، فألقى خطبة عصماء ، أدخل فى كل جملة منها : بلدنا الحبيب الصغير ، بلدنا الصغير الحبيب إلى نفوسنا «و» هذا البلد الصغير الذى تظلنا سماؤه وكان يتوقف بين الحين والحين ليسح خديه اللذين وخطهما الدمع ، واختتم الخطاب فأشار إلى « الفلاحين الضالين » وإلى « الإجراءات الصارمة »ومساندة كل رومانى مخلص . ورد عليه سلفه ، وهو زعيم المعارضة الحالى ، وهى التى لها الأغلبية فى البرلمان — وكان فى مثل سنه ، ولكنه أكثر منه ادعاء ، فغمغم بعبارات مماثلة عن « بلدنا الصغير الحبيب » وعندئذ ذهب رئيس الوزراء الجديد ، ومد يديه إلى سلفه الواقف على المنصة ، وقبل كل منهما الآخر على وجنتيه كلتيهما . وصحب هذا المظهر الذى دل على الأخوة الوطنية ، عاصفة من التصفيق أطلقه النواب والشيوخ والجمهور الموجود فى الشرفات .. وفاض الدمع من عيون كثيرة ، واهتزت أقسى القلوب وارتجفت.. ولكن محرر الجريدة المستقلة الجالس فى شرفة الصحافة عجز عن كبح جماح نفسه ، وقال ، « لسوف تنزل هذه القبلات على ظهور الفلاحين . نارا حامية » .

كذلك لم يتمالك ماكس ستريسن ، محرر « جلاسول بوبورولى » العجوز ، نفسه من الغضب ، فهب قائلا : « أنا لا أستطيع ياسيدى أن أسمح لك بتعكير هذه اللحظات الخالدة بكلامك السمج ، وهو كلام لا يليق إلا بصحافتك اليهودية » .

ولكن ستاف راكارو أجاب ببرود : أصغ إلى يارجل . لا موجب لهذه الفورة الوطنية . إن كل إنسان يدرك أن من الواجب عدم التحيز ... وأنا لا

أدرى ما الذى يوغر صدرك من الصحافة اليهودية ، بينما أنت نفسك يهودى صرف عندما تكون فى بيتك .

وواصل ستريسن الهمهمة ساخطا ، وانتهز فرصة موجة جديدة من التصفيق فترك شرفة الصحافة متاء مغيظا . واستمرت مظاهر الحماس فى قاعة الجلسة فى أثناء ذلك ، يساندها الجمهور بشدة ، ذلك أن أعضاء الحكومة الجديدة ، بعد أن تعانق الزعيمان نزلوا يصالحون الوزراء القدامى وعلية القوم الآخرين ، وصحب كل عناق هتاف حاد وتصفيق متواصل . وبقدر ما كان الهتاف عاليا والتصفيق متواصلا كان هذان الاثنان اللذان عانق كل منهما الآخر الآن يسبان بعضهما بعضا سبا عنيفا حتى الأمس القريب .

وفى هذا الجو المؤثر الذى اتسم بالوئام ، تمت الموافقة على مراسيم الحكومة الجديدة بين الهتاف والتصفيق .. وكان كل مرسوم ينص على استعادة الأمن ، ويهتم أساسا بالتفويض فى إعلان الأحكام العرفية فى حالة الاقتضاء .

وغمغم ستان راكارو ، وقد أخذ خلانه يستملحون سخريته اللاذعة : هذا هو لب الموضوع أيها الأصدقاء .. من أجل من تدعون هذا المظهر الوطنى ؟ .. نحن على أية حال الأسياد أصحاب الأمر والنهى .

وتبسم روزو ساخرا ، وكان حتى الآن لم ينبس بكلمة ثم التفت إلى هيرديليا ولكن الشاب كان قد اختفى عندما لمح بوجينيا أيونيسكو ، فخرج ليكون فى استقبالها .. لقد أراد أن يخبرها أن جريجور أيوجا قد أزمع السفر مع الوالى الجديد ، بالولينو إلى آرجس صباح الغد ، وأنه قد طلب إليه ملحا أن يصحبهما ، حتى لا يكون وحده فى آمارا حيث لا يعلم أحد إلا الله ما سوف يجد هناك . ورأى تيتو نفسه عاجزا عن الرفض ، رغم أن هذا لم يكن بالوقت الذى يتيح له أن يكون بمنأى عن الجريدة ، ولكن وقد ذهب من قبل بقصد المتعة ، فما أحراه الآن أن يذهب ويقف بجانب أيوجا الشاب ، فربما كان ذا نفع بطريقة أو بأخرى .

كان جوجو قد جاء إلى الدور العلوى ليأتى ببوجينيا قبل أن تنتهى الجلسة ، ووجد تيتو واقفا بمدخل الشرفة . . واضطر الرجلان أن ينتظرا بضع دقائق ،

فاستغل جوجو الفرصة ليخبر صديقه الشاب بأن نائبا من بيتستى قد أخبره تواً بأن الأحداث قد اتخذت اتجاها خطيرا فى جنوب آرجس، ولكن عليه ألا يقول شيئا عن هذا! أمام يوجينيا ، لحسبها ما عانت من قلق وضيق حتى الآن .. ومع ذلك فما من أحد يعرف شيئا على وجه اليقين بعد؛ لأن خطوط الهاتف قد قطعت قبل يومين من بيتستى حتى الشطر الأدنى من البلاد ، ولكن قيل إن جرائم شتى قد اقترفت، بما فيها جرائم القتل .

وهتف جوجو : هكذا ياعزيزى هيرديليا ، تستطيع أن تتصور نفسيتى الآن تصور نادينا بين الثوار سفاكى الدماء .. ترى ما الذى حدث لها — ربما استطاعت أن تهرب ، أو ربما فتك بها الفلاحون .. ووالدى المسكين يعض أنامله أسى فهو ضيق الصدر لأنه لم يمنعها من السفر . ثم هو مريض ، قد تقدم به العمر ، وقد شغف حبا بنادينا ... وإنى لأعتقد أنها ستكون نهايته لو وقع لها مكروه ... وبعد فالأمر كله مأساة . وإن شاء الله سوف تستقر الأحوال . وأنا من جهتى لا أريد أن أسمع بعد شيئا عن الضياع أو الفلاحين ، حتى لو امتد بى العمر إلى مائة عام. أنا على تمام الاستعداد للتنازل عن ليسبيزى تخلصا منها .. ولا أتمنى لألد أعدائى أن يعانى ما عانيت أنا من آلام هذه الأيام الأخيرة .

ولقد تأثرت يوجينيا من المنظر العاطفى الذى وقع بالجلسة ..وأشارت على تيتو، وجوجو يؤيدها فى كل حرف، بألا يذهب إلى الريف، فيقع له مكروه، مثل نادينا ، وبخاصة لأن الجيش قد يضطر إلى إطلاق النار ، ولا يدرى أحد كم من الدماء ستراق إذ ذاك .. وأجاب هيرديليا مستسلما ، شأنه شأن أحد الأبطال وهو ينطلق إلى حرب : آه ياسيدتى إنى عندئذ لن أكون خسارة كبيرة .

— ٤ —

أوشكت الشمس أن تغيب ، فانطلق القوم أخيرا صوب بيت أيوجا ، صاخبين صارخين كأنما كانوا يذهبون إلى عرس ... لقد عكرت هذه المشاجرة صفوهم ، فأصبح كل واحد فيهم الآن ساخطا .. وجذب الضجيج الذى انبعث منهم انتباه الأطفال ، فجروا يتطلعون إليهم .

وصاح تريفون غوغو . وكان على رأسهم ، عندما شهد بوزوك على عتبة الخان : « هيا ياعم كريستى ، تعال معنا . . . واعلم أن من لم يكن معنا ، فهو علينا . . . ولابد لنا أن نعرف فى أى جانب أنت . . . »

فأجاب صاحب الخان فى خوف وعجلة : «أنا آت .. أنا آت يا أخ تريفون . كيف يمكن أن أتخلف عنكم ، والقرية كلها هناك ؟ » ثم نادى على زوجه وأضاف : « تعالى وامكثى هنا ، لأنى ذاهب مع الناس » .

وتعالى صوت المرأة وهى تزمجر من الداخل ، ولكن كريستى بوزوك اختلط بين الجمع ، وقد رسم على وجهه تعبيرا متألقا يليق بالمناسبة . . . واطمأن بالا عندما لحظ بعض زعماء القرية بين الفلاحين ، بما فيهم العمدة برافيلا .

وصاح فيمن كانوا حوله : « هكذا ينبغى أن يكون الحال !! نحن لو وقفنا جميعا يدا واحدة فلن يغلبنا أحد ! » .

وعلم ميرون أيوجا باجتماع أهل القرية ، وبالاستعدادات التى يتخذونها ضده . . أما أزباسيسكو ، وكان إلى يومه ذاك لم يرفع أنفه من دفاتره التى يدون بها حسابات الفلاحين ، فقد رأى ، وهو الكاتب البسيط ، أن الخلافات بين مالك الأرض والقرويين لا تعنيه فى شىء ، فقد انتابه ذعر شديد عندما قال له بومبو المشرف ، بين الهزل والجد ، إنه هو هو الذى حظى بأكبر قدر من كراهية الفلاحين ، لأنه عمل على أن يسجـــل فى دفاتره الديون التى عليهم ، وشروط الاتفاقات التى عقدوها . . فكان منذ الصباح يهرع إلى سيده ، كلما ترامت إليه شائعة من الخدم أو من عابر سبيل ، فيخبر بها الشيخ ميرون ، مضيفا إليها على الدوام أن من رأيه استغلال فرصة تردد الفلاحين ، فيرحلا عن آمارا وفى الوقت متسع ، لأن المقاومة لا جدوى منها أمام هذه المشاعر المهتاجة الثائرة .. وأصغى ميرون أيوجا ، ولكنه لم يلق بالا إلى نصائح كاتب حساباته . على أنه عندما سمح الكاتب لنفسه أن يلح فى الأمر ، أمره أن يلزم دفاتره ، لأنه فى غير حاجة لأن يستمد منه النصح

وأخيرا صاح أزباسيسكو يائسا ، وهو يدلف مسرعا إلى جناح الشيخ أيوجا: « الفلاحون آتون يا سيدى ميرون !! القرية كلها يا سيدى !.. هذا مريع ... آه يا ربى ، آه يا ربى ، لماذا لم تستمع إلى ؟ » .

فقال الشريف هادئا : « أمسك عن الكلام ، واحتفظ برباطة جأشك !.. دعهم يأتون !.. ولعل من الخير أن يأتوا حتى نفرغ من هذه الأمور ! » .

وقد عزم أزباسيسكو على أن يبقى على مقربة من الشريف ، وقال فى نفسه إن ما يحدث للشريف يحدث له كذلك ، ثم إن الناس يحترمون الشريف ، وهم لهذا لن يوقعوا أذى بكاتب حساباته ، ويتركونه فى حاله .

ونظر إلى الشيخ وهو يذرع الغرفة ، ويداه وراء ظهره ، ثم قال : « ماذا تنوى أن تفعل يا سيدى ؟ .. أتراك لن تذهب لملاقاتهم ! ! إنك لو لم تذهب فسيشقون طريقهم إلى هنا قسرا ! » .

واستمر ميرون أيوجا يذرع الغرفة دون أن يرد بجواب ، بل أخذ يغمغم فى نفسه على غير هدى .. والحق أنه ما عاد يدرى كيف يعالج هؤلاء الناس الذين طرحوا جميع الحواجز التى تمثل السلطات فى مدى أيام قلائل ، فأحالوا أهل القرية الوادعين إلى قطيع مجنون ، تدفعه الغرائز الهوجاء هنا وهناك فى مهب الرياح .. كان ما حدث فى الأيام الأخيرة من طرد الشرطة ، وإشعال الحرائق ، ومن سلب وفجور ، ما هو إلا نتيجة حتمية لسلسلة من التراجع والتقهقر من جانب السلطات ؛ هذا بالإضافة إلى عجز الإدارة ، وإفساد الأخلاق ، نتيجة الوعود الكاذبة التى يلقى بها الزعماء ، فيشجعون بادئ ذى بدء على ظهور روح السخط ونموها فى نفس الفلاح البسيط ، فينتهى به الأمر إلى الفوضى والاضطراب .. لم يكن مناص إذن من كبح جماح النوازع الفوضوية من بداية البداية ، وهى فى مهدها وحسبنا بعد ذلك أن نلجأ إلى وسائل الإقناع فى دأب .. أما وقد تأصلت هذه النوازع الفوضوية ، فأخذت تظهر على سطح الأرض ، فليس ثمة سبيل إلى وقف تيارها المدمر إلا بالقوة الغاشمة .. وكان يدرك تمام الإدراك أنه الآن ، وهو وحده ، عاجز عن الوقوف أمام الجماهير التى فقدت صوابها ؛ كذلك لم يكن ليستطيع أن ينكص عن أداء واجبه ، ألا وهو الدفاع عن أرضه .. وكان مجرد وجوده

والاحترام الذى يكنونه لذاته ، حائلا ضد الفوضى الشاملة . . فقد كان الفلاح يكن احتراما فطريا لشيوخ القرية وزعمائها ، سيما أولئك الذين ظلو سادة له على مدى الأجيال والحقب .. وطالما هو موجود فسيتورع الناس عن السلب والنهب ، فهم قد أشعلوا النار فى روجينوزا لأنه لم يكن هناك . . على أنه بعد أن رأى النيران تشتعل فى بيت كوزما بيريونا أخذ يفكر بطبيعة الحال فيما إذا كان يجدر به أن ينسحب زمناً حتى تتدخل السلطات ، وتعيد هؤلاء المخابيل إلى صوابهم . . ثم أليس من الجنون أيضا من جانبه أن يجابه جمهرة الثائرين الذين طاشت عقولهم وليس معه سلاح غير الخوف والاستحياء اللذين يثيرهما وجوده شخصيا ؟ واللحظة التى ينهار فيها السد القائم على الهيبة ، ألن يبدو وجوده سخرية لاذعة تفضى إلى مزيد من العنف والهياج . وهنا توقف عن التساؤل بغتة . فقد بدت الأسئلة فى نظره من أولى علامات الجبن . . إن الجبن وحده هو الذى يلتمس الحجج ، ويتذرع بالاعتبارات تبريرا لوجوده . . إن ما قدر يكون ، فى وقته المقدور .

وإذ هو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، أخذ يسمع الأصوات من الخارج قائلة : قد دنت اللحظة الحاسمة . . ووقف أزباسيسكو قرب النافذة ، يحملق منها فى رعب ، ويهتف هتافات تدل على الهلع . وقال ميرون فى نفسه إن عليه أن يخرج لملاقاتهم ، ولكنه ظل يرجىء الخروج إليهم ، كأنما كانت كل لحظة تأخير تمضى فى صالحه .

وتزايد وقع الأقدام فى الخارج ، وتعالت الأصوات مدوية . . وانساب الجمع من الطريق إلى فناء البيت ، كما ينساب نهر غير مجراه بغتة ، واندفعوا إلى الممشى الذى عبر أخيرا ، ولكنهم حرصوا على ألا يطئوا الحشائش الرقيقة التى نبتت حديثا على الحافة . . وتعالى صوت بين الفينة والفينة يقول زاجرا : « إياكم أيها الفتيان والخطو على الحشيش ، إنكم إذن لتبددون عملا رائعا ! » .

وخفتت ضوضاء القوم الآن ، كأنما قد خجلوا من تهجمهم على حرمة البيت ، حيث كان قد حرم على الفلاحين الذهاب . . ولكن لما وصل تريفون غوغو إلى حوض الزهر وجد فى نفسه الجرأة فأطلق صيحة طويلة عميقة من الاستنكار ، كأنما ليسبر غور شجاعته ، وليحطم تعويذة السحر التى تشد وثاقهم جميعا .

أما معظم الذين ولجوا من المدخل الآخر ، عن طريق الفناء ، فكانوا أشد جلبة . . . وتطاير اليمام فى الهواء أمامهم ، وتفرقت أسراب الدجاج ، وهى تقوق خائفة وجلة . . وخرج الخدم والعمال من الحظائر والمبانى الخارجية ، وهم يحملقون بعيون ملؤها العجب فى القادمين من القرية ، ويتضاحكون ويصخبون كأنما قد وصل الجمع بالطبل والمزامير ابتهاجا بالعيد . . وكان العجوز إخيم هو وحده الذى وقف مبهورا حائر اللب . . أما بومبو المشرف فقد بدا مستسلما ، مرتعد الأوصال ، وهو واقف قرب مدخل داره فى مؤخرة البيت ؛ أما زوجه فكانت ترتجف بالداخل ، وهى تختلس النظر من وراء الستائر .

وتساءل المشرف فى غباء ، عندما وصل إليه أولئك الذين كانوا على رأس الجمع : « أأنتم جئتم ! ؟ . . أأنتم جئتم ؟ ! » .

ولما سمع أن هناك آخرين قد دخلوا عن طريق الممشى ، انطلق إلى هناك ، كأنما قد استشاط غضبا ، فأراد أن يخلى المكان منهم . . وكان الفناء الداخلى ، بين الفيلا والبيت القديم ، غاصا بالفلاحين . . . وألقى المشرف بكلمة رقيقة لبعض الفلاحين ، ونصب نفسه أمام الأعمدة المقامة على « السدفة » ، كأنما أراد أن يحول بين الناس والهجوم على سيده . . ورسم على وجهه ابتسامة ثابتة ، إخفاء للخوف الذى استبد به ، واكتسابا لعطف الجماهير .

وازداد الهرج والمرج كلما تقاطر القرويون وجرحت بعض العبارات مشاعر المشرف ، حين أتيح له أن يدرك مرماها ، فقال فى سذاجة : « ماذا حدث أيها الفتيان ؟ . ماذا تريدون ؟ . . قولوا لى لأنى . . . . » .

وردوا عليه مستهزئين ، وماتت كلماته فى غمرة صيحات الاستنكار . . وارتبك بومبو ، وصاح لوبو شيريتو ، وقد دفعه القوم إلى الامام : « اذهب يارجل ، اذهب وقل للشريف أن يخرج إلينا . القرية كلها هاهنا ! » .

وغمغم بومبو ، وقد عاد إليه رشده ، فأسرع إلى داخل البيت : « أنا ذاهب ! . . أنا ذاهب ! . . »

وطرق باب الشيخ ميرون ، ودخل دون أن ينتظر إذنا بالمثول وقال :

« معذرة ياسيدى ، فقد جاء أهل القرية جميعا !! » .

والتفع ميرون أيوجا ، كأنما أدهشه النبأ ، رغم أنه قد سمع همهمة الناس المتعالية قبل ذلك بدقيقتين .. ورنا ببصره فى عينى المشرف ، وقال : « حسن ياليونتى ... لنذهب ونر ماذا يريدون ! » .

وتناول « الطاقية » الصغيرة التى تعود أن يلبسها فى الفناء ، فوضعها على رأسه بإحكام ، واتجه إلى الباب .. وأمسك به بومبو ، وتناول سترة من الجلد الموشى بالفرو من فوق مشجبه ، ورفعها إليه ليلبسها ، قائلا فى ذلة : « الجو رطب ياسيدى ، وربما أصابك برد لو .... »

وزجر ميرون متطيرا . « لماذا أمسكت بى ؟.. » ولكنه استدار إليه مع ذلك ، وشد السترة فى عناية ، كأنما قد أزمع السفر فى رحلة طويلة .

واستمر أزباسيسكو واقفا كالتمثال أمام النافذة ، بل ولم يأت بحركة عندما دخل المشرف .. ولما رأى الاستعدادات التى اتخذها الشريف . هبط عليه إلهام بالبقاء حيث كان ، استعدادا لأى طارئ كائنا ما كان .. لماذا يعرض نفسه للمخاطر دون جدوى ؟ .. إنه على أية حال رجل فقير ، وضعته المقادير فى موضع يدعو للأسى ، ومن شأنه أن يمقته أناس يعانون من الفقر والاضطهاد مثلما يعانى .. ولما سأله ليونتى بومبو هامسا ، من وراء ظهر ميرون ، « ألن تأتى معنا ؟ » أجاب فى نفس النبرات : « لا ! » .

وتوقفت الأصوات كلها عندما ظهر الشريف الشيخ على « السدفة » فجأة ... وارتفعت بعض القبعات والطواقى تلقائيا .. ووقف الشيخ على حافة « السدفة » ، على استواء مع الناس .. ولحظ بنظرة واحدة أن جماهير الملاحين قد أحاطوا بالبيت من جميع الجهات ، وانتشروا حتى الفيلا ، وملئوا ساحة الخدم .. وكانت الشمس قد أفلت وراء الأكواخ ، فألقت « بالسدفة » فى الظل ، ورمت بوهج دموى على مئات الوجوه التى تجهمت عابسة فى الضوء القوى .

قال ميرون هادئا ، وهو يتفحص الوجوه كأنما أراد أن يتبين من كان غائبا

« أرى أن القرية كلها هنا ، بما فيها الكلاب والخنازير أيضا ! » .

« سيدنا ! » هتفت بها عدة أصوات مترددة ، وتبين الشيخ أيوجا من بينها صوت إيجنات سيرسل ، بل وخيل إليه أنه لمح وجهه الشاكى بين الجميع دون ما تحديد ، ولكن الأمر لم يعنه كثيرا — فالوجه لم يكن إلا ومضة فى خاطره لا أكثر .

وعم الصمت وهلة ، بدت لانهاية لها بالنسبة لهم جميعا . . وما لبث ميرون أيوجا أن صاح آمرا : « من ذا الذى دعاكم هنا فتفسدوا أحواض الزهر وشرخات الزرع والممرات التى عملت فيها جاهدا أنا والناس ؟ . . من أذن لكم بهذا ؟ لم لم تنتظروا فى الساحة الخارجية ؟ أتراها لم تعد مناسبة لكم الآن ؟ . . لقد أصبحتم جماعة من الأشراف منذ بدأتم هذه الموبقات اللعينة ! ! » .

وغلى غضبه إذ أخذ يسترسل فى الكلام ، ولم يعد قادرا على أن يكبح جماح نفسه ، رغم إدراكه أنه قد اشتط إلى مدى بعيد ، وأتى تماما بعكس النتيجة التى كان يريدها . . وقاطعه صوت فى وقاحة :

« هل جئنا نحن لتطردنا أنت ، أم لنطردك نحن ؟ » .

وتردد ميرون طرفة عين ، ولم يدر هل يعقب على هذه الملحوظة أم لا يعقب ، وما لبث أن واصل الكلام باللهجة نفسها : « هذا التظاهر بمظهر الأشراف لا ينطلى على أيها الفتيان ! . أنا أعمل مثلكم . وأعمل معكم ، ونستطيع أن نتبادل الرأى فى الأمور هناك كالعهد بنا دائما ؛ ولكن ليس هنا . فهذا المكان مكان الفراغ من العمل . . ولكنه لابأس ، والآن وقد جئتم ، فأسمعونى ما يضايقكم » .

وتقدم تريفون غوغو إلى الأمام فى سلاطة ، وطاقيته على مؤخرة رأسه ، وقال :

« لقد راح هذا الزمن ياسيدنا ... ألم تسمع بأوامر الملك ، أم تراك لا تريد أن تسمع بها ؟ » .

وبذل الشيخ مجهوداً خارقاً ، فرد نفسه عن إجابته بلطمة يلقيها على وجهه . . كان يعرف فى تريفون الكسل والشر ، فهو أحد أولئك الفلاحين الذين لا يتدنى

هو حتى إلى مخاطبتهم .. وكأنما لم يصل إلى سمعه ماقال تريفون ، فاستدار برأسه إلى الآخرين متسائلا عن الأوامر التى أشاروا إليها . . . والواقع أن أزباسيسكو قد أخبره بها بالأمس ، ولكنه رأى من الفطنة أن يتظاهر بالجهل بها . . وأسرعت طائفة من القوم المهذبين تشرح الخبر ، وكيف علموا به .. واستمع الشريف فى هدوء ، وأخذ يتأهب للكلام ؛ بيدأن تريفون عاد يقاطعه فى غلظة ؛ فقد أغضبه أن ميرون لم يسأله هو عن النبأ ، قائلا : «مهلا ياسيدنا . أنا لم أشرح لك ، فهم أغبياء و . . . »

« أنا لا أخاطب السفهاء قليلى الحياء » قالها الشيخ ميرون وهو يتفحصه من أعلى إلى أسفل باشمئزاز ، وواصل الكلام مع الآخرين قائلا : « هيا يابروفير ، تقول . . . »

وشعر ميرون أيوجا بالدماء تتصاعد إلى وجهه ، وهو يستمع إلى الإيضاحات المضطربة . . . لقد أغضبته جسارة تريفون ، ومع ذلك فقد حاول جاهدا أن يتمالك نفسه ، لأنه أدرك أن الوغد يسعى عامدا لاستفزازه ، ومن ثم لتشجيع الآخرين . . أما تريفون غوغو فقد أحس بالضعة لأن الشريف لم يسمح له بالكلام . رغم أنه هو الذى بذل الجهد الأكبر فى تجميع الناس ، والمجىء بهم إليه . . . وامتلأت نفس تريفون سخطا ، سيما وقد رأى الكثيرين يساندونه ، مغمغمين أن ليس من حق الشريف أن ينتهره ، وألا يسمح له بالكلام .

ولم يستطع الشيخ أيوجا أخيرا أن يستمر فى الاستماع إلى تهتهة الفلاحين عن أوامر الملك ، فقاطعهم بحركة من يديه وواجه الناس الذين أخذوا فى الصياح .

« كيف سمحتم لأنفسكم يا أولادى أن تغرر بكم الحكايات الخرافية ؟ . . وكيف سمحتم لأنفسكم أن تتهجموا على البيت ، وأن تدوسوا على حديقتى وتخربوها ؟ . أتظنون أيها القوم الكبار العقلاء ، أنكم تخيفوننى إذ تأتون هنا وقد اختلط حابلكم بنابلكم ؟ ! احرى بكم أن تخجلوا من أنفسكم ؟ . . سيما أولئك الذين تعودوا فيكم أن يسلكوا مسلك الأدب ، والذين كنت أكن لهم الاحترام ! . . أرأيتم إلى عمدة القرية ! . . رجل لطيف والحق يقال ! ! . . إنه بدلا من يهدئ من سورة هؤلاء المجانين ! الذين طاشت عقولهم ، نراه يشاركهم فى الثورة . . تبا له من عمدة ! ! » .

قال برافيلا ، وهو ينحنى فى ذلة : « سامحنى ياسيدى ، ماحيلتنا والقرية قد جرفتنا معها ؟ ».

واستطرد ميرون ، وقد استبد به الحماس شيئا فشيئا : « وأنت يالوكا ، وأنت يالوبو ، رجل عجوز مثلك ، قد ابيض شعر رأسه شيبا . وهو أكبر منى سنا ، ينضم إلى جماعة المعتوهين أمثال تريفون !! ».

وأدرك ، وقد مضى فى الكلام ، أنه قد فقد صوابه ، ولكنه عجز عن أن يملك زمام نفسه ، مثله مثل عداء انطلق خطأ فى طريق وعر ، فاندفع غصبا إلى أسفل ، رغم عرفانه أنه يقترب من هاوية . . . على أن الأثر الذى تخلف عن زجره لهم شجعه على الاسترسال . . وازداد الفلاحون صمتا وصوته ينهال عليهم فى قسوة عاتية . . والظاهر أن الرهبة والذلة اللتين تعودوا عليهما قد عادتا إليهم بغتة ، فأطرقوا برءوسهم ، وغمغموا بمعاذير مقتضبة .

ونزلت كلمات الشيخ ميرون على رءوس الجمع المبهور متوعدة كسوط فى يد مروض أسود ، على استعداد لأن يغير اتجاهه فى أية لحظة ، وشعر تريفون غوغو بجسده يتلوى كما لو كان فى قبضة من حديد ، فانفجر فى نبرات مختنقة : « مهلا لحظة ياسيدى ، نحن لم نقم بالثورة لهوا ولعبا ... »

واختلطت كلماته فى الهواء وتلاحمت مع صوت الشيخ ميرون أيوجا . . . واحتبس الكلام فى فم الشيخ دهشة ، ولكنه مالبث أن استرسل فى غضب متزايد كان يهدد بالقضاء على كل عقبة تقف فى سبيله : « اخرس أنت ياوغد .. اخرس ياحرامى . . ! اخرس . . اخرس . . »

وجحظت عيناه من رأسه ، وخرج الزبد من أركان فمه ، وهجم على تريفون غوغو ، وهو يهز قبضته . . وتردد الفلاح وهلة ، ولكنه قابل نظرة ميرون أيوجا ببسمة سليطة ، فلما لم يكف الشيخ عن قول « اخرس » رغم أنه لم يتمكن بالكاد من التنفس تعبا وإرهاقا ، هتف تريفون بصوت عميق مفعم بالاحتقار .. « لماذا تريدنى أن أخرس ؟ . . . أنا لا أريد أن أخرس . . . أتريد أن تاتى إلى بأوامرك ! . . هل أنا خادم عندك ؟ . . »

وأحس ميرون أيوجا ، وقد أعماه الغضب ، بكل كلمة تصفع وجهه صفعات قوية جعلت آذانه تدوى . . واستمر ، وهو مازال طائر اللب،«اخرس .اخرج من بيتى فورا . . اخرج ياوغد !.. اخرج ياحرامى وإلا ...»

وأجاب تريفون غوغو بغضب وسلاطة أشد من ذى قبل ، وقد باعد بين ساقيه ليثبت أقدامه فى الأرض : «لست بخارج ، فما رأيك ؟ . . وأنا لست أشعر بميل إلى الخروج !. ثم إنه لم يعد بيتك بعد، وأنا أفضل أن أبقى هنا كما ترى!».

« ألا تريد أن تذهب من بيتى ؟ . . أنت تقف هناك . . حسن . . سأعلمك الأدب ياسافل ! » .

وتغير صوت الشيخ أيوجا إلى نبرة أهدأ عن ذى قبل . وعاد مسرعاً إلى داخل البيت ، وهو يحدث نفسه فى كل خطوة يخطوها أن من واجبه أن يلزم الهدوء . . وارتعشت يداه ، واصطكت ركبتاه ، ودق قلبه دق المطارق فى أذنيه . . كانت بندقيته معلقة فوق رأسه فى غرفة نومه معبأة دائما ، فجذبها من على الحائط . .

وانطلقت الألسنة كلها من عقالها فى الخارج .. كان اوكا تالابا هو وحده الذى صاح فى تريفون غوغو قائلا: إنه ليس من الذوق أن يقف هذا الموقف السليط من الشريف الشيخ . . ولكن هتاف الاستحسان تعالى من الجوانب الأخرى كلها : «أحسنت ياتريفونيتسا ! . . لاتبال ! . لماذا بالله يقدم الشريف الشيخ على إذلاله وإهانته ؟.. كان عليك أن تأخذه من رقبته و . . .»

وتناهى إلى الأسماع صوت رفيع جعل الذين حوله يضحكون : «أبونا ميرون فى غضب شديد ، عفا الله عنه ؟».

ولكن إيجنات سيريل كان مهموما : « حذار ياتريفون .. أنت لا تعرف كنه الشريف الشيخ ، فربما ....»

وظهر ميرون أيوجا مرة أخرى ، وقد أمسك ببندقيته ، وعيناه جاحظتان تلتهبان دما .. وقابلته همهمة من الدهشة والاستنكار .. وتوقف الشيخ فى مكانه السابق على مدى خطوات ثلاث من تريفون غوغو ، وقال فى صوت واضح عميق قوى : « اخرج فورا ، يالص .. اخرج وإلا خرجت محمولا على نقالة ! » .

وصرخ تريفون غاضبا ؛ قائلا « اسمع مني أيها الشريف.. أنا لا أنوي الذهاب!.. أفهمت ؟.. لا تحاول أن ... وسواء أكنت شريفا أم من غير الأشراف فسترى ما يحدث .. على كل حال ... »

ولم يتمكن من تكملة عبارته ، فقد رفع أيوجا البندقية بعد أن سمع كلماته الأولى ، وصوبها نحوه .:. وانطلقت رصاصتان ، إحداهما تلو الأخرى في سرعة خاطفة بحيث بدت الرصاصة الثانية صدى للأولى ، وتلقى وجه تريفون غوغو الطلقتين ، وقد فغر فمه ، فتغير لونه ، كأنما أصيب بطفح جلدى . . . وامتلأت عيناه الصغيرتان دهشة ، وسقط كما تسقط زكيبة ثقيلة .

« ياحرامى ! ! » غمغم بها ميرون أيوجا ، وقد أفعمت نفسه رضى وهو يراه مرميا على الأرض .

وارتد بعض الرجال الذين وقفوا قرب تريفون على من وقفوا وراءهم عند سماعهم الطلقات ، وهم يحمرن وجوههم في رعب . . وترامت إلى الأسماع صرخات في خضم الارتباك العام . . على أنه بجانب الصرخات الخائفة ، تعالت الشتائم والتهديدات . : وفجأة صرخ تودر ستريمبو ، وكان يقف على مدى أمتار قليلة ، وقد احتقن وجهه حقدا : « ما هذا أيها الشريف ؟.. أتريد أن تقتلنا ؟ »

أما الجمع فقد أخذ في التحرك .. فأما الذين كانوا حول تريفون فقد مالوا عليه يرفعونه... وألم بالقوم جنون فجائى ، فجعلهم يندفعون مرة هنا، ومرة هناك. وعندما ألقى تودر ستريمبو بسؤاله ، ارتفعت هراوة ، وانطلقت في الهواء على مقربة من ميرون أيوجا . فصدمته في جمجمته بقرة رن صداها في الأسماع .

« يالص كيف تجرؤ أن . . . » بدأ بها ميرون ، ولكنه لم يستطع أن يكمل عبارته . . . وانطلقت عشرات العصى في حشد غاضب، كل منها يهدف إلى الوصول إليه . . . وكان الشيخ ، وهو غائب الوعى ، وقد شجت رأسه ، لايزال يقف في وسط الفلاحين الذين تكأكئوا عليه فحالوا دونه والسقوط .

واكتظت « السدفة » الآن، بأعمدتها المربعة ، بالناس، وكلهم يضربون إلى اليمين وإلى اليسار عن غير هدى ، كأنما كان الجو نفسه يحمل في طياته عدوا لدودا

واهتز زجاج النوافذ ، وتردد صداه ثم تساقط قطعا متناثرة ... وتماوج الجمع كبركة حركتها عاصفة عاتية، الواهنا وهناك كأنما يحاولون أن يجدوا متنفسا عن الغضب الذى كتم أنفاسهم، واختلطت صيحاتهم العديدة بشتائم قذرة . فجعلت منها عواء ممتدا أغرق الولولة اليائسة التى انطلقت من أفواه الخادمات اللائى كن يعملن بالبيت . وفى حومة هذا الغضب العارم الذى انطلق فى لحظة كالبرق الخاطف الذى اختزن طويلا بين السحب ، ثم نزل على الأرض دون أن يصحبه الرعد المعتاد ، كذلك أحدق الفلاحون بالخدم أيضا . واستطاع بومبو المشرف ، رغم انه قد وقف إلى جوار الشريف الشيخ أن ينجو بجلده ، بعد أن نالته بعض الصفعـــات ، كأنما لم يلحظه أحد فى معمعة العاصفة .

وبعد عدة لحظات ، انفض أولئك الذين تجمعوا حول الشيخ أيوجا ، واحدا إثر الآخر ، بعد أن هدأت سورتهم . أو تعطشا لمزيد من العمل .. فلما ترك الفلاحون ميرون أيوجا ، انبطح على وجهه ، ودفن رأسه فى الأرض ، كأنما يتشمم شذاها الحلو المر فى نهم أشد من ذى قبل ، بل وللآخر مرة فى حياته ... لم يعد أحد يعبأ به ... واستمر الفلاحون يتدافعون ، ويخطون فوق جثته ، ويطئونه تحت الأقدام ، ويضغطونه فى الأرض ، ويعجنونه بها ؛ تلك الأرض التى امتدت جذوره فيها طوال حياته كلها .

— ٥ —

صاحت ماريورا وهى تندفع إلى الفناء : « بيتريتسا .. تعال بسرعة .. لقد فتك الناس بالشريف الشيخ .. تعال يا بيتريتسا ، أسرع قبل أن يبدءوا فيما هو أشر من ذلك ! » .

وكان بيتر بيتر قد انتهى من البوابة ، وكان يطرق فى حظيرة الماشية فى ظهر الدار ، ليشغل نفسه فلا يندفع إلى شىء .. ولقد سمع من أمه سارافندا أن القرية كلها قد ذهبت كلها إلى بيت الشريف الكبير .. وهمت نفسه لحظة إلى الذهاب كذلك ، لا للخراب أو الدمار ، بل على العكس ، كى يكبح جماح الناس الذين على شاكلة تودر ستريمبو .. ولكنه تلبث فى بيته فى إصرار ليلعق جروح فؤاده

ظنا منه علاوة على ذلك أن الناس لن يجرءوا على وضع أيديهم على الشريف ميرون، حتى ولو كانوا قد ذهبوا والثورة تعتلج بنفوسهم .

وصاح بيتر فى دهشة : « هل ذهبوا حقا ؟ ! »

ولم يرفع بصره إلى ماريورا ، على حبه لها، فقد عزم على أن يؤجل زواجهما إلى ما بعد عيد الفصح . . أما الآن فقد بدت فى ناظريه شخصا غريبا . . لم يعد يحس بعاطفة إزاءها . . وكان صوتها غريبا على أذنيه، وهو أمر لم يحدث من قبل .

وتوقف عن العمل دون كلام ، وانطلق فى طريقه جريا أو يكاد . . وتبعته ماريورا كالكلب الطيع ، وهى تقص عليه لاهثة الأحداث التى وقعت ببيت الشريف . . وكأنما كانت كلماتها تدفعه من الخلف، ولكنه مافتىء يقول فى نفسه: إن من العبث أن يذهب وحده ، فهو لا يستطيع أن يحارب القرية كلها ، لا ولا أن يحول بين الناس والتنفيس عن غضبهم .

وكان من الميسور سماع الضجيج والجلبة القائمة حول بيت أيوجا من مدى بعيد . . وأسرع بيترى خطوه . . وكان هو هو كما ترك عمله ، يتشح بقميصه ، لا يزال يحمل فأسه ، كأنما كان ذاهبا يتمشى وفى يده عصى .

وكان النـــاس يتدافعون فى ساحة البيت الكبرى جيئة وذهابا فى جنون ، ويتحدثون فى هرج ومرج ، وعلى غير هدى من أمرهم . واشتبك بعضهم مع الخدم ، وتشاجر آخرون فيما بينهم لغير ماسبب ، نزوعا منهم إلى المخاصمة . . وقام نفر من الفلاحين بعلاج تريفون غوغو الذى رقد يتأوه إلى جوار البئر . . وتطلع بيتر إليهم ، ولكنه لم يتوقف عن المسير . . وعند دار ليونتى بومبو ، تدافع مزيد من الفلاحين ، ، وأطلقوا صيحات متوعدة ، وصراخ زوج المشرف يعلو على أصواتهم من داخل البيت . . أما فى المكتب المجاور فقد حطم آخرون كل شىء وقع فى متناول أيديهم ، وبخاصة دفاتر الحسابات التى سجلت الاتفاقات والديون كلها .

ومضى بيتر إلى الفناء الآخر . . وكان الجمع ، فيما بين البناءين أشد زحمة ،

وكانوا يلفون ويدورون حول البقعة نفسها ، كأنما كانوا فى انتظار أمر ، أو إشارة من الإشارات .

وسأل بيتر جماعة من الفلاحين الثائرين : « أين الشريف الشيخ ؟ » فأجابه قائل : « لقد حملوه إلى الداخل » .

وكأنما بيتر قد وفد من عالم آخر ، فلم يتعرف على الرجل الذى رد عليه ، ولا على الآخرين الذين وقفوا إلى جانبه . . ودخل البيت القديم — كان الجمع قليلا على «السدفة» — وانفجرت الشبابيك المتكسرة كأفواه سوداء فغرت فى الجدران . . وكان الناس يدخلون ويخرجون من الأبواب التى انفتحت على مصاريعها . . وفى الغرفة الثالثة وقف لفيف من الفلاحين فى صمت ، ورءوسهم عارية . . لقد كان ميرون أيوجا يذرع هذه الغرفة نفسها جيئة وذهابا ، ويداه وراء ظهره ، قبل ذلك بزمن وجيز . . أما الآن فهو يرقد على أريكة بين النافذتين وساعداه مصلوبان على صدره . . لقد لم العجوز إخيم بقاياه من تحت أقدام الفلاحين . . ووضعت بروفيرا الطباخة ملاءة بيضاء على الأريكة ، وأشعلت شمعة على رأسه ، أخذ لهبها يخفق الآن بين الشبابيك المتكسرة . . وكانت تحاول أن تزيل ما علق بملابس الراحل ووجهه من وسخ . . قال العمدة برافيلا ، وكان بين أولئك الذين كانوا فى الغرفة ، فى صوت خفيض : « اتركيه يا امرأة فى سلام ، هكذا مشيئة الله » .

وأراد أن يقول اتركيه حتى يجرى التحقيق فى ظروف وفاته ، ولكنه لم يجرؤ على القول .

وألقى بيتر نظرة طويلة على وجه الشريف الشيخ وقد علاه الوحل ، فلحظ على خده الأيسر خيطا من الدم المتجلط ، وقد اختلط بالطين ، كأنه شريط من المخمل الأسود انبعث من تحت الطاقية المنبسطة . . وبغت بيتر إذ سمع العمدة وهو يقول بتلميح يحمل فى طياته تقريعا خفيا :

« أحسبك لم تكن هنا يابيتريتسا ؟ » .

فغمغم الشاب : « يسرني أنى لم أكن هنا ، سامحنى الله . الله وحده يعلم ماسوف ينجم عن هذا كله ؟ » .

« هكذا كتب علينا ، أن نكون . . . »

ومرة أخرى خشى برافيلا من إكمال عبارته . . وأدركه إلخيم فقال : « اذهب أنت يابيتريتسا ، فربما استمع القوم إليك يابنى . . لا تدعهم ينهبون ويخربون كل شىء . . كفاهم ما اقترفوا من شر حتى الآن . أنا لهذا أرسلت ماريورا فى طلبك . . فقد كان الأشراف طيبين معك ، وساعدوك عندما كنت فى ضيق؟ » .

وغمغم بيتر ، وقد اربد وجهه : « لقد ساعدوا كثيرا من الناس ، وأنت ترى الآن جزاء ما قدمت أيديهم ! » .

فقال لوكا تالابا فى رقة : « رحمة الله عليه ، كان رجلا عنيفا ، سريع الغضب ! » .

ولزموا السكينة بعض الوقت ، وما لبث بيتر أن أفاق لنفسه ، فقال بغلظة : « لينصرف كل من ليس له عمل هنا ! » .

ولم ينتظر حتى يرى إن كان القوم سيرضخون ، فقد كان واثقا من طاعتهم لأمره . . وسرعان ما بقى الراحل وشأنه ، وإلخيم وبروفيرا وماريورا يسهرون على رعايته .

وجمع بيتر حوله ، فى نفس اللهجة الحازمة ، جميع الفلاحين الذين تبعثروا فى أرجاء البيت . . فلما بلغ « السدفة » لقى جماعة أخرى لم تشأ أن تنصرف وهى صفر اليدين . . وغلى غضبه وقال : « أليس عندكم ذوق ؟ . . ألا تعرفون أن هناك رجلا ميتا فى البيت ؟ . . ألم يكفكم أنكم قتلتموه ، والآن لا تريدون له أن يرقد فى سلام ؟ » .

ولما انصرفوا ، ساخطين ، لحظ بيتر جماعة أخرى تحاول أن تشق طريقها

إلى الفيلا ، بعد أن انتزعت أبوابها من مفصلاتها . . وخطر له أن هذه الفيلا هى ملك جريجوريتسا ، الرجل الذى يربطه به عرفان الجميل . . واندفع إليهم ، وهو يصيح فى هلع : « لا تدمروا شيئا ! . . انصرفوا ، أيها الفتيان ! . . ابعدوا ! . . إياكم والدخول ، فليس هناك شىء تأخذونه ! . . كن عاقلا يا عم سيرافيم ! » .

وشق طريقه بينهم ، ودخل الفيلا . . وكان الناس يتمشون على استحياء ، فى الردهة الكبرى من الدور الأول ، يلمسون شتى الأشياء ، ويتحدثون فى نبرات خافتة . . وعاد بيتر يهتف . وهو يهيب بكرم أخلاقهم ، أكثر منه آمرا : « هيا يا فتيان ! . . انصرفوا ! . . لا يوجد شىء لكم هنا » .

وسمع وقع أقدام فى الدور العلوى ، فأسرع يصعد الدرج الخشبى . . كان القوم يفتشون الغرف ، وكانت كلها مفتوحة الأبواب ، بحثا عن أشياء يستطيعون أخذها . . قالت امرأة فى غضب ، وكانت قد جمعت أشتاتا من الأقمشة فى ملاءة : « لماذا أترك هذه الأشياء كلها نهبا للضياع . والأولى أن أستعملها أنا ، أنا التى أعانى من شدة الفقر ! . . » واندفع بيتر إلى إحدى الغرف ؛ وكان بها جمع من الناس ، فأعاد عليهم نفس الكلمات : « هيا يا أصدقائى . . هيا . . . » .

وكانت هذه هى غرفة نوم نادينا ، بالسرير الضخم الذى علقت على رأسه صورتها الكبيرة . . واستطاع بيتر أن يشق طريقه قرب السرير ، وإذا به فجأة يرى عينى نادينا . . وارتد على عقبيه مشدوها ، كأنما كانت هى هى فى الحقيقة . . وجف صوته فى حلقه . وتحركت شفتاه المتهيبتان دون أن يند عنهما صوت . . . كانت نادينا تتطلع إليه مباشرة ، وهى شبه عارية ، بنظرتها المتراخية ، وقد شابها احتقار يهز المشاعر . . وتطلع آخرون معه ، ولكنهم لم يجرءوا أن يفتحوا أفواههم فى حضرتها . . وفاض قلب الشاب غبطة أول الأمر . كأنما هو قد وجد شيئا كان يسعى إليه جاهدا دون جدوى . . ولكن القناع سقط عن عينيه فى اللحظة التالية ، فقد انقلب فؤاده من الاحتقار الذى شاب نظرتها ؛ فامتلأ ضغنا . . وأحس بنفسه يقع فريسة الغش والخداع ، كأنما قد تلقى صفعة على وجهه . . وهتف بغتة بصوت أجش : « انظروا إلى أنثى الشيطان ، كيف تسخر منا ! ! »

ولم يدرك ، إلا عندئذ فقط ، أن الفأس كانت في يده .. ولوح بها فوق رأسه وقفز على الفراش ، وضرب بكل مافيه من قوة .. وتهشم زجاج الصورة وأز أزيزا طويلا نافذا ، وتطاير قطعا انتثرت كقطرات من الدم انبعثت من جرح ، فطار بعضها فى وجهه ، وخدشته خدش مخلب قط .. وجعل بيتر يضرب بسرعة وهو يلهث بشدة .. واستحال جسد ناديا المثور إلى قطع من الورق الملوى ، ولكن عينيها بقيتا ، تنظران فى تراخ واحتقار ، حتى بعد أن صار جسدها هشيما ...

وصاح بيتر غاضبا ، وعيناه تقطران دما وسخطا : « هيا يافتيان كى تطلعا!! » .

وكأنما القوم كانوا ينتظرون هذه الإشارة فانطلقوا .. ولم تنقض لحظات حتى حطموا كل شىء فى الغرفة .. أزيلت الشبابيك من قواعدها ، وتطايرت فى فى الفضاء قوائم الكراسى المكسورة ، وقطع الملابس ، والأوانى ، والوسائد التى قطعت تطاير ريشها ، وبراويز ، الصور ...

وصاح بيتر بعد لحظات : « اتبعونى أيها الأخوة ! » .

وأخذ كل واحد فى الغرف الأخرى ؛ وفى الدور الأسفل ، يحطم كل شىء فى غضب .. وجرى بيتر وهو يلوح بفأسه كمن مسه مس من الشيطان .

وهتف فيمن جاءوا من الخارج ، وهو يخترق طريقه إلى الدور الأسفل مرة أخرى : « النار ! .. النار .. لا تتركوا غير الرماد والهباء !! »

وردد آخرون ، وإن ظلوا فى أماكنهم يرغون ويزبدون : « أشعلوا النيران فى البيت يا إخوان ! » ...

قال سيراقيم موجوس ، وهو يلحظ الفأس الكليلة : « هكذا أحب أنا أن أراها يا بيتر يتسا !! .. لقد قاسينا جميع أنواع المظالم أمداً طويلا !! » .

ووجد بيتر نفسه فى الخارج .. كانت الشمس قد غ قت وراء البيت القديم. وإذ الغسق يتأهب لظلمة المساء ، بدأ الناس أشد عجلة من أمرهم ، وأكثر غضبا. ونضح وجه الشاب عرقا وحقدا ...

وتساءل العمدة برافيلا، وقد رأى ما اعتراه من تغير : «ما بالك يا بيتريفسا؟»

فقال بيتر بفظاظة : «أليس فى مقدورك أن ترى ، أم تراك لاتريد أن ترى ؟»

قال لو بو شيريتو ، فى لوم وأسى وهو واقف إلى جواره : «من العار أن ..»

ولم يدعه بيتر ينهى عبارته .

«كفى كلاما أيها الحمار العجوز ... فلطالما استبددت بنا ، ونهيتنا بالسفسطة والحكايات !»

وغمغم الشيخ، مستعيذا من الشيطان : «رباه !.. لقد جن جنونك أنت أيضا! أرجو ألا تندم على ذلك فيما بعد !.. »

«لماذا أندم ؟ .. نحن نموت مرة واحدة على كل حال !» قالها بيتر وهو ينصرف مسرعا ، دون أن يدرى إلى أين يقصد .

وأخذت سحائب الدخان تهب من بضعة شبابيك فى الفيلا ..

وصرخ صوت فى نشوة وحشية : «النيران !! . النيران ...»

وانتشر الحريق بمشقة ، ولم يشتعل دخانا إلا داخل المبنى .. ولم يتفجر اللهب إلا بعد منتصف الليل ، فشب فى السقف كتاج متألق ، أطلق ملايين الشرر .. وواصل القوم الوقوف حول النيران ، كأنما كانوا فى غير حاجة إلى النوم ، أو كأنما لم تكن لهم بيوت يأوون إليها .. كانوا جميعا مبحوحى الأصوات من الهتاف ، ولكنهم واصلوا الصياح بكلمات وشتائم لا رابط بينها ، كأنما كانوا يعوضون عن كل السنوات التى قضوها فى صمت .

وانتصب البيت القديم وراء الفيلا المحترقة ، أسود نعسان .. وعندما ولى الناس وجوههم شطره ، ارتعدت فرائصهم غضبا .. أما إيجنات سيرسل فكان وحده يغمغم ، فى محاولة يبتغى بها شفاء قلبه من الغل : «لقد أنعم الله عليه الآن بالأرض وبكل شىء !!»

الفصل الحادى عشر

بيتر بيتر

— ١ —

كانت السماء فى آمارا ، طوال ليلة الجمعة ، حمراء قانية من اللهب الذى أتى على فيلا أيوجا .. وأبى الجمع الصاخب الثائر من الفلاحين أن ينصرفوا ، فقد أبى النوم أن يداعب جفونهم ... وتعالت الصيحات والهتافات المهتاجة الجذلة فأغرقت طقطقة اللهب .. وماج القوم ، فى وهج الضوء الأحمر ، أشباحا لا تستقر على حال من القلق ؛ واستحالت أصواتهم المتحشرجة المشدوخة إلى ضوضاء غريبة . بدت وكأنما تصدر من باطن الأرض .. وما كاد الليل ينتصف حتى تهاوى السقف ، بما حوى من عروق محترقة ، على سطح الدور العلوى ؛ وتفجرت سحابة هائلة من الشرر ، وتبعثرت فى الجو القانى، ثم تبعها لهب عريض تطاير من الجمرات المشتعلة .. وانبعثت من مئات الحناجر ، كأنما إثر أمر علوى ، صيحة طويلة من الرضى والبهجة . ثم أخذ الفلاحون يتفرقون رويدا رويدا ، كأنما كانوا فقط ينتظرون هذه العلامة من علامات الانتصار التام . فئة قليلة فقط بقيت فى عناد ، مخافة أن يقع شىء تفوتهم رؤيته .. فلما بزغ الفجر أصبحت الساحة أشد سكينة عن ذى قبل ، وأخذت النار تحترق أشد هدوءا ، كأنما قد يشمت من الخفقان فى وهن .

وكان لا يزال يتلألأ نفس الضوء الوجل فى شباك البيت القديم ، وكان الشرر الهائل يتراقص على غير هدى فوق السقف ، ثم لا يلبث أن يتلاشى حين يلامس البلاط القديم كأنما قد هبط على ثلج .. وكان إخيم قد أوثق رتاج أبواب « السدفة » صدا لكل من يحاول الدخول ، فيكدر سكينة البيت .. وجلس وهلة يتأمل بجانب الشريف القتيل ؛ ثم حلت الطباخة محله ، ثم المشرف، ثم زوج الطباخة ، والآن جاء دور ماريورا فأخذت تطرق برأسها بحوساعة من الزمان فى ركن من الكرسى ... كانت تشعر بالنعاس ، ولكنها إلى جانب ذلك كانت خائفة تترقب. فهى لم تلق أبداً بنظرة إلى الأريكة التى رقد فوقها ميرون أيوجا جثة هامدة ، فقد

كانت ترتجف رعبا من الخيالات التى تتحرك على الحيطان باستمرار كأشباح لا يقر لها قرار .. وزحف البرد من خصاص النوافذ المتكسرة ، وازداد حدة .. وخيل إليها، مرة ومرة، والكرى على وشك أن يدب إلى جفونها، أنها تسمع حفيفا غريبا .. مرة واحدة فقط هى التى جرؤت فيها على أن تختلس النظر إلى المكان الذى جاءت منه الضجة ... وخيل إليها ، وضوء الشمعة يخفق. أن الميت يتحرك .. ورسمت الصليب على صدرها مرات ثلاثا ، وتمالكت نفسها قليلا ، ولكنها سمعت فجأة آهة واضحة ثقيلة مفعمة بالألم كالأنين .. وعجزت عن أن تند بصوت ، من شدة خوفها ، وقفزت على قدميها .. وفى نفس اللحظة همس صوت رجل ! « لا تصرخى ياماريورا .. وإلا هلكت أنا .. أنا أزباسيسكو ! ».

وزحف كاتب الحسابات بمشقة من تحت الأريكة ، وهو متجمد الأطراف تماما .. لقد اختبأ هناك عندما شهد الشريف ميرون وهو يتناول بندقيته ، واستطاع أن يتنبأ بما سوف يحدث ... وكان وهو يرقد محشورا تحت الأريكة يشكر الله على أن ألهمه بهذه الفكرة السديدة ، وإلا لذبحه هؤلاء الوحوش ذبح النعاج .. وأوجس بادئ ذى بدء أن يشعل الفلاحون النار فى البيت ، فيموت محترقا كالفأر . واستقر عزمه على ألا يتحرك حتى يزول كل خطر ، ولو اضطر أن يرقد مكانه سبعة أيام .. ثم ما لبث وأحشاؤه تلح عليه ، والميت يدفع به إلى الجنون من الهلع ، أن أدرك أن من الفطنة أن يطلق ساقيه للريح ، عندما رأى ماريورا تدخل لتسهر على المتوفى . فقد كان يثق فى الفتاة ثقة كبيرة .

واختبأ الآن وراء الستارة ، خوفا من أن يراه أحد من الخارج. وسأل ماريورا من خلال الستارة أن تخبره بتفاصيل كل ما وقع .. فلما سمع أن الفلاحين ضربوا ليونتى وزوجه ، وأنهم نهبوا دارهم ، رأى أنهم لابد سالخين جلده حيا .. وأخبرته الفتاة كذلك أن فى وسعه أن يمضى آمنا عبر الحديقة ؛ إذ لم يعد هناك بعد فلاحون فى الفناء .. ثم خطر له خاطر جديد ؛ إنه ليستطيع أن يتخفى فى ملابس فلاح ، وبهذا يتجنب أن يتعرف عليه أحد فى القرى القليلة التى يتحتم عليه المرور بها وهو فى طريقه إلى كوستستى ... ولهذا أرسل ماريورا لتسأل عمها جلبابا ، أيا كان نوعا ، فتأتى به من الباب الخلفى ، كيلا يراها أحد ، واعدا إياها بمكافأة سخية ، وعرفانه

بجميلها أبدالآبدين . . وأتت بروفيرا نفسها بالجلباب، وتبادلته بملابس أزباسيسكو ، فى حالة ما إذا لم يرجع كاتب الحسابات .

قال والدموع تترقرق فى عينيه ، وهو يضغط على يديها : « جزاك الله خيرا ياعمة بروفيرا . . لقد أنقذت حياتى . . ولن أنسى لك هذا الصنيع أبدا . . »

وأخذ أزباسيسكو ، وقد أشرق الفجر ، يشق طريقه عبر الحديقة صوب بيرلوجو ، دون أن ينظر إلى فيلا أيوجا وهى تحترق ، ودون أن يلقى بنظرة إلى الوراء .

وقبيل مشرق الشمس بقليل ، تداعى سقف الدور العلوى ، وكان قد تحول إلى جمرات ملتهبة ، وتهدم فى جلبة وضجة فوق سطح الدور الأرضى ، فتحطم هذا بدوره ، لأنه كان ضعيفا متآكلا من النيران . وكان يسع المشاهد أن يرى فيما وراء الجدران المشوبة بالسواد ، اللهب المستعر وقد تشكل شررا غاضبا متصاعدا .

وسرعان ما أخذ الفلاحون فى التجمع مرة أخرى ، واحداً إثر الآخر ، وجعلوا يحملقون فى النيران ، ويهزون رءوسهم ، ويفوهون بكلمة أو كلمتين ، ثم سرعان ما يلتفتون بأبصارهم ناحية البيت القديم . . ولقد شعروا — كما قال أحدهم — أن عملهم لن يبلغ غايته طالما ظل بيت الشريف الشيخ قائما . . ولكن أحداً لم يجرؤ على المساس بالبيت ، إكراما لخاطر الراحل ، رغم شدة لهفتهم على ذلك . . والواقع أن أغلبهم وفد من أجل السلب والنهب . . وكان الفقراء منهم خاصة يطمعون فى الذرة ، فأفرغوا الليلة الماضية ملء مخزن من الحبوب ، ولكن بقى هناك مخزنان آخران مليئان بالقمح . . وجلب بافل تونسو كيسا كبيراً ، واستطاع أن يخرج أول القوم ، وعلى ظهره الكيس ممتلئا ، فحمله إلى العجوز أيونا ، أم زوجه ، وكانت فى شغل بأمر فراخها ، وحفيدها العزيز كوستيكا .

وهتف بافل ، وهو يكر عائدا إلى بيت الشريف : « تعالى يا أماه ، ولا تتخلفى عن الركب ، تعالى وخذى بعض الذرة أيضا ، فالناس كالنمل هناك ، ولن يتبقى شىء بعد حين ! » .

ودمدمت العجوز، وهى تمضى لشأنها ، كأنما هى لم تره أو تسمع منه شيئا : « عليك اللعنة !! »

وبينا القوم يتدافعون حول المخازن ، أخذ نفر من الفلاحين أشد جسارة من هؤلاء يتشاحنون حول الماشية .. ودفع ماران ستان ثورين خارج الاسطبل ، وتأهب ليقودهما إلى داره . فإذا بليوتى أوربيسور يصرخ غاضبا : « يجدر بك أن تخجل من نفسك لأخذك الثورين ؛ فأنت فى غير حاجة إليهما ، طالما كنت تملك فعلا ثورين .. أما أنا فلم يتهيأ لى أبداً أن أكسب ما يكفى لشراء بضعة ثيران ، وليس لدى منها مايعيننى على زراعة الأرض! .اترك الثورين وشأنهما ياماران ، فأنا على استعداد لأن أقترف جريمة قتل فى سبيلهما يارجل !» .

وقال آخر متوعدا : « أهذه هى العدالة !! أولئك الذين يملكون ينالون نصيب الأسد ؛ أما نحن فنخرج من الغنيمة خاسرين ! ! » .

فقال ماران وهو يتميز من الغيظ : « أنا لا أدرى ماذا تقصدون ! ... لا مجال المساومة هنا ، فنحن لسنا فى سوق للبيع والشراء .. وكل من يضع يده على شيء فهو ملكه ! » .

وأمسك ليونى أوربيسور ستان من قميصه ، واشتبكا برهة ، وهما لا يكفان عن تبادل الشتائم .. وشعر ماران أن القوم جميعا ضده ، فأرخى جناح الذل ، وقال : «حسن ، سنتحدث فى هذا فيما بعد ... لا بأس يا ليونى ، لابد أن نلتقى مرة أخرى !» .

فهتف أوربيسور مستهزئا : « لماذا لم تفكر فى الجياد أيها الخطاف ؟ . أنت لا تملك منها شيئا ، وهى تليق بك .. مارأيك فى هذا ياعم إخيم ؟ » .

فأجاب إخيم ، وكان واقفا على باب الاسطبل القريب ، والمذراة فى يده : « لن يستولى أحد على جيادى ، طالما أنا على قيد الحياة ! » .

قال قائل : « مهلا ياعم إخيم ، سوف نشعل فيك النار أيضا ، ألا ترى إلى هذه الفيلا كيف تشتعل ؟ » .

فقال الحوذى العجوز بفخر ، كما لو كان الشريف : « هذا أفضل عندى من أن أكون هدفا لنكاتكم » .

ولم يشأ الفلاحون أن يضعوا أنفسهم موضع المناظرة مع إخيم ، لأنه كان كبير السن ، ولأنهم كانوا يعرفون فيه غرابة الطبع ، رغم أنهم جميعا كانوا يرون أن لهم الحق كل الحق فى كل ماتهوى نفوسهم ، أو فى كل ما يقع فى أيديهم .. ألم يجمع الشريف ثروته من كدهم ، ومن ثم وجب أن توزع الثروة فيما بينهم ؟ بل إن منهم من اتهم إخيم غاضبا : ليس من حقك أن تحاول الاستمساك بما هو حق لنا ياعم إخيم ، لأننا لن نطيق هذا . . . إننا لم نتحمل الشريف الكبير ، فكيف تتوقع منا أن نتحملك ؟ اصبر حتى يأتى بيتريتسا ، وعندئذ سترى . . . »

ولكن بيتر كان يغط فى النوم . . . لقد عاد إلى بيته فى وقت متأخر ، وكان يحس بتعب لم يشعر به من قبل . . وألقى بنفسه على الفراش ، وهو بملابسه ، وتوسد طاقيته الفرو تحت رأسه ، وراح فى سبات عميق . . ونهض كل من فى البيت ، ولكنه لم يحرك ساكنا .. وحاولت سماراندا أن توقظه ، إذ لم يكن من عادته أن يرقد فى الفراش بعد مشرق الشمس ، ولكن بيتر غمغم . وهو مغمض العينين : اتركينى يا أماه ، دعينى أسترح قليلا فأنا نعسان جدا .

قالت المرأة : نم يابنى ، نم أولى بك أن تنام طوال اليوم من أن تذهب مرة أخرى إلى حيث كنت .

— ٢ —

نظر تيتو هيرديليا فى ساعته فرأى أن القطار قد أخذ يتحرك التاسعة والنصف تماما فقال : لقد حضرنا فى الوقت المناسب . فقال جريجور وهو لا يكاد يتمالك مشاعره : « ليتنا فقط نتمكن من الوصول إلى هناك » .

وكان بالينو ، ورأسه خارج النافذة ، يلوح بمنديله الحريرى ، ويغمغم دون انقطاع فى صوت مختنق : « وداعا ياميلانى ، الوداع » .

وجلس ، عندما ترك القطار المحطة ، وعيناه نديتان بالدمع . . ولكنه ابتسم

وقال : مسكينة صغيرتى! إنها فى قلق شديد . . والواقع أنها على حق ، وإن كنت قد بذلت طاقتى لإقناعها بعدم وجود أى خطر . . وأنا ما كنت لأقبل هذه المهمة القاسية لولا إلحاح الرئيس . . وأقسم بشرفى أننى لم أكن لأقبل أبدا . . مسكينة ميلانى . اشد ما بكت ولشد ما انفطر قلبها .

وكان القطار يتكون من بضع عربات فقط وحتى هذه العربات كادت تكون فارغة . . ما كنت ترى إلا نفرا من الضباط والتجار الذين واتتهم الشجاعة . فتركوا بوخارست . هذا إلى جانب بعض الولاة الذين عينوا حديثا . . وكان سائق القطار قد تلقى تعليمات بأن يمضى فى طريقه حذرا أشد ما يكون الحذر . فقد ترامت الشائعات بأن الفلاحين ينوون إزالة القضبان . وإيقاف القطارات . تعطيلا لوصول قوات الجيش إلى الولايات الثائرة .

وكان تيتو هيرديليا هو وحده الذى احتفظ برباطة جأشه . .كان واثقا كل الثقة من أن الأخبار التى راجت عن اضطرابات الفلاحين أخبار مبالغ فيها إلى حد مشين . . وكان من رأيه أن شعب رومانيا لا يعرف التطرف إلا فى ناحيتين : الملهاة أو المأساة ، وكلاهما صاحب متقلب . . . وهكذا كان شأن هذه الثورة ، فقد خال كل واحد أنها تسلية ابتدعها رجال السياسية الحزبيون ، باعتبارها وسيلة بارعة لقلب الحكومة ، أما الآن فقد عم اليأس كل إنسان ، وأصبح يتنبأ بخراب البلد .

وكان جريجور أيوجا أشد جزعا من بالينو . . ففى الليلة الماضية أشار الناس عليه ، وهو فى بيت بريديلينو . بألا يخاطر بحياته دون جدوى ، وأن يصبر حتى تهدأ البلد ، فليس يدرى أحد ما كان يجرى فى . الريف وسواء ذهب أو بقى فى بوخارست فهو لن يكون بذى فائدة بالنسبة لوالده . . وكانت الحجة القاطعة التى قالها القوم فى صوت هامس هى : ماذا لو رفض الجنود إطلاق النار ، وأخذوا جانب الفلاحين؟ وكانت هذه الحجة بالذات هى التى دفعته إلى الرحيل فى إصرار ، ولكن لعله كان يغير رأيه ، وبخاصة لأن أولجا توسلت إليه . بعينين نديتين . ونظرة رقيقة . . ولما انفردت به بعد ذلك . همست إليه فجأة : ابق هنا لو كنت

تحبنى : ودهش جريجور دهشة بالغة وقبل يدها . ولم يتمالك نفسه فقال : لا بد من الذهاب . لا لشىء إلا لأنى أحبك غاية الحب : ولما خلا إلى نفسه بعد ذلك رأى أن هذا الجواب سخيفا كل السخف : وخجل لأنه فاه به ، رغم أن أولجا لم تجده سخيفا . لأنها لم تضحك منه سواء إذ ذاك أو بعد ذلك .

وحركت همسة أولجا عواطفه بشدة ، وأهاجت فى نفسه أسئلة لم تكن قد خطرت له بعد ، أو ربما كانت أسئلة حاول عامدا أن يئدها فى مهدها .. وشعر أنه مكشوف حتى أمام نفسه ، والحق أن صداقته بفيكتور كانت قديمة العهد ، أما الآن فقد بدا له أن نظرات أولجا قد جعلت هذه الصداقة أوثق عرى عن ذى قبل ، ولم يكن يحسب أن زيارته يوميا لآل بريدلينو قد كان لها باعث أيا كان ، ولم يتبين أبدا أنه وقع فى غرام أولجا : رغم أن فؤاده امتلأ هوى ، بل إنه لم يصرح أبدا بكلمة ، ولو هزلا .. إنما تكلمت عيناه لغة الهوى . على غير إرادة منه ...

وأنحى باللائمة على نفسه : لأنه لا يجد فى هذه الأوقات العصيبة ما يشغل باله غير هذا الحب الوليد .. وخطر له أنه ماضرب عرض الحائط إلا كى يوطد علاقته بأولجا .. والحق أن نادينا قد جرحت مشاعره جرحا جعل من المستحيل عليها مواصلة الحياة الزوجية معا ... ومع ذلك فهو لولا أولجا لما وجد قوة الإرادة ليطرحها ظهريا : ويتبرأ منها صراحة .. وبدأت تعذبه فكرة مؤداها أنه ترك أباه فى الريف وحده بسبب أنانيته المفرطة : كى يبقى إلى جوار أولجا وليراها مرة على الأقل كل يوم .. وكان من العبث أن يقول لنفسه إنه رضخ فقط لرغبات والده الذى أمره بالذهاب .. كان على يقين الآن أنه لو كان فى ظل ظروف خرى ، أعنى لو لم يكن مضنى بالهوى لأبى أن يرحل عن آمارا .

وظهرت أحاسيس بالينو واضحة فى سبيل الكلمات التى تدفقت منه بغير ما ضابط .. فهو منذ اللحظة التى تم تعيينه فيها واليا على مقاطعة تشتغل بالثورة شعر بالحاجة إلى أن يبدو فى نظر الناس ، فى كل مكان ، شهيدا أرسل به إلى المقصلة . ولقد قيل له فى بوخارست بصفة سرية جدا إن المرء لا يمكن أن يطمئن إلى الجيش ، وقد يستلزم الأمر فى النهاية الاستعانة بالنمساويين حتى يمكن الوصول إلى تهدئة تامة . وقيل إن الحكومة الجديدة لا تثق ثقة كبيرة بالجنود من الفلاحين ولكنها فى نفس الوقت لا تريد أن تلجأ إلى المعونة الأجنبية : قبل أن تبذل محاولة أخرى نهائية .

قال بالينو فى صوت اختنق بالعاطفة : «نحن نعيش يا أصدقائى الأعزاء فى أسوأ مأساة فى تاريخ شعب رومانيا . والرئيس نفسه كان متأثرا ضحى الأمس حين أصدر إلينا الأمر بتنفيذ مهمتنا الثقيلة . . . ولقد صرح لنا أن مهمتنا مهمة شاقة للغاية وخطرة أشد ما تكون الخطورة . . قال « إنى لأعتمد على لباقتكم وحصافتكم وهمتكم . . وستأخذون معكم نداء الحكومة الذى ينص على الإصلاحات ، وهى إصلاحات تجابه أشد المظالم إلحاحا . . والنداء سلاح ممتاز يدعو للسلام وهو نداء ينبغى تناوله بغاية البراعة... ولكن حيثما تفشل وسائل الاقتناع، وحيثما تلقون مقاومة مسلحة، فينبغى الاستعانة بالجيش بكل حزم وبمنتهى الشدة . وعليكم أن تردوا العنف لأنه لا مناص من استعادة الأمن أيا كان الثمن .. » هذا ما قاله الرئيس .. ولقد تأثرنا غاية التأثر وكانت لحظة تاريخية .. ثم ما لبث أن عانق كلا منا الآخر، والآن أمامنا هذا السؤال : «ماذا ترانا واجدون فى التو واللحظة ؟ أنا ديمقراطى النشأة وإنسانى النزعة وفى وسعكم أن تتصوروا مبلغ تأثرى لو اضطررت إلى إصدار الأمر بالقمع الدموى ولكن مصالح الأمة العليا ورطة رهيبة ! ! »

وأصغى تيتو إليه بما يليق من جد ، ولكنه رأى فيما بينه وبين نفسه أن بالواينو كان خدعة كبرى . . لقد تذكر هذا الرجل نفسه وهو ينادى قبل ذلك بزمن قليل ، فى مطعم ايناخ ، بفكرة توزيع الضياع على الفلاحين . . أما الآن فهو يحاول أن يبرر مقدما قتل هؤلاء الفلاحين أنفسهم إذا لم يقنعوا بالإصلاحات التى لم يأت فيها ذكر لتوزيع الأرض . . وكان على طرف لسانه أن يذكره بوعوده السابقة . ولكن جريجور تكلم عوضا عنه ، كأنما قد خطرت له الأفكار ذاتها : «لو أن الفلاحين ثاروا من أجل الأرض ، فمن العسير إقناعهم بإصلاحات سطحية ! ».

وتساءل بالواينو فى دهشة : «أترى أن من واجبنا توزيع الضياع ؟»

فأجاب جريجور ببساطة : « ليس هذا رأيى ، ولكنك أنت قلته مرة »

فقال الوالى مرتبكا : «الرأى الشخصى شىء ، وإمكانية تحقيقه شىء آخر . . على أية حال ، هذا الإجراء الثورى لا يمكن وضعه موضع التنفيذ فى ظل ضغط

الفلاحين وإرهابهم .. وفضلا عن ذلك ، فقد دلت الاضطرابات المؤسية الراهنة دلالة واضحة على أن فلاحينا ما زالوا فى حاجة إلى قدر كبير من التربية الاجتماعية.. فهذه الأفعال الوحشية ، لو صح فقط نصف التقارير التى وصلتنا ، لتبرر جميع مخاوفنا ياصديقى العزيز .. وكن على ثقة أننى لن أتردد فى معاقبة كل عمل من أعمال العنف بمنتهى القسوة ، رغم أننى كما تعلم ، أحب الفلاحين.. ولكن حبى لهم ليس معناه التسامح فى حماقاتهم ، وليس هو التسليم بما نهبوا وسلبوا.. نعم، الطاعة واجبة على الفلاحين ، ومن واجبهم أن يحترموا القانون ، وملكية الآخرين ، شأنهم شأن أى شخص آخر ، وإلا أين ترانا نكون ؟.

وابتسم جريجور أيوجا ساخرا وقال: « أنا فقط أشك فى جدوى الإصلاحات التى تعول أنت عليها كثيرا ، هذا كل ما فى الأمر. وربما يخطر فى بالك أنه قد يكون عندى من الأسباب الخاصة مايجعلنى أطالب بإجراءات قاسية ضد الفلاحين وبخاصة لو كانوا لم يبقوا علينا أيضا، كما تدل دلائل الحال، رغم أننا قد عشنا بين ظهرانيهم وقمنا على الدوام بواجبنا حيالهم » .

قال باولينو : «معنى هذا أنك تشاطرنى نفس الرأى ياجريجوريتسا ! وكان يدهشنى لو كنت أنت على رأى يخالف رأيى ، فكلانا يحب بلده ويحب الفلاحين بنفس المقدار .. واليوم لم تعد المسألة مسألة سياسية ، بل هى إنقاذ رومانيا ! »

وتدفق مرة أخرى فى الكلام ، وأخذ يدلى بتفاصيل مؤثرة عن فراقه عن ميلانى ، وعن هواجسها ، وعن شجاعته هو . . وكان يتكلم بنوع خاص عن نفسه طوال الوقت . . ولم يتوقف إلا وهو فى المحطة ليتفحص الناس باهتمام . . فهو حيثما يرى جماعة من الفلاحين ، يشير إليهم فى فزع ، ويتكلم هامسا ، كأنما يخشى أن يسمعوه صدفة : «أترون كيف يدبرون المؤامرات ؟!. أقول لكم، الخوف وحده هو الذى يجعل الفلاح يفهم ويعقل ! »

ثم واصل الكلام فتحدث عن الإصلاحات ، وعن رئيسه ، وعن ميلانى ، تغطية لمخاوفه ؛ وهو مرة منفعل ، ومرة يتيه عظمة ؛ ولكن كانت هناك دائماً رجفة فى صوته .

أما القاطرة فقد أخذت تتقدم فى حذر ، وهى تتجشأ سحائب كبيرة من الدخان ، وهى بين الفينة والفينة تصفر صفيرا مطوطا يثير الأعصاب ، كأنه بومة لاتكف عن النعيق .

— ٣ —

قالت نيكولينا وهى ترى الأب نيكوديم قد تناول صليبه ورداءه الكهنوتى « احترس ياأبى ، وتجنب المخاطر ، فأنت تعرف جيدا أن الناس قد جن جنونهم »

فغمغم القس الشيخ دون أن يلقى بالا إلى ابنته قائلا: « هيا ياشماس ، لابد أن نؤدى واجبنا ! . لقد كان سيدا علينا . وبنى لنا كنيستنا . وسوف ينزل الله بنا عقابه إذا لم نؤد واجبنا الدينى نحوه ! . . ثم أمامنا عصر اليوم جناز زوجة ميليفنت . . هيا ! »

وجر قدميه ، وهو يتوكأ على عصاه ، ويقف من آن إلى آن ليستريح على جانب الطريق . . وازدادت الجلبة عند بيت أيوجا ؛ وكانت الفيلا لا تزال تحترق دون لهب . . وتناولت بروفيرا يد القس وقبلتها ، ثم قادته إلى الغرفة التى بها الفقيد . .

وغمغم القس ؛ وهو يلبس رداءه ، بعد أن ألقى نظرة على جثمان الشريف ميرون قائلا : « رباه ! ! . . رباه ! ! لقد قضيت على الإنسان بمصير مرير ! . . إن أساليبك خافية علينا يا ربى ، تبارك اسمك ، والآن وأبد الآبدين ، آمين ! . .

ولم يحد وصول القس من صخب الفلاحين فى قليل أو كثير . . وتبعه بعضهم ببصره حتى دخل البيت ، ثم ما لبثوا أن واصلوا ما كانوا فيه من نقاش . . وكان بعضهم يصيح صياحا عاليا ، أو يبحث عن أشياء يستولى عليها ، أما الغالبية منهم فكانت تتحدث ، جماعات متفرقة ، عن موضوع واحد هو توزيع الضيعة ، والأمل يدهدهد صدر كل منهم فى أن ينال نصيبا أكبر من نصيب الآخرين . . وكان من رأيهم ؛ بعد أن ذهب الأشراف عنهم ؛ أن من الخير ألا يؤجلوا قياس الأرض ، لأنه لو ضمن كل منهم حصته فسيكون من المحال على الأشراف العودة ،

لأن الفلاحين سيرفضون التنازل عن الأرض ؛ أحياء كانوا أم أمواتا . . وكان لهم جميعا رأى فى كيفية توزيع الأرض توزيعا تتوافر فيه العدالة ؛ وبطبيعة الحال كان كل منهم يعتبر أن العدالة الحقة تتمثل فقط فى الوسيلة التى تهيء له أحسن القطع ، وأقربها إلى القرية ، وبشرط أن تكون أكبر قليلا من حصة الآخرين . .

وعندما قال أحدهم إن القرى الأخرى قد تطالب أيضا بنصيب من الضيعة هبوا جميعا فى وجهه ساخطين واستعدوا لضربه ضربا مبرحا ، أما أشدهم فقرا فقد أرادوا أن يحرموا من التقسيم أولئك الذين كانوا يملكون فعلا بعض الأرض ، واتهموا هؤلاء بأنهم سبق أن بذلوا كل مافى طاقتهم من أجل شراء بابا روجا وأنهم انضموا إلى الثورة متمنعين وأنهم يتوقعون أن يتساقط كل شيء فى جحورهم دون أن يرفعوا إصبعا من أصابعهم — هكذا كانوا يجادلون بعضهم بعضا فقد كانوا جميعا رجالا بسطاء ولم يوجد بينهم من يتمتع بنفوذ كاف ليفرض نفسه زعيما تجب عليهم طاعته .. وحاول تودر ستريمبو أن يرفع عقيرته ، ولكن القوم لم يلقوا إليه بالا فى هذه اللحظة ذات الشأن ... صحيح أنه هو وتريفون لا تعوزهما غلظة القلب حين تشجر معركة أو حين يكون المرء فى حاجة إلى الصخب وقلة الأدب ، أما الآن فالمرء فى حاجة إلى رجال ناضجين عقلاء يعرفون كيف يزنون الأمور ويديرونها ... ولو أن الأب نيكوديم كان أصغر سنا وأكثر نشاطا لاستدعوه إليهم يباشر القسمة بينهم ، بل إنه أفضل من المعلم دراجوس لو لم يلق به الأشراف فى السجن .

وحدث إيجنات سيرسل جماعة من الجماعات كبيرة العدد : هاهو ذا بيتريتسا ، وهو رجل كان يفخر حتى ليلة الأمس بأنه لن يهدأ له بال حتى تنال العدالة تامة .. وهو ناصح أمين وهو ذكى أريب ويستطيع أن يدلنا على الطريق القويم ! »

« هكذا هم دائما الخوف يملأ قلوبهم ! » .

فهب إيجنات : ماهذا ؟ أتقول إن بيتريتسا خائف ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ إن فى مقدور بيتريتسا أن يلعب على ثلاثة من أمثالك ، ومع ذلك تزعم أنه خائف ؟

لماذا يلزم بيته إذن ؟ لقد انتصف النهار .

ربما كان هناك ما يشغله فى بيته، مثل أى واحد فينا، ولكن بيتر يتساءل عندما يبدأ فى عمل فهو لن يتركه قط حتى يفرغ منه ووالده أيضا رحمة الله عليه كان رجلا فاضلا وذا مقدرة لم تشهد القرية له مثيلا .

وظهر بيتر ونيكولاى دراجوس فى تلك اللحظة وكان قد شجر خلاف بين بيتر وأمه فقد أرادت أن تمنعه من الخروج وأخذت تبكى وتولول بأن سوءا سيحيق به، كذلك اضطر نيكولاى أن يقف فى وجه والديه وزوج أخيه، وكانت هى أشدهم جزعا ، فقد خافت أن يقع مكروه لزوجها أيونيل نتيجة لأفعال نيكولاى .. ولقد توصل الشابان إلى تفاهم فيما بينهما دون أى كلام .. لقد ارتأى كل منهما أنه قد فات الأوان للنكوص والارتداد، وأنه قد أصبح لزاما عليهما أن يمضيا فى الطريق إلى نهايته المحتومة مهما حدث .. وتبين كلاهما ، بعد أن ثابا إلى رشدهما ، أن عليهما أن يدفعا الثمن غاليا أكثر من غيرهما جزاء الأفعال التى اقترفها القوم جميعا ، لو عادت الأمور سيرتها الأولى .. وهما ، لهذا السبب، مالا على مركز الشرطة .. وكان المكان مهجورا ، وأبوابه مفتوحة ، وكل شىء مبعثر رأسا على عقب .. وكانا يأملان أن يعثرا على بضعة مظاريف للبنادق التى استولوا عليها من رجال الشرطة ، وذلك حتى يتمكنا من الدفاع عن أنفسهما عند الضرورة ؛ ولكنهما لم يجدا شيئا هناك .. وقال أحدهم إن زوج الرقيب مختبئة فى مكان ما من القرية ، ولكن لم يعرف أحد أين كان هذا المكان .

وسرعان ما استغرقا فى حومة الاضطراب العام عندما اختلطا بالجمع .. ثم عاد النقاش فى موضوع توزيع الضياع من بدايته .. وبعد حديث طويل لا فائدة فيه قال بيتر : « أنا لا أرى فى هذا خيرا ، فهذا العمل ليس عملنا ، لأننا فقط سوف نتخاصم ونتشاجر ، ولن نصل إلى اتفاق أبدا .. إنما هذا عمل المساح .. ومن رأيى أن ننتظر حتى تستقر الأمور قليلا ، ويستتب السلام ، وعندئذ سترسل إلينا الحكومة المساحين ليقسموا الأرض على كل واحد حسب حصته ، وليعدوا ويحصوا كل ما هو موجود .. أترونى قد أصبت ؟ .

قال آخرون : « نعم الرأى !! سترسل لنا الحكومة المساحين؛ وإلا فما معنى أن تدفع الحكومة لهم أجورهم؟ » .

قال إيجنات مغتبطا : « نعم، سيوزع المساح الأرض بالعدل وحسب الأصول طالما ليس هناك أشراف ! » .

وصاح ليونتى أوربيسور متغطرسا : « لقد فرغنا من الأشراف !.. نحن لانريد أن نرى أحداً من الأشراف ! » .

فتساءل نيكولاى دراجوس فى صوت ثقيل : « ربما نكون قد فرغنا منهم نحن ياليونتى ، ولكن هل فرغوا هم منا ؟ » .

وتعالت الاعتراضات من كل الجوانب ، وقالوا إنهم لا يريدون ملاك الأرض بعد ، وإنهم يفضلون الموت ، حتى آخر رجل فيهم ، عن أن يعاملوا معاملة سيئة وأن يضطهدوا مرة أخرى .

قال بيتر : « أنتم تصلحون للتفاخر فيما أرى ، ويجدر بكم أن تقوموا بعمل ما » .

— ٤ —

كان هناك صف كامل من ملاك الأرض اللاجئين ينتظرون فى محطة بيتستى .. وكان على رأسهم الوالى السابق بوريسكو ، فالرجل إزاء الضرورات القومية قد نحى جانبا الاعتبارات القائمة على البغضاء السياسية ، وقرر أن يسلم مكتبه للوالى الجديد ، وأن يعرفه خاصة بالموقف على حقيقته .. ولكن الواقع أن الكبرياء ، دون غيرها من البواعث الأخرى ، هى التى أجبرت بوريسكو على الكلام مع سلفه غصبا ؛ فقد كان شديد السخط على الفلاحين ناكرى الجميل ، فهم ، بعد أن كلف نفسه مشقة التنقل من قرية إلى قرية ، ينصحهم ويعلمهم كوالد لهم ، يراهم ينهضون إلى الإخلال بالأمن بمجرد أن يدير لهم ظهره . لقد شق عليه هذا ، لم يستطع أن يغفره لهم .. بل إن الأوغاد اللئام ، فضلا عن ذلك ، لم يستنكفوا من إشعال النيران فى بيته الكائن فى روشيو ، ولم يتورعوا عن نهبه .

وقام جريجور أيوجا بواجب التعارف ؛ فقد كان بالولينو غريبا عن الديار لا يعرف أحداً .. ثم انسحب هو وتيتو هيرديليا حتى لا يقفا عائقا بين الرجلين

وعملهما الرسمى ؛ وهم على أية حال قد اتفقوا على أن يلتقوا للعشاء فى المساء.. وأحاط جمع الفلاحين بالوالى الجديد، وجاءوا له بشتى المظالم .. وأصغى بالولينو إلى بعضهم ، وعطف على بعضهم الآخر ، ولما رأى أنه بهذه الطريقة لن يتحرك خطوة عن المحطة ، خاطبهم جميعا فى صوت يختلج عاطفة تقتضيها ظروف الحال قائلا: « أيها السادة ؛ إنى لأدرك حزنكم، وأقدر الثورة الطبيعية التى تعتلج فى أعماق كل منكم ، بسبب الأعمال الإجرامية التى وقعتم ضحية لها !. ولقد حضرت لأتخذ الإجراءات اللازمة ، ولأعيد الأمن إلى نصابه . . اسمحوا لى إذن بمهلة عدة ساعات حتى أبحث الموقف ، وأتقصى البيانات الرسمية عن الأحداث التى وقعت فى هذه الولاية ، ثم أتخذ قرارا بشأنها . . وأرجو أن تثقوا فى أننا لن ندخر وسعا فى سبيل القضاء على متاعبكم!! » .

وتناول ساعد بوريسكو ، وشق له طريقا بين الجمع الغاضب اليائس . . . ولكن كثيراً من الأصوات الباكية واصلت نفس الشكوى :

« لقد جعلوا منا شحاذين هؤلاء اللصوص ! »

وكان أشدهم حقدا وضجيجا العقيد المتقاعد ، ستيفانسكو ، الذى صحب الوالى إلى العربة ، وهو ينوح على طوال الطريق .

« لقد تركونى شريدا ياسيدى !.. ضاعت على أربعون سنة من التعب واستحالت هباء ! .. ولم أجد من يذود عنى .. وسخروا هم منا ما شاءت لهم السخرية .. اللصوص !.. لم يتركوا لى شيئا غير حياتى ، ياسيدى ! » .

وصافح جريجور أيوجا معارفه العديدين على عجل ؛ وسمع، فى أثناء مروره ، تتفامن الشكاوى . . كان يتلهف على معرفة شىء عن والده وعن آمارا ولكنه لم يجرؤ على سؤال أحد صراحة، لأنه أدرك أن هؤلاء الناس مشغولون بمتاعبهم الخاصة، ومن ثم فهم لايحسون بآلام الآخرين هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو يخشى على وجه الخصوص أن تتحقق أشد الهواجس سوءا وهى هواجس أخذت تزداد وطأة كلما اقتربت اللحظة التى لا بد له فيها من اكتشاف الحقيقة، وسمع بغتة صوتا مألوفا وراءه: «سيدى جريجوريتسا. سيدى جريجوريتسا !!»

« بيريونا أنت هنا أيضا » .. قالها الشاب أيوجا وقد سعد بملاقاته .. ماذا حدث فى بلدتنا ؟ قل لى ، قل لى بسرعة فأنت لابد أن تعرف شيئا » .

ولم يشأ كوزما بيريونا أن يعترف من فوره بأنه قد هرب قبل أن يحدث شىء ، وأجاب فى صوت أكثر خنخنة مما تعود : «رباه!.. أواه ياسيدى جريجوريتسا .. حطام وخراب .. أنا هربت كما ترانى .. لقد سخرت منى عندما كنت أقول لك إن فلاحينا كلاب ، ولم تصدقنى . . حقا ، لم يقع أسوأ مما وقع فى آمارا ! . . هناك عش الثورة ، ومن هناك بدأ كل شىء ! . . مصيبة ! . . ولكنى مع ذلك أشكر الله على نجاتى ، على الأقل ، أنا وأسرتى ؛ فأنا لو استمعت إلى السيد ميرون فالله يعلم ما كان يحيق بى من متاعب . . ولكنى فطن ، كما تعلم ، فلم أنتظر حتى تنشب الاضطرابات . . وحملت أسرتى فى عربة ، وأطلقت الخيـــل بأسرع ما تستطيع ! . . »

وألح جريجور : «تقصد أن والدى قد تخلف ، أليس كذلك ؟ »

قال الملتزم مترددا : « الواقع ياسيدى جريجوريتسا ، أنه قد بقى هناك . . وأنت تعرف أى ضرب من الرجال هو . . »

وأصر أيوجا نافد الصبر : « نعم ، ولكن ماذا حدث ؟ »

واستطرد كوزما بيريونا ،وهو أشد جسارة قائلا« إن الناس يرددون هنا أشياء كثيرة ياسيدى جريجوريتسا . . ولكن ليس فى مقدور أحد أن يعرف الحقيقة؛ فمنذ ليلة الأربعاء وخطوط التليفون مقطوعة ، وليس من سبيل إلى الاتصال بالقرية . . والأخبار التى يسمعها المرء هنا تنتشر سماعاً ، ولهذا لايستطيع المرء أبداً أن يتعرف على الحقيقة . . وعلى أية حال فالمرء لا يمكنه أن يتوقع أى أخبار طيبة ، ولا بد أن رجالنا قد سببوا خرابا فظيعا ؛ فهم قادرون على الشطط وتجاوز الحدود .. وأنا بالأمس التقيت بقاضى كوستستى .. ولقد استعذت من الشيطان لما حدثنى به . . ولقد جاء بالقطار هو والمحامى الذى وفد من بوخارست مع السيدة نادينا ليبيع الضيعة الكائنة فى بابا روجا . . وأنت ربما تعرفه . . وما عاناه هذا الرجل المسكين جعل شعر رأسى يقف .. قال إنه نجا من الموت بأعجوبة جريا فى

الحقول من جليجانو حتى كوستنتي حيث وصل فى حالة مروعة . . وأنا ما كنت أصدق أن الحال قد بلغت مابلغت من سوء لو لم ألتق اليوم ببلاتامونو ، فهو . . . »

وأخذ بيريونا يقص كل ماوقع لبلاتامونو ، مع كثير من الحواشي والتنميق ، وذلك تحاشيا لإخباره بما يقال فى المدينة عن ميرون أيوجا وعن نادينا . وتركوا المحطة ، واخترقوا الميدان إلى المدينة .. ولحق بهم العقيد ستيفانسكو ، فقد كان يبحث عن جريجور بعد أن رآه فى صحبة الوالى الجديد . . وطلب إليه على الفور أن يدبر له مقابلة مع الوالى ، فقد كان يريد أن يأذن له بفرقة من الجنود وبمدفع لو كان ذلك فى الإمكان ، حتى يستعيد ضيعته ، ويؤدب الأوغاد الذين سلبوه كل شيء ، وطردوه شر طردة .. وبعد أن وصف تفصيلا متاعبه التى تفوق كل حد ، أخبر جريجور دون مواراة أو حذر بما تردده الشائعات فى تلك الأنحاء من أن الفلاحين قتلوا ميرون أيوجا ، ولكنه أضاف أنه لا يعتقد هذا ، لأن الأوغاد لم يقدموا على إراقة الدماء بعد ، رغم مااقترفوا من جرائم شريرة .. ومن الشائعات التى راجت كذلك أن نادينا قد قتلت ، بعد أن اغتصبها كرها نفر من الأسافل .. على أنه ينبغى النظر إلى هذه الأخبار كلها بتحفظ شديد .. فكل خبر ، بعد أن يمر من فم إلى فم ، يغدو مشوها مبالغا فيه .

واستطرد العقيد قائلا: « لا داعى للمبالغة ، فالحقيقة الواقعة رهيبة فظيعة . . كأنما كان ينقصنا القتل حتى نأتى على خراب الناس !!. أما بالنسبة لى ، فأنا لو لم أفكر فى بناتى المسكينات ، اللائى لاعائل لهن فى الدنيا سواى ، لكنت جربت قوتى مع هؤلاء الوحوش .. »

وواصل الكلام فى مصائبه مرة أخرى ، وكوزما بيريونا يقاطعه أكثر من مرة بقصد أن يقص متاعبه هو الآخر .. ولم يعد جريجور أيوجا يستمع إليهما . لقد استطاع أن يخمن مافيه الكفاية ، حتى من تمنع بيريونا .. أما كلمات العقيد ، بما فيها من قسوة عسكرية ، فقد كان وقعها أليما .. واستطاع أخيرا أن يتخلص منهما معا فى الحديقة العامة . وعندئذ فقط تجاسر تيتو هيرديليا ، فقال مواسيا ، ولكن عن غير اقتناع : « ربما لم يكن كل شيء صحيحا . . »

فقال جريجور فى أسى: «بل هو صحيح ياصديقى العزيز . . لقد شعرت بالمصيبة آتية ، قبل أيام قليلة وأنا فى آمارا . . ولشد ماأنا نادم على أننى لم أبق بالبلد، ولو ضد رغبة والدى . . فأنا لو كنت هناك فربما لم تكن الأمور قد وصلت إلى ما وصلت !!»

أما بالولينو فقد وصل إلى مقر الوالى فوجد جماعة أخرى من اللاجئين ينتظرون... وقدم بوريسكو لفيفا من الموظفين إلى الوالى الجديد ، وأراه الأماكن الثائرة على خريطة الولاية المنصوبة على مكتبه . . وناوله ملف التقارير عن الاضطرابات التى حدثت ، ولم ينس أن يسترعى انتباهه إلى أن بيته أيضا كان موضعا للسلب والنهب .. وشكره بالولينو ، وتبادل وإياه عبارات ودية خليقة بمحام ، ثم تخلص منه بعد أن رأى أنه يضيع وقته عبثا . ولم يشأ بالولينو أن يضيع دقيقة واحدة ، فقد كان متلهفا على أن يبرهن لرئيسه أنه أهل الثقة التى وضعها فيه .

واستدعى من فوره المدعى العمومى ، ومفتش الشرطة ، وقائد الجيش فى منطقة بيتستى ، وكذلك رئيس محكمة الولاية ، وكان استدعاؤه لهذا مراعاة لرجال القضاء لا أكثر . وأخذ يدرس ملف التقارير ، وخريطة الولاية فى انتظار وصولهم .

قال يخاطب ممثلى الحكومة الأربعة عندما اجتمعوا فى مكتبه فى لهجة جد وحزم «أود ، أيها السادة ، أن يستتب الأمن والنظام فى أرجاء هذه الولاية فى غضون أيام ثلاثة ! »

وألقى خطبة وطنية قصيرة تفيض حماسا ، وكان لها وقع قوى . . أما المدعى العمومى ، توما جريسيسكو ، وكان رجلا نحيلا وادعا عديم اللحية ، فقد تطلع بإعجاب إلى وجه الوالى الجديد ، وكان ممتلئا مستديرا مهيبا موحيا بالثقة ، وأومأ مفتش الشرطة ، كوربولينو ، محبذا لكل كلمة ينطق بها رئيسه الجديد..أما رئيس المحكمة ، مانولى أبو جلينو ، وكان عجوزا شحيحا زرى الهيئة ، فقد شعر بأنه غريب على هذه المناقشات ؛ إلا أنه كان يملك ضيعة صغيرة فى الولاية ، وكان يخشى أن ينهبها الفلاحون ، فأراد أن يعرف التدابير الوقائية التى تزمع الحكومة الجديدة أن تتخذها .. أما القائد داردالات ، وكان على معرفة بأساليب بوريسكو فقد حاول أن يقاطعه مرتين ، ولكنه قوبل بالزجر فى رفق وحزم .

قال بالولينو بابتسامة ساخرة : «لقد فرغت الآن مما أردت أن أقوله، والآن جاء دورك للحديث أيها الجنرال !» .

ولم يكن بالقائد رغبة فى أن يقول شيئا ، غير أنه هو أيضا عانى خسائر معينة. قال ، وهو يسعل سعالا عاليا ، إن من رأيه استخدام منتهى الشدة. وإلا انتشرت نيران الثورة إلى المناطق التى لم يثر الفلاحون فيها بعد .

وأجاب الوالى بوقار : « هذا هو السبب الذى جعلهم يعهدون إلى بهذه المهمة الثقيلة ! » .

وسمع بالولينو من كوربولينو أن الشرطة فى القرى الثائرة قد ضربوا ضربا مبرحا ، وطردوا من أماكنهم ، لأنهم كانوا قلة من حيث العدد ، ولأن أولى الأمر حرموا عليهم استخدام أسلحتهم ، فسأل القائد داردالات هل يستطيع أن يعول على القوات الذين تحت إمرته فى حالة الطوارئ ؟ .

فأجاب القائد وقد جرحت كبرياؤه : «إن قواتى ياسيدى تقوم بتنفيذ ماتؤمر به دائما ! » .

قال بالولينو ، وهو فى حيرة من أمره : «طبعا ، طبعا .. أنت لم تفهم قصدى فأنا لا أسيء الظن بقوات الجيش .. إنما كنت أقصد هل من الممكن الاعتماد حقيقة على الجنود ، وبخاصة رجال الريف ؟ .. وإنك لتعلم أنه قد حدث خلل فى بعض الأماكن ، ولست أريد أن نؤخذ على غرة هنا ! » .

وأعاد القائد قوله : « لا ، لا ياسيدى .. أنا كفيل برجالى » .

فقال الوالى فى هم : « على أية حال ، أنا أود أن تتأكد من عدم وجود جنود من المناطق الثائرة فى الفرق التى يعهد إليها بأعمال القمع ، تجنبا لأى تردد محتمل من جانبهم !» .

وتطرق البحث إلى خطط الحملة التى تشن لتهدئة الولاية .. وقرر بالولينو أن تستعد فرقة قوامها ألف رجل ، مع ستة مدافع ، فى الغد ، يوم الأحد ، الساعة

الثامنة صباحا ، قرب محطة كوستستى . . وقرر أن يكون هو أيضا هناك ، ومعه ممثلو القانون .

واتهى بالولينو فقال فى لهجة عسكرية : « يجب أن يقوم الجيش بسحق أى مقاومة على الفور ، طبعا بعد التنبيهات القانونية ! » .

وتساءل القائد داردالات، وكان تواقاً إلى أن يبرهن للجميع على أن له أفكارا وأنه حذر حذر أى قائد حريص . « ماذا نفعل ياسيدى إذا ثارت القرى ثانية بعد أن ترحل عنها قوات الجيش ؟ » .

قال الوالى ، وهو يرفع رأسه فى عظمة ويبرز «كرشه» فى أبهة . «عليك أن تبيد هذه القرى من فوق سطح الأرض أيها القائد!».

قال داردالات موافقا : « أصبت ياسيدى ! » .

واستقبل بالولينو، حتى حل المساء، ملاك الأرض من اللاجئين ، وكانوا يشكون من الشكوى ؛ ويطالبون بتعويض عاجل عن الأضرار التى نزلت بهم ؛ أو بمعونة مالية كبيرة على الأقل ، وذلك حتى لايتضوروا جوعا فى شوارع المدينة . وطلب الكثيرون منهم أن تصاحبهم قوات خاصة إلى ضياعهم ، لتدفع عنهم ثورة الفلاحين عليهم ؛ كما أصر آخرون على أن يؤتى بالمدافع لإبادة أولئك الذين نهبوا ممتلكاتهم . وبذل الوالى وعودا كثيرة رقيقة لكل من سأله ؛ ولكنه استأذن منصرفا ، قائلا إنه لايستطيع أن يصرف انتباهه كله إلى شكواهم ، وإنما ينبغى أن ينصب اهتمامه أولا إلى استعادة النظام . . وأكد لهم أن الحكومة ستعوضهم عن خسائرهم ، ثم دعاهم إلى تسجيل مطالبهم كل فيما يخصه ، موضحين بالتفصيل ما حاق بهم من أضرار .

ولم يلتق الوالى بجريجور أيوجا ونيتو إلا حوالى الساعة التاسعة فى المطعم . . وعانق الوالى أيوجا الشاب فى رقة . فقد علم من بوريسكو بما حل بميرون وقال:

« أنا لا أستطيع أن أعبر لك عن مبلغ حزنى ياعزيزى جريجور يقينا لو كان

الخبر صحيحا . . ولكنى أرجو مخلصا أن يلطف بنا الله ! » .

وأكل وشرب بنهم ، متجاهلا أنه شحيم لجيم ، وأخذ يثرثر دون انقطاع ، وهو لاينفك عن إزجاء المديح لنفسه خاصة من أجل التدابير البارعة التى اتخذها. وسنحت له فرصة بأن يوضح لهما أن من دواعى سروره أن يأذن لهما بصحبته حتى كوستستى ، أما أبعد من ذلك فأمر محال للأسف الشديد ، لأنه من كوستستى فصاعدا سيكون فى مهمة رسمية شاقة ، محظور على أى شخص ليست له صفة رسمية أن يصطحبه .

قال جريجور فى حزم : « لابد أن أتبعك رغم ذلك ، على مسافة معينة ، ولو بدون إذن منك . . هذا واجب يا ألكسندرو ! » .

فقال الوالى بحرارة : « طبعا ، لاشك فى هذا . . لاتظن لحظة أننى لا أدرك مشاعرك يابنى العزيز . . لقد أردت فقط أن أقول إننى بصفتى الرسمية . . . »

فقال جريجور معاتبا : « إن من واجب السلطات على الأقل ، وقد عجزت عن منع الكارثة ، ألا تعطلنى عما أريد ! » .

« طبعا ! ! طبعا ! ! » قالها بالوليانو وهو يصالحه، ثم حاول أن يغير الموضوع ، فأضاف بطلاقة : « وأنت ترى ، فضلا عن ذلك، أنى أعطيت أوامر مشددة بأن . . »

— ٥ —

وانتشر الخبر فى آمارا صباح الأحد بأن الجيش قادم ... كان بعض أصحاب عربات النقل من القرى الأخرى المنتشرة أسفل الوادى عائدين إلى دورهم من بيتستى ، فالتقوا بعدد كبير من الجنود والمدافع ؛ والظاهر أن ضابطا يمتطى صهوة جواد قد انهال عليهم سبا ، قائلا : « سأعلمكم كيف تثورون ! » . . .

وحكى آخرون جاءوا من القرى الواقعة أعلى الوادى أن هناك إلى جوار كوستستى جنوداً كثيرين بعدد أوراق الشجر ، أو أعواد الحشيش فى الحقول ؛ وأنهم على وشك أن يسرعوا فى إرجاع الأشراف ؛ إن لم يكونوا قد شرعوا فى ذلك فعلا .

وأخذت آمارا تغلى .. وأثار الخبر أول الأمر بعض الفضول وهو يسرى فى القرية .. وأخذ الفلاحون يكررونه، الواحد تلو الآخر ، فى عجب وحيرة ، ويهزون رءوسهم ، ويسائلون بعضهم بعضا بلغة العيون . . فلما اقتنعوا بأن الخبر صحيح لا جدال ، تحول العجب إلى دهشة بالغة . قالوا : « ألم يعلموا بأمر الملك ؟ أم أنهم لا يريدون طاعته ؟ . أم تراهم يمالئون الأشراف ؟ . . »

وشيئا فشيئا تملك أهل القرية غيظ وحنق شديدان .. وتجمع جمهور من الرجال والنساء فى الفراغ أمام الخان . . كانوا جميعا يتحدثون فى خشونة ؛ وكان الهم العميق مرسوما على كل وجه . . وتدافعت الأسئلة من كل صوب : « لماذا يقدم الجيش ؟ .. أليقتلنا ؟ . . ماذا فعلنا بهم ؟ . أنحن كلاب أم رجال ؟ . . لماذا لا يتركوننا نعيش فى سلام ؟ ألم يكف الأشراف ما أنزلوا بنا من ظلم ؟ . . . »

وجاءت الإجابات تترى من هنا ومن هناك ؛ وكانت هيابة أول الأمر ، وما لبثت أن اتسمت بالجرأة والصخب .. « فليأت الجيش ! .. نحن لن نستسلم ! . خير لنا أن نموت عن آخرنا ، وأن نتخلص من جميع متاعبنا ! . . نحن لا نخاف من الجيش ! . سنهزم الجيش بفئوسنا لو وقف فى وجهنا ! . لا ظلم ولا اضطهاد بعد الآن ! . هيا إلى القتال : »

وكانت النساء يهتفن بصوت أعلى من صوت الرجال . . وكانت أتغلينا ، ابنة نيستور موسينيكو ، تنشج فى بؤس ؛ وطفلها بين ذراعيها ، وتصرخ فى جنون ، وعيناها جاحظتان : لقد قتلوا زوجى فى فرق الجيش ، ولكن هذا لم يكفهم ، أماتهم الله ميتة الكلاب ! ! . . وليفتك بهم المرض والوباء ! ولتحرقهم نيران الجحيم كما حرقوا قلبى ! .

وخرج بوزوك ، ووقف أمام الخان راضيا ، وأخذ يستمع وهلة إلى الضجة. ثم انفجر فيهم زاجرا : « هيه يافتيان ، لقد رفضتم أن تستمعوا إلى من أرادوا أن ينصحوكم بالتزام الهدوء ، والآن ... »

وهجم الفلاحون عليه فى حقد، كأنما لسعهم سوط ، وقد سرهم أن جدوا متنفسا لغضبهم . . واستطاع بوزوك فى اللحظة المناسبة أن يلوذ بالخان ، وأن يهرب منه

إلى داره . وجاء بعض الفلاحين فحطموا كل ماوقع فى أيديهم ؛ أما البعض الآخر فقد عكفوا على الشراب .

واستمر الصخب دقائق قليلة لا أكثر .. ثم وصل بيتر خارج الخان مع جماعة من الشبان .

« لقد قدم بيتريسكا ! .. جاء بيتريسكا ! . هاهو بيتريسكا .. انتظروا لحظة . فقد قدم بيتريسكا ! » .

وتساءل بيتر وهو يرى القوم يتدافعون داخل الخان : « ما بالكم ؟ .. ماذا فعل العم كريستى حتى تقدموا على نهب دكانه ، كأنه واحد من الأشراف ؟ » .

ورد بعض الفلاحين بأن انهالوا سبابا على صاحب الخان ، بينما اندفع آخرون يخبرونه بمقدم الجيش ، بعضهم من الخوف ، والبعض فى غضب ، والكل يرفع إليه نظرات متسائلة ، كأنما كان مصيرهم يتوقف على جواب منه .. وكان إيجنات سيرسل أشدهم غما : « ماذا ترانا فاعلون يابيتريسكا ؟ قل لنا بربك ، حتى نعرف جميعا ما ينبغى أن نفعل ! » .

وتفحص بيتر الجمع الذى أحاط به بعينين نافذتين، وقد توترت عضلات وجهه المعروق تحفه بشرته اللامعة المشدودة التى لفحتها الشمس . . ثم ما لبث أن أطلق ضحكة عالية ساخرة : « لو كنتم خائفين من الجيش فلم لم تبقوا فى بيوتكم ؟ ما كان ينبغى لكم أبدآ أن تثوروا فى وجه الأشراف، لو ظننتم أنهم لن يحركوا ساكنا ، ويتركوننا نأخذ الأرض ، بل ونوقع بهم بعض الأذى ! . . الأرض لا تؤخذ دون مقابل أبدآ ! ! . . لابد من دفع الثمن ، إما نقدآ ، وإما عن طريق شىء آخر ؛ ولكن دفع الثمن أمر محتوم ! ! » .

وغمغم إيجنات فى صوت باك : « نحن لانخاف الجيش ، ولا داعى للسخرية منا ! . . ولكن يلزمنا أن نعرف ما ينبغى أن نفعل لو كانوا قادمين ! » .

واستطرد بيتر : « لاموجب للخوف على الإطلاق . . . الجيش قادم فقط لإلقاء الرعب فى قلوبنا ! »

وهتف تودر ستريمبو غاضبا : « الأمر كما تقول الجنود غير مسموح لهم بأن يرفعوا أسلحتهم ضدنا ؛ لقد كنا جنودا نحن أيضا ، ونعرف جلية الأمور ! »

وأضاف نيكولاى دراجوس وقد كان رقيبا فى الجيش ، أن الضباط حتى لو أعطوا الأوامر بإطلاق النار على الفلاحين ، مباشرة ، لا فى الهواء ، فالأرجح ألا يطيع الجنود الأوامر الصادرة لهم ، بل ينضموا إلى صفوف أبائهم وإخوتهم .

فقال سيرافيم موجوس مرتابا : « ليست الأمور تجرى كما تقول ! .. ولكن لا ينبغى أن نعلق آمالنا فى ذلك ! فبعد ساعات قليلة، إن لم يكن قبل ذلك ، سنجد الجنود والشرطة فى القرية .. ويا لهول ماسوف ينزلون بنا من ضرب وعذاب ! » .

واعترف بيتر بأن سيرافيم على حق . . . ربما لن يطلق الجنود النار ، ولكنهم سوف يأتون بالشرطة وبملاك الأرض .

وهتف بيتر : « أما هذا فلا .. نحن لن نطيق الجيش بين ظهرانينا .. ليس للجيش شأن بقريتنا ! .. نحن لسنا بحاجة إلى الجيش هنا ! .. ليبقوا فى المدينة حماية للأشراف ، أما نحن ففى مقدورنا حماية أنفسنا ! »

وكان ، وهو يصيح ، يزداد حدة وغضبا ، كما لو كان يناضل ضد أعداء غير مرئيين . وتقاطر الفلاحون حوله ، وهم ينفخون ويلهثون لما بذلوا من جهد فى الخان ؛ وكانوا يصرخون من آن إلى آن ليدلوا على قوتهم وشجاعتهم . أما أولئك الذين عكفوا على الشراب ، فقد ظلوا داخل الخان ، وانطلقوا يتغنون بأغنية حماسية ، وهم يلعنون بوزوك ويلعنون الأشراف .

وأصدر بيتر أمراً موجزا ، كأنه ؛ الجيش ، قال : ليخرج كل واحد ، صغيرا وكبيرا ، إلى مشارف القرية ! .

وكان من الضرورى أن يكرر بيتر عدة مرات أن على كل إنسان ألا يخرج صفر اليدين ؛ وإنما يجب أن يتسلح الجميع بأى شىء يتوافر لديهم ، أو على الأقل بفأس من الحديد .

وغمغم بيتر ، وهو يرشم الصليب على صدره : « لتكن مشيئة الله ! » .

— ٦ —

قال بالولينو وقد دخل القطار محطة كوستسق : « الآن لابد لنا أن نفترق، يا عزيزى جريجوريتسا .. لو أخذت بنصيحتى ، ابق هنا وانتظر حتى أرسل فى طلبك .. أنا أرجو أن أعمل على تهدئة القرية كلها الليلة ، بما فيها قريتك آمارا . ثم بعدئذ تستطيع أن تذهب دون التعرض لأى خطر .. وداعا الآن يابنى العزيز إلى اللقاء ياسيد هيرنيليا .. »

ومد يده مصافحا ، وهو فى غاية التأثر .. وشحب وجهه الغليظ ، وتغير صوته من أثر الانفعال .. ونزل إلى الرصيف فى وقار ، وهو خائر النفس أو يكاد .. وتقدم الرائد تناسيسكو ، وكان يتولى قوات الجيش ، فعرفه بنفسه . وكان رجلا كث الحاجبين . منتفش الشارب ، له عينان حادتان وصوت أجش . قال إنه يضع نفسه تحت إمرة الوالى ، طبقا للأوامر التى تلقاها سواء من القائد داردالات ، الضابط الآمر ، أو من رئيسه المباشر .

وتساءل بالولينو : « كم لديك من القوات أيها الرائد ؟ » .

فأجاب الضابط : « كتيبة واحدة فى كامل عدتها ، وبطارية قوامها ستة مدافع »

وشكره الوالى فى جفاء ، ثم تطلع حواليه .. كان الرصيف هنا غاصا كذلك بجماعة متلاحمة من اللاجئين ، هذا باستثناء فئة قليلة من الضباط .. ورأى من الفطنة أن يتجه إليهم . حرصا على حب الناس له ، ومرضاة لحزبه السياسى ، قال: « أيها السادة ، لقد جئنا لنعيد الأمن إلى نصابه ، وسوف نحقق هذا دون تأخير! ولهذا نرجو منكم أن تمنحونا ثقتكم كاملة ، وأن تعاونونا بالصبر ! »

وتقدم العقيد المتقاعد ستفانسكو إلى الأمام ، وكان قد ركب نفس القطار واستطاع أن يهمس فى أذن الرائد ، وأن يطلب إليه ألا ينساه ، فهو قد وضع كل ثقته فيه . . لقد شاءت إرادة الله ، وحسن طالعه ، أن يكون تاسيسكو هو الضابط الذى يتولى الكتيبة المختلطة ؛ وهو هو الصديق القديم الذى وجدت بناته.

عند أسرته ملاذا خوفا من الفلاحين ، وهو أيضاقد لجـــأ إليه بعد أن طرد من الضيعة .

وأسرع الوالى بعدئذ إلى ديوان المدينة ، يتبعه المسئولون والضابط الآمر .. وهناك أدلى إليه مدير المقاطعة بما توافر لديه من معلومات عن الموقف فى القرى الثائرة .. ولم يكن التقرير باعثا على الطمأنينة بأية حال ، وبخاصة لأنه أوحى بمقاومة رهيبة من جانب الفلاحين .. ولقد جاءت هذه الأخبار ، والحق يقال، على لسان أناس كانوا من الهاربين ، أو المطرودين من ديارهم ؛ ولهذا نشرت الفزع والرعب عن قوة الثائرين وقسوتهم ووحشيتهم .. وحافظ بالينو ، رغم وجيف قلبه . على مظهره الخارجى من الهدوء ورباطة الجأش .

« نحن على أية حال سوف نتقدم دون عجلة لا مبرر لها ، ودون أن نضمر حقدا ولا كراهية .. إننا نسالم المسالمين ، أما الآخرون فسنستخدم القوة ضدهم. نحن لا نريد إراقة الدماء ، ولكننا لن نتردد فى استخدام السلاح عندالاقتضاء ، تلك هى المبادئ العامة التى نسير عليها ، أيها السادة ! » .

وأطلعهم ، وخريطة الولاية منصوبة على الطاولة ، على الخطة التى كانت موضع البحث الليلة الماضية بمقر الولاية فى بيتشى .. واستقر الرأى على أن يسافر هو والمدعى العام فى عربة على رأس الكتيبة .. ولكن الضابط استرعى انتباهه إلى أن هـذه الخطة محفوفة بالمخاطر ، والتمس منه أن يسمح له بتطبيق التعليمات العسكرية التى تنص على تقدم القوات . وأدرك بالولينو أنه يخاطر بحياته ، فتقبل اقتراح الرائدالذى يقضى بأن تذهب دورية قوية على رأسها ضابط ، فتستكشف القرى أولا ، وتكفل لهم الاحترام والسلامة .

أما جريجور أيوجا ، وكان قد بقى فى المحطة مع هيرديليا الشاب ، فقدأحاط به أصدقاء عديدون ، ارتسم الأسى على ملامحهم .. كما تقضى ظروف الحال ، فقدموا إليه تعازيهم .. ووقع بصر جريجور على ازباسيسكو : « تعال هنا ، تعال، تعال هنا يا رجل .. بالله حدثنى بما وقع . »

فأجاب كاتب الحسابات مبهوتا : « كيف حالك ياسيدى جريجوريتسا ! » .

سامحنى لأنى لم أجرؤ .. يوجد آخرون هنا أيضاً من قريتنا ... الله وحده يعلم كيف هربوا من براثن أولئك الشياطين ..

ولم يكن جريجور قد لحظ الرقيب بونجيو، لا، ولا جابى الضرائب بيرزوتيسكو على الرغم من أنهما كانا واقفين عن كثب من ازباسيسكو ... والواقع أنه قد تلقى فى أقل من أربع وعشرين ساعة كثيرا من الأخبار السيئة التى انفطر لها قلبه ، ولكنه ما زال لا يعرف شيئا على وجه التحديد ... كان قد استقى معلوماته كلها من الآخرين ، الذين تلقوها بدورهم عن أشخاص آخرين ... وكان الشك يضنيه أكثر مما لو عرف الحقيقة عارية ، مهما كانت قاسية... وكانت لهفته على الذهاب إلى آمارا بأقصى سرعة تسبب له ألما ممضا ، لا لشىء إلا لأنه يرغب رغبة محرقة فى الوصول إلى الحقيقة ... وكان واثقا من أنه لو عرف الأمر على وجه التعيين لاستكانت روحه المعذبة القلقة .

وانطلقوا جميعا فى الطريق ، وكل منهم يخبره بدوره بما يعرف .. وضاق من بيرزوتيسكو الذى أخذ يقص عليه تقلب حظه فى الحرب ، وقاطعه جريجور ومنعه من الكلام .. أما بونجيو فقد أخبره بادىء ذى بدء ، والحزن ملء نفسه ، كيف بقيت زوجه بين الفلاحين ؟ وكيف توسلت إليه أن يذهب بها بعيدا ؟ وأنه لو وقع لها مكروه فسيحمل ضميره تبعة ذلك إلى يوم الدين ... فلما فرغ من حكايتـــه ، قص عليهم كيف نزع الثوار سلاحه ، وكيف طاردوه .. وجعل من هذا بطبيعة الحال قصة بطولية على نحو ما ، إبقاء على كرامته ، فهو بمجرد أن اشتعلت النـار فى روجينوزا ، انطلق إلى هناك ، واتخذ التدابير المناسبة لحصر النيران كما تقضى اللوائح العسكرية ... ومن أسف أنه اصطدم أولا بخبث الفلاحين ولؤم طباعهم ، وثانياً بانعدام الماء تماما ؛ ومن ثم لم يتهيأ له أن ينقذ أى شىء .. على أنه تمكن على الأقل من اقتفاء آثار المجرمين الذين أشعلوا النيران ؛ فذهب فى غده ، وأخبر السيد ميرون الذى أمره بأن يغض الطرف عن الأمر . منعا لاستثارة الفلاحين أكثر من ذلك .. ومما زاد الطين بلة أن جاء خبر يقول بأن النار تشتعل فى بيت السيد كوزما ، فانطلق دون إبطاء ليعمل على استتباب الأمن ، ولو اقتضى الأمر إطلاق الرصاص .. وظهر له أن اللصوص كانوا يعملون وفق خطة موضوعة ، وأن هناك مؤامرة

مدبرة ؛ فقد التقى قرب الخان بنفر من الفلاحين تظاهروا بالهدوء والسلام ، فاندمج فى وسطهم ، وعندئذ ..

واستمع جريجور أيوجا حتى النهاية .. ها هو ذا يعلم أخيراً كيف نشبت الفتنة .. ولسوف يعلم بقية القصة من ازباسيسكو .. ذلك أن الآخرين قد علموا بوفاة ميرون أيوجا من ازباسيسكو نفسه .. ولقد غدا الفتى بطل الساعة ، منذ أن وصل بالأمس فى العاشرة ، إلى سوق قرية كوستستى الصغيرة .. ولقد اضطر أن يقص الفظائع التى حدثت فى آمارا أكثر من عشرين مرة على الأقل إلى السادة الأشراف فى كوستستى .. بل إن عمدة المدينة طير الخبر رسميا إلى الوالى فألقى الرعب فى نفس الوالى السابق بوريسكو الذى لم يتوان عن بث الخبر فى المدينة بأسرها .. واستضاف العمدة ازباسيسكو ، وأخذه إلى بيته ، وأحضر له بذلة مما يتحلى بها أهل المدينة من مساعد القاضى ؛ ولكن ازباسيسكو ، حرصا منه على أن يحتفظ بهالة الشهيد أطول وقت مستطاع ، لم يلبس البذلة إلا هذا الصباح .

قال فى صوت أليم خليق بالمناسبة : « إن حكايتى أطول من ذلك ياسيدى جريجوريتسا ! .. ولو شئت سماعها فتعال إلى منزل مضيفى العمدة . فنحن على مقربة منه جدا ، وسوف أقصها عليك من البداية إلى النهاية ! .. آه يا ربى !! لقد امتد بى العمر فرأيت أشياء ، ومررت بأشياء ما كنت لأصدق نفسى أنها قد حدثت فعلا ! .. أنا على الأقل نجوت حيا ، الحمد لله ، أما السيد ميرون رحمة الله عليه ... »

فتساءل جريجور بصوت خنقته العبرات : « أهو قد توفى ؟ ... »

« لقد قتلوه ؛ اللئام ... »

« متى ؟ .. منذ بضعة أيام ؟ »

فأجاب ازباسيسكو : « يوم الجمعة ، أول البارحة ، ساعة الغروب ! »

فغمغم جريجور وقلبه مثقل بالهم : « هيا بنا إلى منزل مضيفك ، وحدثنى بكل شيء ! »

* * *

استمر اجتماع الوالى بالضابط ورجال الحكومة بعض الوقت .. وكان من عادة بالولينو أن يكرر تعليماته عشرات المرات بالتفصيل، ليتأكد من أن القوم قد فهموه فهما دقيقا ... فعل هذا فى بيته، وفعله فى مكتبه مع سكرتيره، بل وأصر عليه اليوم وهو يتخذ قرارات قد تتوقف عليها حياته ومصير البلد كلها.. وأخيراً شعر بأن القوم قد أدركوا مقصده تماما، فاتخذ سمة بطولية، وهتف فى نبرات فخيمة: «والآن أيها السادة، إلى الأمام تأدية لواجبنا !!».

واتخذ باولينو مجلسه بجانب المدعى العمومى فى العربة التى كانت تسبقها فرقة من الجنود ببنادق معبأة، وأحزمة تبرز منها خراطيش الرصاص؛ ومع ذلك فقد شعر بقلبه يخفق .. وذهب به الفكر إلى ميلانى، وهى دامعة العينين واجفة القلب، وقد تركها على رصيف محطة الشمال .. كان كل أمله ألا يكون هذا نذير شؤم ! ... فالمرء لا يستطيع أن يثق فى شىء ألبتة مع هؤلاء الفلاحين الذين أصابهم وباء من الجنون .. كانوا من الكثرة عددا بحيث لا يتأتى لأى جيش أن يتغلب عليهم .. ماذا لو أحدق بضعة آلاف من هؤلاء الأوغاد فجأة بهذه الحملة، وهاجموها من جميع الجوانب ؟ .. كذلك أنت لا تستطيع أن تثق ثقة مطلقة بالجيش فى الواقع؛ فأنت عندما تقف موقف المناوأة مع الفلاحين، فربما أقدم جنودك على ذبحك ذبح النعاج فى أية لحظة.

وحدث بالولينو المدعى العمومى فجأة، ليزيل عنه أفكار السوء، ويشد من أزر شجاعته المتداعية، قائلا: «كيف تفسر يا سيدى هذه الحقيقة وهى أن الإخلال بالأمن قد تجاوز المدى بالذات فى هذا البلد الغنى ؟».

وما كان الناس قد عرفوا فى توما جريسيسكو أنه من أصحاب النظريات الاجتماعية، اللهم إلا نادرا حين يضطر فقط إلى إلقاء خطبة بوصفه نائبا عموميا، ردا على دفاع المحامين على وجه الخصوص .. وكان فى مقدوره بطبيعة الحال، فى هذه المناسبات، أن يعد الخطبة سلفا .. ومن ثم هبط عليه سؤال الوالى على غرة، ولم يتح له مهلة التفكير فى أسباب الثورة الحالية .. فهو، ساعة الفراغ، يسلى نفسه بالجلوس إلى مائدة اللعب، شأنه شأن أى واحد آخر فى بيئتى من رجال الطبقة العالية .. ولهذا رد بإجابة مبهمة قائلا: «لقد كان هناك تراخ

فى روح النظام وتحمل المسئولية بوجه عام ياسيدى ، وأنا لاأدرى لماذا أو كيف ، لأن البحث فى هذا الأمر يخرج عن حدود اختصاصى .. ولكن الظاهر أن المسئولية الاجتماعية قد قلت كثيرا فى كل مكان تقريبا فى العهد الأخير .. لهذا كان رد فعل الفلاحين ، مثل جميع القوم البدائيين ، فورة فجائية من الوحشية . »

أما الرائد تناسيسكو فكان ، على جواده الكميت الرائع ، يتخطر متمهلا أمام القسم الرئيسى من القوات ، بل وأمام طليعة الجيش التى تسير فى إثر دورية الاستكشاف .. وشهده بالولينو ، وهو يعود راكضا بأقصى سرعة ، فارتعدت فرائصه .. نعم ، لقد كان فى وسع المرء أن يرى مشارف القرية من ذلك الاتجاه .. ووضع يده على ساعد المدعى العمومى ليحد من تدفق أفكاره ، وما فى ذلك من جهد : « لحظة واحدة من فضلك .. ماذا حدث ؟ .. لماذا يركض الرائد هكذا ؟.

والواقع أن تناسيسكو كان يسرع عائدا ليبلغهم بأن كل شيء هادئ فى قرية فلادوتا .. وصحيح أن الفلاحين هناك سبق أن أضرموا النار فى بيت الدائرة ، ونهبوا المكان ، أما الآن فقد عادوا إلى صوابهم ، وكانوا يطلبون الصفح والغفران .. وقرر بالولينو أن يترك فى القرية فرقة من الجنود ، تحت إمرة ضابط ، تجنبا لأية فتنة فى المستقبل .

قال بالولينو ، وقد اطمأن بالا : « برافو ، أيها الرائد .. شكرا لك ! » .

وتقاطرت القرية كلها فى الحارة الواقعة أمام بيت الدائرة .. فلما وصلت العربة ، وبها الوالى ، هتف الرائد تناسيسكو ، وكان قد ركض إلى هناك من قبل : « اركعوا ، أيها اللصوص ، وإلا قطعتكم إربا إربا !! »

ووقع كل واحد على ركبته .. وأحس بالولينو بالامتنان نحو الرائد الذى أظهر هذا الحزم الشديد ؛ وتدلى من العربة ، واقترب من جمهور الناس الساجدين ، وهتف وفى صوته مسحة من الشفقة المصطنعة : « ماذا فعلتم أيها البؤساء ! ؟ » .

وتعالت مئات الأصوات فى لعثمة وبكاء : « سامحنا ياسيدى !! رحمة بنا !! »

قال الوالى : « أأنتم نادمون على ما فعلتم ؟» .

وصاحت جمهرة الرجال الساجدين : « غفر الله لنا آثامنا !! رحمة بنا ، وشفقة علينا ! » .

وأنذرهم الرائد بأن عليهم أن يدفعوا تعويضا عن الأضرار حتى آخر مليم ، وبأن أولئك الذين يثبت عليهم الإجرام سينالهم القانون بمنتهى الشدة ، ثم قرأ عليهم نداء الحكومة ، وشرع يوضحه لهم ، ثم أضاف إلى ماجاء فيه من ألفاظ تدل على التسامح ، وتفيض بالوعود ، قال : « كل من يقترف جريمة ، مهما كانت تافهة ، وكل من لايخضع لهذه التعليمات ، سوف يعدم فوراً ، ودون محاكمة !! . كذلك من المحظور على كل إنسان أن يترك القرية دون إذن من الضابط الذى سيبقى هنا على رأس قوات الجيش ! » .

ثم أعطى الأمر إلى الملازم ليبقى مع رجاله ، تحت تصرف العقيد ستيفانسكو الذى سوف يصل على وجه السرعة ، وليقدم له العون ماوسعه الجهد .

وكان الوالى فى غاية السرور .. فهذا الضابط منية المتمنى . بل إنه فكر فى أن يطلب له وساما ، لو استمر على هذا النحو حتى النهاية .. ولكن لابد له من التسامح ، بوصفه رجلا مدنيا وممثلا للحكومة من الوجهة السياسية .. فالحكومة فى حاجة إلى عطف المواطنين ، ولو كانوا من الفلاحين .. أما الجيش فكان لايعبأ بعطف أحد أيا كان ، وكل إنسان مضطر إلى أن يظهر الود للجيش ؛ وهو إذا لم يحب الجيش ، أو نهض ضد الجيش ، فصيره حتما إلى السجن ، نعم ، ليت الحكومة أيضا تستطيع أن تجبر الناس على إظهار ود لا يزول .

وكان خطاب الوالى فى القرية التالية ، أيونيستى ، خطابا أشد لينا ، لأنه لم تحدث اضطرابات هناك ؛ ولكن من الحق القول بأنه لم يكن هناك كذلك بيت من بيوت ملاك الأرض .

وعاد الرائد تاسيسكو ، بمجرد أن تركت الكتيبة أيونيستى ، فذهب إلى الفصيلة التى فى المؤخرة ليلقى بأمر أخير إلى النقيب الذى كان يتولى تبعة إعادة الأمن إلى القرى الواقعة على الجانب الأيمن من تيلورمان حتى إيزفورو ..

وفى باباروجا أمر القائد بوضع فرقة تحت إمرة ملازم على طوال الخط الممتد بين جليجانو وليسبيزى ؛ حماية لجناح القوات ؛ فلما علم الملازم بأن الاضطرابات فى جليجانو كانت أشد خطورة من غيرها ، كان يتعين عليه أن يتخذ كافة الاحتياطات الممكنة ، وأن يبقى ، عند الاقتضاء ، بالفرقة كلها لاحتلال القرية ، ثم حسبه أن أن يرسل دورية إلى ليسبيزى ، وهى نقطة التجمع ، ليقدم تقريرا عن الموقف .

وواصلت الكتيبة الرئيسية المسير صوب بيرلوجو ، فى طريق لم يخل من عربات النقل .. فلما بلغوا بيرلوجو دهش الوالى وسر إذ شهد قطعة من القماش الأبيض منصوبة على كل باب ، علامة على طلب السلام .

« عجبا !! .. الحق أن هذه قرية متمدينة ! » صرح بها بالولينو عندما سمع بأنه لم يقع ما يدل على وجود تمرد .. فلم تمتد يد إلى بيت القرية المتواضع ، وهو بيت مهجور لا يقطنه أحد ، وإنما كان يستخدم فقط مخزنا للحبوب .

وكانت هناك جماعة من الفلاحين تنتظر وصول القوات فى ديوان القرية .. وخطب الوالى ، فأزجى إليهم المديح على التزام الهدوء . ثم قال إن الحكومة معنية بمطالبهم ، وأنها قررت أن تمنح جميع التسهيلات إلى أولئك الذين سلكوا مسلكا حميدا ، وأنها عازمة على مساعدتهم بكل وسيلة .. وبرهانا منه على اهتمام الحكومة ، قرأ عليهم فى تؤدة ، وفى صوت اهتز من الانفعال ، قائمة الإصلاحات شارحا لهم فى كلمات سهلة الفقرات التى بدت على شىء من الغموض .. وأصغى إليه الفلاحون حاسرى الرءوس . وجباههم مغضنة ، ونظراتهم زائغة حائرة ..

« إلى اللقاء أيها الشعب الطيب . عليكم بالتزام الصراط المستقيم مستقبلا كذلك ! » هتف بها بالولينو فى نهاية خطبته ثم صعد إلى العربة .

وانطلق ، على طوال الطريق إلى ليسبيزى ، أعنى زهاء نصف الساعة ، فأسهب فى مزايا هؤلاء القرويين الشجعان الذين واتتهم الشجاعة الخلقية فحافظوا على الأمن فى معمعة الحريق الذى انتشر فى جميع أرجاء الولاية كلها . أما المدعى جريسيكو فقد أخذ على عاتقه ، معتمدا على خبرته الطويلة فى المسائل الجنائية . فأشار بأن الدواعى العملية تقتضى القيام على الفور بإجراء تحقيقات سريعة فى القرى التى يمرون

بها ، بقصد اكتشاف الرءوس المحرضة ، وإلقاء القبض عليهم ، منعا للقلاقل من البدء من جديد.

فأجاب الوالى فى طلاقة : « طبعا ، رأيك صائب من الوجهة القانونية ! .. ولكن يجب علينا يا سيدى العزيز ، أن نأخذ العامل السياسى فى الاعتبار ! .. لقد أصبحت الاضطرابات ذات صبغة عامة جدا ، والثورة تمشت حمياها فى عقول الناس .. ويتعين علينا أولا أن نعمل على تهدئتهم .. ومن واجبنا تهدئة الفلاحين ، دون أن نخشى من مقابلة الشر بالشر ، الأمر الذى قد يثير حفيظتهم ، ومن ثم يزيد من خطورة الموقف .. أما المذنبون فلابد من إيقاع العقاب بهم لا جدال ، ليكونوا عبرة لغيرهم ، ولكن فقط بعد أن يتأتى لنا التخفيف من حدة التوتر .. ثم بعدئذ تبدأ الإجراءات ، وتطبق العقوبات الرادعة ، منعا لتكرار حدوث هذه الكارثة القومية ! » .

فلما بلغوا حدود قرية ليسبيزى ، قال الرائد تاسيسكو وهو يتميز من الغيظ : « هذه قرية من المجرمين يا سيدى ! .. لقد وقعت جرائم قتل هنا ! .. وهنا يجب علينا أن .. »

قال بالولينو ، وفرائصه ترتعد : « اهدأ أيها الرائد ، اهدأ .. إن مهمتنا ألمية للغاية ، ولهذا يجب علينا أن نلتزم جانب الهدوء تماما ! » .

وذهب الرائد بالولينو إلى الكنيسة ، وهو يزمجر ويغمغم بالشتائم .. وكان على باب الكنيسة قس شاب حليق اللحية ، ارتسمت على وجهه علائم الفزع ، لأن الرائد كال له السباب ، وتوعده بأن يطلق عليه الرصاص .

قال القس متلعثما ، وهو ينحنى فى ذلة : « لا حيلة لنا يا سيدى — لقد عجزنا عن الوقوف أمام .. »

« افسح الطريق يا نذل ! » قالها الرائد وهو يدفعه بكوعه جانبا من المدخل .

كانت جثة نادينا راقدة قرب المذبح ، على نعش حديث العهد ، وقد أسدل عليها كفن .. ورفع الرائد طرف الكفن ، فكشف عن وجه مشوه مكدوم .. وأشاح

بالولينو بوجهه ، وهو يصيح فى أسى « الوحوش » !! الوحوش !! . يا المرأة المسكينة !! » .

وخطا إلى الخارج على عجل .. وقد امتلأ أنفه برائحة خانقة ، كانت مزعجة إلى حد أصابه بالغثيان .. وجذب الرجل هواء نقيا إلى رئتيه عدة مرات ، وهو يتفوه بكلمات غاضبة ، حتى وقعت عيناه على القس الشاب الذى ظل دون حراك قريبا من المدخل .

« بربك أيها الأب ، كيف سمحت بهذه الفعلة ؟ .. مسكين جريجوريتسا ! . سينفطر قلبه حين .... »

والتمس القس المعاذير باكيا .. لقد حدث كل شىء فجأة ، فلم يتمكن هو ولا أى أحد آخر من التدخل .. وتبين هو بعدئذ أن نفرا من رجال آمارا قد حرضوا على هذه الجريمة ، وأنهم قد اقترفوا بعض الأفعال النكراء .. ولقد عرف من هم المجرمون ، كذلك عرفت القرية كلها ، ولكنه لم يجرؤ على فضح أسمائهم مخافة أن يجعل حياته مستحيلة فى ليسبيزى .. وأخبر الوالى كيف أنقذماتى دولمانو جثمان السيدة حين أضرم الغوغاء النار فى البيت ، وكيف رقد هو فى الكنيسة ، إلى جوار المذبح ، حتى لا يمثل أى مخبول بالجثمان على أى وجه من الوجوه ، وهو أمر قد يحدث هذه الأيام التى شهدت اضطرابات لا مثيل لها .. واستطرد القس فقال إنه أخفى فى بيته السائق الألمانى ، معرضا نفسه لمخاطرة كبيرة ؛ وكان مصابا بجراح ؛ وقد توعده الناس بالقتل ؛ أخذاً بالثأر ..

وهتف بالولينو فى هلع : « كفى !! . سوف نتخذ الإجراءات اللازمة .. وحتى ذلك الحين .. أين العمدة ؟ » .

« ليس لدينا عمدة فى هذه القرية .. فنحن نتبع آمارا .. »

ولم يلق بالولينو بالا إلى جواب القس ، والتفت إلى النائب العمومى ، وأخبره بأمر نادينا وجريجور ، مشفقا عليهما معا سواء بسواء .

وتنهد متأسيا فى شىء من الوقار : « ولكن يتعين علينا أن نلزم الهدوء ؛ ولابد

أن تتمالك أنفسنا . . هيا بنا نؤدى واجبنا . »

وقطع حارة القرية ؛ وهو يقلب فى خاطره الخطبة التى يريد أن يلقيها على الفلاحين الذين احتشدوا أمام أطلال بيت جوجو أيونيسكو . . وعزم على أن يعنفهم فى قسوة ؛ ولكن دون أن يثير غضبهم ؛ تحاشيا للمخاطر التى تتعرض لها حملة التهدئة التى بدأت فى ظل ظروف مواتية . . وكان الرائد قد تركه ليصدر أمراً من الأوامر ؛ فلما عاد كان فى شدة الغضب ! « لقد رفض الأوغاد أن يستمعوا إلى شيء يا سيدى ! . ولو مضينا هكذا فستتعرض للهجوم علينا يا سيدى ! .. إنهم يظنون أننا خائفون منهم يا سيدى ! » .

وكان قد تلقى إشارة من الملازم الذى يتولى الفرقة التى أرسلت إلى جليجانو أفاد فيها بأنه اضطر إلى البقاء حيث كان ؛ لأن الموقف فى غاية الاضطراب . . وفى نفس الوقت ؛ استرعى بعضهم انتباهه إلى سحابة من الدخان ترتفع فى اتجاه بيرلوجو . . لقد رد هؤلاء الأوغاد على الكلمات الطيبة ؛ والإطراء الذى أزجى إليهم قبل ذلك ببرهة قصيرة ؛ وعلى الإصلاحات والتسهيلات التى وردت فى نداء الحكومة ؛ فأشعلوا النيران فى بيت الدائرة بمجرد أن خلفت القوات القرية . . كان هذا أمراً خطيرا .. فهم إذا كانوا قد جرءوا على الثورة ؛ وهم على مقربة قريبة من مؤخرة الجيش ؛ فمعنى هذا أن الشر متأصل فى نفوسهم ، على غير ما ظن أولا .. وحدث الرائد تاسيسكو الوالى صراحة ؛ قال إنه لا يستطيع أن يترك الأمور تجرى على عواهنها حتى تتم حركة التفاف حوله ؛ لأن مسئولية الحفاظ على القوات تقع على عاتقه كاملة .. وامتلأت نفس بالوليقو رعبا . . لقد رأى نفسه محاطا بعصابات من الفلاحين المتوحشين ؛ فأشبعوه ضربا وعذابا وقتلا . . حقا ؛ لقد أوشكت هواجس ميلانى أن تتحقق .

قال فجأة ، وقد رنت فى صوته رجفة خفيفة : « أرجوك أيها القائد ، خذ من التدابير ما تراه ضروريا . »

وأرسل الرائد فرقة ، قوامها فصيلتان ؛ لاستعادة الأمن فى بيرلوجو . وتقرر إنزال العقاب بالقرية كلها فورا ، عبرة لغيرها ، كما تقرر أن يضرب الرجال والنساء والأطفال ، دون استثناء . . ولو بدت أدنى مقاومة ؛ فإن لدى الجنود أوامر

بإطلاق النار ، واستخدام المدافع عند الاقتضاء لإزالة هذا العش من الثوار من فوق ظهر الأرض .

وما كادت الفرقة تشرع فى المسير صوب بيرلوجو حتى عادت دورية الاستكشاف من آمارا ، فأفادت بأن الفلاحين هناك ، وقد تسلحوا بالمناجل والفئوس والمطارق وبضعة أسلحة نارية ، قد تجمعوا على مشارف القرية ، ورفضوا أن يسمحوا للجنود بالمضى فى المسير ، وهددوا بقتل الضابط إذا حاول أن يدخل القرية .

وشحب وجه بالولينو .. وشعر بأنه قد وقع فى فخ رهيب .. حقا لقد أصاب رجل الإدارة حين قال إن الفلاحين منظمون تنظيما جيداً ، وإنهم قادرون على مواجهة الجيش .

وتساءل فى صوت أجش ، وهو فى حيرة من أمره « ماذا بعد ، أيها الرائد؟».

وتألقت عينا تاسيسكو فى سخط ، وأجاب فى شراسة : « اترك الأمر لى يا سيدى ، فنحن نعرف كيف نعالجهم .. » .

وألقى بأوامر .. وتحركت القوات إلى الأمام .. ثم سأل بالولينو تاسيسكو وهو يصعد إلى عربته ، كأنما كان يضبط صمام أمان رئيسى ، فقال فى نبرات هامسة حتى لا تتراءى إلى سمع الآخرين : « أرجو أن تكون متأكداً من رجالك أيها الرائد ! ! » .

« الجندى الرومانى مطيع للأوامر ياسيدى .. هو أكثر الجنود ولاء فى العالم ! » .

وخلفوا ليسبيزى وراءهم . فأسر الوالى إلى المدعى العام : « فى مقدورك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث ؟ ونحن فى هذا الموقف ، لو لم نستند إلى قوة الجيش! . يا لها من كارثة ! ! أنا أتكلم بطبيعة الحال ، على وجه العموم ، دون أن أفكر فى المصير الذى ينتظر أولئك الذين يضحون بأرواحهم ، مثلنا ، من أجل مصلحة البلاد ! » .

— ٧ —

كان الفلاحون يتدافعون جيئة وذهابا على حدود القرية الممتدة على الطريق الرئيسى وخلال الضواحى .. كانوا ينتظرون ، ووجوههم متوهجة وعيونهم لامعة ، ويحثون بعضهم بعضا ، كأنهم فى حفل عرس عظيم .. وكان فى جعبة كل واحد شيئاً يقوله ، كأنما كان الآخرون لا يعرفون شيئاً ، بل وكأنما كانوا غير موجودين ، فكانوا جميعاً يكررون نفس الأشياء ، بنفس الألفاظ تقريباً .. وقلما كانت تخيم فترة هدوء فى خضم الضجيج ، فقد كانوا يضيقون بالصمت الذى ينذر بالسوء ، فيحاولون أن يطردوه عنهم بمزيد من الصيحات المدوية ، كأنما كانوا جميعاً يخشون أن يستيقظوا من أحلام سعيدة أزجاها الشراب ،

وتعالت عدة أصوات فى لحظة واحدة : « انظروا ، ها هم يعودون مرة أخرى !! » .

وعنت الوجوه كلها صوب ليسبيزى .. كانوا يعرفون أن الجنود سيعودون ، ولكن كلا منهم كان يأمل فى صميم نفسه ألا يعودوا ..

وصرخ بيتر بيتر فى صوت حاد النبرات ، انتابه تغير تام بحيث بدا غير صوته : « ليأتوا ، ليأتوا .. ألسنا على استعداد لهم ؟ » .

وأمسك نيكولاى دراجوس بمنجل ، وكان واقفا إلى جوار بيتر ، وغمغم بسباب مفعم بالحقد : « سنفتك بهم ، لعنة الله عليهم ... » .

والتصق السباب بحلقومه ، وكز بأسنانه .. أما شيريلا بون ، وكان يلازم نيكولاى ، فقد أخذ يولول ولولة عجوز شمطاء .. وتناول البندقية التى استولى عليها من الشرطة ، ورفعها إلى عل متوعدا كأنها صولجان .. وعلى مدى بعيد ، بين الجمع الذى يتدافع بالمناكب ، وقف تودر ستريمبو ، وقد تسلح على نفس النحو ، وهو يقسم أيمانا مغلظة بأنه لن يهدأ له بال حتى يسحق رأس الضابط الذى يتولى قيادة القوات ، ولو كان برتبة جنرال .. أما سيرافيم موجوس ، وقد عاد إليه الصمت والعبوس ، فقد كان يملك بندقية كذلك ، وهى بندقية الرقيب

بونجيو ، فعلقها على منكبه كما يفعل الجندى الصميم ، رغم أنه لم يؤد الخدمة العسكرية قط . . أما إيليباء سيرلان فقد وقف وراء بيتر ، تابعا له كظله ، وكان يلوح كذلك ببندقية ، ويصرخ دون انقطاع ، كأنما قد عجز عن أن يفكر فى أى شيء آخر : « حذبهم يا بيتريتسا ! . . حذبهم يا بيتريتسا ! . . » وانطلقت الصيحات والشتائم فى مكان بعينه ، ثم منه إلى مكان آخر . . كان الغضب يبرق فى عيونهم ، وينساب من حناجرهم ، نفسا مسموماً يلف الجمع كله بغشاوة غير منظورة . . وكانت المناجل والمطارق والفئوس والمجارف تهتز فى الهواء متوعدة الخطر الداهم ، إرهابا له ومنعه عن التقدم . . وكانت الصرخات تنبعث مدوية من النساء والأطفال فتمرق فى اللجب الذى يثيره الرجال كما تمرق الدبابيس العديدة وتحز فى قطعة من الخيش السميك .

واستمر الصخب واللجب ، وأما كتيبة الجنود فقد زحفت على طوال الطريق الرئيسى كأنها حشرة سوداء هائلة . . وتساقطت أشعة الشمس وتداعب الحراب اللامعة ، فتبعث منها وميضا اهتز فى الهواء . . وسرعان ما أمكن تمييز الجنود ، ثم الفرسان ، فالعربة المفتوحة وبها الوالى والمدعى العام ، ثم المدافع التى تجر كل منها ستة جياد ؛ فإذا بالجسد العجيب ينتهى كأنه ذنب منبسط ذو جرس معدنى .

وكلما اقترب الجنود علا ضجيج الفلاحين إلى عنان السماء ، متوعداً وحشيا . . وانتشر جمهور الرجال على طوال الطريق الرئيسى ، وقلوا سمكا ، كأنما كانوا جميعا يتوقون إلى رؤية العدو ومواجهته .

وصدر نداء غليظ فى طليعة الكتيبة ، فتباعدت فصيلتان فى صفوف منتظمة ، بعضها إلى يسار الطريق ، وبعضها إلى يمينه ثم توقفتا فجأة على مدى نحو مائة ياردة من جمهور الفلاحين . . وظهرت بين الفصيلتين ، على الطريق ، عربة الوالى بالولينو ، وقد حف بها الرائد على صهوة حصانه .

قال الوالى متلعثما ، ووجهه شاحب شحوب الموت : « عليك بالهدوء ، أيها الرائد ، عليك بالهدوء ! » ونزل من العربة خائراً ، وتبعه المدعى العمومى ، وكان أهدأ القوم جميعا .

قال الرائد تناسيسكو وهو يلوح بسوط الفرسان ذى القبضة الفضية فى عنف بالغ جعل الحصان يرهف أذنيه : « سمعا وطاعة ياسيدى » . . فى مقدورك الآن أن ترى وأن تسمع ، ولعلك تقتنع بأنهم لا يستأهلون شيئا غير الرصاص والحراب ! » .

فتلعثم بالولينو ، وأسنانه تصطك ، وأوصاله ترتعد : « لا لا . يجب علينا أولا . . » وتمزق قلبه رعبا مهما هتف به من أن الجنود سيتآخون مع الفلاحين ، ويفتكون به وبصحبه .

وأخذت جموع الفلاحين تترنح فجأة ، كأنها ماء راكد رقرقه نسيم هب من حيث لايدرون . . وتمايلوا هنا وهناك ، ولكن ضجة الصراخ أعطتهم مظهرا عدائيا : « نحن لانريد ملاك الأرض بعد !.. هل جئتم لتقتلونا ؟. أنتم ، أيها الجنود ، لاتخيفوننا !.. لقد هزأ بنا الأشراف بما فيه الكفاية !.. اغربوا عنا !!.. لا تطلقوا النار علينا أيها الأخوة ! »

ووقف الوالى لا يتحرك من مكانه ، وجعل يحملق فى الغوغاء ، مغمغما لنفسه دون انقطاع : « عليكم بالهدوء أيها السادة ، عليكم بالهدوء !.. »

وبقى المدعى العمومى جريسيسكو بضع خطوات إلى الوراء ؛ أما الرائد فقد عجز عن أن يتمالك زمام نفسه ، فدغدغ جانبي الحصان بمهمازيه ، فجعله يطفر ويخطو إلى جانب .

وفجأة اندفعت أنغلينا ، ابنة نستور موسينيكو ، وقد أرسلت شعرها دون انتظام ، ومنديلها ساقط على ظهرها ، وطفلها بين ذراعيها .

واقتربت من بالولينو ، صارخة لاعنة فى صوت يائس .

أما أنطون ، مجنون القرية ، فقد جرى وراءها ، كأنما يريد أن يحميها ، وشدها إلى الخلف ، هاتفا : « لاتصغوا إلى هذه المرأة ، إنها فاقدة الوعى من شدة الجزع ، وهى لا تعرف معنى ما تقول . . انصرفى ياأنغلينا !.. اسكتى ، واتركينى أخبرهم بما أمرنى به الرب !.. لقد دنت ساعة الحساب ، ولابد للناس أن يعرفوا الحقيقة !..

أيها الأخوة لا تقفوا هناك عابسين ، وبنادقكم موجهة نحو أشقائكم المساكين !.. ألا حولوا أسلحتكم ضد الشيطان الذى أرسلكم لقتل الأبرياء و ... »

وانسابت كلماته تيارا من الشرر ، يكاد يضرم اللهب فى أى شىء يصادفه فى الطريق ؛ وارتفع صوته مهيبا ، فطغى على صخب الجمهور ، كأنه مطرب عبقرى تصحبه جوقة من العمالقة المتوحشين .

ووقف الجنود ، أمام الغوغاء الصاخبين ، واصطفوا دون حراك على جانبي الطريق، كتماثيل سوداء باردة، أو آلات تجرى فيها الدماء.. كانت عيونهم وحدها هى التى ترف فى وجوههم التى لفحتها الشمس .

وعلى الطريق الرئيسى، بين الصفين المتراصين من الجنود، كأنهما بوابة تطل على عالم الجحيم ، أخذ الوالى بالولينو ، والمدعى العام ، والرائد تاسيسكو يتمشون جيئة وذهابا ؛ ومن ورائهم وقفت العربة بجواديها الاثنين ، كما وقف الجزء الرئيسى من القوات دون حراك ، فى هيئة استعداد ؛ أما بطارية المدفعية فكانت فى المؤخرة .

وهتف الوالى مضطربا ، وهو يكرر نداء الحكومة الذى فى يمينه : « ماذا نحن فاعلون !.. ماذا نحن فاعلون ؟.. ماذا نفعل أيها الرائد؟.. ياسيد جريسيسكو ! .. »

وصاح الرائد ، وهو يلتفت بجواده إلى اليمين وإلى اليسار ، كأنما كان فى عرض عسكرى : « لقد جن جنون اللئام !.. إنهم قادرون على الهجوم على القوات ، وسوف ترى ياسيدى ! » .

فقال بالولينو ، وقد اشتد به الارتباك، وعيناه شاخصتان إلى جمهرة الفلاحين الثائرين ، فبدو وكأنهم يقتربون شيئا فشيئا ، رغم أنهم لزموا موضعهم ، وقد ارتسم على أساريرهم نفس التحدى ، قال ! « ولكن أيها السادة ، يتعين علينا أن نقرأ النداء !!.. ما رأيك أيها المدعى العام ؟ » .

فأجاب توما جريسيسكو وهو فزع : « يجب أن نستمسك برباطة الجأش .. يجب أن نلتزم حدود القانون ياسيدى ! » .

وصاح تاسيسكو : « أيها البروجى ، أيها البروجى ! ! أين أنت يامخبول ؟ . ابق على مقربة منى ، أفهمت ؟ » .

وركض بروجى الكتيبة ، وكان برتبة رقيب ، وبوقه قائم على ركبته اليمنى ، كما تقضى اللوائح .

« هأنذا ياسيدى ! »

وأدار تاسيسكو ظهره .. لقد سمع كلمات أنطون ، فأغضبته أكثر مما أغضبه أى شيء آخر ، كأنما كانت إهانة وجهت إلى شخصه بالذات .. وفكر فى أن يندفع إليه ، ويفصل جلده عن لحمه أمام الجماهير ، عبرة لكل من يجرؤ على مناهضة الجيش .. ولكنه وجد نفسه ينقلب على الوالى : « ألا تسمعهم ياسيدى يحضون القوات التى تحت إمرتى على التمرد والعصيان ؟ لابد أن أتصرف ياسيدى ! .. إن سلامة القوات تقع تبعتها كلها على أنا ياسيدى ! » .

وهتف بالولينو ، وقد غضب فجأة : « أنا لا أسمح لك برفع صوتك على أيها الرائد ! .. أنت تتلقى الأوامر منى ، ولا أتلقاها أنا منك ! » .

أما أنغلينا . وكانت قد توقفت عن الصراخ دقيقة واحدة ، فقد أخذت تجرى أمام الجنود جيئة وذهابا ، حاملة طفلها ، وقد حسرت عن أردافها دون حياء : « عار عليكم » . هل أنتم جنود أم قطاع طرق ؟.. ياللعار ! . أنا لست خائفة من بنادقكم ! . انظروا . أطلقوا النار على إن كنتم تجرءون ! .. أطلقوا النار ! .. لماذا لاتطلقون النار ؟ . انظروا هنا ، هنا ..

ورآها تاسيسكو ، فعاد يلوح بسوطه : « أرأيتم إلى هذه العاهرة ، إنها تهزأ بالجيش ! .. عليها لعنة الله ! . اقبضوا عليها يارجال ! .. »

ولم يتزحزح رجل واحد من صف الجنود قيد أنملة ، كأنما قد قدوا من صلب ؛ وإذ ذاك ازدادت هتافات الجمع الثائر « لا تدعوهم يقتلونها ! .. هيا أيها الفتيان ! اهجموا عليهم ! ... »

واندفعت جماعة جريئة هنا وهناك نحو صف الجنود ، بينما ألقى آخرون

بالأحجار أو الأوحال . . وأصيب جواد الرائد بحجر ضل طريقه ، فأجفل إلى الوراء مذعورا .

وهتف تاسيسكو يحدث المدعي العمومي . « أتراك تنتظر على هؤلاء اللصوص حتى يقضوا علينا ؟. ألا ترى أنهم قد بدءوا في الهجوم علينا ؟ » .

وإذا به ، في صوت آمر ، يهتف : « أيها البروجي ، أطلق النفير ! » .

وانشق الهواء في اللحظة التالية بصوت النفير النحاسي . . وأرهف جواد البروجي أذنيه في كل مرة ينتفخ فيها وجه الرقيب ويحمر .

« باسم القانون . . »

ولم يسمع الوالي الكلمات التي فاه بها المدعي في جفاف ووجل . . إنما نزل صوت النفير متوعدا قاسيا على رءوس الناس كسوط من لهب . . وبينما النفير يدوي ، رفع الرائد تاسيسكو سوطه بأمر مقتضب ، فإذا بمائتي بندقية تتجه فوهاتها بحركة مرتجة نحو الفلاحين . . وتوقف الصراخ المجنون وهلة ، كأنما قد اجتثه حد السيف ، فعاد وانطلق مرة أخرى أشد صخبا . .

« إطلاق النار محظور عليهم . . لا تخف ياعماه ! . . هيا يافتيان ، إنهم لن يطلقوا النار تبا لكم ؛ إن أنعلينا أشجع منكم ! »

ثم انطلقت عدة أوامر أخرى فصرت صرير منشار علاه الصدأ . . وصدع الجنود المتراصين بتنفيذ الأمر بنفس الحركة الآلية المرتجة . . وارتفعت الفوهات في نفس اللحظة على المناكب ، وقد تلألأت أشعة الشمس ساطعة على كل منها ، وشدت الأصابع على الزناد في آن واحد ، فخرجت الطلقات دفعة واحدة ، وملأت السماء فرقعة حادة . .

وعاد الرائد يومئ بالإشارة الآلية ، فأنزل الجنود سلاحهم ، وعبوه رصاصا ، فارتفعت صرخات الخوف من جمهور الفلاحين . . وأحس الناس بأنفسهم في دوامة من الفزع تحدق بهم ، كأنما قد اجتاحت السهل عاصفة لا تبقي ولا تذر . .

وصاح بيتر ، وعيناه تخرجان من رأسه : « لقد أطلقو النار فوق رءوسنا إرهابا !.. لا تخافوا أيها الأخوة !.. اثبتوا فى أماكنكم !.. لا تولوا الأدبار أيها الرجال!.. لا تهربوا !.. إلى الأمام يا فتيان !.. اهجموا عليهم!.. لنستول على بنادقهم ورصاصهم !..

وكأنما كان انطلاق الطلقات قد نقى الأفق من الجلبة التى دنست هدوءه ، فخيم الصمت الرهيب وهلة .. والظاهر أن الرعب الذى شمل القوم قد لطف الجو وخفف من حدته ، ومن ثم لم يبق على سطح الأرض إلا فراغ مروع ، عذابا للنفوس .. ونزل صوت بيتر عليهم، فى هذا الصمت وذاك الفراغ ، مطرا ساخنا يلهب الأجساد .. وفجأة تصاعدت صرخة من جميع الحناجر ، انشقت لها السماء ، وكانت أشد هولا من ضجيج البنادق .. ثم تلاحمت الأصوات ، واضطربت واهتاجت ، كبركة انهالت عليها حبات البرد .

وهتف الوالى ، وقبعته على مؤخرة رأسه ، وقد غاضت الدماء من وجهه : « الفلاحون يهاجموننا أيها الرائد !.. ألا ترى يا جريسيسكو؟ ! »

وخيل إليه أن الجمع المجنون على وشك أن يقوم بالهجوم على الجيش.. وأخذ الفزع بنفسه ، ولكنه أحس فى نفس الوقت بكراهية شديدة نحو الرائد الذى ترك جمهرة الثائرين يفتكون به .

وطار عقل الرائد تناسيسكو ، ولم يعد يسمع شيئا وهو يتميز غيظا ، وبخاصة بسبب الوالى الذى أخذ لشدة جبنه يسوف فى الأمر ، فوضعه فى موضع اضطر فيه أن يتحمل إهانات الفلاحين ، بل وصفعاتهم .

وهتف الرائد: «أيها البروجى، لماذا لا تطلق النفير يا غبى !.. استمر يا بروجى دع الوالى يرى بنفسه أن المسألة ليست سياسة هنا !.. هؤلاء اللصوص يريدون أن يرتشفوا من دمائنا !. أرأيت ياسيادة الوالى ، أرأيت ؟ » .

وكان الجواد يلتف فى دائرة ، وقد أجفل من صرخات الفلاحين ... وشق صوت النفير الجو فى إصرار كسكين انساب فى جرح غض .

وجاء جماعة من الفلاحين ، أذهلهم الضجيج ، فهجموا على صف الجنود بهراواتهم ومناجلهم ومعاولهم ، كأنما يدفعون عن أنفسهم ذئابا ضارية .

ورفع الرائد تاسيسكو سوطه.. وانطلق منه أمر ثم أمر ، أعقبتهما صلصلة إيقاعية بسيطة . . ثم لم تعد الآذان تسمع إلا كلمة قصيرة ، على فترات متقاربة جدا ، فقرعت الأسماع فى نبرات حادة : « صوب .. اضرب » ..

وارتدت جمهرة الفلاحين ، كأنما قد تلقى كل منهم ضربة فى صدره ، ودام ذلك لحظة واحدة فقط ، خرجت فيها الطلقات دفعة واحدة ، وعادت البنادق إلى وضعها الأفقى ، والدخان ينبعث من فوهاتها .. واستمر النفير يدوى دون توقف. ولم يمت صوت الطلقات ، ولم يتلاش دوى النفير إلا حين تدفقت صيحات الألم ، وتفجرت قطرات الدماء من جمهور الفلاحين . . وتساقطت الأجساد على الأرض وهى تتلوى ألما ، كأنها ديدان قد سحقت ، فأخذت تمزق الأرض بأظافرها وأنيابها: أه . . رباه ! . لقد قتلونى يا أمى ! . أيها الأصدقاء ، لقد أصبت بالرصاص أيها الأصدقاء ! . . »

واستدار حشد الفلاحين عندئذ ، وولوا الأدبار ، بما فيهم القلة التى لم تفقد أعصابها . . لقد استولى الخوف على الجموع الزاخرة ببراثنه التى لاحصر لها إثر نيران الجنود ، فتقاطروا صوب القرية .

وأمسك الرائد تاسيسكو بعنان جواده كميت ، وعيناه متصلبتان ، وعضلات وجهه قد تقلصت قليلا . . ووقف البروجى على مقربة منه ، وقد نفخ شدقيه كنفاخ آلى ، وهو يهز النفير .. وكان حصانه ، وقد مال بجيده ، ورأسه إلى أسفل ، يقرض لقمة اللجام ، ويلفها بفقاعات من الزبد . . وعلى مدى قريب ، وقف الوالى فى وسط الطريق ، متجمد الأوصال ، زائغ البصر ، وكان يحدث المدعى العام الذى تظاهر بالإصغاء ولكنه لم يكن يعى مايقال : « يجب علينا أن نلزم الهدوء ، وألا نريق الدماء البريئة . . »

وأدرك أنه كان يتحدث عن الدم ، وأراد أن يتجنب الكلمة ، ولكن الكلمة ترددت على شفتيه ، فألهبت فمه نارا كأنها دم منبثق .

وارتفع سوط الرائد مرة أخرى ، وتعالى صوته الحاد فغطى على صوت النفير ، فأعادت البنادق نفس الحركة المرتجة ، واندفعت الطلقات فى هسيس ممتد .

وهتف الوالى ، وقد عجز عن الحركة ؛ « أيها الرائد ! . أيها الرائد ! . . إن حمام الدماء . . . »

وتوقف ، وقد أحس بمذاق الدم حريفا فى فمه ، بل إن الرائحة نفسها نخست خياشيمه . . والتفت تاسيسكو إليه ، ولكنه لم يرد بجواب ، بل ألقى عليه نظرة شابها الازدراء . . على أنه ، من جهة أخرى ، رفع عقيرته بأوامر جعلت حائط الجنود فى حركة دائبة .

واندفع الفلاحون فى جنون ، وهم يصرخون ويتدافعون ويدهمون بعضهم بعضا . . وتزاحموا على طوال الطريق ، ولكن الكثيرين منهم تفرقوا خلال الحدائق ، وساحات البيوت القائمة على مشارف القرية ، وكل منهم فى عجلة يائسة يبتغى الاختفاء ، والهرب من مسار الطلقات . . وبقيت عشرات الأجساد فى الحقل بعضها يئن ويتلوى ألما ، وبعضها رقد جثة هامدة . . ورقدت أنغلينا دون حراك فى حفرة ، ووجها إلى أعلى ، بعد أن أصيبت برصاصة فى جبهتها . . وكان طفلها يصيح بين ذراعيها الهامدتين ، ويمد يديه الصغيرتين العاريتين ، كأنما كان يحاول أن ينزع نفسه من فوق صدر أمه . . وعلى مدى غير بعيد كان هناك شيخ ينوح فوق فتى أدركته المنية ، ووجهه مفعم بالخوف . . وكان شيريلا بون ، وهو يزفر زفرات الموت ، يطلق عند كل زفرة فيضا من الدم الأسود فيعلق بلحيته وعنقه وصدره ، ويتجلط نهيرا غليظا . . ولم تبق إلا جثث الفلاحين الذين أدركتهم الوفاة ، أو كانوا على وشك الموت ، تبلل بدمائها تربة آمارا الغنية ؛ أما أولئك الذين أصيبوا بجراح طفيفة فقد تعثروا فى مشيتهم ، وسحبوا أنفسهم بين الهاربين الآخرين ، تاركين وراءهم آثاراً من الدماء . . .

« لا تولوا الأدبار أيها الإخوان ! . . اثبتوا فى أماكنكم . . ألا لعنة الله عليكم ! . . . »

وكان بيتر يصرخ بأعلى صوته ، شأنه منذ البداية .. ولكن الجماهير جذبته كذلك غصبا ، كريشة حملتها مياه سيل جارف بعد أن كسرت السد الذى يحجزها .. أما إيلياء سيرلان فقد أمسك لخورا ببندقيته غير المعبأة ، وأخذ يلهث على مقربة من بيتر ، وقد انخلع قلبه لما أصاب بيتر من يأس . . وكان نيكولاى دراجوس يتدافع يمينا وشمالا يحاول أن يقترب من بيتر ، وأن يتبادل وإياه بعض الكلام؛ ولكن الجمع المذعور انطلق بهم جميعا على غير هدى ، التماسا للنجاة من الموت الذى كان يصفر فى آذان كل منهم ..

وتدافعت فرقة من الجنود فى أعقاب الشاردين على طوال الطريق الرئيسى الذى رشق بأجداث الموتى .. وتقدم صف محكم من الرماة على هيئة تأهب ؛ فقطعوا الطريق ، من حفرة إلى حفرة . . وكان على كل جناح فصيلة من المشاة ، تمشى بينهما الرائد تاسيسكو ، وفى صحبته البروجى . . وكان الرائد يطلق الأمر بين الفينة والفينة ، فتتوقف القوات ، وتنطلق البنادق، ثم تبدأ المسيرة فى شارع القرية وبين الأكواخ التى بدت وكأن أصحابها قد هجروها .

ولحظ تاسيسكو أنه كلما أطلق النار ، تساقط عدد متفاوت من الهاربين ، وتدحرجوا على الأرض، كأنما قد تعثر الواحد منهم فى الآخر، كما لحظ أن بعضهم يحاول أن ينهض ، ولكنه لايلبث أن ينهار ، ويبقى دون حراك .. بيد أن فرار الفلاحين بعث فى نفسه الغيظ ، كأنما قد ضايقه جبنهم ، أو كأنما كان يريد منهم أن يقفوا فى وجهه فيكون ذلك مبررا له لإطلاق النار . . وكان يكيل السباب باستمرار فيما بينه وبين نفسه ، تهدئة لسورة أعصابه الثائرة ، ثم لا يلبث أن يصدر الأمر :

« قف !.. صوب !.. اضرب !.. »

وبقى الشطر الأكبر من القوات على مشارف القرية ، ينتظرون الدورية التى تمهد الطريق . . وكذلك تخلف بالولينو والمدعى العموى ، على مقربة من عربتهما ولم يعد الوالى يتذكر كيف حدثت هذه الأمور كلها ، ولكن أمضه أن الرائد

تخلى عنه كى يقتفى أثر الفلاحين ، وتركه هناك ، أضحوكة بين الناس ، رغم أنه هو صاحب الأمر والنهى . . وأخذ يدلى للمدعى العمومى بأن الرائد قد تجاوز حدوده ، وأنه ، أى بالولينو ، لن يسمح لأحد بأن ينتهك سلطاته؛ فإن إخماد الثورة مسألة دقيقة ، وتتطلب الهدوء واللباقة ، ولا تقتضى حماما من الدماء . . وكان المدعى العمومى يومئ إليه موافقا ، جاحظ العينين ، ولا يكف عن الوثب كل مرة يسمع فيها صوت إطلاق النيران .

«قف !. صوب !.. اضرب ! . » كان يصرخ بها الرائد تناسيسكو، أما الوالى فقد بقى نهبا للعذاب خارج القرية . .

وقل عدد الهاربين إلى الثلث على أكثر تقدير . . سقط بعضهم تحت وابل من الرصاص ، والتمس أكثرهم ملجأ فى شتى الساحات ، مؤثرين ساحاتهم هم حين بلغوا دورهم ، هربا من المطاردة . . حتى نيكولاى دراجوس فكر فى الاختباء حين بلغ منزل والديه ، بعد أن رأى أن من المحال أن يشق طريقه إلى بيتر وأن أى مزيد من المقاومة لا يجدى . . ولكن الموجة جرفته إلى الأمام ؛ ولم يتمكن إلا بعد أن مر بالدار ، من أن ينزع نفسه من بين الجمع ، فانتحى جانبا من الطريق . . ورأى غير غينا ، ابنة شيريلا ، فى حفرة وقد شوهت تشويها ، وغطيت بالدماء . كان جليا أنها قد وقعت ، فدهمها الآخرون تحت الأقدام . . وقفز فوق جثتها المهشمة ، يلتمس الوصول إلى ساحة المدرسة ، وكانت على مدى قريب . وما كاد يبلغ البوابة حتى دوت الطلقات متدافعة من جديد . .

« لقد خرجوا لإبادتنا جميعا ، كان الله فى عوننا ! » هتف بها فى نفسه ، وهو يشعر بسعادة طاغية ، لأنه هو نفسه قد نجا على أى حال .

ولكنه ما لبث أن أحس بطعنة محرقة فى ظهره .. لا تزيد فى ألمها على الوخزة التى أصابته فى خده ، فملأت فمه دماء حارة .

« أعتقد أننى .. » وتبادر الخاطر إلى ذهنه .. ولكنه مالبث أن توقف فجأة ، وأصبح ظلاما دامسا . . وانهار كتلة هامدة ، وقد اصطدم رأسه بالعمود ، ويده لا تزال ممتدة لتفتح البوابة . .

واستمر الجمع المتضائل يتدفق عبر الشارع ، ولكن فى صمت الآن ، فقد خاف القوم من الصياح والهتاف خشية أن تجذب أصواتهم طلقات الرصاص من الخلف ولكن صوت بيتر وحده، وقد غدا مبحوحا أجشا، لم يتوقف لحظة قط: «لاتهربوا ! إلى أين أنتم هاربون ؟.. لاتهربوا ! » .

ولكنه هو أيضا كان يجرى ، رغم أن أحداً لم يكن يدفعه الآن .. وكان يشعر بالخزى من الجرى ، ولكنه لم يستطع أن يتوقف ؛ ولكن صوته فقط هو الذى كان يحث الآخرين على الثبات ، كأنما كان يحاول بهذا أن يخفى هروبه هو . . وأدرك أن كل شيء قد انتهى ، وأحزنه أن ينتهى هكذا ، وإن كان من المحال أن ينتهى على أى نحو آخر .. ومع ذلك فقد كان لايزال يشعر بأن الناس لو كانوا لم يفزعوا من الطلقات الأولى ، فهجموا على الجنود ، لأمكنهم نزع سلاحهم ولمنعوا، من ثم ، مـلاك الأرض من العودة . . أما الآن فقد انتهى كل شيء .. وضاعت الآمال كلها ، وكانت إراقة الدماء جزاء وفاقا... أما هو ، هو الذى لم يقع قتيل الرصاص ، فسوف ينزلون به ضربا حتى الموت ، أو يلقون به فى السجون . . أما الناس فسوف يشدون إلى النير كالأنعام ، بدلا من أن يحظوا بقطعة من الأرض وهو على الأقل لايتوقع رحمة ولا شفقة، لأنه يعلم أن رفاقه أنفسهم سوف يشهدون عليه بأنه رأس المحرضين .

وهتف إيلياء سيرلان ، وكان إلى جواره، ووجهه شاحب كالشمع ، وقميصه ملوث دما ؛ « ماذا نحن فاعلون يا بيتريتسا ؟ » .

فأجاب بيتر ، دون أن ينظر إلى إيلياء ، كأنما كان خجلا من نفسه : « أنا لن أستسلم يا إيلياء ، القتل أهون عندى ! » .

فلما بلغا الفراغ أمام الخان، توقفا فى مفترق الطرق.. كان الجمع قد تشتت.. وكانت هناك شراذم قليلة لاتزال تجرى ، بعضهم على الطريق المؤدى إلى فايدى ، والآخرون صوب روجينوزا . . وبقى بيتر وحده مع إيلياء سيرلان ، الذى عاود سؤاله : « قل لى بربك يا بيتريتسا ! .. ماذا نحن فاعلون ؟ .. أنا لا أنوى أن أتركك وحدك .

وغمغم بيتر وهو يراه مغطى بالدماء : «سوف نطلب إليهم السلام يا إيلياء !.. أين جرحت يافتى ؟.. إن قميصك ينضح دماً . . . »

فأجاب الفتى وهو يطالعه ببسمة مزهوة : « ربما فى كتفى هذا ، أنا لم أعد أحس به . . . . »

« اللصوص الأوساخ . . . »

وكان بيتر يحمل بندقية معبأة ، استولى عليها من أحد خفراء الملتزم كوزما ، وكان يمسك بها من الفوهة كالهراوة ... وغلبه حزن عميق ، خنق دقات قلبه . . وخطر له أن يجرى هاربا إلى بيته ، كما فعل القوم جميعا ، ولكنه خجل من الصبي الواقف إلى جواره ، فقد كان إيمانه به لا تحده حدود . .

وهتف إيلياء فرحا : « لنقف إذن يا بيتريتسا !. لنظهر لهم أننا نطلب السلام ؛ وأننا لا نريد أن نقتل دون جدوى ! » .

ونزع قميصه الممزق الذى وخطه الدم، فوصله بفوهة البندقية التى كان يتيه بها فخرا ، ورفعه عاليا ، علامة على السلام ، حتى يراها الجنود وهم لا يزالون على مسافة بعيدة . . وكانت البندقية ثقيلة على ساعده المجروح ! واهتزت الفوهة بالقميص الموصول بها « كأنما قد حركتها الرياح » .

وبقيا هكذا زمنا . . وخيم السكون حواليهما . . ولم ينبد شيء بحركة . . كانت القرية شبه ميتة .. وكان باب الخان مغلقا . وغمغم بيتر ، وكز بأسنانه ، فى انتظار وقوع معجزة لا يدرى كنهها . . وإذا به يسمع صوت العجوز أبونا ينبعث من المنحدر ، فى الحارة القريبة من منزل أيوجا ، وكان متبرما ساخطا : « سع ... سع . . سع يا فراخ !..

قال إيلياء ، وقد أسعده أن يسمع صوت إنسان فى الصمت الأليم : « أسمعت يا بيتريتسا ، الأم أبونا تنادى على فراخها الآن رغم كل شيء ! » .

فمغم بيتر فى غباء : « كأنما كان هناك ما يشغلها غير هذا !! » .

وبعد فترة من الصمت ، لم يقطعه إلا نداء العجوز على فراخها ، أخذ الجنود يقتربون ، وفى وسطهم الرائد على صهوة الجواد ... وتطلع بيتر إليهم فى ريبة كأنما كان يحسب حساب كل خطوة يخطونها . . وفجأة تناهى إلى الأسماع صوت النفير ، كما لو كان تحذيرا ، ومالبث بيتر أن سمع شذرات من الأمر الصادر : « قف ! .. صوب !.. اضرب !.. »

وأخذ إيلياء يلوح بالراية البيضاء بقوة أشد ، حتى يضمن أن يراها الجنود... ولكن صلصة إطلاق النيران كانت تصم الآذان أكثر من ذى قبل ، .. وسقط القميص الدامى ، هو والبندقية ، كالعلم الذى سقط عن ساريته . . وتهاوى إيلياء على على الأرض لاهثا : « رباه !! »

وأصيب بيتر كذلك برصاصتين ، ولكنه لم يشعر بهما .

« حتى السلام الذى نعرضه عليهم لايرضون به ، قالها فى نفسه ، وهو يشعر بالحنق لأن الجنود أطلقوا النار على رمز السلام . قال : « إذن ... »

وواصل الجنود تقدمهم على نحو آلى .. وكأنما قد تذكر بيتر عندئذ فقط أن فى يده بندقية ، فوضعها على منكبه ، وأطلق النار متحمسا . . وانطلقت البندقية ضعيفة واهنة..وفى طرفةعين، صدر الأمر منجديد: «قف!..صوب !..اضرب»

وقبل أن تبلغ السمع الكلمة الأخيرة ، صلصلت الطلقات ، وبقى بيتر واقفا ، وبندقيته الفارغة فى يده ، وهو يقول متحديا : « هيا ، يا أولاد الزانية ! .. »

وسقط الرجل أولا على ركبتية ، ثم ظهرت بقع الدماء على قميصه . .

وهتف الرائد غاضبا : « اضرب » .. اضرب ! .. « اضرب » .. »

وقعقعت الطلقات ، كشخشيخة طفل تهتز من تلقاء نفسها . . وشعر بيتر برأسه الثقيل ثقل الرصاص ، يتدلى على صدره ، ثم إذا به لا يتمكن من الاحتفاظ بتوازنه ، فتدحرج متألما ، وهو ينفث نفثة أخيرة ملؤها الغضب : « خنازير .. ! »

أما الأم أيونا فأخذت ، وهي في وسط الشارع ، تنادي على فراخها وهي أشد لهفة كلما ازداد اقتراب الطلقات .

واستمرت الدجاجات تلتقط الحب من الحفرة المجاورة،غير عابئة بنداءاتها.. وخشيت العجوز على فراخها ، فلم تتوقف عن المناداة عليها،وهي تلقي بنظرة عابسة بين الحين والحين صوب الخان.حيث تردد صوت إطلاق النار: «تعالى يادجاجاتي !.. لعنة الله عليكم وعلى رصاصكم !.. »

وإذا بها فجأة تلف حول نفسها ، وتزمجر غاضبة : « عليكم لعنة الله... »
وتهاوت كتلة واحدة . وهي تتلوى وتحرك شفتيها دون صوت .
وجاءت العربة التي بها الوالي والمدعي العمومي،وقد حف بها بروجي الكتيبة الذي أمره الرائد بالعودة ليلحق بالشطر الرئيسي من القوات .. وتوقفت العربة في الفراغ الممتد أمام الخان ، وكان الجنود يحيطون به شاهري السلاح .

وقال بالولينو متلعثما ، وقد انخلع قلبه رعبا لمرأى القتلى والجرحى الذين صادفهم في الطريق : « أرجوك أيها الرائد ، أنا كنت أظن ... »

واقترب الرائد تاسيسكو من العربة ، ممتطيا صهوة جواده ، ويده على جبهته تحية ، وقال منتصرا : « يشرفني ، يا سيدي ، أن أقرر أن الأمن والسلام قد عادا إلى آمارا . »

ورأى بالولينو ، على مدى بضع خطوات ، جثة إيلياء سيرلان عارية إلى خصرها ، كما رأى جثة بيتر وقد مزقها الرصاص ، وبين هذه وتلك انتشر القميص الأبيض،علما قد تهاوى..وهمهم خائفا وهو يشيح برأسه الناحية الأخرى : «نعم.. الأمن والسلام.. أحسنت أيها الرائد!.. شكرا لك! »

الفصل الثاني عشر

الغروب

— ١ —

وانتظر جريجور فى كوستستى وهو نافد الصبر حتى الظهيرة ، وأخذ يصغى إلى كل الحكايات التى يقصونها عن الأحداث التى وقعت فى آمارا ، وعن طريقة وفاة أبيه ، وعن طريق وفاة ناديتا . . واستمع إلى هذا كله هادئا ، ودون أن يذرف دمعا ، الأمر الذى دهش له تيتو هيرديليا سرآ ، عجباً من رباطة جأشه!.

وأخيرا قال أيوجا الشاب : لابد أن أخبر جوجو » .

وانطلق إلى مكتب البريد ، لايصحبه غير تيتو . . وشعر برغبة فى التخلص من الآخرين الذين جاءوا له بأخبار السوء هذه كلها ، كأنما كانوا أعداء ألداء له ، وكان هو فى حاجة ماسة إلى العزلة والسكينة — وخرجا من مكتب البريد ، فقال يحدث هيرديليا ، فى هدوء وأسى ، كأنما كان يحدث ذات نفسه : « ما كنت أتخيل أبداً أن الإنسان يستطيع أن يتحمل كل هذا العناء ! » .

وأخيرا ، بعد الغداء ، أمر ازباسيسكو أن يأتى بعربة تحملهم إلى آمارا . . وبذل ازباسيسكو جهدا ليستجمع شتات شجاعته ، ولما رأى أن جريجور لايميل إلى الإصغاء إليه ، انطلق فى حديث هامس مع السائق عن الفظائع التى ارتكبها الفلاحون الثائرون . . وكان السائق يخشى كل الخشية أن تكون هذه الرحلة هى نهاية حياته ؛ ولهذا ندم على أنه خضع لإغراء المبلغ الكبير الذى عرض عليه ليحملهم إلى حيث يريدون .

ولما بلغوا فلادوتا ، أمام بيت الدائرة المحترق ، كان الباب مسدودا بجمهور غفير من الفلاحين القابعين على الأرض ، قام على حراستهم جنود شاكو الحراب . وجاء جندى إلى العربة وقال :

« عودوا أدراجكم ! . . عودوا أدراجكم ! . . لايمكنكم المرور من هنا! »

وذهبت كل محاولاتهم لإقناعه سدى .. واضطر جريجور أن ينزل من العربة، وأن يذهب لمقابلة الضابط حتى أذنوا له بالمضى فى المسير . . واستطاع من مسافة بعيدة أن يسمع صوت العقيد المتقاعد ستيفانسكو وهو يعنف الفلاحين : « من منكم الذى أشعل النار فى البيت ياسفلة ؟ ! . ألاتريدون أن تتكلموا ؟ . هيا اعترفوا ، وإلا ضربتكم ضربا يقضى عليكم ! ..هيا اعترفوا ، من منكم سرق ؟ . . »

وتعرف العقيد على جريجور ، فأخذ يشكو مر الشكوى ، ويشير إلى الأطلال: أترى يا سيدى ما تبقى لى بعد حياة من الكفاح ؟ . . أرأيت إلى ما فعله هؤلاء اللصوص ؟ . . ألا يستحقون جميعا الضرب بالرصاص دون شفقة ، فهم أنفسهم لم تأخذهم شفقة بشيبتى ! . . كنت أظن أنهم لن ينهبوا كل شىء ، ولهذا أسرعت بالعودة — فانظر ماذا وجدت ! »

وارتجف صوته أسى وغضبا .

وهتف الملازم ، بعد أن أفرغ الشيخ ستيفانسكو آلامه إلى جريجور : « افسحوا الطريق ! . . دعوا العربة تمر ! »

وحاول الفلاحون النهوض ليفسحوا الطريق ، ولكن الضابط زأر فيهم ، وقد تملكه الخوف : « اركعوا . . . اركعوا . . اضرب هذا الرجل يا عسكرى ! . . تحرك يا عسكرى ! . . . »

وانطلقت العربة فى طريقها ، مخترقة بابأروجا وجليجانو حتى بلغت ليسبيزى فتوقفت وقتا أطول . . وكان جريجور يفرق من مشاهدة جثمان نادينا أكثر من جثمان أبيه ؛ وإن لم يعترف بهذا فيما بينه وبين نفسه فهو لم يرها منذ ليلة الحفل. وآلم فؤاده أن يفكر فيها كما كانت إذ ذاك ، تتأود أعطافها فى لباس الغجر . هكذا علقت هى بذاكرته .. أما الآن ، وهو واقف فى الكنيسة أمام المذبح الذى رقد عليه جثمانها البارد أياما عديدة ، وقد أسدلت عليه ملاءة عادية ، فقد عادت هذه الصورة تخطر فى باله مرة أخرى ، فرآها دافئة ، جميلة ، رائعة ، كأنما لم يفترق

عنها لحظة . . ولم يرفع طرف الملاءة مخافة أن يحطم للأبد هذه الصورة العزيزة على نفسه ، والتي منحته عذاب الحب كله وبهجته . . وتلبث وقتا طويلا وحده ، وهو جالس على رأس المذبح ، ورأسه بين يديه . . وكانت هناك بضعة كتب للصلاة على الكرسي وكانت بالية جداً ، ولها غطاء خشبي ، وصفحاتها متسخة . وغص من رائحة الموت الثقيلة، ولكنه استطاع أن يتحملها . . وانطلق به الفكر على غير هدى . . ورأى أن من واجبه ، بل ومن حقه ، أن يعنى بجنازتها ؛ ذلك أن طلاقهما لم يسجل بعد ، وإن كان قد تم إشهاره . . حقا ، لقد قدر عليها أن تموت في الريف ، ولعل هذا عقاب أو سخرية من الأقدار على أية حال ؛ فقد كانت هي تمقت الريف مقتا شديدا . . وجال بخاطره أنه لو أن هذا كله قد وقع بعد اسبوعين فقط ، لكان هو مجرد شخص غريب عليها ، ليس له حتى أن يقف إلى جوار جثمانها .

وكان تيتو هيرديليا قد ترك الكنيسة قبل زمن طويل ، لأنه لم يطق جو المكان . . وأخبره ضابط بالخارج بأن أحداثا رهيبة لابد قد وقعت في آمارا ، لأن الطلقات تترامى إلى السمع حتى من هذا البعد البعيد . . وعلم جريجور بهذا بعد ذلك ولكنه آثر أن يمضي في المسير ، ولكن الضابط أوقفه ، لأنه سبق أن أرسل دورية تستطلع الحال ؛ ولا يستطيع هو أن يأذن لهم بالمرور قبل أن تعود وإلا تعرض الضابط لجزاء شديد . . ولم يتمكنوا من المسيرة نحو آمارا إلا بعد العصر ، ولكن جريجور أبى أن يرجع إلى الكنيسة .

وكانت أجداث القتلى راقدة حيث سقطت على أطراف قرية آمارا ، وفي حواريها . . وكان في وسع المرء أن يرى ، هنا وهناك ، رجلا يحتضر في أنين ، أو يتلوى ألما . . وكان السائق لا يكف عن الإشارة بسوطه : « انظروا ها هو قتيل آخر ! . . وهنا . . الظاهر أن هذا الرجل مازال يتنفس ، أرأيتم ؟ . . » .

وتعرف ازباسيسكو على شيربلابون ، ثم على نيكولاى دراجوس وصاح تيتو هيرديليا في فزع : « لا شك عندي في أن معركة رهيبة قد وقعت هنا ! » .

وبقي جريجور وحده صامتا ، يرمي ببصره إلى الأمام دون أن يرى شيئا . . وأوقفتهم دورية أمام الكنيسة ، وأوقفتهم دورية أخرى أمام الخان . . وعندما

بلغوا بيت الدائرة ، تركوا العربة فى الطريق بالخارج . . ومشى جريجور وتيتو وازباسيسكو إلى الداخل ، تحت القبو الكبير الذى به برج الحمام ، وهناك كانت الطيور البيضاء تسجع وتهدل فى حنين وشوق . . وكانت الممرات خربة محطمة كأنما قد مرت بها قطعان من الماشية الوحشية . . وكان الصمت من الشدة بحيث تناهى إلى الآذان صوت السائق وهو يتثاءب تثاؤبا طويلا ، ثم جلجلة أجراس الجياد ، وقد أخذ واحد منها ينفض عن نفسه السأم . . وكانت جدران الفيلا التى لم تسقط بعد قائمة بجللها السوداء فى سماء الغروب البنفسجية .

وتطلع جريجور بعناية حواليه ، شأن امرؤ فى أرض غريبة ، وأدار رأسه إلى يمين وشمال ، ولكنه لم يتوقف إلى جانب الأطلال ، وسرعان ما ظهر المشرف ليونتى بومبو ، خائفا وجلا وقد عجز عن أن يصدق عينيه ؟ على حين خرجت الطباخة ، بروفيرا ، من البيت القديم ، وأخذت تولول فى صوت غليظ أجش ، وهرعت تقبل يد جريجور ، وتملؤها عبرات . . وطرح أيوجا الشاب بضعة أسئلة وأصغى إلى الإجابة عنها فى جمود ، كأنما هو قد استمع إليها من قبل ، أو كأنما الأمر لم يكن يهمه فى كثير .

وعلى شرفة البيت القديم وقف النقيب لا شى جرادينا رو ، وكان قد تخلف فى القرية مع فرقته حفاظا على الأرض ، وتأهبا لأى طارىء . . وأعرب النقيب عن خالص عزائه لجريجور فى عبارات متكلفة مصطنعة ، ثم قال إن الوالى بانوليزو والرائد تاسيسكو قد صليا على جثمان الفقيد ميرون أيوجا ، ثم انطلقا بعد ذلك إلى روجينوزا ، وأن من المنتظر أن يعودا فى الغد . . وشكره جريجور فى عبارات متكلفة كذلك ، رغم خجله منها وهو يفوه بها ، وإذا به يقطع العبارة الأخيرة ، ويدخل إلى بيته بغتة .

وبدا والده نائما ؛ والشمعة قائمة على رأسه . . وتطلع جريجور إليه دقائق معدودات ، وركع على ركبته كأنما كان فى صلاة ، ومكث هكذا بعض الوقت ، ثم مد عنقه أخيرا ليقبل اليد الباردة الشاحبة بأظافرها الزرقاء . . وعندئذ فاضت دموعه مدرارا ، فوقعت على يدى الفقيد المعقوفتين ، فبدت رقعا زيتية لامعة . . ونهض جريجور ، وأخرج منديله ليمسح يدى الفقيد ، ولكنه قبل أن يبسط المنديل

غير رأيه ، ودفن وجهه فيه . . وتمالك نفسه بعد عدة دقائق ، ثم ذهب إلى الغرفة الأخرى ، وفى إثره الآخرون ، فيما عدا النقيب الذى رأى أن من الفطنة أن ينسحب احتراما لحزنه .

قال جريجور فى صوت مرتج ، ولكن بهدوء ، كأنما قد أرجعه البكاء إلى صوابه : « أرى أن تذهب إلى كوسنتى فوراً يا ليوتى ! » . .

وتولى المشرف مهمة إحضار نعشين، وإحضار اللوازم التى يتطلبها الجناز هذا المساء بالذات . . ورئى أن يترك أحد النعشين فى لسبيزى ، وهناك يتولى القس وضع جثمان ناديتا فيه ، ثم ينقل إلى آمارا فى اليوم التالى . . واعتبر جريجور هذه مسألة هامة ، بل وفى غاية الأهمية ، لأن إكرام الميت دفنه .

وذهب جريجور مع تيتو فى صبيحة اليوم التالى ، وكان يوم اثنين ، ليرى الدمار رأى العين ، سواء فى آمارا أم فى روجينوزا . . وأخبرهما السائق إخيم ، فى أثناء المسير ، بعدد الذين أصيبوا فى المعركة التى وقعت على مشارف القرية ، ومن كانوا .

والتقوا فى روجينوزا بالعربة التى تحمل الوالى بالولينو ، وكان قد قضى ليلته مع المدعى العمومى جريسيسكو ، فى فيلا جيتسا ، من بلدة إيزفورو التى نجت من غضب الفلاحين بأعجوبة . . وكانت مواساة القوم لهطويلة مثيرة للبكاء . . وما لبث بالولينو أن قص عليهم متحمسا ما بذله من أوجه النشاط فى سبيل استتباب السلام . . كان متأثراً من بطولته هو ، ومعجبا بها غاية الإعجاب ، مصوراً لهم فى ألوان زاهية المخاطر الهائلة التى هددت حياته ، وأبرز خاصة المخاطر الطريفة منها . . وهنأ نفسه على نجاحه فى إعادة الهدوء بهذه السرعة ، ودون إراقة الدماء تقريباً .

وتأوه منفعلا : « مسكينة حبيبتى ميلانى ! . . لو علمت هى بما مر بى ! . . رباطة جأشى وحدها ، ولباقتى المعروفة هى التى استطاعت أن تأتى بهذه المعجزة يا عزيزى جريجوريتسا ! . . ولكن مهمتى لم تنته بعد . . لقد عالجنا فقط العبء

الأكبر ، ولكن لا يكفى أن نشن حملة على الشر ، بل يجب أن نقتلعه من جذوره ، حتى لا تدب فيه الحياة مرة أخرى ! . . ألست أنا على صواب فى هذا الرأى ياسيادة المدعى ؟ ! » .

— ٢ —

كان الرائد تناسيسكو قد عاد إلى آمارا فى الهزيع الأخير من الليل ، وليس فى صحبته غير ياوره وبروجى الكتيبة . . كان فى مقدوره أن يبيت ليلته فى إيزفورو كذلك ، ولكنه أراد أن يبرهن للوالى على أن الأمن كان مستتباً تماما بحيث يستطيع أن يسافر دون حراسة عبر القرى الثائرة . . وكان يريد ، علاوة على ذلك ، أن يجرى التحقيقات الأوليه فى آمارا بنفسه ، وذلك لكونها وكر الثورة كلها .

وكان أيون برافيلا ينتظر من الصباح الباكر فى ساحة ديوان القرية ، وفرائصه ترتعد . . وكان يتبادل الرأى مع منادى القرية بشأن الكاتب شيربيتا دوميتريسكو الذى اختبأ فى مكان ما قبل يومين خوفا من الناس ؛ فربما كان أولو الأمر فى حاجة إليه الآن . .

وتساءل الرائد عندما وقع بصره على العمدة : « أأنت عمدة هؤلاء اللصوص ؟ » .

ولم يتمكن برافيلا من الكلام حتى لطمه تناسيسكو على رأسه لطمتين جعلتاه يرى النجوم الحمراء . وهتف الرائد : « سأريكم ماذا يحدث فى الثورة ؟ . . وسأعمل على أن تتذكروا هذا ، كلكم جميعا ! » .

وكان فى الليلة الماضية قد أصدر أمراً بأن تترك جثث الموتى حيث كانت لتكون عبرة للأحياء . . وجاء الآن فأمر العمدة المسكين أن يتحقق من هوية أصحاب الجثث تحت إمرة رقيب من الجيش ، على أن تحمل الجثث بعد ذلك إلى المقبرة ، ثم تدفن فى وقت سيقرره فيما بعد . . وعهد إلى النقيب لاشى جرادينارو أن يتولى مهمة إحضار جميع أهل القرية دون استثناء ، بما فى ذلك النساء والأطفال ، إلى ساحة ديوان القرية وحديقته لإجراء التحقيق على وجه السرعة . .

وبعدئذ رسم هو والياور والملازم الحي خطة منظمة للعمل ، الغرض منها التعرف فوراً على قتلة نادينا وميرون أيوجا ، وعلى المجرمين الذى بتروا ابن بلاتامونو ، وعلى الذين أضرموا الحرائق فى البيوت ، والذين ضربوا الشرطة ونزعوا سلاحهم ، والذين سرقوا ، والذين شاركوا أخيراً فى إهانة قوات الجيش .

وقال الرائد تناسيسكو مقاطعا نفسه وقد نفد صبره : « ويجب قبل كل شيء أن نرسل أحداً إلى ليسبيزى وإلى جليجانو ليأتى بكبار اللصوص من هناك كذلك ، حتى نتولى أمرهم جميعاً ، ونحا كمهم هم وبجرى آمازا ! » .

وقدم بعد ذلك بفترة المفتش كوربولينو ، وكان قد حضر تعزيزا لقوة الشرطة وسر الرائد لرؤيته ، فقد كان فى حاجة إليهم ، لأنهم على معرفة بالناس وبالولاية ، إذ ما من حد فى هذه القرية الآثمة يوحى بالثقة .. وإذا كان القس الشيخ نفسه قد اشترك مع الثوار ، وقتل رميا بالرصاص معهم ، فإلى من إذن يستطيع أن يولى وجهه ؟ ! والحق أن الأب نيكوديم قد ذهب إلى الشريف ميرون ليقرأ الصلاة على روحه ، ولكنه فى أثناء عودته من بيت الدائرة ، وصليبه ملتف فى جلبابه الكهنوتى أصيب برصاصة شاردة ، فوقع قتيلا على قارعة الطريق قرب بيته . !

ووجد الرقيب زوجه ديدينا فى بيته المنهوب ، وكانت أشد هزالا عن ذى قبل ، ولكنها كانت فى غاية السعادة .. وتعانق الزوجان . بينما هى تبكى وتحكى له كيف أسعدها الحظ بالبقاء مع الأم أيونا التى أخفتها فى غرفة بأعلى الدار ، وأطعمتها وعنيت بأمرها ، ولولا هذا لكان الفلاحون قد عثروا عليها . وذبحوها على وجه اليقين .. وأطلق الرقيب كذلك بعض العبرات ، ثم أسرع يؤدى واجبه فى ديوان القرية .

وبدأ التحقيق حوالى الساعة التاسعة ، عندما وصلت العربة وعليها الوالى والمدعى العمومى .. وارتفع عويل الضحايا وصيحاتهم من بين جمع الفلاحين الذين ملئوا الطريق وفناء ديوان القرية وحديقته ، وترامت إلى الأسماع حتى بلغت الخان .. وحاصر الجنود القوم حتى لا يفلت أحـــد منهم قبل إجراء التحقيق معه ..

ولكن لم تتأت نتائج ذات بال حتى ذلك الحين . . كانت هناك فرقتان من الجنود الذين زودوا بالهراوات والعصى يضربون بها الفلاحين دون تمييز ، كل فرقة بدورها حتى لا يشتد التعب بها . . وكان الفلاحون يصرخون طالبين الرحمة ، ولكنهم أبوا أن يعترفوا بالجريمة ، أو أن يفشوا أسماء كبار المجرمين . . أما الرقيب بونجيو فقد كان له الفضل فى اكتشاف أسماء السبعة الذين ضربوا الشرطة ونزعوا سلاحهم ، وكان من بينهم سيرافيم موجوس وتريفون غوغو .

وهتف الرائد وعيناه تتقدان نارا : « لماذا ضربت الرقيب أيها الوغد ؟ . . لقد تجاسرت على رفع يدك فى وجهه يا سافل ! ».

« طيب . . » غمغم بها سيرافيم موجوس بهدوء ، وهو ينظر فى عينى الرقيب مباشرة . فقد أدرك ألا فائدة من أى جواب

ولهث تناسيسكو ، وهجم عليه بسوطه حتى سالت دماؤه : « لم ضربته يا منحط لماذا ؟ . . لماذا ؟ . . لماذا ؟ . »

وتحمل سيرافيم موجوس الضربات دون أن تطرف له عين ، أو يخرج منه صوت . . واستشاط الرائد غضبا لمسلكه ، واعتبره وقاحة منه .

وهتف تناسيسكو وقد كلت يده : « أيها العريف ! . . مائة جلده لهذا اللص . فورا !. وبعد ذلك أوثقه بالأغلال ! » .

ولم يكن تريفون غوغو موجودا . . وقال قائل إن الشريف الشيخ قد أطلق عليه الرصاص ، وإنه الآن قعيد الفراش ببيته . . وجىء به محمولا على وجه السرعة ، ووجهه كله عبارة عن جرح واحد أسود ، فرقد على الأرض وهو يئن .

وصرخ الرائد وهو يرفسه فى ضلوعه بأخمص حذائه : « قف ! . . انهض يا وغد ! »

ونهض الفلاح . . كانت عيناه متورمتان مغمضتان ، وكان يترنح كأنما سيخر متهاويا فى أية لحظة .

وسأل الضابط . « لماذا أطلق الشريف الرصاص عليك ، يا لص ؟ . . لقد رفعت يدك عليه ، أليس كذلك ؟ . . لقد كنت أنت على رأس القتلة ؟ » .

وأن تريفون أنينا لا يبين .

« ولماذا نزعت البندقية من يد الرقيب ؟ . ولماذا ضربته ؟ . . هيا يا لص ، اعترف ! . »

وجلد رأس الفلاح بسوطه ، فانبثق فيها جراح جديدة . . وأطلق الرجل صرخة مداوية ، كأنما قد نزع عنه لحمه ، وتهاوى كتلة هامدة . . واستشاط الرائد غضبا ، فداس عليه بأقدامه ، وهو لا يكف عن الصراخ : « وغد » و « لص » . . وإذا به يتراجع فجأة بضع خطوات ، ويأمر في صوت بارد قاطع : « أيها الرقيب » . نعم ، أنت ! . . خذ ستة رجال ! . واذهب بهذا الخنزير إلى ظهر الحديقة ! . وارمه بالرصاص هناك . . أفهمت أيها الرقيب ! . »

« نعم ياسيدى ! . حاضر ياسيدى ! . » أجاب بها الرقيب البليه أسمر البشرة وهو يضرب كعبيه كأنما قد انتابته رعدة .

وأمسك الجنود بتريفون ، وجروه بين الجمع الغفير من الفلاحين . وتوسل إليهم تريفون ، من شدة رغبته في الحيـــاة ، وهو يئن في ألم : « سامحونى . . سامحونى ! . . . »

واختفى والجنود . . وتخلف في أثرهم صمت مرير ، لم تقطعه غير فرقعة السوط يرف تباعا . . ثم انطلق قصف البنادق من مؤخرة الحديقة ، ودوى برهة قصيرة دون أن يتردد له صدى .

وصاح الرائد فجأة ، ممزقا حبل السكون الذى كدره صوت الطلقات : « هات المجموعة التالية ! . كيف تجاسرتم على وضع أيديكم القذرة على رجال الشرطة ؟ »

وأخذ الفلاحون يقسمون وينوحون بأنهم لم يكونوا حاضرين حين حدث هذا كله . . وكان الرائد تاسيسكو يتنفس لاهثا . . فقد ثقل وزنه في العهد الأخير

وبرز كرشه بعض الشىء ، ولقد أخبره طبيب بأن قلبه شحيم ، وأيا كان الأمر فهو سريع التعب .. وأمر بالمجرمين الخمسة الباقين أن يتلقى كل منهم مائة جلدة ، تجنبا لتعريض صحته للخطر مع هذه الطغمة من الناس .. ووضع الأمر موضع التنفيذ وأخذ الفلاحون الخمسة يتنافس الواحد منهم الآخر فى أيهم أعلى صراخا ، كلما انهالت الضربات عليهم .. وعندئذ توقفت عربة الوالى فى الشارع .

واستمر الضرب ، وأخذ أحد الجنود يعد الجلدات واحدة واحدة بصوت عال تلافيا للخطأ ، فتقدم الرائد تاسيسكو يشكو للوالى وللمدعى العمومى عناد هؤلاء الأوغاد الذين يأبون الاعتراف بالجريمة ، أو إفشاء أسماء المجرمين الأساسيين . . وضاق بالولينو ذرعا بصرخات الفلاحين . . فلما أعلن العريف الجلدة المائة ، وأغلق على الفلاحين باب المكتب . حاول الوالى أن يستعيد رباطة جأشه ، فهتف فى الجمع ، الذين سجدوا على الأرض أمامه ، وقال إن جرائمهم ملأت العالم كله رعبا ، وألا شىء غير الندم والاعتراف يلطف من الجزاء المحتوم .. وكأنما هبط على الجماعة أمر علوى ، فارتفعت مئات الرءوس فى لحظة وحدة ، كأنما أراد أصحابها أن ينهضوا ، وإذا بغمغمة طويلة تتردد ، كأنها صـــدى عاصفة تحتضر ، قالوا : « سامحونا !. . »

وتصلب بالولينو هلعا ، فقد رأى فى حركة الجمع تهديدا بثورة جديدة . . وتملك المدعى والرائد والضباط جميعا ، بل والجنود أيضا نفس الهلع الفجائى . . أما الرقيب فقد لزم وحده الهدوء ، وهب فى القوم على عجل : « اركعو !.. اركعوا !. إلى الأرض !. اركعوا !. »

وتلقف لفيف آخر من الجنود أمر الرقيب على الفور ، وأخذوا يلهبون الظهور المنحنية عن يمين وشمال ، وهم يكررون فى خوف : « اركعوا . . اركعوا .. »

ولم يعد الوالى يفكر فى إلقاء النصائح والتحذيرات ، بل مضى إلى التحقيق مع تودر ستريمبو ، وهو من اتهمه بونجيو بمقتل نادينا .

قال المدعى العمومى : « قل لنا كيف قتلتها ؟ »

فقال الفلاح وهو ممتقع الوجه : « أنا لم أقتل أحدا يا سيدى . أنا برىء ! »

« من الذي قتلها إذن ؟ »

« أنا لا أعرف يا سيدى !. ربما كان بيتريتسا ، بن سماراندا ، لأنه دخل إلى البيت قبلى ، ولكنى لم أقتلها . »

فقال المدعى العام بهدوء : « نادوا على بيتريتسا بن سماراندا . . »

فأجابته أصوات عدة : « لقد مات !.. مات !.. »

وغلى الغضب فى نفس الرائد تناسيسكو ، ولم يستطع أن يتمالك زمام نفسه . . هذا الفلاح داهية خبيث . . ولا مناص من تأديبه . .

« لماذا لا تعترف ياوغد !.. لماذا قتلتها ياشيطان !.. لماذا اعتديت عليها وانتهكت حرمتها ؟. أكنت تتحرق إلى جسد سيدة جميلة أيها السافل الدنىء ! »

وصرخ تودر ستريمبو كما تصرخ المرأة ، وهو يدفع عن وجهه لسعة السوط : « ياربى . . يارب ! . . لم أكن أنا ياحضرة الرائد ، سامحنى . . أنا برىء !! »

ومرت فى تلك اللحظة عربة نقل تجرها ثيران أربعة ، وكانت تحمل النعش البسيط الذى يضم رفات نادينا . . وكان وراءه القس الذى جاء من ليسبيزى وهو فى أحسن حلة عنده ، والصليب فى إحدى يديه ، والمبخرة فى اليد الأخرى . . وأخذ المنشد العجوز يترنم بالصلاة على روح الفقيدة ، وهو يتطلع فى فضول إلى القوم الراكعين الذين ملئوا الساحة ، وخاصة إلى الرجال الوقوف من المحققين .

وخيم الصمت والعربة تمر . . وحسر كل واحد عن رأسه ، وغمغم بالولينو فى سخط وأسى : « يا للمرأة المسكينة ! . . يالها من جريمة بشعة ! »

وصاح المدعى العمومى فى تودر ستريمبو ، بعد أن سمع صوت الوالى وهو يصرخ غاضبا ، قائلا : ماذا فعلت بك هذه السيدة الكريمة الجميلة حتى أقدمت على قتلها أيها المخبول .. »

فقال الفلاح فى عناد : « أنا لم أقتلها ! »

ووصلت الساعة جماعة الفلاحين من ليسبيزى فى رفقة الجنود .. فالتفت المدعى العمومى جريسيسكو من فوره إلى الوافدين الجدد ، والأمل يراوده فى أن يمسك بتلابيب قاتل السيدة نادينا ، فطلب إليهم أن يدلوا إليه بالحقيقة ، لأن الجريمة وقعت فى قريتهم ، وهم لاشك يعرفون من اقترفها .. وتكلمت أيلينا على الفور ، قالت : « تودر هو الذى قتل السيدة ، ياسيدى ، بعد أن نال مأربه منها ! .. لقد رأيته يدخل إلى البيت ، وسمعته بعد ذلك يتفاخر بذلك ، ويطلب إلى ابن سبيرلان أن يدخل .. ماتى دولمانو شاهد على ما أقول .. فقد كان هناك مع بيتريتسا بن سماراندا حين أخرجت السيدة من البيت ، جثة هامدة ، وذلك بعد أن رأيت بافل تونسو يشعل النار فى السيارة .. »

وأصر تودر ستريمبو ، ولكن دون أن ينظر إلى أيلينا ! (أنا لم أقتلها ! . والفتاة تقص أكاذيب سخيفة !)

فقال ماتى دولمانو زاجرا ! (الفتاة غير كاذبة ياتودر .. لماذا لا تعترف بما اقترفت يداك ؟ . لماذا تريد أن تلق اللوم على الآخرين ؟..)

فغمغم تودر ! (لو كنت أنا فعلتها ، فلماذا لا تخبرهم أنت كيف شققت رأس الألمانى ياماتى ؟ . .)

فقال ماتى بوضوح ودون خوف ! (أنا لن أخفى شيئاً حين يأتى دورى ، ويحقق الأشراف معى .)

وأصغى المدعى إليهما راضيا ، وهو يرمى بنظرة من آن إلى آن إلى الوالى وإلى الرائد ، ليرى إن كانا قد لحظا كيف سار فى التحقيق ببراعة ، وكيف نجح فى دفع الفلاحين إلى الكلام .

قال يحدث بالولينو . (لقد مر على كثير من الأشرار ، ولكنى لم أصادف أدنأ ولا أسفل من هذا الوغد ..)

وجعل الرائد تناسيسكو يفتل شاربه ، فى محاولة ليضبط جماح نفسه ، فقد خشي أن ينفجر له شريان من شدة التوتر العصبي .. ونفث عن مشاعره فأعمل قبضتيه وسوطه فى تودر ستريمبو . حتى سالت دماؤه ، ثم طرحه على الأرض ، وداسه بأقدامه ، ولما كل أمر عريفا بمواصلة الضرب بالعصى حتى تتكسر عظام الفلاح .. وتحولت صرخات المريسة إلى أنين أخذ يضعف شيئا فشيئا حتى استحال إلى خوار .

وهتف الرائد أخيراً . (أيها الرقيب .. خذه إلى ... ... فى مؤخرة الساحة . أطلق عليه الرصاص .. الآن ، بسرعة ، بسرعة ..)

واستيقظ ستريمبو من غيبوبته إثر هذا الأمر ، كأنما قد ألقى عليه ماء بارد ، فجرجر نفسه تحت قدمى الضابط ، وصاح ، (سامحنى ياحضرة الرائد .. أطمالى سيصبحون يتامى .. الرحمة ..)

وصرخ تناسيسكو ، وابتعد عن ملمس الفلاح . (خذه أيها الرقيب .. هيا ، اقبض عليه ..)

وظهر تيتو هيرديليا فى الفترة التى وقعت قبل إطلاق النار .. وشعر أن من الخير ألا يزعج جريجور بوجوده بعد أن رآه مشغولا بالاستعدادات التى تتخذ للجناز .. فلما سمع الطلقات من مؤخرة الساحة ، سأل بالولينو عنها فى صوت خفيض .. وأراد الوالى أن يظهر كفايته ، فأجاب بصفة عابرة (آه . لا شيء .. إنهم يعدمون قاتل السيدة نادينا ..)

ولما اعترف ماتى دولمانو بجرمه أمر جريسيسكو بإلقاء القبض عليه تمهيدا لمحاكمته .. واعترض الرائد على هذا . قال (معذرة ياسيد . أرى قبل محاكمته أن يضرب ضربا مبرحا . فهذا أكثر جدوى . أيها العريف ، عليه بخمس وعشرين جلدة ..)

وبينما ماتى دولمانو يتلقى الضربات دون أى تذمر . أوضح تناسيسكو للسادة المدنيين أن الضرب وحده هو الذى يبعث الخوف فى نفوس هؤلاء المناكيد ؛

أما السجن فهو بالنسبة إليهم عيد ؛ ومن اللازم على أية حال أن تتخذ هذه الإجراءات العنيفة حيالهم جميعا ؛ إلى جانب التحقيق المدنى ، وذلك لأن الفلاحين قد واتتهم الجرأة فتمردوا على الجيش .. وأراد تينو هيرديليا أن يرد عليه ، وكان الرد على طرف لسانه ، ولكنه أمسك ، فقد رأى أن بالولينو وجريسيسكو ، وهما اللذان كان يجب أن يعترضا ، قد تلقيا كلام الضابط دون تعليق .

وهتف المدعى : (بافل تونسو .. من هو ؟.. تعال هنا .)

وقام بافل على قدميه : وأوصاله ترتعد ، مخافة أن يعدم هو أيضاً .. واندفع فى الكلام آليا ، دون أن يطرحوا عليه أى سؤال ، (أنا لم أقتل أحدا .. بل فقط حطمت السيارة ، وأشعلت فيها النار ، لأنها جعلت من طفلى كسيحا مقعدا ، ولكنى لم أرق أى دماء ، لأن عندى أطفالا ..)

واعتبر الرجل نفسه أسعد الناس حين ألقى به ، بعد أن أعماه الضرب ، فى زمرة المقبوض عليهم بالمكتب ؛ فرسم الصليب على نفسه ، وحمد الله وأثنى عليه إذ أخذته رحمة بأطفاله .

ورأى المدعى العام أن من اللازم أن يغير من إجراءات التحقيق ، حتى يتمكن من فصل المجرمين عن الأبرياء على وجه السرعة ، فقرر أن يستمع إلى شيوخ القرية أولا ، فهم يعرفون مثيرى الاضطراب والأشرار الحقيقيين .

قال يحدث لوبو شيريتو : « والآن أيها الشيخ ، قل لنا بصراحة ، كيف وقع كل شىء ، ومن هو المذنب ؟ »

« أنا لم أتدخل فيما لا يعنينى ياسيدى ، فأنا رجل عجوز ، ولا يليق بى أن ... »

واسترسل المدعى قائلا : « طيب ، طيب .. أنا أصدقك ، ولكن كيف بدأت الثورة ، ومن الذى بدأ بها ؟ إنها لم تهبط من السماء ، أليس كذلك ؟ »

قال الشيخ : « ولكنها هبطت كذلك ياسيدى ؛ لقد هبت ريح عاتية ، تملكت الناس ، ودفعت بهم كالأغنام ! »

فتدخل الرائد تناسيسكو ، وقد غاظه شرود العجوز « أصغ إلى أيها الشيخ ، نحن لا نريد حكايات خرافية ، وقتنا لا يتسع لذلك ! » .

وتكلم لوبو شيريتو ، ولكن الرائد لطمه مرتين على وجهه فرمقه الشيخ بنظرة مباشرة فى عينيه ، وقال فى نبرات واضحة : « جازاك الله ياحضرة الرائد على هذه الإهانة لرجل كبير ! » .

فصاح تناسيسكو : (ماذا تقول ؟ .. ماذا ؟ .. أتخرج عن حدود الأدب على ، أيها الشيطان العجوز ؟ .. ياعريف عليه بخمسين جلدة ! ..)

وكان هيرديليا الشاب واقفا إلى جوار الوالى بالولينو ، وكانت أوصاله ترتجف ، أما الشيخ فقد تحمل الضربات فى صمت قاتل .

وانهال الضرب على شيوخ القرية ، وكان لوكا تالابا أشدهم تعذيبا ، لأنه كان أوقحهم مسلكا فى ظاهره ، وكذلك فيليب اليوزا ، وماران ستان ، والأخيران اتهما بالنهب فاعترفا بالتهمة ، رغم أن كليهما كان ميسور الحال . . وبعدئذ جاء دور إيجنات سيرسل ، فهو بالأمس ، بعد أن توقف إطلاق النار ، شد فوطة بيضاء إلى عصا ، ووضعها على باب داره ، إعرابا منه عن ولائه للجيش ، وكى يراها الأشراف عند مرورهم . ولقد لحظها الرائد فى واقع الأمر وهو مغيظ ، فقال له إذ ذاك : « ما هذا أيها الوغد ؟ ... » ورد إيجنات فى ذلة : « السلام ، ياحضرة الرائد ! » .

« أتقول السلام يالص ؟ . وأنت أكنت تحارب من ياوغد ! ألم تكن تحارب الجيش الرومانى ؟ ، وقد تلقى إيجنات إذ ذاك ضربا مبرحا ، وجاء الرائد فتعرف عليه الآن ، وقال :

« أنت الشخص صاحب العلم الأبيض الذى ينادى بالسلام . . . . . أليس كذلك يالص ؟ »

وتمتم إيجنات : « ليغفر لنا الله ياسيدى ، فنحن لا نعرف كيف نسلك المسلك اللائق بحيث لا نأتى بأخطاء . . . ولو شاء الله أن يعذبنا ، فكتب علينا الغباء فأنا ... »

وبينما كان المدعى يعالج إبجنات سيرسل ، والرائد لا يكف عن مقاطعته فى حنق وصل أيون برافيلا ، وقرر أنه ، طبقا للتعليمات التى تلقاها ، قد جمع الموتى وقدرهم أربعة وأربعون قتيلا وأنه تعرف على هويتهم .. أما الخامس والأربعون فكان القس نيكوديم الذى جاءت ابنته ، نيكولينا ، فحملت جثته من الشارع .. ونزل هذا الخبر على الرائد تناسيسكو فأصابه بمس آخر من الجنون ، إذ كيف جرؤت ابنة هذا القس اللص على عصيان أوامره؟ .. وتجمد العمدة ، وتوقع صفعة ثانية ، بل وعلى مشهد من القرية كلها أيضا ..

وهتف الرائد ، وقد جحظت عيناه « أين هذه الكلبة التى جرؤت على هذه الفعلة ؟ .. »

وتقدمت نيكولينا إلى الأمام ، وطفلها متعلق بيدها ... واندفع الرائد إليها بسوطه دون كلام .. وصرخت المرأة وأجفلت ، أما طفلها فقد أخذ يصرخ : « أمى ... أمى ... »

وصاحت نيكولينا ، وقد اتقدت وجناتها من الضربات المتلاحقة : « النجدة يارب ! ! ... »

وصرخ الرائد ، وقد أنهكت قواه : « أيها العريف عليها بخمسين جلدة ! ..

« يارب ! .. ياناس : .. يارب ! ... »

وأمسك الجنود نيكولينا ، وطرحها أربعة منهم على وجهها ؛ فأخذت تتلوى صارخة كأفعى وطئتها الأقدام ... وألقى أنتونل بنفسه على أمه ، وهو يبكى رعبا : « أمى ... أمى ... »

وكان تيتوهيرديليا حتى ذلك الحين يتمتم دون انقطاع «هذا مروع «هذا مروع !» وكان يقصد أن يسمعه الوالى بالولينو ، ولكنه عندما رأى الجندى وقد أخذ فى الضرب ، نسى كل حساب ، فاقترب من تناسيسكو ، وقال متقززا : « كفى أيها الرائد ... هذا لا يطاق ! ... هذا ... »

وارتد الرائد على عقبيه كأنما قد تلقى صفعة على وجهه .

« ماذا قلت ؟ ... من أنت ؟ .. ما شأنك هنـــا ؟ .. كيف تجرؤ على التدخل فى . ؟ »

« أنا تيتو هيرديليا و .... »

وقاطعه تناسيسكو ، وقد تقلصت راحته ؛ أنا لا أريد أن أسمع شيئا : « اترك هذا المكان فورا ، وإلا ألقيت القبض عليك ، وأرسلت بك إلى السجن .. حالا سريعا ... »

ووقف الوالى بالولينو طائر اللب ... إنه لم يعترض على تدابير الرائد العنيفة مع الفلاحين ، لأن هذه التدابير قد خلصته من تبعة تحمل العبء على عاتقه ، ومن ثم كان فى مقدوره أن ينفض يديه من كل أمر قد يطرأ فى المستقبل .. ولكن هذا الحادث مع صحفى من بوخارست ، والذى هو صديق من أصدقاء جريجور أيوجا فربما تترتب عليه نتائج هى أبعد من أن تكون نتائج سارة .. واستيقظ من غيبوبته ، فتدخل متوددا باللغة الفرنسية ، بقصد أن يلطف من غضب تناسيسكو ، فرد عليه هذا وقد ازداد غضبا : « أنا لا يمكن أن أسمح لأحد ، أيا كان .. أنا لا أسمح بهذا أبدا ... »

أما تيتو ، وقد اربد وجهه غضبا وانفعالا ، فقد أدرك أن هذا التدخل من جانبه ، مهما كان طبيعيا وإنسانيا ، فهو تدخل غير حصيف .. ولكنه لم يندم عليه .. وأدار ظهره إلى الرجل ، تجنبا لأية متاعب ، أو منعا للتعرض لخطر القبض عليه .. وأراد الوالى أن يصلح بينهما ، فأمسك بيده ، ليحول دونه والمسير .

« ياسيد « هيرديليا أرجوك .. اعمل فى معروفا .. إن الرائد سوف ... »

وأجاب تيتو ، وهو يحاول أن يحتفظ برباطة جأشه « أنا أفضل أن أنسحب يا حضرة الوالى عن أن أشهد هذه الوحشية . »

فهمهم بالولينو ، وهو يهز رأسه ، ولكنه تركه ينصرف مع ذلك ، « أنا آسف أن ... »

وخفت حدة غضب تاسيسكو بعد أن رأى تيتو قد رحل .. فلما عرف أنه صحفى ، زال عنه الغضب ، ولكنه لم يبد ذلك ، إذ لم يشأ أن يبدو فى نظر القوم مهزوما .. فهو ، لعدة سنوات خلت حين كان يعمل فى تورنو سيفران ، صفع أحد الصحفيين المحليين فى أثناء جلسة شراب .. وكان لهذا الحدث ضجة كبرى، إذ هاجته.. صحف بوخارست كلها، وتطورت الأمور إلى حد أن استدعى أمام مجلس عسكرى..وهو ، لولا ذكر هذه الحادثة فى سجله لكان الآن فى رتبة المقدم منذ زمان طويل ..

قال الآن ، وهو يرفع عقيرته تظاهرا بالغضب : « أنا لا يمكن أن أسمح لأحد بأن يعيقنى عن القيام بواجبى، إن على مسئولية هنا ونحن لا نلهو ولا نلعب ، أليس كذلك يا سيادة الوالى ، إن من السهل إصدار الأوامر من بوخارست ، أما هنا فهؤلاء الأوغاد قد خربوا وسلبوا وقتلوا . »

والتفت إلى الفلاحين ، وإذ بصوته يشتد مرة أخرى ، وإذا بالغضب يعود إليه ، كأنما كان هو نفسه موضع الإهانة والنهب ، رغم أنه لم يكن يملك شيئا . .

«هذه القرى ينبغى أن تمسح من فوق ظهر الأرض بالمدافع..حتى القس كان لصا.. والفظائع الرهيبة التى اقترفوها لا مثيل لها ...الناس فى القرى الأخرى يشعرون على الأقل بشىء من الخزى ؛ أما هنا فهم يقدمون على قتل النساء والشيوخ...»

وبينما تناسيسكو يتكلم ، نهض فلاح طويل الشعر أشعثه، متألق الوجه،فتقدم إليهم ، وتحدث فى نبرات متعالية : سيدى ، سيدى ، أراك قد أخذت فى قتل أبناء الله ، وأبيت أن تستمع إلى أمر الهاتف الذى يدق فى أرجاء السماوات ...

وهتف نفر من الجنود فى أشخاص آخرين : اركعوا .. اركعوا . .

وتساءل الرائد ، وقد أدهشه هذا المسلك الصاف بعد أن حاول هو جاهدا أن يلقى الرعب فى قلوبهم منذ الصباح : أى أمر .. عن أى شىء يتكلم ؟ . .

وأوضح الرقيب بونجيو : « إنه مخبول ياسيدى؟ »

وهتف تناسيسكو : « أتقول مخبول ؟. اتركه لى ، فأنا أعرف هذا النوع من الخبل .. والواقع أن الوغد كان على رأس الثائرين بالأمس وكان يدعو رجالى إلى التمرد .. لقد سمعته بأذنى .. أيها العريف ، اجلده بقدر ما يستحق . »

وبينما الجنود يضربونه ، أخذ أنطون يصرخ فرحا ، كأنما لم يكن يحس بوقع الضربات عليه : «استمروا أيها الإخوة .. لأن يوم الحساب قريب ، وسيأتى حتما ، بصوت الرب .. اضربوا ، اضربوا .. لهذا أنا أقف و .. »

واغتاظ الرائد تناسيسكو لأن الضربات لم يكن لها أدنى تأثير عليه ، فأنهى أمره قائلا . « اتركه إلى الشيطان يتولى أمره ياعريف .. ياله من مخبول .. »

ثم التفت إلى المدعى العام وأضاف . لنمض فى الإجراءات . . من فضلك .

— ٣ —

كان جريجور أيوجا ممزق القلب ندما ، وأخذت تدق فى ذهنه فكرة واحدة بعينها دق المطارق : « ربما لو كنت مكثت أنا هنا لما وقع ما وقع . »

ولكن فى نفس الوقت أدرك ألا جدوى من أى ندم أو ملام ، بل أولى به أن يلتفت إلى واجباته . . كان جثمان نادينا يسعى إلى الاستقرار منذ خمسة أيام الآن ، وجثمان أبيه منذ ثلاثة .. وشعر أن الفقيدين قد ظلا فى إهمال أمدا طويلا وأن روحيهما ، فى قلقهما وعجزهما عن التماس السكينة، تعذبان الأحياء من حولهما وتعذبانه هو خاصة ، لأنه قد عانى فوق ما يطيق ، وندم غاية الندم .

وما كان قد فكر فى الجناز بالأمس ، حين أرسل البرقية إلى جوجو يعلنه فيها بوفاة نادينا ، لأن هذه الأمور المادية لم تخطر له على بال .. ولكنه فى المساء بعد أن شهد الجثمانين، قال فى نفسه : إن من واجب جوجو ويوجينيا على الأقل أن يحضرا جناز نادينا ، وأنه ينبغى أن يكون فى انتظارهما .. أما اليوم ، بعد أن رأى النعش يصل فى عربة النقل ، يتبعه القس الوافد من ايسبيزى ، فقد أدرك فجأة أن جوجو لن يحضر إلى القرية من أجل جناز أخته ، وأن هذا الوقت فى الواقع ليس بالوقت الخليق بجناز يدل على الأبهة ، حين كانت القرى تتمطى مستيقظة مما أصابها

من حماقة وغضب ؛ والأطلال لا تزال تنفث دخانا من الحرائق التى اشتعلت فيها وكذلك كانت قلوب الناس .. واستقر رأيه فى تلك اللحظة على أن ينظم جنازا بسيطا خليقا بظروف الحال .. أما فيما بعد ؛ حين يعود الهدوء حقا ، ففى مقدورهم أن يقيموا جنازا مناسبا .. وزال عنه منذ ذلك الحين الشعور بالخيبة ، وهو الشعور الذى أخذ بمجامع نفسه ، وملأها عجزا وألما ؛ بحيث شل منه القوى ، وجعله يسبح فى دنيا غير هذه الدنيا .

« اسمع ياليوتى . لابد أن نقيم الجناز عصر اليوم » قالها بهدوء كأنما كان يعالج أمراً من الأمور اليومية العادية ، ثم أدلى للمشرف بالتعليمات مفصلة دقيقة . لقد دفنت عدة أجيال من أسرة أيوجا على مقربة من كنيسة آمارا ، والمقبرة الأخيرة أنشأها ميرون أيوجا ، وهى المقبرة التى ضمت رفات زوجه الآن ، وكانت المقبرة من الحجر ، وكانت هائلة الحجم ولها قبو كبير ، ومن المقدر أن تتلقى جثمانه هو أيضا حين يحين الحين . . وعزم على أن يفسح مكانا فى المقبرة لنعش نادينا ، على الأقل مؤقتا . . وعزم كذلك على أن يدعو قسا من ليسيبزى ، وهو القس الذى كان يسير وراء العربة المحملة بجثمان نادينا ، لأن العجوز نيكوديم قد طواه الردى .

وأقيمت الصلاة فى الساحة . . وطلعت شمس الربيع زاهية ، ونمت براعم الأشجار فى مرأى الناظرين . . ثم وضع كل نعش فى عربة تجرها ثيران ستة . . وبدا بيت الدائرة ، وقد قام إلى ظهرهم ، بنوافذه المكسورة ، كأنه رجل عجوز أرسل الدمع مدرارا حتى فقد بصره .. أما إلى الأمام ، ، فقد انتصبت جدران الفيلا السوداء وأعمدتها فى مواجهة صف أشجار الحور على الطريق ، فبدت وكأنها أقيمت خصيصا لتكون إطارا يحيط بالجنازة . . وصلى القس حليق اللحية ، وهو متشح ببزته الجديدة ، وذقنه ترتجف ، ومضى فى الإنشاد رافعا عينيه إلى السماء الزرقاء التى ترقرقت فيها سحب صغيرة بيضاء ، كأنها أسراب الملائكة تتنافس على الاستماع إلى الصلاة على روح الموتى . . وكان صوت القس ضعيفا واهنا ، ولكنه كان يبعث فى النفس الطمأنينة ، ويتصاعد كالبخور فى الهواء ، متغلغلا فى سكينة الصباح التى اكتنفت البيت ، بل والمنطقة كلها . . أما المنشد فجعل يردد نغمات آلية من أنفه ، فاختلطت بصوت الثيران وهى تجتر طعامها هادئة وغير عابئة بشىء ، وتهز أذنابها الطويلة بانتظام لتطرد عنها ذبابا وهميا .

وكان جريجور أيوجا واقفا إلى جانب العربة التى حملت جثمان أبيه ، وفى رفقته تيتو هيرديليا كالتابع الأمين . . وتجمع قبالتهم ، على طول سور البيت القديم . وهو السور الذى لم تتبق منه إلا أعمدة قليلة ، الخدم جميعاً ، وعلى رأسهم ازباسيسكو ؛ أما عمال المزرعة فوقفوا إلى الخلف . وأخذ زوج المشرف والطباخة بروفيرا ، تنشجان بين الحين والحين ، ولكن دون جلبة ، كأنما استحيتا من هدوء جريجور .

واستوعب أيوجا الشاب ، وعيناه تقطران دما ، النعشين بنظرة واحدة . . كان النعشان من حجم واحد ، ومصنوعين من نفس الخشب ، كأنما كان هذا الأمر مقدراً منذ زمان طويل . . وفاض فؤاده سكينة واستسلاما ؛ وأخذت أفكار كثيرة تصطدم فى رأسه ، وتطارد بعضها بعضا دون انقطاع ، ولكن دون أن تتخذ لها شكلا متماسكا ؛ بل انطلقت هنا وهناك ، كأنما دفعتها ريح شاردة ضالة . . وأحس بالحزن يملأ قلبه ، كأنما نكأه جرح جديد ، لم يشعر له بالألم لحداثة إصابته . .

ولم يلحظ أن الصلاة قد انتهت ، وأنهم شرعوا فى المسير نحو المقبرة ؛ وإذا به يهمس فى أذن تيتو هيرديليا : « كان من الواجب أن نخبر بالولينو أيضا . . ولكن قضى الأمر الآن ! » .

وسار وراء العربة الثانية التى رقد فيها نعش أبيه . . وعلى مدى خطوات وراءه ، كان يترامى إلى سمعه وقع خطى الآخرين ، ونحيب النساء الذى تعالى الآن . . ورأى أمام العربة الأولى القس بملابسه المتلألئة ، وسمع صوته ، كأنما من مسافة عظيمة .

وأدهشه أن يرى الناس وقد تجمعوا فى ديوان القرية . . وأوضح تيتو له فى إيجاز ماحدث . . وتأكد من الصرخات التى انبعثت من الداخل أن التحقيق يجرى على قدم وساق . . وعندما اقترب موكب الجنازترك الوالى بالولينو الفناء الذى اكتظ بالناس ؛ وتبعه جريسيسكو المدعى العمومى ، والرائد تناسيسكو ، ومفتش الشرطة كوربولينو . . أما النقيب لاثى جرادينارو الذى كان يتمنى أن

يلحق بهم ، بوصفه واحدا من الذين عرفوا ميرون أيوجا واستمتعوا بضيافته عدة مرات ، فقد اضطر أن يواصل التحقيق مع الثائرين فى غيبة المحققين .

وغمغم بالولينو بصوت حزين وهو يشد على يده طويلا : « أعذرنى ياعزيزى جريجوريتسا ؛ بل واعذرنا جميعا ، فنحن لم نعلم بهذا ، وإلا لكنا تركنا ما بأيدينا وجئنا نقدم مواساتنا فى والدك الجليل ! »

وجاء الآخرون ، وقد ارتسمت على أساريرهم علامات الحزن ، فصافحوه بدورهم ، وهم يحاولون أن يدلوا بنظراتهم على أنهم لا يستطيعون أن يجدوا ألفاظا ترقى إلى مستوى حزنهم .

وكان جريجور أيوجا هو الذى شعر بأن من واجبه أن يقدم الاعتذار عن تقصيره فى إخطار بالواينو ؛ ولكنه عندما فتح فاه للكلام ، رأى الوالى يخرج منديلا ويضغطه إلى عينيه ، كأنما يمنع نفسه عن البكاء ؛ وبدت الحركة مصطنعة للغاية ، الأمر الذى جعل جريجور يغير رأيه ، ويواصل سيره ، مسرع الخطى ليلحق بالعربتين اللتين لم تتوقفا عن المسير .

وسرعان ما دخل الموكب ساحة الكنيسة . وواصل القس الإنشاد عدة دقائق ، ثم أدلى القوم النعشين ، كلا بدوره ، فى المقبرة المفتوحة التى وقف إلى جوارها خدم ثلاثة أرسلهم المشرف بومبو لنزع اللوحة الرخامية التى تغطى فتحتها ثم لإعادتها سيرتها الأولى بعد ذلك . . وكان النعشان ثقيلين ، فاضطر بعض الخدم الآخرين أن يتقدموا لمساعدتهم . . وأخذ القس يكرر عدة مرات: « اللهم احفظ روحهما أبد الآبدين ! » ، والمنشد يردد مايقول . . وإذا به يتوقف بغتة وينحنى فى ذلة صوب جريجور الذى وقف زائغ البصر دون حراك . . وأتى المشرف بإشارة ، فأخذ الرجال الثلاثة يجرفون فى الأرض . . ومرة أخرى أعرب بالولينا وغيره عن خالص تعازيهم لجريجور ، واستمع هو إليها هازئا ، واكتفى بالايماء ردا عليها . . ومع ذلك فقد سمع الرائد تناسيسكو يهمس فى أذن المفتش : « أرى بما أننا هنا ، والقس موجود ، أن يتولى دفن الفلاحين فى مقبرة القرية . . أنا لا أعرف مكانها ، ولكن القس سيخبرك أين هى . . وسوف تجد

العمدة هناك .. هيا يازميلي العزيز لنفرغ من هذه الشكليات أيضا ! . . ولكن لابد من السرعة ، دون مبالغة فى الشعائر .. ولا تنسيا الأفراد الذين أعدمناهم فى ديوان القرية ! ..

وهم جريجور ، كأنما قد تذكر أمراً فى غاية الأهمية ، فخاطب تيتو بسرعة قائلا : « كان بودى أن أحضر جنازة الفلاحين ، ولكنى لا أجد فى نفسى القدرة الآن .. هلا تكرمت بالذهاب نيابة عنى ؟ »

فأجاب هيرديليا : « أنا فى خدمتك ! »

وصحب القس تيتو وكوربولينو ، فضوا عبر ساحة الكنيسة ، واخترقوا الحديقتين والبستان . . كانت الجثث يابسة متجهمة ، راقدة كما جاءها الموت ، وكانت مصطفة صفين فى المقبرة ، وقد حفر لها جميعا قبر طويل واسع .

وحدث المفتش كوربولينو القس : « هيـا يا رجل ، أسرع ، لايوجد لدينا وقت ! »

وكان المفتش يقف على أحر من الجمر ، يتململ نافد الصبر فى أثناء الصلاة ، القصيرة ، ويرقب الجثث وهى تلقى فى القبر المشترك ، وما لبث أن مضى دون أن يلتفت إلى الوراء .

وبقى تيتو هيرديليا والقس ، يشهدان فى صمت كتل الطين اللزج تتساقط على الأجداث التى اختلط حابلها بنابلها فى الحفرة ، فرقدت الآن كوما من الأغصان العفنه ، ويرقبان الموتى وهم يستقرون فى لحدهم الأخير ، ويمتزجون ويختلطون بالأرض التى طوتهم بين جنبانها بعيدا عن كل خطر .

وغمغم تيتو ، وقلبه يعتصر : « لشد ما بذلوا من تضحيات من أجل الأرض والآن هاهى الأرض تبتلعهم جميعاً ! .. وا أسفاه ، إنجهودنا كلها مكتوب عليها أن تنتهى هكذا ! »

وأخذ عشرة من الفلاحين اللاهثين يعملون بمعاولهم .. وكان العمدة برافيلا

يحثهم على العمل ، وهو خائف وجل ، كأنما ضاع صوابه تماما إثر اللطمات التى تلقاها على يدى الرائد .

وتساءل تيتو حين طواهم الردى جميعا : « كم عدد هؤلاء أيها العمدة ؟ »

« ستة وأربعون ياسيدى ، بما فيهم تريفون وتودر ، اللذين أحضرناهما الآن من ديوان القرية » قالها العمدة فى ثقة ، لأنه كان حاضرا حين شجر الخلاف بين تيتو والرائد . . أما الآب نيكوديم فهو مازال فى بيته . . صحيح أن الرائد ضرب نيكوليتا ، ولكن قلبه رق فى النهاية ، ولم يطلب إلينا أن نأخذه من بيته . حرام أن نلقى به هنا مع هؤلاء المناكيد ، فهو لم يقترف إثما على الإطلاق ، وإنما أقام الصلاة على جثمان الشريف ميرون و . اللهم احفظنا وارعنا من هذا العبء الثقيل الذى وقع علينا » . .

ومرت برهة فعاود هيرديليا الكلام : « قل لى ياعمدة ، لماذا كانت هذه الثورة ؟ . . كيف تأتى لكم أن تقترفوا هذه الجرائم كلها ، وأتيتم بهذه الحماقات وهذا الدمار ؟ »

وأجاب برافيلا بحرارة : « لقد فارت مشاعر الناس ياسيدى ، ومزقوا القانون ولكن يبدو لى أن الأمور لا تجرى مجرى سليما الآن كذلك . . والناس هم الناس ، وليس من عجب أن يأتوا بأخطاء ، أما الأشراف فهم قوم عقلاء . . »

ولم يجاوب تيتو ، بل أشاح ببصره نحو اللحادين وهم يحفرون قبور الموتى . . وأمسك العمدة بغتة ، كأنما تمالك نفسه ، وخشى أن يكون قد أسرف فى الكلام .

وكان جريجور قد وجه دعوة إلى جريسيسكو والضابط لتناول الغداء فى بيت الدائرة . . وألقى الوالى خطبة قصيرة مرتجلة فى ذكرى الفقيدين اللذين راحا ضحية الثورة التى أغرقت البلاد دمارا وحدادا . . ثم إبقاءً على مشاعر مضيفهم لم يعد أحد يذكر الموتى ، بل قصروا الحديث على الفظائع التى ارتكبها الفلاحون من قتل ونهب . . ولحظ بالولينو أن الصحفى الوافد من بوخارست وجريجور قد لزما الصمت ، فشعر بأن من واجبه أن يتقدم لمصالحة المتخاصمين ، مواجهة للخطر الذى يتمثل فى هذا القطيع الضال ، وفى المجرمين المتحمزين للشر الذين سوف

يكتشفون من غير شك .. قال بالولينو فى عظمة:

«لابد أن نتناسى المطامع الشخصية الطفيفة ، والإهانات الصغيرة غير المقصودة» فهذا كله مرده ظروف غير طبيعية .. أليس كذلك ياسيد هيرديليا ؟ »

وهز تيتو كتفيه كأنما يريد أن يعرب عن عدم احتفاله بهذه الأمور . وتطلع جريجور إلى بالولينو فى دهشة ، وقد عجز عن أن يفهم مراده .

وتساءل الوالى مذهولا : «ألم يخبرك بالامر ؟. هذا فى الحق رجل لبق مهذب أيها السادة .. إن الإنسان ليدرك هذا على الفور »

وأجل ، من ثم ، الحادث لجريجور ؛ وتقدم بنخب يدعو لنسيان الموضوع برمته . . ومد الرائد تاسيسكو يده ، عبر المائدة ، يصافح تيتو ؛ وهب القوم جميعا يصفقون فى إعجاب . وما لبث كل واحد أن بذل قصارى جهده ليوضح للزائر الشاب من أهالى ترانسلفانيا أن الفلاحين جميعا منا كيد أشرار ، وأن القوة الغاشمة وحدها هى التى تحول بينهم وبين اقتراف أحط الجرائم .

قال الرائد تاسيسكو فى صوت يتقطر عذوبه وقد شابه سخط شديد : « يجب ألا ننسى أننا تحت سقف بيت هو فى حداد على فقيدين ، ثم هو لم ينج من النهب والحريق . »

قال كوربولينو وهو يفتل شاربه كأنما كان فى حضرة سيدات : « يكفى أن نتطلع حوالينا لنرى وحشيتهم . »

أما جريسيسكو ، المدعى العمومى ، وكان صوتا بطبعه ، فقد استولى على انتباه القوم جميعا عندما قص عليهم كيف تم سحق هذه الثورات فى البلاد الأخرى وأن هذا الضرب بالسياط الذى ألهب ظهور القوم ماهو إلا زجر أبوى غير ضار إذا ما قورن بالأساليب التى أخذت بها هذه الثورات فى أنحاء أخرى .

واغتاظ تيتو هيرديليا من هذا الحديث ؛ وشعر بأن هؤلاء السادة على خطأ ، ولكنه لم يستطع أن يصوغ اعتراضاته فى جواب يقنعهم به .

« أنا لايضايقنى غير الظلم » هتف بها عدة مرات كأنما كان بهذا يريد أن يعرب عن مخالفته لهم فى الرأى .

وإذا به ، بعد ذلك ، وقد حمى وطيس النقاش ، يصرح فى ثقة أدهشته هو نفسه : « أنا أفهم أن تتوقعوا أى عقاب ، وأقره ، ولكن على شرط واحد هو أن يكون عادلا وشرعيا . . ولا يجوز لكم ، أنتم الذين تمثلون الدولة ، والذين تمتلكون تحت إمرتكم سلطة الدولة ، لايجوز أن تسمحوا لأنفسكم باقتراف نفس خطأ الفلاحين ، الذين مزقوا القانون ، وارتكبوا الجرائم .. فأنتم ، لو خرقتم القانون اقترفتم جرائم كذلك ، وجرائمكم أشد بشاعة ، لأنكم ترتكبونها باسم الدولة ، وإساءة لسلطانها . . أما الفلاحون فهم عندما ثاروا ، وتصرفوا تصرفات غير شرعية ، كانوا يخاطرون بمجابهة قوة الدولة والجيش والشرطة ، فهذه كلها قد تأتى وتنزل بهم العقاب فى أى لحظة . . أما أنتم ، فبدلا من أن تحافظوا على القانون ، تعذبون الناس العزل وتهينونهم لأنكم واثقون بأن أحداً لن يأتى ويعاقبكم » .

وابتسم بالولينو فى لطف : « ياصديقى العزيز ، ياصديقى العزيز . . أنا رجل عدل أرعى القانون . . ولكن من حق الدولة ، بل ومن واجبها أيضا الدفاع عن وجودها بكل الوسائل إذا ماتهدده الخطر . وكل شىء من شأنه أن يقوى الدولة ويعززها فهو عادل ومشروع » .

فأجاب تيتو ساخرا : « هذا ماقاله لى ضابط الشرطة الهنغارى . . . الفرق الوحيد هو أنه كان يتكلم باللغة الهنغارية ، أما أنتم فتتكلمون لغة رومانية » .

« ولكن ليس فى مقدورنا إطلاقا أن نسمح بالثورة . . »

« إن القانون هو الذى يتغلب على الثورة . . والسلوك غير القانونى هو وحده الذى يسبب الثورات ، ويعمل على تفشيها . » قالها تيتو فى زهو امرىء استحدث اكتشافا عظيما . .

— ٤ —

فى صباح اليوم التالى سار موكب من نحو خمسين فلاحا ، واتجهوا صوب بيتستى ، يصاحبهم حرس من الجنود شاكى السلاح ، تحت إمرة رقيب غليظ الطبع . . أما الذين ثبتت جريمة عليهم ، أو الذين اشتبه فى ارتكابهم لجريمة ، أو كان لهم دور قيادى فى الثورة ، هؤلاء جميعا قيدوا بالأصفاد . ومشوا أزواجا أزواجا فى سلسلة طويلة واحدة . . . وكان هناك نفر من الجنود يحملون عصيا غليظة ، ويستحثون بها كل من تلكأ فى مشيته .

ولما أقبل الأصيل ودع بالولينو وجريسيسكو والرائد تاسيسكو مضيفهم جريجور الذى تناولوا الغداء على مائدته . . ولقد انصرفوا ، فيما قال الوالى ، ليدرسوا النتائج التى أسفرت عن حملة التهدئة فى كل القرى التى أصابتها عدوى الثورة. وبخاصة لأنهم تلقوا تقارير سرية تفيد بأنه قد حدث فى بعض القرى ، عندما عاد ملاك الأرض تحت حماية الجيش ، فوجدوا ممتلكاتهم منهوبة ، شرعوا فى التحقيق مع المذنبين المشتبه فى أمرهم ، ومحاكمتهم ، وتنفيذ أحكام الإعدام فيهم، دون الرجوع إلى أحد .

صاح بالولينو فى غضب بين : « هذا محظور ! ! أنا لا يمكن أن أقبل مقابلة الإثم بالإثم ، والشر بالشر ! . ماذا يحدث لو أخذ كل واحد فى تطبيق العدالة كما يهوى ؟ إنما ينبغى أن يطبق القانون على الجميع سواء بسواء ! » وهنا التقى بنظرة تيتو الساخرة ، وقال : « الدفاع عن المصلحة العامة شئ ، أما الدفاع عن المصالح الذاتية وانتهاك حرمة القانون والأخذ بالثأر فشيء آخر مختلف تماما »

ورحل تيتو فى اليوم التالى . . وكان بودجريجور أن يبقيه زمنا أطول لولا الظروف التى كانت سائدة فى البلد ، حيث عم الشقاء والعذاب والخراب . . . تلك إذن أنانية أكثر منها دليلا على الصداقة .

قال يحدث تيتو وهما يفترقان : كان جميلا منك أن تمكث إلى جانبى فى أثناء هذه الأيام الحافلة بالمخاطر والمحن . ، . وأنا لا أريد أن أستغل صداقتك . . أنا شاكر لك . . ولن أنسى أبدا العطف الصادق الذى قابلت به جميع ما اعترانى من حالات

نفسية كئيبة . . . وأنا فى الواقع لن أمكث هنا طويلا . . لأن الوحدة التى تكتنف الجو كله ، والأشباح التى تقوم فيه ستصيبنى بانهيار عصبي . . ولكن لابد من أن أصدر الأمر بالعمل فى الحقول ، وهو لم يبدأ بعد ، وأن أقوم بالإصلاحات الواجبة . . »

وترك تيتو آمارا فى نفس العربة الزرقاء التى ما زال إخيم يجلس فى مقدمتها . وكان الطريق خاليا ، كأنما خاف الناس أن يتركوا بيوتهم أو مخابئهم . . وكانت ساحة ديوان القرية ما فتئت تغص بالفلاحين الذين جثموا ووجوههم إلى الأرض تحت حراسة الجنود ، أما التحقيق فقد استمر بنفس الحماس ، ولم يتغير فيه سوى المحققين ، فحل النقيب جرادينارو مكان الرائد ، والرقيب بوبجيو مكان المدعى العمومى .

وكانت القرى كلها ، على الطريق الممتد إلى كوستستى ، تمر بنفس التحقيقات . . ولما بلغ تيتو المحطة التقى بكوزما بيريونا الذى سأله عن تفاصيل الحال فى آمارا ، وقال إنه عزم على أن يعود إلى بيته غدا ، بمفرده فى الوقت الراهن ، إلى أن يتأكد من أن كل خطر قد زال .

وكان أول شىء فعله هيرديليا فى بوخارست هو أنه ذهب إلى منزل جوجو أيونيسكو . . والحق أنه شعر بضيق إذ اضطر أن يحمل إليهم مثل هذه الأنباء ؛ إلا أنه هون الأمر على نفسه فقال إن برقية جريجور إليهم كانت برقية مقتضبة ، وأن بوسعه أن يزيدهم من التفصيلات ، وهو أمر فيه عزاء وسلوى . . وتذكر الشاب أنه عندما جاء إلى هذا البيت أول مرة منذ ستة شهور كان خائفا يترقب... ولقد بدا له هذا البيت إذ ذاك سعيدا مرحا ، أما الآن فقد ظهر لأمر ما حزينا بائسا ، رغم أن أشعة الشمس الغاربة أرسلت الدفء إلى جدرانه ، وتلاعبت على شبابيكه ... أما فى حديقته الصغيرة ، بممراتها الأنيقة ، فقد ظهرت حشائش غضة رقيقة ، فرشت الأرض بساطا سندسيا شاحبا . . ولم يجد الشاب غير يوجينيا بالبيت ، فطلبت إليه أن يخبرها بكل شىء قبل أن يعود جوجو . . وتلقت السيدة أخباره بهلع شديد ، وبخاصة لما سوف تسببه من ألم لزوجها — وعلم أن يوجينيا هى التى منعت زوجها من الذهاب لحضور جناز نادينا فى آمارا ، لأنها

كانت لاتزال تخشى أن يحدث مكروه هناك .. ثم حضر جوجو بعدئذ وانضم إليها ، فقال تيتو أنه قد كبر عشر سنوات فى غضون الأيام القلائل التى مرت منذ أن رآه لآخر مرة .. لقد نسى الرجل أناقته ، وفقد مرحه ، وانخرط فى البكاء كما تفعل النساء بمجرد أن وقع بصره على بصر تيتو .. إنه لم يدرك إلا الآن مدى الحب الذى كان يكنه لناديا ، فقد كانت بالنسبة إليه أكثر من أخت ، بل هى كأنما كانت فلذة كبده الوحيدة .. وأخذ يستمع إلى تيتو الذى اضطر إلى أن يعيد الحكاية من أولها ؛ وهو يتأوه باستمرار : « مسكين والدى ! » ... « كيف له أن يتحمل هذا الخبر ؟ » .. وكان تيودور أبونيسكو الشيخ لاينقطع له تساؤل عما إذا كانت ناديا ، حبيبته وقرة عينه ، قد عادت من الريف ، لأنه هو أيضا قد سمع أن الثورة قد امتدت إلى آرجس .

كذلك اضطر تيتو هيرديليا أن يحكى فى المساء ، ساعة العشاء ، كل شىء صادفه ورآه فى الريف .. وهكذا ذهب إلى فراشه متأخرا ، فتمكن إذ ذاك فقط من من إلقاء نظرة على صحف المساء .. وابتسم ابتسامة مريرة عندما طالع أن الاضطرابات قد هدأت دون إراقة دماء فى جميع الأنحاء تقريبا ، بفضل التدابير الحكيمة التى اتخذتها الحكومة الجديدة .. وكانت هذه أكذوبة صارخة جعلت نفسه تجيش بثورة مكبوتة .. ورأى فيما يرى النائم أنه عاد إلى آمارا ، فى ساحة ديوان القرية ، بين الجمع الذين استلقوا على وجوههم ، وإذا بالرائد ينزل ضربا على الرءوس المنكفئة بسيف ثالم قد علاه الصدأ والدماء .. وإذا بالسيف يرتفع فوق طفل ، كانت صرخاته تمزق الهواء ، فإذا به هو يهجم على الرائد ، وينزع سيفه من يده ، ويلقى به بعيدا .. وزأر الرائد :

« إنى ألقى القبض عليك ! .. إنى ألقى القبض عليك ! .. » ورأى الجنود الغاضبة يقبضون عليه ، ويأخذون فى ضربه على وجهه بالسوط .

وفى اليوم التالى ، عندما ذهب إلى دراابلول ، عانقه روزو كأنما هو قد نهض من عالم الأموات ، وأخذه إلى دليكينو ليصف له وسائل التهدئة التى لجأت إليها الحكومة الجديدة .. ورأى سكرتير التحرير ، فى لهفته على تدعيم الجريدة بقصة حافلة بالإثارة ، أن ينشر انطباعات المحرر ، بما فى ذلك الصدام الذى وقع بينه وبين الرائد سفاك الدماء .

قال رئيس التحرير : « لا لا ياروزو ! . . لقد التزمنا التزاما أدبيا بأن نساعد على إعادة الأمن واستقراره ، ومن واجبنا أن نحترم وعودنا ! . . نحن لا نستطيع أن نلجأ إلى الرياء والإثم كما فعلوا ! »

فأجاب روزو . « طيب . . . كنت أتوقع منك ذلك . . فلقد قدر على درابلول أن تعيش ببليدة خاملة أبد الدهر ! »

وبعد عدة أيام ، كان تيتو فى أثنائها يواظب على الحضور إلى المكتب كل صباح ، فيجد روزو أشد كآبة مما اعتاد أن يكون . . وظن بادئ ذى بدء أن السكرتير يعانى من حزن شخصى ، فتركه وشأنه . . وجلس الشاب ، وأخذ فى كتابة هذه الفقرات الصغيرة الرتيبة التى لا لون لها ! . وكان السكرتير يغمغم بين الحين والحين : « شىء مروع ! . . عمل دنىء ! ! . . يالها من وحشية ! ! »

وكانت هذه الانفجارات المسرحية غير خليقة به ، فقد بدا صوته ضعيفا كصوت ممثل ردىء . . وكأنما أدرك الرجل هذا فعاد إلى صمته ، ولكنه ما لبث أن عاود الحديث بعد نحو ربع ساعة ، فقال ساخرا : « ما رأيك فى ثورتنا الآن يابنى العزيز ؟ . لقد انتهت ، أليس كذلك ؟ . . لقد شطبناها من حسابنا ، أليس كذلك ؟ . . لقد شطبناها تماما ولم نبق لها على أثر ! ! »

وجاء تيتو إليه ، كجارى عادته ، إظهارا لاهتمامه . . . « أعتقد أنك لحظت أن العمود المعنون « قلاقل الفلاحين » قد اختفى تقريبا من الصحف ؟ . . إن أعمال القمع إذن قد نجحت ، تماما . . والهدوء قد عم جميع أرجاء البلاد . . ولكن أى ضرب من الهدوء هذا ؟ . . إن آلاف القبور الجديدة تشهد على أن الهدوء التام يسود رومانيا من جديد ! »

وما لبث وجهه أن اربد بعد وهلة ، فاستطرد قائلا : « إن ما شهدته فى آرجس يابنى العزيز ، ما هو إلا لعب أطفال إذا ما قورن بالأعمال الوحشية التى انطلقت من عقالها فى القرى الرومانية منذ أن تولوا مقاليد الحكم . . والحق أن الذين أعدموا أو توفوا فى أثناء أعمال القمع لسعداء الطالع ، لأنهم نجوا من العذاب الذى حوقع بالأحياء . . والأمر كله ، باختصار ، عبارة عن حمام من الدماء ، هو شىء

لم نسمع بمثله فى عصرنا هذا ، ولو فى المستعمرات ، أو بين قبائل الهمج .. ولقد تم كل شىء فى هدوء ، حتى لا تسمع به أوربا ولا بقية العالم .. لقد قصفت المدافع ، وأزالت قرى بأكملها من الوجود ، واستمر انطلاق النار دون انقطاع .. ولقد ألقوا بالضحايا فى قبور جماعية ، دون صلبان ، حتى لا يتخلف أى أثر .. ثم ليس فى وسع أحد أن يعترض . ولا يجرؤ أحد على أن يفوه بكلمة ، لأن مصالح البلد فى خطر ؛ ثم هم بعد ذلك يطالبون ملايين الفلاحين بأن يكدحوا ، وهم يتضورون من الجوع والبرد ، كى يهيئوا الثراء لبضعة آلاف من العاطلين يبددونه ترفا وتبذيرا !.

قال هيرديليا : (وليت الإنسان كان حرا فى أن يعبر عن هذا ! . كان بودى أن أعترض لو كنت أعرف كيف ..)

« هذا خير لك ، وإلا اقضوا عليك ، ونفوك من البلاد كأى أجنبى غير مرغوب فيه . »

وابتسم تيتو ساخرا متعاليا : « أنا ! .. أجنبى ! .. فى رومانيا ! .. »

« لا تنس يا بنى العزيز أنك لست مواطنا رومانيا ، مهما شعرت بأنك رومانى صميم أكثر منهم .. فأنت بمجرد أن تهدد النظام العام ، لن تعتبر أخا لهم ، بل تصبح عدوا ، ومن ثم ... ولكن لا تجزع .. فى مدى أسبوع أو أسبوعين لن تذكر غير ساحات المحاكم ثورة الأمس حين تصدر أحكامها على عشرات الآلاف من الفلاحين الذين جروهم قسرا من جميع الأرجاء ، وملئوا بهم جميع سجون البلد . . أما بعد هذا ، فكل إنسان قد أدى واجبه على ما يرام . وكل إنسان أصبح راضيا قرير العين .. وسوف تعوض الدولة أولئك الذين نهبوا ، وسوف تجزل لهم العطاء ، ليعيدوا بناء ضياعهم ، وينهضوا بها ؛ أما الفلاحون فسيكون نصيبهم ، لو سلكوا مسلكا حميـــدا ، مزيداً من الخطب العصماء . والوعود والكلمات الجوفاء ، لأننا يجب ألا ننسى أنه لابد من حل البرلمان على وجه السرعة ، ولابد من إقامة انتخابات جديدة ! » .

والواقع أنه ، بعد عشرة أيام . لم يعد أحد يذكر اضطرابات الفلاحين ، حتى روزو نفسه .. واشتد حماس الصحف ، وهى تناقش الانتخابات القادمة ،

ولم يعد أحد يقرأ ، إلا لماما وبخاصة فى الصحف الحزبية ، عن ضرورة اكتشاف مدبرى الفتنة ومعاقبتهم . . وحل الربيع فأثار رغبة متدفقة فى الحياة ، وتهيأت المطاعم الخارجية للافتتاح ، وأخذت المقاهى والحانات تحتل أرصفة الشوارع وتشغلها بموائدها . . وعادت النساء الجميلات يتخطرن فى كاليا فيكتورى ، بين الميدان والقصر ، وهن ينبضن شبابا مرة أخرى فى ثيابهن الساحرة ، وأخذ الشباب ، فتية وفتيات ، يتمشون فى الشوارع سعيا وراء مغامرات الغرام ، فكان المرء يسمع كلمات الغزل المعتادة وهى تتبادل على الأرصفة .

وكان تيتو هيرديليا يقضى وقتا قليلا فى غرفته ، رغم أنها كانت غرفة بهيجة بسيطة .. ولكنه عصر ذات يوم ، وقد انتوى أن يكرسه لكتاب طيب ، وجد نفسه أمام السيدة الكسندريسكو ، وابنتها ميمى . . وبغت الشاب . . قالت السيدة إنها كانت تتمشى فى الجيرة ، وإنها اشتاقت إليه جدا ، ومن ثم جاءت فى زيارة عابرة ، فهى لم تنسه ، كان دائما فى غاية الأدب ، وإن كانت ميمى على وجه الخصوص هى التى ألحت عليها قائلة : « هيا بنا يا أمى ولنرى إن كان يتذكرنى ! » ، وأشارت بعدئذ إلى جينتسا ، وكالت له الشتائم ، قالت إنه نذل دنىء تصرف تصرف سفلة القوم ، فأرسل أباه الكهل يخطرها بانتهاء علاقتهما ، ولكنها لقنتهم جميعا درسا لن ينسوه طوال حياتهم.. أما ميمى المسكينة فلم تكن تطيق جين هذا من البداية ، فهو شاب مشغول بحسنه ، ولم يتلق النشأة المهذبة التى تلقتها ميمى عن أمها . . أما هى ، هى الساذجة الوفية : فقد تجاهلت رأى ابنتها ووثقت به .. على أن أشد ما يثير فيها الندم الآن هو أنها ، بسبب هذا الوغد وأخته المسلولة ، قد فرقت بين قلبين حبيبين ، ذلك أن ميمى العزيزة قد جاءت إليها ، وهى الأم الطيبة القلب ، وأخبرتها بمنتهى الصراحة من البداية ، وأخذت تكرر ذلك مرات ومرات بقدر ما فى البحر من أسماك . قالت : « أنا أحبه يا أمى ، أنا أحبه . . . » ، وأخيراً أذن الله وأصبحت ميمى حرة نفسها ، بينما هى قد تخلصت من جينتسا ، و . . . وإذا بها تنهى كلامها فجأة :

والآن هيا ، قبلا بعضكما .. هيا .. أنا لن أنظر إليكما ! ! » .

وطوقت ميمى عنق تيتو بذراعيها ، ووضعت شفتيها على شفتيه ، أما الشاب

فقد كان فى حيرة من أمره ، وارتبك من الموقف كله ، فمغمغم ببضع كلمات مهذبة زادته ارتباكا على ارتباكه .. وأخيرا دعته السيدة الكسندريسكو إلى زيارتهما، وإذ هما ينصرفان تلكأت ميمى قليلا وقالت : « إياك أن تنسى زيارتنا ياصغيرى ! »

ودفعت هذه الحادثة تيتو على الذهاب لزيارة تانتا ثانى يوم مباشرة ، وكانت الفتاة تسكن مع والديها خلف المحطة .. وكان لم يرها منذ عودته من الريف قبل أسبوعين . كذلك لم تأت هى لزيارته ، ولم يجرؤ هو على السؤال عليها .. ورحبت به الأسرة كلها أجمل ترحيب ، أما تانتا فقد تألق وجهها سعادة وفرحة ودهشة .. وصافحه جين دون كلفه ، كأنما قد افترقا بالأمس القريب .. ودار الحديث فى الغالب حول زواج جينتسا . . وكان الرأى . قد استقر على أن يعقد القران بعد عيد الفصح بأسابيع قليلة ، ووجه الشاب الدعوة إلى تيتو ليكون أحد فرسان الشرف(١٣) فى حفل الزواج . . ووافق تيتو على شرط أن تكون فى رفقته — إشبينة — عروس حسناء ، أو تانتا بمعنى أصح . . وترقرقت الدموع فى عينى السيدة ، واغتصب الوالد نفسه ابتسامة . .

وكان ذلك قبل وصول جريجور أيوجا إلى بوخارست بثلاثة أسابيع .. وعلى الرغم من التعب الذى كان يرتسم على ملامحه ، فقد برقت فى عينه ثقة جديدة .

قال يجيب عن تساؤل تيتو : « لقد عاد بالطبع جميع أولئك الذين سبق أن ولوا الأدبار . . كذلك عاد بلاتامونو ، دون ابنه ، والأرجح أن الفتى يقيم فى أحد المستشفيات . . الموتى وحدهم هم الذين لا رجعة لهم !! » .

وأراد تيتو أن يسرى عنه ، فحاول أن يغير الموضوع ، ولكن جريجور استرسل فى هدوء : « لقد بدأنا وانتهينا من زراعة الربيع . . ولقد عاد الناس إلى الحقول كأنما كانت الثورة كابوسا مزعجا لا أكثر . كذلك استأنف القوم العمل ببهجة أشد ، هى نوع من اليأس الصامت .. ولكن من أسف أن ربع عدد الفلاحين هم فى السجن فى بيتستى .. ولقد أصبحت معظم أقبية المبانى العامة فى المدينة عبارة عن زنزانات سجن .. نحن لا نتعلم شيئا من أية مأساة .. هذا

فضلا عن أن النقص فى الأيدى العاملة فى الظروف الراهنة هو خسارة كبيرة للاقتصاد القومى .. على كل حال ، نحن نبذل قصارى جهدنا لنمسح آثار العاصفة؛ والطبيعة نفسها تساعدنا فى هذا .. فهناك دفعة من الحياة الجديدة فى كل مكان.. فالأشجار مورقة فى الغابات والبساتين ، والربيع قد أسدل رداءه على الخرائب التى سبيتها الحرائق ، وعلى الأطلال والرفات ... » .

قال تيتو : « والناس ؟ ! » .

فأجاب جريجور : « الله وحده يعلم ! . . أنا كلما أتكلم مع فلاح كان قد ضرب ، — وكل منهم ذلك الرجل — يساورنى الشعور بأنهم غير نادمين على شىء ، بل على النقيض .. هناك سؤال واحد ما زال يتردد فى ذهن كل منهم ، وهو سؤال لا يمكن أن يقتلعه أى ضغط أو إرهاب ، وهو : « كيف يمكن أن نعيش بدون أرض ؟؟ » .

— ٥ —

عقد جريجور اجتماعات طويلة مع فيكتور بريديلينو يستشيره فى شئون الزراعة .. فهو الآن ، بعد أن قدر له أن يصبح سيد ضيعة آمارا لا يشاركه فيها أحد ، أراد أن يضع موضع التنفيذ الخطط التى سبق أن ارتآها لإعادة تنظيمها .. وكان هو فى حاجة ماسة إلى خبير زراعى حاذق وأمين ، يتخذه زميلا مخلصا ، ويستطيع أن يعتمد عليه عند وقوع أى طارئ .. ولقد عزم على أن يستقر فى بوخارست ، شأنه شأن بريديلينو ، فلا يذهب إلى الريف إلا فى أثناء موسم العمل ، ولم يكن فى نيته إطلاقا أن يعيد بناء الفيلا المحترقة ، أما لو دعت الضرورة ، فقد أزمع على تجديد البيت القديم الذى نجا من غضب النيران .

وأخذ بريديلينو يبحث ويتقصى حتى عثر على الرجل المناسب ، وكان شابا وسيما ذكيا نشيطا لطيفا ، ذا خبرة بالزراعة عدة سنوات قضاها فى ألمانيا حيث عمل ناظرا لمزرعة نموذجية كبيرة تملكها الدولة ، فأتى هناك بنتائج باهرة .

قال بريديلينو وهو يقدم إليه الشاب . « ها هو ذا . اسمه ستيليان هالنجوا أتراه أعجبك ؟ .

وابتسم جريجور وقال : « نعم أعجبنى .. وأرجو أن نكون أصدقاء » .

وأراد جريجور ، قبل أن يذهب بالناظر الجديد ليتولى مهمته فى آمارا، أن يفرغ من بعض المسائل التى قد تترتب عليها نتائج ذات شأن فى المستقبل، لكونها أثرا من آثار الماضى .. كان عليه أن يبحث مع جوجو أبونيسكو موضوع قبر ناديا ، فقد رأى أنه ليس من حقه أن يقرر شيئا بشأن هذا الموضوع بنفسه فهى ليست إلا زوجة له اسما فقط ، بسبب هذا الإجراء الشكلى التافه الذى لم يوضع موضع التنفيذ .. وكان جوجو لا يزال حزينا أشد الحزن ، ومع ذلك فقد رأى أن القدر قد دفع بها إلى الريف فى تلك الأيام الخطرة، ولهذا فإن روحها التى ظلت فى هذه الحياة الدنيا أشد ما تكون قلقا ، لن تنعم بالاستقرار فى أى مكان آخر غير ذلك الذى لقيت فيه حتفها .. وكان من رأيه أن يذهبوا جميعا إلى الريف ، حين يقام حفل تأبينها بعد أن ينقضى على وفاتها ثلاثة شهور.. وانتوى جوجو فى نفس الوقت أن يبيع ضيعته وربما ضيعة ناديا أيضا التى فى باباروجا .. والحق أن الأحداث قد هزته هزة عنيفة . ولم يعد فى طوقه أن يعيش أو يتحمل البيت الذى فتك فيه الوحوش بأخته .

قال جريجور : « بعها إذن للفلاحين .. لقد دفعوا ثمنا من دمائهم يخول لهم الحق فى شرائها » .

فصاح جوجو فى رعب : « لا لا .. لا أريد أن تكون لى علاقة بالفلاحين. ولا أريد أن أتصل بهم بعد ، حتى ولو من أجل العمل. إنما أنا قد عزمت على أن أبيعها إلى أحد البنوك ، ويستطيع البنك ، لو شاء ، أن يوزعها بينهم .. الضيعة لا فائدة منها بالنسبة لى ياعزيزى جريجوريتسا ،فأنا لا تربطنى بالأرض نفس الروابط التى تربطك بها ... إنما أنا رجل من أهل المدن ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعلنى لن أنسى أبدا جرائمهم التى حطمت فؤادى ؛ بل ولن أغفرها لهم قط ! »

وقام جريجور بزيارة دوميسكو أكثر من مرة بمصرف رومانيا — وعرض الرجل، إجلالا لذكرى صداقته لميرون أيوجا ، أن يعينه على اجتياز متاعبه المالية،

ولكن الشاب لم يشأ أن يتقبل أى تعويض من الدولة ؛ مثل هؤلاء الضحايا الآخرين الذين تدافعوا الآن يتسولون ويبالغون فى تقدير خسائرهم ، استغلالا للكارثة التى حاقت بالبلاد.. وكانت الفيلا وحدها، دون غيرها، هى التى كان مؤمنا عليها.. ولو أن شركة التأمين قامت بتنفيذ العقد ودفعت تعويضا عن الخسائر حسب قيمتها، فإن فى وسعه أن يسدد دينه على المصرف.. وأن يصلح كذلك المبانى الخارجية والأجهزة الأخرى، ولكن دوميسكو كان يرى أن شركات التأمين لن تدفع تعويضا، لأنها سوف تعتبر الثورة حالة من حالات «القوة القاهرة» ومن ثم تبطل ما عليها من التزامات. ولعل من الخير أن تصدر الحكومة تشريعا يقضى على هذه المشكلات التى نجمت عن هذه الظروف الاستثنائية، على أنه أى دوميسكو سوف يبحث الأمر.

وذهب جريجور بعدئذ فتوسط لدى السلطات واستطاع أن يحصل على موافقتها بتعيين ابن الأب نيكوديم فى المكان الشاغر فى آمارا ؛ وهكذا حقق رغبة القس الشيخ، وهى الرغبة التى لازمته طوال حياته، وإن كانت لم تتحقق إلا بعد وفاته : والواقع أن القس الشاب قد أسرع عائدا إلى موطنه من بلده النائى، جورغ، حيث مقر أبرشيته ليحضر جناز أبيه ، وليساعد نيكولينا حتى يتم إطلاق سراح فيليب الذى كان رهين السجن مع غيره فى بيتستى

وتوقف جريجور فى بيتستى وهو فى طريقه مع الناظر الجديد إسهاما منه فى إرضاء الناس ، فعمل على إطلاق سراح المعلم دراجوس على الأقل..

وأخيرا استعادت آمارا مظهرها المعتاد.. عاد بوزوك صاحب الخان يقف على عتبة دكانه، وقبعته إلى مؤخرة رأسه، وكرشه بارز إلى الأمام وأخذ يتبادل الكلام مع عابرى السبيل — وأكثر العمدة أيون برافيلا من التردد على الخان ليتعاطى بضعة كئوس من الشراب يستعيد بها نشاطه لمواجهة المشكلات العديدة التى نشأت عن الثورة..

قال صاحب الخان : «ما قولك فى الناس يا سيادة العمدة؟ هل سيطلقون سراحهم يا ترى أم سيتركونهم يتعفنون فى السجون !»

قال العمدة : « إنهم لم يستمعوا إلى يا كريستى.. لقد جن جنونهم، ولم يعودوا إلى صوابهم إلا بعد أن وقع المحذور ... السيد جريجوريتسا هو فقط الذى يشعر بالشفقة علينا ، وهو الذى أنقذ من فى السجون كما أطلق سراح السيد دراجوس. .

ولكن ماذا عن التعويضات ؟ أتراهم يزمعون تنفيذها ؟ أم سوف نخرج نحن صفر اليدين ؟ قالها كريستى مستطردا ، فهو قد سجل اسمه فى آمارا وفى بيتستى بوصفه أحد أصحاب الحقوق ، آملا بهذا أن ينال مبلغا طيبا يعوضه عن محنته ..

قال برافيلا : «آمالنا فى هذا أيضا معقودة على السيد جريجوريتسا ، ولن يساعدنا أحد غيره من الآن فصاعدا...»

وكان الكاتب دوميتريسكو يعمل بمكتب العمدة، وهو غارق فى الأوراق، لأن العمدة كان مشغولا بمركز الشرطة وبيت الدائرة ، أما الرقيب بونجيو فكانت أمنيته أن يواصل التحقيق حولا كاملا ، لو لم ينصحه جريجور بالتوقف والتزام الهدوء .

وكثيرا ما كان بونجيو يحدث العمدة فيقول معاتبا « أنت لم تشأ أن تصدقنى عندما كنت أقول إن آمارا قرية من اللصوص .. والآن هأنت ذا ترى بنفسك .. ولكن اترك الأمر لى فأنا من الآن فصاعدا سأهتم بهم.. »

كذلك استعاد البيت القديم شبابه ، فكنت تراه قائما ، فى حلته الجديدة من الطلاء الأبيض ، وقد حفت به الأشجار المورقة . . وأزيلت أطلال الفيلا ، وحلت محلها أحواض الزهر . فبدا المكان فسيحا أليفا . . وكان الناظر هالونجا يدير الضيعة كأنما كان يعمل فيها طيلة حياته . . كان يبث الثقة به فى نفوس الفلاحين ، بكلامه الحلو وأساليبه الرقيقة ، الأمر الذى تتطلبه ظروف الحال ، وبالمثل الذى يضربه لهم بنشاطه وكده .. أما ازبازيسكو فهو وحده الذى بات على القذى متألما ، فقد اعتبر الناظر الجديد مغتصبا للوظيفة التى كانت من حقه هو وحده ، وفق ما يقضى به العرف والعدل ؛ وبخاصة لأنه عانى الكثير جزاء ولائه للشريف الشيخ .. ولهذا كان يرقب الناظر الجديد بحقد خفى .

وكان جريجور يدعو الفلاحين لزيارته ، أيام الآحاد ، فيستمع بنفسه إلى متاعبهم وشكاواهم .. وكانت هي هي نفس الشكاوى ، ولكنهم يقولونها الآن بتحفظ أشد ، ومحورها نقص الذرة ، وعبء الديون ، وحاجتهم إلى الأرض .. ولم يتطرق أحد بالكلام في أي حدث يتصل بالثورة ، وكان جريجور عندما يسألهم عنه يتلقى إجابة واحدة : « لقد تحمل الناس كثيرا يا سيد جريجوريتا .. وهكذا شاءت الأقدار ! » ، على أن لوبو شيريتو هو وحده الذي جرؤ فقال ذات مرة : « إن ساعة الحساب لم تدن بعد يا سيد جريجوريتسا ، ولكنها لابد آتية يوما من الأيام ، لأن الدنيا لا يمكن أن تعيش بدون عدل ! »

وكان كوزما بيريونا يأتي دائما يلتمس النصح والمعونة ، وليشكو على وجه الخصوص .. لقد تركزت أمانيه كلها على التعويض الذي سيتلقاه من الدولة ، وإلا حاقت به خسارة أي خسارة ، ذلك أن الفلاحين لم يبقوا على شيء عنده .. وعلم جريجور منه أن العقيد ستيفانسكو قد أطلق بنفسه النار ، في لحظة من الغضب ، على ثلاثة من فلاحي فلادوتا الذين ثبت عليهم إشعال النار في بيت الدائرة .

وفي نهاية شهر مايو ، بعد أن ألف هالونجا الأحوال في آمارا ، عاد جريجور إلى بوخارست مرة أخرى ، قائلا : إن الأمر يتطلب وجوده الآن في العاصمة ، كي يكون إلى جوار دوميسكو ، وكي يسارع إلى إيجاد حل للشكلات المالية .. ولكنه كان يعلم في صميم نفسه أن الشيء الذي جذبه إلى بوخارست كان أكثر أهمية من ذلك ، بل هو من الأهمية بحيث يتوقف عليه مستقبله كله ..

فلما كان هناك ، ترك الأيام مع ذلك تمضي دون أن يشغل نفسه بالأمور التافهة ، كأنما كان يؤجل عامدا المسائل الكبرى .. وقلت زياراته لآل بريديلينو معتذرا بمشغوليته في أمر خطير يتصل بآمارا .. وكان باولينو قد تخلى عن منصب الوالي منذ أن حل البرلمان ، ليرشح نفسه في الانتخابات ، ومن ثم عاد إلى مقره في العاصمة. وكان جريجور يزوره كل يوم تقريبا ، كما سبق له أن عكف على زيارة آل بريديلينو .. على أن الدافع لهذه الزيارات لم يكن الغرض منه تجديد أواصر الود بينهما ، ذلك أن المحامي ، بعد أن استقال من منصبه ، عاد إلى آرائه السياسية المتطرفة عن مشكلة الفلاحين ، وأخذ يردد مرة أخرى العبارات الجوفاء التي ضاق لها صدر جريجور.

قال بالولينو ذات يوم بعظمة وأبهة : « يجب أن يكون أول قانون تتقدم به هو عفو عام يلأم جراح المأساة الأخيرة ، ويبعث الطمأنينة الصادقة فى كل النفوس . لقد تقطرت قلوبنا دما عندما اضطررنا إلى إعادة الأمن فى ربوع الريف ؛ أما الآن ففى وسعنا ، ياعزيزى جريجوريتسا ، أن نعدل بين الناس أيضا .. ولابد أن نطلق سراح آلاف المساكين الذين يملئون السجون ، فيعودوا إلى بيوتهم ، تائبين نادمين ، وذلك كى يواصلوا عملهم من أجل تقدم رومانيا . »

وكان جريجور حريصا على أن يستخدم بالولينو كى يحصل على وظيفة من أجل تيتو ؛ فالشاب قد علم من روزو حقيقة وضعه فى الدرابلول ، وكان فى حال من اليأس خشية أن يلقى به إلى عرض الشارع . . واستطاع المحامى أخيرا ، عن طريق الأمين العام لوزارة أراضى التاج أن يحصل له على وظيفة فى إحدى إدارات هذه الوزارة .

وتساءل بالولينو ، وهو فى غاية التأثر ، عندما دعاه جريجور لزيارة بالولينو ليخبره بهذا النبأ بنفسه : « وما هو العمل الذى سيسند إلى ؟ »

فقال بالولينو مرحا : « عليك أن تحضر أول كل شهر لتقبض مرتبك » . . وعليك أن تكتب الشعر إن استطعت إلى ذلك سبيلا الآن . . » أو أن تتزوج إن شئت . »

وتضرج وجه هيرديليا الشاب ، كأنما قد انكشف الغطاء عن السر الذى كتمه فى أعماق نفسه . . ولكنه كان من سرعة البديهة بحيث أجاب : « أعتقد أن هذا الاقتراح الأخير أجدر بالسيد إيوجا وأليق . »

فأجاب جريجور ، بعد فترة من الصمت ، فى شىء من الجد : « هذا ليس بالاقتراح السيىء على كل حال . »

— ٦ —

فى حوالى منتصف يونيو ، استقر عزم جريجور ، بعد أن فشل فى الوصول إلى شىء بهذا الصدد ، على أن يعود إلى آمارا ، وألا يرجع إلى بوخارست قبل الخريف، وذهب ، قبل رحيله ، يودع آل بريديلينو . وكان فيكتور وحده ، إذ هبت تيكلا وأولجا تتسوقان . . وخاض الرجلان شتى الموضوعات ، وبخاصة فى الخسائر التى نزلت بآل بريديلينو فى ديلجا . . وهى خسائر لم تكن فى حقيقة الأمر ذات بال . . وإذا بجريجور يغير الموضوع ، ويتساءل :

« أتظن يا فيكتور أن أولجا تحب أن تكون زوجة لى ؟ . . أرجوك أن تجاوبنى بصراحة ، وألا تلق بالا إلى مشاعرى ، لأننى . . »

وابتسم بريديلينو ابتسامة حلوة : « وما رأيها هى ؟ . . هل سألتها ؟ »

وعندئذ أفشى جريجور مكنون صدره ، فقال إنه متيم فى هواها ، وأنه صارع نفسه عبثا ، فقد تعب من هذه الحياة ، وأراد أن يبدأ من جديد . .

وتركه بريديلينو يفضفض عن فؤاده ، وهو يستمع إليه جادا كما تقتضى هذه المناسبات .

وأخيرا قال : « أصغ إلى ياعزيزى جريجوريتسا . . أنت تقول إنك تريد أن تذهب إلى آمارا فى الغد . . أنا أرى أن تؤجل سفرك أربع وعشرين ساعة . . أولجا ستسافر إلى بلدها بعد غد ، وفى مقدورك أن تصحبها ، وترفه عنها فى رحلتها . . بل ويمكنك أن تذهب ، وتزور والديها فى كرايوفا . . لست أدرى لماذا أحس أنك لن تندم على هذا . . »

وكان من المقرر أن يتحرك القطار فى الخامسة ؛ ولهذا ذهب جريجور إلى المحطة الساعة الرابعة . . وجاء تيتو أولا وقد حمل باقة صغيرة من الزهور البيضاء . . فقد أخبره جريجور بالأمس ، فى لحظة نشوة ، وهما يتناولان الطعام معا ، أنه سعيد غاية السعادة لأنه وقع فى هوى الآنسه أولجا بوسليلنيكو . . وأراد أن يكون أول

من يهنىء أوجا بإهدائها باقة من الزهور على الأقل ؛ لأن دواعى اللياقة لاتبيح له بعد أن يزجى إليها التهنئة فى كلمات . . كذلك أراد أن يحكى لجريجور عن فرحته الكبرى بالأمس . . فهو ، بعد أن افترقا ، قابل دليلكينو فأبلغه . . إلحاح من روزو بطبيعة الحال . بأنه سيبقى محررا بجريدة الدرابلول بنفس المرتب ، لأن الجريدة فى حاجة إلى خدماته . . وصاح هيرديليا الشاب وعيناه تبرقان : « أنا من الآن فصاعدا لايهمنى شىء . لقد شعرت أول الأمس بأننى نفاية من النفايات ؛ أما الآن فأنا اليوم صاحب مرتبين ! . . أنا والحق يقال سعيد الحظ ! »

وكان قد ذهب إلى تانتا ليذيبها بطالعه الحسن . وصحبته الفتاة إلى المحطة ، وكانت تنتظره وقتئذ فى دكان حلوانى فى كاليا جريفيتى ، إذ كانا يزمعان قضاء بقية النهار معا ...

وبينما تيتو يثرثر فى حماس ، وجريجور ينتظر فى لهفة ، جاء قطار فتوقف فى المحطة . . ولحظ جريجور ، وجمهور المسافرين يهرع نحـــو باب الخروج ، إيلى روجو جينارو الملتزم الذى يعمل فى أولينا . . وأشاح أيوجا الشاب برأسه مضطربا ، ولكن الملتزم لمحه ، فأسرع إليه ، وهو يتألق بشرا ، ويتفصد عرقا ، والحقيبة فى يده . . قال : « أتذكرنى ياسيدى ؟ » ثم وضع حقيبته على الأرض ، ومسح وجهه ورأسه الأصلع بمنديل كبير ، ثم استأنف الكلام بلهجة مختلفة ، وهو يومىء برأسه فى أسى : « لقد سمعت وقرأت ما حل بك ! » وأفاض الرجل فى الإعراب عن أسفه لوفاة ميرون أيوجا ونادينا ؛ ثم تساءل عن الدمار الذى أصابهم ، وعما إذا كانوا قد أخذوا تعويضا ، وعما إذا كان عدد القتلى من الفلاحين كبيرا ؛ وكان يلقى بهذه الأسئلة كلها وهو لا يفتأ يقاطع نفسه باستمرار وهو يبدى ملحوظة بعينها : « ألم أقل لك دائما إن الفلاحين أوغاد ؟ . . ألا تذكر ؟ »

ثم شرع يقص ، منتشيا ، جميع التفصيلات عن كيف تمكن من إنقاذ ممتلكاته . . فهو لو كان قد تأخر يوما واحداً فقط ، بعد أن التقى بهم فى القطار ، لما وجد شيئا غير التراب والأنقاض فى انتظاره . . ذلك أن الفلاحين فى دولجى ، وهم أكثر من غيرهم وحشية ، قد انطلقوا يشعلون النيران فى البيوت ، كما أخذوا

ينهبونها .. ولقد ذهبوا إلى بيته أيضا .. « لقد قالوا كذا وكذا ، وقالوا أعطنا الضيعة وإلا كان مصيرك الموت » وعندئذ ماذا تظنني قد فعلت ؟ . لماذا لا أكون أنا أبرع من هؤلاء الأوغاد ؟ .. » ولهذا وافق الرجل على أن يسلمهم الضيعة راضيا ، بكل ما عليها . على أن توزع فيما بينهم حسبما يتراءى لهم .. وتعهد لهم أن يدفع تعويضا عن الضرر الذى يلحق بالمالك إذا رفع دعوى ضده .. بل إن الفلاحين . مغالاة منهم فى الاطمئنان « حرروا عقدا ، وختموه . ووقعوه فى ديوان القرية .. وسمح له الفلاحون « لقاء هذا ، أن يبقى فى بيت الدائرة حتى تنتهى الثورة .. ثم مالبث الجيش أن وصل بعد يومين . وأنزل بهم ما هم أهل له من عقاب ! .. وهنا ضحك الملتزم راضيا « وأضاف ، « — هكذا نفدت بجلدى ياسيدى — . ونجوت من سخط الأوغاد ! »

وغضب جريجور من سخرية الملتزم « فقال ببرود ، « نحن إذا لم نتعلم درسا من هذه المأساة .. » ولكن روجوجينارو قاطعه مهتاجا : « ماذا تريدنا أن نتعلم ياسيدى ؟ .. أن نكبح جماحهم ، أم نطلقهم من عقالهم ليذبحونا ذبح النعاج ، كما أقدموا على ذلك فعلا ؟ .. لا ، لا ياسيدى ! .. ألق بهذه الآراء التى تطالعها فى الكتب إلى النيران ؛ وابدأ فى النظر إلى الفلاحين كما هم على حقيقتهم .. دعهم يعملون ، ولا تتركهم يتعودون على أن يترقبوا من الدولة أن تعطيهم ما لا يستطيعون كسبه بعرق جبينهم ! .. لا تظن أن الفلاح يقنع أبداً ؛ .. أنت لو أعطيته الأرض بالمجان غدا ، فسوف يطالب بالماشية بالمجان أيضا ، ثم بعدئذ يطالب بالمال كذلك .. ولا نهاية لمطالبه أبداً ... »

« لقد نالوا طلقات الرصاص بدلا من ذلك ! » غمغم بها جريجور فى كآبة .. فهتف الملتزم وهو يشد قامته : « ربما كنت تريد منا أن نقدم إليهم كعكا ساخنا ، وتهانى من أولى الأمر ! .. أنا آسف ياسيدى !! .. ولو كنت تتكلم هكذا ، أنت الذى قاسيت مالم يقاسه أحد آخر ، فماذا يمكن أن نتوقع من الغير الذين .. »

وإذ ذاك ظهر آل بريديلينو ، لشدة فرحة جريجور ، فترك روجوجينارو وهو يغمغم بجانب حقيبته .. أما أولجا فقد شكرت تيتو على الزهور .

قال بريديلينو وهو يصافح هيرديليا الشاب .. « الشاعر لايخيب الظن فيه أبداً ! »

« وبخاصة إن كان ذلك من أجل سيدة شابة فاتنة ! » قالها الشاب ، والقبعة في يده ، وهو يرى بنظرة إعجاب إلى جريجور .

وكانت السيدة تيكلا بريديلينو أشدهم اهتياجا ، فقد عز عليها ألا تأتى بأولادها لوداع أولجا ، رغم أنهم سوف يذهبون إلى الريف جميعا بعد يومين ، فيميلون على كرايوفا ، ويبقون بها زمنا قصيرا .. أما جريجور فقد كان سعيدا مضطربا ، يبتسم طوال الوقت دون أن ينظر إلى أولجا ..

قال بريديلينو : « هيا .. هيا .. اصعدا إلى العربة .. لم تبق إلا ثلاث دقائق ! »

وقال جريجور يخاطب تيتو : « أرجو أن تأتى وتزورنا فى آمارا مرة أخرى ! »

« لو أرسلتم إلى دعوة فسوف أتقبلها دائما بسرور ! » قالها تيتو ، وهو يعانقه هو وأولجا بنظرة واحدة .

وأخذ القطار ينساب فى هدوء بحيث لم يشعر أحد بحركته .. وكانت أولجا وجريجور يبتسمان من نفس الشباك إلى أولئك الذين وقفوا على الرصيف ، وكانوا جميعا يرددون كلمة واحدة : « الوداع .. الوداع .. »

واختلطت الأصوات ، وخفتت ، ثم ما لبثت أن ضاعت فى ضجيج العالم الذى تزايد حولهما .

حاشية على النص

---

١ ــ البوجون : مقياس للأرض وهو يعادل فدانا وخمس الفدان

٢ ــ البراجا : مشروب من الشعير المخمل والعسل

٣ ــ ترانسلفانيا : كانت ولاية ترانسلفانيا ، فى ذلك العهد ، تشكل جزءاً من إمبراطورية النمسا والمجر . . على أن سكانها كانوا فى الأغلب الأعم من أهل رومانيا .

٤ ــ استرا : جمعية ترانسلفانية تهدف إلى ترقية الثقافة الرومانية .

٥ ــ الدولكيتا : مربى من الفاكهة تقدم فى طبق صغير ، مع كوب من الماء

٦ ــ الدوينا : أغنية شعبية تقليدية

٧ ــ الكاكيولا : طاقية من الفراء يلبسها الفلاحون فى رومانيا

٨ ــ المامااليجا : عصيدة من دقيق الذرة ، وكانت حتى وقت قريب هى الطعام الأساسى الذى يتناوله الفلاح الرومانى

٩ ــ ميخائيل الشجاع : هو حاكم مقاطعة والاشيا فى الجنوب على نهاية القرن السادس عشر ... وكان أول من حاول توحيد رومانيا ، وذلك بضم ولاياتها الثلاث وهى والاشيا وترانسلفانيا ومولدافيا.. ثم اعتلى عرش رومانيا كلها ، ولكن مغامرته لم تلبث أن فشلت بعد سنوات قلائل ، ويرجع ذلك إلى ضغط الأتراك .

١٠ ــ الفتاريوطيون : هم نبلاء من اليونان حكموا والاشيا ومولدافيا فى ظل الإمبراطورية التركية .

١١ ــ الكسكرو : لقب يعطى لوالد الزوج أو الزوجة

١٢ ــ فرسان الشرف : تقضى تقاليد الأفراح الرومانية أن يصحب أشبينة العروس رجل من رفاق العريس

الثمن ٣٦,٥ قرشاً

Bibliotheca Alexandrina
0433350

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧